أحمد أوميت

AHMET ÜMIT



الدُّمْيَة

KUKLA

رواية



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الدمية

KUKLA

الدمية

KUKLA

رواية

أحمد أوميت

AHMET ÜMIT

ترجمة

مهتاب محمد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة





يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة الإنكليزية عن الأصل التركي
KUKLA
تأليف AHMET ÜMİT

Published by arrangement with Kalem Agency
نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع
Translation is sponsered by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu
Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası)
Ulus/ANKARA/TURKEY 06030
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr – Web: www.tedaproject.com
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونيًا من
Kalem Agency, Ensiz Sokak No. 2–3 Beyoglu Tunel Istanbul, Turkey
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: 2016 م – 1437 هـ

ردمك 978-614-02-2751-4

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 1102–2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

الإهداء

إلى صديقي العزيز ألبارسلان بايرامغيل.

بينوكيو والشرطة:

»لو سمحتم، هل لي بإحضار قبعتي؟ «سألهم.

»خذها، ولكن بسرعة.«

أخذ الدمية قبعته؛ ولكن بدل اعتمارها أمسك بها بين أسنانه بقوة، وأسرع راكضاً باتجاه البحر .ولأن الشرطة كانت تعتقد أن الإمساك به صعب، فقد أطلقت وراءه كلب التلبوت الذي أحرز المرتبة الأولى في جميع مسابقات الكلاب للجري .كان بينوكيو يركض بسرعة ولكن الكلب كان أسرع .وقد أطلّ الجميع من النوافذ وخرجوا إلى الشوارع لمعرفة نتيجة هذا السباق المرعب، ولكنهم لم يتمكنوا من رؤية نهايته؛ ذلك أنّ بينوكيو والكلب أثارا غباراً كثيفاً كان يحول دون رؤية العين للعين.

بينوكيو، كارلو كولّودي .ترجمة :أولكو تامر.

دار رمزي للنشر .صفحة.90

الفصل الأول

عندما وصلت إلى مبنى الجريدة كان الوقت قد شارف الظهيرة، وتوقف المطر الذي كان ينهمر منذ الصباح، وبدأت الشمس تظهر متلألئة تبتسم بجرأة بين الغيوم الرمادية، وبينما كنت أترجّل من سيارتي التقيت تولغا، الذي كان يحمل حقيبة التصوير ويسرع الخطى .توقف حين شاهدني.

-مرحباً سيد عدنان —أردف وهو يلمس هيكل سيارتي —عنقاؤك لا تزال سليمة.

)العنقاء (هو لقب سيارتي البليماوث موديل الأربعة وخمسين، وقد أطلق المرحوم توفان هذا اللقب على السيارة التي ورثتها من والدي حال رؤيتها.

-بالطبع ستكون سليمة، أنسيت سيارة من هي؟

-صحيح ..صحيح .ولكن من الأفضل لو يأتي مالكها إلى الجريدة في وقت أبكر.

لم أبالِ بتعليقه، فقد كان أكثر من أحبهم ضمن ثلة الشباب في الجريدة، وبالرغم من لامبالاته إلا أنه كان بارعاً في عمله .قبل عامين، أي قبل أن أفقد رغبتي في الصحافة برمتها، كنت أصطحبه معي على الدوام.

-أنت لم تتعلّم أصول هذه المهنة بعد —قلتها وأنا أومئ برأسي مؤكداً —القدوم باكراً منوط فقط بالمستجدين، أما المتمرسون فلا يأتون قبل حلول الظهيرة.

غطت ابتسامته كامل صفحة وجهه الوديع، ولوّح بيده مودعاً وهو يتجه نحو سيارة الأوبل البيضاء المركونة بانتظاره.

في المقعد الخلفي للأوبل كان يجلس شكيب إينجي الذي أعلن نفسه خبير المحققين الصحفيين .وعندما شاهدني أنظر إليه، أدار رأسه ليتجنّب السلام عليّ .هذا الرجل كان فيما مضى لا يفارقني ولو للحظة واحدة، ولكن منذ أفول نجمي في الصحافة بات يبتعد عني .وها هو اليوم يتجنّب السلام عليّ أيضاً، ويبدو أنه يريد قطع علاقته بي بشكل نهائي .ما الذي أستطيع قوله؟ إنه شخص ذكي. أدرت ظهري له، واتجهت نحو مبنى الجريدة، ذلك المبنى الذي هو مزيج من الحديد والإسمنت والزجاج، يعتبر من أكبر أبنية البلقان والشرق الأوسط .عندما استدرت باتجاه الباب وجدت اثنين من زملائي، وهما يدخنان سيجارتيهما بشراهة .فبعد قرار منع التدخين في الأماكن العامة، لم يعد من المسموح لنا أن ندخن بحرية داخل الجريدة .وقد كنا نشعر بالغبن نتيجة نقل مقر الجريدة إلى هذا المكان النائي خارج المدينة، لذا قررنا الاجتماع، نحن المدخنون، من أجل مناهضة قرار منع التدخين داخل المبنى الذي اعتبرناه ظلماً واضحاً، ولكننا إزاء إصرار المدير، أرغمنا على تجرع حاجتنا من جرعات النيكوتين في الخارج غير مبالين بالأمطار أو الثلوج المتساقطة.

ألقيت التحية على زميليّ المدخنين، وأنا أقترب من الباب الزجاجي الذي أطلقت عليه اسم الفانوس .وعلى وقع خطواتي فُتح باب الفانوس الزجاجي ليحتويني داخل مبنى الجريدة .ولكن لا تظنوا أنّ معاناتي قد انتهت، فهناك الآن الباب الأمني الذي يقف أمامي كقلعة يصعب اجتيازها .عبرته بعد أن أعطيت هاتفي النقّال ومفاتيح سيارتي لموظف الأمن الواقف بالقرب منه .وكما أفعل دوماً حين دخولي الجريدة، أومأت برأسي ثلاث مرات إلى موظفي الأمن .قرّبت بطاقتي من جهاز التوقيت، ودخلت المبنى بخطوات واثقة .ولكن ما هذا؟ حالت البوابة الحديدية دون مروري .ظننته في البداية عطلاً فنياً، فقرّبت البطاقة مرة أخرى من الجهاز ولكن من دون طائل، فقد كان الحاجز الحديدي ثابتاً ومصراً على عدم

السماح لي بالعبور .اقترب أحد موظفي الأمن الذي أشفق على حالي، فأخذ مني البطاقة وجرّب أن يلامس بها الجهاز ولكن من دون طائل، فالجهاز لم يتعرف إلى بطاقتي حقاً .وبينما كان الموظف يقلّب بطاقتي بين يديه، انتابني الهلع وفكرت؛ لقد طُردت .لا بد أنّ هذا ما دفع شكيب إينجي إلى تحاشي النظر إليّ، لأنه كان يعرف بأنني طُردت .فمن المؤكد أنّ المدير قد ناقش الأمر معهم، وذلك ليعرف رد فعلهم مسبقاً .وطالما أنه تم طردي بالفعل فهذا يعني أنّ ما من أحدٍ معارض .ربما عارف ولكنني لا أظن، فلو كان عارف معارضاً لاتصل بي وأخبرني .يبدو أنه قد تعب من محاولات الدفاع عني .وبالرغم من ذلك لم أمنع نفسي من الشعور بالحنق عليه، فما كان للأمر أن يكلفه سوى اتصال هاتفي، يجنّبني هذا الإذلال العلني أمام الجميع.

للحظة فكّرت بالقفز فوق الحاجز الحديدي وافتعال مشكلة مع عارف، وثلة الأوغاد الآخرين، ولكن رغبتي هذه خمدت بمثل سرعة اشتعالها .فهم لا يستحقون هذا العناء، والأهم من ذلك أنني لا أملك الطاقة لفعل ذلك .لقد وقع المحظور ومن الأفضل الظهور بمظهر اللامبالي .حبست سورة الغضب التي تعتمل داخلي، ووضعت قناعاً من الثقة على وجهي، وشكرت موظف الأمن وأنا آخذ بطاقتي من يده .وبينما كنت أتجه نحو الباب توقفت فجأة، كانت المسافة بيني وبينه لا تتعدى الخمسة أو الستة أمتار .هل عليّ الذهاب دون أن يدري أحد؟ لا، لا ..لن أجر أذيال الخيبة وأبتعد وكأنني أهرب .ففي جميع الأحوال سيعلمون بخبر طردي .وحتى لو لم يعلموا، فهذا الموظف الشاب، ضخم الجثة بدأ منذ الآن يرمقني بنظرات الشك، ولن يتوانى عن سرد الأحداث بمتعة على مسامع من يشاء السماع. اتجهت نحو الفتيات في قسم الاستقبال، كانت إحداهن تتحدث على الهاتف، والأخرى تدوّن شيئاً ما في دفتر الملاحظات، أما الثالثة فكانت عيناها الحزينتان ترمقان المكان بنظرات خاوية .وحين رأتني تلاشى الفراغ من نظراتها ولكن التعاسة ظلت باقية .فهي من الأشياء التي تأبى تركنا بسهولة.

-تفضل سيد عدنان —قالت بصوت بارد ولكن تشوبه نبرة احترام— كيف لي أن أخدمك؟

-شكراً لك، لا أريد شيئاً.

كنت أمتلك ثقة شخص لديه القدرة على السخرية من وضعه، رغم أنه يستحق الشفقة .أضفت وأنا أشير نحو الباب الحديدي الذي لم يتقبل بطاقتي منذ لحظات:

-استناداً لما حصل يبدو أنني سأترك العمل، لذا جئت لتوديعكن.

حين عادت الفتاة ترمقني بنظرات فارغة مجدداً، بدأت ألعن نفسي لأنني ورّطت نفسي في معمعة هذا اللغو.

-لقد طرُدت من العمل —أوضحت لها —وأردت توديعكن لأننا لن نلتقي مرة ثانية.

بدأ الاستغراب يحل محل الفراغ الذي كان يخيّم على عينيها، فشعرت ببعض الراحة.

-ياه !آسفة كثيراً —قالتها والتفتت نحو صديقتيها لتنقل لهما الأخبار السيئة —هل سمعتما؟ الأستاذ عدنان سيترك العمل في الجريدة.

تركت الفتاتان عملهما وبدأتا ترمقانني.

-لا أصدق، قالتها الفتاة التي كانت تتكلم على الهاتف بينما كانت تعيد السماعة إلى مكانها.

-أجل، لقد فعلوا مع الأستاذ عدنان ما فعلوه مسبقاً مع الأستاذ كنان، وبقي خارج البوابة الآلية.

-يا له من أمر مشين —تمتمت الأخرى —لا بأس بالأستاذ كنان، ولكنك كنت أحد دعائم هذه الجريدة.

-على الدوام يذهب الصالحون —قالتها فتاة الهاتف، ويدها ما زالت على السماعة التي أغلقتها للتو —ولكن مع وجود كل هذا العدد الكبير من الذين لا نفع من بقائهم في الجريدة، ألم يجدوا سواك لفصله؟!

كنّ يتكلمن بصدق، ولكن لم تكن لديّ رغبة لإطالة الحديث أكثر. ودعتهن، وشكرت موظفي الأمن أيضاً دون أن أنسى أحداً منهم وغادرت.

وبينما كنت أتجه نحو الباب خارجاً كنت أفكر في كنان الذي حدثتني عنه الشابة، فبعد انتقالنا إلى منطقة إيكيتللي كان أول الصحفيين من ذوي السوية الجيدة، الذين يتم فصلهم .ففي أحد الصباحات أتى مثلي إلى العمل، ولكنه لم يتمكن من الدخول، وقد تسبب لنفسه بفضيحة قبل أن يتمكن من فهم ما حدث، ولكنه اضطّر في النهاية للعودة إلى منزله، وقبل أن يغادر دمدم قائلاً» :إذاً، فهذه هي الطريقة التي يطردون بها الناس من العمل في إيكيتللي «!هذا ما قيل عنه حينها .لم يكن كنان صحفياً محبوباً في الجريدة، ولن أخفي بأنني مثل كثير من زملائي سررت خفية بهذه الطريقة المهينة التي تمّ طرده بها من العمل، ولكن من كان يتصور بأنني سأُطرد بالطريقة ذاتها يوماً ما؟

حقيقة لم أتوقع أن يتم طردي من العمل مطلقاً، أعترف بأنّ طريقة عملي في السنتين الأخيرتين كانت تسير بصورة سيئة، وليس باستطاعتي الادعاء أنني كنت أمارس الصحافة .ففي الزاوية الأسبوعية التي تمّ تخصيصها لي، كنت أقوم بكتابة مقال كيفما اتفق حفظاً لماء الوجه .ولكن كان هناك كثير من الصحفيين أمثالي، الذين كانوا فيما مضى يقومون بعمل ناجح، ولكنهم تعبوا فيما بعد وملّوا وسقطوا في غياهب الكآبة، ولا تزال الصحيفة تحتفظ بهم رغم ذلك كنوع من رد الجميل، أو ربما لاعتقادها بالاستفادة منهم فيما بعد .وقد كنت واحداً من أولئك

الذين تحتفظ بهم على سبيل الحيطة، وكانت وتيرة حياتي تمضي على خير ما يرام.

على ذكر حياتي تذكرت فواتير القسط الأخير لابني .فإن لم أقم بالدفع سيكون موقفي محجلاً أمام فوندا طليقتي .وبدأ القلق ينتابني لأول مرة بعد قرار طردي من العمل، فلم تخطر لي للوهلة الأولى صعوبات المعيشة .وأيقنت أنّ اتهامات فوندا لي لم تكن آتية من الفراغ »إنك شخص لا مبالٍ .«ولكني لن أستسلم للتشاؤم فوراً .لقد قاموا بطردي من العمل، ولذلك فهم مجبرون على دفع التعويضات أيضاً، وهذا ما حدث حين تم طرد كنان من العمل، فقد قاموا بدفع تعويضاته دون تأخر .وبما أنني أعمل في هذه الجريدة منذ ست سنوات فلا بدّ أنّ التعويض سيكون مبلغاً جيداً .سأدفع قسط مدرسة ابني وما تبقى سيعينني على تدبر أموري حتى العثور على عمل جديد .عاد إليّ هدوئي مجدداً، وتقافزت بحيوية فوق برك الماء الصغيرة التي اعترضت طريقي، وقبل مضي وقت طويل، أدركت سخافة هذه الراحة التي انتابتني فجأة، فما الذي سأفعله حين انتهاء نقودي؟ سأعثر على عمل، دمدمت.

كنت أحاول إقناع نفسي ولكنه بدا أمراً في غاية الصعوبة .فلا بّد أن الأقاويل بدأت منذ الآن بالانتشار في وسطنا الصحفي حول إدماني الكحول .وأيّ صحيفة ستقبل بتوظيف شخص مثلي؟ وحتى لو افترضنا أنني تمكنت من إيجاد عمل بمساعدة الأصدقاء تقديراً للأيام الخوالي، فكيف لي بالعمل وأنا بهذه النفسية المتعبة والرأس المشوش؟ وبدأت أمطر مدير الجريدة الذي طردني من العمل بوابل من اللعنات والسباب .ولكن لماذا قام هؤلاء بطردي من العمل أساساً؟ لو كنا في شهر تموز أو كانون الأول لقلت إنهم سيتذرعون بانخفاض العملة وما إلى ذلك من أسباب .ففي هذه الأشهر عادة تقوم الجريدة بفصل الموظفين من العمل، ولكن ليس من المعتاد فصل الموظفين في بدايات نيسان !كما أنني لا أظنهم فصلوا أحداً سواي .والمفارقة أنني مؤخراً باستثناء رئيس التحرير، لم أتشاجر مع أيٍ من الموظفين ذوي الشأن كمدير التحرير مثلاً ولا حتى مع مستخدم .كما أنني لست من أولئك

الصحفيين الذين يتدخلون في حياة الناس الشخصية ولا يتناولون هذا الشأن كموضوع للكتابة .إذاً لمَ تمّ فصلي من العمل؟

لم أجد تفسيراً حتى بلوغي السيارة .كانت قطرات المطر الذي انهمر بدأت تجف على زجاج البليماوث التي تنتظرني كصديق مخلص ولكنه حزين. دخلت السيارة، وعندما رأيت على مقدمتها الواسعة بطاقة دعوة حفلة الكوكتيل التي نظمها الاتحاد الصحفي أدركت السبب .فأثناء الحفل اغتبت رئيس التحرير الجديد بحري نارمان أمام جنكيز ولا بد أن هذا كان سبب طردي من العمل .ففي وسطنا إذا أردت نشر أي خبر، ما عليك سوى سرده على مسامع جنكيز .فهو قد يفعل كل شيء، بل وقد يذهب بنفسه إلى من يودّ إسماعهم الخبر حرصاً منه على نشره قدر المستطاع .وهو لا يفعل ذلك عن سوء نية بل لأنه مجبول على هذه الخصلة .فقد قام على الفور بإخبار الجميع ما قلته عن رئيس التحرير، الذي تلقى بدوره الخبر في وقت قياسي.

في الحقيقة، كنت مدركاً تماماً وأنا أحدثه بأنه سيقوم بنقل الخبر ونشره، ولكن قد يكون مفعول الكحول، أو الثقة التي منحني إياها مكوثي لمدة سنتين في الجريدة دون عمل تقريباً ودون طرد، هو ما دفعني لعدم الخوف من العاقبة والحرص على ما أتفوّه به .ومن سوء حظي أنّ الحديث كان يدور حول رئيس التحرير بحري نارمان .لو كان رئيس التحرير السابق مظهر لا يزال على رأس العمل، لما فكر بطردي لأنني اغتبته، ولعلّق مبتسماً بأنه مجرد لغو وثرثرة، ونسيَ الموضوع .ولكن بحري لا يغفر تصرفاً كهذا، فهو أكثر حرصاً على فرض شخصيته من الاهتمام برئاسة التحرير .ولأنّ ثقته بنفسه قليلة فهو لا يتوانى عن تقمص شخصية المدير القاسي .ولكن لا يجب أن أبخسه حقه، فهو من طراز الصحفيين الذين تبحث عنهم الجرائد في وقتنا الحالي .كان حذقاً جريئاً يتقن لغتين والأهم أنه كان خبيراً بالتجارة وإدارة الأعمال قدر خبرته في الصحافة، وخلال السنتين السابقتين وفيما كنت أنحدر نحو الهاوية، أصبح هو من المفضلين لدى المدير ونجح في الصعود

وصولاً لمنصب رئيس التحرير وهو لا يزال شاباً .ولكن الطريق لا يزال طويلاً أمامه، وهناك كثير من الحصون يجب بسط سيطرته عليها .لذا كان حريصاً ألا يمس شيء سلطاته بسوء حتى لو كان مجرد كلام، ظناً منه بأنه سيحافظ على احترام الموظفين —الذين ما زال لا يعرفهم بشكل جيد —بهذه الطريقة .وقبل أن يعرف الحابل من النابل سيتسبب بقطع رزق دزينة من الصحفيين القديمي الطراز مثلي.

وفيما كنت أشغّل محرك السيارة أدركت أن مجرد التفكير في شخص مثل بحري نارمان يشعرني بالتعب .فأشعلت سيجارة وقبل أن تتحرك السيارة نظرت للمرة الأخيرة إلى مبنى الجريدة، وتعلقت نظراتي بنافذة رئيس التحرير في الطابق الأعلى. ترى أهو يراقبني؟ من يدري كم أبدو صغيراً له من ذلك الارتفاع الشاهق؟ ربما كان يشاهد خطواتي المتعثرة بعجزي، وأنا أستقل سيارتي، ويعتبرها دليلاً على مدى قوته. لا بدّ أنني أبالغ كثيراً، فلا يعقل أن يترك رئيس التحرير كل أعماله وينصرف لمشاهدة موظف لم تعد له أي أهمية تذكر بينما يغادر .وفيما كانت تراودني هذه الأفكار خُيّل إليّ وجود ظل يتحرك خلف الستائر .ففكرت أن لا مانع من مراقبته ليّ، فهؤلاء أشخاص مهووسون .لذا أمعنت النظر في النافذة لأكتشف خطأي، فسبب الظل الذي شاهدته على النافذة لم يكن بحري، بل السحب الماطرة التي كانت تتكتل بسرعة مغطية صفحة السماء .فمع اختفاء الشمس تغير لون البناء، واكتسى بلون الغيوم الرمادية التي غطت السماء .يا للغرابة، ففيما كنت أنظر إلى هذا البناء الذي كنت أظنني أكرهه، اعتملت في داخلي مشاعر أشبه بالحزن، ولكني لم أبالِ كثيراً، وسحبت نَفَساً عميقاً من سيجارتي قبل أن أضغط على الدواسة بلطف.

الفصل الثاني

عاد المطر لينهمر مجدداً حال وصولي إلى الطريق السريع .في البداية كان مجرد زخات خفيفة ولكن بعد قليل حالت غزارته دون رؤية الطريق أمامي لأكثر من متر واحد .لا أحد يحبذ التعرض لحادث سير، ولكن خوفي من الأمر يصل إلى حدود مرَضية .وتجنباً للالتباس، أنا لا أخشى فقط على نفسي من احتمال الحوادث، فبالطبع أخاف أن يصيبني مكروه كحدوث إعاقة أو ما شابه، أو الموت، ولكنني بالإضافة إلى ذلك أخشى على سيارتي، فأي ضرر يصيبها سيكون بمثابة ضربة لي.

وكما أخبرتكم فإنّ هذا الهاجس —وأشدّد على كلمة هاجس —هو صفة ورثتها من والدي فقد كان المرحوم من أكثر الناس التزاماً ورتابة . لم يكن يعاقر الشراب مع أصدقائه خارج المنزل، ولا حتى يخرج للسهر معهم حتى وقت متأخر. فما أن ينهي دوامه في البنك، كان يتنفس الصعداء ويتجه مباشرة إلى المنزل، حيث يشرب كأس شرابه مساءً برفقة عائلته على الطاولة ذاتها .وإن شئتم الصراحة فهو لم يكن مغرماً بعمله في البنك، ولكنه لم يكن يكرهه بالمقابل .كل ما في الأمر أنه يعتقد أن على المرء كسب النقود، لذا يجب أن يكون صاحب مهنة .الشيء الثاني الذي كان يوليه اهتمامه بعد أسرته هو سيارته الأمريكية .ولو فسرت اهتمامه على أنه كان هاوياً للسيارات الأمريكية فسأبخسه حقه وأقلل من شأن هوسه .فحين كان يتحدث عن السيارات الأمريكية كان وجهه يشرق وكأنه يتحدث عن الأحصنة السحرية التي نسمع عنها في الأساطير، وتلتمع عيناه وتتخلل صوته رعشة

انفعال .قد يبدو الأمر مبالغاً فيه ولكن والدي، كان يحدد نوع السيارات التي تمر في الطريق وماركتها وموديلها بمجرد سماع صوتها، ويحدد إلى ذلك نوع المحرك أيضاً.

ولأنّ والدتي توفيت أثناء ولادتي، فأنا لا أستطيع تخمين رأيها حول الأمر، ولكن زوجة أبي كريمان ظلت على الدوام لا تفقه شيئاً عن شغف والدي بالسيارات .ولم تكتفِ بعدم محاولة فهمه، بل لم تتوانَ عن اتخاذ هذا الشغف مادة للتندر عليه من وراء ظهره .في الفترة الأولى من زواجهما كانت تحاول إظهار الاحترام لشغفه هذا، ولكنها بعد فترة وحين لاحظت أنّ معاملة أبي لابنها من زوجها الأول لم تكن جيدة، قامت بإرسال ابنها إلى مدرسة داخلية، وغيرت طراز تعاملها معنا بشكل جذري.

ويتوجب عليّ الاعتراف بأنني كنت مثل الخالة كريمان تماماً، لا أفهم اهتمام والدي المبالغ فيه بالسيارات حتى وفاته .أجل، فقد كنت أحب السيارات، وكنت فخوراً بتعلمي القيادة وأنا ما زلت في الثالثة عشرة من عمري، ولكنني لم أكن أفهم رغبته كل صباح في الذهاب لرؤية سيارته حال استيقاظه، وقضائه لعطل الأسبوع وهو يهتم بها، واستئجار مرأب خاص قريب من المنزل لها، بدل ركنها في الشارع مثل البقية .ولم يكن ذلك المرأب مجرد مأوى للسيارة فقط، بكل كان أقرب إلى قدس أقداس السيارات الأمريكية .فقد وضع مكتبة ضخمة تغطي جداراً بأكمله حتى السقف، وكانت ترتصف فيها ملفات مملوءة بكل المطبوعات المتعلقة بالسيارات الأمريكية، كتابةً وصوراً .ماذا كانت تحوي تلك المطبوعات؟ كل ما يتعلق بسيارات الشيفروليه والبليماوث، الكاديلاك، التشارليز، الفورد، والبونتياك. الشركات التي قامت بصناعتها، صور الموديلات الأولى منها، إكسسواراتها، وهوية مالكيها من مطربين وفنانين، رياضيين ورؤساء دول.

بالرغم من أنه قد يبدو أمراً سخيفاً، فقد أدهشتني دقته التي هي أقرب إلى دقة رجال المخابرات السرية في أرشفة تلك الوثائق .وحين اطلعت على عالمه السرّي

هذا، حاولت أن أفهم الشغف الذي كان يكنّه والدي للسيارات الأمريكية، وبدأت أعمل فكري في معرفة أسبابه، ولكن قبل تمكني من معرفة الأسباب وجدت نفسي أسير بالشغف ذاته.

لكن أكثر ما كان يلفت انتباهي في هذه السيارات، التي تشكل نماذج رائعة لذلك الاهتمام الغريب والمشترك بين جميع الرجال، والتي كانت تبدو في أحسن حال، كوجه لامع خرج من تحت أفضل حلاقة، بألوانها التي تخطف الأبصار، فيما كانت محركاتها تلمع كآلات موسيقية؛ هو تاريخها السري الذي يحمل طابع الفترة الزمنية التي تمت صناعتها فيها .صدقوني فأنها لا أبالغ، فكل سيارة تحمل طابع حقبتها .الأوضاع الاقتصادية في تلك الفترة، الأجواء السياسية، طبيعة العلاقة بين القوى الدولية، التوتر العسكري، تقلبات الإبداع الفني صعوداً أو هبوطاً، بل وحتى آخر تطورات الموضة، كلها كانت رموزاً سرية خاصة بكل سيارة، تتموضع على الإطار المعدني لعجلاتها، هيكلها الخارجي، والتابلو، والمحرك، والزجاج، والمرايا الجانبية، كلها تحمل رموز تعريف خفية .وحتى لو لم يكن مالكوها مطلعين على لغة شيفرتها الفنية، فإنّ روح الزمن التي طبعت هذه السيارات، تستغل كل فرصة لجعلهم يحسون بها .ولكن هذه المعرفة لا تفيد مالكيها بشيء في الحقيقة، وفي أفضل الحالات ستمنحهم بعض العبارات المنمقة التي يرددونها بفخر عن سياراتهم، هذا كل ما في الأمر .أما بالنسبة إليّ، وفيما أحاول فك طلاسم شغف والدي بالسيارات، فقد تحولت ضحية لهذا البحث، وعلقت بين رموز الشيفرات السرية، وانضممت لموكب عشاق هذه السيارات.

ربما لم تخطر هذه الأمور على بال والدي مطلقاً، ربما كان منجذباً لجمال هذه السيارات الكبيرة لا أكثر .وربما خدمته الوظيفة لسنوات طويلة في مدن الأناضول —وهو الإسطنبولي الأصل —قد خلقت لديه شعوراً بضرورة التميز عمن حوله، وهذا ما قاده نحو شغف السيارات .ولكني لا أستطيع الجزم بصحة سبب معين .فنحن للأسف، لم نتطرق أبداً إلى هذا الموضوع عندما كان حياً .وحتى لو

حصل ذلك فلا أظننا كنا سنصل إلى نتيجة .وأغلب الظن بأنه لم يكن يدرك سبب هذا الهوس .ولو علم بأنه مهووس فلربما تخلص من الأمر برمته، ولكن هل كان ليفعل؟ وهل فعلت ذلك عندما علمت بهوسي؟ حتى أنا نفسي لا أعلم الإجابة .أجل فقد بدأت بالتفكير في الأمر بشكل جدي، ولكن لسبب لا أعلمه ما زلت عالقاً ولم أصل إلى نتيجة .ورغم ذلك فإنّ تعلقي لا يصل إلى حدود هوس والدي، فأنا حتى الآن ليس لديّ أرشيف.

على أي حال فمن المحال أن أفسر سبب هوسي والدي هذا، وربما يفعلها ابني بعد موتي .ولكن لا، فشغفه لا يتمحور حول السيارات الأمريكية، بل الحواسيب .وفيما كانت هذه الخواطر تجول في ذهني، سمعت جلبة، ومرت سيارة مرسيدس سوداء عن يميني بسرعة فائقة، فيما حاولت سيارة فولفو تجاوزها بأقسى ما تستطيع من سرعة، وخشية من وقوع حادث قد يصيب البليماوث العجوز بأي أذى فكرت في مغادرة الطريق السريع الذي يطلق العنان لهوس القيادة الجنونية. لفت نظري مركز التسوق الكبير غروس ماركت، حيث اعتدت مساء كل جمعة أن أتسوّق مؤونة الأسبوع في طريق العودة .ولكن لا يخطر على بالكم عند ذكر كلمة التسوّق أنها قائمة غنية تحوي الخضر والفواكه والمعلبات واللحوم بأنواعها .إنها مجرد أشياء بسيطة يمكن إعدادها في وقت قصير، لتكون مازة ترافق كأس الشراب، جبنٌ أبيض، سجق، مقبلات جاهزة، وفي معظم الأحيان لا تكاد تملأ لائحة مشترياتي عربة التسوّق .ولأنني لن أذهب للعمل مجدداً، ولأن مخزوني من الشراب قد بدأ بالنفاد؛ اقتربت من منعطف باتجاه اليمين والتحقت بركب السيارات الذي كان يسير ببطء نحو مركز التسوق.

بعد عشرين دقيقة كنت أبحث عن زاوية آمنة في مرأب المتجر الواسع، ولأننا لم نكن في عطلة نهاية الأسبوع فقد كانت الزحمة خفيفة، وهناك عدد قليل من السيارات المركونة في المرأب، وبالرغم من ذلك لم أشأ ركن سيارتي في مكان ما كيفما اتفق .أخيراً وجدت زاوية آمنة في الجانب الأيسر من المتجر.

بالكاد استطعت حماية نفسي من المطر الذي اشتدت غزارته عما قبل، ودخلت المتجر وأنا أنفض عن شعري قطرات المطر العالقة به، وبعد أن جففت يدي، توجهت نحو إحدى عربات التسوّق لدفعها أمامي باتجاه الممرات الضيقة بين رفوف المشتريات التي تتنوع فيها الخيارات من أغذية القطط وحتى الحواسيب، مروراً بإبر الخياطة وحتى البرادات، الدراجات الهوائية وقُرَب المياه، وكل ما يمكن أن يخطر على البال من منتجات أجنبية أو محلية، ولكني غضضت الطرف عن كل تلك الرفوف المملوءة حتى سقفها، ودون أن تعتريني أدنى علامات التردد أمام هذه التشكيلة المتنوعة، اتجهت بثقة العارف نحو الممر الذي توجد فيه زجاجات شرابي وصديقي المفضل .وانحنيت أمام أولى الرزم الملفوفة بغلاف بلاستيكي محكم وسحبتها باتجاهي، وحينها لاحظت التمزق الذي في أسفل الرزمة فأعدتها على الفور إلى الرف، ولو تأخرت للحظات أخرى لكانت زجاجات الشراب قد سقطت على الأرض مهَشَمة وناشرة في المكان برمته رائحة اليانسون الزكية .أدركت أنّه عليّ توخي الحذر أكثر، وبدأت أفحص أسفل الرزم قبل حملها، ولكن شاءت الصدف أنّ جميع رزم الرفوف السفلية إمّا ممزقة وإما أنّ زجاجات الشراب ذاتها قد فتحت أغطيتها من قبل .انحنيت نحو الأسفل أكثر حيث الرزم التي على الأرض، وأنا أواصل البحث، وأخيراً استطعت الحصول على ما أبحث عنه .كانت دزينة من الزجاجات السليمة موضوعة هناك، تنظر إليّ وكأنها تقول ما الذي تنتظره أكثر، خذني من هنا ودعنا نذهب إلى المنزل .وفيما كنت أرفع الرزمة وأضعها في عربة المشتريات رأيته .كان يقف قبالتي .وقد ارتسمت على وجهه أصدق ابتسامة.

-إذاً فأنت لا تزال تعاقر الشراب؟

-أجل.

قلتها وأنا لا أستطيع تحديد هوية هذا الرجل الطويل القامة، رمادي الشعر، وبادي الوسامة والذي أعرفه من مكان ما.

وقد خمّن الأمر من تعابير وجهي.

-ما بالك يا رجل، أيُعقل ألاّ يتعرف المرء إلى أخيه الوحيد؟

بدا وكأنه يمازحني ولكن العتب الذي تجلى في صوته كان كافياً ليعيد إليّ الماضي بكل تفاصيله المؤلمة رغماً عني.

-دوغان؟ —قلتها متمتماً —أحقاً هذا أنت؟

-أجل —قالها بهدوء.

-ولكن.

-ولكن ماذا؟ أكنت تظنني ميتاً؟

-لا قدّر الله . لم أظنك ميتاً ولكن...

-ولكنك كنت تظنني متورطاً في مصيبة ما.

أكمل كلماته، وبدل أن أوضح له الأمر بدأت أنظر إلى وجهه مستغرباً، وقد غطى الشيب شعره الأسود، وبدأت التجاعيد تظهر بوضوح حول عينيه وشفتيه .لكن ما فاجأني حقاً هو تلك النظرة التي في عينيه؛ فقد بدأت بعض الرقة تظهر في عينيه الخضراوين اللتين كانتا فيما مضى تحدقان بتصميم وعناد محارب متجه لملاقاة الموت، فقد بدت أقرب لنظرة رجل خبِر الهزيمة وتقبلها ورغم ذلك ظل محافظاً على كبريائه .حاول أن يبدو مرحاً، ولكنه لم يتمكن من إبعاد تلك الظلال عن وجهه وهو يتحدث .لا بدّ أنه متورط في أمر ما، أم أنني مخطئ؟ أدركت بأنني على صواب حين أنهى كلماته وهو يتلفت حوله قلقاً .وهنا التقت نظراتنا.

-يجب علينا التحدث.

زرعت كلماته وصوته الذي نسيته منذ وقت طويل الفضول والترقب في

روحي، كنت مستغرباً، وشعرت بالقلق، بل كنت خائفاً بكل صراحة .ورغم ذلك انقدت للفضول الذي ألمّ بي .وأدركت متفاجئاً بأنني ما زلت أمتلك قابلية الانفعال.

الفصل الثالث

أعاد أخي غير الشقيق كلامه »علينا أن نتحدث «حين جلسنا في إحدى كافيتريات الطابق الثاني للمركز التجاري .كانت المرة الأخيرة التي رأيته فيها منذ ما يقارب العشرين عاماً من خلال شباك سجن مالتيبى العسكري .فبالرغم من عدم رغبتي لكنني اضطررت تحت إصرار والدي الشديد للذهاب معه من أجل زيارة أخي هناك .وقد سرّ دوغان لدى مشاهدتنا، وقد تكون المرة الأولى في حياته التي نظر فيها إليّ بود .أنشأ مع صديقين له عصاب.ة، وكانت تلك المرة الثانية التي يت.مّ اعتقاله فيها بتهمة اختطاف أحد الطلاب اليساريين من حافلة عامة ومن ثم قاموا بخنقه بواسطة سلك معدني.

في اعتقاله الأول سجن ثلاثة أشهر ولكن تم إطلاق سراحهم لعدم كفاية الأدلة، ولكن مع مواصلة التحقيق، فعاد إلى المنزل بعد إطلاق سراحه .بالرغم من أنه بالكاد كان يقيم في المنزل في السنتين الأخيرتين، كان يستحم ومن ثم يخرج. ولكن عندما أبدى دوغان رغبته في المكوث في المنزل، كادت والدته —التي ظنته سيتابع دراسته في كلية يلدز التقنية قسم هندسة الميكانيك، والتي تمكن من إحراز القبول فيها قبل عام من ذلك، إلا أنه لم يستطع أن يتابع الدوام فيها بسبب سيطرة الطلاب اليساريين عليها —أن تطير فرحاً .ورغم أنّ والدي الذي كان في شبابه أحد أنصار الحزب الديمقراطي، وكان يكنّ حباً جمّاً لرئيس تركيا الوحيد الذي تمّ إعدامه؛ عدنان مندريس، والذي دفعه هذا الحب ليطلق عليّ اسمه، والذي في الوقت نفسه لم يكن لديه أي تقارب مع ميول ابن زوجته اليمينية، إلا أنه، وكما

أعتقد، كان يؤيد فكرة منح دوغان فرصة ثانية .لذا أظهر الرضا بعودته للمنزل. وكانت خالتي كريمان تحاول في كل فرصة متاحة القول إنه تم التجني على ابنها، أما دوغان فلم يأت على ذكر الأمر ولو بكلمة، وكلما تمّ التطرق إلى الموضوع يردّد ببروده المعتاد »ما من داعٍ للخوف، فالمحكمة ستقرر براءتي من التهمة .«ولكن المحكمة بدل حكم البراءة، قررت إلقاء القبض عليه مجدداً، فقد ظهر شاهد غير متوقع، وتمكن من التعرف إلى كل من دوغان وصديقيه .وتلك كانت المرة الثانية التي يُقبض فيها عليه، وحين ذهبت لرؤيته مع والدي، كانت المرة الأخيرة التي رأيت فيها دوغان.

كانت الخالة كريمان بادية القلق على ابنها الذي ظلّ محافظاً على هدوئه وهو يردّد »لا تجزعي يا أمي، فقريباً سأخرج من هذا المكان «ولم يصدق كلماته أحد بمن فيهم أنا، ولكنه فنّد كل توقعاتنا وخرج من السجن بعد ستة أشهر .وبدل العودة إلى المنزل هذه المرة، اتصل بالخالة كريمان وأخبرها بأنه سيتوارى في مكان لا يعرفه أحد خوفاً من اعتقاله مجدداً، ولم يجد ضرورة لوداعنا، كل ما هنالك أنه اتصل بوالدته .وظلّ والدي يردد طوال الليل »أين ذهب هذا الولد؟ أخشى أن يورّط نفسه في مأزق جديد «وهو يبدي قلقه عليه، ولكنني كنت متأكداً أنه مثلي تماماً يشعر براحة داخلية بسبب ذهاب دوغان.

أعترف بأنني لم أكن أحب دوغان، وهذا الشعور لم يكن فقط وليد التنافر في وجهات نظرنا السياسية، والذي تحول إلى نزاع دموي في تلك الفترة، تسبب في موجة جنون كانت كفيلة بدفع الناس لقتل كل من يخالفهم وجهات نظرهم دون أن يرمش لهم جفن .فمنذ اليوم الأول الذي دخل فيه منزلنا مع أمه لم أشعر تجاهه بأي ودّ .توفي والده نتيجة حادث سير، ولم يكن له أحد آخر سوى والدته، وكان عليه الآن العيش في منزل رجل غريب، ولكن بدا أنّ هذه الأمور لا تعني له شيئاً فقد كانت عيناه الخضراوان تواصلان النظر بلامبالاة وبالبرود المعتاد ذاته إلى العالم، وكأنه يوحي بأنه من خلقه بالذات، ولم تظهر عليه آثار القلق أو الخجل، بل كان

يتجول في المنزل بحرية أكثر مني، يدخل الغرفة التي يشاء وحين يشاء، ويأخذ الشيء الذي يريده باستثناء ما يخصني، فلم يقم ولو مرة واحدة بقراءة مجلاتي المصورة، أو الاستماع لإحدى أسطواناتي الموسيقية، ولم يبدِ رغبة بقيادة دراجتي، ليس لأنني منعته عن ذلك، بل ليبدي عدم اهتمامه بما يخصني، وبهذه الطريقة كان يقول لي إنني لا شيء في نظره .ورغم أنه يصغرني بأربعة أعوام، فلم يرضخ لكل محاولات والدته وأبي ليقول لي كلمة)آبي (أخي الكبير .وكانت تصرفاته هذه تثير جنوني، ورغم أنني لم أكن طفلاً ميالاً إلى العنف إلا أنه كان يولّد فيّ دافعاً لا يقاوم لضربه، وفي النهاية لم أستطع المقاومة أكثر وضربته.

حين جاء مع أمه للاستقرار في منزلنا، كنا في بدايات الخريف، وقد طلب مني والدي أنّ أقوم بتدريسه مادة الرياضيات، وقد كانت مهمة شاقة عليّ، ولكنني لم أستطع مخالفة أوامره، واضطررت لقبول المهمة .وكان دوغان أيضاً يكابد المشاعر ذاتها، فهو لم يكن يرغب بأن أدرّسه على الإطلاق، ولكنه للأسف كان مجبراً على إطاعة أوامر الكبار، والفرق بيننا أنني رغم عدم رغبتي بالمهمة لكنني كنت أبذل قصارى جهدي كي أوضح له المعلومة، ويبقى هو على لامبالاته المعهودة تجاهي وتجاه الدروس، لكن المفارقة أنه كان يفهم كل ما أقوله له .فحين كنا نقوم بمراجعة معلوماتنا السابقة كان يستحضر كل ما سبق بصورة مذهلة، ويقوم بحلّ كل المسائل الرياضية التي أكلّفه بها .وكان عليّ الاعتراف مكرهاً بأنه ذكي، والأسوأ من ذلك أنه كان مدركاً لهذه الحقيقة، وهذا ما جعل منه طفلاً مغروراً وأنانياً ومن الصعب التواصل معه .فبعد أسبوعين بدأ يومئ بأنه فهم كل ما يجب أن يُقال، بل وبدأ يهزأ بي بصورة غير مباشرة، لذا كان عليّ أن ألقنه درساً، فبدأت بالانتقال إلى مسائل أكثر صعوبة وهكذا عاد اهتمامه الخفي بالدروس مرة أخرى، ولكنني لم أسمح له ببلوغ عتبة الفهم الكافي.

وفي ظل كبريائه الذي لا يسمح له بطرح الأسئلة عليّ والاستفسار مني، بدا من الواضح أنه توقف عن الفهم، ومن هنا بدأت الدروس تثقل عليه، وكلما زاد

ضيقه كنت أُكثر من المسائل التي من المحال أن يقوم بحلها، فبدأ يعود للامبالاته السابقة، ومن ثم التغيب عن الدروس، فأدركت بأنّ الوقت قد حان لإطلاع والدي، وبتّ أنتهز فرص غياب دوغان عن المنزل لأخبر أبي بأنّه يعاني من صعوبة في الفهم، وفوق ذلك فهو كسول، وكانت الخالة كريمان هي الأكثر استغرباً، فرغم عدم فهمها للرياضيات، ظلت تدافع عن ابنها وتردّد بأنّه لم يعانِ من قبل صعوبةً في فهم الرياضيات وأنّ معلميه في المدرسة كانوا يحبونه كثيراً، وكانت تبقى صامتة أمام حقيقة أنه لا يحلّ المسائل التي أكلفه بها، أما والدي فكان يؤيدني بصمته المريب. وكان تصرفه هذا ينعش روحي، فهذا يعني بأنه هو أيضاً مستاء من غرور هذا الولد الذي يمشي مختالاً وكأنه من خلق العالم، ولم يتوانَ عن توبيخ ابن زوجته أمامي أكثر من مرة، فيما كان حاجبا دوغان يهتزان غضباً، ويصطبغ وجهه بحمرة الحنق، لكنه لم يعترض ولم يردد على مسامعنا كلمات مكرورة مثل »سأحاول الدراسة أكثر.« بقي يستمع بصمت .وقد فسرت ما جرى على أنني هزمته، ولكنني كنت مخطئاً، فدوغان كان طفلاً لا يستسلم بسهولة، ولكنه لم يظهر نواياه بسرعة .فبدأ يواظب على حضور الدروس من جديد، ويقوم بحل ما يستطيع، ويترك ما يصعب عليه، ولأنني اعتقدت أنني ربحت الحرب، فقد توقفت عن الإثقال عليه، وكنت أراقب تحركاته بنشوة صياد قاد طريدته إلى منطقته الخاصة وبدأ يتابعها بمتعة .واعتماداً على المظاهر فلم يكن هناك من داعٍ للقلق، ولكنني سأدرك فيما بعد متأخراً أنني كنت مخطئاً بصورة كارثية.

في ذلك السبت كانت ستقام أول مباراة بين فرق كرة القدم المحلية المتسابقة، والتي كنت أذهب لممارسة التدريبات الخاصة بها بشكل سري لعدم موافقة والدي على الأمر .وكنت مضطرباً بصورة كبيرة كوننا كنا نتدرب منذ أيام تحضيراً للمباراة .وقد تركت منذ ليلة البارحة بدلتي وحذائي الرياضي في منزل أحد أصدقائي الذي سيأخذها معه إلى الملعب، ولكن كيف لي أن أعرف بأنني لن أذهب إلى ذلك الملعب صباح اليوم التالي؟ في المساء ونحن على طاولة العشاء، بدأ

دوغان يحدث والدي باحترام واضح عن مسابقة علمية سيتم إجراؤها بين المدارس الإعدادية بعد شهر .وقد قام مدير المدرسة باختيار ثلاثة طلاب من كل صف، وكان هو نفسه من ضمن أحد المرشحين الثلاثة .باركه أبي، فيما كانت عينا الخالة كريمان تشعان زهواً .واصل دوغان حديثه بكل هدوء، بل قام بشكري معترفاً بفضل دروس التقوية في المنزل التي كنت أعطيه إياها .وفيما أظنني تمكنت من هزيمته بشكل كامل، واصلت كلماته التدفق لتثبت لي كم كنت غافلاً.

-ولكن، لم يتضح بعد من هم التلأميذ الذين سيتم اختيارهم لتمثيل المدرسة، وسيتم تحديدهم بعد الامتحان الذي سيقام يوم الأحد بين الفرق المختارة، لتحديد الأربعة الذين سيمثلون المدرسة —رمش بعينيه الخضراوين ببراءة وهو يواصل حديثه —ولا أعرف إن كان سيتم اختياري، يبدو الأمر صعباً.

-بالطبع سيتم اختيارك، وما المانع يا بنيّ —أكدت والدته مشجعة.

-الطلاب الذين سيشاركون في الامتحان من الصفوف العليا، لو كان الجميع مثلي في الصف الثامن لما خشيت شيئاً، ولكن...

-وما المشكلة يا بني —تدخل والدي —سيقوم أخوك بتدريسك غداً طوال النهار.

بقيت اللقمة عالقة في حلقي، ولم أتمكّن من ابتلاعها إلا بصعوبة.

-ولكن لديّ عمل غداً يا أبي.

-لا يوجد ما هو أهم من تدريس أخيك من أجل امتحانه —حسم والدي الأمر بكلماته، من دون أن يكلف نفسه عناء الاستماع لكذبتي التي خططت لإطلاقها .وعندما وقعت عيناي على وجه دوغان الجميل، ورأيت بريق النصر يلمع في عينيه بجلاء .حينها فقط أدركت بأنّ ما حصل للتو هو الحلقة

الأخيرة في خطة محكمة كان يخطط لها منذ أيام .كان قد شاهدني وأنا أتدرب، وعِلم أنني سأشارك في المباراة، والأهم أنه كان مدركاً لأهمية مباراة الغد بالنسبة إليّ. وقد انتظر لآخر يوم من أجل عرقلة ذهابي، ولم يعلن عن مسابقته المزعومة سوى في ليلة المباراة .لم يكن لديه أدنى شك بأن والدي سيكلفني بتدريسه في هذه الحالة، وبأنني لن أتمكن من رفض طلبه، فلو رفضت، سيقوم بإخبار والدي على الفور بأمر انضمامي لفريق كرة القدم الذي نهاني عن اللعب معه .بقيت جالساً على الطاولة وخيبة أمل فظيعة تتآكلني .وبعد العشاء اختلقت حجة للخروج، وذهبت إلى منزل كابتن الفريق لأخبره بعدم قدرتي على المشاركة في مباراة الغد .ثارت ثائرة الكابتن، وأخذ يتوعد ويصرخ »إن لم تشارك في مباراة الغد، فلن تلعب مع الفريق مجدداً« قالها مهدداً، وهو يظنني سأخضع لتهديده وأحضر المباراة، دون أن يعرف بأنّه من المحال أن أخرج عن طوع والدي .وهذا ما كان سيحصل، فحتى في ظل المخاطرة بطردي من الفريق، سأمكث في المنزل غداً وأنا أدرّس دوغان، ولكنه بالمقابل سيدفع الثمن غالياً.

في صباح اليوم التالي، وبعد الانتهاء من الفطور مباشرة، جلست ودوغان من أجل البدء بالدراسة، وفيما أصدقائي يمارسون تمارين التحمية من أجل المباراة، كنت أقلب صفحات كتب الرياضيات، وكانت المرة الأولى التي أجد فيها دوغان راغباً في الدرس إلى هذا الحدّ .كان يحل المسائل التي أكلفه بها بحماس واضح، ويشرح لي المعادلات التي اعتمدها في حل المسألة بأدق التفاصيل، أما أنا فقد كنت كآلة تنفذ مهمتها بصورة تلقائية، وأشرح له ما يتوجب كما في كل مرة. ولكن غيوم الغضب كانت تتجمع في قلبي مهددة بحصول عاصفة في أي لحظة، وكانت أكبر مخاوفي أن تأتي العاصفة في غير وقتها المناسب ويكون تأثيرها أقل من المرجو .فكنت أبذل جهداً عظيماً للتحكم بثورة غضبي .فكما قام دوغان بالتخطيط بكل سرية للانتقام مني، عليّ أن أنتقم منه بصورة أفظع .كما أنني لم أكن على عجلة من أمري لأن اللعبة تدور في منزلي، وحتى لو لم يتقبل الأمر، فأنا

أعتبر أخاه الأكبر، وكما ترون فملكية الملعب والمتفرجين تعود إليّ، وسأعرف كيف أرد له الصاع صاعين في الوقت المناسب.

بعد انقضاء الظهيرة وحين خرج والدي والخالة كريمان للتسوّق، بدا القلق على دوغان، وكأنه كان يتوقع أنني سأهجم عليه في أي لحظة، رغم أنه لم تكن بي رغبة للهجوم عليه الآن، لكن معرفتي لخوفه مني بدت تروق لي، رغم حرصي على إخفاء مشاعري عنه .واصلت الشرح تماماً كما قبل مغادرةِ الكبار المنزل .لكن أسلوبي هذا بدأ يسبب له الضيق، وخفّ تركيزه وبدأ يعطيني أجوبة خاطئة عن الأسئلة التي أطرحها عليه .صراحة حتى أنا استغربت من قدرتي على ضبط نفسي ومحاولة التعامل معه بهدوء، فكنت أصحح له أخطاءه دون أن يعلو صوتي غضباً، وكلما زاد هدوئي زاد توتراً وضيقاً، وبالتالي تصاعدت حدته فيما أواصل المحافظة على هدوئي، وأخيراً لم يعد يتمالك نفسه من الغضب.

-ما الذي تنوي فعله؟

بدأ بالصراخ.

تصنّعت البراءة.

- كيف؟ ما الذي تعنيه بالضبط؟

سألته.

-لا تحاول خداعي —قالها وهو يلوح بسبابته في وجهي ويضيف —أعلم كم تكرهني، فلا تمثّل دور الأخ الكبير الودود أمامي.

-ما الذي تتحدث عنه، نحن أخوان.

أجبته وأنا أزيد من سورة غضبه.

-لا تناديني بأخي —قالها وقد تغضّن وجهه حنقاً، وكانت عيناه الخضراوان تومضان ببريق الغضب، فأدركت أنني أسير على الطريق الصحيح، وبقيت ألعب دور »الأخ الودود – «لِمَ تقول هذا الكلام يا أخي؟ —سألتُ مدمدماً.

-لا تخاطبني بأخي. مكتبة

كرر وقد زادت حدّة صوته.

ولكن لم يخطر لي بأنّه قد يفعل ما هو أكثر، أو سيتجرأ على التفكير في ضربي، لذا فقد تلقيت أول ضربة منه على غفلة، ولحسن الحظ أنّ الضربة لم تكن قوية لأنه حاول ضربي وهو جالس في مكانه، وقد أصابت لكمته خدي الأيسر. صحيح أنني لم أكن ولداً ميالاً إلى الشجار، ولكن المشاحنات التي كانت تحدث على أرض الملعب زودتني بخبرة كافية لأدافع عن نفسي .وفيما ترنح دوغان يساراً مع ضربته التي ذهبت سدى، سددت له ضربة محكمة على خده الأيمن، جعلته يتهاوى مع الكرسي الذي يجلس عليه أرضاً .بدوري دفعت كرسيي نحو الخلف ونهضت، والغريب أنني بقيت محافظاً على هدوئي .حاول دوغان النهوض وهو يضع يده على أنفه، حينها شاهدت الدم الذي بدأ يلوث أصابعه، ومع ذلك أظهرت عدم الاكتراث.

-ما الأمر يا أخي؟ هل تتألم كثيراً؟ —قلتها بنبرة ساخرة كانت كافية لإثارة حنقه، فحرك قدمه ليسدّد لي ركلة، لكنني تمكنت من معالجته بلكمة أخرى على فكه قبل أن يقترب مني، إلا أنها لم تكن قوية مثل الأولى، وغير كافية لإيقافه. وهكذا تدحرجنا متشابكين على الأرض، فاستطعت التصرف بصورة أسرع منه، وتمكنت من الجلوس على صدره، فالتدريبات التي كنت أخوضها منذ عدة أيام استعداداً للمباراة لم تذهب سدى.

-لماذا لا تظلّ هادئاً؟ —قلتها وأنا أمسك بكلتا ذراعيه بإحكام، وبذلك

تمكنت من السيطرة عليه وسحقه تحتي.

بدأ يتخبّط ويرتطم بالأرض عبثاً للتخلص مني ولكنه لم ينجح، وبقيت على حالي وقتاً كافياً ليدرك أنني تمكنت منه .توقف عن التخبّط ولم يبقَ لديه سوى الحقد الذي ينضح من عينيه وهو يرمقني .اعتقدت أنه اكتفى وأنا أخاطبه.

-أهذا يكفي؟ هل فهمت؟

قلتها باستخفاف الواثق من قوته، ولكنني كنت مخطئاً، فما إن نهضت حتى أمسك بقدمي اليسرى ليوقعني أرضاً، وقد اختل توازني إلا أنني تمكنت من الثبات وتسديد ركلة إلى وجهه بقدمي اليمنى .وقد كانت الضربة موفقة، فقد أرخى قبضتيه عن قدمي، لأتمكن من الوقوف مبتعداً عنه، فيما أسرع هو أيضاً بتمالك نفسه والنهوض.

ومن دون أن يفكر حاول الوثوب عليّ، لكنني تراجعت في الوقت المناسب، ولم يحتضن سوى الفراغ بذراعيه اللتين ترتجفان غضباً .ودون توقف أعاد الكرة من جديد متهجماً عليّ ومحاولاً إصابة الهدف .كنت أعرف تماماً أن فشله يزيد من سوء مزاجه، والأهم أنه بدأ يتعب .بالطبع كنت أستطيع أن أوسعه ضرباً مبرحاً، ولكنني لم أشعر برغبة في الأمر، بل بدأت الانسحاب ببطء وأنا أحدق إليه بتصميم .وأخيراً ربما تعباً، كفّ عن المحاولة، وربما لإدراكه بأنه لن يتمكن مني، ومسح أنفه بظاهر يده، حينها نظر مستغرباً إلى الدماء التي لوثت يديه، وأدرك بأنه ينزف .وكان منظر الدماء كافياً ليثير جنونه وعيناه تلتمعان غضباً، وبدأت نظراته تبحث بسرعة عن شيء يهاجمني به، وبدأت أتابع نظراته الباحثة، وحين شاهدت السكين التي في صحن الفواكه كان الوقت قد فات .فقد تصرف دوغان قبلي وأخذ السكين، وبدا بمهاجمتي، فاحتميت بالكرسي الذي وقع على الأرض. تراجعت إلى الخلف قليلاً قبل أن أرفع الكرسي، فيما كان يقترب مني والسكين بيده، ونظراتي الخائفة تجول يميناً ويساراً، ولكنني لم أجد شيئاً مناسباً لأدافع به عن

نفسي، وحتى لو وجدت شيئاً فهو لن يمكّنني من بلوغه .أخيراً، لامس ظهري النافذة وأنا أتراجع، ولم تفصلني عنه سوى مسافة قليلة.

-أتنوي الموت يا هذا؟

أخذ بالصراخ.

شعوره بإمكانية التغلب عليّ جعل من غروره وحشياً وأخذت عيناه تلتمعان بالإضافة إلى الغضب الذي بلغ منه مبلغاً .فبالرغم من أنه هو من تلقى الضرب وكان أنفه ينزف، إلا أنه تمكن في النهاية من حشري في الزاوية، وهو ينتظر الآن والسكين في يده، لكي أرجوه العفو عني .لم أكن شخصاً شجاعاً، كما أنني كنت واعياً بالقدر الكافي لأدرك العواقب الوخيمة التي قد تنتج عن ضربة سكين كهذه .ولكن ذلك البريق الذي في عينيه منعني من التفكير بعقلانية.

-هيا اقتلني —صرخت في وجهه —إن لم تفعل فلست برجل.

كنت أعلم تماماً أنه لن يتوانى عن طعني، وقد تعتبرون الأمر غباءً أو جنوناً، إلا أنني لم أكن أنوي أن أذل نفسي أمامه.

-هيا ما الذي تنتظره؟ اطعني إن استطعت.

حاولت استفزازه قدر المستطاع .لكنه تراجع بضع خطوات، واختفى بريق الجنون من عينيه، وحلّ مكانه برود جليدي، وحقد لا يخطئه النظر.

وقال:

-أحذرك، لا تتدخل في شؤوني مرة أخرى.

بقينا نتبادل النظرات للحظات، ثم استدار وكأن شيئاً لم يكن، وتوجه إلى الحمام من أجل أن يغسل وجهه، لكن المفاجأة الأكبر كانت في انتظاري مساءً.

بعد انتهاء الشجار بدأت أفكر قلقاً فيما سأقوله لوالدي، فلم يكن لدي أدنى شكٍ بأن دوغان سيضيف الكثير من الأكاذيب للأحداث وهو يرويها.

كنت أبحث عن مبررات مناسبة أدافع بها عن نفسي، ولكن إن نظرت إلى الأمور ومن وجهة نظر والدي، فلا مبرر على الإطلاق لما فعلته، فقد قمت بالاعتداء على أخي الصغير وضربه، والأسوأ أنني فعلت ذلك لأنني لم أتمكن من حضور المباراة .ولكن الأحداث وقعت على خلاف ما توقعته تماماً .فحين عاد والدي والخالة كريمان إلى المنزل، أخبرهما بأنه سقط وهو يسير في الشارع، وتحمل توبيخ والدته له وهي تطلب منه الانتباه، ولم يأتِ على ذكر الشجار أو المباراة على الإطلاق .في البداية ثمّنت تصرفه هذا، ولكنني عندما أمعنت التفكير في الأمر اعتبرته نوعاً من الغرور والتحدي في الوقت ذاته .ربما كنت مخطئاً، ولكن الأمر قد وقع بالفعل، وسدّت كل الطرق أمامنا من أجل بناء جسر من الصداقة أو الأخوة بيننا .وقد أصبح ذلك اليوم كميثاق سري بيني وبين دوغان حول عدم تدخل أحدنا في شؤون الآخر وعدم تجاوز الحدود .لم يكن أحدنا يشعر بأي ودّ اتجاه الآخر، ورغم ذلك حرصنا على ألا يسبب ذلك النفور تورطنا في شجار آخر .وقد غادر دوغان المنزل عند انتقاله إلى المرحلة الثانوية، ليكمل دراسته في مدرسة داخلية .ورغم أنه كان يعود في العطل، لكن الاتفاق السري بيننا بقي ساري المفعول.

بعد مرور كل هذه السنين، ورؤيته لي متعباً ومهزوماً إلى هذه الدرجة — وربما لأنني أجد فيه جزءاً من ماضيي بل جزءاً من نفسي —لم أستذكر ماضينا المشترك وسنوات شبابنا الأولى بشعور من الخجل، بل بنوع من الحنين.

كان من الواضح أنّ الحاضر يشغل تفكير دوغان أكثر من الماضي، فعندما قال لي »علينا التحدث «أدركت أنه لن يتحدث عن خلافاتنا الطفولية، وعن الماضي بمظالمه وأخطائه .لكنه بدا وكأنه لا يعرف كيف يباشر الحديث .معه حق،

لو كنت مكانه لانتابتني الحيرة ذاتها .فبعد مرور ما يقارب العشرين عاماً، من الصعب الوقوف أمام أخ غير شقيق لم تكن علاقتك به طيبة يوماً ما، ربما لتطلب منه المساعدة .كان من البديهي أن أسأله »أين كنت طوال هذه العشرين عاماً؟ وكيف لم تكلف نفسك عناء حضور جنازة والدتك؟ ما الذي تتوقعه مني حين تقف أمامي فجأة وتطلب مني أن نتحدث؟ «ولكنني لم أفعل ذلك .وبقيت أنتظره ليبدأ الحديث في المكان والزمان الذي يريده، وكنت أدرك أنه لن يطيل انتظاري.

الفصل الرابع

-بدايةً، لا أريدك أن تفهمني بصورة خاطئة.

أوضح لي دوغان قبل أن يتابع:

-أعلم أنه مر زمن طويل، ومن الغريب أن تجدني أمامك.

واصل النظر إليّ، وهو يطلب مني فهم ما يعتمل في صدره ليس لأنه لم يجد الكلمات ليشرح لي الوضع، بل لأنه رأى الكلمات غير كافية لوصف ما جرى.

رغم كل البؤس المرتسم على ملامحه، فقد ظل محتفظاً بوسامته المعهودة.

-لا عليك، وليس هناك ما يستدعي الشرح في عودتك المفاجأة، فنحن سنبقى أخوين.

هذا ما كنت أودّ قوله، ولكنني لم أفعل .ربما منعتني ظروفي أو المفاجأة من التعبير عما يجول في خاطري .ظهر شبح ابتسامة مشفقة على شفتي دوغان وهو يراني أيضاً مثله أعاني صعوبة التعبير عما أريده .ثم مدّ يده إلى جيب سترته الجلدية، ليخرج علبة السجائر، وكأنه يعتقد أن دخان سيجارته يستطيع أن يغطي غيوم الحيرة التي تشكلت حولنا، وقبل أن يخرج لنفسه سيجارة، تذكر في لحظة لباقة أنه يجب أن يقدم لي واحدة.

-أتدخّن؟

كنا ندخن الماركة ذاتها، سحبت سيجارة وضعتها بين شفتي وأشعل هو سيجارتينا، ومع الدخان المنبعث من بين شفتيه بدأت الكلمات أيضاً بالتدفق.

-لقد تورطت في أمر خطر.

لم أستغرب كلماته.

-ومتى لم تكن كذلك؟

أجبته، ودون قصد مني خرج صوتي ودوداً، كأخ يعاتب أخاه الأصغر على شقاوته.

-معك حق.

اعترف بانكسار واضح.

-فقد كنت على الدوام عبئاً عليكم وعلى عائلتي —سحب نفساً عميقاً من السيجارة —وقد أتى والدك لزيارتي أكثر من مرة دون أن يكون مضطراً لذلك، وأرسل لي النقود أكثر من مرة، وقد يكون موت والدتي المسكينة في عمر مبكر بسبب حزنها عليّ، ولم أتمكن من زيارة قبرها إلا العام المنصرم.

عاد ليخفض رأسه، وبدأ يلاعب الخاتم الذهبي بفصه الحجري في يده اليسرى .حينها خطر لي بأنني أعرف هذا الخاتم، إنه الخاتم ذاته الذي وضعته الخالة كريمان في إصبعه يوم ذهابه إلى المدرسة الداخلية، ولا يزال دوغان محتفظاً به في يده مع تغير بسيط، فحين كان شاباً كان يضعه في خنصره ومع تقدمه في العمر انتقل إلى البنصر .بقي على تلك الحال لبرهة قصيرة ونظراته متعلقة بخاتمه، وللحظة ظننته يحاول إخفاء دموعه عني، لذا فهو يخفض رأسه .لقد كانت المرة الأولى التي أراه يبكي، ولكن أظنني مخطئاً، فعندما كان يودع الخالة كريمان في يوم إهداء الخاتم وانتقاله إلى المدرسة الداخلية، كان يجلس في المقعد الخلفي لسيارة والدي الشيفروليه

القديمة موديل 56، وأعتقد أنني شاهدت عينيه حينها تتلألآن ببريق دامع إلا أنه أدار رأسه على الفور .ولم أكن قد شاهدته من قبل يبكي، لا أثناء توبيخ والدته له، ولا أثناء العقوبات التي كان يطبقها والدي عليه .ففي كل مرة يتم فيها الكشف عن أحد أخطائه، ومهما يتم توبيخه، يبقَ محافظاً على بروده الجليدي ويستمر بالتحديق بنظرات ثابتة إلى وجه محدثه .ولكن الآن دعكم من قضية النظر في وجهي، فهو لا يستطيع التعبير عن مشكلته كما يجب .ربتّت بودّ على يده فرفع رأسه .لا لم يكن يبكي، ولكن كان هناك حزن عميق في نظراته جعلني أشفق عليه.

قلت:

-لا عليك، كلنا نرتكب أخطاء.

-ولكن ليس مثلي —وأضاف بعد أن سحب نفساً عميقاً —وليتني عدت بنتيجة —قال جملته الأخيرة بنبرة تحمل يأس رجل أذعن لمرضه القاتل وينتظر الموت باستسلام.

-من الجيد أنك أدركت هذه الحقيقة، فهذا سيمنعك من تكرار الأخطاء ذاتها مرة أخرى.

-تكرارها؟

حلت السخرية مكان الحزن في صوته، ولكن انكساره بقي واضحاً.

-لن يكون لديّ متسع من الوقت لتكرارها.

نظرت إليه مستفسراً وقد اعتراني القلق، فيما سحب هو نفساً عميقاً آخر من سيجارته قبل أن يوضح.

-لقد انتهى أمري.

لم يكن هناك خوف في صوته، ولا حتى أمل، إنما فقط يأس، وتلك القوة التي يمنحها لرجل عرف ما هو مصيره.

-أنت تعرف المشاكل التي تورطت فيها، وقد تعتقد بأن هناك على الدوام من يتعقبني للانتقام، ولكنني هذه المرة قد وصلت إلى نهاية الطريق بالفعل.

ظننته سيبتسم ساخراً من جديد، ولكنه لم يفعل.

-لقد أتيت إليك.

هذا ما قاله، ولكنه نطق بعد برهة بالكلمات التي لم أنطق بها.

-فحتى لو لم نكن شقيقين سنظل أخوين، كما أنه ليس لديّ أحد سواك.

يقتضي المنطق إزاء هذه الكلمات من دوغان، ليس من صحفي لديه خبرة في الحياة مثلي، بل من أي شخص عادي، أن يسأل نفسه عما تخفيه الأكمة، ولكن الغريب في الأمر أنني لم أشكّ بحديثه .ولم أشعر بحاجة لسماع كلماته ولا لإخراج دلائل من جعبته لأتأكد أنه مهزوم .فقد كان النظر إلى وجهه وسماع نبرة صوته كافيين لشرح كل شيء .ولا أخفيكم سراً أنّ لجوئه إليّ في لجّة يأسه، وجملته »فحتى لو لم نكن شقيقين سنظل أخوين «قد أثّرت فيّ .فقد تذكرت كلمات طليقتي وهي تصرخ »أنت لا شيء، لقد أصاب الضمور مشاعرك، فلا شيء يؤثر فيك، ولا شيء يسبب لك الفرح، أنت وبكل بساطة فقدت قدرتك على محبة أحد ما «كانت تصرخ في وجهي بكل هذه الاتهامات أمام ابننا بالذات، ولكنها بعد أن انتهت، جلست في نوبة بكاء صاخبة كما في كل مرة .وقد كانت على صواب، فأنا أيضاً بدأت أحس بأنّ الجفاف بدأ يغزو مشاعري، ولم يعد في الحياة ما يثير اهتمامي، والأسوأ أنني لم أجد في نفسي القوة الكافية لتغيير الأمر .لذا أذعنت لحقيقة ما يجري، وبدأت أواصل الحياة دون أمل، ودون انتظار عالقاً في سديم

العدم .أما الآن فقد بدأ بريق يشبه الود والفضول، يلتمع داخلي، والأهم من ذلك معرفة أنّ أخي أيضاً يشاركني المشاعر ذاتها.

ربما كان هذا التعرض للخيبة واجتراع الهزيمة هو ما يقربنا ويخلق رابطاً سرياً من الأحاسيس المشتركة .وكان علينا الانتظار كل هذا الوقت لندرك الشبه الذي كان يجمعنا منذ الطفولة .وربما الآن فقط استطعنا إدراك الخطأ الذي ارتكبناه بتفريغ شحنات ألم كل منا في الآخر؛ نتيجة فقدانه لوالده وفقداني لوالدتي في عمر مبكر. وقد نستطيع الآن تدارك الصداقة التي أضعناها ونحن في سن الشباب، ولِمَ لا، طالما أنّنا لسنا مجبرين على تشارك منزل واحد أو أم وأب؟ ولكن نواياي الحسنة قد تبددت مع كلمات دوغان.

–عليّ الاعتراف بأنني لم ألجأ إليك فقط لكونك أخي، بل لأنك صحفي في الوقت ذاته.

عندما ذكرني دوغان بمهنتي، تركت العواطف جانباً وخرجت على الفور ميولي الصحفية، ورغم ذهني الملبّد بغيوم الأسى إلا أنني تمكنت من إبعاد أفكاري البريئة جانباً، لتحل محلها بعض التساؤلات والشكوك المتعبة، والتي يفترض بها أن تنتابني في هذه الحالة .ورغم أنني لم أعرف بعد بتفاصيل مشكلته، لكن احتمال أن يكون عضواً في إحدى العصابات المتورطة مع الحكومة والتي بدأت الدولة مؤخراً تلاحقها وتكشف شبكة خيوطها، كان احتمالاً لا يمكن غضّ الطرف عنه. فخروجه من السجن بحجة أنّ الحكم الذي صدر بحقه كان خاطئاً، ومن ثم سفره إلى الخارج وعودته حين يشاء دون أن تزعجه السلطات في شيء، في الوقت الذي كان يفترض به أن ينال حكماً بالإعدام .أليست كلها معطيات تشير إلى تورطه في عصابة من هذه العصابات؟ أظنه كذلك، ولكن ما الذي دفعه للمثول أمامي مطأطئ الرأس، فكيف لصحفي بدأت مسيرته بالانحدار مثلي أن يساعده؟ أيمكن ألا يكون مطلعاً على وضعي وما زال يظنني ذلك الصحفي النشط واللامع؟ وفيما

تعتريني هذه الأفكار لاحظ دوغان أمارات القلق التي بدأت ترتسم على ملامحي.

-ربما تشك فيّ أليس كذلك؟ ربما ما زلت تكرهني، لكنني لن أنزعج منك، ولن أطلب منك أن تتفهمني أو حتى أن تسامحني .كل ما أطلبه منك أن نكون صريحين معاً .أجل فالصدق هو أكثر ما نحتاج إليه الآن، وقد كنت بحاجة إلى أحدٍ أروي له الأحداث دون أن أخشى شيئاً، لهذا جئت إليك.

وقبل أن أصارحه بأنني أصبحت عاطلاً عن العمل، تسمّر أحد شباب الخدمة بسحنته المللولة فوق رأسينا، ولم يفارقنا حتى طلب كل منا فنجاني قهوة سادة.

-ليس لديّ نية لتوريطك في مشكلة ما —عاد دوغان للحديث ما إن ابتعد الشاب —على العكس تماماً فقد يفيدك الموضوع، فالأحداث التي تتسبّب في القضاء عليّ، قد تسهم في بزوغ نجمك.

-هذا صعب جداً.

للمرة الأولى خفّ القلق الذي ارتسم على وجهه.

- لِمَ؟

سألني.

-لأنني فُصلت من العمل قبل قليل.

وعلى عكس توقعاتي لم يفاجئه الأمر، بل لم يبدِ أي قلق بعد أن كان قد علّق الآمال عليّ.

-آسف لذلك —قالها بكل هدوء قبل أن يسأل —لماذا تمت إقالتك؟

استغربت هدوءه وعدم شعوره بخيبة أمل إزاء تصريحي .وبدأت الشكوك

تنتابني، فما الذي يعنيه ظهوره المفاجئ والمريب أمامي في المتجر القريب من مكان عملي، بعد كل هذه السنين من الانقطاع؟ لذا قررت أن أستفسر.

-لا أعلم تماماً .فقد كانت الأمور تسير على ما يرام، إلى أن طُردت اليوم من أمام الباب.

-لقد سمعت أنّك أهملت عملك آخر فترة.

كانت هذه الجملة التي أنتظرها، فهذا يعني أنّ لقاءنا هنا لم يكن محض صدفة.

-منذ متى وأنت تتعقّبني؟

سألته بكل صراحة.

لقد فاجأه سؤالي، فحاول التهرب من نظراتي، إلى أن تحدث في النهاية.

-أي تعقّب؟ ما الذي تتحدث عنه؟

-هيا يا دوغان —قلت —أنا أعرفك جيداً، ما الذي تحاول فعله؟

صمت للحظات وهو ينظر إليّ بجدية تامة.

-حسناً —قالها وبدا الاستسلام في نظراته —في الحقيقة أنا أراقبك منذ بضعة أسابيع، وقد علمت أنك تزوجت ثم طلقت زوجتك، ولديك ابن يذهب إلى الجامعة .كما أنني علمت أنّ مسيرتك المهنية تمرّ بمرحلة حرجة.

لم أحتمل المزيد.

-ليس من حقك أن تراقبني.

قلتها بحدة.

-أعتذر .معك حق.

-رغم أنني محق، فذلك لا يغير من الوضع شيئاً.

-صدقني ليست لديّ أي نوايا سيئة.

-ألهذا السبب كنت تتعقبني بكل خسة؟

- لم أملك الجرأة الكافية للظهور أمامك بعد انقضاء عشرين عاماً.

بدأت أفقد السيطرة على نفسي، فمن الواضح أنه يهزأ بي.

-انظر إليّ جيداً يا هذا —بدأت بالصراخ —أترى كلمة »أحمق «مكتوبة على جبيني؟

تلفّت دوغان حوله بقلق، فلم يجد سوانا في الكافيتريا، ولكن شبان الخدمة التفتوا إلينا بفضول.

-لو سمحت تكلم بهدوء أكثر —حاول التحلي بالصبر قدر المستطاع وهو يردف —صدقني لم تكن أمامي طريقة أخرى.

-لا أبالي إن كان لديك طريقة أخرى أو لم يكن —قلتها بحدة، فاضطرب لأنه ظنني سأنهض وأتركه.

-من فضلك.

بدأ يرجوني ولم يعد يبالي بإنصات شبان الخدمة علينا، حيث توقف عن التحدث همساً.

-صدقني أنا في وضع حرج، ولن يستطيع أحد مساعدتي سواك.

أجبته وأنا أحدق إلى عينيه اللتين ضاقتا غماً.

-لن أساعد الأشخاص الذين يراقبونني بكل خبث.

-حسناً، لا تساعدني إن لم تشأ ذلك، ولكن دعني أخبرك بما لديّ.

في الحقيقة لم أعرف ما عليّ فعله، فمن جهة كنت مستاء من طريقة تصرفه الماكرة، ومن جهة أخرى بدأ صوت ما يتردد داخلي بوجوب مساعدته رغم سوء تصرفه، فيما كان هو ينتظر حكمي عليه.

-حسناً —قلتها بضيق وأنا أتكئ على الطاولة مجدداً —ولكن لا تعلق الآمال عليّ، سأسمعك وحسب.

-شكراً لك —ثم أضاف —أنت شخص لطيف بالفعل، وحتى لو قررت الذهاب وعدم الاستماع لي، ما كنت سأنزعج منك .ربما لو كنت في مكانك، لما رضيت أن أسمعك مطلقاً .كما قلت لك أنت شخص طيب القلب.

كان يريد خداعي بمديحه هذا.

-حسناً حسناً .ادخل في صلب الموضوع —قلتها بضيق.

- لم أقل هذا الكلام بغية خداعك، فأنت طيب القلب بالفعل، وأمثالك قليلون جداً، ولهذا السبب أتيت إليك، فأنا أعرف صحفيين آخرين، كما أنهم في مواقع مرموقة، ولكنني لا أثق بهم .فأنا بحاجة لشخص أثق به ثقتي بنفسي، لكي أطلعه على ما لديّ.

تمتمت وأنا أومئ برأسي استخفافاً:

-طبعاً، طبعاً.

-هذه هي الحقيقة حتى لو لم تصدّقني.

حدّقت مطولاً إلى عينيه اللتين ضاقتا.

-حسناً، لنفترض أنّ كلامك صحيح، لِمَ اخترت هذا المتجر لملاقاتي بدل المجيء إلى منزلي أو مكان عملي؟

-حفاظاً عليك.

قالها من دون تردد.

-ماذا؟

-لا تقلق، فلا أحد يتعقّبني الآن.

عاد الغضب ليسيطر عليّ بعد أن بدأت أهدأ قليلاً.

-يا له من خبر سار —قلتها بحدة —أتعرف ما الذي تريد توريطي فيه؟ ألا ترى أنني قد خاطرت حتى بخسارة مهنتي لأنني أريد الانزواء بنفسي بعيداً عن التورّط مع الآخرين، فتأتي أنت وتقحمني في خضمّ المشاكل؟

لم يرفع رأسه.

-حقاً لا أنوي توريطك في أي مشكلة —قالها بصوت متذلّل —كما أنك لست مضطراً لسماعي، إن لم ترغب في معرفة التفاصيل.

بقيت صامتاً لا أدري بما أجيبه.

-لو تصرفنا بحيطة فما من داعٍ لتخشى شيئاً —وواصل سرد حديثه— ومع ذلك لن أخدعك بالقول إن الأمر لا ينطوي على بعض الخطورة.

بدأت بالاستغراب من نفسي وليس منه، لِمَ لا أزال جالساً معه حتى الآن؟ لِمَ لا أحمل أغراضي وأتّجه نحو بيتي لتناول كأس من الشراب بكل هدوء؟ لِمَ لا أطفئ ظمأ الفضول الذي انتابني بكأس شراب بين جدران منزلي الآمنة وأنسى الأمر برمته؟ تذكرت جملة كان يرددها في الأسبوع مرة على الأقل، روتاتيف جاهد

أحد مدراء الجريدة القدامى» .حين تتشرّب دماء الشخص الصحافة، يصبح من الصعب التخلّص منها «أهذه الجملة السخيفة التي يرددها رجال البورصة، الممثلون، صيادو السمك، وحتى متسلقو الجبال .كانت السبب في بقائي مع هذا الأخ غير الشقيق، ذي الماضي المشبوه والحاضر الغامض والمستقبل المظلم؟ صدقوني حتى أنا لم أكن أعرف .ربما عدم معرفتي السبب كانت مبرراً لخروجي دون عودة، ولكنني بالمقابل أظن هذا السبب بالذات هو ما دفعني لمواصلة الاستماع إليه .ولكن صوتاً في داخلي ظل يردد لي» .أنت غارق في القذارة حتى عنقك، وحين تبدأ بالاستماع إليه، فلن تتمكن من النجاة بنفسك.«

–لا بدّ أنك سمعت بخبر العثور على بكير كايتان وعشيقته مقتولين في منزله –هكذا بدأ دوغان قصته.

–أتعني الجريمة التي أُشيع عن تورط عائلة بينجي أوغلو؛ هذه العائلة الغنية التي تملك شركة كبيرة للاستيراد والتصدير؟

هز رأسه بحنق.

–لا علاقة لهذه العائلة بمقتلهما.

–ولكن الصحف ذكرت أنّ بكير كايتان ورجاله قاموا بخطف ابن هذه العائلة الأصغر منذ شهر وطالبوهم بفدية .لذا قامت العائلة بقتله مع حبيبته، كما قاموا بخطف أحد رجال الشرطة.

–هذا غير صحيح، فعائلة بينجي أوغلو لا علاقة لها بمقتلهما أو باختطاف رفعت.

–ومن هو رفعت؟

–رجل الشرطة.

-وكيف لك أن تعرف كل هذا؟

-لأنني متورط في الأمر.

سألته مستغرباً:

-ما الذي تعنيه؟ أكنت تعمل مع القتلة؟

-لا، ولكنني كنت على قائمة الذين سيتم قتلهم، وبمحض الصدفة عدت متأخراً في ذاك اليوم .فلو عدت في الوقت المعتاد، لقُتلت أنا أيضاً.

كانت الأسئلة تتراشق في ذهني عن هوية هؤلاء القتلة، وسبب رغبتهم في قتله، ودون أن يمهلني وقتاً بدأ بسرد القصة.

-كان من المفترض أن نكون نحن الثلاثة، بكير، أنا، والعقيد رفعت، في المنزل .كان بكير من استأجر المنزل، ويقيم فيه مع حبيبته نهال، وفي ذلك اليوم كانوا بانتظار شخص ما لنسلمهم شيئاً مهماً، وقد ارتأينا أن تكون نهال معنا، لعدم لفت الانتباه، وفيما كنت أتوجه إلى منزله، تعطلت سيارتي الـ BMW واضطررت للتأخر بعض الوقت، وعندما أدركت أن العطل لن يتم إصلاحه بسرعة، استقللت سيارة أجرة، وتوجهت إلى منزله، وكانت السيارة هي من أنقذني، لأنّ القتلة كانوا بانتظار سيارتي السوداء، وعندما وصلت أدركت أنني تأخرت عن الموعد ثلث ساعة، وبينما كنت أتلفت في مقعدي قلقاً، لاحظت سيارة الجيب السوداء المركونة عند ناصية الشارع، كانت سيارة العقيد رفعت، ولكنّ أحداً آخر يجلس بداخلها، كان أحد الأشخاص الذين من المفترض اللقاء بهم .وإن سألتني ما الغريب في الموضوع، فسأخبرك بأنني ما كنت لأهتم بالأمر لو لم أكن أعلم بهوس رفعت الذي يصل حدود المرض بسيارته، فمن المحال أن يسلم قيادة الجيب لأحد. وحتى لو افترضنا أنه فعل ذلك، فلِمَ يجلس هذا الشخص في سيارته؟ ربما كان ينتظرني ليحذرني بأنهم نصبوا كميناً لنا في المنزل، ولكن لما لم يتصل بي على هاتفي

النقال، وبقي ينتظرني في الشارع؟ بقيت للحظات حائراً فيما سأفعله، وطلبت بعدها من السائق أن يكمل طريقه .واتصلت بالرجل الذي رأيته في السيارة، فردّ عليّ بكل هدوء.

»حسناً، نحن بانتظارك«وعندما سألته إن كان في المنزل أجابني. »بالطبع، فالجميع هنا«فأخبرته أنني سأصل بعد قليل، وأنهيت المكالمة.

ابتعدت عن تلك المنطقة، وترجلت من السيارة في مكان أكثر أماناً. واتصلت بهاتف رفعت النقال من أحد الهواتف العمومية .رنّ الهاتف ثلاث رنات، ومن ثم انتقل إلى حالة المشغول، وتكررت الحالة ذاتها مع هاتف بكير النقال أيضاً. حينها أدركت أنّ مصيبة ما ألّمت بأصدقائي، أمضيت تلك الليلة في مكان آمن، وفي صباح الغد قرأت الخبر على صفحات الجرائد كما الجميع، واستغربت من إلصاق التهمة بعائلة بينجي أوغلو .حينها بدأت أمعن التفكير في الموضوع، وأخذت قطع الأحجية تأخذ أماكنها لتتضح الصورة .كان شركاؤنا قادمين من أجل قتلنا، ولا أعلم السبب الذين دفعهم للبدء بالعملية دون انتظاري .ربما لاحظ أحد رجالنا الأمر، وحاول التدخل، أو أنّ هناك أسباباً أخرى لا علم لي بها، دفعتهم لتنفيذ المهمة بسرعة .وهكذا قاموا بقتل بكير ونهال واختطاف رفعت، وألصقوا التهمة بعائلة بينجي أوغلو، الذين كنا على خلاف معهم بسبب مشكلة في العمل.

وفيما هو يتحدث كنت أراقبه بتمعن .كان يحدثني عن موت شخصين من أصدقائه، وخطف الثالث، والأسوأ أنه هو أيضاً مهدد بالمصير ذاته، ورغم ذلك كان يروي لي الأحداث بهدوء كما لو أنه يتحدث عن فيلم سينمائي عن المغامرات لا يمتّ إليه بصلة.

-هل تلقيت أي أخبار عن العقيد بعد ذلك؟ —سألته وأنا أرمي لاكتشاف مزيد من حيثيات القصة، ومعرفة التفاصيل التي يخفيها عني دوغان.

-لا، ولا أظنني سأعرف عنه شيئاً .أعتقد أنهم سيقتلونه ويلصقون التهمة مجدداً بعائلة بينجي أوغلو .ولكن الشرطة لم تجد دليلاً يثبت تورط هذه العائلة في الجريمة، ولن تفعل، ذلك لأنّ لا علاقة لهم بالأمر.

بدت قصته غير قابلة للتصديق، ولكن إذا أخذنا في الحسبان الأمور الغريبة التي تحدث في هذا البلد في الأعوام القليلة المنصرمة، فلا يمكنني استبعاد حدوث أمر كهذا .ولأنني لم أقرر بعد ما عليّ فعله، بقيت أحدق إلى أخي بحيرة أقرب إلى البلاهة.

-أعلم —واصل دوغان حديثه —الأمر معقد بعض الشيء، ولفهم الوقائع بشكل أفضل علينا التحدث بشكل أكثر تفصيلاً، ولكن عليك في البداية أن تتخذ قرارك.

أكان يريد إثارة فضولي من أجل سرد بقية التفاصيل؟ أم أنه بالفعل كان يحذرني قبل توريطي في أمر مجهول العواقب؟

-من هؤلاء الذين يحاولون التخلّص منكم؟ هل تعرفهم؟

سألته.

-أجل أنا أعرف هذين الاثنين حق المعرفة، ولكني لا أعرف الشخص الذي يتزعم الأمر برمته، فأحد هؤلاء الاثنين كان يتولى عملية التواصل معه، وربما حتى هو لا يعرف هوية هذا الزعيم .فقد كانوا يطلقون عليه لقب الضابط، وكان من المفترض أن يحضر هو أيضاً الاجتماع المزعوم الذي حاولوا فيه قتلنا جميعاً لكي نتعرف إليه، ولكنهم كانوا يريدون أن يعرفونا إلى عزرائيل في تلك الأمسية بدلاً منه.

-ولكن من هذان اللذان تعرفهما؟

وبدل أن يجيبني، نظر إليّ مشفقاً.

-اسمعني يا عدنان، لقد بحت لك بكل ما يمكنني .إن شئت فكّر في الموضوع ملياً، وإن شئت تستطيع أن تتحقق من صدق المعلومات التي سمعتها مني. سأعطيك رقم هاتفي النقال، وإن كنت راغباً في مساعدتي فاتصل بي .حينها سنلتقي مجدداً، لأطلعك على كل التفاصيل، ولكن إن لم تكن راغباً في التورط، فاكتفي بهذا القدر من المعلومات التي أعطيتك إياها.

وبدأ يدوّن رقم هاتفه، وكأن محادثتنا كانت على وشك الانتهاء، وكانت هذه الثقة التي يتصرف بها، كفيلة لتعيدني لخيبة الأمل .أكان ينوي تغيير رأيه؟ ولكن لما بدأت الخشية تنتابني إزاء هذا الاحتمال؟ ناولني قصاصة الورق التي كتب عليها رقمه، والتفت لطلب الفاتورة.

-في حال وافقت، فما هو نوع المساعدة التي تطلبها مني؟

وعلى الفور نسي أمر الفاتورة وارتسمت على وجهه ذات الملامح الجدية التي رأيتها حين التقيت به في المتجر.

-لديّ وثائق مهمة.

أوضح لي.

-أي وثائق؟

-وثائق إن ظهرت إلى العلن ستكشف حقائق كثيرة ستثير زوبعة كبيرة. أريدك أن تجري ريبورتاجاً معي، وسأعطيك تلك الوثائق التي تؤكد كل ما سأخبرك به في هذا الريبورتاج .هذا كل ما أطلبه منك.

-ريبورتاج فقط؟

-أجل فقط ريبورتاج، كما يجب عليك أن تنشر هذه الوثائق أمام الرأي

العام .هذا كل ما في الأمر.

-ولكن كيف لي أن أثق بشخص مثلك يا أخي العزيز، حتى لو أكّدت لي أنّ هذا كل ما في الأمر؟ ماذا لو جمعتك بصحفي آخر؟ —حاولت معرفة رد فعله —شخص أثق به.

نفى بحركة من رأسه دون تردد.

-انس الأمر، فأنا لا أثق بأحد سواك، إما أنت وإما فلتنسَ كل ما قيل.

كان يريد المغادرة بالفعل، واتجه نحو أحد شباب الخدمة وهو يشير بيده ليحضر الفاتورة، وقد رآه الشاب هذه المرة، واتجه مبتسماً نحو آلة النقود، فيما سألته على عجالة قبل وصوله.

-لنفترض أنني وافقت على مساعدتك، وقمت بنشر الريبورتاج والوثائق، أهذا يعني أنك ستنجو من الخطر؟

-أنا لن أتمكن من النجاة أبداً، ولا مفر من قتلي، ولكنني إن كشفت الأمر، فسأتمكن من محاسبتهم، وسيعرف الجميع لِمَ تمّ قتلنا.

كانت نظراته، ونبرة صوته وحركاته وهو يحدثني، تشير بوضوح إلى تقبّله فكرة قتله كأمر واقع .ربما لو تحدث ببعض الأمل، راجياً خلاصه من هذا المصير لما أشفقت عليه إلى هذا الحدّ، ولكن استسلام الطريدة للصياد الذي سيطر عليه كان يلامس شغاف الحزن في قلبي .وحتى لا أظهر له حقيقة مشاعري سألته:

-ألا تبالغ بعض الشيء؟

ازداد اخضرار عينيه قتامة:

-هذه المرة لا —وأضاف —ولكن لا أهمية لذلك، فأنا شخص مؤمن

بالقدر، ولا أعترض على إرادة الله.

الفصل الخامس

كان دوغان مذعناً لما يخبئه له الأقدار، فإيمانه بالله كان يمنحه نوعاً من الراحة .ولكن للأسف لم أكن أملك هذا الإيمان، ولو وجِد لدي القليل منه لما ضعت هكذا في متاهات الفراغ، ولتزوّدت بالثقة والطمأنينة اللتين يزرعهما في النفوس، ولانصرفت للانشغال بعملي اليومي وقضاء حياة سعيدة مع زوجتي نربي فيها ابننا .ولكنني بدل ذلك، بدأت بطرح أسئلة وجودية، متبجّحاً بخزعبلات فلسفية، والأسوأ من ذلك تلك الأسئلة الغريبة التي تراودني عن طبيعة عملي .بالطبع لم أجد أجوبة مقنعة عن أسئلتي السمجة، ولكنني مع ذلك بقيت مصراً بعناد على السير في الطريق حتى نهايته.

رغم أنني وفي السنة الأولى من جامعتي، عندما تم إلقاء القبض عليّ إثر الإضراب الذي نفّذناه، وبعد أن كافأني الشرطي الذي انزعج من تسببنا في إطالة نوبته المسائية، بصفعتين معتبرتين، تنحى بي جانباً ربما رأفة بي، أو لميله إلى إعطاء النصائح والمواعظ، وهو يقول لي» :اسمعني يا بني، أنت تبدو شاباً ذا قلب جسور وصاحب مبادئ، ولكنك إن واصلت السير بهذا العناد، فسيكون مصيرك إما السجن وإما القبر .«ولكنه كان مخطئاً في موضوع الجسارة التي نعتني بها. الصفعتان، ورائحة النظارة التي لم أبقَ فيها أكثر من ثلاث ساعات، كانت كافية لهزيمتي، فلم أنضم لتلك الاحتجاجات مرة أخرى .بالطبع لم تتغير أفكاري، ولكنني لم أرغب في زج نفسي في التهلكة مرة أخرى .ولأن الجسارة هي ذلك الثقل الذي يحمي من الترنح في تقلبات الحياة واختلال توازناتها، فقد اختلت كل موازين حياتي

عندما أضعت ذلك الثقل .وقد قادني هذا الاختلال ليس إلى القبر أو السجن كما توقع لي الشرطي، بل إلى الحانة .فهذه الأسئلة المعلقة دون إجابات مقنعة، والأحداث التي تُسقط ثوابت حياتي كأوراق الدومينو دون أن تعيدها إلى مكانها، كانت كافية لتودي بي إلى زجاجة الشراب مباشرة بعد انتهاء عملي.

وخلال فترة قصيرة تبادلنا الحب، ولأكون منصفاً فالشراب يحب كل شاربيه، ولكنني وقعت في غرامه بجنون في فترة قياسية .فهو لم يكتفِ بالتخفيف من هذيانات الأسئلة التي لا تتوقف في عقلي، ورغبات روحي المتعطشة، وذلك الملل والخواء الذي يكبر في داخلي كل يوم، بل كان كفيلاً بابتعادي عن أولئك الأشخاص الذين لا أستهويهم أيضاً .وهكذا أتيحت لي فرصة مراقبة الكوميديا الإنسانية من بعيد .ورغم ذلك لم يدعني الناس وشأني، فقد أثقلوا عليّ بترديدهم المقولة ذاتها »دعك من هذا الشراب«، وهم يذكرونني بابني وأقساطه المدرسية، أو برغبته في حاسوب جديد، وبذلك كانوا يدعونني من جديد للانضمام لتلك التمثيلية المتواصلة ولأخذ موقعي المفروض كما يكررون .وها قد أضيف إليهم دوغان الآن، ولسوء الطالع فكما لم أصل لقناعة مطلقة حول الوجود، أعاني الحيرة ذاتها تجاه دوغان، ولم يكن هذا الوضع يقلق راحتي فحسب، بل يقودني نحو مجاهل التفكير العميق .رغم أن الإنسان المنطقي لن يجد الكثير ليفكر فيه، فكان يجدر أن أنسى ترهات دوغان، وأحمل رزمة زجاجات الشراب وأضعها في صندوق السيارة وأنطلق نحو بيتي .ولكنني لم أفعل، وحتى بعد أن غادرني بقيت أفكر فيما قاله لي.

عندما عدت إلى الطريق السريع مجدداً، لم أكن قد قررت بعد ما يجب عليّ فعله .توقف المطر وخفت أزمة المرور .والشمس التي كانت تظهر وتختفي بخفر بين الغيوم ظهراً، حين كنت متجهاً إلى الجريدة، امتلكت الآن الجرأة الكافية لتظهر بكل أبهتها وتمنحنا بعضاً من دفئها بكل كرم .حينها تذكرت أنني طردت من العمل، ولكن هذا الحدث الذي تراءى لي وكأنه حدث منذ زمن طويل لم يكن قد مضى عليه سوى ساعتين .تخيلتني وقد انتهت مدّخراتي، وفكّرت في التوضيحات

التي سأضطر لتقديمها إلى زوجتي، واتصالات زملائي من العمل الذين سيظهرون حزنهم لمصابي .كل ذلك بدأ يجول في ذهني كظلال الغيوم القاتمة التي كانت تغطي بقعاً من الطريق الإسفلتي .ولكن أكثر ما كان يشغل ذهني هو دوغان، فمنذ زمن طويل لم يستغرقني التفكير في أمر ما كما الآن .وحتى الأصوات التي تصدرها العجلات الجديدة التي تسير عليها البليماوث العجوز، نتيجة احتكاكها بالإسفلت المبلل، لم تثر اهتمامي .لقد كانت أكثر المواقف الحياتية التي تسبب لي النفور، هي اضطراري لاتخاذ قرار ما، وكلما كان القرار يزداد أهمية كانت كراهيتي تزداد طرداً. وها أنا ذا كما في أيام طفولتي عدت لأكره دوغان من جديد.

لا، ليس عليّ الانخراط في هذه المعمعة، فحتى لو بدت حياتي التي كونتها بائسة بالنسبة إلى الكثيرين، لكنها كانت تلائمني، والمفارقة أنني وثمناً لهذه الحياة التي اخترتها، افترقت عن زوجتي، وخسرت مهنتي، وكانت علاقتي سيئة بابني .ورغم ذلك لن أسمح لأحد، وبخاصة لأخ جاحد مثل دوغان أن يدّمر لي عالمي الخاص. هذه النتيجة التي توصلت إليها بشكل مفاجئ ملأتني بالراحة والثقة، وتحت تأثير هذا الشعور بدأ مونولوجي.

»كيف لك أن تقوم بقتل الناس، والتورط مع عصابات قذرة، وبيع المخدرات، وفي النهاية تأتي لطلب المساعدة مني؟ لن تستطيع خداعي، كما أنني لست واثقاً حتى الآن من حقيقة ما رويته لي، فربما كانت كلها خطة من أجل توريطي، ألا يعقل ذلك يا دوغان أفندي؟ لِمَ لا تطلب المساعدة من أصدقائك القوميين القدامى؟ .«وحين كانت الخالة كريمان المسكينة، ترجو ابنها وهو في المدرسة الداخلية :عُدْ هذا الصيف يا ابني إلى المنزل، كان يجيبها :لا أستطيع يا أمي، فلدي معسكر صيفي.

ولم يكن المعسكر الذي يتحدث عنه، مخصصاً للكشافة، بل أشبه بمعسكر تدريب حقيقي لفرق الكوماندوس .وقد سأله والدي ذات مرة :ما هذا المعسكر يا

دوغان؟ هل أنتم جنود؟

ولكنه لم يدع الرجل يكمل حديثه، بل تبجّح بالقول:

»وما أدراك بهذه الأمور؟ نحن أيضاً جنود ولكن دون أن نتقاضى شيئاً، فنحن نحمي هذا البلد تطوعاً، كما أنّ معسكرنا أكثر انضباطاً من معسكرات الجنود، ونتلقى تعليماً أوسع.

كان هذا المعسكر المنضبط ذو التعليم الواسع، يعلمهم كيفية ضرب كل الأشخاص الذين يلصقون بهم تهمة الشيوعية الفضفاضة، وكيفية طعنهم بل وقتلهم .وكان معظم هؤلاء الشيوعيين المزعومين الذين أعلنوهم أعداءً، هم أصدقاؤهم من الحي والمدرسة ويماثلوهم في العمر تقريباً، وبالطبع كنت أنا أيضاً ضمن هذه القائمة السوداء .لماذا لا تلجأ إلى أصدقائك المدّعين، الباطنيين، ورافعي رايات القضايا المريبة؟ ولماذا تلجأ إلى يساري سابق وكحولي حالي مثلي؟ فقد كنت تهوى ترديد شعاراتك الطنانة» :سننفيكم جميعاً إلى موسكو .«ألا تخجل الآن طلب المساعدة من منفيي موسكو؟ وحين اضطررتَ للاحتماء بالخارج، كنت تراسلنا من هناك وأنت تقول» :الحمد والشكر لله أنني هنا بين رفاقي .«لِمَ لا تعود إلى رفاقك الذين كنت تحمد الله لوجودك بينهم لطلب المساعدة، وتلجأ إلى رجل مثلي لا ناقة له ولا جمل في هذا الدرب؟

استيقظت من شرودي على صوت بوق قوي، وانتبهت في آخر لحظة أنني انحرفت نحو الجهة المعاكسة من الطريق .وعلى الفور حاولت العودة إلى الجهة الأخرى ممسكاً بالمقود بحزم، أما سائق الفولفو البدين التي مرت بجانبي مسرعة، فقد حاول بكل الإشارات البذيئة والصراخ أن يوضح لي الشتائم التي انهالت عليّ وعلى سلالتي مروراً بالمرحومة والدتي وانتهاء بمن لا أدري.

أشعلت سيجارة فجالت غيمة الدخان الكثيفة داخل جسد البليماوث

العجوز، وعاد وجه دوغان الحزين بنظرته المنكسرة يرتسم أمامي، وتردد صوته المهزوم على مسامعي .فانتابتني نوبة حنق على نفسي، حاولت خلالها مسح صورة نظراته ونبرات صوته وكل ما يتعلق به من ذاكرتي .لماذا أهتم به؟ فهو لم يكن يعني لي شيئاً، وحتى أنه لا تجمعني به رابطة دم حقيقية .كما أنه كان شخصاً فاسداً سيئ الأخلاق، ولا تربطنا أي صفة أو اهتمام مشترك :اختياراتنا للملابس، طريقة حلاقة شعرنا، طريقة تفكيرنا وردود أفعالنا، الأطعمة التي نحب، نوع السجائر التي ندخنها، كلها مختلفة ولا رابط بينها.

السجائر التي نشرب؟ أظننا كنا ندخن السجائر ذاتها، ولم يقتصر الأمر على السجائر، فالأهم من ذلك، اليتم الذي عانى منه كلانا ونحن في سن مبكرة.

عادت إليّ الفترة التي انضم فيها دوغان إلى اليمين القومي، كان حينها يدرس في المدرسة الداخلية التي أجبرناه أنا ووالدي على الانضمام إليها، لم نعلن عن رغبتنا تلك صراحة، ولكن كلينا انتهز كل فرصة ممكنة ليوضح له أنه لا يملك مكاناً في منزلنا .وقبل أن يبلغ السادسة عشرة من العمر، أُرغم على ترك أقرب الناس إليه؛ والدته التي اضطر لتركها حين غادر المنزل .ربما كان الحقد الذي يكنه لنا، أو العجز والوحدة هما ما دفعاه للانضمام إلى جموع المحتجين، رغم أنه لم يعلق مطلقاً على الأحداث بهذه الطريقة، وحتى حين كان يردد »الحاضر كله غير مهم ولا يحمل أي قيمة « لم يبرر ما حصل قائلاً» :إن أسباب الأخطاء التي ارتكبتها تعود جذورها إلى طفولتي، وإنك أنت ووالدك تتحملان جزءاً من المسؤولية .«ولم يؤنب أحداً على ما جرى.

أظنني أجور عليه قليلاً، فقد أخرجته الحياة مثلي تماماً من مركز الأحداث لتحيلنا إلى ركن منسي .فلم يبقَ من ذاك الشاب الذي كان ينوي تغيير العالم برمته، ولم يكن يفارقه الغرور والاختيال، سوى أنقاض، وخيبات أمل .هل عليّ مساعدته بالفعل؟ فلو كان والدي حياً لوافق على مساعدتي له، ولرجتني الخالة كريمان من

أجل حماية ابنها .حينها أدركت أن قلبي بدأ يلين.

ورغم أنني لم أعرف أمي، لكنني لم أفكّر ولو للحظة أنّ الخالة كريمان قد حلّت محلها .وفي الحقيقة أنا لا أملك أي ذكرى عن والدتي، فقد فارقت الحياة أثناء ولادتي .فلم أسمع صوتها، ولم أرَ وجهها، ولا فكرة لدي عن رائحتها .فلم يكن التفكير في هذا الأمر يشغلني، ولكن والدي في المرات القليلة التي كان يحدثني عنها، كان يقول إنها كانت امرأة رائعة .ورغم ذلك لم تربطني بذكراها علاقة قوية جداً. وقد كانت الخالة كريمان من أعادت الدفء إلى منزلنا، فبعد وفاة والدتي بقي أبي مترملاً لسنوات طويلة، وتولت جدتي لوالدي أمر العناية بي في سنوات طفولتي الأولى، وقد كانت امرأة حادة الطباع .ولكن بعد وفاتها فكّر والدي بالزواج .ربما انتظرني حتى أكبر قليلاً، ولا أستطيع القول إن اختياره للخالة كريمان كان خاطئاً، فلم تكن شخصاً سيئاً، كانت نشطة، تحب المساعدة، وعطوف .صحيح أنها كانت تعاملني بشكل رسمي، ولكن سبب ذلك لا يعود إلى برودة طباعي، قدر عودته إلى العداء بيني وبين دوغان .وقد يكون هذا ما دفعها لأن تخفي عني أرشيف والدي الغني عن السيارات، فقد كانت تلك طريقتها في معاقبتي .والأسوأ أنني، حتى بعد وفاتها، لم أتمكن من العثور على هذا الأرشيف .والاحتمال الأكبر أنها باعت الأرشيف لأحد باعة الخردة الجوالين، وربما قامت برميه أيضاً .وأذكر أنني استأت وتحسرت على الأمر كثيراً .فذلك الأرشيف لا يعني شيئاً لمن لا يهتم به، ولكنه يشكل كنزاً لا يُقدر بثمن لمن يعرف قيمته الحقيقية.

لقد حصل كل هذا منذ زمن طويل، والآن تحضرني الذكريات الطيبة عن الخالة كريمان أكثر من تلك المزعجة .فرغم أنها لم تمثل لي الأم التي فقدتها، فقد كانت على الدوام تلك المرأة المسكينة التي تصبغ حياتها مسحة من التعاسة، والتي لم تكن تتوانى عن مساعدتي عند الحاجة .والغريب أنني اليوم وللمرة الأولى أستحضر ذكراها بمحبة كأخت كبرى .ما الذي سيفكر فيه دوغان لو أطلعته على هذه المشاعر؟ »أنت منذ الصغر كنت عاطفياً أكثر مما يجب «أظنه سيتملّص من الحوار

بهذه الطريقة .ربما كنت مخطئاً، فقد بدا مختلفاً بصورة جذرية.

لقد تغير بعد أن أغرق نفسه في البراز حتى عنقه .وكأنه لم يكتفِ بذلك بل جاء إليّ ليجرني إلى المستنقع القذر ذاته.

ولكني لا أعتقد أنّ الوضع خطير إلى هذه الدرجة الكبيرة .فمهمتي ستقتصر على إجراء الريبورتاج، وهو من سيعترف، ويكيل الاتهامات، ويخرج ما في جعبته من أدلة .أما أنا فسأتصرف بكل حيادية، وأطرح الوقائع كما هي دون تدخل.

بالطبع ولِمَ لا؟ فهؤلاء الأشخاص الذين سأقوم بكشف الغطاء عنهم، وتوجيه الاتهامات إليهم، وقد يتسبب الأمر في فقداهم لثرواتهم، وحبسهم، بل واضطرارهم للهروب خارج البلاد، سيقولون لي »شكراً عدنان سوزمان، فقد كنت حيادياً تماماً في تعاملك معنا، ومثالاً للصحفي النزيه، وتستحق الميدالية التي سنقلدك إياها .«يا إلهي أين تظن نفسك تعيش يا هذا؟ فهذا البلد هي من أكثر البلدان التي يتم فيها قتل الصحفيين، وسيتم نشر نعيك على الفور .فهنا وعلى مرأى من الجميع، حتى رجال الشرطة يتم خطفهم، ويثقب الرصاص أجسادهم دون رقيب أو حسيب .عُدْ إلى رشدك يا رجل !فمجرد حديث صغير مع أخيك غير الشقيق جعلك تفقد كل حذرك، وتصدق ادعاءاته بعدم تعرضك لخطر حقيقي، ولكن من يدري ما هي الدسائس والمؤامرات التي أخفاها عنك؟ فهوية المتورطين في القضية بحد ذاتها تدعو للريبة :زعيم إحدى العوائل المتنفذة، وعقيد سابق في الشرطة، ومتطرف سابق، وأغلب الظن أن الأخير رجل مخابرات مهم .إنها لا تقل تعقيداً عن حادثة سوسورلوك .[1]فكيف لك أن تعتقد أنه ليس عملاً خطيراً؟ ما الذي ينقصه ليصبح كذلك؟ اعذرني يا أخي، ولكنني سأبقى خارج هذه اللعبة. أعترف بأنني ربما جُرت عليه في ما مضى، وتصرفت معه بطريقة خاطئة، ولكن ذلك ليس مبرراً ليتحول قاتلاً أو يتورط مع عصابات مشبوهة .لماذا عليّ أن أدفع ثمن

أخطائه؟ فرغم كل شيء هناك زوجتي السابقة، وهناك ابني، وليس من حقي التلاعب بمستقبلهما .وأما بالنسبة إلى دوغان فقد كان الأمر معاكساً تماماً، فقد ظل طوال الوقت يردد أنها خبطة صحفية سترفعني إلى ذروة المجد المهني، وكأنني ألهث خلف فرصة من هذا النوع.

لا أريد يا رجل، فأنا سعيد بهذه الحياة.

رغم أنه من الجيد تلقين ذلك الدعيّ رئيس التحرير بحري درساً جيداً، بالإضافة إلى شكيب الذي يظن نفسه أفضل صحفي على وجه الأرض، وستكون فرصة ليتعلم كيف تكون المادة الصحفية الحقيقية، ولكن.

ليذهب الجميع إلى الجحيم، فأنا لا أنوي التورّط مع هؤلاء المجرمين .فكيف لي أن أتأكد أنّ دوغان يروي الحقيقة؟ من الواضح أنه قد حُصر في زاوية لعينة، وسيفعل المستحيل، ويردد كل أكاذيب الكون للنجاة بنفسه.

من جديد تراءى أمام ناظري وهو مهزوم ذليل، وترددت على مسامعي كلماته وهو يقول لي» :الأحداث التي تتسبّب في القضاء عليّ قد تسهم في بزوغ نجمك.«

»وماذا لو لم يكن كاذباً؟ «تمتمت »ماذا لو كان يقول الحقيقة؟ وليس لديه نوايا سيئة؟ وأنه حقاً يريد أن يسدي لي صنيعاً؟ «بريق الأمل الذي بدأ يلوح لي بين غيوم الأفكار، كان كافياً ليلسعني بألسنة القلق الذي أحسست بلهيبه يحرق أطرافي» .لا لا، لا أريد «بدأت أردّد بصوت مرتفع .فأنا راضٍ عن حالتي .صحيح أني بتّ عاطلاً عن العمل الآن، ولكنني لن أعدم فرصة عمل جديد عما قريب .لذا عليّ الابتعاد عن المشاكل قدر المستطاع .فما لي ومشاكل دوغان ومؤامرات عصابته .ومن أنا حتى أتنطح لإنقاذ هذا البلد وهذا العالم الذي تحول إلى شبكة قذرة من الفوضى؟ سأواصل تجرع شرابي، دون تعكير مزاجي .وما إن مرّ ذكر

الشراب بذهني، حتى أحسست بطعمه اللاذع ينساب لينعش جوفي، وكان هذا الإحساس كافياً ليعيد لي بعضاً من الراحة .هذا ما كنت عليه، فليس من فضيلة أحسن في العالم، قدر معرفة الإنسان لحقيقته .وأنا أعترف بأنني رجل جبان، وكسول بعض الشيء أيضاً .لذا لا داعي للتنطح لما لا طاقة لي به .إنها الحقيقة بكل عريها.

سحبت آخر نفس من سيجارتي التي كانت على وشك الاحتراق، وأطفأت عقبها في المنفضة، وعدت إلى التركيز من جديد على قيادة سيارتي، وحينها لاحظت أنّ الشمس قد اختفت مجدداً، فيما يمتد الشريط الإسفلتي أمامي برتابة مضجرة، وبدا واضحاً أنها ستمطر مجدداً .شغّلت الراديو على أمل تشتيت أفكاري، فطالعتني إحدى الفنانات بصوتها الجهوري وهي تغني إحدى أغاني الأرابيسك .2 لم أهتم كثيراً بنوع الموسيقى، ولكن صوتها كان رديئاً بالفعل .غيرت المحطة، فجاءني صوت لم أستطيع تمييزه إن كان لامرأة أم لرجل، وهو يغني البوب، كانت كلمات الأغنية التي يرددها من الرداءة، بحيث أنها لن تخطر حتى ببال أسوأ مؤلف في العالم. فغيرت المحطة على الفور، لتطالعني محطة تذيع نشرة أخبار .ولم أكن في مزاج يسمح لي بسماع أي أخبار، ولكن المذيعة بصوتها المعدني البارد تصرفت قبلي، وأعلنت العثور على جثة العقيد رفعت في إحدى حاويات القمامة بالقرب من مركز المدينة. فتركز انتباهي كله على سماع تفاصيل الخبر.

فالعقيد رفعت باش أوغلو الذي انقطعت أخباره عن أسرته منذ ثلاثة أيام —والمقال من عمله —قد تمّ العثور على جثته في إحدى الحاويات البارحة صباحاً. وقد قتل برصاصتين تمّ إطلاقهما على عنقه من الخلف .وتعتقد الشرطة أنّ هذه الجريمة ترتبط بجريمة قتل بكير كايتان مع عشيقته، والتي تمت منذ مدة وجيزة .وبعد أن وضحت المذيعة أنه قد تمَّ فتح تحقيق موسع بهذا الشأن، انتقلت إلى خبر آخر. وهنا بدأت أفكر في احتمال صدق ما قاله دوغان لي .وماذا لو كان ينوي خداعي؟

أجل فهذا وارد، لذا ليس عليّ التسرع في اتخاذ القرار .ولن أحسم أمري في أي اتجاه قبل معرفة كل تفاصيل القضية .ولكن مالي وكل هذه الترّهات؟ ألم أقرر بأنني سأبقى بعيداً عن الأمر كله؟ لِمَ لا أزال أفكر فيه حتى الآن؟ الجواب واضح، فأخي دوغان قد لجأ إليّ طالباً مساعدتي .ولكن دعك من خداع نفسك يا عدنان، حسناً، فصحيح أنك سررت لأنه طلب مساعدة منك، وعادت إليك الذكريات التي كنت على وشك نسيانها، وابتهجت للأمر، ولكن ليس هذا هو السبب الحقيقي الذي يدفعك للتفكير بهذه القضية، بكل هذا العمق .أنت صحفي مخضرم يا رجل، وتستطيع شم رائحة الخبر المثير من كيلومترات بعيدة .وما إن بدأ دوغان بسرد الأحداث، حتى أدركت بأنك أمام قضية على جانب كبير من الأهمية. فأخوك غير الشقيق يقدم لك فرصة حقيقية على طبق من ذهب .وكل ما عليك فعله هو الجلوس وسماع بقية تفاصيل القضية، وطرح الوقائع أياً كانت، وتقديم الأدلة، والصعود مجدداً وبسرعة كبيرة نحو القمة التي سقطت عنها .فهذا هو السبب الذي يدفعك لتكبد مشقة التفكير في القضية، والذي في الوقت ذاته يجعل لعابك يسيل، من دون أن تتمكن كل كميات الشراب التي عاقرتها من قتل حدسك الصحفي .ورغم تبجحك بالقول إنك انسحبت من مسرح الأحداث إلى ركنك القصي، وأنك أصبحت برماً بالناس، فهناك تلك الرغبة الأنانية القوية، التي ما زالت تقودك لاستغلال أي فرصة، والاستفادة من علاقاتك مع الجميع، وادعاءاتك بمحبتك للخالة كريمان، أو الانكسار الذي بدا على دوغان .كلها مجرد ترهات. وعليك الاعتراف أنك لا تختلف عن بقية الناس الذين تكرههم .لكنك تختبئ خلف الكلمات الكبيرة، والشعارات الرنانة .كذب .أنا لست شخصاً مدّعياً .ولا تهمني المقولات الكبيرة، فقد ماتت جميع المبادئ بالنسبة إليّ .حقاً؟ أتصدق كلمة مما تقوله؟ أليس الابتعاد عن الناس نوعاً من التكبر والادعاء؟ ألا يضفي استصغارك لهم نوعاً من القيمة على حياتك؟ ولكن لا داعي لأن تجور على نفسك كثيراً، فلن يتوانى معظم زملائك ولو للحظة حين تسنح لهم فرصة مماثلة، عن التضحية بأعز

أصدقائهم، من أجل التمسك بها، حتى أنهم قد يضعون نصب أعينهم احتمال ارتكاب جريمة للوصول إلى غايتهم.

»يكفي، كفّ عن الثرثرة «بدأت أصرخ علّني أسكت الأصوات التي كانت تتصارع في ذهني .ولكنني كنت متيقناً أنها لن تسكت .لذا، قمت بإغلاق الراديو قبل أن تنتهي نشرة الأخبار، وأشعلت سيجارة جديدة، وضغطت على دواسة البنزين حانقاً، وكأنني إن أسرعت بالابتعاد عن هذا المكان ستنحل المشكلة من تلقاء نفسها.

الفصل السادس

ركنت البليماوث في مكان آمن في مرأب تقسيم، وانطلقت بعدها للانخراط وسط الجموع متجهاً نحو بيه أوغلو، وأدركت حينها الراحة التي يسبغها إحساسك بأنك جزء من الجموع .فضياع الفرد وسط مجموعة لا تعرفه ولا تبالي بوجهته أو أفكاره، يخلق شعوراً لا يُقارن بالراحة .حينها خطر لي أولئك المشاهير الذين يتعقب الجميع خطواتهم، فأدركت كم هم محكومون بحياة بائسة .وأظنهم لن يتوانوا عن دفع أي ثمن مقابل السير كأناس عاديين وسط هذا الخليط الحاشد .أما أنا الأحمق فأريد توريط نفسي في مواجهة مهالك تحرمني من هذه الراحة والأمان، وأتقلب على جمر التردد، من دون أن أرى الخطر المتربّص بي .وكنت في الوقت ذاته مدركاً أن لا جدوى من إثقال كاهلي باللوم والتأنيب، ولكن سواء كانت أعذاري تنحو باتجاه الفضول أو الطموح المهني أو رغبة في مساعدة دوغان، فلم أتمكن من التوقف عن التفكير في الأمر.

في الحقيقة، ما كان ينقصني هو المعلومات لمعرفة مقدار الحقيقة في اللوحة التي رسمها دوغان .وهذا لم يكن بالأمر الصعب، يكفي التوجّه نحو النادي الذي يرتاده زملائي عادة .فحتى لو لم أتطرق إلى خبر العثور على جثة العقيد، فلا بدّ أن يتنطّح أحدهم ويدلي برأيه .ولكن الوقت لا يزال باكراً، وجماعتنا لن تأتي إلا بعد انتهاء الدوام بوقت كافٍ .وإن قررت الذهاب منذ الآن وبدأت الشرب، فسيُذهب الشراب بعقلي، ولن تكون لدي القدرة على طرح الأسئلة وأقل من ذلك سماع ما يقال من حولي .ليتني أذهب لرؤية إرول، فالجريدة التي يعمل فيها قد اهتمت كثيراً

بهذا الخبر، ولا بدّ أنه يمتلك معلومات كثيرة .لا، لا .أظنني قد أحسنت الصنع بعدم الذهاب، فرئيس التحرير نصرت كفِلجِم لا يحبني كثيراً .ولكن لا أظن أنّ هناك أي رئيس تحرير يحبني، والأدهى أنّ إرول سيلحظ ما أخفيه منذ لحظة دخولي، فبعد كل هذه السنوات من إهمالي للصحافة، كيف له أن يقتنع ببراءة أسئلتي حول مقتل زعيم عشيرة مثل بكير؟ ففي ظل عدم اتخاذي القرار حول ما سأفعله، لا أريد لأحد أن يعرف اهتمامي بهذه القضية.

أحقاً لم أقرر بعد؟ إذاً لِمَ كل هذا التفكير؟ ولِمَ كل هذه الحيرة من أجل الحصول على مصدر معلومات؟ فلأكن صريحاً مع نفسي، من الواضح أنني سأقوم بهذا العمل .وقد توصلت إلى هذا القرار منذ اللحظة التي رأيت فيها دوغان وحدست أنني أقف أمام خبطة صحفية حقيقية .هذا غير صحيح، فأنا لم أقرر بعد ما سأفعله .كل ما في الأمر أنني لا أزال أفكر، وقد يكون من الأفضل طلب المشورة من أحدهم قبل أن أورّط نفسي في هذا المأزق .ولكن من هو الذي أستطيع إخباره بأمر كهذا؟ سأُبعد الصحفيين من القائمة، فلا يمكن إخبار أحد منهم، فهم سيستولون على الخبر كقراصنة لمحوا بريق الذهب .ولا مانع لدي من ذلك، ولكنني قد وعدت دوغان بالتكتم، ومن المعيب أن أخلف بوعدي .كما أنّ الأمر قد ينطوي على خطورة تمس حياته .فقبل وصول الخبر إلى الجرائد سيقضون عليه .ولا يمكن التغافل عن عدد الجواسيس الموجودين في وسطنا الصحفي.

هل أُخبر فوندا؟ صحيح أننا انفصلنا، ولكنني لا أملك أقرباء غيرها، كما أنها امرأة ذكية، وإذا أحست بوجود خطورة قد تصيبني من هذا الأمر فستحرص على إبعادي عنه .أجل، أجل ..فهذه فكرة صائبة، كما أنها ليست مترددة مثلي في اتخاذ القرارات .فما إن أطلعها على مجريات الأمر حتى تشير عليّ بما يجب، أو بالأحرى بما لا يجب فعله.

فوندا قريبة مني، في شارع كازنجي، وهي تعمل مسؤولة خدمة الزبائن في

شركة إعلانات كبيرة .لكن قبل الذهاب إليها عليّ الاتصال بها هاتفياً؛ فقد تكون مشغولة الآن، ولا أريد أن أحرجها بذهابي المفاجئ .أخرجت الهاتف النقال من جيبي وبدأت بضغط الأزرار، وبدل صوتها، ردّ عليّ صوت امرأة لطيف، ليخبرني بأن الهاتف مغلق أو خارج نطاق التغطية .قد تكون في اجتماع ما؟ أو ذهبت في رحلة عمل خارج المدينة .خطر لي أن أجرب حظي وأتصل بهاتف الشركة مباشرة، فردت عليّ السكرتيرة لتخبرني أنّ السيدة فوندا لم تكن على ما يرام، وقد أخذت إجازة لتعود إلى المنزل.

-هل هناك من شيء جدي؟

سألتها بقلق.

-لا أظن ذلك، فقد أخبرتني أنّها تعاني من صداع، ربما تعرضت للبرد لا أكثر.

منزل فوندا؛ أو منزلنا القديم في منطقة جيهانغير، وعند انفصالنا انتقلتُ إلى شقة صغيرة في منطقة بيشيكتاش، فيما بقيت هي مع ابننا في هذا المنزل، وهو على بعد خطوتين من هنا، فلِمَ لا أذهب إليها فقد تكون بحاجة إلى شيء ما. ولكن قد تكون نائمة، فهاتفها النقال مغلق .ولا أريد أن يتحول وجودي لمساعدتها إلى إزعاج .ولا يعلم إلا الله أين هو أوموت الآن !إما في مقصف الجامعة، وإما مع فتاة جديدة من الفتيات اللواتي يصاحبهن كل فترة .ما زلت أملك نسخة عن مفتاح منزل جيهانغير، ولكن ألا يعتبر دخولي المنزل دون طرق الباب معيباً؟ لا أعتقد ذلك، فقد بقينا معاً لمدة عشرين عاماً .وهذا بكل الأحوال أفضل من طرق الباب وإيقاظها وهي مريضة .سأحضر لها شوربة لذيذة كما في الأيام الخوالي، لتكون مفاجأة سارة لها عندما تستيقظ .في العام الماضي عندما أُصِبت بوعكة صحية، لم تفارقني فوندا حتى شُفيت .وها هي الفرصة قد جاءت لرد جميلها، ولكن هل مستلزمات الشوربة موجودة لديها في المنزل؟ سأمرّ على المتجر لشراء ما أحتاج

إليه، ولكن قبل ذلك فلأذهب إلى بائع الورد الذي في الزاوية القريبة، لأنها مولعة بأزهار النرجس.

بعد نصف ساعة، مع أربع باقات نرجس وبقية الأشياء التي اشتريتها كنت أصعد السلالم التي بقيت ولمدة عشر سنين أهبطها كل صباح وأصعدها كل مساء .ولو صرحت بأنّ هذه السلالم كانت أحد عوامل نفوري من مهنتي، سأصبح بالتأكيد مدعاة سخرية أمام الآخرين .وسيكررون على مسامعي الجملة التي باتت تثير غثياني لكثرة سماعها» .لقد سمّم الشراب ذاكرتك أيضاً .«ولكنني متيقن من الأمر، فهذه السلالم الخشبية، بل هذا الدرابزين الخشبي، هو الذي كان يشعرني بأنني أدور في حلقة مفرغة، وأن حياتي مجرد رتابة مفزعة، رغم أنني متيقن من أنّ نعت مهنتي بالرتابة ستثير البلبلة في الأذهان؛ فمهنة الصحافة هي من أكثر المهن حيوية، وبعيدة كل البعد عن الرتابة، وأكثر من ذلك، فالكل يعلمون أنّ هناك زملاء كثيرين في المهنة، لم تسعفهم بنيتهم من تحمل هذا الضغط المتواصل، وأصيبوا بنوبات قلبية أودت بهم إلى القبر قبل بلوغ الستين .وحتى قبل ثلاث سنوات كنت أنا أيضاً أنضوي تحت راية أولئك المقتنعين بأنها مهنة ممتعة لا يماثل فيها يوم ما سبقه، فهناك على الدوام أحداث جديدة، وشخصيات متنوعة نتعرف إليها ونقدمها إلى القراء، ولكنني فيما بعد أدركت كم أنّ أيامنا متماثلة .صحيح أنّ الأشخاص يختلفون والأحداث والأماكن تختلف في كل مرة، ولكن الثابت فيها مطاردتنا المكرورة ذاتها للحدث، والتي لم تكن لتتغير مطلقاً .فمهما تكن الأحداث مشوقة أو غريبة، كوميدية أو تراجيدية، فلم يكن هناك من تغيير في وضعنا .نذهب إلى مكان الحدث، ونلتقي بالشهود أو بأطراف القصة ونجري الريبورتاج، ونلتقط الصور، وإن اقتضت الضرورة نقابل بعض المختصين بالموضوع، ونتحرى عن وجهة نظرهم .وأياً يكن الخبر، فعلينا الانتهاء منه قبل المساء، ليكون جاهزاً لنشره صباح اليوم التالي، وفي بعض الأحيان ينشر في اليوم ذاته .وكانت هذه الطقوس تعاد مراراً وتكراراً ..مراراً وتكراراً ..مراراً وتكراراً.

كان صديقي توفان الذي توفي قبل عامين –تغمده الله بواسع رحمته– بتليف الكبد، مسؤولاً عن الزاوية الرياضية في الجريدة، وإن كان يعمل في الأخبار الرياضية فهذا لا يعني بأي حال أنه لم يكن خبيراً في بقية مجالات الصحافة .بل على العكس كان أكثر من تعرفت إليهم ذكاء وعلماً وثقافة، وكان إلى ذلك أمتعهم صحبة .أحياناً كان الحديث معه يتحول إلى ما يشبه مواعظ المدرسين، ولكن مسامرته تبقى على الدوام أمراً شيقاً .كان في البداية مدرساً لمادة الفلسفة ولكنه ترك التدريس فيما بعد، وعمل مدرباً لفريق كرة السلة .وربما كان هذا سبب معرفته العميقة بالناس .وكانت هناك رياضة أخرى يفضلها إلى جانب كرة السلة وهي سباق السيارات .وما إن يسمع بموعد سباق ما في أي مكان، يحاول الوصول للمشرف على السباق بأي وسيلة، ليحجز له مكاناً، وإن أعيته الوسائل يدفع ثمن التذكرة من جيبه الخاص ليكون بين الحضور .حتى إنه في إحدى المرات سافر إلى إيطاليا من أجل حضور سباق للسيارات .وقد التقينا في اليوم التالي في قاعة الطعام، وأخبرنا أنّ أحد المتسابقين الألمان المشهورين فقد حياته أثناء السباق نتيجة حادث، وقد بدا متأثراً جداً بما حصل له .وحين حاولت مواساته قائلاً إن هذا النوع من الحوادث وارد الحصول في هذه السباقات، نفى الأمر بحركة من رأسه، موضحاً أنّ الأمر ليس كما يبدو عليه، فالمتسابق كان ذا خبرة لا تُضاهى في القيادة، ومن المستبعد أن يرتكب خطأ مبتدئ يودي به إلى هذا الحادث المميت .وكان يرى أنّ في الأمر ما يثير الريبة» .إذاً لماذا لم تتقصَّ عن الحادث؟ «سألته، فأوضح لي أنه تقصّى عن الأمر، فبعد الحادث ذهب للقاء مدير أعماله الذي هو في الوقت ذاته أقرب أصدقائه، فقال له:

–هذا ليس حادثاً بل هو انتحار.

–ولكن لِمَ؟

سأله توفان مستوضحاً.

-لأنه ملّ من هذه المهنة.

لكن توفان لم يدرك ما يعينه.

-كيف له أن يملّ؟ فكل سباق هو شغف جديد ومتعة مغايرة؟ ومخاطرة مختلفة؟

كان يسأله.

-وهذا بالضبط ما سبب له الملل .فمهنته التي لا تشكل للآخرين سوى لحظات من الشغف والمغامرة والإثارة، قد تحولت إلى حلقة فارغة تعيد نفسها برتابة لا جديد فيها .ورغم أنه فاز بكثير من الجوائز على هذه المدرجات، ولكنه فقد في نقطة ما من هذا الشريط الإسفلتي معنى الحياة وشغفها .وربما ظناً منه باستعادة ذلك المعنى قرر التخلي عن حياته على هذا الشريط الإسفلتي بالذات.

-لماذا لم يتوجه إلى مهنة أخرى، ما دام وصل به الملل إلى هذا المستوى؟
—تدخل توفان معترضاً —ما الذي جناه من قرار كهذا؟

لكن المدير نظر إليه بحيرة وهو ينهي المناقشة بنتيجة حاسمة:

-إذا شعر شخص بالضجر من مهنة كسباق السيارات، فسيشعر بها إزاء كل مهنة أخرى.

لا أنكر أنّ حديثه أثرّ فيّ ولكن.

-لا نستطيع قول الشيء ذاته عن جميع سائقي السيارات.

علّقت على الحادثة معترضاً.

-معك حق —وأضاف —يبدو أن صديقنا المنتحر قد وصل إلى قعر الهاوية.

إذاً علينا عدم المخاطرة بالنزول إلى أعمق مما يجب .لا أذكر من الذي توصل إلى هذه النتيجة وقالها، أنا أم هو، أم لا أحد منا، بل هي خلاصة ذكرى بقيت معلقة على حبال ذاكرتي دون أن ينطق بها كلانا، ولم تكن وليدة تلك الجلسة، بل خطرت لي فيما استحضر السائق المنكوب في مناسبة ما .لكن المهم هو عدم النزول إلى أعمق مما يجب، وقد كنت مقتنعاً بهذه النتيجة حينها .ولكنني مع الوقت نسيت هذه الحكمة العملية، بل ونسيت معها الحادثة التي تعرض لها المتسابق أيضاً، إلى أن زارني هو نفسه في أحد أحلامي، بشعره الأجعد وقامته القصيرة، ووجهه الشاب الطفولي الملامح .والغريب في الأمر أنني لم أره يمر بي وهو في سيارته كما يُفترض، بل وجدته يمتطي درابزين السلالم الخشبي في المبنى الذي أقطنه، ويحاول الانزلاق عليه نحو الأسفل كطفل شقي .كان ينحدر نحو الأسفل بسرعة، وما إن يصل الطابق الأرضي حتى يصعد ويعاود الكرة من جديد تاركاً نفسه ينزلق نحو الأسفل.

-ما الذي تفعله؟

سألته.

-أتسابق.

ردّ علي.

-أي نوع من السباق هذا؟

عدت للسؤال.

أدخل يده في إحدى جيوب بدلة السباق التي يرتديها وأخرج حاسوباً صغيراً .وأوضح لي أنّ هناك سبعين متسابقاً، ينتمون لسبعين دولة في العالم، وهم في هذه اللحظة يمارسون السباق ذاته، حيث يتم تقييم أدائهم من خلال هذه

الحواسيب .وبهذه الطريقة سيتم تحديد الفائز بالمنصب الأول.

-ومتى بدأت هذه المسابقة؟

تساءلت في حيرة.

-ألم تلحظ؟ —قالها بنبرة جدية كمن يشرح أمراً على غاية الأهمية — حين خرجت من باب المنزل.

-ومتى ستنتهي؟

-عندما تعود إلى المنزل.

عندما استيقظت كان صدى كلماته لا يزال يتردد في مسامعي »بدأت منذ خروجك من الباب .وستنتهي عند عودتك إلى المنزل.«

في تلك الفترة كنت أخرج صباحاً في ساعة محددة إلى الجريدة، ولكن ساعة عودتي لم تكن محددة، بل مرتبطة بطبيعة الخبر الذي أعمل عليه، فقد ينتهي باكراً، أو يمتد إلى ساعات متأخرة من الليل .ولكنني في كل صباح كنت أوجد في الجريدة قبل الساعة العاشرة صباحاً .وفيما أخرج من المنزل صبيحة رؤيتي لذلك الحلم الغريب ظلت عيناي معلقتين بالدرابزين الخشبي .وعادت إلى مخيلتي مشاهد المتسابق الشهير وهو ينزلق نحو الأسفل على هذا الدرابزين المتهالك، حيث أطاحت عوامل الزمن بمساحات كبيرة من الطلاء على أجزائه الحديدية، وظهر السطح الخشبي الخشن في الأماكن التي تقشر عنها اللكر .هل كان صعوده وهبوطه المكرران بمثابة رسالة ملغزة لي؟ ولكن على الفور تدخل عقلي، ليهزأ بتحليلاتي السخيفة، واستخلاصي لنتائج غير مترابطة من مجرد حلم عابر .لذا نزعت هذه الأفكار الغريبة من رأس .فهي ليست سوى تداعيات لا منطقية ينتجها اللاوعي. وبدأت أضحك بيني وبين نفسي، وأنا أتلمس الدرابزين الخشبي في رحلة هبوطي

المعتادة .ولكنني رغم ذلك لم أستطع إبعاد المتسابق عن أفكاري طوال النهار .وفي النهاية، عندما أصبحت غير قادر على تحمل مزيد من هذا التخبط، اتجهت إلى توفان وأنا أبوح له بحلمي، فاستمع لي بصمت حتى أنهيت الكلام.

-لا —قالها موضحاً —فالمتسابق لم يكن ذا شعر أجعد ووجه طفولي كما تراءى لك، بل كان رجلاً ضخم الجثة، شعره قصير، وملامح وجهه حادة الخطوط .ولست متيقناً إن كانت روحه هي من زارتك في الحلم، أم أنّ عقلك الباطن هو من صاغ لك أفكارك في صورة هذا الحلم، ولكن ما أنا متيقن منه حقاً هو أنّ حلمك هذا يحوي رسالة مبطّنة، موجّهة إلينا جميعاً، وهي تشير إلى أننا دون استثناء ندور في حلقة مفرغة من دون هدف .وإن شئت الحقيقة فنحن أيضاً مسلوبو البصيرة برباط خفي على أعيننا، وقد ابتلينا به مع التعليم الذي تلقيناه في طفولتنا، وحصولنا على مهنة، والنقود التي نجنيها، والحب الذي نقع في شباكه، ومحاولاتنا التكيف مع الآخرين، في نجاحاتنا وخيباتنا، أحزاننا وأفراحنا، وما لا يُحصى من العقبات الخفية التي تعترضنا وتقضم جزءاً من أرواحنا، ونضطر إلى خوض كفاحنا اليومي معها دون توقف.

إنها رحلة تبدأ منذ طفولتنا وتتراكم، لتحجب عنا الرؤية كلما امتد بنا العمر أكثر .وتخفي حقيقة الحلقة المفرغة التي تشكلها الحياة والتي ندور فيها دون انقطاع، وبذلك نبدأ بالاعتقاد الأجوف أنّ كل يوم جديد مغاير لما سواه، وكذلك كل شخص نتعرف إليه، وكل موقف نتعرض له، ولكن أدمغتنا للأسف ليست أكثر تطوراً من أدمغة ثيران .فمهما تكن العلاقات معقدة، والناس مختلفين، والمواقف متنوعة، متقلبة وسريعة الحدوث، إلا أننا في مرحلة ما ندرك بوضوح كم أننا مجرد ثيران حصاد بالنسبة إلى الحياة التي تواصل الدوران بنا في حلقتها المعهودة. لا أدّعي بالطبع أنّ الجميع يصلون إلى الحقيقة ذاتها، فهناك الكثير من الحمقى الذين يواصلون الدوران بسعادة، لكن أمثالنا للآسف محكومون بإدراك الحقيقة ببصيرة أرواحهم .وحين نصل إلى مرحلة الإدراك نحاول التغاضي عن الحقيقة والتأقلم

معها، أو الوقوع في فخ القلق، والبدء بمحاولة تغيير الواقع، ولكن التغيير أمر بالغ الصعوبة وسط كل هؤلاء الحمقى السعداء بدوراهم الأجوف .وثمن المحاولة أقسى مما نتوقعه .فقد ينتهي الأمر بالمرء إلى التخلي عن روحه في نهاية المطاف.

لم أكن مقتنعاً بكلمات توفان، ومن خلال الضيق الذي ارتسم على ملامحي استشف ما أفكر فيه.

-لا بدّ أنني أضعت مغزى الحديث، وأصابك حديثي بالملل، أليس كذلك؟

قال.

-لا يا صديقي، فنحن نتجاذب الحديث لا أكثر.

عقبت على كلامه.

-لا، لا —قالها وهو يؤكد رفضه بهزة من رأسه —ليتني لم أترك مهنة التدريس، فالشرح وطرح الأفكار بهذه النبرة التعليمية من أكثر الأمور التي تستهويني.

رغم أنّ اعتراضي لم يكن على طريقة طرحه للأفكار، قدر اعتراضي على مضمون هذه الأفكار ذاتها .فقد رسم لي لوحة غاية في القتامة .صحيح أنّ الحياة كانت مملة، ولكنها في الوقت ذاته كانت مثيرة، وكل هذه التعاسات التي تتخللها، كانت تقابلها سعادات لامتناهية .ومن غير المستحسن تقييمها انطلاقاً من زاوية اليأس فقط .وقد بحت له بأفكاري هذه دون مواربة.

-سعيد لأنك تفكر بهذه الطريقة —ثم أضاف —هذا يعني أنك لم تفقد الأمل حتى الآن، وكنت أتمنى أن تحتفظ بهذا الإحساس على الدوام، ولكنني واثق من أنه إلى زوال ذات يوم.

-سنرى -قلتُها بتحدٍّ، كما لو أنني في خضم سباق حقيقي، فحينها كنت واثقاً من أنني لن أتحول إلى ما تنبأ به عني .وبقيت أواظب على العمل كما في السابق، ففي كل صباح أستيقظ متوجهاً إلى الجريدة، وأواصل مع زملائي تتبع الأخبار بنشاط محموم .ولكنني ولسبب لا أعرفه على وجه الدقة، كنت أستحضر كلمات المتسابق كلما خرجت من باب منزلي صباحاً» .بدأت منذ خروجك من الباب، وستنتهي عند عودتك إلى المنزل.«

في البداية كنت أسمع صوته عند مغادرتي المنزل، ولكن الأمر تطور فيما بعد، وبتّ أسمعه عند عودتي مساء أيضاً» .بدأت منذ خروجك من الباب، وستنتهي عند عودتك إلى المنزل .«ولكنني لم أعطِ الأمر أهمية، وما الذي كنت أستطيعه لو فعلت، فلو أخبرت فوندا، ستعلل الأمر بإرهاقي لنفسي في ساعات العمل المتواصلة، وستقترح على الفور أخذ إجازة من العمل، والذهاب لقضاء عطلة لبضعة أيام .أو سترسلني إلى طبيب نفسي .رغم أنني كنت على خير ما يرام، ولم أكن أواجه أي مشاكل سوى سماع صوت المتسابق المكرور .والذي كنت متأكداً من زواله على أي حال عما قريب .ولكنه لم يزل، بل على العكس بتّ أسمعه حين وصولي الجريدة، ودخولي المصعد وخروجي منه، بل وحتى أثناء اجتماعات العمل، ومزاولة بقية مهامي أثناء النهار، وهنا بدأت أكيل السباب لتوفان بيني وبين نفسي، فهو الذي أوصلني لما أنا عليه لما أخبرني بقصة المتسابق السخيفة تلك؟ لذا اتصلت به مساء أحد الأيام، وطلبت أن نلتقي، فاقترح النادي الذي يسهر فيه بقية زملائنا عادة، ووافقت .حين ذهبت مساء للقائه، كان من الواضح أنه أسرف في الشرب. وحين بدأت أسرد عليه ما يحصل لي، بدا للحظات وكأنه استعاد وعيه، ورغم أنه لم يعترف بالكلام الذي تلاه عليّ منذ مدة؛ لم يبدُ مُتفاجئاً، بل شعرت به يستشف روحي ليقرأ كل أفكاري.

-وأنت تتهمني أليس كذلك؟

قال لي.

لم أحر جواباً.

–ليس من الصواب إلقاء اللوم عليّ، لكنني قد أكون السبب في إزاحة الغلالة عن عينيك، فكل ما فعلته أنني رغبت في مشاركتك قصة المتسابق الألماني. وصدقني ما فعلت ذلك، لو أنني عرفت حينها ما ستؤول إليه الأمور .لا تلقِ باللائمة عليّ، فلست من خلق في روحك الملل .لقد كان موجوداً على الدوام، وحلمك عن المتسابق كان الباب الذي تسرّب منه هذا الإحساس إلى وعيك .وما أخشاه أنك ستماثلني في المصير، أي أنك ستصبح أسير هذا الملل المقيت .ربما قد تفيدك رحلة صغيرة، أو مراجعة طبيب نفسي.

وبجزع أدركت أن طريقة تفكيرنا كانت متشابهة، فالخيارات التي نسبتَها أفكاري لزوجتي، كان يطرحها هو أمامي .ولم تتمكن كلماته سوى من إثارة المزيد من الحنق في نفسي، فأنهيت النقاش، وانضم إلينا بعض الأصدقاء وتجددت كؤوس الشراب .وأخذت الأحاديث تنتقل من دائرة الإشاعات المتداولة في الجريدة، إلى وضع البلد الاقتصادي، إلى التصدعات التي تعاني منها الحكومة، حتى أزمة مصادر الطاقة التي يعاني منها العا لم .حين خرجت من المقهى كانت بيه أغلو كعادتها تعلو وتهبط على وقع الحشود الصاخبة التي لا تنقطع عنها .وكانت تبدو لي أجمل مما هي عليه رغم مزيج الروائح المنبعثة من زخم البشر والمطاعم وكل مظاهرها التي تضجّ بالحياة.

حين كنت أستدير باتجاه شارع سراسيفلير، صادفت رجلاً ضخم الجثة متجهاً نحوي بلهجة بين التهديد والاستجداء» .أرجوك سيدي، تعطف عليّ بمئة ليرة .«ودون أي تردد أعطيته ورقة من فئة المئة ليرة، فمد يده غير مصدق، كطفل تلقى هدية كبيرة، وعلى الفور اختفى بين الحشد .لا أذكر كيف وصلت للبيت، ولكنني حين فتحت عيني وجدتني في سريري، وكانت فوندا تهزني من أجل إيقاظي.

»هيا، ستتأخر على الجريدة .«أجل سأتأخر على الجريدة بالفعل، حاولت النهوض متعثراً باضطرابي، ولكنني كنت أعاني من صداع فظيع يكاد أن يهشم رأسي .عدت للتمدد في سريري مجدداً، وطلبت من فوندا الاتصال بالجريدة وإخبارهم أنني سأتأخر بعض الشيء .نمت لساعتين إضافتين، وحين استيقظت لم يكن الصداع قد زايلني، إلا أنني كنت مجبراً على النهوض وتحمل الألم .أخذت حماماً سريعاً، وتناولت شيئاً من الثلاجة، وحبة مسكن، وحضّرت قهوة لاذعة، وأخيراً تمكنت من تمالك نفسي .حلقت ذقني، وارتديت ثيابي، وخرجت على عجل من المنزل، وهبطت السلالم مسرعاً، وفيما كنت أتجه نحو سيارتي انتبهت أنني لم أسمع صوت المتسابق كعادتي .وأخذت أفكر بصوت مسموع جذلاً »أجل، لا البارحة مساءً حين صعودي، ولا اليوم حين خروجي من الباب، سمعت ذاك الصوت اللعين.«

صحيح أنّ الصداع لم يزايلني، ولكنّ معنوياتي كانت على خير ما يرام. ركبت السيارة، واتجهت مسرعاً نحو الجريدة، وأنا سعيد لأنني عدت إلى حالتي الطبيعية .ولكنني كنت سأدرك خطأي حين وصولي للجريدة، ففي لحظة جلوسي إلى مكتبي، وبينما كنت أشغل حاسوبي، تسمّر رئيس التحرير فوق رأسي بوجهه الكالح، ودون أن يكلف نفسه عناء سؤالي عن سبب تخلفي عن الاجتماع الصباحي، بدأ يسرد على مسامعي الأخبار التي يجب عليّ تعقبها اليوم .لم يكن لدي مزيد من الوقت لتضييعه، فهناك لائحة من الاتصالات التي عليّ إجراؤها، وأخذ مواعيد من أجل إجراء المقابلات، والريبورتاجات .وما إن خرج رئيس التحرير من المكتب، حتى دخل المتسابق في صمت مطبق .أخرج الساعة الرقمية من جيبه ووضعها أمامي على الطاولة، وأعاد جملته المكرورة بالنبرة ذاتها» .بدأت منذ خروجك من الباب، وستنتهي عند عودتك إلى المنزل.«

ولكنني واصلت عملي نكاية به، واتصلت بكل من يجب الاتصال بهم، والتقيت بكل الذين عليّ اللقاء بهم، وانتهيت من إعداد الخبر المترتب عليّ، والذي سيُنشر في عدد الغد .بقيت أحس بوجود المتسابق معي، وأنا أواصل عملي، وظل

صوته يتردد على مسامعي .وقد استمرت هذه الحالة حتى انتهائي من العمل، ولجوئي إلى النادي مرة أخرى .ومع الكأس الثانية اختفى المتسابق، وعاد العالم ليصبح مكاناً يمكنني احتمال البقاء فيه.

وكما هو متوقع فقد تأخرت عن العمل صباح اليوم التالي، ولم يتوانَ رئيس التحرير عن تقريعي بشكل واضح هذه المرة، ولكنّ ذلك لم يجدِ نفعاً، ففي اليوم الذي يليه كان الوقت قد تجاوز الظهيرة حين وصلت إلى باب الجريدة .وكانت تلك خطواتي الأولى على طريق خسارتي لسمعتي المهنية التي تلتها خسارة العمل برمته، وطلاقي من زوجتي، وابتعادي عن ابني، ولكنني في المقابل تمكنت من إبعاد المتسابق عن حياتي .ولم يعد شبحه يطالعني حين كنت أصعد هذه السلالم وأهبطها، أو ألمس الدرابزين، ولم أعد لسماع صوته .ولن تستطيعوا تخمين الراحة التي يولدها التخلص من عبئ بهذه الغرابة.

والآن فيما أصعد السلالم كان الشيء الوحيد الذي يمكن له أن يثير قلقي، هو أن يراني أحد الجيران، ويمطرني بوابل الأسئلة السمجة، هل أنا بخير؟ وكيف هي أمور العمل؟ وهل قررت العودة إلى المنزل من جديد؟ لذا حاولت الصعود قدر الإمكان بأقل ضجة ممكنة، وفي قفزات سريعة تجنبني صدفة عاثرة .وما إن بلغت باب منزلي القديم، حتى وضعت الأكياس أرضاً، وأخرجت المفتاح من جيبي وأدرت القفل بسرعة، وبدا أنه يعرفني، فقد دار على الفور وفُتح الباب بتلقائية .عدت إلى حمل الأغراض التي وضعتها على العتبة، وبحركة متقنة أكسبتني إياها خبرة سنين طويلة، أغلقت الباب بقدمي، وعلى الفور داهمت أنفي تلك الرائحة المألوفة التي احتضنتني لسنوات طويلة في هذا البيت، وكأنها ترحب بي من جديد .مزيج من عطر الياسمين الذي تضعه زوجتي كل صباح، منظف الأرضيات الخشبية الإيطالي، معطر الجو المنعش بروائح الأزهار، روائح الأطعمة التي تعدها كل يوم، المشروبات التي نحتسيها، رائحة الملاءات النظيفة، الأزهار التي تحضرها بين الفينة والأخرى، الكتب، علب الهدايا، رائحة مشاكلنا، شجاراتنا، لحظات سعادتنا،

ممارستنا الحب، أحزاننا، آمالنا .ملئت رئتاي حتى التخمة بهذه الرائحة، واتجهت نحو المطبخ.

كنت أسير على رؤوس أصابعي، وأنا أنظر إلى غرفة النوم الموجودة في آخر الممر الضيق .حينها سمعت الصوت .كان صوتاً أعرفه تمام المعرفة، إيقاع صرير كان يزداد بتواتر محبب، إنه الصرير ذاته الذي حاولت كثيراً التخلص منه، حتى لا يسمعنا ابننا ونحن نمارس الحب على سريرنا، ولكن دون طائل .تسمرت نظراتي على الباب القابع في نهاية الممر .وشعرت حينها بمخلب حديدي يمزق قلبي دون رحمة. ولكن لحظة، حاولت تمالك نفسي وأنا أرجو أن أكون مخطئاً، فربما كانت تتقلب على السرير نتيجة كابوس ما .وبدا لوهلة أن المخلب الحديدي قد أرخى قبضته قليلاً .وعدت لأصيخ السمع .ولكنني لم أكن مخطئاً كما كنت أرجو، فقد انضمت تنهداتها الخفيفة الشبقة المتقطعة إلى جوقة الصرير أيضاً .وبدأ المخلب يطبق بكل قوته على قلبي المسكين هذه المرة .أحسست بالاختناق، وبدأ عرق بارد ينزّ من كل مسامات جسمي .ودون أن أعي، تراخت أصابعي، وسقطت الأكياس التي كانت أحملها على الأرضية الخشبية، ودوى صوت تهشم القوارير الزجاجية صاعقاً في كل أرجاء المنزل .ولكنني لم أعد أذكر ما الذي اشتريته، حتى تحطم بكل هذه الجلبة التي كانت كافية لإسكات تنهدات فوندا وصرير السرير معاً.

-تمهلْ، تمهلْ .هناك أحد ما في المنزل —أخذت زوجتي السابقة تردّد في جزع، وبدا صوتها لاهثاً، وكأنها عادت من ماراثون طويل.

-ماذا .ماذا؟ —تساءل صوت رجولي متقطع الأنفاس مثلها وهو يكمل —ولكنني لم أسمع شيئاً.

وتخيّلته عاد للانحناء فوقها من أجل تقبيلها.

-لا، فأنا متأكدة —وخمّنت أنها تملّصت من بين ذراعيه وهي تكمل —

هناك أحد ما في الخارج.

عاد صوت الصرير مجدداً، ولكنه فقد إيقاعه السابق، لا بد وأنّ فوندا تنهض عن السرير .والآن ستبدأ بانتعال الخفّ المنزلي، فهي لا تتحرك مطلقاً من دون انتعاله، وبعدها ستفتح الباب .لتراني واقفاً بباب المطبخ، أحمل في إحدى يدي باقة الأزهار، أما اليد الأخرى فقد أفلتت بغباء الحاجيات التي اشتريتها .وحينها تخيلت نظراتها الخجلة والمندهشة، بل والغاضبة ربما .ثم تصورت نفسي مسحوقاً تحت وطأة الألم، وقد أثقل كاهلي الفشل وخيبات الأمل المتلاحقة .لا، لا يمكنني مواجهتها، وبخفة لم أتوقعها من نفسي بعد الصدمة التي تلقيتها للتو، استدرت على عقبي، واتجهت نحو الباب الذي عبرته سريعاً، وأنا أرمي نفسي إلى الخارج، وكأنّها ستلحق بي لتمسكني، وتواجهني بذنبي الكبير الذي اقترفته .بدأت نزول السلالم في قفزات متتالية، وقبل خروجي من باب البناء، لاحظت أنني ما زلت ممسكاً بباقة النرجس التي اشتريتها لها، ولو أطلت من النافذة ستراني مع الأزهار بكل تأكيد. سترى زوجها القديم الذي بدا كالأحمق وهو يقف على باب البناء ممسكاً بباقة أزهار، وانسحابه الذليل وهو يجر خيبته وراءه .فأبيت تقبل الأمر، وبدأت بتفتيت الأزهار —ليس كرهاً بها ولكن اضطراراً —ورميتها في الحاوية، وخرجت.

الفصل السابع

الأمل الذي يُقال بأنه يجعل الحياة أجمل، ما هو إلا مجرد مقولة كاذبة .إنه ليس سوى طريق آخر للخيبة، الذي لا يقود إلا لمزيد من الحزن اللامبرر .أجل تلك هي الحقيقة بكامل عريها الفجّ.

صحيح أننا افترقنا أنا وفوندا .افترقنا؟ بل هي التي تركتني، وهذه حقيقة لن أتمكن من إخفائها .رغم أنني —وبكل بلاهة —كنت أغذي الآمال بالعودة إليها مجدداً .ولهذا السبب حين علمت أنّ زوجتي السابقة برفقة رجل آخر، صُدمت، وانتابتني نوبة غيرة، وأحسست أنني طُعنت في عمق قلبي .لا أحبذ إثقال الآخرين بالمواعظ السمجة، ولكنني أستطيع القول بثقة مَن توصل إلى حقيقة مطلقة، من خلاله تجربته الشخصية» :كل ما نحتاج إليه هو الحقيقة .الحقيقة المجردة من الأحلام، والخيال والسحر، لا تنخدعوا بتلك النظرات التي تلامس شغاف قلوبكم. فليس هناك من نظرة بريئة، بما فيها نظرات الأطفال، لا تغرّنكم الكلمات اللطيفة، فأكثر الكلمات صدقاً، قد لسعتها ألسنة الكذب في مكان ما .لا تصغوا للأغاني والأشعار، والأفلام والروايات .فهي لا تروي الواقع، بل ما يجب عليه أن يكون .لا تدعوا رائحة الورود الزكية، ومنظر الغروب الشاعري، والغيوم القطنية التي تسبح في صفحة السماء بتمهل، وأمواج البحر المتراقصة بحبور، والأشجار التي تغلف الأرض بغلالة خضراء وتنعش الأنظار والأرواح ...لا تدعوا كل ذلك يطبع قلوبكم بالرهافة .فما هي سوى مظاهر خادعة، تغطي على فجائع البراكين والزلازل والأعاصير والعواصف والحروب .آسف لأن كلماتي تزرع الكآبة في أرواحكم،

ولكن للأسف، هذا هو الواقع.

كانت هذه الأفكار تعصف بي في تكرار مؤلم طوال الطريق الممتد من بيتي القديم، حتى بيتي الجديد، وتحيلني إلى اليأس، حتى بعد أن استسلمت لزجاجة الشراب الكبيرة في البيت .استيقظت صباح اليوم التالي على صوت الجرس الذي كان يرن بإلحاح .في البداية ظننته جرس الهاتف، ولكن بعد لحظات أدركت أنّ أحدهم يرن جرس الباب بإصرار جنوني .وأخيراً، استطعت النهوض عن الأريكة التي نمت عليها مساءً، كان ضيفي الطارئ الذي لم يسعفه الجرس، قد بدأ يخبط الباب بضربات جنونية من يده . لم أكن لأبالي كثيراً بالطارق، ولكنني آثرت فتح الباب حتى لا أزعج جارتي السيدة فيروزان في الطابق العلوي، وعلى الفور حاولت النهوض واتجهت نحو الباب .حين أخذت بالمشي، أو فلنقل حين جربت المشي، ذلك أنني مع كل خطوة كنت أخطوها، أحس بزلزال صغير، وكأن أحدهم يرجّح الأرض من تحتي، حيث بدت وكأنها تهتز ذات اليمين وذات الشمال بخفة، فكرت أنني قد أسرفت في الشرب ليلة البارحة، رغم أنني ومنذ مدة لا بأس بها —حين بدأت بالإسراف —قد تخليت عن تكرار هذه اللازمة الجوفاء .أخيراً، تمكنت من بلوغ هدفي، ودون أن ينتابني الفضول لمعرفة هوية الطارق فتحت الباب .كانت فوندا، والغريب في الأمر أنني حين شاهدتها تقف أمامي، لم أشعر بالغيرة، أو حتى بالحنق، كل ما شعرت به هو إرهاق عميق، ضجر، وإنهاك فظيع.

ودون أن تكلّف نفسها عناء إلقاء التحية بدأت بتقريعي.

-أين كنت حباً بالله؟ فأنا أدق الباب منذ وقت طويل، وبدأ القلق ينتابني بشدة.

لم تكن لديّ رغبة للاعتذار منها، أو سماعها وهي تردد بأننا لم نعد متزوجين ويحقّ لها أن ترافق من تشاء، ومن واجبي تقبل الأمر . لم أكن راغباً في إثارة شفقتها عليّ، أو كرهها، أو حتى مجرد النظر إليها .ولكنني لم أكن أستطيع في

المقابل إغلاق الباب في وجهها، لذا تنحيت جانباً، مفسحاً لها المجال للدخول.

-اتصلت بك البارحة عشرات المرات، ولكن هاتفك النقّال كان مغلقاً. وحين اتصلت على الهاتف الأرضي، ردّ عليّ المجيب الآلي .فظننت أنك لم تعد إلى المنزل، وحين اتصلت اليوم أيضاً بعد الظهيرة، ورد علي المجيب من جديد، بدأت اشعر بالقلق .لذا فقد أتيت.

كانت قد بدأت ترشقني بهذه الكلمات حتى قبل أن أتمكن من إغلاق الباب.

-لا داعي للقلق —قلتها وأنا أستغرب قدرتي على الرد بكل برود —ألا تعلمين أنني أشرب حتى الفجر، وأستيقظ متأخراً في اليوم التالي؟

كان التأنيب هو ما واجهتني به.

-عظيم —أضافت —وكأنك تفاخر بالأمر؟ أتروقك هذه الحياة حقاً؟

لم أكلف نفسي عناء الرد، ويبدو أنها لم تتوقع بالمقابل جواباً شافياً، لذا دخلت الردهة الصغيرة، ولكن مع أول خطوة، تجهمت ملامحها وهي تضع يدها على أنفها.

-أوووف .رائحة الشراب تفوح بحدة.

-لا مشكلة لدي —أجبتها بنبرة جافة، وكأنني أخاطب شخصاً غريباً — أما بالنسبة إلى الضيوف غير المتوقعين —أضفت بالنبرة ذاتها —فأنا آسف، لأنني لا أستطيع تغيير عاداتي من أجلهم.

استدارت بحدة، وهي تحدق إليّ بعناد واضح .ولكن للحظات قصيرة أحسست بغلالة تغشى بصري، وغامت فوندا في رؤيا شبحية، ولكنها لم تكن

سوى لحظات عابرة، عادت بعدها لتتخذ هيئتها الاعتيادية .وعادت لتواصل حديثها:

-وكأنك طفل صغير —قالتها بنبرة تأنيب ودودة، وكانت تتحدث فيما هي تشغل المجيب الآلي —فحتى الآن لا تعرف كيفية العناية بنفسك.

وحين انتهت من سماع رسائلها، ودون أن تكلف نفسها عناء انتظار ما سأقوله، اتجهت بخطوات واثقة نحو النافذة، وبدأت بإزاحة الستائر السميكة، وقبل أن تهم بإزاحة الغلالة الشفافة تحتها، بدأت بالصراخ:

-دعيها.

لقد حان الوقت لكي أُلزمها حدودها، وعلى الفور اختفت تلك الثقة التي كانت تتحرك بها، وارتسمت الدهشة، بل والألم على وجهها.

-كنت أنوي تهوئة الغرفة.

-لا أريد.

أجبتها دون أن أتيح لها الفرصة لتكمل.

-يروق لي المكان أكثر من دون تهوئة.

ورغم أنني لاحظت ارتفاع صوتي أكثر مما يجب، لكن الأمر بدأ يروق لي. بينما استطاعت هي التخلص من الذهول الذي سيطر عليها، واستعادت هدوءها.

-لِمَ أنت غاضب إلى هذه الدرجة؟

-لست غاضباً، كل ما في الأمر أنني لا أريد لأحد أن يغير ما اعتدت عليه.

ولم تهتم كثيراً لأنني أدرت لها ظهري، بل جاءت لتقف قبالتي.

-لا.

قالتها وقد باعدت ابتسامة خفيفة بين شفتيها المصبوغتين.

-أنت حانق عليّ، وهذا ليس من حقك.

-لست حانقاً —أجبتها بصوت بارد خالٍ من أي أثر للمشاعر أو الانفعال —تستطيعين ممارسة الجنس مع من تشائين.

كنت أعلم أنني ارتكبت خطأً بقولي للجملة الأخيرة، ولكن الكلمات قد خرجت، والمفارقة أنها لم تغضب، وبدأت تدمدم وهي تحدق إليّ.

-هذا كل ما في الأمر، أليس كذلك؟

وكأنها كانت تقول لي :ألا تلاحظ سخافة الموضوع الذي تناقشني فيه؟ قد تكون كلماتها بريئة، ولا تحمل في طياتها ما يثير الريبة، وهذا ما بدأت الاعتقاد به، قبل أن تستقر نظراتي على وجهها، حيث تبدّت الحقيقة بعريها الفظ .لم يكن في وجهها ما يشير إلى القلق أو الخشية، بل ذلك الغرور الذي يصيب المرء حين يدرك حجم الأثر الذي خلفه .شفتاها اللتان زمّتهما في خيلاء، والكبرياء الذي رفع ذقنها، فتحتا أنفها اللتان بدأتا بالانقباض والتمدد، البريق الذي التمع في عينيها. كلها دلتني على ما تشعر به .فقد مارست الجنس مع رجل ما واستمتعت، ولكن الأهم من ذلك أنّ الأمر كان سبباً في تعاسة رجل آخر .ففيما نال الأول أقصى السعادة من هذه الممارسة، كان الآخر يتمرغ في أوحال الشقاء والغيرة .أما هي فقد تلذذت بما قامت به، ولكنها كانت تشعر بالشفقة عليّ في الوقت ذاته .لقد كانت روحها تختبر هذين الإحساسين الآن، وبالنسبة للمرأة —ليس المرأة فحسب —بل لجميع البشر، ما من شعور أكثر إرضاء للذات من هذا التناقض.

لو أنها استاءت مني، بل لو شتمتني وحاولت ضربي، أو حتى حاولت الاعتذار، لكنت تصالحت معها على الفور، وربما كنت بالغت قليلاً، واحتضنتها وأنا أبكي وأطلب منها أن تساعدني .ولكنني للأسف سبرت الأنانية الكامنة خلف قناعها الودود المتسامح، وهذا ما أثار غضبي .ولكنها لم تكن مدركة لكل هذا التناقض والنفاق اللاواعي؛ كانت تسعى لإشباع غرورها وأنانيتها، وتحاول أن تجرني إلى هاوية التذلل؛ كانت تود أن تعرف كيف تهشّمت روحي، وبدأت أتمرغ في غضبي، والمهانة التي أحسست بها .ربما وبعد أن تشبع غرور مشاعرها من الذل والألم الذي أحسستُ به، ستحنّ عليّ وتحضنني، وقد تتكرّم بمسح دموعي بأناملها كأم رؤوم، وتمسّد شعري كحبيبة، وقد تمارس الجنس معي أيضاً حينها.

-ما الذي تتحدث عنه؟ —قالتها وهي تمد يدها لاحتضان يدي.

-دعيني.

وابتعدت عنها غاضباً.

ولكنها لم تغضب، فتأكدت حينها من صحة انطباعي.

-ما الذي أتى بك؟ —خاطبتها —لقد مرت شهور منذ آخر مرة طرقت فيها بابي، ما الذي جاء بك الآن؟

- كفاك —قالتها بنبرة التسامح ذاتها —هل دعوتني، ورفضت؟

-ولم أدعُك الآن أيضاً، ولكنك هنا —وأضفت وأنا ألوح بيدي التي رفضت أن أمنحها إياها —في الحقيقة لا أهمية لكل هذا.

عادت ابتسامة الود لتظهر على شفتها وهي تقول:

-ما الذي تعنيه —وكان من الواضح أنها لم تصدق كلماتي التي قلتها

للتو —أتريد أن تبعدني عن حياتك؟

أردت أن أنظر إليها، ولكن ليقيني بأنني سأواجه قناع النفاق ذاته، غيّرت رأيي.

-بل لقد تأخرت —قلتها وأنا أشيح بنظراتي —فأنتِ قد أخرجتني من حياتك منذ زمن بعيد.

-كفّ عن الحماقات —قالتها متصنعة الغضب، ولكن بريق عينها كان يقول العكس —أنت ستبقى أقرب صديق بالنسبة إليّ.

-أنا لا أصدقاء لدي —قلتها بحدة.

-سواء شئت أم أبيت، لن تستطيع إخراجي من حياتك —قالتها وهي تشبك ذراعيها على صدرها —فأنت ستظل والد ابني.

-لا يهمني إن كنتِ والدة ابني، فأنا لن أكون صديقة امرأة تمارس الجنس مع كل رجل تصادفه في الطريق – قلتها صارخاً في وجهها.

بدت وكأنها تترنح تحت ثقل الضربة التي تلقتها .فقد قمت بتوجيه إهانة لغرائزها، رغباتها ومشاعرها، وثورة الزهو التي اعتملت في روحها .ولم يبقَ أثر لتلك الخيلاء التي أشعرَتها بأهميتها، وكانت تعزز سلطتها الأنثوية، بل حلّ مكانها مجرد شعور بالغضب.

-أنت تتجاوز حدود الأدب —ردت عليّ —فأنا لست امرأة تمارس الجنس مع كل من يعترض سبيلها.

-هذا ما كنت أعتقده سابقاً، ولكنني لست واثقاً من الأمر الآن .فمن يعلم؟ ربما تكون علاقتك بهذا الرجل تمتد إلى ما قبل طلاقنا!

-كيف لك أن تفكر بهذه الطريقة؟ —قالتها وقد جحظت عيناها غضباً —عدنان، انتبه لكلامك.

حينها لاحظت شعرها المصبوغ، والتجاعيد الخفيفة في وجهها، وبشرتها التي طالتها تغضّنات الزمن .قد تكون هذه التفاصيل لفتت انتباهي من قبل، ولكن الآن تأكدت بوضوح أنّ زوجتي السابقة كانت تسير نحو الشيخوخة بخطى سريعة، مع كل يوم جديد .وبدل أن يساعدني هذا الإحساس على التشفي منها، زاد من حدة غضبي، وضاعف من قسوتي عليها.

-أنت من يجب أن ينتبه —صرخت منفعلاً —ألا تلاحظين أنك بدأت بالترهل، ألا تشاهدين التجاعيد التي تظهر على وجهك، وبدل أن تتصرفي كسيدة محترمة، تخاف على سمعة ابنها؛ تقومين كما العاهرات بممارسة الجنس مع أول رجل تصادفينه.

كان لكلماتي وقع الصاعقة عليها، حتى أنها بدأت تترنح بوضوح، وسقطت على الأريكة كيفما اتفق .ولا بدّ لي من الاعتراف أنّ معاقرتي الشراب بكثرة، خلال السنوات الأخيرة، قد أفقدني كثيراً من قوتي، وأصابني النحول، وكانت اللطمة التي وجهتها لي فوندا وهي تنهض؛ محملة إياها كل سخطها، كافية للإطاحة بي أرضاً.

عندما رفعت رأسي مجدداً، رأيت عينيها المحزونتين المبلّلتين، وشفتيها المرتعشتين.

-لست سوى سكّير مسكين.

التفت وهي تخطو بضع خطوات، وظننتها ستغادر بعدما فعلته، فزادت الحدة التي تعصف بي أكثر، وكنت أنوي أن أصرخ في وجهها» .أنتِ هي المسكينة .«ولكنها التفتت في تلك اللحظة بهدوء لتواجهني.

-أنا أشفق عليك —قالت لي، وقد كنت واثقاً تمام الثقة، أنها لا تشفق، بل تكرهني حتى الموت، وأخذت تقترب مني أكثر، فيما أحاول تمالك نفسي. ولكنها توقفت فجأة.

-أنت ..أنت —أخذت تتعلثم وهي تبحث عن الكلمات التي أضاعها الغضب، وأخيراً تمكنت من إتمام كلامها —أنت ..أنت لست سوى شخص قذر.

-بل أنت القذرة —قلتها وأنا أنهض، ونطقت بأول جملة خطرت ببالي — والله العليم، إن لم يكن هذا الوغد الذي تمارسين الفحش معه، من جيل ابنك أوموت.

لقد خضنا مشاحنات كثيرة أنا وفوندا، وحدثت بيننا مشاجرات صاخبة، ولكنّني في أيٍّ منها لم أكلمها كما فعلت اليوم .ولا أدري ما هو السبب الذي دفعني لقول ما قلته لها .فلا أنكر أنني لو شعرت برغبة ممارسة الجنس مع إحداهن، سأختار واحدة أكثر شباباً منها .ربما فقط لأثبت لها، بأنها لا تستطيع سوى التغرير بشباب من عمر ابنها، وربما لأنها كانت مرآة تعكس مقدار الشيخوخة التي بلغتها أنا، وربما .لا أعلم ما هو السبب بالضبط، ولكن الكلمات قد قيلت.

كان الغضب الذي يتأجج في عينيها يزداد حدة، ويتحول إلى ما يشبه الاشمئزاز، وكانت ترمقني وكأنها ترمق أكثر الأشياء قذارة وهي تقول:

-كيف لك أن تتفوه بهذا؟ —قالتها وهي تتقدم نحوي غاضبة، ولكنها في لحظة ما توقفت دون أن تحسم أمرها في ما يجب أن تفعل .وأخذت ترمقني، وقد تجلّت آثار الهزيمة على وجهها —أنت رجل قذر جداً —وأكملت في صوت أوهنته الخيبة —لقد انتهى أمرك.

حينها فقط نظرت إلى عينيها، ولاحظت الدمعة التي سقطت على خدها الأيمن.

-لا أمل من إصلاحك.

واصلت تقريعها بصوت مرتعش، وكانت لا تزال تواجه صعوبة في صوغ الغضب المعتمل داخلها، فتمهّلت قبل أن تردف.

-اللعنة عليك ..اللعنة عليك.

كررت لعناتها وهي تتجه نحو الباب، وبدا من الواضح أنها تترنّح غضباً. وقد جعلتني قدرتي على التسبب في بكائها، أشعر بمزيج من الندم والغرور معاً .ولم يتأخر الغرور في الانتصار على شعور الندم.

-اهربي ..هيا —أخذت بالصراخ —فعندما لا تجدين ما تدافعين به عن نفسك، ستهربين بكل تأكيد.

لم تكلف نفسها عناء الرد، أو حتى الالتفات والنظر إليّ، ولكن من الواضح أنها كانت ترتعش بحدة أكثر من ذي قبل.

-اخرجي ..هيا ..ولا تحاولي الاتصال بي مجدداً —عدت للصراخ علها تعود، أو حتى ترد عليّ، ولكنها لم تفعل .سمعت صوت الباب وتوقعت سماع خبط الباب بشدة، إلا أنني انتظرت دون طائل .أجل لم أسمع الصوت الذي توقعت، أيعقل أنها لم تغادر بعد؟ فاتجهت نحو الباب مندفعاً وخليط من الغضب والأمل والكدر يعتمل في صدري .وواصلت الحديث.

-وماذا لو عاد أوموت إلى المنزل، وشاهدك مع ذلك الوغد؟ —صرخت وراءها —كيف كنت ستبررين الأمر له؟ ألا تشعرين بالخجل؟ ماذا لو شاهده أحد من الجيران؟

ولكنني لم أسمع رداً منها، وحين وصلت إلى الردهة الصغيرة لم أجدها هناك، فتوقعتها واقفة بباب البيت، واقتربت منه .كل ما سمعته وقع حذائها ذي

الكعب العالي، وهو يطرق السلالم نحو الأسفل .أغلقت الباب بشدة، وبقيت واقفاً في مكاني من دون أن أدري ما يجب عليّ فعله .وأخذ صوت ما يردد داخلي، ما الذي فعلته؟ لقد جرحت مشاعرها بقسوة فظيعة .ولكنني أجبت ذلك الصوت الواهن بحدة» .بل كانت تستحق ذلك منذ زمن طويل .«أحقاً كانت تستحق ذلك؟ ولكنها لم تعد زوجتك، ولا يحق لك أن تتهمها بالعهر فقط لأنها كانت مع رجل آخر .بل يحق لي ذلك، فحتى لو انفصلنا، فهي أقرب أصدقائي، وهي من قالت لي» :أنت ستبقى أقرب صديق لي .«كما أنها والدة ابني .ما كان عليها أن تخفي عني أمراً رغم تلك العلاقة، كان يجب أن تخبرني بالأمر .ربما جاءت من أجل الاعتراف بعلاقتها، ولكن الأحداث سارت بنا على نحو مغاير لما كانت تريد .كما أنني لست مضطراً لابتلاع هذه المبررات التافهة .فلو شاءت إخباري، لوجدت الوقت المناسب لتقول لي ما تريده، ولكنها تعمّدت ألا تخبرني .هذه هي الحقيقة، ومن الجيد أنني قد واجهتها بهذه الطريقة، حتى تتوخّى الحذر في تعاملها معي من الآن فصاعداً .وربما لن تعاود التحدث معي مرة أخرى؟ فلتفعل .سأكون قد تخلصت منها بهذه الطريقة .حينها لاحظت يديّ اللتان كانتا ترتعشان، كأوراق يابسة تعصف بها الرياح .وفكرت أنّ كأساً مضاعفة من الشراب ستكون مفيدة لي .ولكن ألن أتناول شيئاً في البداية؟ ربما الشراب أفضل؟ ولكن هل لدي شراب في البراد؟ يجب أن يكون، فقبل يومين اشتريت رزمة من الزجاجات .وما إن وصلت للمطبخ بدأ الهاتف بالرنين .ألم ألغِ صوته البارحة مساءً؟ حينها تذكرت أنّ فوندا، وبعد كل ما فعلته، كانت تجد لديها الحق في التصرف معي وفق ما تشاء، فقد أعادت تشغيل جرس الهاتف حال اقتحامها المنزل .ولكن لم تكن لديّ الرغبة للتحدث مع المتصل أياً كان، فليترك رسالة صوتية على المجيب الآلي إن شاء.

وبعد رنات متتالية من الهاتف، تدخل المجيب الآلي ليخبر المتصل أنني لست في المنزل، وعليه ترك رسالة صوتية.

وفيما كنت أرشف رشفة كبيرة من الزجاجة سمعت الرسالة:

-مرحباً، أنا دوغان —قال الصوت من الطرف الآخر، وكانت تلك الكلمات الثلاث كافية، لأدرك الاضطراب الذي يسيطر عليه —هاتفك النقال مغلق، وهذه المرة الخامسة التي أتصل فيها على الهاتف العادي .لقد حدثت تطورات مهمة، وعلينا أن نلتقي بكل تأكيد.

الفصل الثامن

لقد غاب دوغان عن بالي تماماً، وحين سمعت صوته على المجيب الآلي، كان أول ما خطر لي» : لم يكن ينقصني سواك الآن، فقد وجدت الوقت المناسب للاتصال بي، ألا تكفي فوندا، حتى ابتلي بك أنت أيضاً؟ «ولم أهدأ حتى رشفت جرعة كبيرة من زجاجة الشراب، وأنا أفكر في احتمال وقوع مكروه له .ولكن لم يمضِ على لقائنا أكثر من أربع وعشرين ساعة، فما الذي يمكن أن يحدث في هذا الوقت القصير؟ ربما كان هذا الوضيع يحاول توريطي في أمر ما؟ فما إن رحلت فوندا، حتى جاء دوغان .ألن أصادف أحداً في هذه الحياة يمكنني الوثوق به؟ ولكن لا أعتقد أنه كان يكذب، فقد بدا صوته مضطرباً جداً .فليذهب إلى الجحيم، وكأن لائحة مصائبي لا تكفي، حتى أتورط في مصائب جديدة مع دوغان؟ لن يقتلوه هو أيضاً .أحقاً لن يفعلوا؟ ألم يقتلوا بكير وعشيقته نهال، ومن ثم العقيد رفعت؟

احتضنت زجاجة الشراب، وأنا أجلس على الأريكة بجانب الهاتف، وكانت فوندا في الصورة التي التقطتها حين كانت شابة، والموضوعة على الطاولة، تنظر إليّ وهي تبتسم في غنج .وعلى الفور حملت الصورة المؤطرة بغضب، وأدرتها نحو الطرف الآخر، حتى لا أرى وجهها .لا أريد التفكير فيها مجدداً .وبعد احتساء رشفة أخرى من الزجاجة أعدت سماع الرسائل التي وصلتني على المجيب .كانت الرسالة الأولى من فوندا، ولكنني تجاوزتها دون أن أكلف نفسي عناء الاستماع إليها .أما الرسالة الثانية فقد كانت من عارف.

-سمعت بخبر إقالتك من العمل، اتصلْ بي حال وصولك المنزل —هذا كان فحواها.

-أحمق لعين —عقّبت على رسالته —كفّ عن المراوغة، وكأنك لم تكن تعلم أنهم سيقيلونني؟

كانت هناك رسالتان إضافيتان من فوندا، وأخيراً ها هي رسالة دوغان.

-عدنان، علينا أن نلتقي بأسرع ما يمكن، الأمر مهم.

كان صوته في الرسائل الخمس التي تركها على المجيب كما أخبرني، يشي بالقلق والاضطراب .فكّرت وأنا أمسح الرسائل كلها من المجيب —وكانت هذه عادة قديمة لدي —لا بدّ أنه حقاً واقع في مشكلة كبيرة .ولكن ما الذي أستطيع فعله؟ كانت فوندا محقة حين قالت إنني عاجز عن مساعدة نفسي، فكيف بمساعدة الآخرين؟ ولكنها مجرد ترهات امرأة، فلست بذلك العجز الذي تنعتني به. صحيح أنني البارحة، وقبل أن أذهب لزيارة فوندا، كنت رائق المزاج، حتى أنني فكرت في قبول عرض دوغان، ولكن ذلك كان قبل أن أذهب إلى منزلها، وكنت أعتقد أن زوجتي السابقة ما زالت تحبني، وذهبت بي الظنون إلى إمكانية ارتباطنا من جديد، لو حققت نجاحاً صحفياً، وأثبتت لها جدارتي .أما الآن فلا مبرر لدي على الإطلاق للتورط في مخاطرة كهذه .لقد وجدت لنفسها رجلاً ناجحاً سواي، وقد تتزوج منه عما قريب .ولكن من كان ذلك الشخص الذي بصحبتها البارحة؟ ليكن من يكون، فلا أهمية للأمر الآن .ولكن لا تقل ذلك، فربما كان أحد معارفنا أو أصدقائنا القدامى؟ لا، لا أظن ذلك .فهي لم تكن تستهوي أحداً من أصدقائي. وهذا من حسن حظي، فلا أريد الابتلاء بخزي من هذا النوع .أول ما سيردده الناس» .زوجة عدنان السابقة، على علاقة مع أحد أصدقائه «حتى مجرد التفكير في الأمر كان مريعاً .وبهذا فلن أتمكن من التردّد على الأماكن التي يلتقي فيها الأصدقاء .ولكن ما المانع؟ فنحن منفصلان .وهي تملك مطلق الحرية في ممارسة

الجنس مع من تشاء، هذا أمر لا يعنيني في شيء .ولكن لماذا لم أفكر بهذه الطريقة حين افتعلت معها الشجار؟ فلتذهب هي والزواج برمته إلى قاع الجحيم .فدوغان هو ما يجب أن أفكر فيه، من الواضح أنه في مأزق كبير .فالأمر ليس مزحة، هناك ثلاث جثث حتى الآن .وليس من المستبعد أن تكون الرابعة جثة دوغان نفسه. طبعاً هذا فيما لو كان صادقاً .لقد حالت الفكرة اللعينة بالذهاب لرؤية فوندا، دون ذهابي إلى النادي والتأكد من صحة المعلومات التي أطلعني عليها دوغان .ما شأني بفوندا ومرضها بحق الجحيم؟ ولكن مهلاً مهلاً، ماذا لو اتصلت بعارف، فهو خبير في التقاط الأخبار، ومن المؤكد أنه سمع شيئاً حول هذا الموضوع .ضغطت على لوحة الأزرار، رنّ جرس الهاتف لثلاث مرات، قبل أن يرد بضجر تلك »الألو« المعهودة .ومن دون أن أعرف على وجه التحديد ما الذي جعله يكمل بنبرة ودودة؛ أهو سماع صوتي، أم رأفة بي بعدما تمت إقالتي:

-كيف استطاعوا فعل هذا بك؟

-دعك من المراوغة يا عارف —قلت له دون مواربة —وإن كان الأمر يعنيك حقاً، فأنا لست غاضباً منك، رغم أنك لو كلفت نفسك عناء إخباري بالأمر، لما تعرضت لذلك الموقف المشين أمام باب الجريدة، ولكن الأمر قد قضي.

-أقسم لك إنني لم أكن أعرف.

حاول الإنكار.

-عارف —وأكملت وأنا أشدد على كل كلمة —كفّ عن الإنكار، فأنا أعرفك حق المعرفة، ولكنني أعلم أنك غير راضٍ عن إقالتي، وهذا ما يهمني. دعك من هذا الحديث الآن، وأخبرني كيف حالك؟

-كيف يمكن لي أن أكون —قالها وتنهّد بأسى قبل أن يكمل —لا أستطيع التفاهم مع رئيس التحرير الجديد؛ بحري نارمان .ولا تستغرب إن سمعت

بإقالتي أيضاً عما قريب.

كان يكذب، فقد أصبح من أقرب رجال بحري في الجريدة، ولكنني لم أرغب في تكذيبه.

-ما قصة مقتل العقيد رفعت؟ لقد سمعت أنّ الأمر متعلق بجريمة قتل أحد زعماء العشائر مع عشيقته، والتي وقعت منذ مدة قريبة.

-يقال إنّ عائلة بينجي أوغلو وراء هذه الجرائم، ولكن ما من أدلة أو سلاح يثبت تورط أحدهم .لماذا تسأل؟

- لقد سئمت بقائي دون عمل، ومن المرجح أن أعود للصحافة من جديد.

سمعته وهو يضحك.

-كفّ عن هذا يا رجل، من المحال أن أصدقك.

وحين لاحظ أنني لم أعقّب على كلامه، أردف.

-أحقاً ما تقوله؟

-إن شئت الصدق، فأنا لم أقرر بعد -قلتها وأنا أرغب في سماع رأيه- ولكنني بدأت أشعر بالضجر من نمط حياتي .سمعت بمقتل العقيد رفعت من نشرة الأخبار، وقد استرعى الأمر انتباهي .وفكرت بإمكانية العمل على هذا الخبر.

-فكرة معقولة -صمت قليلاً، ثم أضاف -وما المانع؟ ولكن كما تعلم فهؤلاء الأشخاص خطرون، وعليك توخي الحذر -عاد للصمت للحظات قبل أن يكمل -أنت لا تهزأ بي، أليس كذلك؟

حينها فكّرت في الانطباع الذي تركته لدى الناس، حتى أنّ أقرب أصدقائي

لم يعد يثق بي .حقاً إنها أعظم مآثري في الحياة!

-بالطبع لا أهزأ، ولكنني لست متأكداً حتى الآن من رغبتي في متابعة القضية، فأنا بحاجة إلى كثير من المعلومات قبل أن أقرر.

-أنا سعيد حقاً لرغبتك في العودة للعمل —كانت نبرة صوته تشي بأنه يعني ما يقوله —ولكنك لست مضطراً للبدء بهذه القضية، المهم النية، ولا أكثر من الأخبار في هذا البلد .وإن شئت أستطيع التحدث مع باقي الجرائد من أجلك.

-لا، لا ..على رسلك .في البداية أريد الحصول على مادة صحفية قوية، فلا أريد الذهاب صفر اليدين.

-تبدو جدياً في كلامك، صدقني لقد سرني سماع ذلك .ولو احتجت إلى أي مساعدة، فأعلم أنني سأبذل قصارى جهدي.

-أعلم ذلك .إنني أحتاج للأخبار التي نُشرت عن مقتل العقيد رفعت.

-بالطبع، سأرسل لك ما تشاء، ولكن من الأفضل أن تناقش الأمر مع شكيب إينجي، فهو المكلف بمتابعة القضية.

-دعك من ذلك المأفون، فلا أريد أي معلومات عن طريق شكيب هذا. بالله عليك لا تحدثه عن اهتمامي بالقضية، فهو لا يكاد يطيقني .ولا أظنه يعرف شيئاً مهماً، وحتى إن كانت لديه معلومات معينة، فمن المحال أن يشاطرني إياها. وأجزم أنه لو عرف باهتمامي بهذا الخبر فلن يتوانى عن عرقلتي قدر المستطاع.

-أجل، فهو أكثر خبثاً مما نعتقد —وافق على رأيي وهو يكمل —ولكن لا عليك، سأرسل إليك الأخبار المتعلقة بالموضوع، ومن ضمنها ما نشره شكيب أيضاً، وستصلك في الغد على أبعد تقدير.

-شكراً جزيلاً، وإن حدثت أي تطورات سأبلغك بالأمر، ولكن ما أرجوه منك أن يظل هذا الحديث بيننا .فلم ينبت الفول بعد لنتحدث عن المحصول .ولا أريد أن أصبح مادة لتعليقات الآخرين، وهم يرددون بسخرية أنني أعمل على قضية مهمة، فهمتني أليس كذلك؟

-لا تقلق، وسأحاول رؤيتك في أقرب وقت ممكن، لنتحدث مفصلاً حول الأمر.

-حسناً إلى اللقاء —وأغلقت سماعة الهاتف.

كان عارف محقاً، فهؤلاء الأشخاص لا يعملون بمفردهم دون سند قوي، وليس عليّ الاتصال بدوغان، قبل الحصول على كل التفاصيل ومعرفة أكبر قدر ممكن من المعلومات .وربما كان عليّ الرفض منذ اللحظة الأولى، أو الاتصال به، للاعتذار عن قبول العمل معه، فأنا لن أتمكن من التصدي لأمر بهذه الخطورة، وسأطلب منه البحث عن أحد آخر .ولكن دوغان كان يخالفني الرأي، ويظنني ذاك الصحفي المتحمس الذي كان يعرفه .لا، لا أعتقد ذلك، فمن الواضح أنه جمع معلومات كافية عني قبل أن يلجأ إليّ .ويعلم جيداً الدرك الذي انحدرت إليه .وفي المقابل ربما لم يجد أحداً سواي، فكان مضطراً للجوء إليّ، ولكنني لست مضطراً لمساعدته وانتشاله من القذارة التي ورّط نفسه فيها.

عدت لاحتساء رشفات من زجاجة الشراب بَرِماً، وعلى الفور أحسست بحرقة في معدتي، وهذه نتيجة الشرب على معدة فارغة .فمنذ البارحة مساء لم أتناول لقمة طعام واحدة، ولا أشعر برغبة في تناول شيء، ولكن معدتي لن تتركني وشأني .وبحسب ما أذكره، فلا يوجد شيء صالح للأكل في البراد .ولكن ما المشكلة، فقطعة خبز وبضع حبات زيتون ستفي بالغرض، وفي تحدٍّ لجسدي المنهوك، احتسيت رشفة أخرى من الزجاجة وأنا أتجه نحو المطبخ .أكلت بضع لقيمات من الخبز، ولكنني لم أعثر على الزيتون، بل على بعض الجبن الذي اقتطعت

منه جزءاً صغيراً، وتناولته، وأنا بالكاد أسيطر على غثياني، وأفرغت ما تبقى من الزجاجة في جوفي، وأنا أحس بأنني أحتاج لوقت أطول لتمالك نفسي .ربما لو أخذت حماماً، فالماء الفاتر سيساعدني على استعادة وعيي .ولكن ماذا عن دوغان؟ ألا يجدر بي الاتصال به قبل دخول الحمام؟ إلا أنني عدلت عن الفكرة، فالرجل الذي استطاع تدبر أمره خلال عشرين سنة من دوني، لن يعدم وسيلة لمواصلة ذلك لبضع ساعات إضافية.

حال دخولي الحمام —واستجابة لعادة قديمة —كان أول ما فعلته هو مطالعة وجهي في المرآة، فراعتني التجاعيد التي تصبح خطوطها أعمق فأعمق مع كل يوم جديد، وبدا على وجهي تعبير غامض، حتى أنا عجزت عن تفسيره .كنت متعباً، قلقاً ومستاءً .وكانت عيناي اللتان أحاطت بهما هالات سوداء، تشيان بالتردد الذي يعتمل في روحي .وبدا خدي الأيسر محمراً بصورة واضحة، وحين لامسته أصابعي، استشعرت مدى اتقاده .كيف استطاعت فعل هذا بي، وهي التي تدعي منتهى اللطف طوال الوقت، ولكن الرجل الذي في المرآة، والذي بانت عروق الدم في عينيه نافرة، نظر إليّ وهو يقول:

-بل لقد كان ذلك قليلاً عليك، فأنت تستحق أكثر من ذلك.

لم أستغرب أنه يحدثني من المرآة، قدر امتعاضي من كلماته.

-ولِمَ ذلك؟ —سألته.

-ولِمَ سيكون سوى لأنك كنت مخطئاً، والأسوأ أنك عاجز عن الاعتراف بأنك مخطئ، وقليل الاحترام، وسفيه، وفظ .ولم تكتفِ بتدمير نفسك، بل أنت تدمر كل أثر جميل من حياتك السابقة وتمرغه في قذارتك.

لم أعد قادراً على تحمّل المزيد.

-كفى —قلتها صارخاً، وقد اختلطت نظراتي بنظرات رجل المرآة، وأنا أواصل الصراخ —كفى ..اخرس.

لاذ بالصمت، فيما استدرت لنزع ملابسي، ولاحظت رعشة أصابعي وأنا أحاول فك أزرار القميص.

-إنه التوتر —قلتها بصوت مسموع —فتلك الشمطاء هزت كل كياني بسمومها.

تمكّنت من التخلص من ثيابي، ووقفت تحت الدوش، الذي انهمرت مياهه الباردة بداية، وأعقبتها المياه الساخنة، وأخيراً تمكنت من ضبطها على الدرجة الفاترة التي أرغب .وعلى الفور غمرتني الراحة، وكأنّ كل قطرة ماء تلامس رأسي، كانت تأخذ معها جزءاً من أفكاري ومخاوفي وقلقي بعيداً، إلى حيث لا أعلم.

تركت نفسي للذة الماء الفاتر، وقد نسيت فوندا ودوغان، وكل تلك المشاكل الأخرى التي كانت تحاول إغراقي .لا أدري كم الوقت الذي استغرقته في الحمام، ولكنني حين خرجت، ورغم أنني لم أشعر بأنني خلقت من جديد، فقد شعرت براحة عميقة تغمرني، من رأسي وحتى أصابع قدميّ .وتمكنت من التخلص من كل همومي .وانتابني نعاس لذيذ، وخطرت لي العودة إلى النوم مجدداً، وما المانع. قادتني قدماي دون أي جهد إلى غرفة النوم، وفيما أنا جالس على حافة السرير أجفّف شعري، غرقت في نوم عميق.

استيقظت على صوت آذان العشاء، وشعرت بطعم معدني في فمي، وبصداع خفيف، وحين نظرت من النافذة كان الظلمة قد بدأت بالحلول .جررت قدميّ باتجاه الحمام مجدداً، وغسلت وجهي برشقات من الماء البارد .كان الاحمرار قد زايل خدي، ولكن لحيتي التي أطلقتها منذ يومين، كانت تضفي عليّ مظهر عجوز بائس .تكاسلت عن الحلاقة، وأنا أفكر أنه لا داعي لذلك، وحينها

أحسست بجوع شديد .ولكن لم تكن بي رغبة للخروج من أجل تناول شيء ما، أو الدخول إلى المطبخ وتحضير وجبة، وأدركت أن الأمر لا يتطلب مزيداً من التفكير، سأتصل بمطعم الكفتة القريب، وأطلب منه إرسال وجبة ما .وبعد خروجي من الحمام، وقبل الاتصال بالمطعم، شغّلت التلفاز، فطالعتني إحدى المحطات الإخبارية. كانت المذيعة تجري لقاءً مع وزير الاقتصاد، والذي كان يوضح أنّه لا داعي للقلق من التذبذبات التي تصيب البورصة، وأن الخطة الاقتصادية التي وضعتها الحكومة تسير على خير ما يرام .فأدركت أنّ أسهم البورصة قد عادت للانخفاض مرة أخرى. وبينما كنت أتجه نحو الهاتف، تغيّر المشهد، وظهرت بدل سحنة الوزير السمجة، إحدى المذيعات الجميلات وهي تعلن.

-أعزائي المشاهدين، وصلتنا الآن تفاصيل الخبر الذي قمنا بنقله قبل قليل —بدأت بنقل الوقائع —ففي الخبر السابق نقلنا لكم خبر احتراق سيارة BMW على أوتوستراد فلوريا، وبداخلها السائق .وقد وصلتنا تفاصيل الحادثة .وسنبث لكم الآن صوراً مباشرة من مكان الحادث فيما نواصل سرد الحيثيات المتصلة به.

ظهرت على الشاشة صور مباشرة لسيارة تحترق وسط ألسنة اللهب وقد أحاط بها حشد صغير، وكان المصور يبحث عن منفذ للاقتراب أكثر من السيارة، لكن تم صدّ محاولاته من قِبَل رجال الشرطة الذين يطوقون مكان الحادثة .وبعد محاولات عدة منه، استطاع الوقوف في زاوية ملائمة، فيما كانت المذيعة تواصل سرد تفاصيل الحادثة.

-في حوالى الساعة الخامسة من مساء اليوم، وعلى طريق فلوريا، بدأت سيارة BMWوالتي تحمل الرقم 347689 ykبالاحتراق .وقد أكد الشهود الذين كانوا قريبين من مكان الحادث، أنّ السائق كان داخل السيارة حين احتراقها .وبسبب نشوب الحريق بشكل مفاجئ وارتفاع ألسنة اللهب، لم يتمكن أحد من إنقاذ السائق الذي كان قد أغمي عليه داخل السيارة .وحين تمكن رجال

الشرطة من الاقتراب من السيارة، بعد أنّ تم إخماد الحريق، اكتشفوا أن السائق كان مقيداً من يديه إلى المقود .وهذا ما يعزز الشكوك لاعتبار الأمر جريمة قتل وليس مجرد حادث عرضي .وقد بدأت قوى الأمن ببحث مكثف لمعرفة هوية السائق الذي احترق بشكل كامل.

وعلى الفور خطر لي دوغان، فهو أيضاً لديه سيارة BMW، وفكرت بالاتصال به .ولكن ما الذي أريد فعله؟ فهذه ليست الحادثة الأولى من نوعها، كما أنني لو حاولت ربط كل جريمة تقع بدوغان، فلن أنتهي من الخروج من دوامة الاحتمالات .وهي لا تبدو جريمة عادية، فالأوغاد قاموا بتقييد يدي الرجل إلى المقود قبل إضرام النار في السيارة .أذكر أنه تم قتل أحد رجال البورصة أيضاً بالطريقة ذاتها، ومن الواضح أنّ إحدى العصابات تقف وراء عمل كهذا، وأغلب الظن أنهم قاموا بإطلاق النار على رأسه قبل إحراقه .أتمنى لو فعلوا ذلك، وإلا فإن المسكين كابد عذاباً لا يُضاهى حتى فارق الحياة، ولا أريد أن أتعرض للمصير ذاته .ولكن من هو؟ المهم ألا يكون دوغان .إنه احتمال بعيد فدوغان ليس بالرجل الذي يمكن أن يقع بهذه البساطة، على أي حال ستظهر الحقيقة عما قريب .وفيما كنت أقلب الاحتمالات في ذهني، سمعت طرقاً على الباب فظننت أنه الطعام، ولكنني تداركت على الفور بأنني لم أتصل بهم بعد .هل تكون فوندا؟ انتابتني موجة من الراحة، حرصت على إخفائها وأنا أتجه لفتح الباب .حين فتحته واجهني شخصان بالملابس الرسمية، فظننت أنهما مخطئان في العنوان، ولكن الرجل الضخم فنّد شكوكي وهو يقول:

-هل أنت عدنان سوزمن؟

-أنا، ما الأمر؟

سألته.

-عليك أن تذهب معنا يا سيدي.

وبعد أن تفحّصت الرجلين بإمعان سألت:

-ومن أنتما؟

بادر الرجل الضخم بالإجابة:

-قوى الأمن الداخلي، أنا المحقّق يالفاج، وهذا مساعدي غونغور.

وفي اللحظة ذاتها أخرج الاثنان بطاقتيهما الأمنيتين، وقرّباهما حدّ الإلصاق بوجهي.

- لم أفهم ..ما الذي تريدانه مني؟

-أخوك —قالها غونغور مساعد الرجل الضخم.

ودون مزيد من التوضيحات أدركت أنه كان دوغان، وأنه كان محقاً في مخاوفه .كانت هذه الأفكار تمر في ذهني مسرعة، ولكسر الصمت الذي خيّم علينا قلت:

-أخي؟ هل تعني دوغان؟

كنت متيقناً من أنهما يتحدثان عن دوغان، ولكنني ربما كنت بحاجة لبعض الوقت من أجل استيعاب ما يحصل.

-أجل، دوغان سوزمن —أوضح لي المحقق يالفاج —للأسف، فقد احترقت سيارته.

وعلى الفور عادت ألسنة النار التي شاهدتها منذ قليل على شاشة التلفاز إلى مخيلتي المنكوبة .فيما كان ذهني يحاول عبثاً، مقارنة الرأس المتفحم والذي أسند

إلى المقود المحترق، مع رأس دوغان .ولكنني لم أجد شبهاً بينهما .ورغم كل التوضيحات كنت بحاجة لمزيد من اليقين، لذا سألته:

-أتقصدان سيارة BMWالمحترقة، التي ظهرت قبل قليل في نشرة الأخبار؟

بدا المحقق يالفاج مستغرباً.

-يا لسرعة هؤلاء الصحفيين —دمدم وهو ينظر إلى مساعده، ولم أحدّد بالضبط إن كان غاضباً من الصحفيين، أم معجباً بسرعتهم في العمل.

-حسناً —قلتها وأنا أحاول أن أسيطر على اضطرابي —هل أنتما متأكدان أنّ الرجل الذي في السيارة هو أخي؟

-لقد احترق بالكامل —أوضح يالفاج، وبدا واضحاً من التكشيرة التي اعتلت وجهه أنه رأى الجثة —نواجه صعوبة في إثبات شخصيته، لذا عليك القدوم معنا.

الفصل التاسع

لم تكن المرة الأولى التي أذهب فيها إلى المشرحة، فحين كنت أعمل مراسلاً صحفياً لقسم الحوادث، كنت أتردّد كثيراً على هذا المكان المنفر والبارد. ولكن زيارتي الأولى تعود إلى سنوات أبعد، حين لم أكن قد امتهنت الصحافة بعد، أي إلى أيام المدرسة .فقد مات بولند؛ وهو أحد طلاب صفي، نتيجة انفجار القنبلة التي تمّ وضعها في باحة المدرسة .لم يكن أقرب أصدقائي، ولكنه كان أحد الطلاب الذين أتسكع معهم في المدرسة، وكان من إزمير .كان والده متوفياً، ووالدته مريضة .وقد أخذتني الشرطة للتعرف على الجثة، كان منظراً مخيفاً .فقد كان جسمه مشوهاً بالكامل، ولكن الغريب أنّ وجهه لم يكن متضرراً بشكل كبير، لذا تمكنت من التعرف عليه بسهولة.

ولكن من الصعب قول الكلام ذاته عن جسد دوغان .لم أتمكّن من التحكّم بموجة الغثيان التي انتابتني، فقد كانت صالة المشرحة الواسعة تعبق برائحة اللحم البشري المحترق .ولم تكن كتلة اللحم المحترقة، والمغطاة بملاءة بيضاء، تشير إلى ما يمكن اعتباره دليلاً، على أنّ الجثة المتفحمة تعود لدوغان .فقد كانت ثيابه محترقة بالكامل، وكانت قطع القماش المحترقة الملتصقة ببدنه .وبدا الرأس المتفحم، فاقداً لكل ملمح بشري، كبطيخة منكمشة ظلت لفترة طويلة تحت التراب وأُخرجت للتو .فقط عيناه اللتان أودى الحريق بهما، ولم يترك مكانهما سوى محجرين فارغين، والفم المفتوح، كانا يشيران أنها جمجمة بشرية .وفيما أمعن النظر في الجثة، كان هناك إحساس داخلي يخبرني، بأنّ هذه الكتلة المشوهة التي فقدت ملامحها، لا

يمكن أن تكون لدوغان الوسيم، ذي الجسد الممشوق القوام .ولكن فيما أتذكر الرسائل التي تركها لي، رجحت مغالطة إحساسي .فقد وجدت الجثة في سيارته، كما أنّه أوضح لي بما لا يترك مجالاً للشك، أنه ملاحق من قبل أشخاص خطرين، والرسائل التي تركها والتي تشي بحجم خوفه واضطرابه، كلها كانت دلائل تؤكد الحقيقة التي أحاول إنكارها .كما أنني أملك رصيداً لا يُستهان به من خيبة الأحاسيس .ألم يكن ما حصل لي مع فوندا هو أكبر دليل على هذه الخيبة؟ ورغم أنّ المنطق كان يقودني بوضوح نحو صحة ما تزعمه الشرطة، فإنّ أحاسيسي كانت تشير إلى الاتجاه المعاكس تماماً .وقد يكون هذا سبب الاضطراب الذي بدا على وجهي أكثر من ملامح الحزن .وحين لاحظ المحقق ما أعانيه بادر بالقول:

-أهناك احتمال بألا يكون أخاك؟ —سألني يالفاج.

-إنه لا يشبه دوغان —تلعثمت، فيما نظراتي مثبتة على الجثة المتفحمة —ولكن هذا لا يؤكد بأنه ليس هو، ألا ترى أنّ الجسد قد تشوه بالكامل؟

-ألم يكن لديه سلسلة أو خاتم، أو شيء قد يشير لهويته؟

سألني غونغور وهو يشير إلى الحلقة المعدنية العالقة في بقايا العظام المتفحمة، والتي كانت فيما مضى تشكل إصبع الخنصر .أجل هذا يبدو كخاتم، وعلى الفور تذكرت الخاتم الذي كان يضعه في خنصره، فاقتربت لأتأكد .لكن الخاتم كان له حجر أبيض، وهو ما لا أراه الآن .لذا لم أتمكن من التأكد أنه الخاتم ذاته، ولا أريد الجزم بأنّ الجثة تعود لدوغان، فقط من خلال بقايا خاتم محترق.

-هو أيضاً كان يضع خاتماً ذهبياً في خنصره الأيسر ولكن ذلك الخاتم كان يتوسطه حجر أبيض.

كان يالفاج يسمعني باهتمام.

-هذا الخاتم انصهر، وتغير شكله، ومن الوارد أن يكون الخاتم ذاته الذي تتحدث عنه.

-ربما — !أجبت.

-وماذا عن طول الجسد وحجمه؟ أكان أخوك أطول أم أقصر؟ أكثر بدانةً مثلاً؟

ولأول مرة رفعت عيني عن الجثة ونظرت إلى غونغور.

-ألا ترى أنّ الجسد قد تشوه بالكامل كيف لي عقد مقارنة من هذا النوع؟

ورغم إدراكهما بأنني محق في كلامي، إلا أنهما ظلّا يرمقانني بأمل انتظار بادرة توضح لهما هذا اللغز.

-ولكن —قلتها حتى لا أخيب توقعاتهما —بالنظر إلى آخر لقاء حدث بيننا، لا أستبعد أن يكون هذا الجسد عائداً لدوغان.

بدا بريق من الاهتمام في عيني غونغور المتعبتين.

-آخر لقاء؟

حاولت إخفاء القلق الذي انتابني من اهتمامي الشرطة بفكرة لقائي به.

-البارحة، التقينا البارحة.

-أين؟

-في متجر قريب من الجريدة التي أعمل فيها.

-متجر؟

وأخذ الاثنان يرمقانني بشكل غريب.

-في الكافيتريا التابعة للمتجر —شعرت بضرورة التوضيح لهما.

-وهل كنت أنت صاحب فكرة اللقاء، أم هو؟ —سألني يالفاج، وللمرة الأولى منذ لقائنا، لمحت كل هذا الاهتمام الذي بدا على وجهه.

- لم يكن أي مناً من اقترح اللقاء، بل كانت مجرد صدفة.

-صدفة حقاً؟ —سألني غونغور مستغرباً، وقد ارتسمت على شفتيه الرقيقتين ابتسامة لئيمة، تشير بوضوح لعدم تصديقه كلماتي؟

-من الأفضل أن نتحدث في الأمر في قسم الشرطة —قالها يالفاج وهو يغطي الجثة مرة أخرى بالملاءة البيضاء.

حين خرجنا إلى الممر، سيطر عليّ القلق أكثر من الراحة لمغادرة تلك الغرفة الباردة .وبدأت ألوم نفسي على غبائي الذي دفعني للاعتراف أمامهما بلقائي مع دوغان .فقد أثارت كلماتي شكوكهما بشكل واضح .ولكن ماذا لو كان دوغان مراقباً؟ ماذا لو كانوا يعلمون مسبقاً بلقائي معه؟ أيُعقل هذا؟ ولِمَ لا؟ وإلا فكيف تمكنوا من العثور عليه؟ ولكن لحظة !أيُعقل أن تكون الشرطة هي من قامت بقتله؟ ربما ليس هذان الاثنان، ربما أحد آخر من رجال الشرطة؛ شرطي قام من قبل بقتل بكير والعقيد رفعت .هناك شخص استطاع بسهولة الدخول إلى المنزل كما أوضح لي دوغان .وأياً كان هذا الشخص، فلا بدّ أنه ذو مكانة مهمة .ربما كان أحد المتزعمين للعصابة في الوقت ذاته .ولكن لِمَ سيعمد هذا الشخص لتدمير العصابة التي شكلها بنفسه؟ السبب واضح، فهو لم يعد بحاجة لخدماتهم .فهذا النوع من العصابات يتم تشكيلها لمجرد تنفيذ الأعمال القذرة، وما إن تنتهي مهماتهم، حتى يبدأوا بالتخلص منهم، وبخاصة إذا كان شخصاً مثل دوغان ملاحقاً من جهات عدة .وذلك لكي يتداركوا خطر ظهور غسيلهم الوسخ أمام الملأ .يا

للقصة المحكَمة التي ألفتُها، ولكن هل كانت هذه العصابة المزعومة موجودة بالفعل؟ ما هذا السؤال؟ ألم يشرح دوغان لي الأمر؟ ولكن إلى أي حد يمكن الوثوق بكلماته؟ وماذا لو كان أخي غير الشقيق قد ورّطني في أحد ألاعيبه القذرة؟ ولكن مهلاً، أين وصلت بي الأفكار؟ إنه أمر معيب أن تذهب بي الظنون إلى هذا الدرك، وجسد المسكين راقد على بعد خمسة أمتار مني .رغم ذلك فإنني أملك كل المسوغات للتفكير بهذا الاحتمال .فلماذا احترق الجسد بالكامل، إن لم يكن من أجل إخفاء هويته الحقيقية؟ جيد، وهذا يقود إلى سؤال آخر، لماذا لم يقم هؤلاء الأشخاص بتشويه جسد بكير وصديقته والعقيد رفعت بالطريقة ذاتها حين أقدموا على قتلهم؟ بل على العكس، كانوا حريصين على انتشار خبر مقتلهم أمام الرأي العام .إلا أنهم حينها قاموا بتوجيه كل الشبهات نحو عائلة بينجي أوغلو .هذا ما أخبرني به، ولكن من الصعب معرفة الحقيقة .فهؤلاء القتلة الذي لم يكابدوا مشقة إخفاء هوية بقية الضحايا، كانوا حريصين على إخفاء هوية دوغان .ولكنها نتيجة غير مقنعة، فسيارة BMW تشير بوضوح إلى هوية مالكها .ولهذا السبب تمكنت الشرطة من العثور عليّ بسهولة .ولكن لحظة ..لحظة، فدوغان كان ملاحقاً، وقد صدرت عقوبة بحقه، وحال الإمساك به كان سيودع السجن .إذاً كيف تمكن من امتلاك سيارة باسمه في تركيا، واستخراج رخصة السواقة؟ والأدهى من ذلك، كيف لم تقبض عليه الشرطة رغم معرفتها الأكيدة بكل هذه الحقائق؟ هذا يعني أنه منضم بالفعل لإحدى هذه العصابات، وإلا لما حظي بكل هذه الامتيازات .وإن شئتم الصدق، فهذا الوضع لم يكن باعثاً على الاستغراب مطلقاً .وبالتالي فهذان المحققان يخفيان عني أمراً ما .فربما لم يصطحباني معهما للتأكد من شخصية دوغان، بل لأنني أحد المشتبه بهم .واتجهت نظراتي تلقائياً نحو المحقق يالفاج الذي يسير على يميني.

كان أطول مني بقدر لا بأس به، وكانت قدماه اللتان تسيران بخطوات متقابلة تحمل جسد الدبّ الذي لديه، وكان شعره قد تلون ببقع رمادية هنا وهناك.

وكانت عظمتا خديه بارزتين، ومحجرا عينيه غائرين بوضوح .وكان لون عينيه البنيتين الغامقتين يزيد من قتامة محجريه اللذين لا يشيان بالذكاء بقدر القسوة التي تولد الفزع لدى النظر إليهما .أما المحقق غونغور الذي على يساري، فقد كان بادي الاختلاف عن رئيسه .كان متوسط القامة، ذا جسم رياضي مفتول، وكان وجهه الممتلئ متوجاً بجبهة عريضة، فيما عيناه العسليتان ترمقان الجميع بشك واضح. ولكنني لم أتمكن بعد من التعرف إلى الذهن الذي يولد هذه النظرات الشاكّة .وفيما بعد سأعرف إن كان غونغور محققاً ذكياً، أم أنه مجرد شرطي عادي يحاول تصنّع الذكاء والفطنة .فكلاهما حتى الآن، لم يقدم لي أي توضيح، ربما كانت الغاية فقط هي التأكد من شخصية دوغان، فلا أظنهما يفكران بأنني من قام بقتله على أي حال .لا يمكن أن تصل بهما الشكوك هذا الحد .ولكن لحظة، فمن المبكر الجزم بشيء، وحتى إن لم تكن شكوكهما موجهة ضدي، فهما باتا مطّلعين على لقائي بدوغان، ولكن هذا لا يعني أنهما مطلعان على المعلومات التي أفضى بها إليّ، وفي حال كانت لديهما فكرة عن فحوى الحديث الذي دار بيننا، فمن المؤكد أنها مسألة وقت لا أكثر، حتى ألقى المصير ذاته الذي تعرض له أخي .فهؤلاء الأشخاص يشاركون ربات البيوت وجهة النظر ذاتها :حين تبدأ عملية التنظيف عليك ألا تترك أي أثر للقذارة خلفك، وهذا يعني أن نهايتي قد باتت قريبة .مجرد التفكير في هذا الاحتمال كان كافياً ليبث فيّ الرعب، ولتسري قشعريرة الخوف في جسدي كله، وبدأت أشعر بالرجفة التي اجتاحت قدميّ .ولإخفاء الأمر عنهما حاولت أن أوافق خطواتي مع خطوات المحققين.

حين خرجنا من الباب، وقبل أن نستقل سيارة الشرطة، نظرت مجدداً إلى المحققين بحثاً عن أي إشارة، أو نظرة تواطؤ، أو ابتسامة مكر .ولكنني لم أجد ما يدعم شكوكي أو ينفيها، فقد حافظ كلاهما على السحنة المتجهمة ذاتها من دون أدنى تغيير، وكانا يمارسان عملهما كما تقتضي العادة .صحيح أنه في المشرحة بدت عليهما بوادر الاهتمام حين علما بأمر لقائي بدوغان، وكأنهما أمسكا بطرف خيط

ما، ولكنهما الآن يقتادانني إلى المركز لأخذ أقوالي كأي شرطيين يقومان بأداء مهمة روتينية لا أكثر .جلس غونغور وراء المقود، وإلى جانبه يالفاج، فيما تحتم عليّ الجلوس في المقعد الخلفي .ولكن هذا الوضع كان باعثاً للاطمئنان، والتقليل من مخاوفي بعض الشيء، فليس من عادة الشرطة ترك أحد المشتبه بهم جالساً لوحده في المقعد الخلفي دون قيود، أو مرافق إلى جانبه للحيلولة دون هروبه، وهذا يعني أنهما لا يعتبرانني أحد المشتبه بهم .ربما راودتهما الشكوك اتجاهي، ولكنهما مقتنعان بأنني لن أقدم على إيذائهما مثلاً .فلا ضرر من الشاة المقتادة للذبح، وهي تقبع في سكينة جهلها بمصيرها المشؤوم .لا، عليّ طرد هذه الأفكار المشؤومة من رأسي، فليس كل رجال الشرطة متورّطين مع هذه العصابات المشبوهة .أيعقل ألا يكون بينهم أشخاص صالحون؟ كما أنّ من يقومون بإلقاء القبض على أفراد هذه العصابات، أليسوا من رجال الأمن والشرطة في هذا البلد أيضاً؟ ربما كانوا مضطرين لفعل ذلك خوفاً من افتضاح أمرهم. لا، لا ..يبدو أنني متشائم أكثر مما يجب. فحتى الآن لم يقم أي منهما بتوجيه أي سؤال حول لقائي بدوغان.

في الحقيقة لم يعودا لفتح موضوع دوغان حتى وصولنا المركز، وهذا ما منحني قدراً أكبر من الاطمئنان .فمخاوفي والقلق الذي سيطر عليّ كان بلا طائل. وكانت هذه عادة متأصلة لديّ، ففي كل مرة يقع فيها خطب ما، وبمنهجية لا شعورية أفسر الأمر على أنه مؤامرة تستهدفني، فأنا منقاد تماماً للمقولة التي ابتكرها أجدادنا، بأننا محاطون بالأعداء الداخليين والخارجيين من كل جهة، تماماً مثل كل مواطن تركي .وبفضل المزايا التي اكتسبتها من مهنتي، فقد تحولت إلى نموذج مثالي للرُهابي .وعلى الرغم من ذلك، فقبل معاقرتي الشراب، كنت قادراً على كبح مخاوفي والسيطرة عليها قبل أن تكتسحني .ولكن الأمر ازداد سوءاً بعد ذلك، ولم أعد قادراً على كبح أي من وساوسي .وحين خطر لي الشراب، قمت بإخفاء يدي المرتعشتين في جيبي على الفور، وأنا أراقب المحقق غونغور من طرف خفي، وكأن معرفته بمعاقرتي تشكل أمراً على جانب كبير من الأهمية .لكنني على الفور أدركت

حماقة تصرفي هذا .ربما كان الأجدر بهما رؤية يدي المرتعشتين، ليدركا أنني لست سوى كحولي بائس لا أكثر، ولست كفؤاً للخوض في تلك الأعمال الرهيبة. ولأنني كنت متيقناً من أنها فكرة أكثر غباء من سابقتها، أخرجت يديّ من جيبي، ليتمكّن المحقّق من رؤية يديّ المرتعشتين بوضوح، رفعتهما حتى أرنبة أنفه، وأنا أطلب منه سيجارة . لم يستغرب المحقق طلبي هذا، وأخرج العلبة وهو يناولني سيجارة منها وكأننا صديقان قديمان.

قال لي:

-يداك ترتعشان.

سرّني سؤاله، فهذا يعني أنه لاحظهما، ومنحني في الوقت ذاته فرصة للتوضيح.

-من الشراب —قلتها من دون تردد —حينما اضطر للمباعدة بين الجرعات تنتابهما الرعشة.

لم يعقب المحقق يالفاج على كلامي، فقط التفت نحوي وهو يرمقني مستغرباً، وهذا ما كنت أريده بالضبط، لذا بدأت بإشعال السيجارة، وسحب أنفاس عميقة منها براحة تامة .ولكنها راحة لم تدم طويلاً، حين أدركت فداحة الخطأ الذي ارتكبته للتو، فاعترافي بإدماني على الشراب، قد يكون باباً يفضي لإيجاد طريقة عند الشرطة للتخلص مني دون عناء يُذكر، وبالطريقة ذاتها التي تخلصوا بها من دوغان .فبعد أن يقوموا بخنقي مثلاً، سيقومون بإضرام النار في المنزل، وستشير عناوين الصحف في اليوم التالي إلى موت الصحفي المدمن بعد احتراق منزله إثر عقب سيجارة لم يُطفأ كما يجب .لا أظنهم يفعلون ذلك، أحقاً لن يفعلوه؟ أجل، ذلك أن قتل اثنين من الإخوة بالطريقة ذاتها أمر يثير الشبهات بكل تأكيد .لقد كان هذا التفسير مقنعاً بالنسبة إليّ .حاولت الاسترخاء على المقعد،

حين استدار يالفاج نحوي وهو يسألني:

-هل تركت الصحافة بشكل نهائي؟

إنهما يعلمان أنني صحفي، ولكن هل كان الأمر في صالحي أم لا، هذا ما لم أستطع تحديده، فيما واصل كلامه.

-سابقاً كنا نقرأ اسمك باستمرار في الصحف، ولكنك مؤخراً بتّ لا تعمل على نشر الأخبار على ما أظن.

-لا أفعل .قلتها بتلقائية، في حين كان عليّ القول إنني لم أعد قادراً على النشر، فهذا الجو المشحون برائحة الجرائم والمؤامرات والغموض لم يعد يناسبني كما في السابق .لقد توقفت عن الانشغال بهذه الأمور، ذلك أنني منشغل بما أفعله بنفسي، وبطريق الموت الذي أمهده أمامي بوتيرة محمومة، برئتيّ اللتين لا أعرف إلى متى ستتحملان النيكوتين الذي أنفثه بكثافة بين ثناياهما، وكبدي الذي أواصل سقيه بجرعات لا تنتهي من الكحول .ولكنني لم أقل أياً من هذا، بل دمدمت مكرراً —لا أفعل —وواصلت :صحيح أنني لا أنشر الكثير من الأخبار كما في السابق، ولكنني لم أترك الصحافة..

-ولا أظنك قادراً على تركها —عقّب يالفاج —فأنا أشبّه الصحافة بالتحقيق، وما لم تتخلَّ عنك هي، فأنت لن تكون قادراً على التخلي عنها .بالطبع أنا أعني الصحفيين والمحققين الجيدين في عملهم، رغم أنهم أقل مما يمكنك تخيّله.

في الحقيقة، لم أتعرف حتى الآن إلى شرطي جيد، وهذا لا ينفي وجوده، ولكن فرصة عدم لقائي به قد دفعتني إلى اليأس من الأمر .لذا بدا حديث يالفاج عن الصحفيين، وبالذات عني غريباً بعض الشيء .أمعنت النظر إلى وجهه قدر المستطاع، علني أتحقق من غايته، إن كان حقاً مقتنعاً بهذا الكلام، أم هي وسيلة للتقرب مني من أجل الإيقاع بي، والحصول على أكبر قدر من المعلومات .ولكنه

استدار بعد أن أنهى كلماته تاركاً كل أسئلتي معلقة على عنقه الثخين الذي يواجهني.

-هل كنت تتابع كتاباتي؟

حاولت مواصلة النقاش وأنا أسأله.

-بالطبع —قالها دون أن يلتفت نحوي —كنت أفعل ذلك حين أجد الوقت —صمت للحظات، ومن ثم استدار نحوي —وإن شئت الصدق، فقد كان رئيسي في العمل، المحقق رؤوف هو من يتابعك باستمرار.

المحقق رؤوف، لم يكن وقع الاسم غريباً على مسامعي.

-إنه يعرفك حق المعرفة —وواصل وكأنه يقرأ أفكاري —تعرف إليك منذ خمس عشرة سنة، حين كنت مراسلاً للأخبار الجنائية.

حينها تذكّرته؛ كان بديناً بوجه تغطيه حفر صغيرة، ونظرات ترمقك بأسى واضح .إنه المحقق رؤوف الأصلع . لم يكن أقل ضخامة من يالفاج، وكان الانطباع الذي يولده في الآخرين لدى رؤيته للمرة الأولى هو الرهبة، ولكن التعرف إليه أكثر، يرشح أنه لم يكن شخصاً سيئاً كما يوحي شكله .وكانت علاقته مع الصحفيين، على شيء من القسوة، فلم يكن يسمح لنا بالاقتراب من مكان الحادث حتى انتهاء التحقيقات الميدانية بشكل نهائي .وكان يردد بصوته الناحل الذي يناقض جسده الضخم» :لن أسمح بذلك نهائياً، فقبل فحص مكان الجريمة، لا يمكن لأحد؛ بمن في ذلك المرحوم عبدي إيبيكجي[3]، الذي إن قام من قبره الآن، أن يقترب من المكان .«ولا أظنه كان يخصني بمعاملة أو مودة خاصة، فهو لم يكن يفرق بين صحفي وآخر، والآن وبعد مرور كل هذا الوقت، كان سماع كلمات يالفاج وهو يحدثني عن اهتمام المحقق بمقالاتي آخر ما كنت أتوقّع سماعه.

-المحقق رؤوف كان يتابع مقالاتي إذاً؟

دمدمت مستغرباً.

-أجل، كان يتابعها باستمرار، وكانت هناك مقالات معينة يقصّها ويحتفظ بها.

كانت كلماته تزيد من حيرتي، فاهتمام شخص مثل رؤوف بمقالاتي —حتى لو لم يمكن محققاً على قدر كبير من الأهمية —بل واحتفاظه ببعضها، كان حقاً مدعاة لدهشتي.

-وما الذي يفعله الآن؟ أما زال على رأس عمله؟

-للأسف فقد مات —قالها بغمٍّ حقيقي، يوضح مدى محبته للمحقق رؤوف —توفي إثر نوبة قلبية بعد سنتين من تقاعده عن العمل.

تذكرت حينها السيجارة التي لم تكن تفارق يده، أثناء عمله.

-لقد أحزنني سماع ذلك، فليتغمده الله برحمته، كان شخصاً طيباً.

-لقد كان رجلاً طيباً بالفعل —قالها وهو يؤكد على كلمته —ليتنا نستطيع أن نكون مثله.

ما الذي يعنيه بقوله، ليتنا نكون مثله يا ترى؟ أيعني رب أسرة جيد؟ أم شرطياً صالحاً؟ أم صديقاً جيداً؟ أم ناصحاً صادقاً؟ فبحسب ما أذكر كان رؤوف حينها يعمل في قوى حفظ الأمن، فهل كانت هذه الجهة مسؤولة عن قضية دوغان حينها؟ لا أظن ذلك، فقضية بهذه الأهمية، لا بد أن تكون من اختصاص الأمن السياسي على ما أظن .ولكن كيف سأتأكد من الأمر؟

-كان المحقق رؤوف يعمل في شعبة حفظ الأمن أليس كذلك؟ وحاولت

جاهداً المحافظة على نبرة صوتي الحيادية ذاتها .وقبل أن يقدم لي المحقق يالفاج توضيحاً، نظر إليّ وقد ارتسم على وجهه انطباع من يود معرفة غايتي الحقيقية من هذا السؤال، أم أنّ هذا ما خيل لي؟ لم أستطع التأكيد، ولكنه أجاب:

-عمل في أقسام مختلفة.

اكتفى بهذه الكلمات فقط، وحينها أدركت أنني كنت مخطئاً في حقه، فهذا الجسد الضخم، يترأسه ذهن متوقد على ما يبدو .لم أحاول مواصلة الحديث أو تغييره، ولكنني سررت لمعرفتنا المشتركة للشخص ذاته .فقد كان من حسن حظي، أنّ رئيس يالفاج في العمل، كان من الأشخاص الذين يكنون لي المودة، ولعملي التقدير، والأهم أنّ يالفاج هو من صرح لي بهذه الحقائق .أظن أنّ الغيوم التي كانت ترمي بظلالها القاتمة على روحي بدأت بالتشتت، ولكنّ تفاؤلي لم يستمر أكثر من الوقت الذي اقتضاه توقف السيارة حتى تغير إشارة المرور .فبحسب خبرتي، حين يعاملك محقق ما معاملة حسنة، فهذا يعني أنه يتوقع سحب كثير من المعلومات منك .وأولى خطوات التحقيق هي محاولة المحقق التقرب منك، أما الخطوة الأخيرة، فمتعلقة بالأجوبة التي ستعطيها، وطريقة تواصلك أنت معهم.

الفصل العاشر

حين وصلنا إلى المركز، لم تتغير طريقة تعاطي المحققين معي، فقد حافظا على ذلك البرود المتسم بشيء من الاحترام، الذي قابلاني به منذ البداية، وقياساً ببقية المكاتب الموجودة في المركز فقد اصطحباني إلى غرفة أكثر اتساعاً، وإنارة من البقية .وحين دخلتها، لا أدري لماذا انتابني إحساس أنها غرفة معاون مدير قسم التحقيقات في المركز .أتكون هذه وظيفة يالفاج ولكنه لم يشأ إخباري؟ لكنه فسر علامات الاستفهام التي علت وجهي بشكل مغاير وهو يسألني:

-هل تناولت الطعام؟

لم أكن في حالة تخولني التفكير في بطني، بل كنت أرغب بأن أخلو إلى نفسي بأسرع وقت ممكن، من أجل التفكير في كل ما يجري حولي.

- لم أتناول ولكن...

لم يكلف نفسه عناء سماع الباقي.

-جيد، سأطلب شيئاً لنتناوله سوية.

وكان صوته يشي برغبته في كسر البرود السائد بيننا.

-لن أوافق ما لم تسمح لي بدفع ثمن الطعام.

عرضت عليه.

قال يالفاج بنبرة جازمة:

-مستحيل، أنت في ضيافتنا الآن.

تركت اختيار الطعام لهم، فقاموا بطلب فطائر العجين باللحمة من المطعم الذي في زاوية الشارع، مع علبتي لبن لهما، وعلبة كولا لي .وفيما كان غونغور يتصل بالهاتف لطلب الطعام، مدّ لي يالفاج علبة السجائر مجدداً .كان يجلس وراء طاولته، فيما اخترت المقعد الجلدي الذي أمام الطاولة على جهة اليمين .فنهضت ومددت يدي لسحب سيجارة من العلبة، وقبل جلوسي أشعلها لي .وبعد انتهائه من طلب الطعام جلس غونغور قبالتي، أوضح أنه لا يدخن، ولكن لم يبدُ مستاء من الدخان أيضاً.

-يبدو أنّ علاقتك بأخيك لم تكن على خير ما يرام —سألني فجأة بنبرة حيادية، وكأنه يسألني عن أكثر الأمور اعتيادية، ولكنني ولسبب ما تململت في مقعدي، ولم تغب هذه الحركة عن ناظري المحققين.

-ما الذي قادك إلى هذا الاعتقاد؟

أجبت على سؤاله بسؤال آخر.

-لأنك لا تبدو حزيناً —رد غونغور —فلا سمح الله لو تعرض أخي لمصير مروع كهذا، سينتابني حزن لا سبيل لوصفه.

-لأننا لم نتأكد بعد أنّ الشخص المتوفى هو دوغان بالفعل.

-ولكننا لم نتأكد من العكس أيضاً.

-معك حق —صمتت للحظات، ومن ثم أحسست بضرورة تقديم توضيح ما —لقد مرت سنون طويلة قبل آخر لقاء لي مع دوغان، فقد اختار

العيش بعيداً عن عائلته، حتى أنه لم يأتِ لزيارة والدته أيضاً.

-والدته؟ —سألني غونغور مستغرباً —أليست والدتك أنت أيضاً؟

-لا، فدوغان أخي غير الشقيق، ولا صلة قربى تربطني به، كل ما في الأمر أنّ والدته تزوجت من أبي.

-هذا سيئ —قالها يالفاج —أي أنه ليس شقيقك؟

لم أفهم ما السيئ في ألا يكون دوغان أخي، ولكني لم أستفسر عن الأمر.

-لا، لسنا كذلك —أجبته.

-ولكن لا بد من وجود شخص ما تربطه به صلة قربى حقيقية، أليس كذلك؟ —قالها وهو ينظر إلي ومن ثم إلى غونغور.

نفيت بحركة من رأسي.

-بحسب علمي، ليس لديه أي قريب على قيد الحياة.

-متأكد؟ عم، خال، خالة، ابن أخ؟

-لا، فالخالة كريمان لم يكن لها أقرباء، ووالده الحقيقي أيضاً لم يكن لديه أقرباء، ولكنني لست متأكداً، فلو استقصيتم عن أقربائه من طرف والده قد تعثرون على أحد ما.

-لا داعي لذلك سيدي —قالها غونغور بنبرة الواثق من نفسه —فالعينة التي سنأخذها من قبر والدته ستفي بالغرض.

-عينة؟

سألت مدمدماً.

-من أجل تحليل الـ DNA – أوضح لي غونغور –فهذه أفضل طريقة للتأكد من أنّ الجثة تعود لدوغان أم لا.

-ستفتحون قبر الخالة كريمان؟ –سألته مستغرباً.

-وهل هناك من حل آخر؟ –قالها غونغور، وبدا لي حتى هو مستاء من الفكرة.

-يا للمسكينة –همهمت –حتى في قبرها لن تسلم من مشاكل دوغان.

-ألم تكن والدته أيضاً تحبه؟ –واصل غونغور التحقيق.

-بالطبع كانت تحبه –قلتها باقتضاب.

-وماذا عن والدك؟

-أنا ووالدي كنا نرغب بأن نعيش معه في سلام، ولكننا لم ننجح، فدوغان لم يكن يحبنا .وأظنه كان يلوم والدته دون أن يعلن ذلك، لأنها تزوجت بأبي.

-ومن يرغب في العيش مع زوج والدته؟ –علّق غونغور، وكان من الواضح أنه يريد تحريضي على الكلام، ولكنني لم أكن أنوي منحه هذه الفرصة على الإطلاق.

-معك حق، فما من طفل يرغب في العيش مع زوج والدته، أو زوجة أبيه، كما أنّ الوضع بالنسبة إلى دوغان كان أكثر صعوبة، فقد اضطر للعيش في منزل هذا الزوج..

-ومع ذلك فأنا أثمّن موقف والدك –قالها غونغور، وقد بدا أنه غيّر رأيه في تأييد دوغان –فلم يمانع من منح كنيته لدوغان، فكلاكما تحملان الكنية ذاتها.

-لقد وعد الخالة كريمان بذلك، أي والدة دوغان، وكان والدي شخصاً يلتزم بوعوده.

-على أي حال —تدخل يالفاج الذي بقي صامتاً كل هذا الوقت— إنها مسائل عائلية، ولكن هل لك أن تحدثنا عن لقائك الأخير بدوغان؟

-لم يكن لقاءً —قلتها وأنا أفكر في ضرورة توخي الحذر أكثر معهما، فأنا لم أقل لهم أنه كان لقاء، بل مصادفة —كان مجرد مصادفة لا أكثر، فبعد الخروج من العمل، اتجهت إلى متجر غروس على الطريق السريع لشراء بعض الحاجيات، وكان هو أيضاً يتسوّق من المكان ذاته، وهكذا التقينا.

-ومنذ متى لم تلتقِه؟ —سألني يالفاج، وبدا من نبرة صوته أنه أمام معضلة على قدر كبير من الأهمية.

-ما يقارب العشرين عاماً .حين علم دوغان أنه مطلوب توقف عن المجيء إلى البيت، وحين سافر إلى الخارج، انقطعت عنا أخباره.

-ولِمَ كان مطلوباً؟ —أيعقل بأنه لا يعرف السبب؟ فهل من الممكن البدء بتحقيق دون معرفة ماضي الشخص الذي يبحثون عمن قتله؟ ولكنني أجّلت البحث عن إجابة أسئلتي، وأنا أوضح له —قام مع اثنين من أصدقائه بقتل أحد الطلبة اليساريين.

-أحقاً —قالها وهو يرمقني بنظراته —وكيف حدث هذا؟

-قاموا بخطف الشاب من حافلة عامة، ومن ثم خنقوه.

-إذاً فأنت تقول بأنهم قاموا بخنقه —قالها غونغور الذي انضم للحديث من جديد، وبدا صوته ملغزاً —هل أنت متأكد؟

-هذا ما أقرته المحكمة حينها.

وارتسم تعبير ساخر على وجهه البدين.

-المحاكم تقرر كثيراً من الأشياء الخاطئة، والأهم من ذلك أنّ أقرباء الأشخاص الذين تتم محاكمتهم، يدّعون على الدوام بأنّ المحكمة قد أطلقت القرار الخاطئ.

-كان هناك شهود، وقد أكد الشابان اللذان كانا معه، أنّ دوغان هو من خطط للجريمة.

وبعد لحظات من الصمت، أضاف غونغور:

-وهل كنتما متفقين في آرائكما السياسية؟ —سألني —أعني حين كنتما في سن الشباب.

-لا —قلتها بنبرة تأكيد، أعطتني جرعة من الثقة —كان هو يمينياً محافظاً، فيما كنت أنا يسارياً.

-إنه سبب آخر يبرر عدم حبك لأخيك غير الشقيق —قالها غونغور مبتسماً.

أحقاً لم أكن أحبه، في الحقيقة من الصعب الإجابة على هذا السؤال الآن .ولكن:

-معك حقك، فأنا لم أكن أحبه —قلت.

-بالعودة إلى موضوعنا —قطع علي يالفاج الحديث —هناك ما يثير حيرتي حول مسألة لقائك به، فدوغان كان يسكن في شقة في منطقة أتاشهير، والمسافة ما بين منزله وبين المتجر الذي صادفك فيه حوالى ثلاثين كيلو متراً .وفي

ظل وجود كثير من المتاجر القريبة منه، لِمَ سيكلف نفسه عناء قطع كل تلك المسافة من أجل التسوّق؟

كان سؤالاً جيداً، ولكنني تصنّعت اللامبالاة؟

-لا أعرف —قلتها وأنا أرفع يدي دلالة الحيرة —ربما كان مضطراً للمرور في المنطقة التي يقع فيها المتجر لأمر ما، وخطر له شراء بضعة أشياء —وحينها تذكرت أنّ الطريق السريع البارحة كان مزدحماً جداً بسبب الأمطار —وفي تلك الأثناء كان المطر ينهمر بغزارة، أدت لتصادم سيارات عدة على الطريق السريع، وأظنه اختار اللجوء إلى المتجر بانتظار فتح الطريق.

-أهذا ما أخبرك به؟

-لا، ولكنني دخلت المتجر للسبب ذاته.

سحب يالفاج نفساً عميقاً من سيجارته قبل أن يتركها على المنفضة تلفظ أنفاسها الأخيرة، وقال وهو يدقق النظر فيّ، وينفخ الدخان في ضيق.

-في الحقيقة ما تقوله لنا حول لقائك المصادف لدوغان في متجر يقع في منطقة إيكيتيلي ليس مقنعاً على الإطلاق.

-ماذا تعني؟ —قلتها معترضاً —أتعني أنني أكذب عليكم؟

-لا داعي لأن تغضب، فأنا لا أقول إنك تكذب.

حينها لفت انتباهي الهدوء الذي يتسم به، فلا بد وأنه يحاول من خلال إثارة غضبي، الحصول على أكبر قدر من المعلومات.

-ربما كان يراقبك، وحاول إظهار لقائه بك في المتجر على أنه مجرد مصادفة.

فاجأتني قدرته على استكشاف الحقيقة بهذه السرعة، وزادت من حدة القلق المعتمل داخلي .واتجهت نظراتي نحو يدي التي تمسك بعقب السيجارة، والتي زاد قلقي من ارتعاشها، فسحقت العقب في المنفضة، ووضعت يديّ على ركبتيّ علهما تهدآن قليلاً، وأنا أقول:

-ربما، ولكن لماذا سيفعل أمراً كهذا؟

كانت الإجابة جاهزة.

-كان لديه ما يخبرك به.

-إن كنت تعني مسألة الميراث، فقد كان من السهل له المجيء إلى منزلي، أو الاتصال بي، أليس كذلك؟

-أي ميراث تعني؟ —تدخل غونغور من جديد.

-بعد موت الخالة كريمان، تحولت ملكية البيت الخشبي الذي في كوزوجوك إليّ وإليه.

للحظات ساد صمت مشحون، وبدا أنهما يحاولان البحث عن سؤال مناسب، ولكن يالفاج بادر للتوضيح أخيراً، وهو يرمقني بتمعّن.

-اسمعني، أريد التحدث معك بصراحة تامة، لقد كان دوغان متورطاً في أعمال غير قانونية، وأغلب الظن أنه كان يملك معلومات كثيرة ووثائق عن عالم الجريمة والفساد، وربما كان اللقاء بعد كل تلك السنوات، بسبب رغبته في نشر هذه المعلومات أمام العلن عن طريقك .ولو ثبت أنّ الشخص المقتول هو دوغان بالفعل، فمن المرجح أنه قُتِل لهذا السبب، وربما لمعرفته المسبقة باحتمال قتله، حاول أن يسلمك هذه المعلومات.

بدأت أكيل الشتائم لدوغان بصمت، وللحظات داهمتني رغبة في البوح بكل شيء، والتخلص من كل هذه المعمعة، ولكنني غيّرت رأيي على الفور .فليس لديّ الدليل الذي يثبت صحة كلماتي، ولن يصدّقا بأنّه لم يسلّمني شيئاً، وحينها سأكون قد أوقعت نفسي في هذه المتاهة التي لا فكاك منها .كما أنني لا أعرف عنهما شيئاً، لذا لا يمكنني الثقة بهما.

– لم يحدثني عن شيء من هذا القبيل، فقد تحدثنا عن الأيام الخوالي، وعاتبته بشدة لأنه لم يحضر جنازة والدته، وقد أبدى أسفه الشديد واعتذاره.

–ألم تسأله عما يفعله حالياً، عن عمله مثلاً؟

لم يكن أمامي من حل سوى الاستمرار في سرد الأكاذيب.

– لم أسأله —قلت، وأضفت مزيداً من التفاصيل لتبدو الكذبة معقولة — ولكنه بدا في وضع مادي جيد، فقد حدثته عن المنزل الخشبي، لكنه أخبرني بأننا سنناقش الأمر فيما بعد، ولو كان بحاجة للنقود لاقترح عليّ بيعه.

–ألم يحدثك عن ماضيه؟ وأنت، ألم تسأله من باب الفضول عمّا كان يفعله كل هذه السنوات؟

– لم نتطرق إلى الأمر مطلقاً —حاولت الإجابة بكل ثقة —فلم يبادر هو بالتوضيح، وبدوري لم تكن بي رغبة لسؤاله، لأنني وإن لم أكن مطلعاً على تفاصيل عمله، فقد كانت الصحف تنشر باستمرار أشياء تتعلق به، وبالأعمال التي تورّط فيها.

–حقاً —قالها يالفاج مدعياً عدم معرفته بشيء من هذا القبيل وهو يكمل استجوابه —وما الذي كانت تنشره الصحف؟

–كف عن هذا —قلتها وأنا أنظر إليه بتحدٍّ —لا بدّ وأنك مطلع على

الأمر أكثر مني.

ابتسم بوضوح وهو يقول:

-حسناً، لدينا ملف متعلق بنشاطات دوغان في تلك الفترة، ولكنها معلومات غير كافية، وسيسعدنا إن شاركتنا كل ما تعرفه عنه.

-المعلومات التي لديّ كلها منشورة في الصحف، التي تشكل مصدري الوحيد، ولكنني سأوجز لك الأمر، فقد اتهم بالاعتداء على أحدهم في ألمانيا، وتم إلقاء القبض عليه في هولندا بتهمة المخدرات، وإلقاء مواد متفجرة على الكنيسة الأرمنية، والتورط في نزاع مسلح في فرنسا .وهناك كثير من التهم المشابهة .ولكنني مثلكم لا أملك أي معلومات عن الفترة التي أعقبت عودته إلى تركيا.

-تلك هي الفترة الأهم —قالها يالفاج وهو يتنحنح في مقعده متبرماً— ألم يحدثك عن تلك الفترة؟

-لا، لم يحدثني.

ساد صمت قصير.

-حسناً، ألم يحدثك عن رضا أصلان أيضاً؟ —سألني يالفاج.

-رضا؟ —سألته مستوضحاً ما يرمي إليه.

-رضا أصلان —كرر يالفاج.

-إنها المرة الأولى التي أسمع باسمه، من يكون هذا الرجل؟

-أحد المخبرين ضد حزب العمال الكردستاني، كان من أعز أصدقاء دوغان، ويسكنان معاً في البيت ذاته.

-وأين هو هذا الرجل؟

-لقد اختفى فجأة، ذهبنا إلى منزل دوغان ولم نجده هناك، وحين سألنا عائلته عنه، أخبرونا بأنهم لم يلتقوا به منذ أيام عدة .لهذا أردنا أن نسألك عنه، فقد تعرف أين يمكن أن نجده.

-وكيف لي أن أعرف؟ فهو لم يخبرني بشيء، وأنا أيضاً لم أسأله شيئاً يتعلق بطبيعة عمله أو الأشخاص الذين يعمل معهم.

-وهذا من الأشياء التي لا أفهمها —قالها يالفاج —لنفترض أنك غير مهتم بما يفعله أخوك، لأنك لا تحبه، ولكنك صحفي، وتقابل شخصاً يملك أجوبة كل الأسئلة التي تثير فضول الجميع، فكيف تستطيع منع نفسك من طرح أي سؤال عليه؟ ألم تتغلب عليك دوافعك المهنية للتقصي عن أي معلومة مثلاً؟

بدأت الضحك بصوت عالٍ، ولم أكن أحاول التملص بهذه الطريقة لأنني حُشرت في زاوية الاعتراف، بل انتابتني رغبة حقيقية في الضحك .فيما راقبني المحققان وسط نظرات الذهول والحيرة، حاولت لملمة نفسي قليلاً، واعتذرت منهما، ولكن يبدو أنّ هذا لم يكن كافياً بالنسبة إليهما.

-أجل —قال يالفاج —ألن تشرح لنا ما الأمر؟

-سأخبركما —قلتها وأنا أحاول كبح أمواج الضحك التي ظلت تنتابني وتهز جسدي —ولكني أخشى ألا تصدقاني .في الحقيقة لم تتحرك لدي أي رغبة أو دوافع مهنية حين رؤيتي دوغان.

كان غونغور يراقبني متبرماً، وهو يحك عنقه، فيما واصل غونغور التحديق بنظراته المتشككة التي يقابل بها كل ما أقوله.

-أعلم أنكما لا تصدقاني لذا سأعترف لكما بشيء مضحك حقاً .لقد

طُردت من العمل قبل ربع ساعة من لقائي بدوغان، فالجريدة التي كنت أعمل فيها منذ سنين طردتني شرّ طردة دون أن تكلف نفسها عناء تقديم أي توضيح لي، وتعرفون ما السبب؟

استطعت لفت انتباههما بعض الشيء، فقد كفّ يالفاج عن حكّ عنقه، وبدأ يرمقني باهتمام، فيما اختفى ذلك البريق الذي يومض في عيني غونغور.

-ذلك لأنّ رؤسائي في العمل باتوا مقتنعين بفقداني لدوافعي كصحفي، وغياب حوافز الاهتمام بعملي .وبالطبع فقد كنت حانقاً عليهم بشدة بعد طردي، ولكنني الآن وفيما أجيب على أسئلتكما أيقنت بأنهم محقون في رأيهم .فلا يمكن اعتباري صحفياً حقيقياً، في الوقت الذي لم أشعر فيه لدى لقاء دوغان؛ والذي يعتبر بالنسبة إلى أي صحفي من أهم مصادر المعلومات، بأدنى رغبة في الحصول على أي معلومة منه .ويبدو أنّ رؤسائي قد أدركوا هذه الحقيقة قبلي.

-ولكن —تدخل يالفاج.

-أعلم بأنك ستخبرني أنني كنت صحفياً لامعاً في ما مضى، وهذا ما لن أنكره، ولكنني تعبت .وأصبحت الصحافة لا تسبب لي سوى السأم .ليس الصحافة فحسب، بل كل شيء في هذا العالم بات يسبب لي الملل .وكل هذه الأمور مجرد ترهات بالنسبة إليّ لا أكثر .فلا دوغان، ولا عالم الجريمة الخفي، وأعتذر عن صراحتي، ولا حتى أنتما ..لا شيء يثير اهتمامي.

سكتت وأنا أحدق إلى الاثنين، كان يالفاج حائراً بين الشك واليقين، فيما ظل غونغور كعادته يرمقني بشك لا سبيل للتخلص منه.

-وإن شئتما التحقق تستطيعان الاتصال بالجريدة، والتأكد من إقالتي من العمل .وإن بقيتما غير مصدقين رغم ذلك، فما باليد حيلة، تستطيعان إلقاء القبض عليّ والسلام.

بدا يالفاج متفهماً.

-العفو يا أستاذ عدنان، ولماذا نلقي القبض عليك؟ —وكان التعاطف الذي في صوته يشير إلى أنني تمكنت من كسب هذه الجولة —فأنت هنا ضيفنا، وبعد أخذ أقوالك تستطيع الذهاب بكل تأكيد .وأرجو ألا تسيء فهمنا، فنحن لا نحاول سوى القيام بعملنا .كما أن هؤلاء الفاسدين متغلغلون بيننا بكثافة، ونحن نحاول التخلص منهم، وإعادة الهيبة إلى مؤسساتنا الحكومية، هذا هو هدفنا جميعاً، أليس كذلك؟

كانت اللحظة مواتية لإظهار لامبالاتي المطلقة.

-في الحقيقة لا أعلم حقيقة نواياكما، أما أنا فلا أهداف لديّ على الإطلاق .وكلما أنهيتما أخذ أقوالي بسرعة، كان ذلك أفضل لي .لأنني أريد مغادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن والعودة إلى منزلي، واحتساء كأس من الشراب.

-حسناً، حسناً ..سندعك تذهب —قالها يالفاج وهو يعطيني بطاقة، لم يكن عليها اسم أو عنوان، فقط رقم هاتف نقال —تفضّل هذه البطاقة، وفي حال حصولك على أي معلومة تخص أخاك، أو تذكرت أي شيء، نرجو الاتصال بنا على هذا الرقم .ولا يهم إن كان ذلك ليلاً أم نهاراً.

تناولت البطاقة ووضعتها في جيبي.

-هل يمكنني الذهاب الآن؟ —وبدأت الاستعداد للنهوض.

-على رسلك، فلا يمكنك الخروج من هنا بهذه السهولة.

كان غونغور هو من قال هذه الكلمات، فالتفت نحوه مضطرباً، ورأيت تعبيراً من الجدية المتّسمة بالضيق على وجهه .وقد بدت الحيرة على يالفاج أيضاً وهو يرمق زميله مستفهماً .ولكن جديته اختفت على الفور تحت ظلّ الابتسامة التي

قابلني بها وهو يقول:

-لن ندعك تخرج من هنا دون تناول الطعام معنا، فكما تعلم، الشرب على معدة خاوية ليس محبّذاً.

لقد كان يهزأ بي.

الفصل الحادي عشر

حين تمكنت أخيراً من التملّص من يالفاج وغونغور، كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ليلاً .وما إن خرجت من مبنى الأمن، حتى استقللت سيارة أجرة.

وحين سألني السائق عن وجهتي، ألمت بي الحيرة .فعندما كنت قابعاً في غرفة التحقيق، كانت رغبتي الوحيدة هي العودة إلى المنزل بأسرع وقت، والتخلص من ضوضاء الأفكار التي كانت تعصف برأسي، وإخمادها بكؤوس الشراب، ومن ثم محاولة التفكير بهدوء وترو، ولكنني ما إن خرجت حتى أدركت أنني لا أريد البقاء بمفردي على الإطلاق.

-اتجه نحو تقسيم.

لم تكن لديّ فكرة أكيدة عن المكان الذي سأذهب إليه .هل أذهب إلى فوندا؟ فبعد كل ما حصل بيننا ستظنني أريد الاعتذار منها، ولكن ما المشكلة؟ ستكون فرصة لكي نتصالح .لا، فأنا لا أريد الاعتذار منها .وإن كان هناك من يجب أن يعتذر سيكون هي، وليس أنا .ولكن لماذا؟ لأنها خانت زوجها السابق مثلاً؟ الأمر ليس بهذه البساطة .ما وجه التعقيد في الأمر إذاً؟ حسناً، لست في حال تسمح لي التفكير في مزيد من المشاكل .الأفضل هو الذهاب إلى النادي الذي يسهر فيه الأصدقاء عادة، لأتمكن من رؤيتهم، ومن الحصول على آخر المعلومات التي تخص حادثة اليوم .ذلك أنّ يالفاج وغونغور لم يسعفاني بالمعلومات اللازمة .ولكن حتى لو حصلت على معلومات عن الأمر، فما الفرق؟ فقد مات

دوغان، أو أنّ هذا ما يظنونه، وفي كلتا الحالتين فقد تخلصت من المشكلة برمتها. حينها انتابني شعور عميق بالخزي لأنني أفكر بهذه الطريقة .فبغض النظر عن أنه أخي غير الشقيق، وأنّ علاقتنا لم تكن على خير ما يرام، فقد التقيت به في الأمس، وطلب مني المساعدة، ولكنني رفضت .والأدهى من ذلك —ودعكم من الإحساس بقليل من الحزن عليه، والذي لا أشعر به —فقد بدأت أشعر بالراحة بل السعادة لأنني تخلصت منه.

ما الذي يحدث لي؟ هل بدأت أفقد إنسانيتي؟ ولكن لِمَ هذا الإجحاف بحق نفسي، فأنا لم أقم بإيذاء أحد .الذي قام بإيذاء الآخرين، وارتكاب الجرائم، وبيع الهيروين، والاعتداء على الناس، وتشكيل العصابات الإجرامية هو دوغان، وبالتأكيد لم أكن أنا من أجبره على فعل كل ذلك .وعلى ما أذكر فقد تشاجرنا أكثر من مرة بسبب تصرفاته هذه، ولكنه اختار المضي في هذا الطريق .وفي النهاية غرق حتى قمة رأسه في القذارات التي ارتكبها .وكما يُقال فمن جاور الحداد ينكوي بناره .وإن كنت غير قادر على مساعدة نفسي، فكيف سأخلصه من الهاوية التي رمى نفسه فيها؟ كما أنه لم يطلب مني المساعدة لتخليصه، فقد كان متيقناً من مصيره المحتوم، وكل ما أراده مني هو فضح القتلة وإفشاء أعمالهم حتى لا يتمكنوا من النجاة بفعلتهم بعد موته .هذا كل ما طلبه مني .أحقاً كان هذا كل ما في الأمر؟ وماذا عن المعلومات التي أخفاها عني؟ لقد قام بإخفائها خوفاً على سلامتي؛ »ولكن إن لم تكن راغباً في التورط، فاكتفِ بهذا القدر من المعلومات التي أعطيتك إياها .«هذا ما قاله لي .ولكن لماذا؟ لا أعلم، اللعنة ..بتّ لا أعلم شيئاً .ورغم ذلك فما أنا متأكد منه، أنَّ كل هذه المشاكل، وبقائي في قسم الشرطة حتى منتصف الليل، كلها بسبب شخص واحد وهو دوغان .فلو لم يأتِ للقائي، ويبدي رغبته في التحدث معي، لما تورطت في كل ما حصل .ولكنني لا أظن، فحتى لو لم أقابله البارحة، كانوا سيصطحبونني اليوم إلى قسم الشرطة .ذلك أنه لا يملك أقرباء سواي.

ولكن ألم يخبرني المحقق أن هذا المدعو رضا أصلان هو شريكه؟ بئس الشريك هذا، ولكن لِمَ أنا مستغرب، فقد وجد أخي الشخص المناسب ليكون شريكه .وربما له أقرباء آخرون، عشيقة أو حتى زوجة وأولاد.

لِمَ لا، وأنا لا أعلم عنه شيئاً منذ عشرين عاماً .إلا أنه احتمال بعيد، فلو كان متزوجاً، كانوا سيصطحبون زوجته للتعرف إلى الجثة .ربما فعلوا ذلك، وحين عجزت عن التعرف إليه، قاموا باللجوء إليّ علهم يصلون للحقيقة .وربما اصطحبوني عمداً، لأنهم على علم مسبق بلقائي الأخير به، وذلك من أجل الحصول على بعض المعلومات، ها قد عادت بوادر الرهاب من جديد .فأنا من أطلعهم على لقائنا البارحة .ولكن أحقاً كانت تلك جثة دوغان؟ حينها تذكرت رقم الهاتف الذي أعطاني إياه .وأخرجت هاتفي النقال الذي بقي مغلقاً طوال النهار .وبدأت بالضغط على رقم دوغان، ولكن النتيجة كانت مخيبة، فالرقم خارج نطاق التغطية. عدت للمحاولة فكانت النتيجة ذاتها .وعادت إليّ صورة ذلك الجسد المتفحّم المسجّى في المشرحة، أحقاً كان ذلك جسد دوغان؟

-محال، فهذا ليس جسد دوغان —دمدمت.

-عفواً، ماذا قلت؟ —خاطبني السائق.

يبدو أنني بدأت التفكير بصوت مسموع.

- لم أكن أحدثك —أوضحت له.

ولكن السائق ظل يرمقني بغرابة من مرآته الأمامية .حينها تساءلت عما يحصل لي، فقد نسيت أين أنا، وإلى أين أتوجه .لذا حاولت تجنب نظرات السائق، وقررت لملمة أفكاري المبعثرة قدر المستطاع، وبقيت متمسكاً بهذا القرار حتى وصولي.

كان النادي الذي يسهر فيه الصحفيون كعادته؛ فتحت الأضواء الحمراء القانية، التي اكتسحها ضباب خفي من دخان السجائر الكثيف، كان زملائي يواصلون تمرير ساعات الليل .شاهدت كلاً من إرول ونديم، يعمل كل منهما في صحيفة مغايرة، ولكنهما من أكثر الصحفيين خبرة في موضوع ملاحقة الحكومة للعصابات المتغلغلة داخل أجهزتها .وبالتأكيد فهما مطّلعان على المجريات الأخيرة، وبالتالي يملكان معلومات كثيرة التي يمكن أن تفيدني .والأهم أنهما يجلسان في أقرب نقطة يمكن منها الحصول على الشراب .وفيما كنت أسير نحوهما، أمسك أحدهم بذراعي، التفت لألتقي بعارف وجهاً لوجه.

-أين أنت يا رجل؟ فأنا أحاول الاتصال بك منذ المساء.

لم أفهم سبب هذا الاهتمام.

-لماذا؟ ما الذي حصل؟

سألته.

انتقلت الحيرة إليه وهو يرمقني.

-ألم تسمع؟ —كانت أنفاسه التي تعبق برائحة الكحول تلفح وجهي فيما يواصل حديثه —لقد قُتل أخوك.

-سمعت، سمعت —وأنا أومئ برأسي —ولكن ليس من المؤكد بعد إن كان أخي بالفعل.

وكأن صوتي كان أعلى مما يجب، فقد التفت عارف يميناً وشمالاً قبل أن يقول.

-فلنجلس في ركن هادئ، وهناك نواصل الحديث.

قالها هامساً.

جلت بناظري في النادي لأرى ممّ كان يخشى، ولكني لم ألحظ أحداً مهتماً بوجودنا سوى إرول ونديم اللذين رفعا يديهما لإلقاء التحية .فأجبت بانحناءة من رأسي، والتفت نحو عارف.

-لماذا تتحدث هامساً؟

- هل أنت مجنون يا هذا؟ —وهو يحدق إليّ بعينيه المحمرتين —أيعقل أن نناقش موضوعاً كهذا بصوت مرتفع يسمعه الجميع؟

تذكرت حادثة وقعت قبل عامين، حيث كان عارف يعمل على التحقيق في خبر صحفي مهم، حين سرق سايم —أقرب أصدقائه —الخبر ونشره في جريدة منافسة .ولم تقتصر مصيبته على خسارته للخبر، بل تحول إلى مادة للسخرية يتناقلها الجميع .ولو أنني حقاً أملك معلومات مهمة حول هذه الحادثة، لكنت عذرت حرصه، لكنني، ورغم تواتر الأحداث المحموم الذي عشته خلال اليومين المنصرمين، لا أملك في جعبتي أي شيء يمكن التعويل على أهميته.

-أظنك تبالغ قليلاً.

قلت له.

-لا أبالغ.

قالها وهو ينظر إليّ ويبتسم ابتسامة ملغزة —فلن تتمكن من الإفلات مني هذه المرة يا عدنان —وأمسك بيدي وهو يقودني إلى ركن قصي في النادي.

فلنجلس هنا، حتى نتمكن من التحدث من دون خوف.

طاوعته مرغماً، وأنا أسير خلفه نحو إحدى الطاولات المطلة على حديقة

النادي، على الطاولة كانت تجلس امرأة شقراء تنظر إليّ مبتسمة، شعرت بأنني شاهدتها في مكان ما، وحاولت التذكر.

-إينجي.

قالها عارف وهو ينقذني من خيانة الذاكرة .حينها تذكرت أنها إحدى الشابات اللواتي يعملن في مجلة فنية .وبالطبع لم تكن شابة بكل معنى الكلمة، فقد كانت في حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها .ولم تكن تحظى باحترام معظم الزملاء، لشغفها المعروف بالرجال، ولكنني كنت أحترمها، فقد كانت امرأة جيدة. وفيما تمر هذه الخواطر في ذهني.

-هل تسمحين لنا ببعض الوقت، فهناك موضوع نود مناقشته على انفراد.

خاطبها عارف.

ولكنها تصنّعت عدم سماع كلماته وهي تمد يدها مصافحة.

-مرحباً عدنان، كيف حالك، سمعت بأنهم أقالوك من العمل.

صافحتها مبتسماً.

-هذا ما حصل يا عزيزتي، دعك من الأمر، وأخبريني كيف حالك؟

ولكن عارف الذي لاحظ لامبالاة إينجي بكلامه، تسمر أمامها وهو يكرر.

- هل تسمحين لنا قليلاً.

-اذهب للتحدث في مكان آخر.

أجابته الفتاة.

تكدّر وجهه على الفور، ولن أنكر بأنني قد استأت أيضاً من فظاظة إينجي، ولكنها واصلت طرح مكنونات قلبها بغضب واضح، وبصوت لم تحرص مطلقاً على خفضه.

-يا لك من وضيع، فمنذ قليل كنت تتملّقني جاهداً، لقضاء الليلة معك، ولكن ما إن رأيت عدنان، حتى بدأت تعاملني باحتقار لا يليق سوى بك.

-ولكن يا إينجي.

تلعثم عارف.

-كف عن المراوغة .لست من طلب منك الجلوس معي، حين كنت أحتسي كأسي، فأنت من أتيت وبدأت تتملّقني، والآن تحاول بكل صفاقة الاستيلاء على طاولتي أيضاً؟

-على رسلك يا إينجي، لم أقصد شيئاً من هذا القبيل، كل ما في الأمر أنني طلبت منك معروفاً لا أكثر.

-يبدو أنك تحسبني من أولئك النساء اللواتي تستطيع خداعهن، ولكنك مخطئ، كما أنني لن أسدي لك أي خدمة، أو معروف.

كشّر عارف وجهه وبدا عليه الضيق بوضوح.

-أنت تهوّلين الأمر، كل ما هنالك أنني طلبت منك خدمة صغيرة لا أكثر، ولكن سيأتي يوم وتحتاجين فيه خدمة مني وعندها سترين.

وبدأ عارف بالانسحاب، ولكن الفتاة لم تكن تنوي تمرير كلامه ببساطة.

-فلتذهب إلى الجحيم، فلن أحتاج خدمة من أمثالك.

ثم رسمت ابتسامة لطيفة على وجهها وهي تخاطبني.

-أعتذر عما حصل يا عدنان، فلست معنياً بأي شيء مما قلته .تستطيع الجلوس إن شئت.

-شكراً، ربما أراك لاحقاً.

قلتها وأنا أرسم الابتسامة اللطيفة ذاتها على وجهي موضحاً عدم استيائي منها.

في هذه الأثناء كان عارف الذي تجول نظراته في المكان، قد وجد غايته.

-تعالَ لنجلس هناك يا صديقي.

سحبني من ذراعي نحو طاولة شاغرة، مبتعداً عن إينجي.

-عليها اللعنة تلك العاهرة —أخذ يدمدم —ولكنني أحمق لأنني تنازلت وجالست سفيهة مثلها.

-أظنها محقة في غضبها؛ لقد عاملتها بازدراء، فيكف تحاول بعد أن جلست معها، طردها عن طاولتها؟ إنه تصرف فج.

-دعك من الدفاع عن أمثالها، فالكل يعلمون أي نوع من الفاسقات هي .لم يبق أحد في الوسط الصحفي، ولم يتقلّب بين أحضانها.

وكأنه كان أقل فسقاً، فقد تزوج ثلاث مرات وطلق زوجاته الثلاث، وكان يطلق عليه لقب الفاسق الأسرع في الوسط الصحفي .لست واثقاً من صحة الادعاءات، ولكنه ما إن يفتح فمه، حتى يبدأ بالحديث عن آخر مغامراته الغرامية مع النساء .ولكنني لم أكن راغباً في التجادل معه حول هذا الأمر، فقد كنت بحاجة ماسة لكأس من الشراب، وما إن جلسنا حتى بدأت نظراتي تجول باحثة عن

أحد شبان الخدمة .ولكن عارف كان أبعد ما يكون عن توقع رغباتي، فقد بدأ الكلام فور جلوسنا.

-اسمعني جيداً يا عدنان، إن حاولت الخوض في هذا الأمر وحدك، فلن تستطيع؛ ذلك أنّ القضية التي تنوي التورط فيها أكبر من قدراتك بكثير، ولكن لو تعاونا معنا، سنقوم بتفجير أكبر سبق صحفي .وحينها سيدرك الجميع كيف يكون الصحفي الإخباري الحقيقي، وفن تقديم المادة الصحفية على أصولها.

لو تركته، فسيواصل سرد هذه الترهات.

-لحظة، لحظة ..أي تفجير، وأي فن؟ هل لك أن توضح لي ما الذي تتحدث عنه؟

-كف عن المراوغة، فأنا خير من يعرفك .فمنذ سنتين لم تهتم مجرد اهتمام بأي خبر صحفي، والآن تتصل بي لتسألني عن مقتل العقيد رفعت، ثم يُقتل أخوك دوغان، أو أن هذا ما تم الترويج له، وتتوقع مني بعد كل ذلك أن أصدق بأن هذه الأحداث مجرّد مصادفات لا أكثر؟

-لقد أخبرت الشرطة منذ قليل بأنني لم أعد مهتماً بهذه الأمور .ولست مهتماً إن صدقني أحد أم لا.

وبينما كنت أتحدث كنت أواصل البحث عن أحد شبان الخدمة.

-لقد كنت في قسم الشرطة إذاً؟ —قالها وقد زادت معرفته بالأمر من الثقة في صوته —بالطبع، فالمنطق يحتم ذلك، لقد أدركوا الحقيقة على الفور، لذا قاموا بأخذك للتحقيق معك.

-تستطيع أنت والشرطة التكهّن بالتّرهات كما يحلو لكم —ورفعت يدي لأشير لحقي الذي كان يضع كأسين من الشراب على الطاولة المجاورة، لكي يأتي

إليّ —فكل ما أحتاجه الآن هو كأس من الشراب.

-لا تفعل هذا بي —قالها، وحين التفت نحوه كان هناك توسل عميق على قسمات وجهه —تستطيع الكذب على الشرطة، ولكن لا تحاول خداعي! صارحني بأنك تنوي العمل على الخبر بمفردك، وأنك لا تنوي مشاركتي في الأمر، ولكن لا تحاول التلاعب بي أو استغفالي.

تنهّدت بضيق.

-لماذا لا تحاول استيعاب ما أقوله لك يا رجل؟ ليس لدي أي معلومات عن القضية.

-إذاً لِمَ أخذتك الشرطة؟

-للتحقق من الجثة، وماذا سيكون سوى ذلك؟

كان صوتي أكثر ارتفاعاً مما يجب، ولكنني لم أكن أنوي الاعتذار منه. وبدل نظرات الاستجداء التي في عينيه، لاحظت عتباً لاذعاً في نظراته، فلم أبالِ بالأمر .والتفتُ نحو حقي الذي وقف بجانبي:

- كالعادة.

قلت له.

-حسناً أستاذ عدنان —وقبل أن يبتعد كثيراً، عاد وكأنه تذكر أمراً ما — أتود بسكوتاً؟

-فقط بعض الحمّص.

-قلتها مبتسماً.

فيما كان عارف ينتظر انتهاء حديثي مع الشاب بصبر نافد.

-لا تنظر إليّ بهذه الطريقة الخبيثة، فأنا من يجب أن يستاء منك .رغم معرفتك بخير طردي من الجريدة، لم تكلف نفسك عناء إخباري .لقد تحولت إلى أضحوكة أمام الباب.

نظر بعيداً.

-أقسم لك.

كان يحاول خداعي.

-لا تحاول إنكار الأمر؛ فأنا على ثقة تامة بأنك كنت تعلم، ولكنك لم تشعر بأنني أستحق منك مشقّة اتصال بسيط.

-لقد أسأت فهم الموضوع.

كان يحاول تبرير فعلته.

- لم أسئ فهم أي شيء يا عارف .ولا تظنني مستاء منك لهذا السبب، ولكني أطلب منك أن تعي ما أقوله لك، ليست لدي أي معلومات عن هذه القضية، والأهم أنني لا أريد التورّط فيها.

لا بد أنّ كلماتي كانت كافية لإقناعه، فقد كفّ عن محاولات الدفاع عن نفسه، وأخذت ابتسامة اعتراف ترتسم على شفتيه، وهو يغيّر الحديث.

-لماذا اتصلت بي، وطلبت مني جمع المعلومات، وأنت تدعي عدم رغبتك التورّط في الأمر؟

لم أكن أريد إخباره عن لقائي بدوغان.

-عندما علمت بتورط شقيقين، فهو أخي.

رمقني بنظرات غير مصدقة للحظات قبل أن يضيف.

-أنا أعرفك جيداً .وطوال هذه السنوات لم أسمعك تثني على أخيك ولو بكلمة واحدة .ولست بالرجل الذي يصيبه القلق من أجل أحد الفاشيين السابقين، وتكلف نفسك عناء البحث عن أخباره من دون سبب .كما أنك كنت تتهرب من ممارسة الصحافة تحت أي ذريعة، لا بدّ من وجود سبب آخر يدفعك للاهتمام، وهذا ما أنا واثق منه كل الثقة.

جاء دوري للابتسام هذه المرة.

-حتى لو كان كلامك صحيحاً، فلست عدنان سوزمن القديم، لقد فقدت كل علاقاتي السابقة، وحتى لو حاولت خوض هذه المغامرة، فمن الذي سيصدقني، ويرضى بالتعاون معي؟

-وهذا ما أريد إيضاحه لك .صحيح أنك خسرت كل علاقاتك ومعارفك، ولكنني لم أفعل .وإن لم يثق بك أحد، فإنهم يثقون بي، ومن الأفضل لنا أن نتعاون.

سكت للحظات، وهو يرمقني بيقين واضح.

-أنا جاد يا عدنان، فهذه فرصتك للعودة إلى العمل .فرصتك لتعود ذلك الصحفي الذي يسعى الآخرون وراءه، فأنت تجلس على كنز صحفي، لا يخطئ أنفي رائحته.

نظرت إليه بخواء.

-وما الذي ستجنيه من هذا الأمر؟ فحسب ما أعرفه أنّ وضعك جيد،

وعلاقتك مع رئيس التحرير ومدير التحرير على خير ما يرام .وصحفي قدير مثلك، لا يناسبه ملاحقة هذا النوع من الأخبار بعد كل هذه السنين.

-كف عن المبالغة —قالها وقد حاول تصنع استياء، كنت واثقاً من زيفه —أنا صحفي يا صديقي، والصحفي الحقيقي، لا يقوم بملاحقة الخبر من أجل الشهرة أو المنصب، إنه يفعل ذلك استجابة لدافع متأصل في روحه لا يمكن مقاومته.

-كاذب.

قلت له.

ظل للحظات يرمقني دون أي انطباع جلي على وجهه.

-أقسم لك إنني لا أكذب.

حاول الدفاع عن نفسه.

-من المعيب أن تفعل ذلك، فنحن صديقان منذ زمن طويل، ومن المعيب أن تحاول الادعاء أمامي .ما الذي يجري، ولِمَ كل هذا الاهتمام بالأمر؟

تهربت نظراته، وأشعل سيجارته وهو يحك ذقنه، حتى إنه التفت نحو إينجي في إحدى اللحظات .وكان يهمّ بالتحدث حين أحضر حقي الشراب. انتابني فضول شديد لسماع ما سيقوله، ولكنني استطعت تأجيل فضولي حتى أحتسي حسوة من الكأس .وبقيت أواصل الاحتساء مستمتعاً بطعم اليانسون اللاذع الذي يلدغ أحشائي في رحلة هبوطه الممتعة.

-الأمر ليس كما تتخيله —قال لي —فأنا أيضاً أقف على حافة الهاوية، ومن الممكن طردي من العمل في أي لحظة .يبدو أنّ عصرنا شارف على الأفول يا

صديقي .فهناك جيل شاب يمتلك كفاءة عالية، وهم حاصلون على تعليم مرموق، ومطّلعون على كل أساليب مهنة الصحافة .وسيحتلون مكاننا في وقت قريب .ولا مجال للصداقات أو مراعاة المشاعر بعد الآن .كما أن علاقتك الجيدة بالمدير لن تنفعك، فالعمل الذي تقدمه هو ما يهم في النهاية .لقد حولونا إلى مجرد متصارعين في حلبة يشرفون عليها، ليطردوا اللاعب الضعيف خارج الأسوار.

-ربما لم تكن تلاحظ الأمر، ولكننا كنا في الحلبة ذاتها منذ البداية يا صديقي —قلتها محاولاً التقليل من أهمية كلماته.

-كيف لي ألا ألاحظ؟ ولكن الشروط أصبحت أكثر قسوة، والصراع تسارعت وتيرته، وزاد تدفق الدماء المراقة .وكل الوسائل مباحة أمامك، الخداع، الكذب ..المهم أن تتمكن من استقطاب اهتمام الناس.

تأثرت بالحزن الذي ينضح من كلماته، ورغم ذلك لم أكن واثقاً من صدقه .فاحتسيت حسوة أخرى من الكأس.

-هذا ليس بالوضع الجديد، أخبرني ما الذي تريده بالضبط؟

-ما أريد قوله —وقد تكدّر وجهه —أنا أيضاً قد أُطرد من الجريدة في أي لحظة .ولكن هناك بارقة أمل.

-وما هي؟

-التحضيرات جارية منذ ما يقارب الستة أشهر، لتنتقل ملكية الصحيفة إلى إحدى الجهات المنافسة، والمدير هو من أطلعني على الأمر بنفسه.

-أجل، أجل، لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل.

-والاسم الذي يتم تداوله لرئاسة التحرير الجديدة، هو يلماز بابور.

-أنا أعرفه، فهو صحفي نشيط.

-معك حق، إنه شاب نشيط .وسيرته المهنية حافلة بالنجاح، كما أنه يقدم نشرة إخبارية في إحدى محطات التلفاز.

كنت مدركاً لما يرمي إليه من هذا الحديث، ولكنني شعرت برغبة في إغاظته عقاباً على عدم إخباري بقرار إقالتي من العمل.

-وهذا خبر جيد —وحاولت تصنع اللامبالاة —إذاً فهو يستحق هذا المنصب بجدارة.

نظر إلي مبدياً الدهشة.

-ما الذي تقوله يا عدنان؟ —كان صوته يرتعش كمن تعرض لخيانة — أملي الوحيد هو في هذه الجريدة الجديدة، ولو تمكنا من إنجاز هذا الخبر سوية، سننجو كلانا، وستتمكن من الحصول على وظيفة في الجريدة الجديدة.

تناولت كأس الشراب.

-أظنك تبالغ، فالمدير لن يقيلك.

-بل سيفعل، فأنت بعيد عن آخر التطورات، لقد تكلم بكل صراحة في الاجتماع الذي عقد قبل أسبوعين، وقال بالحرف »لن أتسامح مع أحد، حتى لو كان أبي «قالها وهو يدقق النظر في وجهي .الأمر بات ينذر بالخوف، وعما قريب سنجد أنفسنا على قارعة الطريق.

كانت الحسوة الثالثة من الكأس ألذ من سابقتيها، فلعقت شفتي متمهلاً.

-هل نسيت؟ —قلتها مازجاً الجد بالمزاح —فأنا قد أصبحت على قارعة الطريق بالفعل.

-وهذا ما أعنيه —قالها دون أن يبدي امتعاضاً بلامبالاتي، فقد كان يسير نحو هدف إقناعي بإصرار واضح —ستعود إلى العمل من جديد، بل وستتمكن من استرجاع شهرتك المهنية السابقة، والكل سيتحدثون عن نجاحك.

-لست واثقاً من رغبتي في كل ما تتحدث عنه.

قلت له.

بدا مندهشاً، وهو يسحب نفساً عميقاً من سيجارته، قبل أن يتكلم.

-أظنك لا تعرف نفسك حق المعرفة —وقد أدركت من تعابير وجهه، ومن نظراته ونبرة صوته، أنه يقول هذا الكلام ليس لمجرد إقناعي، ربما هي المرة الأولى التي بدا فيها صادقاً منذ جلوسنا —فأنت صحفي يا صديقي، وانتبه لما أقوله لك، فأنا لم أقل إنك كنت صحفياً، بل ستبقى صحفياً .من الوارد أن تتعب، وتحاول الابتعاد والهرب، وأن تلجأ للشراب، وبل وقد تشعر بكره عملك، ولكنك لن تتمكن من التخلي عنه .وحتى لو حاولت فهو لن يتخلى عنك .إنها مهنة لعينة يا صديقي، فهي ستظل متشبثة بعقلك وروحك وكل خلية من جسدك حتى الممات.

رغم الصدق الذي بدا في كلمات عارف، ولكنني لم أتأثر كثيراً، لأنني سمعت هذه الكلمات حد التخمة.

-ها قد بدأت بالنفخ من جديد —قلت له متبرماً —ولكنك للأسف تنفخ في قربة مثقوبة، فأنا لا أملك أي معلومات أو مواد تصنع الخبر المتفجر الذي تصبو إليه .وحتى لو كنت أملك شيئاً، فلست واثقاً من رغبتي في العمل عليه .أنا متعب جداً يا صديقي، بل أشعر بأنني أصبحت عجوزاً، وفي أحيان كثيرة، لا أجد في نفسي القوة لتحريك إصبع واحدة.

-بالطبع ستشعر بذلك —قالها بصوت يشي بتعاطف صديق حقيقي —

فأنت تسرف في الشرب .حسناً كلنا نشرب، ولكنك قد تجاوزت كل الحدود، إنها متاهة لا تفضي سوى إلى العدم، وعليك في لحظة ما أن تعرف كيف توقف انحدارك .ها قد تم طردك من العمل، فما الذي ستفعله، ومن أين ستعيش؟ وكيف ستدفع أقساط جامعة ابنك؟

كان محقاً فيما يقول، ورغم ذلك فقد تناولت الكأس مرة أخرى، وحسوت حسوةً طويلة، ومن ثم:

-لا أعرف يا صديقي، صدقني فأنا لا أعرف.

-ما الذي لا تعرفه يا رجل؟ فالمواد التي بين يديك تكفي لإحداث زلزال لعين.

ولكنني لم أعد قادراً على التحمّل، وانفجرت.

-كف عن ترديد كلمة المواد اللعينة، فأنا لا أعرف أكثر مما تعرفه أنت. هناك جردة حسابات تجري في أوساط هذه العصابة، وقد بدأوا بالتخلص بعضهم بعض، وبحسب ما أعلمه فأخي أيضاً ينتمي إلى هذه العصابة، ولا شيء لدي أكثر من هذا.

رمقني للحظات غير مصدق.

-أحقاً لا تعرف شيئاً آخر حول الأمر؟

لم أكن قادراً على إخباره بما طلبه مني دوغان، لذا فقد كنت صادقاً في ما أقوله.

-لا، أقسم لك إنني لا أعرف شيئاً، ولكنك ربما تعرف.

-في الحقيقة أنا أيضاً ليس لدي أكثر مما تعرفه، أما التفاصيل فهي

مبهمة .الكل يعلم أنّ هناك عمليات تصفية .فتركيا تعيد ترتيب واجهتها الأمامية، وهناك بعض الشخصيات التي في الحكومة أو في الدولة، ممن يخططون للتخلص من بعض البيادق، للنجاة بأنفسهم .ولا تسألني من يكون هؤلاء، ربما هم من وزارة الداخلية السابقة، وربما بعض رجال الشرطة ذوي الرتب العالية، والذين تتردّد أسماؤهم بضلوعهم في هذه العصابات .ولكننا للأسف لا نملك أي دليل أو وثيقة تثبت ذلك.

-وحتى لو كان لدينا دليل فما الفرق؟ فهل يمكنك مواجهتهم بالتهم أو محاكمتهم؟

-بالطبع لن أفعل، ولكنني على أقل تقدير، بنشري لهذه المعلومات، سأترك الحكم للرأي العام.

قالها فيما تجنب النظر إليّ وهو يسحق عقب سيجارته في المنفضة.

-ربما —قلتها في يأس —ورغم ذلك لا تثق كثيراً بالرأي العام، فذاكرته ضعيفة، وينسى الأحداث بسرعة.

-اللعنة على الرأي العام —قالها وهو يلوي فمه بامتعاض —لنفعل ما علينا فعله، فهذا يكفي.

-ولكنك ترى حالتنا، فنحن لا نملك أي ضوء ينير دربنا.

-معك حق —قالها يائساً، وكأنني سحبت منه آخر حبال الأمل والنجاة، وكنت أرجو أن يستسلم للواقع، ولكنه لم يفعل، فهو ليس بالرجل الذي يرفع الراية البيضاء بهذه البساطة —برأيي أنك تتسرع في اتخاذ القرار —وبدا بريق غريب يومض في عينيه — ربما تنعتني بالسخافة، ولكنني أشعر بأنّ هناك معلومات في طريقها إليك.

-أحقاً —قلتها ساخراً —هل تحولت إلى كار المنجمين؟

-لا علاقة للتنجيم بالأمر، فأخوك أحد أقطاب هذه العملية، وهو ليس بالرجل البسيط، فلو قمنا بإعداد مادة صحفية عنه، سيجلب الأمر اهتمام الكثيرين.

-ولكننا لا نعلم ما الذي حصل .فلو ادعينا أنه قُتل، أو أنّ الجثة المحترقة ليست له، وثبت العكس، سنتحول إلى أضحوكة.

اتجهت نظراته نحو الطاولة وهو يفكر بعمق، فاستبشرت بأنه سيتركني وشأني هذه المرة، ولكنه رفع رأسه فجأة.

-لا يا صديقي —وقد أضاء ذلك البريق الغريب عينيه من جديد —لن نفوت هذه الفرصة من يدنا، وسترى أنّها ستفتح أمامنا أبواباً ما كنت لتتخيّلها.

الفصل الثاني عشر

أوصلني عارف إلى منزلي الذي يقع في آخر شارع قريب من طلعة فوليا، بمنطقة بيشيكتاش» .لا تدخل الشارع «طلبت من عارف، لأنني كنت راغباً في السير قليلاً .وحسناً ما فعلت، فطوال اليوم كنت أتنقّل بين المشرحة والقسم والنادي، وكلها أماكن مغلقة .استقبلني نسيم رطب، ولكنه مضمّخ بدفء يشي باقتراب الربيع .لا بدّ وأنها أمطرت مجدداً، فهناك بقايا رذاذ خفيف، يتساقط من أهداب الغيوم وأجنحتها، ويصلني مع نسمات الهواء. وكان يتساقط على البرك الصغيرة والكبيرة التي تملأ حفر الطريق، لتبدو كوجوه عبث بها الجدري .كانت الأمور طبيعية حتى هذه النقطة، فمثل جميع سكان الحي كنت معتاداً على هذا المنظر الذي يحصل بعد هطول المطر، وكنت ذا خبرة واسعة في التسلل بين هذه الحفر دون أن يصيبني البلل .واللاطبيعي في الأمر، أنّ البرك في هذا الشارع المظلم، تومض ببريق فضي متراقص، ينعكس على الإسفلت، ليحول المنظر أمامي لوحة فنية.

في البداية اتهمت نفسي برؤية الأحلام حتى وأنا يقظ .بدأت أفرك عيني، علّ الشارع يعود مظلماً كما اعتدت عليه .وحين فتحتهما، كان المنظر على حاله لم يتغير .وكأن الأرض كانت مزروعة بالمصابيح، التي أضفت على الشارع وهجاً غير مألوف .اقتربت من أول بركة ماء، ولكن الضوء المنبعث من الماء اختفى، وحين وقفت على حافتها، عادت لتصبح مجرد بركة قذرة ومظلمة .غريب !إما أنّ أحدهم يحاول اللعب معي، وإما أنني حقاً بدأت أفقد البقية الباقية من عقلي .وللتأكد،

وضعت طرف حذائي في مياه البركة، فلم يحدث ما هو غير اعتيادي، كانت مجرد بركة عادية كمئات البرك التي تملأ شوارعنا بعد المطر .واصلت التحديق إلى البركة وأنا أبتعد عنها، وحين بدأ الضوء يعود للظهور على سطحها .تمهلت للحظة، ومن ثم أسرعت نحو البركة من جديد، وكأنني ألاحق أحدهم، فعادت لتغرق في الظلام. اللعنة، ما الذي يحدث هنا؟ اتجهت نحو بركة أخرى، فتكرر الأمر ذاته، وأظلم سطحها .عادت كلمات عارف لتعبر ذهني، عليّ التخفيف من الشرب، أو ربما التوقف عنه نهائياً .كفّ عن الترهات، فما علاقة هذا الأمر بالشرب؟ صحيح أنني أشعر ببعض الدوار اللطيف، ولكنني لم أشرب حدّ فقدان الوعي، ولو فعلت، لما لاحظت الشارع، ولا برك الماء بأضوائها الغريبة .فجأة زادت سرعة الهواء، وأُطفئت جميع أضواء البرك التي تضيء شارعنا .ما الذي يحصل، بحق الجحيم؟

وفيما كنت أقف في منتصف الشارع، وأنتقل بنظراتي الحائرة من بركة لأخرى، استطاعت قطرة ماء ضخمة سقطت على أنفي، أن تزيح الستار عما يحصل .فنظرت إلى الأعلى على الفور، وفوق رأسي مباشرة، كانت تسبح غيمة ضخمة بلون فضي براق .كانت الرياح تجرّ الخيمة من الأمام، وتدفعها من الخلف بإصرار واضح على تفتيتها إلى نتف صغيرة، ولكن الغيمة لم تكن تبدي أي مقاومة، بل استسلمت لمصيرها بسعادة، وأخذت الندف المتفرعة عنها بفعل تلاعب الهواء داخل جسدها الضخم، تسبح لتضيع في صفحة السماء وتختفي. وحين اختفت الغيمة، عادت البرك الصغيرة لتضيء من جديد .لقد كان هذا السحر كله بفعل البدر، أجل البدر الذي كانت الرياح قد أخلت ساحة له، منتصباً فوق رأسي كعين تحدق إليّ بجرأة .وكأن هذه العين الفضية الضخمة المعلقة في السماء، قد أدارت ظهرها لكل ما في العالم، وتفرغت للاهتمام بي .كانت تراقبني بكل شغف، حريصة على ألا تفوت أي حركة تصدر مني، رفة عين، خطوة أخطوها .وكأنّ هذا لا يكفي، بل سلّطت ضوءها الفضي البهي كله، لينير الشارع الذي أقطنه ليصبح أكثر جمالاً، ويتلون الطريق الذي أقطعه كل يوم، ولتُذهِب

بعقلي المسكين.

»هذا ما تكون عليه المعجزات «خاطبت نفسي، فهي ليست سوى مجرد أوهام .للحظة تسحر ناظرينا، فنظن برك الماء أضواء ماسية، والشارع المليء بالحفر طريق الجنة .ونعود لتذوق مشاعر الدهشة البريئة التي كانت ترافق طفولتنا، وينتابنا الفضول والانفعال .ونعود للتواصل مع الحياة دون أن نشعر، ولكنه شعور لا يدوم طويلاً .فالحقيقة تعود للظهور خلال وقت قصير، لندرك أنّ كل ما نسميه معجزات، ما هو إلا مجرد أوهام تسبح في ثنايا أذهاننا .فيعود الشارع إلى ظلمته المخيفة، وبرك الماء إلى قذارتها المعهودة .وتختفي دهشتنا وفضولنا وانفعالاتنا .أما الرابح الوحيد في هذه الخسارة، فهو وعينا الذي يشعر بالراحة لأن الأمور عادت منطقية، وكل شيء بات يسير في مجراه المعهود .ولا وجود لما هو مخيف، أو مقلق، أو ما هو بحاجة لإيجاد حل له .وقد عادت الحياة لما كانت عليه، ولكن هل هذا أمر جيد؟ لست الوحيد الذي لم يتمكن من معرفة الإجابة، بل توفان الذي، أرهق ذهنه لسنوات طويلة بنظريات الفلسفة، لم يتمكن من التوصل لإجابة عن هذا السؤال .وقد اختار مثلي اللجوء للشرب، وأغلق نوافذ ذهنه التي تدخل منها أمثال هذه الأسئلة .فمشكلة الشرب الوحيدة، هي عدم يقينك من الحد الذي من الممكن أن تصله في الشرب، ومتى عليك التوقف .فأحياناً قد تشرب دون حدود، وأحياناً كما في هذه الليلة تشرب إلى ما قبل الهاوية بقليل، وحينها يستطيع حتى ضوء القمر التلاعب بك.

دمدمت بندم :ليتني تحملت عارف، واستمعت إلى هذيانه أكثر مما كنت قد فعلت .ولو أحسست بالإعياء منه، كنت عدت إلى البيت، أو اتصلت بأحد الأصدقاء الوقت في الثرثرة .ولكن قدميّ كانتا ترتجفان من التعب، كما أنّ منزلي الذي يبعد قرابة الخمسة عشر متراً كان يناديني، ومن دون أن أسمح للبدر بأن يسبب لي مزيداً من البلبلة بالمعجزة الجمالية التي خلقها للتو، تسللت بين البرك متجهاً نحو منزلي.

أفضل ميزة للبناء الذي أقطنه، أنّ ساكنيه يستطيعون استخدام قطعة الأرض المقابلة له مرأباً لسياراتهم، وقد كانت هذه الميزة سبباً إضافياً لتشجيعي على استئجار المنزل .وساكنو اسطنبول يدركون صعوبة إيجاد مكان فارغ كهذا وسط غابة البنايات التي بدأت تتحول إليها، وخاصة بالنسبة إلى شخص مثلي، يعتبر سيارته أهم ممتلكاته التي يجب المحافظة عليها .حين اقتربت من البناء، لم أحدد إن كان حدساً، أم رغبة في مشاهدة سيارتي التي بقيت طوال النهار بعيداً عنها، ولكن رغبة خفية قادتني باتجاه السيارة .وفيما المرأب اقترب من المرأب بدأت أبحث بين السيارات التي اصطفت في ما يشبه نسقاً منظماً، عن سيارة البليماوث، ولم أكابد مشقة في العثور عليها، رغم أن سيارة النيسان الحمراء المركونة أمامها قد أغلقت عليها الطريق، وجعلتها ترقد محتجبة تحت ظلال الجدار الذي رُكنت بمحاذاته. كانت كعنقاء عجوز، ترقد بجناحيها الأزرقين، في المكان الذي تركتها فيه بصبر وهي تنتظرني .وحال رؤيتي لها، اختفى الضيق، وخف القلق الذي يعتمل في صدري .ورغم أنني أراها كل يوم، ولكن مرآها لا يسبب لي الملل على الإطلاق، بل يزرع فيّ الثقة ويجعلني أبتسم على الدوام، وكأنني أرى أحد أقرب الأصدقاء إلى قلبي .تجاوزت النيسان الحمراء، وأنا أقترب بما يشبه التوقير من سيارتي التي حولها نور البدر المنسكب على زرقتها، إلى ما يشبه البياض، ولمستها برقة .مسحت قطرات المطر التي تلتمع على زجاجها الأمامي .ولو رآني أحد ما من بعيد، لظنني مجنوناً، فقد كنت كمن يداعبها، وأذكر أنني شاهدت والدي في الوضع ذاته في إحدى المرات، فاعتقدت جزعاً حينها أنه بدأ يُصاب بالخرف، كان يملك حينها سيارة شفروليه خضراء موديل الثمانية والستين، وأظن أنّ الغيرة تسللت إلى قلبي حينها، فلم يصدف أن نظر إلي وتأملني بتلك النظرات الحنونة قبلاً، ولم يداعب شعري بذلك الحب، وأنا متأكد أنّ والدتي والخالة كريمان أيضاً كانتا تشعران بالغيرة من الشفروليه الخضراء تلك.

أعلم أنها ليست مشاعر سوية، ولكن حباً بالله ما هي المشاعر السوية؟

فوالدي لم يعرف ما هو الحب طيلة حياته، وأنا متأكد من أنه لم يكن يحب وظيفته .صحيح أنه تزوج مرتين، وحتى لو افترضنا أنه شعر بالحب اتجاه كل من الزوجتين في بدايات الأمر، لكن الروتين اليومي، ومشاكل الحياة أطفأت بسرعة جذوة هذه المشاعر في قلبه .أما بالنسبة إلى مشاعره اتجاهي، فقد كان والدي على الدوام، يحلم بأن أدرس أحد فروع الهندسة، وفي المقابل لم أكن أجد في نفسي أي ميلٍ نحو الفروع التقنية .في الثانوية اخترت الآداب، وكنت أكتب قصائد كثيرة، وأخيراً اخترت الصحافة حين دخول الجامعة .ولكن كلينا؛ أنا وأبي، لم نجد ما كنا نبحث عنه في نهاية المطاف .ربما لم نتحدث في هذا الأمر بشكل علني، ولكنني متأكد أنه كان يشعر أنّ حياته مجرد خيبة أمل كبرى لا أكثر .ربما لم يكن يشعر بالأمر فحسب، بل كان يعيشه كواقع يومي مثلي تماماً .ولا بدّ أنّ هذا الهوس الغريب بالسيارات، كان ينبع من مكان ما على أرض هذه الخيبة الإنسانية .لكنني لست متأكداً، فقد يكون كل ما أفعله، هو إسقاط مشاعري على والدي، كي لا أشعر بالوحدة مما أعانيه .وطالما أنني أحاول شيئاً لست واثقاً منه، فهذا يعني وجود الخوف المتربص في زاوية ما .ولكن مهما تكن الأسباب والدوافع، فرؤيتي لسيارتي تسبب لي الراحة .وقد يكون هذا التصرف غريباً، وغير مألوف اجتماعياً، ولكن لا يهم، فالمهم هو السعادة التي أشعر بها كل مرة.

وفيما أناملي تتجول على سطحها الأملس اقتربت من الباب الأمامي. وبعد محاولات عدة للبحث في جيوبي، استطعت العثور على المفاتيح .وما إن فتح الباب، حتى تنشقت رائحة المقاعد الجلدية بنشوة، وكأنها عطر المرأة التي أعشقها. ولم أكتفِ بهذا القدر بل جلست على المقعد الجلدي، وبدأت باحتضان المقود، وكأنني أحتضن صديقاً عزيزاً لم أره منذ سنوات .ولو لم تكن بقية السيارات تسدّ عليّ منفذ الخروج، لكنت خرجت في جولة ليلية معها .بقيت جالساً لبرهة من الوقت ودخنت سيجارة، وفيما كنت أنفث دخانها على الزجاج الأمامي، بدأت أردد بأنّ حياتي ليست سوى هذا الدخان الرمادي .فليس لحياتي من أسس

صحيحة، إنها ليست إلا سلسلة من الفشل، واللجوء إلى الشراب، والكسل والهروب من الناس، وأخيراً التعلق بحب هذه القطعة المعدنية .ولكنني الآن؛ في هذه اللحظات بالذات، داخل سيارتي التي أحب، وفيما أدخن سيجارة وأشعر بثمالة خفيفة، كما الأرض المتشبعة بأمطار الربيع، كنت أعايش سلاماً حقيقياً مع نفسي والحياة، كنا أنا والحياة فقط .وكانت روحي كتلك الغيمة الضخمة منقادة للريح كيفما تتجه، تتشتت في سلام، ودون مقاومة وتتخلص من كل الهموم .كنت أحس أنني جزءاً لا ينفصم عن قطرات المطر المنهمرة من السماء، من البرك التي غطت حفر الطريق، من هذا الطريق العجوز، من الشراب الذي يسري في أوردتي، ومن هذا الدخان الذي ينساب بنعومة من سيارتي القديمة المحبوبة .وجودي كان يكتسب قيمة من كل هذه الأشياء، وهذا ما كان يشعرني بالسعادة.

لم يكن هناك أهمية لأي شيء، لا مزاعم قتل دوغان، ولا خيانة فوندا، ولا حتى ثرثرات عارف .لا أهمية لكل هذا على الإطلاق .فحتى لو كان هؤلاء الأشخاص يتجولون في محيطي، فأنا بعيد عنهم، تماماً كذلك البدر المعلق في السماء؛ وفيما تتجول نظراتي من خلال زجاج سيارتي الأمامي على الخارج، شعرت بلامبالاة باردة اتجاه كل ما حدث معي .وتمنيت أن يستمر هذا الشعور حتى الأبد. ليت الأبد لا يكون سوى هذا السلام الذي أشعر به في هذه اللحظات.

وفيما كنت أواصل هذه الثرثرة اللذيذة مع نفسي، وقعت عيناي على بطاقة الدعوة التي أقيمت الأسبوع المنصرم، وتمت فيها دعوة الصحفيين إلى حفلة كوكتيل .ألم تكن موضوعة على مقدمة السيارة؟ لقد لاحظتها آخر مرة فيما كنت أغادر الجريدة؛ وكانت موضوعة على مقدمة السيارة .هل تناولتها من هناك للتدقيق فيها؟ لا، ولكنني تذكرت الكلام الذي تفوهت به أثناء الحفلة بحق رئيس التحرير. وحينها أدركت أن سبب طردي من العمل هو ما تفوهت به بالذات .ولكنني لم أحرك البطاقة من مكانها، وخطر لي أنها وقعت من مكانها فيما كنت أبحث عن شيء آخر، وفي تلك اللحظة انتبهت للباب الأيمن للسيارة .كان مزلاج القفل

مرفوعاً، وهذا يعني أنّ الباب لم يكن مقفلاً، رغم أنني لم أفتح سوى مزلاج الباب الذي دخلت منه .أيعقل أنني تركته مرفوعاً ليلة البارحة؟ لا، فهذا مستحيل .ومهما كنت ثملاً، من المحال أن أغادر السيارة ما لم أقفل جميع أبوابها، كما أنني البارحة حين ركنت السيارة، لم أكن قد احتسيت قطرة شراب واحدة، أجل ولكنني كنت عائداً من منزل فوندا، بعد أن تعرضت لصدمة كبيرة.

أيعقل أنني نسيت الأمر تحت وطأة الصدمة التي مررت بها؟ ولِمَ لا؟ فقد كنت منهاراً جراء الخيانة التي تعرضت لها، والتي أعمت بصيرتي وأحرقت روحي بنيران الغيرة الكاوية .وقد يكون ذلك سبب عدم انتباهي لمزلاج الباب، ولكن ذلك الباب لم يُستعمل منذ ما يقارب الأسبوع .حسناً فلأتذكر، أعتقد أنّ آخر من ركب السيارة هو أوموت، ولكن متى؟ أظنه كان يوم الثلاثاء، لا لا، فقد اتفقنا على الثلاثاء، ولكنه أجّل الموعد للأربعاء بسبب انشغاله بما لا أعرف .فأنا أذكر ما حصل جيداً في ذلك الأربعاء، فقد كان يريد أن يشتري شيئاً ما لحاسوبه، ولأنني لم أكن أحمل ما يكفي من النقود، توجهنا إلى صراف البنك الآلي .ومنذ ذلك الحين لم يستعمل أحد هذا الباب .أيعقل أنه بقي غير مقفل لمدة ستة أيام مثلاً؟ هذا مستحيل، فعلى فرض أنني لم أنتبه للأمر ليلة واحدة، ولكن من المحال أن أستعمل سيارتي كل هذا الوقت وأركنها هنا وهناك دون التأكد من إقفال الأبواب بإحكام. خاصة بعد سرقة سيارة السيد صالح في الشهر الماضي، فقد بتّ لا أغادر السيارة، دون التأكد من إقفال جميع أبوابها .إذاً فما الذي حدث؟ الجواب واضح؛ فقد دخل أحدهم السيارة.

أشعلت الضوء الداخلي على الفور، وبدأت البحث جزعاً .فتحت تابلو السيارة، بحثاً عن شيء مختفٍ، ولكن ما من شيء استرعى انتباهي، كما أنه لم يكن هناك ما يغري بالسرقة .رخصة القيادة، علبة رذاذ منظف للسيارة، بعض أشرطة الغناء، وخارطة لم أستعملها مطلقاً، وعلبتا مناديل مرطبة، علبة سجائر مستعملة، مصباح يدوي، علبة شراب معدنية أهداني إياها توفان، بعض فواتير

والمخالفات .ما الذي سيفعله لص بهذه الخردة؟ وكما في كل مرة بدأت الغيوم تنقشع في ذهني المتلبد في نهاية المطاف .فالأشخاص الذين دخلوا سيارتي لم يكونوا لصوصاً، بل ذاتهم من يبحثون عن دوغان .وحين أدركوا عدم وجودي في البيت، تحولوا إلى السيارة .كانوا يبحثون عن صورة أو فيلم أو وثائق من الممكن أن يكون دوغان قد أعطاني إياها .ولكن كيف تمكنوا من فتح السيارة؟ أيعقل أنهم كسروا نافذة ما؟ ولكنها كلها تبدو سليمة .نزلت من السيارة، وبدأت أتفحصها من الخارج، ولكنني لم أشاهد أثر ضربة أو كسر أو أي آثار تدل على فتح الأبواب عنوة .إذاً كيف تمكنوا من الدخول بهذه السهولة؟

وقبل أن أتمكن من رؤية الإجابة خلف غيوم الحيرة، حدست بوجود أمر مقلق، فالبليماوث لها مفتاحان، أحدهما يبقى معي، والآخر في البيت .ولا بدّ أنهم استعملوا تلك النسخة لفتح الباب .رفعت رأسي لتتجه أنظاري نحو بيتي المعتم، تجولتْ بانتباه في المكان، ولكنهما لم تعثرا على ما هو مريب .لكنهم قد يكونون أقرب مما أتوقع، مختبئين بين هذه السيارات يراقبون تحركاتي .التفت بذعر نحو الخلف وبدأت بمعاينة المكان .ولكنني لم أجد سوى السيارات المركونة بصمت، تنتظر انبلاج الصباح وقدوم مالكيها .إلا أنّ هذا الهدوء لم يقنعني، فأخرجت قضيباً حديدياً أحتفظ به في صندوق السيارة —وكأن هذه القطعة المعدنية تستطيع التصدي لرصاصات مسدساتهم —وبدأت بالتجول بين السيارات بحذر .ولكنني لم أعثر على أحد في الجوار .نظرت نحو الشارع الذي كان خالياً من المارة .أجل، كان محيط منزلي آمناً، ولكن ماذا عن الداخل؟ عادت نظراتي تتجول مجدداً على منزلي، الذي كان يقبع في سكون الشارع .ولكن ما الذي كان يجري في ذلك الصمت المظلم وراء النوافذ؟

خطر لي للحظات الاتصال بيالفاج وغونغور، واللذين كانا سيحضران على الفور، ولكنني بعد قليل من التفكير تراجعت .فلو اكتشفا اقتحام منزلي أو سيارتي من قبل أحدهم، ستزداد شكوكهما اتجاهي، وخفت أن يعتقدوا بعلاقتي مع

العصابات التي يعمل معها دوغان .ولكنّ صوتاً ما بداخلي كان ينبئني بأنّ من جاء باحثاً في المنزل قد غادره .فلو أرادوا بي سوءاً، فهم يستطيعون اقتحام المنزل بأسلحتهم في أي وقت يشاؤونه، أو إطلاق رصاصة عليَّ في الطريق، أو خطفي ومن دون تكبد مشقة التحقق من أقوالي وإلقاء جثتي المثقوبة بالرصاص في ركن قصي وقذر .فهؤلاء الأشخاص لا يخشون أحداً .رغم أنهم يخبروننا بأنها صفحة طويت ولن تعود، ولم يعد قتل أحدهم عملية سهلة كما في السابق .ولكن ماذا عن الجثة التي وجدت في سيارة دوغان؟ أظنهم لا يقتلون أحداً الآن، ما لم يكونوا متأكدين من أنه سيضرهم مستقبلاً .ولا بد أنهم يدركون أنّ قتل صحفي ليس بالأمر الذي سيمر بسهولة .فآخر ما يرغبون به لفت أنظار الرأي العام لما يقومون، ولأنّ دوغان كان مدركاً لهذه الحقيقة؛ لجأ إليّ.

أعادت لي هذه الاستنتاجات بعض الطمأنينة، فهم لا ينوون قتلي، أو هذا ما يبدو عليه الأمر حتى الآن .كل ما يهمهم هو التأكد من وجود وثائق تدينهم عندي أو لا .وربما يسعون من خلال إثارة مخاوفي بهذه الأساليب، التحقق من أنني أخفي شيئاً ما .وخطر لي أنني أخطأت في التسلح بالقضيب المعدني، فكان من الأجدى تصنع عدم الانتباه لما جرى داخل سيارتي .وهذا ما يجدر بشخص كحولي مثلي؛ عدم ملاحظة كل ما يجري، والتعامي عما يحصل حولي، والاختباء بسلام وراء قناع البلاهة .على الفور أعدت القضيب إلى صندوق السيارة، وفيما أفعل ذلك مرّ بي احتمال آخر .فماذا إن لم يكن أحد قد دخل السيارة، وأنني من نسي إقفال الباب، ووضع البطاقة على مقعد السيارة؟ محال .ولماذا هو محال؟ ألا تذكر حين وضعت ركوة القهوة على النار، وغفوت بعد ذلك ونسيتها؟ ولو لم يتصل بك أوموت، لكان المنزل تحول إلى حطام متفحم .ألم يحصل أنك بدأت تخلط بين أيام الأسبوع، وفي أحيان كثيرة تضطر لإنجاز مادة بشق الأنفس في وقت قياسي، بعد أن تدرك متأخراً أنّ موعد تسليمها بعد بضع ساعات؟ وللأسباب نفسها التي حولت البدر المنعكس على برك المياه في الشارع، معجزة ومنظراً

سوريالياً، قد أكون وضعت البطاقة على المقعد دون في لحظة شرود، ونسيت أقفال الباب لسبب ما، واخترعت عوض ذلك، قصة الملاحقة السخيفة هذه .ولكن حين يتعلق الأمر بسيارتي فلا بدّ من التأني قليلاً .ولكنني لست متأكداً، فلا شيء ثابت في روح الإنسان .ربما نسي أوموت إغلاقه، وغاب الأمر عن ناظري .وربما .الحيرة هوة لا قرار لها .فالطريق الذي يجعلني أتأكد من عدم دخول أحدهم سيارتي، يمر بالمنزل والتأكد من المفتاح .وما أن أدخل المنزل سأدرك إن كان أحدهم قد دخل المنزل أم لا .وفيما كنت أحكم إقفال أبواب السيارة، حاولت التظاهر بالهدوء وأنا أتجه نحو منزلي.

الفصل الثالث عشر

حين وصلت إلى باب البناء، وكان مغلقاً كالعادة، فقد كان العم نظمي البواب رجلاً دقيقاً جداً، يقفل باب البناء عند الساعة العاشرة مساءً، دون الأخذ بالحسبان أولئك الذين يتأخرون في عودتهم، وكنت أنا أكثرهم تأخراً بالطبع، لكن الرجل لم يكن يتوانى في كل مرة من النزول من العلية التي كان يتخذها مسكناً، والسؤال بصوته الجهوري »من؟ .«لكنني وبعد تكرار هذا النداء الليلي، بدأت أشعر بالضيق وصرت أرد على نداءات الرجل بطريقة فظة» .أنا عم نظمي أنا، ومن سيكون سواي .«أما الآن فأنا مستعد لفعل أي شيء مقابل سماع صوت العم نظمي بسؤاله المعتاد .لأنه كان سيخبرني بطيب خاطر إن دخل غريب البناء، أو شاهد ما يسترعي الانتباه في الشارع أو الجوار مثلاً .لكنني رغم إطباق الباب بشدة، والضجة التي أحدثتها وأنا أصعد السلالم، وأضيئها، لم أسمع نداء العم نظمي المعهود.

كان البناء كعادته غارقاً في سكون مطبق، فالأبواب موصدة على أصحابها الذين ينامون الآن في هدوء، وقد حاولت أن أصيخ السمع علني أسمع صوتاً، حركة أقدام، أي ضجة تشير إلى من يشاركني السهر، ولكن عبثاً .وفي خطوات محسوبة بدأت أقترب من منزلي، الذي كان حتى الأمس ربما أكثر الأماكن أماناً على وجه الأرض بالنسبة إليّ، وها هو الآن يشكل مصدراً محتملاً لخطر قد يودي بحياتي .ورغم كل محاولاتي أثناء الصعود بإقناع نفسي، أنّ المنزل فارغ، وما من خطر يتهددني، إلا أنني حال وصولي الباب، بدأت أشعر بالتردد، حائراً فيما عليّ

فعله .ماذا لو كنت مخطئاً، وكان هؤلاء المجرمون مطلعين على لقاء دوغان بي؟ ويعتقدون بأنه سلمني ما بحوزته من وثائق ومعلومات عنهم؟ وماذا لو كانوا مصرين على التخلص من جميع الأدلة والشهود دون ترك أحد حياً؟ حينها فانتظارهم لي الآن في المنزل أمر لا يشك فيه اثنان، وهذا يعني أنني قد لا أخرج حياً إن اجتزت هذه العتبة .وإن كانوا حقاً في الداخل، فلا بدّ وأنهم شاهدوا دخولي البناء، وهذا يعني أنني دخلت منطقة الخطر، وبات من الصعب الرجوع.

وفجأة انتابني ذعر شديد، وكأن مخاوفي لا تدور في ذهني، بل على أرض الواقع .فتخيلت فوهة المسدس التي ستصوب نحو رأسي حال فتحي للباب، وكانت الصورة تبدو واقعية، حتى خيل لي أنني أشم رائحة أنفاس قاتلي المشبعة بالتبغ .وربما ما أن أفتح الباب حتى تنهال على رأسي ضربة قاصمة تفقدني الوعي .ولكنه احتمال بعيد، فليس من مصلحتهم إحداث ضجيج، بل سيسحبونني بكل هدوء إلى الداخل، ليطلبوا مني الإدلاء بكل المعلومات التي أخبرني بها دوغان .وربما سيأخذونني إلى مكان آخر يمكّنهم من سحب كل المعلومات مني من دون خشية، وهناك سيقومون بقتلي أيضاً .ولكن لا، فهذا منزلي، وسأحاول المقاومة قدر الإمكان قبل الخروج منه، وقد يؤدي الضجيج الذي سأحدثه لإيقاظ الجيران الذين سيتصلون بالشرطة على الفور .إذاً فاحتمال إفقادي الوعي هو الأرجح من أجل أخذي دون ضجيج إلى حيث يشاؤون، والتحقيق معي دون مخاطرة .ولكنهم في هذه الحالة ليسوا مضطرين لدخول منزلي، فقد كان من الأسهل عليهم اختطافي في الشارع .ففي هذا الوقت حيث الطريق شبه فارغ، ستكون عملية اختطافي أكثر أماناً لهم.

وفيما كانت هذه المخاوف تعصف في ذهني، وتزيد من هلعي، رأيت ورقة بيضاء طويت في المنتصف محشورة بين الباب وموضع القفل، فتحتها على الفور، وما إن رأيت الخط الذي يشبه خربشة تكاد السطور بالكاد تمسك حروفها؛ تعرفت على خطّ ابني أوموت، لا بدّ وأنه رأى خبر احتراق دوغان داخل سيارته، واتصل

بي على الفور، ولكنني لم أرد على أي من اتصالاته .أظنني يجب أن أعتاد على إبقاء هاتفي النقال عاملاً» .لا يهم الوقت، فما أن تصل المنزل اتصل بي، لأنني قلق جداً عليك .«هذا ما كانت تقوله الرسالة.

شعرت بالارتياح والسرور من رسالة ابني القصيرة، فهذا يعني أن لا أحد في المنزل، فلو صح اقتحامهم المنزل، لما تركوا الرسالة بالباب، كما أنّ وجود شخص ما في هذا العالم ما زال مهتماً بي، سبب لي سعادة غامرة .وفيما كنت أدير قفل الباب تذكرت أنّ أوموت لا يعرف شيئاً عن دوغان، فالمرات التي أتينا على ذكر عمه أقل من أن تجعله يتذكر الرجل، ولكن الخطّ خطه بكل تأكيد، ومن الواضح أنه قلق عليّ حتى تكبد عناء المجيء إلى المنزل .حينها انقشع الضباب، وظهر اسم فوندا على لوحة الذاكرة.

بالطبع، فهي لم تشأ أن تأتي بعد الخلاف الذي نشب بيننا، لذا قامت بإرسال أوموت للاطمئنان عليّ .ولو كانت تعلم بحاجتي لأدنى مساعدة، لكانت أتت على الفور، أحقاً كانت ستأتي بعد كل تلك الإهانات التي وجهتها لها؟ لقد كنت واثقاً من الإجابة، ستأتي من دون أدنى شك .ربما لم تعد ترغب بي كرجل في حياتها، ولكنها ستظل على الدوام تعتبرني أقرب أصدقائها وأعزّهم .وهذا أمر لن تخامرني الشكوك حوله مطلقاً .وقد أثبتت رغم ذلك القناعة مرة أخرى حين أرسلت ابننا إليّ.

دخلت المنزل متأثراً بهذه البادرة العاطفية الرقيقة التي زادت من بلبلة مشاعري وأفكاري .أحقاً كنت شديد القسوة على فوندا؟ القسوة غير كافية، لقد أهنت مشاعرها بطريقة مجحفة واتهمتها بالكذب والدعارة، في الوقت الذي لا يحق لي التصرف معها بهذه الطريقة مطلقاً .فهي لم تعد زوجتي، ومن حقها مرافقة من تشاء، وإن كنت حريصاً على استمرار صداقتنا، يجب أن أبدي الاحترام لقراراتها، ولطريقة حياتها .لقد كان ترديد الكلام سهلاً، ولكن الواقع كان ثقيل الوطأ على

قلبي .فلم يكن من السهل تقبل وجود ذلك الرجل الآخر، والذي لم أتمكن من رؤية وجهه، في سريري القديم، وهو يمارس الفجور مع فوندا .ما زلت أردد كلمة الفجور، وأكيل الإهانات لفوندا حتى في غيابها .على أي حال ليس من شأني إن كانا يمارسان الفجور أو الحب .وكلما مرت تلك التخيلات في ذهني، كانت الدماء تغلي في عروقي مجدداً، وأشعر بالحنق على المسكينة، التي رغم كل ما بدر مني، ما زالت تقلق من أجلي، وتحاول الاطمئنان عليّ .وربما كانت جالسة الآن في منزلها وسط مخاوفها، بانتظار هاتف مني لكي تطمئن.

اتجهت خطواتي من تلقاء نفسها نحو طاولة الهاتف لأرفع السماعة، ولكنني تمهلت قبل ضغط الأزرار، فماذا لو ردّت عليّ؟ كيف سأقدر على التحدث معها بعد كل ما تفوّهت به؟ عليّ الاعتذار منها، أحقاً عليّ فعل ذلك؟ أجل، فهذا أقل ما تستحقه المسكينة، ولكنني كنت أشعر بقوة تكبّل يدي، وتردعني عن طلب رقم منزلي القديم .ورغم ذلك حاولت التغلب على هذا الشعور، وبدأت أضغط الأرقام، وفي اللحظة المناسبة، وقبل إتمام الرقم، لفت انتباهي ضوء المجيب الآلي الذي يومض، فانتهزت الفرصة على الفور للتخلي عن فكرة الاتصال، واعتبرتها إشارة قدرية تحول دون تحقيق أمر لا يجب القيام به .وخطر لي أن يكون دوغان هو من ترك لي رسالة .أعدت تشغيل الرسائل من البداية؛ كانت الرسالة الأولى من عارف بصوته المنفعل» .اتصل بي .«أما الثانية فقد كانت من شكيب إينجي الذي كان يظن نفسه أفضل الصحفيين الإخباريين على الإطلاق، يا للوقح، فقد بلغ به الغرور حد السماجة، وأخذ يتباهى في الأرجاء بخيلاء لا نظير لها .رغم أنني أتذكر أول يوم له في الجريدة، حينها كان مقرنا في جاغلى أوغلو، وكان الشتاء في نهاياته، وقد استدعاه توفان حينها.

-أتعرف كيفية التقاط الصور؟

-أجل بالطبع أعرف.

ردّ شكيب الذي كان ينتهز أي فرصة لإبراز مواهبه المزعومة.

-إذاً خذْ هذه الآلة، واتجه إلى برج غالاتا، وأعثر على ركن خفي هناك، ولا تبعد ناظريك عن الأفق، فاليوم سيسقط نيزك، وإياك والعودة دون التقاط الصورة، لأنّ الصحف الأخرى ما إن تعلم بالخبر حتى تتهافت على نشره.

أخذ الكاميرا دون أن تنتابه الشكوك، واتجه نحو المكان المقصود .وقد كان هواء ثلجي يعصف في الخارج، وما إن خرج حتى عصفت قهقهات الضحك بكل الموجودين .وقد ظل هناك حتى قبل حلول المساء بقليل، ولو لم يمرّ أحد موظفي الجريدة من هناك مصادفة، لكان سيبقى هناك حتى الصباح ربما. وقد سأله الرجل عما يفعله هناك، فأخبره شكيب بكل بلاهة أنه بانتظار النيزك الذي سيلتقط له صورة .فانفجر الرجل ضاحكاً، وهو يقول له» .أحقاً تعتقد أن بإمكانك التقاط صورة للنيزك؟ إنهم يسخرون منك يا رجل .«وأرسله إلى الجريدة مرة أخرى .وقد تحول لمادة سخرية تسلى بها الجميع لفترة طويلة .ولكنها أيام طواها الماضي، وهو الآن يعتبر نفسه من أسرع الصحفيين ترقية وأهمهم.

كان هذا نص الرسالة التي تركها لي على المجيب» :علينا التحدث لأمر ضروري يا عزيزي .«لا بدّ وأنه عرف أنّ دوغان هو أخي، ولم يجد مانعاً من التملق حين تقتضي مصلحته، في الوقت الذي كان يأنف عن إلقاء التحية عليّ حين يمرّ بي في الجريدة .الرسالة الثالثة كانت من أوموت، وكان نصها مشابهاً لكلمات رسالته، وقد أنهاها مثل عارف وهو يطلب مني ضرورة الاتصال به .ولكن ما من رسائل من دوغان، وكيف سيفعل، وقد حاول البارحة الاتصال بي مراراً وتكراراً دون أن أردّ عليه، ولكن ليس من المنطقي أن يختفي فجأة بعد كل الإصرار الذي أبداه بالأمس.

جلست على الأريكة، وأشعلت سيجارة واتكأت بظهري المرضوض عليها .أيمكن أن يكون الشخص الذي قتل في السيارة هو دوغان حقاً؟ كانت المرة

الأولى التي بدأت فيها بالاقتناع بهذا الاحتمال، منذ رؤيتي لتلك الجثة المتفحمة، فليس من السهل قبول أن تلك الكتلة المشوهة من اللحم والعظام المحروقة، كانت يوماً ما شخصاً وسيماً يضج بالحياة ويتحدث ويتحرك مثلنا .ولكنني الآن في عتمة بيتي، ووسط كل مخاوفي، وبعد مضي كل هذا الوقت دون أن يردني منه أي خبر، بدأت أرجح هذا الاحتمال بيأس .فليس من مبرر ينفي أن تكون تلك الجثة لدوغان، الذي تمت تصفيته ليلحق ببكير ونهال والعقيد رفعت .ثم أليس هو من أخبرني بمصيره المحتوم؟ أجل، لقد فعل ذلك، ولكنني لم أصدقه، وحينها عاد صوته ليتردد في مسامعي »فأنا شخص قدري، ولا أعترض على إرادة الله .«ولكنني حاولت استجماع جسارتي، وبدأت بحشد المبررات لإبعاد هذا الاحتمال، فدوغان ليس بالشخص الذي يمكن النيل منه بسهولة، خاصة وأنه كان يعلم بأنهم يتعقّبونه، ولن يسمح لهم بالقبض عليه ببساطة .إذاً لم يتصل بي حتى الآن؟ لا بدّ وأنه لم يجد فرصة مناسبة .كما أنه كان يعرف بأنّ الشرطة ستأخذني إلى المشرحة للتحقق من الجثة، أو على الأقل فقد خمنّ الأمر، فشخص مثله ضليع في ما يترتب على هذه المواقف من إجراءات لن يتكبد مشقة في توقع الأمر .إذاً لمن كانت تلك الجثة المتفحمة؟ ربما لأحد الراغبين بقتله، فقد كان أخي ضليعاً في فنون القتال، واستخدام الأسلحة، وربما تمكن من التصرف قبل القتلة .ولكنه ليس سوبرمان على أي حال.

شطحت بي الأفكار والمخاوف، مستغلة ذهني المشوش، وقلبي المأزوم، وبدأت تترى سيناريوهات الرعب والفانتازيا في مخيلتي، حتى استطاع رنين الهاتف — الذي خمّن ما أمر به —انتشالي في الوقت المناسب .رفعت السماعة في لهفة سماع صوت دوغان، ولكن المتحدث لم يكن هو للأسف، لقد كان ابني:

-ألو.

وقبل أن يتيح لي فرصة إتمام الكلمة:

-أين أنت يا أبي؟ —بدأ يؤنبني —أنا أحاول الاتصال بك منذ المساء، وكنت قلقاً جداً عليك.

لا أعلم على وجه التحديد مقدار حصتي من الجهد المبذول في تربية هذا الولد وتنشئته، ولكنني في كل مرة أكتشف أنّ الفضل الأكبر في تنشئته يعود لفوندا وليس لي.

-أعتذر لأنني جعلتك تشعر بالقلق يا بني.

قلتها بصوت معاتب.

ساد صمت قصير بيننا.

-لا عليك، فلا أهمية للأمر —غريب أنه أدرك فظاظته، هذا الولد بات يتغير بالفعل —أخبرني العم نظمي أنه شاهدك تخرج مع رجلين، فشعرنا ..أعني شعرت بالقلق عليك.

كانت كلمة »شعرنا« كافية لتأكيد حدسي، فكما خمنت، فوندا جالسة بالقرب من الهاتف تنتظر الاطمئنان عليّ .خطر لي أن أطلب منه أن يعطيها السماعة، ولكنني، ربما خجلاً مما فعلته بها، أو لأنّ غضبي مما فعلته هي لم يزايلني بعد، أحجمت عن الأمر.

-أنا بخير، لا تقلق عليّ.

-وماذا عن الخبر الذي شاهدناه على التلفاز؟ أهو صحيح؟ أحقاً من كان داخل السيارة هو العم دوغان؟

لم يكن السؤال ما أخافني، بل لأنّ أوموت هو من يسألني، وهذا يعني احتمال توريط عائلتي في مخاطرة كهذه.

–لا أعرف –حاولت التملّص من الإجابة –فلا شيء مؤكد حتى الآن، بسبب آثار الحرق الكبيرة.

ولكن الموضوع قد أثار فضوله، وكلما حاولت تغييره، كان اهتمامه يزداد.

–كان شخصاً غامضاً، هذا ما تناقلته المحطات الإخبارية.

–لم يكن شخصاً صالحاً.

أوضحت.

–ألم تكن تحبه؟

–لا، لم أكن –قلتها بيقين فاجأني، ولكن واصلت بالنبرة ذاتها –وهو لم يكن يحبني.

–ومن هما الرجلان اللذان شاهدهما البواب؟ واللذان اصطحباك معهما من المنزل؟

–كانا من الشرطة، ذهبنا من أجل التحقق من الجثة.

–لن تتسبب هذه الجريمة في توريطك في مشاكل ما، أليس كذلك يا أبي؟

سألني وقد كان الخوف طاغياً على الضيق في صوته.

–لا يا عزيزي .أياً يكن الأمر –وأكملت –دعنا من هذه الأحاديث، وأخبرني كيف حالك، وكيف دراستك؟

بدا واضحاً من الحيوية التي طغت على صوته، الراحة التي شعر بها لأنني غيرت دفة الحديث.

–بخير، بخير – ..قالها بثقة عالية –ولكنك لم تعلم بأمر المفاجأة الخارقة

بعد، أتذكر المنحة الدراسية التي حدثتك عنها؟

لم أدرك ما يقوله.

-أي واحدة.

لا تذهب بكم الظنون إلى أنني أب سيئ، لا يهتم بابنه ولا يتابع دراسته، فالحقيقة مختلفة تماماً، فأوموت مثل كُثُرٍ من أبناء جيله الذين يدرسون في إحدى الجامعات المرموقة، وطموحه الأكبر هو الهرب من البلد بأسرع وقت ممكن .فكما كان حلم إنقاذ بلدنا، بل العالم أجمع، يوحد أبناء جيلنا، فالحلم الذي يوحد أبناء هذا الجيل، هو الهرب وإنقاذ أنفسهم .ورغم كل الظروف القاسية التي عشتها في هذا البلد، لكنني لم أتخلَ حتى الآن عن حلمي بتغييره وتغيير العالم كله إلى مكان أكثر إنسانية، ورغم فهمي لدوافع هؤلاء الشباب بالهرب، إلا أنني لا أوافقهم .وقد كان هذا سبب كثير من الخلافات بيني وبين فوندا .فقد كانت لديها أسبابها المقنعة.

»دع هذا الولد ينجو بنفسه، طالما أننا لم نستطع النجاة .«ولكنني لست مقتنعاً أنّ السفر إلى إحدى الدول المتقدمة، والحصول على شهادة تخولك ممارسة مهنة محترمة، تكسبك مالاً كثيراً، قد يؤديان إلى إنقاذ الإنسانية، ولديّ شكوك جدية حول قدرة الأفراد وحتى المجتمعات بشكلها الحالي على إنقاذ الإنسانية. فاستخدام الآلات، واختراع اللغات من أجل التواصل، وتطوير منظومة التفكير، لم تساهم كلها في رقي روح الإنسان وعقله .وأرتاب بقدرتها على فعل ذلك في المستقبل .ولكن هناك أموراً كثيرةً تثير ريبتي في الحياة، وتمنعني من الدفاع عن وجهات نظري بشكل حقيقي .وفي النهاية فقد سارت الأمور وفق رغبة فوندا، واقتصر دوري على الإفصاح عن شكوكي وأفكاري لابني، لا أكثر .وحتى هذا التصرف قوبل بالسخط من قبلها، فاتهمتني بأنني عاجز عن التطور، وأسبب البلبلة لأفكار الولد، لذا لم أعاود فتح الموضوع مرة ثانية.

وقد اختار أوموت السير في الطريق الذي رسمته له أمه، وإن تطلب الأمر بعض الوقت .فقد أنهى دراسته الثانوية في ثانوية غالاتا سراي، ولكن حين جاء وقت الجامعة تغيرت المخططات، فهو لم يستطع الحصول على قبول في جامعة قسم الاتصالات في جامعة بوازجي، بل في جامعة اسطنبول .وأعلنت فوندا صراحة» :لن أرسل ابني إلى تلك الجامعة .«بنبرة حازمة .ولكنني لم أقل »وما المشكلة في تلك الجامعة؟ أنا أيضاً أنهيت دراستي الجامعية فيها .«فقد كنت واثقاً من ردها »وما الذي جنيته من دراستك؟ «وكان هذا باباً سيفضي إلى شجار محتوم حاولت تجنبه. ولأنني كنت حينها في بدايات طريق الانحدار نحو القاع، فقد حدست أنّ فتح باب هذا النقاش لن يكون في مصلحتي على الإطلاق، وبذا رضيت بواقع إرسال ابننا إلى إحدى الجامعات الخاصة، التي تستخدم اللغة الإنكليزية في التعليم، وأصبحنا ندفع في كل سنة ستة آلاف دولار.

ولكنها لم تكتفِ بهذا القدر، بل واصلت إزعاج الولد وحشو رأسه بخزعبلاتها وهي تقول له» :عليك التسجيل في إحدى منح تعليم اللغة في إنكلترا أو أميركا، من أجل قضاء أشهر الصيف هناك، والتمكن من اللغة والتعرف على عادات البلد وثقافته بصورة أفضل .«ومن الواضح بأنه لم تكن تزعجه كما خيل لي، فأوموت الذي لم يكن متفوقاً في دراسته في أي وقت، أبدى حماساً منقطع النظير للفكرة، ولم يخيب ظنّ والدته به، بل قام بالتسجيل في جميع المنح التي أعلنت عنها الجامعات الخاصة والحكومية، والمؤسسات الخيرية، وكل جهة لها علاقة بالأمر. لهذا السبب لم أحدد على وجه الدقة عن أي منحة يتحدث .ولكنه لم يترك سؤالي معلقاً في فضاء الحيرة كثيراً، وبادر للتوضيح على الفور.

-إنها المنحة التي أعلنت عنها إحدى الجمعيات الخيرية في بوسطن.

بالطبع لم يكن التوضيح كافياً، فلم يطلعني على الجامعة أو نوع المنحة، ولكنني حاولت تصنع الفهم تماماً مثل أي والد صالح.

-آه .هل فزت بالمنحة؟

سألته.

-يس دادي، سأسافر إلى أميركا في الصيف، وسأمكث هناك ثلاثة أشهر.

كان عليّ أن أشعر بالفرح، ولكن لأنّ الأمر متعلق بأوموت، كان عليّ التأكد منه.

-أحقاً ما تقول؟

سألته مجدداً.

-إنك تهينني يا أبي —قالها بخيبة —هل حدث وكذبت عليك من قبل؟

-كثيراً —قلتها بهدوء —ولكن لا أهمية لكل هذا الآن، أهنئك، فالآن أصبحت أحترمك بحق.

وعلى الفور تلاشى العتب من صوته، وخاطبني بذلك الميل إلى اقتناص المنفعة من كل بادرة تلوح في الأفق، وقد ورثه عن جد لأمه كان أحد تجار الأقمشة.

-ولكن التهنئة بالكلام ليست كافية.

-وكيف يجب أن تكون؟

-هذا ما لا أعرفه، أنت الأب، وأنت من يجب أن يخمن.

ولكن هذا الكلام لم يخدعني، فقد كنت واثقاً أنه سيجعلني أشتري له ما وضعه في ذهنه من قبل .ولكن لا بأس، فطالما أنه استطاع الفوز بالمنحة، عليّ أن

أشتري له ما يريده كوالد صالح.

-حسناً، دعنا نلتقِ غداً في الواحدة ظهراً، في مطعم البيتزا، لتناول الغداء، ولأرى مقدار الضريبة التي عليّ دفعها.

-اتفقنا، سأكون هناك عند الظهيرة، إلى اللقاء.

وقبل أن أتمنى له ليلة سعيدة، أغلق الهاتف في وجهي، وحتى لو لم يفعل ذلك، فما كنت سأطلب منه أن يوصل سلأمي لوالدته، بعدما فعلته بها .ورغم ذلك فقد كان هذا الاتصال بادرة جميلة منها .بقيت سماعة الهاتف في يدي وأنا أواصل تقليب هذه الأفكار في ذهني، حين وقع نظري على صورة فوندا الموضوعة على الطاولة وهي تنظر إليّ مبتسمة .ألم أقم بقلب الصورة إلى الجهة المعاكسة هذا الصباح؟ اختلط عليّ الأمر، فحاولت حصر ذهني قدر المستطاع وتذكر ما فعلته هذا الصباح .فبعد مغادرة فوندا المنزل، لم أكن قادراً على احتمال رؤية صورتها المبتسمة، والمعلقة على الجدار، فأخذت الصورة، ووضعتها على الطاولة بشكل معاكس حتى لا أرى وجهها .أحقاً قلبتها؟ هذا ما كان عليّ فعله، فسبب إنزالي الصورة، كان عدم رغبتي في رؤية وجهها .هل اتجهت إلى المطبخ بعد وضع الصورة على الطاولة؟ لا، لم تحدث الأمور على هذا النحو، فقد اتجهت للمطبخ أولاً، وأخذت زجاجة الشراب من الثلاجة، ومن ثم أتيت لأقف بجانب الهاتف قبالة الصورة، وعندها قمت بإنزالها .أجل هذا ما حدث بالضبط، ولأنني لم أكن قادراً على رؤية وجه فوندا وأنا أغلي غضباً، لا أظنني ألقيت نظرة على الصورة بعد وضعها على الطاولة .ولماذا أنظر إلى الصورة؟ ولكنه احتمال وارد، على كل حال، أنا عاجز عن تذكر التفاصيل .تماماً كما عجزت عن تذكر متى نسيت إغلاق باب سيارتي، ومتى وضعت البطاقة على المقعد .أيعقل أن خلايا مخي تموت ببطء جراء تأثير الشراب؟ ولكنني واسيت نفسي بعدم منطقية هذا الاحتمال، فليس من المعقول تذكر جميع التفاصيل التي أعيشها في اليوم، ولكن ملاحظتي لعدم إقفال

الباب، وتغيير مكان البطاقة هو دليل على صحة ذاكرة.

ومجدداً عاد إليّ احتمال دخول أحدهم منزلي وسيارتي .ونظرت إلى الدرج الصغير للطاولة التي وضعت عليها الآلة الكاتبة .فقد كنت أضع النسخة الثانية من مفتاح السيارة في هذا الدرج .وعلى الفور اتجهت لفتح الدرج.

إيصالات باستلام الإيجار، فواتير الهاتف، دفترا البنك، بطاقة يانصيب انتهت مدتها، ساعة قديمة لم أستخدمها مطلقاً، غسول للفم، قلم حبر جفّ حبره، أزرار وسحاب قديم .هذا ما استرعى انتباهي .بدأت بالبحث بين هذه الترهات عن المفتاح، تحت الإيصالات، وبين دفاتر البنك، وكأنه شيء يمكن أن يختبئ هناك، وأخرجت فواتير الهاتف، ولكن عبثاً؛ لم يكن المفتاح هناك .انتابني الضيق، أخرجت الدرج من مكانه، وأفرغت محتوياته على الأرض، وبدأت البحث داخل الطاولة، لكنني لم أتمكن من العثور عليه .عدت للبحث عنه في زوايا الدرج، ولكنه كان فارغاً تماماً .إذاً فقد كانت شكوكي في محلها، فمن الواضح أنّ أحدهم قد دخل المنزل والسيارة، وقد يكون مختبأً في زاوية ما الآن.

وما إن مرّ هذا الاحتمال بذهني، حتى أحسست بخوف عارم اقشعر منه كل جسمي .تجولت نظراتي الخائفة على المكان، ولكنني لم أجد ما يسترعي الانتباه، كان أثاث المنزل الذي يشاركني وحدتي كما في كل ليلة، يقبع تحت ضوء المصباح الأصفر الباهت، في زوايا الصالون بدعة وسلام .فأصخيت السمع لأي صوت قد يصدر من البيت، ولكنني لم أسمع سوى صوت محرك الثلاجة الرتيب. نهضت وأنا أحاول التحكّم في وجيب قلبي المتسارع، واتجهت نحو المطبخ في خطوات واسعة، وأشعلت الضوء، ولكنني لم أجد أحداً هناك .أخذت السكين التي وضعتها في المجلى منذ يومين مع بقية الأطباق المتسخة، والتي تنتظر هناك منذ أكثر من يومين، وبالسرعة ذاتها اتجهت نحو غرفة النوم .دخلت وأنا أحمل السكين في يدي، ولكنني لم أجد أحداً هناك .فتشت الحمام أيضاً، ولكن النتيجة كانت

مماثلة؛ لا يوجد أحد في البيت.

أراحتني هذه النتيجة، فاتجهت نحو باب المنزل، وفتحته لفحص القفل من الداخل والخارج، لكنني لم أعثر على شيء يثير الريبة .وأعدت الفحص مجدداً، ولكن من الواضح أنّ ما من أحد عبث بقفل الباب .أيمكن أنني مخطئ؟ وأنني وضعت مفاتيح السيارة في مكان آخر؟ ولكنني لا أذكر قيامي بالأمر، ربما كان من الأفضل الاتصال بالشرطة .ولكن تحت أي ذريعة؟ أيعقل أن أستدعيهم لأنني لم أعثر على مفتاح السيارة، ولأنني شاهدت بطاقة الدعوة على المقعد، وصورة فوندا ليست مقلوبة على الطاولة، ولم يكن باب السيارة مقفلاً؟ ألن يسألوني عن كيفية دخول هؤلاء المتعقبين المزعومين المنزل؟ وما أن يعلموا أنني عائد من النادي، أو يشاهدوا تلة زجاجات الشراب التي تتكوم في المطبخ، حتى أتعرض لتوبيخ شديد، لأنني قمت بإزعاجهم في هذا الوقت المتأخر من الليل دون مبرر يذكر .ربما كان الأفضل مغادرة المنزل، ولكن إلى أين؟ وحتى لو قمت بالهرب الآن، ألن يدفع ذلك هؤلاء القتلة إلى الظن بأنني أملك معلومات مهمة وأريد إخفاءها؟ عندها لن أتمكن من النجاة منهم مطلقاً .بقيت واقفاً أمام الباب، يتناوب مرور الأفكار المتناقضة بذهني المشوش، ألا يعقل بأنني بدأت أنسى بالفعل؟ وبعد مجادلة صامتة مع تداعيات الأفكار بمرورها المعاكس، دخلت المنزل من جديد، وأغلقت بابي.

وقفت متردداً في وسط الغرفة، كمن ينتظر أحداً لا يعرفه، سيأتي في وقت لا أعلمه .ولو لم أتجه للمطبخ، وأفتح باب الثلاجة حيث زجاجة الشراب تنتظرني هناك بتواطؤ خفي، لكنت بقيت حائراً وسط خوفي وظنوني ربما حتى الصباح .وبعد إنهاء كؤوس عدة، بدأت الأحداث والمخاوف والأشخاص والمنغصات تفقد ثقل أهميتها تباعاً، وأحسست بسعادة خفيفة تخفق بين جوانبي، لسبب لا أعلمه .كنت أعلو، وأعلو دون توقف، وفي الذرى التي بلغتها كانت الحياة، تبدو أكثر بساطة، وأقل بشاعة، وأكثر قابلية على الاحتمال .ومع ارتفاعي أكثر كنت أراني من علو شاهق :اللحظات السعيدة، إنجازاتي التي تبعث على الفخر، نجاحاتي .ليست هي

ما كنت أراه، بل أنا مجرد من كل شيء .لقد نمت، ولكن إحساساً لم أتخيل وجوده بدأ يستيقظ داخلي، وهبني حدساً، رؤيا، وبصيرة، جعلتني أتخلص من توافه الأمور بقذاراتها، ومن تفاصيل الوقائع الرتيبة، وأدرك أن الحياة بكل ما تحتويه ليس أكثر من مجرد كذبة .والأهم أنني أحببت هذه القناعة الجديدة التي شكلتها عن حياتي .وكل ما هو خارج هذه القناعة من أصوات وأشياء ومشاهد بات يسبب لي الضيق .حتى أنني لم أعد أطيق أضواء غرفتي، فنهضت وأطفأتها .ولكن الغريب أنّ العتمة لم تسد المكان كما كنت أرجو، فذلك الضوء الفضي المنبعث من الخارج كان يتسلل من بين الغلالة الرقيقة التي تغطي النافذة، لينعكس على الصور الأولى التي التقطتها بحماس، وعلقتها بحماس مماثل على جدران منزلي، على الطاولة التي أجلس عليها للعمل، زجاجات الشراب، الكأس التي في يدي، جسدي، ويضيء رغم ذلك الأشياء كلها .ولكنّ هذا الضوء لم يشعرني بالضيق .نهضت من مكاني، وأزحت ستائر النافذة بفضل البدر —وكان عليّ أن أخمن مصدره —البدر الذي صادفته في الطريق والذي حوله أمام ناظري إلى لوحة جميلة، كان هناك، وكأنه معلق فوق نافذتي، يواصل إنارة العتمة التي تحيط به، وكأنه يخبرني بألا أخاف، فهو سيبقى هنا. ألقيت عليه تحية من أعماق قلبي، وقابل بأدفأ ابتسامة رأيتها في حياتي .ومن ثم بدأنا نتبادل الحديث .عمّ تحدثنا؟ كل ما يخطر ببالنا، وما يشغل ذهنينا .حتى أنني سألته عن حقيقة ما تعرض له دوغان، وعن احتمال دخولهم منزلي وسيارتي .لا أذكر ما قاله لي على وجه الدقة، ولكن كلماته كانت كافية للذهاب بالمخاوف التي تعتمل داخلي؛ ذلك لأنني كنت أشعر براحة متزايدة وأنا أحدثه .مرّ زمن طويل منذ آخر حديث ممتع بيني وبين أحدهم .ولكنني للأسف وفي أجمل لحظات هذه المناقشة غفوت.

الفصل الرابع عشر

حين استيقظت صباحاً، كان البدر قد غادر مع ذلك السلام الذي غمرني ليلة البارحة .عادت مخاوفي الاعتيادية لتزلزل كياني، فنهضت مستنفراً عن الأريكة التي نمت عليها، واتجهت إلى غرفة النوم والمطبخ والحمام، في جولة سريعة، ولكن الأشياء كانت تبدو في مكانها المعتاد، ولا أثر لأحد دخل المنزل .ولكن من الصعب التحقق من الأمر .وهذا ما جعل مخاوفي تواصل العبث بي .وفيما كانت نظراتي تجول في المكان، شاهدت ساعة والدي التي أهداني إياها، كانت معلقة على الجدار تعمل بالدقة ذاتها، غير مبالية بتعاقب الفصول والسنين والمخاوف، وكان عقرباها يشيران إلى الثانية عشرة وخمس وأربعين دقيقة .وهنا تذكرت أوموت .ألم نتفق على اللقاء في الواحدة ظهراً في مطعم البيتزا؟ كنت واثقاً من تأخر أوموت على موعدنا، ورغم ذلك، حاولت الإسراع بالخروج قدر الإمكان، وفاء للعادة التي اكتسبتها من مهنتي »هوس دقة المواعيد.«

حين خرجت إلى الشارع، ألقيت نظرة على البليماوث، وترددت حائراً بين الذهاب بالتاكسي، أو بالبليماوث .كنت أعلم أن التاكسي سيوصلني بسرعة أكبر، ولكنني حينئذ تذكرت مخاوف مساء البارحة .لم يطاوعني قلبي بترك السيارة هناك، تقف بكل أبّهتها في الساحة التي خلت من بقية السيارات .فاتجهت نحو عنقائي الجميلة .ولم أتمالك نفسي من إلقاء نظرة على الجوار قبل أن أستقل السيارة .كان الشارع هادئاً، وليس من أحد أو سيارة تثير الشبهات في الجوار. جلست في السيارة، وفيما كانت تتحرك، ألقيت مجدداً نظرة من مرايتيها الجانبيتين خلفي، علّني

أجد من يراقبني .لفتت انتباهي سيارة تويوتا كانت تسير خلفي، ولكنها انعطفت عند ناصية الشارع باتجاه منطقة نيشانتاشي .حسناً، لم يكن هناك ما يثير الشبهات، رغم أنّ سيارتي، كهودج العروس، يمكن التعرف إليها من مسافة بعيدة. أولئك الأشخاص خبراء في التعقب، وإن كانوا يراقبونني بالفعل فلن أحظى بفرصة ملاحظتهم على الإطلاق .فليراقبوني كما يشاؤون، فلست ذاهباً، لملاقاة مدير المخابرات المركزية الأميركية، إنه مجرد لقاء عادي مع ابني .رغم تعلّلي بهذه التطمينات، إلا أنني بقيت حتى بعد أن ركنت سيارتي في مرأب مركز أتاتورك الثقافي، أتلفت حولي مستطلعاً.

حين وصلت المطعم كانت الساعة تشير إلى الواحدة وعشر دقائق، وكما خمّنت فلم يكن هناك أثر لأوموت .وقفت عند الباب، مذعناً للافتة التي كتب عليها »انتظر من فضلك«، وأقبلت فتاة الخدمة التي ترتدي الزي الموحد لسلسلة هذه المطاعم التي لها فروع في مختلف أنحاء العالم .وحين سألتني إن كنت أدخن، أجبتها مومئاً برأسي أن نعم، فطلبت مني بابتسامة لطيفة على وجهها» :تفضل معي.«

وجلست على الطاولة التي دلتني عليها وأنا أتعقّبها.

ولأنني أتيت مع أوموت إلى هذا المكان مرات عديدة، فقد كنت مطلعاً على الآلية التي يقدم بها الطعام هنا .فبعد قليل سيأتيني أحد بقائمة الطعام، وتبعاً لازدحام المكان، ستطول أو تقصر المدة التي سيقبل بعدها أحد شبان الخدمة ليسألني عما اخترته .ولكنني أدركت، بسبب اشتداد الازدحام، أنّ فترة انتظاري ستطول .وطالما أنّ السيد أوموت لم يظهر بعد، فلا داعي للتذمر .ولكن الأمور لم تسر وفق ما أشتهي، فعلى الفور أقبل أحد شبان الخدمة ليضع قائمة الطعام على طاولتي، كانت الأمور تسير وفق المعتاد، حتى هذه المرحلة، ولكنه بقي مسمراً فوق رأسي، بانتظار ما أودّ اختياره .استغربت، بل وانتابني الضيق قليلاً، رغم أني كنت

أعرف ما سأطلبه؛ بيتزا سوبريم مع كثير من الزيتون، وكان هذا كما أذكر رغبة أوموت، ويناسب ذوقي أيضاً .وبالتالي كان بمقدوري طلب ما أوده دون تردد، ورغم ذلك لم أشأ أن أطلب على الفور، وبلباقة مصطنعة، ومماثلة للتي أبداها الشاب نحوي، طلبت منه:

-هل يمكنك الانتظار قليلاً، حتى أقرر ما سأطلبه؟

-طبعاً سيدي —قالها مبتعداً، دون تذمر أو ضيق .ابتعد عني نحو اثنين من الشبان اللذين انتهيا من تناول وجبتهما تواً، وهو يسأل:

-كيف كانت البيتزا؟

وفيما كنت أراقب الشاب، أحسست بثقل نظرات تراقبني .أدرت رأسي باتجاه صاحبها، كان شاباً في مقتبل العمر، أجعد الشعر طويل القامة، سليم البنية. وعلى الفور تهرّب مني .أكان أحد ما يراقبني؟ لو صدق هذا الاحتمال، فلا بد أنني ارتكبت غلطة حياتي، وأرشدتهم إلى ابني بنفسي .وفيما كنت أراقب تحركات الشاب بحذر بالغ، أدركت سخافة الفكرة التي انتابتني، فالأشخاص الذين قاموا بقتل بكير والعقيد رفعت، وربما دوغان أيضاً، لن تنقصهم الوسائل لمعرفة كل شيء عن حياتي والوصول إلى من يشاؤون من عائلتي .وفيما كانت الاحتمالات تجول في ذهني، نهض الشاب الذي بدا أضخم مما توقعت، واتجه مبتسماً نحو الباب، حيث دخلت فتاة نحيلة القوام، سلم عليها وهو يتناول يدها التي ضاعت في كفه الذي كان مثل كفّ دب قطبي .شعرت براحة كبيرة، لأنّ الأمر لا علاقة له بي، فقد كان الشاب بانتظار صديقته .استرخيت على الكرسي وسحبت نفساً عميقاً، وقبل مرور وقت طويل، أدركت كم كنت مخطئاً في الركون للراحة، فقد كان الوضع أخطر من وجود أحد يتعقبني، ذلك أنني بدأت أستسلم لبوادر الرهاب، ولو استمر وضعي على ما هو عليه، فسأبدأ بالارتياب بالجميع بمن فيهم ابني وفوندا أيضاً. أيتوجب عليّ مراجعة طبيب نفسي؟ ولكن ما الذي سأخبره به؟ هل سأخبره عن

لقائي بدوغان، أم عن المتسابق الذي اجتاح أحلامي؟ وبالتأكيد سيرغب في الإطلاع على تفاصيل مهنتي .ولكن عن أي جانب في الصحافة سأحدثه؟ هل أحدثه عن الفساد والانحطاط والعفن الذي أصاب الوسط، والذي أثر على حياتي أيضاً؟ أم عن علاقتي بأوموت؟ وهذه نقطة مهمة، فربما لو وجدت الإجابة عن كل تلك الأسئلة سأجد سبيلاً لتحسين علاقتي مع ابني أيضاً .ذلك أنني لم أتمكن من تجاوز صدمة اختيار أوموت البقاء مع زوجتي؛ أعني زوجتي السابقة، حين قررنا الانفصال .لا أعتقد أنّ الأمر قد شكلّ صدمة كما أدّعي، رغم أنه أثر قليلاً على علاقتي بابني، ولكن ماذا عن أبي؟ فحقيقة موت والدتي أثناء ولادتي، ثم زواج والدي من امرأة أخرى، قد سبّبا لي مصاعب كثيرة .أوووف، لقد أعياني التفكير في هذه الهموم .وفي المحصلة لم أحدد ما الذي عليّ قوله للطبيب النفسي.

-مرحباً بابا.

تبدّدت أفكاري على صوت أوموت.

-أهلاً يا بني؟

وفيما كان يسحب الكرسي المواجه لي للجلوس، كنت أراقب شعره البني القصير، ووجهه الرقيق الذي لم تظهر عليه أي تجعيدة بعد، وعينيه بلونهما البني الفاتح مثل عينيّ، واللحية الخفيفة التي تغطي ذقنه، والقرط الذي أثار حفيظتي حين رأيته يضعه في أذنه اليسرى أول مرة، كنت أراقبه بنوع من الفخر.

-فيمَ تفكر مهموماً إلى هذه الدرجة؟ —وغمزني بعينه وكأنني أحد أصدقائه، فرفّ قلبي بذعر خفي في جوانبي .أتكون فوندا أطلعته على الشجار الذي دار بيننا؟

-وهل تتوقع مني أن أرقص وأغني مثلاً؟ —كان ردي جلفاً دون تعمّد مني، فحين أتذكر ما فعلته فوندا لا أستطيع كبح نفسي .ولكنني أردفت بنبرة أكثر

لطفاً —حتى الآن لم نتأكد مما حصل لعمك دوغان، كما أنني فُصِلت من عملي.

اختفى ذلك التعبير الساخط من وجهه، وازدادت قتامة القهوة في عينيه.

-أحقاً تمّ فصلك من العمل؟ لم أكن أعلم.

ساد الصمت بيننا، وأخذ يراقبني، وإن كان يعلم بأمر الشجار الذي بيني وبين فوندا، فلا بدّ أنه يشفق على والده المسكين الذي انهالت عليه المصائب كلها.

-هل لفصلك من العمل علاقة بالعم دوغان؟

سألني.

-لا أظن، ولكن لا يمكن الجزم، لأنها مشكلة معقدة بعض الشيء.

-ولا أخبار عن العم دوغان أليس كذلك؟

-لا —وأخفضت صوتي وأنا أكمل —الشرطة لم تعثر سوى على الجسد المحترق، ولكن لا دليل يثبت حقيقة هويته.

-ولكن ما الذي حصل يا أبي؟

كانت نظراته تجول على بقية الطاولات بقلق.

-ماذا؟ ما الذي حصل في أي شيء؟ —وجاريته في مراقبة الطاولات القريبة منا بنظرات ملؤها الشك.

-أعني لما أخفضت صوتك فجأة؟

-أحقاً فعلت ذلك؟ —قلتها مبتسماً وأنا أربت على يده برفق —أتصدق أنني لم أنتبه للأمر.

ومن أجل الانتهاء من قصة دوغان هذه، أخذت أبحث عن أحد شبان الخدمة، فوجدت أحدهم يقف أمام رفّ السلطات، والذي أسرع بالحضور حال رؤيته ليدي المرفوعة.

-أنا جائع كذئب —قلت لابني —سنطلب كالمعتاد أليس كذلك؟

الشباب أجمل ما تهبنا إياه الحياة، فبإمكان أي متعة صغيرة أن تبعد عن أذهاننا ضباب القلق والخوف .وقد كانت كلماتي كافية لتعيد الابتسامة إلى وجه ابني.

-أجل —قالها، ومن ثم أوضح للشاب الذي أصبح على مقربة منا — بيتزا سوبريم مع كثير من الزيتون، والكولا بالطبع.

أخذ الشاب يدون طلباتنا في دفتره بجدية وحرص بالغين، وكأنه يسجل تفاصيل إحدى مسائل الفيزياء المهمة، ومن ثم أوضح بنبرته المعتادة:

-البيتزا ستكون جاهزة بعد سبع عشرة دقيقة سيدي.

وابتعد عنا بخطوات مسرعة.

-حسناً أخبرني الآن —قلت مخاطباً أوموت —ما قصة هذه المنحة؟

-كما أخبرتك على الهاتف، إنها منحة مقدمة من إحدى الجامعات، وستكون فرصة رائعة للاستمتاع بابا .سأحظى بدروس خاصة لتعليم اللغة لمدة ثلاثة أشهر في الجامعة.

-دروس عن علم النفس؟

-علم النفس الاجتماعي، وهم يركزون على الفئات المهمشة في المجتمع؛ العاطلين عن العمل، المشردين، وسواهما من الفئات التي يرفض المجتمع تقبّلها.

أخذت أضحك.

-وهل يهتمون بالصحفيين العاطلين عن العمل؟

-لا أعرف، ربما يفعلون.

قالها وبدأ هو أيضاً بالضحك.

-إذاً علينا الذهاب سوية إلى بوسطن.

لم يحدد إن كنت جاداً في ما قلت، أم أنني أمازحه، فأخذ يحدق إليّ مستفهماً.

-ولكنني لن أنضم إليك بصفتي طالباً، بل بصفتي صحفياً عاطلاً عن العمل ومحزوناً، تستطيع اعتباري عينة ما.

على الفور اختفت الابتسامة من وجه وظهر عليه تعبير جدي.

-أتعلم أمي بإقالتك من العمل؟

-لا أظن.

-لقد تحدثتما البارحة صباحاً، ألم تخبرها بالأمر؟

ما الذي يسعى إليه هذا الولد؟

- لم أخبرها.

-لما؟ هل تشاجرتما؟

بدا الضيق المعتمل في صدري واضحاً في صوتي.

-أهذا ما أخبرتك به أمك؟

–لم تخبرني بشيء، ولكنها حين علمت بما حصل مع العم دوغان طلبت مني الاتصال بك، وحين سألتها عن السبب، أخبرتني بأنها ستتصل بك لاحقاً، وأنت بدورك لم تطلب مني التحدث معها البارحة .ما الذي يحدث بينكما؟

–لا شيء يحدث —قلتها وأنا أتجنّب النظر إليه —فكما تعلم نحن منفصلان، ولو كان من المفروض أن نواظب الاتصال ببعضنا طوال الوقت، لما انفصلنا.

لم تكن كلماتي كافية لمحو إشارات الاستفهام المرتسمة في عينيه .وبقي يحدق إليّ بإمعان وكأنه ينتظر مزيداً من التوضيح .ولكنني بالتأكيد لن أخبره بأنني اكتشفت أن والدته كانت تضاجع رجلاً آخر .وقد أسعفني الشاب الذي أحضر علب الكولا، التي تناولتها من يده، وبدأت أصبها في الكاسات الزجاجية الموضوعة أمامنا .ولكن أوموت ظلّ يرمقني بالإصرار ذاته دون أن يشرب شيئاً من كأسه، فيما بدأت بالشرب محاولاً التملص من نظراته.

–همم لذيذة بحق .إنها البرودة التي أحب.

أخذت أدمدم.

ولكن أوموت لم يكن مهتماً على الإطلاق بدرجة حرارة الكولا .فقد كان منشغلاً بما حدث بيني وبين والدته، وعندما أدرك أنّ بقائه صامتاً لن يفضي إلى مزيد من التوضيح، بادر بطرح الأسئلة.

–هل التقيت بالعم إتهم؟

–ومن هو العم إتهم هذا؟

كانت الغيرة تعصف بي بوضوح، حتى أنني لم أتمكن من إخفاء الرعشة التي انتابت صوتي.

-صديق والدتي –أوضح لي بصورة طبيعية، ولكنه كان أكثر جدية – هما معاً منذ ما يقارب الشهرين.

-ليتك أخبرتني بوجود صديق في حياتها من قبل.

قلت.

بدا عليه الاضطراب، فبادر بالتبرير على الفور.

- لم يكن من الصواب أن أخبرك بأمر كهذا.

-لما؟

-كان من المفروض أن تخبرك هي بذلك، ولو فعلتُ ذلك لبدا تصرفي نوعاً من الوشاية .فكلاكما شخص بالغ، ومن المفروض أن تقوما بحل المشاكل بنفسيكما .وقد أخبرت أمي بذلك مرات كثيرة، وطلبت منها أن تطلعك على موضوع علاقتها.

كان الولد محقاً .مددت يدي لعلبة السجائر التي في جيبي، وأخرجتها وأشعلت واحدة، وأخذ أوموت سيجارة أيضاً، رغم أنني لم أكن أعلم أنه يدخن، ولكنني لم أعلق على الأمر .بل مددت الولاعة لأشعلها له، فتنهد بعمق وهو منزعج.

-وأي نوع من الرجال هو إتهم هذا؟

سألته.

-رسام، وقد تعرف على والدتي في إحدى الحملات الدعائية، وإن شئت رأيي فهو مدّع بعض الشيء، فما أن تعرف عليّ، حتى بدأ يحاول إظهار سعة معارفه ومعلوماته .وفي كل مرة أقدم فيها على أمر ما، يتنطح بالقول؛ إن فعلت

هذا سيكون أفضل، وإن فعلت ذاك سيكون أفضل، ويزجي النصائح طوال الوقت دون مبرر .ربما يحاول أن يثبت وجوده في حياتنا بهذه الطريقة، لا أعلم، ولكنني بشكل عام لا أميل إليه كثيراً.

-ولكن والدتك.

مرت بنا لحظة صمت قصيرة.

-أمي معجبة به —قالها وقد أمال رأسه يساراً باستسلام —فبعد أن عرفتني عليه والدتي، حدثت مشادة حادة بيننا.

-وهل كان موجوداً؟

-بالطبع لا، كان قد غادر، وأخبرتها بأنني لم أستلطفه مطلقاً .وقد أدركت أنني سأسبب مشاكل كثيرة، فحاولت أن تناقشني بهدوء، وقالت لي إنها بلغت السادسة والأربعين من العمر، وأنّ العمر يمر سريعاً، وليس لديها الوقت الكافي لتفعل ما كانت تحلم به، وبأنها معجبة بالرجل، وتجده مناسباً لها، وطلبت مني ألا أصعب الأمور عليها .ورجتني أن أبدي اتجاهها بعض التفهم.

وفيما كان يسرد عليّ كلمات أمه، ارتسمت على شفتي ابتسامة استصغار وهزئ.

-أعلم أنها مجرد عبارات نمطية، ولكن لم يسبق لها أن حدثتني بهذا الأسلوب، فأحياناً قد يكون تصرف صغير أقوى من جميع الكلمات، ولكنني صدقتها .أعترف أنني لا أحبه، وليس مفروضاً علي أن أفعل ذلك، ولكن الموضوع متعلق بأمي .وأظنها المرة الأولى التي طلبت فيها مساعدتي في موضوع بالغ الأهمية بالنسبة إليها .ولم أستطع ردها خائبة.

تفهمت موقف أوموت، بل وفوندا أيضاً، ولكنه كلما ذكر اسم هذا

المأفون إتهم، كنت أشعر بنيران الغيرة تتقد في داخلي، كنيران يصب فوقها البنزين ويزيدها اشتعالاً.

-وكم يبلغ من العمر هذا الإتهم؟

-أظنه يقاربك في العمر، وهو أيضاً لديه ابن يرتاد الجامعة .وأكثر ما يثير استفزازي، حين يقارنني بابنه هذا.

لم أعرف على وجه الدقة إن كان يدّعي بأنه لا يطيق الرجل مجاملة لي، أم أنه كان بالفعل كذلك .ولكن كلماته كانت تشعرني بالرضى، وتخفف من آلام روحي.

-إن لم يكن لديك مانع أريد سؤالك عن أمر ما يا أبي.

حاولت التركيز على ما سيقوله، وأنا أبتسم بدل تعبير الاستهزاء الذي أبديته منذ قليل.

-قل، ما الذي تريد أن تعرفه؟

-أما زلت تحب أمي؟

قبل أن أجيب، سحبت نفساً عميقاً من سيجارتي، ونفثت الدخان الرمادي الكثيف.

-لا أعلم يا بني، فقبل معرفتي بوجود رجل آخر في حياة والدتك، لم يخطر لي هذا السؤال مطلقاً.

-ما الذي تعنيه؟ ألم تفكر في أمر علاقتك بها؟

-بالطبع كنت أفكر، ولكننا لم نستطع المواصلة .ولم أكل الاتهامات لوالدتك، فأنا أتحمل الجزء الأكبر من المسؤولية .فكما تعلم، كنت أعاني من فترة

اكتئاب، وكنت أرغب في الهرب من الناس ومن نفسي ومن كل ما يحيط بي .ولم أتمكن من تجاوز الأمر، وإن شئت الحق فأظنني لم أملك الرغبة في تجاوزه .ورغم ذلك فقد ظلت والدتك تحتل مكانة مهمة في حياتي، ولم يخطر لي على الإطلاق أن يدخل رجل آخر حياتها .قد يكون الأمر خطر لي، ولكنني لم أصدق أنه قد يتحول إلى حقيقة .وإن سألتني عن السبب فأنا لا أملك إجابة للأسف .ولكنني حين علمت بوجود هذا الرجل، تداعت حياتي كلها.

-هل أخبرتك هي بالأمر؟

-لا، لقد علمت بذلك مصادفة.

بدا مهتماً بما قلته له.

-ولكن لا أهمية لكيفية معرفتي بالأمر.

-بل أظنه مهماً، فلو أخبرتك هي بنفسها، لكان وقع الأمر عليك أقل وطأة.

معه حق، فلو أنّ فوندا أخبرتني بوجود شخص آخر في حياتها، لما كابدت كل هذا الألم، ولما صدمت بهذه الطريقة .ربما فكرت في الأمر، ولكنه لم تفعله. وربما لم تشعر بضرورة إطلاع طليقها —الذي حاولت قدر المستطاع تحسين علاقتها به، ولم تجد اهتماماً مقابلاً منه —على علاقتها برجل سواه.

-لا أهمية لذلك.

لا أدري إن كنت أوجه هذه المواساة لابني أم لنفسي، ولكن كان عليّ تمالك نفسي .فصحيح أنّني كنت أعاني من لسعات الغيرة، والغضب يحرق كل خلية في جسمي، ولكني لم أشأ أن أبدو ذاك المسكين الذي يعاني خيانة المرأة التي أحبها.

-على كل حال، فالحياة تستمر .والآن أخبرني ما الهدية التي تريد مني شراءها لك؟

نظر إليّ مستغرباً، وكأنه لم يدرك ما أعنيه.

-ألم تقل لي إن التهنئة دون هدية لا تكتمل حين تحدثنا البارحة على الهاتف؟ فأنا مدين لك بهدية لأنك استطعت الحصول على هذه المنحة، أخبرني بما تريد.

ولكنه أبدى رداً لم أتوقعه منه.

-لا عليك، فلا أهمية للهدايا يا أبي —وبدت عليه لامبالاة حقيقية وهو يطفئ عقب سيجارته في المنفضة، ثم أضاف —لا ضير من أن تمر هذه المناسبة من دون هدية .كما أنك بلا عمل الآن، وهذه أهم مشكلة عليك مواجهتها حالياً.

-ما الذي تعنيه؟

-عليك التحدث مع أمي، وإن كنت تظنها ارتكبت خطأً، فعليك أن تواجهها بالأمر .وإن كنت أنت من أخطأ بحقها، فيجب أن تعتذر لها .عليكما حلّ هذه المشكلة بأسرع وقت .فلا يمكنكما البقاء متخاصمين طوال الوقت.

ولكن كلماته التي كانت تحمل طابعاً من التهديد الخفي، أثارت حنقي.

-بل ما يجب حقاً، هو بقاؤك بعيداً عن هذا الأمر.

قلت.

-ولكنني مضطر للتدخل في الأمر يا أبي —وقد حدق إليّ بتحدٍّ واضح —فأنتما لا تتقابلان، ولكنني أقابل كلاًّ منكما، كما أنّ والدتي منذ البارحة تتجول في أرجاء المنزل بوجه ينضح بؤساً وكدراً.

يبدو أننا عكرنا صفو السيد أوموت.

-أرجو منك أن تتقبّل اعتذاري الشديد لأننا أزعجناك بمشاكلنا — وأكملت بالسخرية ذاتها —ولكن ما باليد حيلة، إلا أنني سأعرض عليك طريقة قد تناسبك .لا تتحدث عن أحدنا أمام الطرف الآخر، وبذلك ترتاح.

-الأمر ليس بهذه البساطة.

انتابني الحنق، ولكنني لم أشأ إطالة الجدال أكثر.

-حسناً، أنا عن نفسي أعدك بألا أزعجك بمشاكلي، وإن استطعت أن تلزم والدتك أيضاً بوعد مماثل، ستكون قد ضمنت راحتك.

-حباً بالله، ما الذي تعتقده عني؟ —قالها وهو يبسط يديه الاثنتين أمامه —لا تعاملني وكأنني مستهتر لا أبالي بأحد سواي، المشكلة لا تكمن في الضيق الذي أشعر به، بل بحل المشكلة حتى لا يتضايق أي واحد منا.

وبعد أن سحبت آخر نفس من سيجارتي، وأطفأتها في المنفضة، قلت:

-أنت محق يا بني —قلتها وأنا أكابد في السيطرة على الغضب الذي يتعاظم داخلي —ما الذي يمكنني فعله؟ فقد خرج الأمر من يدي.

-كيف تقول أنه خرج من يدك؟ أنتما صديقان منذ سنوات طويلة. وأذكر أنكما على الدوام كنتما تفاخران بالمشاكل التي اعترضتكما، وكيف استطعتما التغلب عليها .فلِمَ تستصعبان حل هذه المشكلة؟

كان هذا الولد يوبخني، وكأن الأدوار باتت متعاكسة.

-يكفي يا أوموت —انفجرت صارخاً —لا أريد التحدث في هذا الأمر أكثر.

كان صوتي أكثر ارتفاعاً مما ظنت، حتى أنّ الجالسين على الطاولات الأخرى، بدأوا يرمقوننا باستغراب.

-أيعجبك ما حدث؟ —قلتها محاولاً خفض صوتي —لقد فضحتنا أمام الناس.

-لا عليك من الناس —قالها أوموت —المهم هو أنت وأمي .يجب عليكما حل الأمر رغم تلك المشكلة، لأنها لن تحل من تلقاء نفسها مهما قمتما بتأجيلها .وإن بقيت الأمور على حالها، ستكرهان نفسيكما، وتكرهان أحدكما الآخر .فهي ستظل عالقة في مكان ما في ذهنيكما، والأفضل أن تذهب وتناقش الأمر مع أمي.

كنت أعلم أنه محق في ما يقوله، ولكنني لم أكن راغباً في الاعتراف بالأمر، وأكثر من ذلك التحدث مع والدته.

-لا عليك أيها الأخصائي النفسي الكبير، فأنا أعرف كيف أواجه الأمر وأجد له حلاً.

كان أوموت يعي تماماً أنني أحاول التملص منه بهذه الكلمات، فتنهّد بعمق، وهو يجهّز نفسه لجولة جديدة من محاولات إقناعي، ولكن رنين هاتفي النقال قطع عليه الطريق.

-ألو.

-ألو السيد عدنان —بدا لي الصوت مألوفاً —أنا المحقق يالفاج.

كان اسمه كافياً ليمنحني جرعة من الأمل.

-أهلاً سيادة المحقق، هل من أخبار جديدة عن دوغان؟

-للأسف ليس بعد، وأنت هل تمكنت من معرفة شيء جديد؟

-لا.

-يبدو أنه علينا الانتظار إذاً، غداً سنقوم بفتح قبر السيدة كريمان.

-ستفتحون القبر؟

-أجل، فقد ارتأينا تسريع الإجراءات، وغداً ستصلنا الموافقة من القاضي. علينا أخذ عينة من جسد الأم من أجل التحقق من أنّ الجثة المحترقة تعود لدوغان أم لا.

-فهمت .من أجل تحليل ال .DNA

-تماماً .وأردت أن أخبرك أنه يحق لك قانوناً الوجود معنا أثناء فتح القبر.

في الحقيقة، لم تكن مشاهدة قبر يفتح، أحد الأمور المفضلة لديّ في الحياة، لذا فقد أدرك المحقق من الصمت القصير الذي ساد بيننا، ما كنت أفكر فيه.

-في الحقيقة، سيكون من المفيد أن تكون موجوداً أثناء العملية، لأنك ستدلنا على القبر سريعاً، كما أنها ستكون فرصة لتبادل الحديث.

كان يأمرني بالحضور، ولكن بلباقة.

-حسناً —قلت —في أي ساعة؟

-في الحادية عشرة، أيناسبك ذلك؟ سنلتقي عند مدخل مقبرة »كارجا أحمد«، هناك ترقد المرحومة أليس كذلك؟

-أجل هناك، إذاً سنلتقي غداً في الحادية عشر صباحاً.

وضعت الهاتف النقال على الطاولة بعد أن أنهيت المكالمة.

-سيقومون بإجراء تحليل الـ DNA؟ -سألني أوموت.

-لا توجد طريقة أفضل للتحقق من أن تلك الجثة تعود بالفعل لعمك دوغان.

-إنها بالفعل كذلك، ولكنها تحتاج لوقت طويل .وإن عثرتم على عينة أخرى صالحة للتحليل سيحتاج الأمر لشهر حتى تظهر النتيجة، ولكن إن لم تجدوا سوى العظام، وهو المرجح، فالأمر بحاجة لشهرين حتى ظهور النتائج.

-وكيف لك أن تعرف كل هذا؟

سألته مستغرباً.

-أنت تقلل من شأني يا أبي -قالها وقد غادره الضيق الذي كان عليه قبل قليل، وعادت إليه حيويته المعهودة -فأنا أدرس علم النفس، وأنوي التخصص في الاستنباط النفسي.4

-الاستنباط؟ وأي شيء هذا؟

-المحللون النفسيون الذين يقومون بتحليل شخصية القتلة ويتنبأون بها يطلق على عملهم الاستنباط .وهؤلاء يعملون في أميركا مع جهاز الـ FBI، وعما قريب سيتم تشكيل فريق منهم للعمل مع قوى الأمن لدينا.

عمّ كان يتحدث هذا الولد؟

-هل أنت جاد؟

سألته.

-لم أتخذ قراراً أكيداً بعد —قالها بنبرة الواثق من نفسه —ولكنني أفكر جدياً في العمل في هذه المهنة.

-أجننت يا بني؟ —قلتها غير مبالٍ بصوتي المرتفع —أتعني بأنك ستقوم بدراسة المجانين والقتلة والمجرمين؟

وكلما ازداد غضبي، كان أوموت يزداد هدوءاً، وكأنه كان ينتقم مني بسبب الجدال الذي حدث بيننا منذ قليل.

-على أحدهم القيام بذلك.

قالها بهدوء جليدي.

ما الذي كان يجذب هذا الأحمق إلى مهنة كهذه؟

-يا بني أنت ما زلت شاباً، وقد يستهويك عالم المجرمين والقتلة والمرضى النفسيين بغموضه، ولكنها مهنة خطرة، أرجوك تريّث وكفّ عن هذا الهراء.

-تتحدث وكأنك ضليع في الموضوع يا أبي.

بدا واضحاً أنه لا يبالي بكلماتي.

-بالطبع أعرف يا ولد، فقد عملت مراسلاً في أروقة محكمة الجنايات لمدة خمس سنوات .ولن تتخيل الجرائم والسرقات والحوادث التي تعرفت إليها هناك .وبعد خمس سنوات تركت هذا العمل، بل أنني هربت بجلدي من ذلك الجحيم .إنه عالم قذر، يصيبك بالسقم.

-لا يحتاج المرء لمقابلة القتلة لكي يُصاب بالسقم .فحين أكون في هذا العالم غارقاً بالوسخ حتى العنق، يصيبني الحديث مع أي كان بالسقم.

من الصعب معرفة إن كان يعنيني بكلماته هذه، أم أنها مجرد ثرثرة عابرة.

كما أنني لم أكن راغباً في معرفة الحقيقة على أيّ حال .فقد تجادلنا اليوم بما فيه الكفاية، ولم تكن بي طاقة على تحمل المزيد .والغريب أنّ أوموت أيضاً لم يعد لفتح هذا الموضوع طوال فترة تناولنا الطعام، ومن ثم حلوى التفاح التي طلبناها فيما بعد. وبدا لي أنه نسي رغبته في مصالحتي مع والدته، حتى جاء وقت طلب الفاتورة حيث بدأنا نستعد للمغادرة، وبادرت بالقول:

- لم تخبرني بالهدية التي ترغب فيها.

-إن كنت ترغب في أن تهديني شيئاً ما، تصالح مع أمي.

الفصل الخامس عشر

فاجأني أوموت بتصرفه، بل ما قام به معي كان درساً قاسياً في الحياة .فقد أثبت لي بطريقة لم أتوقعها، أنني شخص لا يعرف أقرب الناس إليه، ويميل كسلاً لإطلاق الأحكام الجاهزة .فقد كنت أتهمه على الدوام بأنه شاب أناني مستهتر لا يبالي بكل ما يدور حوله .ولكنني اكتشفت بأنني أنا المستهتر، الذي لم يدرك أنّ ابنه كبر وتغير وبدأ ينظر إلى العالم بعينين مختلفتين تماماً .لا أنكر أن سخافة الاستنباط تلك قد أثارت حفيظتي، ولكنه في المقابل ظلّ طوال فترة جلوسنا هادئاً متزناً، ويعي تماماً ما يقوله .ينتابني الفضول عن رأيه بي، حقاً لماذا لا أسأله يوماً ما.

ما الذي يعنيه هذا؟ هل عليّ أن أسأله أيّ نوع من الأشخاص أنا؟ ولِمَ لا، ألم أكن أنوي مراجعة طبيب نفسي، ها هو الأخصائي النفسي قد جاء بنفسه إليّ. ولكن ماذا لو أخبرني ابني قائلاً إنك لم تستطع أن تحقق نجاحاً في عملك، وأنك أصبحت كحولياً، ولست سوى مسكين تخلت عنه زوجته وعائلته .ما الذي سأفعله حينها؟ ولكن ابني لن يقول لي أشياء مماثلة؟ ولِمَ لا؟ ألا تذكر كيف واجهك بالحقائق الواحدة تلو الأخرى قبل قليل، وصارحك برأيه؟ لن يفعل لأنني لم أصل إلى هذه المرحلة بسبب غبائي أو قلة مهارتي، أو حتى قلة حظي، بل وصلت إلى ما أنا عليه لأنني اخترت هذا الطريق بنفسي .حسناً فلأتوقف عن خزعبلات التحليل والمبررات وسواها، عليّ التفكير فيما يجب أن أفعله مع فوندا الآن.

ما عليّ فعله واضح، يجب الذهاب إليها والاعتذار منها، أوووف الموت أهون عليّ .ولكن لا مهرب من الأمر، فكما قال أوموت، علينا أن نتصالح أنا

وفوندا .أفكر في التريث قليلاً حتى تهدأ النفوس، ويفقد الموضوع زخمه الموجع مع الوقت.

بمناسبة الوقت، نظرت إلى الساعة التي كانت تشير إلى الثانية والنصف .يا له من وقت بغيض، إلى أين يفترض بي الذهاب الآن؟ أأذهب إلى النادي؟ ولكن أليس الوقت مبكراً؟ كما أنّ شبان الخدمة لن يسمحوا بالدخول منذ الآن .كنت أقف في وسط ساحة تقسيم، أتلفّت حولي كعاشق مبتدئ تخلفت حبيبته عن أول موعد بينهما، من دون أن أعرف ما عليّ فعله .حينها شعرت بالندم لأنني تركت أوموت يذهب بهذه السرعة .لِمَ لم أقترح عليه جولة بالسيارة في منطقة كوزغونجوك التي تكون رائعة في مثل هذا الوقت من العام .فبعد الأمطار التي هطلت مساءً، لا بد أنّ البحر رائق الزرقة، والبساتين في الأعلى تعبق برائحة التربة الرطبة، والأوراق المبلّلة، والبراعم التي تشق التربة الطرية .لماذا لا أذهب إلى هناك بمفردي؟ راقت لي الفكرة التي لمعت في ذهني فجأة، وبدت جذابة جداً، ولا أستطيع تحديد سبب هذه الرغبة، إن كانت لحظية، أم بسبب لقائي الأخير بدوغان، حيث عادت إليّ ذكريات طفولتنا سوية، الطفولة التي قضيناها في بيتنا في كوزغونجوك .ومن دون تفكير إضافي سيبدد رغبتي إن تعمقت فيه، توجهت نحو المرأب حيث سيارتي.

سلكت الطريق المار بالقرب من قصر دولماباهتشي، حيث تحف أشجار الدلب التي أعشقها بجانبي الطريق، وانعطفت بعدها نحو أوتوستراد باربروس .سررت لأنّ الطريق لم يكن مزدحماً، ولكن السيارات كانت قد بدأت بالتجمع قرب جامعة يلدز التقنية، لذا كان عليّ التحمّل .فمن الواضح أن جسر البوسفور مزدحم في هذه الساعة من النهار .ولكنني لم أسمح للأمر بتعكير صفوي، فطالما أنني لا أستطيع فعل شيء إزاء أزمة المرور، سأقوم بالاستمتاع بالمنظر من حولي .فخلال الوقت الذي أمضيته فوق الجسر، بدأت أتأمل مياه المضيق الزرقاء المنسابة بتموجات متراقصة، وقد تفرعت عنه ذراع لتفصل بين برج غالاتا والجامع الجديد، كعذول يفصل بين عاشقين، ولكنه يتسع ويزداد تراقص أمواجه عند سفوح قصر

توب كابي الذي يغطيه ضباب حليبي، هذا الضباب الذي يمتد حتى أبعد نقطة يمكن رؤيتها ليمتزج مع الأفق في البعيد .هذا المنظر الذي شاهدته مئات المرات، كنت أزداد دهشة أمامه في كل مرة، دهشة طفل يستمع لقصة خيالية رائعة للمرة الأولى.

عندما وصلت كوزغونجوك كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة والنصف بقليل، اجتزت طريق إيجادة الذي تحف به الأشجار من الجانبين، وانعطفت في الشارع المواجه للكنيسة .وقمت بركن السيارة أمام منزلنا الخشبي ذي الطابقين، الذي أعتاد أن تقف السيارة أمامه لسنوات طويلة .وقبل أن أنزل بدأت أراقب المنزل الذي قضيت فيه سنوات طفولتي وما آل إليه، فقد خُلع جرسه من مكانه، وغطت نوافذه طبقة سميكة من غبار الزمن المتراكم، ويبست الأزهار التي كانت على الشرفات، واختفى الطلاء في مواضع كثيرة ليظهر جسده الخشبي العاري .كانت كل منازل الحي الخشبي مرمّمة ومجدّدة بشكل لائق باستثناء منزلنا، ذلك أنني والخالة كريمان لم نكن نملك المال الكافي من أجل تجديده .ورغم ذلك فقد صمد هذا المنزل الذي يتجاوز عمره الخمسين عاماً، بفضل الإصلاحات الصغيرة التي كنا ندخلها عليه على مر السنين .ولو استمر الحال على ما هو عليه فلن يصمد أكثر من سنتين أو ثلاث قبل أن ينهار .وقد تعتقدون أنني أبالغ، ولكن منزلنا بالفعل كان أحد أجمل منازل الحي، فمهما يحاول المهندسون والعمال، وأياً كانت درجة مهارتهم في الترميم، فلن يتمكنوا من جعل المنزل يبدو كما كان عليه في الأصل. قد يكون منزلنا أكثر تداعياً، وقدما من بقية المنازل، ولكن أصالته كانت طاغية على البقية .فرغم الأبنية الجديدة الأسمنتية، ورغم تغير ملامح الحي كله، إلا أنّ هذا التغيير لم يطغَ عليه أو يخفي من تفرده .ومع أنه يبدو عجوزاً قديماً، منهكاً، إلا أنّه يشير بوضوح إلى أنه لم يكن مجرد مسكن عادي، بل كان يشمخ في مقدمة الحي كنصب تذكاري يشير إلى الحياة التي كانت تضج بين جوانبه فيما مضى.

حين اتجهت إلى منطقة كوزغونجوك، لم تكن لديّ رغبة في زيارة منزلنا

القديم، وقد قدت السيارة نحو البيت من دون تفكير بالأمر، ربما هي العادة، وربما أن البليماوث العجوز قد قررت العودة إلى حينا القديم الذي لم يعد يقطنه أي من جيراننا السابقين .فقد كنت أنوي الذهاب إلى الشاطئ، والجلوس على أحد المقاعد، أدخن السجائر مستمتعاً بمنظر البحر .ومن ثم قد أذهب إلى كافيتريا)ظل الدلب (لشرب شيء ما .وقد كنت متأكداً أنني ما إن أذهب إلى أحد مطاعم السمك المنتشرة على الشاطئ، حتى أصادف بالتأكيد أحد الأصدقاء، ولن أقاوم دعوتهم إلى تناول وجبة سمك لذيذة وما يرافقها من شراب .ولكنني حين اتجهت نحو حينا القديم الهادئ حيث كنت ألعب مع أولئك الأصدقاء، لم أكن أعلم أنّ كل مخططاتي ستتغير .ولكن هذا ما حصل، وبقيت مسمّراً أمام المنزل القديم، وكأنني مسحور.

أخيراً، ترجلت من السيارة، واتجهت نحو المنزل، ولكن كان عليّ في البداية البحث عن المفتاح الراقد منذ فترة طويلة في تابلو السيارة .فلم أجتز عتبة هذا الباب منذ وفاة الخالة كريمان .وبسبب مرور أكثر من سنة على الحادثة، فقد تخيلت أنّني سأواجه صعوبة في فتح القفل، ولكنه فُتح بسهولة على خلاف ما توقعت .وما إن فتحت الباب حتى لفحتني رائحة عفن قوية .ولكنها لم تكن رائحة غريبة عليّ، فحين كنا نغادر اسطنبول في فترات الإجازات، كانت هذه الرائحة هي أول ما يستقبلنا عند العودة، وخاصة في الطابق السفلي الذي لا تدخله أشعة الشمس إلا قليلاً .دخلت متجاوزاً الرائحة، وكانت العتمة شديدة في الداخل، ولكن الضوء المنساب من الباب ساعدني على الرؤية قليلاً .ضغطت على مفتاح الكهرباء الموجود على يسار الباب، وفجأة غمر الضوء السجادة اليدوية التي أحضرتها والدتي معها كجزء من جهاز العروس، والمطرزات التي علقتها الخالة كريمان على الجدران بعد أن أطّرتها، والطاولة الخشبية التي ما زالت صادمة كمحارب قديم عند مدخل المطبخ، وستائر المخمل التي تغطي النوافذ الواسعة وكل ما في الردهة من أثاث، وبدت كلها وكأنها ترحب بي تحت الضوء .أغلقت الباب بخطوات حذرة، حتى لا تنفر الذكريات

التي بدأت تتجمّع حولي مع كل خطوة جديدة أخطوها على الأرض الخشبية، التي كانت تصر تحت قدميّ، فتحضرني كلمات الخالة كريمان.

»دعنا نتخلصْ من الأرضية الخشبية القديمة يا زيا، ونضع أرضيات حديثة .«وكان والدي يرد عليها دوماً بكلماته المعهودة »حسناً، حسناً يا امرأة« ويرتسم على وجهه السأم والملل ذاتهما، والانطباع اللامبالي الذي يشي بأنه لن ينفذ هذا الكلام على الإطلاق .صعدت الدرجات الخمس التي تفضي نحو الردهة، ووقعت نظراتي على باب الغرفة التي كانت فيما مضى لدوغان .أدرت القفل ببطء، وقد تحرك دون صرير فدخلت الغرفة .كانت الغرفة كما أتذكرها دون تغيير، كانت الأريكة القديمة مسندة إلى الجدار وقد غطته الخالة كريمان بغطاء طرزته بيديها، وعلى الجدار الأيمن علّقت صورة ذئب رمادي نائم تحت ضوء القمر، أبعادها (70×50)وبالقرب من حافة النافذة طاولة وضعت بالقرب منها مكتبة صغيرة. فيها بعض الكتب :الأنوار التسعة والآراء العامة لألب أرسلان توركيش، الأعمال التركية لزيا غوكلاب، موت الذئاب5 الغبر لنهال أتسيز، القومية التركية لكورت كاراجا، ملاحظات للمثاليين وكتابات تقتل كتاباتك لنجدت سيفينج، الحركة القومية في تركيا والحركة القومية أسئلة وأجوبة لإيلهان داريندلي أوغلو .وسواها، وفي الرف العلوي من المكتبة كان هناك أعداد بعض المجلات مثل :صديقي الشاب، الشوق، ونسخ من الصحيفة اليومية التي قامت حركة القوميين بإصدارها .هذه الكتب والمجلات والصحف والتي في ما مضى كان مجرد النظر إليها يجعلني أصاب بقشعريرة، أنظر إليها الآن بحزن وأسى وكأنها مجرد صور التقطت لأزمنة سيئة .رغم أنني في تلك الأزمنة كان جلّ ما أتمناه، هو اقتحام هذه الغرفة وتمزيق الصورة التي على الحائط، وإلقاء هذه الكتب في القمامة.

في السادس عشر من آذار العام ألف وتسعمئة وثمان وسبعون، حين كانت الحركة القومية تسيطر على جامعة اسطنبول، ورغم قلة عدد الطلاب المنتمين لهذه الحركة، كانت بدعم سري من الدولة ومكشوف من رجال الشرطة، تفرض

سيطرتها على الجامعات والمدارس، وتقوم بقتل وضرب وطعن اليساريين من أمثالي، ويمنعوننا من ارتياد جامعتنا .ولكن فوز الحزب الاجتماعي الديمقراطي الذي تأسس في كانون الثاني من العام ألف وتسعمئة وتسع وسبعين، بتشكيل الحكومة بفارق قليل في الأصوات، دفعنا لاتخاذ القرار بالتجمع واستعادة الجامعات من سيطرة القوميين .وكنا مضطرين للذهاب مجتمعين، لأنهم كانوا يحتلون بالإضافة للجامعة منطقة بيازيد أيضاً .كنا نجتمع في نقطة محددة للذهاب إلى الجامعة، ونعود للاجتماع عند انتهاء الدوام للمغادرة معاً .ورغم تغير الحكومة، لكن الدولة كانت تواصل تقديم الدعم للقوميين الذين كانوا يستغلون أدنى فرصة للتهجم علينا، ومحاولة ترهيبنا، ولكن كل ممارساتهم الشوفينية، وإرهابهم لم يكونا يجديان نفعاً، فكنا نواصل الذهاب إلى المحاضرات، وتقديم الامتحانات .إلا أنهم لم يكونوا يريدون الاستسلام بسهولة، وطالما أننا استطعنا كسر حصارهم عن الجامعات، فقد كان علينا دفع الثمن غالياً .وهذا ما حصل، ففي السادس عشر من آذار عام ألف وتسعمئة وثمان وسبعين، تم إلقاء قنبلة على بعض من رفاقنا الذين كانوا يتوزعون في الجامعة على شكل مجموعات .في ذلك اليوم، شاء القدر ألا أذهب إلى الجامعة، حيث كنت أجري بحثاً ميدانياً لصالح إحدى الجرائد .قتل ثمانية من رفاقي وقد حولتهم القنبلة إلى أشلاء، وجرح العشرات .وكان أحد الذين ماتوا في الانفجار زميل صفي، لا أذكر الآن من أي مدينة هو، ولكنه كان من الأناضول، كوردياً، ينتمي لأسرة فقيرة جداً، وربما هذا ما جعل منه يسارياً، ولأنه كان يدرس ويعمل في الوقت ذاته، فقط كان يأخذ المحاضرات التي أدوّنها، ويدرسها لتقديم الامتحانات.

في تلك الليلة اجتمع كل الطلاب اليساريين في بيازيد، وقاموا بمهاجمة كل المطاعم، والنوادي، وصالات البلياردو، والمقاهي، والمكتبات التي يرتادها القوميون، وقاموا بتحطيمها، وكل من صادفوه من الطلاب القوميين كان يتعرض لضرب مبرح .لقد كانت الصدمة التي تلقيناها مؤلمة وصاعقة وكبيرة، حتى أنّني أنا —أكثر دعاة السلام، أم عليّ القول أكثر الجبناء —وجدتني أحمل حجراً وأهشم به زجاج

واجهة مقهى كولوك في ساحة بيازيد .وقد أحدث الطلاب اليساريون ضجة كبرى في تلك الليلة، وتوجهوا بالآلاف إلى جامعة اسطنبول لتشييع القتلى، وصب اللعنات على الفاشيين .عندما عدت إلى المنزل بعد التشييع كنت متعباً وبحاجة إلى النوم، ولكن الغضب لم يفارقني بعد .وعلى طاولة العشاء، طلب مني والدي، الذي كان منزعجاً مما حدث، توخي الحذر .في تلك الأثناء تدخلت الخالة كريمان في الحديث.

-اتصل بي دوغان اليوم، وقد علم بما حدث، وسألني عن عدنان وأراد الاطمئنان عليه.

وما إن سمعت باسمه حتى فقدت السيطرة على نفسي.

-كان عليكِ إخباره بأنهم لم ينجحوا، وبأنني ما زلت حياً .ورغم أنكم قتلتم أصدقائه فلن تنتصروا مطلقاً .وكما ألقى التاريخ بهتلر في مزبلة التاريخ، سيلقي بكم الشعب التركي أيضاً.

كنت أصرخ على المرأة المسكينة التي بقيت الملعقة في منتصف الطريق بين يدها وفمها، وهي تراقبني بذهول .ولم يكن أبي أفضل حالاً منها .فابنه الذي كان على الدوام يعتبره نموذجاً لحسن الخلق، بدا كمجنون يهذي صارخاً، ويكلم خالته بوقاحة بالغة .أما أنا فلم يرتوِ غليلي بعد، لذا نهضت وأنا أوجه اللعنات والسباب للفاشيين صارخاً، واتجهت نحو غرفة دوغان .وقبل أن أدخلها بلحظة قصيرة، استطاع والدي تجاوز صدمته، ونهض ليمسك بي عند الباب تماماً.

-اهدأ يا عدنان —وأمسكني بذراعيه القويتين وشدني نحو الحائط —ما علاقة دوغان بكل ما حصل؟ المسكين كان قلقاً عليك، وأنظر إلى ما تفعله أنت بالمقابل.

ولكن الحنق لم يكن يريد مغادرتي.

-لا تصدقه يا أبي، فأمثال دوغان سيقتلونني، ثم يذرفون الدموع في جنازتي.

كنت أصرخ، بل كنت أرجوه صارخاً ليصدقني، ولكنه لم يكن مبالياً بتوسلاتي الصارخة، وبقي محافظاً على رزانته وثقته بنفسه وهو يرمقني بهدوء.

-أنت لا تعرف ما الذي تتحدث عنه، فلا أحد يريد قتلك .اهدأ واذهب لغسل وجهك.

كان والدي يعرفني جيداً، ويدرك تماماً مقدار سلطته عليّ .لذا فقد ترك ذراعي وهو يحدثني .ورغم أنني كنت أرغب بشدة في عدم الرضوخ إلى أوامره واقتحام الغرفة وتمزيق الصورة، ولكنني لم أفعل .وابتعدت بدل ذلك بكل هدوء عن باب غرفة دوغان، متجهاً نحو الحمام .فتحت صنبور المياه، وفي المرآة شاهدت وجه شاب يتمرغ في عذابات العجز عن إثبات الظلم الذي وقع عليه .ولم أستطع تمالك نفسي، فبدأت بالبكاء .كان البكاء مفيداً، كما هو مفيدٌ على الدوام .وحين عدت إلى طاولة العشاء لم أجد الخالة كريمان في مكانها، فقد غادرت بصمت، بعد أن نغّصت عليها وجبتها .لم يحدثني والدي تلك الليلة، ولكنه في الصباح جاء إلي وطلب مني الاعتذار من الخالة كريمان .كان غضبي قد زال، وبدأت أشعر بالذنب قليلاً، لأنني صرخت على المسكينة من دون أن يكون لها علاقة بما جرى .لذا فقد لبيت طلب والدي على الفور، وتظاهرت الخالة كريمان بالعفو عني، ولكنني أعتقد أنّ مشاعرها تغيرت اتجاهي بدءاً من تلك الليلة .وبعد سنتين حين تم اعتقال دوغان، بدا وكأنها تحملني مسؤولية ما حصل لابنها، فزادت الهوة بيننا أكثر .إلا أنها لم تتخلَ عن واجباتها اتجاهنا حين كان أبي على قيد الحياة، ولم تحاول الاصطدام بي بشكل مباشر .ولكن بعد وفاته، لم تعد ترى سبباً لإخفاء مشاعرها.

ولم يقتصر الأمر عليّ، بل حتى أوموت الذي كانت تدعي أنها تحبه كثيراً، بدأت تعامله بلامبالاة، وقد ساءت علاقتنا أكثر حين أخذتُ البليماوث .ورغم

ذلك بقيت أعاملها باحترام كبير، فكنت أزورها بين الفينة والأخرى لأرى إن كانت بحاجة إلى شيء ما .ومثلما لم تطلب مني شيئاً على الإطلاق، فقد كانت تتقصد في كل مرة إقحام دوغان في الحديث بغاية استفزازي، والتأكيد مراراً وتكراراً بأنه ابن بار، وشخص صالح، وأن حظوظ الصالحين في الحياة قليلة .ولكنني لم أكن أبالي بكلماتها، بل أشفق عليها، فقد تزوجت مرتين وترملت في كلتيهما، أما ابنها فقد كان غارقاً في مصائبه .ورغم أنها لم تكن تتلقى منه أي مكالمة ولم تكن تصلها أخباره منذ فترة طويلة —وكان هذا واقع الحال حتى حين كان أبي على قيد الحياة —لكنها بعد وفاة والدي، وركونها للعزلة، بدأ تعلقها يزداد بابنها .وهذا لا يعني أنها لم تكن تفكر فيه قبل ذلك، فكثيراً ما كانت تبكي من أجله .ولكنها كانت تملك زوجاً ومنزلاً، وهذه المسؤوليات كانت تشغلها عنه أحياناً .وبعد غياب زوجها، والجفاء الذي ساد علاقتنا، أصبح ابنها الذي لا تعلم إن كان حياً أم ميتاً هو كل ما تملك في الحياة .وكانت معاملتها تزداد سوءاً معي بمرور الوقت، ولا بدّ أن استيلائي على السيارة قد أزعجها بالفعل.

-كيف تأخذ السيارة، ونصف ملكيتها تعود لابني.

رغم أنّ والدي وقبيل وفاته قد أوصاني:

-خذ السيارة يا عدنان، ولا تستقل تلك السيارات التي تفتقر الأصالة، وليست سوى خردة مجمعة .ولكن لديّ رجاء، لا تطالب بحصتك من المنزل حتى وفاة خالتك كريمان، أريدها أن تبقى في المنزل دون خوف.

وقد جرت هذه المحادثة أمامها هي بالذات، لكن تصرفات زوجة أبي قد تغيرت بعد وفاة والدي .وأخذت تردد بإصرار »دعنا نبعْ هذه السيارة .«فقد كانت تفكر بتخصيص ثمنها لإصلاح المنزل الذي كان يتداعى بسرعة مع مرور الوقت. لن نبيع السيارة، ولكنني أستطيع مساعدتك إن شئت، ولكنها لم توافق .وإن شئتم الحق، فلم أكن راغباً في التفريط بهذا الميراث القيّم الذي تركه لي والدي .لكنني لم

أطل النقاش معها، فقد أخذت السيارة وغادرت، ولم تكن المسكينة قادرة على فعل أي شيء .وقد سمعت أنها أخبرت أحد جيراننا القدامى» :لو كان دوغان هنا، لما تجرأ عدنان على فعل ذلك .«وحين سمعت بإصابتها بالسرطان، ذهبت إلى المشفى للاطمئنان عليها، كان وجهها شديد النحول، وقد جحظت عيناها البنيتان، وبدأت ترمقني بحقد بالغ.

»أرجو ألا تهنأ بتلك السيارة، فهي من حق ابني دوغان الذي استوليتم على حقوقه منذ البداية، كنتم على الدوام تحاولون إبعاده عن هذا المنزل، فقد كان يعيش كلاجئ في البيت منذ اليوم الأول لقدومه، وقد أعطيتموه الغرفة التي في الطابق السفلي بالقرب من الحمام.«

ولكن الحقيقة كانت مغايرة تماماً لما تذكره، فهو من اختار تلك الغرفة، ربما لعدم السماح لنا؛ أنا ووالدي بالاقتراب من خصوصيته، حتى أنّ والدي قاله له:

»ستشعر بالخوف هنا يا بني، لماذا لا تمكث مع أخيك عدنان في غرفته في الطابق العلوي.«

»أنا لا أخاف شيئاً «قالها دوغان بنبرة جازمة لينهي هذا الحديث.

ولكنني لم أغضب منها بسبب ما قالته، فقد كانت المسكينة متعبة، وليست بكامل وعيها، بل كانت تفقد عقلها تحت تأثير الجرعات الكيماوية التي تتلقاها .وقد ماتت من دون أن تسترد وعيها بالكامل .ولكن أكثر ما جعلني أشعر بالأسف هو اختفاء الأرشيف الذي جمعه والدي عن السيارات، والذي كان يحتفظ به في صندوق جهاز خالتي المصنوع من خشب الجوز .في الحقيقة كان والدي يحتفظ بهذا الأرشيف الضخم الذي كان يجمعه منذ ما يقارب الأربعين عاماً في المرأب الذي كان يستأجره ليركن فيه سياراته الأمريكية، ولكن بعد تقاعده عن العمل، لم يستطيع دفع إيجار المرأب من راتبه الذي تقلص، وأصبح مضطراً لركن

سيارته —وهي البليماوث التي معي —أمام الباب .وأحضر أرشيفه الضخم والنادر، ليحتفظ به في صندوق زوجته .وحين توفي والدي، وأخذت السيارة دون رضاها، قامت بإخفاء الصندوق بما فيه، وكلما طالبتها به، كانت تجد المبررات اللازمة لتغيير الحديث أو المماطلة .وبعد مرضها لم نتطرق للموضوع مرة أخرى، والأدهى أنني لم أعثر على الصندوق بعد وفاتها. وفيما تمر بي هذه الذكريات، وقع بصري على أرضية الغرفة .ألم يكن هناك جلد ذئب يغطي أرضية الغرفة كسجادة من قبل؟ الفراغ الكبير الذي تركته السجادة كان يؤكد الاحتمال الذي بدأ يراودني بإلحاح، هناك من أخذ هذه السجادة .ولكن من؟

ولكن الأهم من هذا هو سؤال آخر بدأ يبرز من بين الذكريات المشوشة، أكانت السجادة موجودة هنا حين قمنا بإغلاق المنزل؟ حاولت عصر ذهني، ولكن عبثاً .فربما لم ألحظ غياب السجادة بسبب الاضطراب والفوضى اللذين سادا أثناء الجنازة .ربما لو سألت أوموت فسيتذكر، ولكنه أمر محال، فهذا الولد يظل منشغلاً بنفسه عن كل ما حوله، ولكن فوندا ستتذكر بكل تأكيد، فهي مهووسة بالتفاصيل .ولكنني بالتأكيد لا أستطيع الاتصال بها وسؤالها »ألو فوندا هل تذكرين إن كانت السجادة موجودة في غرفة دوغان أثناء إغلاقنا المنزل بعد الجنازة؟ .«يا إلهي فهذه المرأة قد تغلغلت في كل تفاصيل حياتي، ورغم أننا منفصلان، ولكن في كل مرة أكتشف أكثر مدى حاجتي إليها .وفيما أرغب في تأجيل هذا السؤال إلى ما بعد مصالحتي معها، جاءني الجواب من تلقاء نفسه، فقد كان الضوء يغمر الغرفة .والغريب في الأمر أنني عندما دخلت الغرفة لم أقم بإشعال المصباح .ومن المحال أن يكون الضوء المناسب من الردهة هو ما ينير الغرفة بهذا الشكل الكبير. ورغم ذلك كانت الغرفة غارقة في النور، ذلك أنّ الستائر المخملية السميكة التي حرصنا على إغلاقها بإحكام قبل سنة من الآن حين خرجنا من المنزل، كانت قد أزيحت، وبقيت الغلالة الشفافة وحدها تغطي النافذة .ما الذي يعنيه ذلك؟ أليس الجواب واضحاً؟ هناك من دخل المنزل بعد مغادرتنا .وبدأت الأفكار تزدحم في

ذهني، وأنا أقترب من المنفضة الموضوعة على الطاولة .أخذت أحد الأعقاب لأتفحصه .كانت من نوع السجائر نفسها التي ندخنها أنا ودوغان.

»دوغان «دمدمت .فما من أحد يملك مفتاح البيت سواه، ولا بد أنه من أخذ جلد الذئب معه .ولكن متى جاء إلى المنزل؟ بعد احتراق السيارة؟ أم قبل ذلك؟ فلو حدث الأمر بعد احتراق السيارة، فهذا يعني أنه ما زال حياً .ولكن من الصعب التحقق من ذلك من أعقاب السجائر هذه، على الأقل كان هذا صعباً بالنسبة إليّ .ربما عليّ الاتصال بيلفاج وإطلاعه على أمر هذه الأعقاب .ولكنني أبعدت هذه الفكرة بالسرعة التي خطرت بها، ومن الأفضل التأني قليلاً، فلو كان دوغان من دخل المنزل، لماذا لم يأخذ كتبه مع السجادة؟ واتجهت نظراتي نحو الكتب مجدداً، وأنا أدمدم »ولِمَ سيأخذها؟ .«فهو لم يعد مهتماً بهذه الكتب .فهذه الأسطر التي كانت كفيلة من قبل بالتسبب في جرائم قتل، فقدت سلطتها القديمة، ولم تعد تثيره، وتوجهه .وربما كان ينظر بحزن مماثل لحزني، إلى هذه الكتب التي كان يتشرب كل سطر من سطورها، ويعتبر كل فكرة من أفكارها قانوناً مقدساً .وربما ما زال يؤمن بما جاء فيها، ولكنه لم يجد الفرصة المناسبة لأخذها .جالت نظراتي في الغرفة باهتمام شديد، فلم أجد تغييرات تذكر، سوى السجادة المختفية، والستائر المزاحة، والأعقاب التي ترقد في المنفضة .وعلى أمل العثور على أثر آخر في بقية أرجاء المنزل خرجت من الغرفة واتجهت نحو الأعلى.

كانت غرفتي في الطابق الثاني قبالة الدرج تماماً، وحين تزوجت أخذت جميع كتبي وأسطواناتي الموسيقية، والكاميرا، والآلة الكاتبة وجميع مقتنياتي الشخصية .وأصبحت الخالة كريمان تضع فيها الأشياء القديمة .كانت تفصل غرفتي عن غرفتهما ردهة طويلة لها شرفة تطل على الشارع .اجتزت الردهة وتوجهت نحو غرفة نومهما، وبدل إزاحة الستائر أشعلت الضوء.

لا أعلم لماذا لم أقم بإزاحة الستائر، ربما لاعتقادي أنّ ضوء النهار

سيكشف اختراقي لحرمة هذه الغرفة ومن كان يسكنها .وربما بسبب الاحترام الذي ما زلت أكنّه للخالة كريمان.

وأظنني بعد وفاتها لم أعد إلى هذا المنزل، بسبب ذلك الاحترام الغامض الذي أكنّه لها .ذلك لأنني أعتقد أن ملكية البيوت تعود دوماً إلى النساء، وكان هذا سبب مغادرتي للمنزل بعد طلاقي من فوندا .وهذا أمر لا يتعلق بالوقت الطويل الذي تقضيه المرأة في البيت فقط، بل بالعلاقة التي تربطها مع الأشخاص والأشياء الموجودة داخل هذا المنزل، وحين أتحدث عن العلاقة فلا أعني بالضرورة عمليات التنظيف والترتيب التي تقوم بها، بل عن العلاقة العاطفية التي تبدعها المرأة مع أحد أفراد المنزل، أو مع وردة أو حتى مع ملاءة السرير .ودون هذه العلاقة من المحال أن يتحول المنزل إلى مسكن أسري قابل للحياة .وأظن أنّ معظم الرجال لا يملكون ميزة خلق هذه العلاقة .والقلة التي تستطيع فعل ذلك، لا يمكن أن تقارن خبرتها مع الخبرة التي تمتلكها المرأة في هذا المجال والتي تعود إلى ممارسة تمتد لآلاف السنين .لن أستطيع التحدث عن أمي في هذا المجال لأنني لا أذكرها، ولكنني لم أكن أستطيع تصور هذا المنزل من دون الخالة كريمان، رغم أنّ أبي عاش فيه لفترة أطول منها بكثير .ففي كل زاوية تركت أثرها أو عطرها على الأشياء والأثاث .وحين دخلت غرفة النوم، قابلتني النظافة ذاتها والترتيب المعهود .وحين ذهابها إلى المشفى، ورغم الاحتمال الوارد بعدم عودتها إلى هذا المنزل مرة أخرى، فقد قامت بترتيب غرفة نومها، والمنزل كله قبل أن تغادر .وبعد انتهاء الجنازة عدت إلى المنزل فقط من أجل البحث عن أرشيف والدي الذي كنت أظنها قد خبأته، ولكن فوندا سألتني» :ألن تبحث بين أغراض السيدة كريمان؟ «ما كان يعني اقتحام عالمها الخاص، والذي بدا لي حينها تصرفاً مستهتراً، واستغلالاً لغيابها الذي سببه الموت، من أجل التطفل على حرمة أكثر أماكنها خصوصية في المنزل .وتذرعت بأنه أمر يجب أن يفعله دوغان وليس أنا، وحاولت الهرب بأقصى سرعة من هذا المنزل الذي يفيض كل ركن فيه بذكراها .وأذكر أن تصرفي هذا لم يرق كثيراً لفوندا، التي لم تعلق على الأمر بعد أن

رأت الحزن الذي كنت فيه .لذا قمنا بإغلاق الستائر والخروج من المنزل .وبعد مرور سنة على وفاتها، ورغم أنني ما زلت أحمل المشاعر ذاتها اتجاه هذه الغرفة، إلا أن إمكانية الحصول على معلومات حول دوغان كانت كفيلة لتشجعني على البدء بالعملية التي قمت بتأجيلها.

ومن دون أن أعرف ما الذي أبحث عنه بالتحديد، بدأت بفتح درج الطاولة الصغيرة التي على يسار السرير .كان يحوي مجموعة من الملاءات والأغطية المطوية، وفيما أنا أقلبها بدأت رائحة الخزامى تفوح في الأرجاء .فقد كانت هذه الرائحة تفوح من كل ما تقوم بغسله .وكما ذكرت من قبل، صحيح أنها ماتت، ولكن يبدو أنّ روحها لا تزال تتجول في أرجاء المنزل .لم يكن هناك ما يثير اهتمامي في هذا الدرج، فتحت الدرج الذي تحته، كان يحوي على ثيابها الشتوية، وثوب نوم، وزوجان من الجوارب الشتوية السميكة، وملاءة سرير يدوية الصنع، ولم يكن الدرج الثالث يحوي ما هو مغاير، طقم من ملاءات السرير الذي لم يُفتح، وستارة شفافة ومطرزة بالية .حين تحسست الستارة أحسست أنها منتفخة قليلاً. فسحبت الدرج حتى نهايته لأتفحصه جيداً .ولم أكن مخطئاً فقد كان هناك صندوق مجوهرات صغير بين طيات الستارة .فتحت العلبة، فكانت تحوي على إسوارتي ذهب مبرومتين، وخاتم زواج أظنه لوالدي، وخمس ليرات ذهبية .يبدو أن المسكينة كانت تخفي كنزها الصغير هنا.

أعدت الصندوق إلى مكانه السابق وأغلقت الدرج .وبعدها توجهت نحو الخزانة الخشبية المصنوعة من خشب الجوز .فتحت بابيها، ولكن رائحة النفتالين هنا كانت طاغية على رائحة الخزامى .وما لفت انتباهي فيها، هو الصندوق الخشبي الموجود أسفل الخزانة .كنت أذكر هذا الصندوق جيداً، فهو ذكرى عن رحلة والدي الوحيدة إلى الخارج، فقد ذهب في العام ألف وتسعمئة وستة وسبعين إلى ألمانيا، وأحضر معه هذا الصندوق الذي كان مليئاً فيما قبل بالسيجار الكوبي .وكان يدّعي أن السيجارين اللذين يدخن أحدهما بعد الغداء، والآخر بعد العشاء كانا

سيساعدانه على ترك السجائر العادية .وهذا ما لم يحدث بالطبع، فبعد انتهاء السيجار الكوبي، عاد إلى التدخين من جديد .ولكن الصندوق بقي معنا، نحفظ فيه أوراقنا المهمة.

حملت الصندوق ووضعته على السرير الذي جلست على حافته، وأول ما طالعني كان ورقة الطابو القديمة التي اهترأت من القدم .كانت ورقة ملكية المنزل. وخوفاً من تمزقها أكثر، وضعتها بعناية إلى جانبي .في الأسفل كانت هناك صورة قديمة، كنت أنا ووالدي والخالة كريمان ودوغان في هذه الصورة، جالسين في الحديقة الخلفية للمنزل، وعلى الطاولة أمامنا صحن كبير مليء بقطع البطيخ. بدأت بتذكر الزمن الذي التقطت فيه الصورة، كان ظهيرة يوم الأحد في بدايات ربيع ما، وفي اليوم الذي يليه كنا سنذهب إلى المدرسة، لذا كنا نستمتع بيوم عطلتنا في الحديقة بأكل البطيخ .ولكنني لا أذكر من الذي التقط لنا هذه الصورة .كانت الخالة كريمان تبدو سعيدة جداً، والفرح الذي في عينيها كان يتجلى بوضوح حتى في هذه الصورة الصغيرة .كانت جميلة جداً في شبابها، وربما هذا ما شدّ والدي إليها وجعله يتزوجها .لم يخطر لي من قبل التفكير في شكل والدتي، أكانت جميلة أم بشعة، أم امرأة عادية .فمن الواضح أنني لا أُعتبر رجلاً وسيماً، كما لم يكن أبي بطبيعة الحال، وقد شاهدت بضع صور لوالدتي من قبل، ولكنها لم تكن واضحة، وتم تحميضها بصورة سيئة جعلت ملامحها تبدو غائمة .ربما لهذا السبب لم أتمكن من تجسيد شكلها في مخيلتي، وظلت بالنسبة إليّ امرأة بلا رائحة أو صوت أو ملامح.

تحت الصورة كانت هناك ورقة أخرى مقلوبة، أخرجتها لأكتشف أنها كانت بطاقة طلابية، وعلى طرفها الأيسر ألصقت صورة لأخي بنظراته الحادة وملامحه الشرسة التي توحي بأنه على وشك الدخول في عراك في أي لحظة، وكانت تعود للسنة الأخيرة في الثانوية .لم يرسب دوغان مطلقاً، وهذا كان أحد الجوانب التي تسبب لي الحيرة في شخصيته، فقد كان على الدوام في عداد الطلبة المتفوقين.

لست متأكداً ولكنني أظنه انضم إلى حركة القوميين في السنة الأولى من المرحلة الثانوية .وقد اكتشفنا في السنة التي تلتها أنه قومي متشدد، ورغم الأوضاع في تلك الأيام، لم تكن هناك أي علامات ضعيفة في شهادته المدرسية .وأعزو الفضل الأكبر في ذلك إلى الأساتذة الذين كان ينضوون بمعظمهم تحت لواء القومية المتشدد، وكانوا حريصين على مساندة الطلبة الذي يشاركونهم الانتماء ذاته .ولكن الأستاذ زكي الذي سأتعرف إليه فيما بعد، أثناء عملي في الجريدة، حيث كان مسؤولاً عن الزاوية التعليمية والتربوية في الجريدة، أكّد لي أنّ دوغان كان يحصل على الدوام على علامات مرتفعة في مادة الرياضيات .أجل فقد كان دماغه يعمل بشكل جيد، ولأنّ الأستاذ كان يدرك مدى ذكائه، كان يأسف بشدة لانضمامه إلى الحركة القومية.

» –حتى لو لم يدرس في المنزل، كانت متابعته للدرس كفيلة لفهم مضمونه «هذا ما كان يردده الأستاذ زكي على الدوام، ثم يهز رأسه بحيرة وكأنه أمام معضلة رياضية لا حل لها !كيف لشاب بمثل هذا الذكاء أن يصدق ترهات الشوفينيين عن التفوق العرقي؟

وقد أبدى الناس الذين أعرفهم إجابات مختلفة عن هذا السؤال، فأبي كان يعزو الأمر إلى »الأصدقاء«، ويردد» :الأصدقاء هم من يقودونك نحو الخير أو الشر، والذي دفع دوغان باتجاه هذا الطريق هم أصدقاء السوء.«

أما توفان، فقد كان يرى الأمر من منظور آخر، فبحسب رأيه لقد خُلق دوغان من أجل أن يكون قومياً، وبالعودة إلى ظروف نشأته، وكيف تربى في عائلة ليست عائلته الحقيقية، فإن هذا النوع من المنظمات كان الوسط المثالي ليثبت فيه شجاعته وذكاءه ومهاراته .ولأنه في تلك السنوات كان لا يزال شاباً يافعاً لا يملك خبرة واسعة، فإنّ اختياره لم يكن ينطوي على وعي كافٍ .ومثل كثير من القوميين من زملائه الذين كانوا يحاربون الاشتراكية بحقد بالغ، لم تكن لديهم أدنى معلومات

حقيقية عنها .فأولئك الشباب الذين كانوا مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل تلك الأفكار، والآمال العريضة، وإثبات شخصياتهم، وإن أضفنا إلى كل ذلك النظرة الرومانسية حول إمكانية تغيير العالم، سيكتمل في ذهننا السيناريو الذي وضعه الآخرون وتقمص فيه هؤلاء الشباب دور البطولة حدّ إراقة الدماء والتضحية بأنفسهم أيضاً .أجواء هذه المغامرة هي ما شدّت دوغان إليها .وفيما كان توفان ينتقي كلماته بعناية وهو يعرض عليّ أفكاره، لم أكن أستطيع منع نفسي من التفكير في تناقض ما آل إليه، فأي مبادئ تلك التي تدفع أحدهم لقتل آخرين من أجل المال؟

أما صديقي إرول والذي يملك خبرة واسعة في السياسة، فقد كان يظن أن ما دفع دوغان وأمثاله للانخراط في تلك الأحداث يعود لسببين :الأول هو أولئك الأشخاص الذين يهللون وينشرون دعايات عن مدى إيمانهم بمبادئ الديمقراطية، من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، والذين كانوا في تلك السنوات على وشك خسارة ميزاتهم، بسبب المدّ اليساري الذي اجتاح العالم، لذا قاموا باستغلال علاقاتهم في الدولة، واستغلال القوميين والمتطرفين، من خلال دعمهم المعلن أحياناً، والمخفي أحياناً أخرى .أما السبب الثاني فهو الحرب الباردة التي نشأت بين الدول العظمى، والتي قام فيها كل معسكر بإنشاء حلف منافس للآخر، وهما حلف الناتو، وحلف وارسو .ولو لم تكن تركيا إحدى الدول الحدودية مع الاتحاد السوفياتي .لما حصل دوغان وبقية المتطرفين القوميين على السلاح والدعم، فأكبر حليف لهم وللمنظمة التي انتموا إليها، كان الموقع الجغرافي للبلاد.

أما الخالة كريمان فكانت تربط تورط ابنها في هذه الأعمال والمنظمات، بغياب الأب في حياته، وكانت هناك فكرة منضوية تحت غطاء الكلمات التي لم تبح بها علناً قط» :لو أحسنتم معاملته، وسمحتم له بالبقاء في هذا المنزل، لما تورّط فيما تورّط فيه.«

وبعيداً عن التحليلات النفسية والاجتماعية والفلسفية والسياسة، فلا أستطيع إنكار أنّ كلماتها هي الأقرب إلى الحقيقة والواقع، فقد لعبنا أنا ووالدي دوراً هاماً في ارتماء دوغان في حضن القوميين .فلو استطعنا التعامل معه بحنو وقبول أكثر، ولم نرسله إلى مدرسة داخلية، فربما كان مستقبله قد تغير على نحو جذري. ولكنني في تلك السنوات كنت لاأزال شاباً، وكان والدي عاجزاً عن استشراف المستقبل، فلو استطاع التنبؤ بما سيحصل، لما وافق على الأمر.

وضعت بطاقة دوغان جانباً، فلفتت انتباهي ورقة أخرى طويت أربع طيّات .أخرجتها، فبدت وكأنها رسالة وبعد تمهل قصير، بدأت بقراءتها.

خالتي كريمان العزيزة.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

لقد استلمت الجميد6، ومربى الورد، والمخللات والجوارب التي أرسلتها .ما كان يجب أن تتعبي نفسك، فمجرد معرفتي أنك تفكرين بي، تغمرني السعادة. عندما شاهدت هذه الأشياء في يد مختار القرية، تذكرت الأيام التي قضيتها مع دوغان في السجن .وأرجو من الله ألا تعود تلك الأيام مرة أخرى .لقد أوضحتِ لي أنك لم تتلقي حتى الآن أخباراً عن دوغان .لا تسمحي للأفكار السيئة بأن تراودك، فكري بأشياء جيدة حتى تتحقق .فأنا واثق من أنه سيأتي يوم ويعود فيه إليكِ. وأرجو أن يحميه الله .ورغم أنني أسمع شائعات كثيرة تتردد حوله، لكنني لا أصدق أياً منها .فالناس ابتعدوا عن جادة الصواب، وأصبحوا ميالين للكذب والنفاق، وهذا ما دفعني للهرب منهم، وربما كان دوغان أيضاً يهرب .فهو على الدوام كان شخصاً مسلماً يؤمن بالله .لذا كوني راضية بحكم الله، ولا تقلقي .لأنني أعتقد واثقاً بأنك ستلتقين ابنك في أقرب وقت.

أقبل يديك المباركتين باحترام.

رسول الذي يرجو أن تقبلي به ابنك الثاني.

أعتقد جازماً أنني سمعت باسم رسول هذا من قبل، ولكن أين؟ ربما لأنه كان مع دوغان في السجن، وقد أتت الخالة كريمان على ذكره أمامنا .وبما أنها احتفظت بالرسالة، فلا بدّ وأنها توليه أهمية خاصة .ورغم يقيني بأنّ هذه الرسالة لن تجدي نفعاً، فقد احتفظت بها في جيبي .وفي تلك اللحظة رن الهاتف النقال، فوضعته على أذني لأجيب على المكالمة.

-ألو —قالها عارف بصوته الجهوري —ما الذي تفعله يا عزيزي؟

-لا شيء —ولم أخبره بأنني في منزلنا القديم، حتى لا يستخلص من الأمر سيناريوهات خيالية.

-إن لم تكن مشغولاً تعال إليّ، نودّ دعوتك إلى الغداء .نحن في سراي بورنو، في مطعم في قصر السلال، الإطلالة من هنا رائعة، كما تفضلها أنت، وهم يقومون بتقديم كثير من المأكولات التقليدية.

لقد سمعت عن هذا المطعم، الذي لم يكن من المطاعم التي يتردد عليها الصحفيون، كما أنه كان يتكلم بصيغة الجمع.

-ومن أنتم؟ —بنبرة فيها شك وسخرية.

-أنا وصديقي، تمهل ولا تتأفف يا رجل، فهو شخص موثوق .كما أنه يملك معلومات كثيرة حول دوغان، لذا رغبت بأن تسمعه أنت أيضاً.

-لو كنت تنوي العودة إلى موضوع الخبر ذاك.

حاولت الاعتراض.

-لا يا رجل، لا أريد منك شيئاً، ولكنني عندما التقيت بأحد يعرف كثيراً

عن ماضي دوغان القريب، فكرت أنك تود سماع ما سيقوله —وعندما استشعر ترددي أضاف —كما تشاء —وكان من الواضح أنه مستاء —وكأنني أدعوك لارتكاب جريمة، حسناً يا رجل، لا تأتي.

ولكنني لا أدري ما الذي دفعني للقول:

-لا، لا ..فأنا قادم.

-حسناً، نحن بانتظارك.

حين أنهيت المكالمة بدأت أتساءل عن السبب الذي دفعني إلى القبول، ولكنني حتى قبل العثور على جواب، أدركت مدى سخافة هذا السؤال الذي أطرحه على نفسي .فما المانع من ذهابي؟ أحد الأصدقاء قام بدعوتي على الغداء، وأنا قبلت دعوته .كان تبريراً جيداً، لولا ذلك القلق الذي كنت أحسه يتحرك كوحش لامرئي في كهف أعماقي.

الفصل السادس عشر

كان قصر السلال يفصل قصر توب كابي عن البحر، ولو استثنينا سكة القطار والطريق الإسفلتي المار من هناك، سنجد حديقة القصر الخارجية التي تمتد حتى شاطئ البحر .ومثل كثير من قصور اسطنبول التي تتوزع في مناطقها المختلفة، فقد أُعيد ترميم هذا القصير وتم تغييره، ليتحول إلى مطعم.

عند وصولي إلى مرأب المطعم، تقدم مني موظف نحيل القوام، وفتح الباب باحترام بالغ، وطلب مني المفتاح .فبسبب حركة السيارات الكثيفة خروجاً ودخولاً للمرأب، كانوا هم الأجدر باختيار زاوية مناسبة لركن السيارة .ولهذا السبب يبقون المفتاح معهم، رغم أنني كنت أكره هذا الإجراء الذي يتم تطبيقه في كثير من الأماكن، ولكن لم أكن أملك سوى خيار التقيد به .وحين سلمت المفتاح للرجل، طلبت منه أن يحاول الانتباه للسيارة، ويركنها في مكان بعيد عن الحركة المتواصلة حتى لا يصيبها أذى .وعلى خلاف ما توقعت —فقد كان معظم العاملين في هذه الأماكن لا يبالون بملاحظاتي أو يحاولون الرد عليها، ويركنون السيارة في المكان الذي يختارونه —أبدى هذا الرجل اهتماماً بما قلته.

-لا تقلق سيدي، قال أنا أيضاً شغف بهذا النوع من السيارات، فقد كنت أملك سيارة دودج موديل الواحد والخمسين، وقبل إيقاف عمل تلك السيارات بحجة أنها قديمة، كنت أعمل على خط تقسيم —أمينونو.

ولأنني في كثير من الحالات، حين تشتد أزمة المرور، أصادف أناساً تجاوزوا العقد السادس من عمرهم، ترتسم على وجوههم ابتسامة لطيفة حين يشاهدون

البليماوث، وكأنهم يشاهدون ذكرى جميلة عن ماضيهم، بل إن بعضهم لا يتمالكون أنفسهم أمام طلائها الذي يتوهج تحت نور الشمس، ويأتون ليمسدوا عليها بحنان، لم أستغرب كلمات الرجل.

-هذه السيارات تماماً كالنساء يا سيدي، فحين تتوقف عن الاهتمام بها ستثير سخطها.

سررت لأنني صادفت رجلاً يفكر بهذه الطريقة، وشعرت أنني يمكن أن أترك السيارة بين يديه وأنا مطمئن .وفي القصر الذي ظل محافظاً على طابعه التاريخي، لم يكن من الصعب العثور على عارف الذي ما أن دخلت المطعم حتى رأيته جالساً إلى إحدى الطاولات بقرب النافذة التي تطل على البحر، وهو يلوّح بيده لي .ولأن الرجل الآخر كان يدير ظهره، فلم أتمكن من رؤية وجهه، واقتربت من الطاولة مبتسماً حيث نهض عارف لتحيتي.

-هل أنت أفضل من البارحة؟ —قالها باهتمام مبالغ فيه وهو يحتضنني مقبلاً، ودون أن يمنحني الفرصة للرد اتجه نحو الرجل.

-أريد أن أعرفك إلى عدنان؛ أقرب صديق لي —وقد نهض الرجل أيضاً، كان يقاربني في الطول، وقد بدأ شعره الأسود يقل تحت وطأة موجات الصلع التي احتلت مساحات واضحة في فروة رأسه، وخلا نظرة الثقة التي تفيض من عينيه البنيتين، لم يكن في الرجل ما يلفت الانتباه .كان في حوالى الخمسين من عمره، ولكنه كان يبدو منتصب القامة في بدلته الرمادية القاتمة .وقد صافحني بود ظاهر يقارب الرياء، وهو يقول:

-مرحباً، أنا مفيد.

أما أنا فحرصت على ترك مسافة بيننا.

-تشرفت بمعرفتك يا سيد مفيد.

وقد لاحظ عارف أنني أعامله بحرص.

-مفيد أيضاً من خيرة أصدقائي —قالها موضحاً وهو يجلس في مكانه، وقد حاول مفيد تثبيت هذا الانطباع في ذهني، ببقائه واقفاً حتى تأكد من جلوسنا كلينا —وقد كنت أود منذ زمن طويل أن أعرّف أحدكما إلى الآخر، ويبدو أنّ الظروف اختارت هذا اليوم.

الكذب الذي كان ينضح من كلمات عارف، وحركاته التي كانت مُغرقة في التصنع، مثل صديقه مفيد، كان يعزز لي مع كل لحظة تمر، أنني كنت محقاً في القلق من هذا اللقاء .ولكن المحظور قد وقع، وجئت إلى هنا بقدمي .ولكنني لن ألقي باللوم كله على عارف وأتهمه بخداعي، لأنني شعرت بالفضول لسماع ما سيقوله هذا الرجل عن دوغان، لذا قبلت الدعوة .وبدل إلقاء اللوم على عارف، كان عليّ التركيز على ما سيقوله هذا المدعو مفيد.

-الشراب المعتاد؟ سألني عارف.

حين لاحظت النادل الذي يقف على بعد خطوتين منا وينتظر طلباتنا باحترام بالغ.

-أجل —قلتها وأنا أومأ برأسي مؤكداً، فأخذ النادل القنينة ذات العنق الطويل ليصب بعضاً منها في كأسي الصغيرة —ولأن معظم الأماكن التي تقدم الشراب تخلت عن هذه القوارير والكؤوس التراثية، فقد نال هذا المكان على استحساني —فيما اتجهت نظراتي نحو البحر الرمادي الذي يتراقص بخفة في الخارج.

-ما رأيك بالمنظر الذي يطل عليه المكان؟ —قالها عارف دون أن يتكهن بما يدور في أعماقي —إنه رائع أليس كذلك؟

لقد كان محقاً، فرغم أنّ البحر لم يكن باللون الذي كنت أتوقع، ولكن رحابته تشي بالراحة وبرغبة خفية في الهرب والابتعاد، كان يلامس حافة النافذة من الخارج ويمتد يساراً نحو ميناء كادي كوي الذي يحاذي)قصر الفتاة(، وترتصف بالقرب منه سفن مختلفة الحجوم، ويجتاز بلامبالاة الجسر الذي يبدو كقيد ألقي على جسده النحيل، ليصل حتى برج المدرسة العسكرية .وفيما أجول بناظري على هذا المنظر البهي أردف هو:

-كان مفيد يحدثني عن تاريخ هذا المكان، فقبل ثلاثمئة عام —لكنّ الذاكرة لم تسعفه —من الذي بناه؟

-السلطان إبراهيم —قالها مفيد مبتسماً.

-ولِمَ أطلقوا عليه اسم قصر السلال؟ —توجه عارف بالسؤال إليّ.

-وكيف لي أن أعرف؟ —أجبت.

-لأنه قبل بناء القصر، كان صانعو السلال والحُصر يحتلون هذا المكان. ولأن السلطان كان مهتماً بصناعة السلال أطلق عليه هذا الاسم.

كان عارف في مزاج رائق، وبادي الاهتمام، لذا كان من غير اللائق إبداء اللامبالاة بالحديث.

-وما الذي دفعه لبناء هذا القصر؟ —وجدت نفسي مضطراً للسؤال.

لكن مفيد هو من أوضح لي الأمر.

-قبل إنشاء السكة الحديدة، كان مرفأ القصر يقع في هذا المكان، لأن الإبحار من هذه النقطة بعيداً عن الأمواج المتلاطمة عند ساراي بورنو كان أسهل بكثير .كما أنّ السلطان انطلق بأسطوله من هذا القصر واستطاع إلحاق الهزيمة

بالأعداء.

-نخب السلطان —رفع عارف كأسه ليشرب نخباً، ولكن الأحمق نسي اسم السلطان مجدداً.

-السلطان إبراهيم —أعاد مفيد ذكر الاسم على مسامعه، ورفعنا الكؤوس لنشرب نخب ذلك السلطان الذي لم أكن أعلم أي نوع من الرجال كان، ولكنني كنت أعلم أنّ مذاق الشراب رائع .أما المقبلات التي كانت تزين الطاولة، فقد كان منظرها وحده كفيلاً بفتح شهية الروح والجسد، فمن معجون الفليفلة، إلى البابا غنوج، والفول المطبوخ مع الطحينة، وسلطة أعشاب متنوعة مع صلصة الطرطور، ومن بين صحون المقبلات التعسة اخترت صحن الأجبان لأقربه مني، فيما كنت أحدّث صديق عارف المزعوم.

-هل أنت مؤرخ يا سيد مفيد؟

ضحك السيد مفيد جذلاً، لكنني لم أخمّن سبب هذه الضحكة على وجه التحديد؛ أهي بسبب قدرته على إخفاء حقيقة عمله، أم لأنه فهم المغزى الخفي لسؤالي هذا.

-للأسف لست كذلك، فأنا لست سوى مجرد هاوٍ للتاريخ.

-إنك متواضع جداً —وأنا أضع قطعة جبن كبيرة في صحني— فمعلوماتك أعمق من أن تكون مجرد هواية بسيطة، صحيح لم تخبرني ما هو عملك؟

عادت تلك الابتسامة لتغطي وجهه بالكامل.

- لم أطلعك على مهنتي أليس كذلك؟ —وأضاف وهو يهز رأسه —لا داعي لكل هذا يا عدنان —توقف وهو يدقق النظر إلى وجهي —أستطيع مخاطبتك

بعدنان، أليس كذلك؟

-بالطبع ..خذ راحتك.

-أنا أعمل في المخابرات.

كانت صراحته اللامتوقعة هذه، كفيلة بإثارة دهشتي الكبيرة، التي حاولت إخفائها، وسألته بحياد:

-في أي منها؟

ولكن تعمدت أن يبدو صوتي ملغزاً وأنا أسأله ليحدد الجهة التي يعمل لحسابها، فهل كان يعمل في الاستخبارات القومية، أم في فرع آخر للاستخبارات، أم في إحدى منظمات الاستخبارات الأجنبية مثل (CİA)أو الموساد أو سواها.

بدأ عارف يتململ في كرسيه بضيق، وتنهد بصوت مسموع، فقد ظنّ بأنني أحاول افتعال مشكلة، أما مفيد فقد ظل محافظاً على هدوئه.

-إن شئت الحقيقة، فأنا مختص في مكافحة الإرهاب، ولا أريد أن ترى في الأمر مفاخرة، ولكنني خبير جداً في عملي، وهذا ما أهلني للعمل في كثير من الفروع، بما فيها الاستخبارات القومية.

-ألم تعمل مع قوى الشرطة؟

أثارت هذه المحاورة الدبلوماسية في اللعب بالكلمات حنق عارف، ولم يستطع البقاء صامتاً.

-لقد أخبرك —قالها موبخاً —فهو قد عمل مع الجميع.

وقبل أن أتمكن من الرد عليه:

-برأيي أنّ عدنان محق في تساؤلاته —قالها مفيد لينقذني من سماجة التبرير —فكثرة فروع المخابرات لدينا، تثير البلبلة في الأذهان، ولكنني الآن أعمل مع قوى الأمن، ولو طلبت مني الفروع الأخرى المساعدة، فسأفعل ذلك بسرور كبير، فالمهم أن نخدم هذا البلد.

لم أستطع التكهن إن كانت هذه الصراحة التي يتكلم بها الرجل نابعة من صدق حقيقي، أم أنها فقط رأس الجبل الجليدي .فأنا أعرف عملاء المخابرات بما فيه الكفاية، لأخمن بأنهم يتقصّدون رمي معلومة تثير دهشتك كطعم في البداية، وبذلك يستقطبون اهتمام الصحفيين المبتدئين أو من يسعون وراء الأخبار المثيرة، ومن ثم يلقمونهم المعلومات التي يشاؤون ليصيغوا الخبر المنشور وفق ما يريدونه .وفي معظم الأحيان لا يكون هذا الخبر سوى الجزء الظاهر من جبل الجليد، والذي لا يساهم سوى في بلبلة الرأي العام أكثر، فيما تبقى الحقائق المهمة في خزائن الكتمان .فهل كان مفيد الذي يحاول أن يبدو صريحاً معي، يخفي الحقيقة بالأسلوب ذاته؟

بدا عارف وكأنه يخمن ما أفكر فيه.

-تستطيع الوثوق بمفيد —تدخل في الحديث —فقد تعرفت إليه منذ خمس سنوات، حين كان يتم التخطيط للقبض على شبكة تهريب المخدرات في ألتين خليل، حيث كان يخدم في الجنوب الشرقي، ولم يحاول تضليلي، فهو لا يشبه رجال المخابرات الذين تعرفت إليهم من قبل.

وبعد أن مضغت قطعة الجبن التي اقتطعتها بالشوكة، علقت:

-مفيد —توقفت متلفتاً نحو الرجل —أستطيع مناداتك بمفيد أيضاً؟ —سألته.

عاد إلى القهقهة من أعماقه.

–بالطبع –وأضاف –سيسعدني ذلك.

–ومن أخبرك –تابعت من حيث توقفت –بأنني لا أثق بمفيد؟ فأصدقاؤك هم أصدقائي أيضاً، كما أنني لا أعتقد بوجود ما يوحي بالثقة أو يشجبها.

بدا واضحاً أنّ عارف كان يتجهز لجولة توبيخ جديدة، حين لاحظ أنني أتصنّع الجهل بسبب لامبالاتي إزاء الأمر .ولكن مفيد استطاع إنقاذي بتدخله.

–أستميحك عذراً، ولكن أليس موت أخيك أو اختفائه أمراً مهماً بالنسبة إليك؟

ولم يظهر على وجهه الانفعال أو الغضب وهو يسألني.

–بداية أريد أن أوضح لك أنّ دوغان ليس أخي الحقيقي، بل هو أخ غير شقيق –أوضحت له –كما أنني لم أره منذ ما يقارب العشرين عاماً، ذلك لأن علاقتنا لم تكن جيدة في يوم من الأيام.

كنت حريصاً على التحلي بالهدوء مثل مفيد .وحين أنهيت كلامي، تناولت رشفة كبيرة من الكأس مستمتعاً بطعم الشراب اللاذع.

–ولكن دوغان لم يكن يبادلك الشعور ذاته –قالها فيما أضع كأسي على الطاولة –ولو كان الأمر كذلك، لما أراد رؤيتك.

كيف عرف هذا اللعين أنني قابلت دوغان؟ لا بد أنه علم عن طريق الشرطة .وبينما أفكر فيما عليّ أن أجيبه، تدخّل عارف الذي بدا مستاءً مني منذ جلوسي.

–ألم تخبرني أنك لم تلتقِه؟ –صرخ بحدة.

-أنا لم أقل لك إنني لم أقابل دوغان، كل ما أخبرتك به أنني لا أريد التورّط في هذا الموضوع.

-إنه لأمر معيب —قالها بنبرة ملامة —فأنا أجاهد كثور حقل من أجل الحصول على معلومة، وأنت تكذب وتخفي عني معلوماتك.

نفيت بضيق.

-أنا لا أخفي عنك أي هراء، لِمَ لا تريد تصديقي؟ كل ما في الأمر أنني لا أهتم بهذا الحدث.

ولكنه رمقني بغضب عارم.

-لو أنك مهتم، وتريد احتكار الخبر لنفسك، لكنت بررت لك الأمر، وقلت إنك حصلت على مادة خارقة ولا تريد تفويت الفرصة على نفسك، ولكنك...

-ما من مادة لعينة خارقة لدي —قطعت عليه الكلام —فلقائي بدوغان كان مجرد صدفة.

حينها بدأ مفيد بالضحك.

-لماذا تضحك؟ —كان صوتي محتدّاً بعض الشيء.

-اعذرني —قالها —ولكن أحداً لن يصدق هذا الكلام.

-لا يهمني كثيراً إن صدقوني أم لم يفعلوا —علّقت —فهذه هي الحقيقة.

تناولت الكأس بيدي المرتعشة، ورشفت جرعة كبيرة من الشراب .وأنا أحاول السيطرة على غضبي أثناء ذلك .ولكن عارف بدا متقصداً إثارة غضبي وحنقي بكل الوسائل.

-ليست هذه هي الحقيقة –قالها وهو ينتقل إلى الجبهة الأخرى –وهذا ما تعلمه أنت، وما نعلمه نحن أيضاً.

إذاً فقد تحول الأمر إلى نحن وأنت؟ فصديقي الذي أعرفه منذ ما لا أذكر من السنين، تحول إلى ضبع يتشمم رائحة الجيفة مع هذا الذي لا أعرف إن كان مكافحاً للإرهاب أم مخبراً، أم أي قذارة أخرى يعمل فيها، ووقف على الفور معه في خندق واحد .لكنني بقيت ساكتاً، حرصاً على ألا أتورط في عراك أو كيل الشتائم لهذا الوصولي، واتجهت نظراتي إلى النافذة، وكأن الحديث الذي يدور لا يعنيني في شيء، ورحت أتسلى بمراقبة سفينة شحن بلغارية راسية في مرفأ كادي كوي، تقوم بنقل الحديد .وأخذت نظراتي تتجول على نوافذ قمرات السفينة الصغيرة وتراودني رغبة عارمة أن أكون في إحداها، والابتعاد عن عارف ودوغان ويالفاج وغونغور ومفيد –إن كان اسمه بالفعل مفيد، ولكن هذا ما يدّعيه عارف الذي أوضح لي أنه يعرفه منذ خمس سنوات –والهروب من التحقيقات والأسئلة والجرائم، والسفر إلى مرافئ بعيدة لا أعرف عنها شيئاً .ولكن دعكم من الهرب في تلك السفينة، فحتى مجرد التفكير في الأمر لم يكن مباحاً لي .فقد استغل مفيد فرصة.

-صدقني أنا أتفهم موقفك –قالها بنبرة ودودة –فأنت لا تريد التورّط في أمر لا يمت إليك بصلة.

تصنّعت ابتسامة وأنا أنظر إلى عارف، وأوضحت له.

-هل فهمت الآن؟ –لقد عبر مفيد عن الأمر بكل بوضوح –هذه هي الحقيقة.

-ولكن –علق مفيد بإلحاح شخص يود إتمام حديثه –ولكنك للأسف قد تورّطت.

-ما الذي تعنيه؟ –سألته بجدية –هل لأنني التقيت أخي مصادفة في

متجر ما، أصبحت متهماً ومتورّطاً؟

-اهدأ قليلاً —وقد اختفت ابتسامته، وحلت نظرة حادة في عينيه بدل نظرته الودودة السابقة —هذا هو الواقع للأسف، فأخوك ليس بشخص عادي، وقد يتم اتهامك بسبب لقائك به، وقد تتورّط في ما لا تُحمد عقباه على الإطلاق.

زايلت صوته تلك النبرة اللطيفة، ولكنها بالمقابل لم تكن تشي بالتهديد، بل بحيادية رجل مهمته أن ينقل إليك أخباراً سيئة.

-ولكنه ..لكنه أمر سخيف.

-ولكن تركيا تفيض بالأشخاص الذين يفقدون حياتهم بسبب سخافات من هذا النوع —قالها وهو يقطع حديثي وأردف —اسمع، فأنا أدرك أنك لا تعرفني بما فيه الكفاية، ولكنني أكثر شخص في هذا البلد يستطيع تقديم المساعدة لك.

بدأ شريط من السباب واللعنات يخترق ذهني، ويُصب على دوغان، الذي لا أعلم إن كان حياً أم لا، وصديقي الذي يجلس قربي بوجه ضبع حانق، وأخذت ألعن نفسي، لأنني قبلت هذه الدعوة .وكأنني لو لم آتِ سيتركني عارف وشأني. وفيما كنت أخرج سيجارة من العلبة، انتهز مفيد الفرصة، ومدّ الولاعة ليشعلها لي على الفور .سحبت نفساً عميقاً من الدخان.

-لماذا تود مساعدتي؟ —سألته —فأنا أتفهم دوافع عارف الذي يريد الاستفادة من الخبر كمادة صحفية، ولكن ما الذي تسعى إليه أنت؟

-أنا فقط أريد القيام بعملي —قالها مفيد وهو يسند ظهره على الكرسي —ورغم أنني متأكد من عدم تورطك في هذه المشاكل، لكنك تخفي عنّا أمراً ما.

سكت وهو ينظر إليّ بإصرار، وقرّب رأسه مني قليلاً، وكأنه يؤكد صحة الاحتمال الذي طرحه وواصل الكلام.

-نحن بحاجة أحدنا إلى الآخر، ربما أنت لا تثق بي، وتظن أنني أنتمي لواحدة من تلك العصابات، ولا ألومك بالطبع إن كنت تُفكّر بهذه الطريقة .فنظراً للظروف التي مرّ بها البلد مؤخراً، أستطيع أن أؤكد لك بكل أسف أن قوى أثبتت فشلها في الامتحان .فبعد حادثة سوسورلوك، حاولت الدولة أن تقوم بعملية تطهير شاملة في أجهزتها .وبدأت بإقالة رجال الشرطة والجيش والمخابرات، وسواهم من المتورّطين في أعمال مخالفة للقانون.

-ولكنها لم تقتلع الجذور بعد، أليس كذلك؟

-للأسف ليس بعد .ولكن الصراع لا يزال مستمراً .والعصابة التي ينتمي إليها دوغان، هي واحدة من التي يتم الآن اقتلاع جذورها .ونحن ما زلنا نتابع مجريات القضية .وهناك احتمال كبير أن تكون بعض الشخصيات التي تعمل في قوى الأمن العام متورّطة في الأمر .ولكننا لا نملك الأدلة الكافية حول حقيقة هوية هؤلاء الأشخاص وطبيعة عملهم ونشاطهم .وفيما كنا نحاول جمع الأدلة، وقعت جريمة قتل بكير وعشيقته، والتي سمعت عنها بالتأكيد، ومن ثم تم العثور على جثة العقيد رفعت .ما يعني أنّ هناك خلخلة تحدث في العصابة، وهذا قد يساعدنا في العثور على الأدلة التي نبحث عنها .لذا قمنا بوضع دوغان تحت مراقبة شديدة.

انتابني فضول شديد.

-وهل تحققت من لقائه بي من خلال مراقبته؟

-أجل —قالها مفيد الذي ارتسم الضيق على وجهه، وكأنه منزعج مما قاموا به.

-وبالطبع فقد قمتم بمراقبتي أيضاً.

بقي للحظات صامتاً، وكأنه لا يدري بماذا يرد، ومن ثم أوضح.

-لم يكن لدينا حل آخر ..في البداية لم نكن نعرف من تكون، ولكننا علمنا ذلك فيما بعد .إن كانوا بالفعل يراقبونني منذ التقائي دوغان، فهم يعلمون بالتأكيد من الذي اقتحم سيارتي ومنزلي.

-تنتابني الشكوك حول دخول أحدهم منزلي وسيارتي ..ولا بدّ أن رجالك قد لاحظوا حدوث ذلك.

عادت الدهشة لتطغى على وجهه.

-لم يصلني تقرير بهذا الشأن ..ربما تكون مخطئاً.

إن كان أحدهم قد قام بالفعل بالتسلّل إلى منزلي وسيارتي، فالرد الذي قدمه لي مفيد يشير إلى احتمال واحد، وهو أنّ من فعل ذلك هم رجاله ولا أحد سواهم .ولكن من المحال معرفة الحقيقة في هذه اللحظة.

-حسناً -حاولت أن أغير الموضوع -المحقّقان اللذان قاما بالتحقيق معي، هل هما أيضاً من رجالك؟

-لا، إنهما من قسم مكافحة الإرهاب، أما أنا فأعمل بشكل مباشر مع قوى الأمن العام .كما أنهما لا يعلمان بأنني أحقق في ملف هذه القضية .ولأننا لا نريد لهما أن يعلما بشأن ضلوعنا في الأمر، لم نقم بإخبارهما .ولكن كل المعلومات التي يقومان بجمعها تصلني بطبيعة الحال، رغم أنني أفضل ألا يتدخّلا في هذه القضية، فهما يعيقاننا عن مواصلة عملنا .فلو لم يتدخّلا في الأمر لكنت أتيت إليك بشكل مباشر، ولكنني حين علمت بضلوعهما في الأمر، ارتأيت أنه من الأفضل أن أتواصل معك عن طريق عارف.

وفيما كان مفيد يواصل الحديث، كنت أفكر في موضوع مراقبتهم لدوغان.

-هناك شيء لا أستطيع فهمه —قلتها وأنا أقطع حديث مفيد —لو كان رجالك يراقبون دوغان حقاً، فكيف سمحوا بقتله؟

ولكنه لم يتردد في تبرير الأمر.

-في البداية أريد أو أوضح لك أمراً، وهو أننا لم نتأكد بعد إن كان الذي قُتل هو دوغان حقاً، هل استطعت أن تتأكد من الجثة أنه هو؟

-لا —قلتها وأنا أنفي بحركة من رأسي —فالجثة كانت محترقة بشدة.

-أعلم .لذا لا نستطيع التأكيد من أنه دوغان ما لم تظهر نتائج تحليل ال-DNA. أما بالنسبة إلى سؤالك، فقد لاحظ دوغان بعد لقائه بك أنه مراقب، وللأسف استطاع التخلص من ملاحقة رجالي له.

كانت الوقائع تثبت صحة كلامه، فقد أخبرني دوغان من خلال الرسائل التي تركها على هاتفي أنه في محنة كبيرة .وربما أعتقد أنّ رجال مفيد هم من يريدون قتله .يا لسوء الحظ، فلو لم يقع فريسة خطأ كهذا، لربما كان الآن على قيد الحياة. وفي تلك اللحظة شغلت ذهني واقعة أخرى .ماذا لو كان رجال مفيد هم من قاموا بقتل دوغان؟ ألم يخبرني بنفسه أنّ بعضاً من رؤساء العصبة الذين كانوا يعملون لحسابهم، بدأوا يتخلصون منهم الواحد تلو الآخر؟ ولماذا لا يكون مفيد أحد هؤلاء الرؤساء؟ لذا عدت أتفحص الرجل الذي يجلس قبالتي ويدّعي أنه من المخابرات. بدا صادقاً، كما أن كلماته كانت تؤكد هذا الانطباع، فلو كان من أمر بقتل دوغان بالفعل، فلماذا يحاول الاستمرار في نبش القضية؟ أليس من المنطقي أن يحاول التغطية على الجريمة؟ نفضت رماد سيجارتي المتطاول وأنا أقول:

-هناك أمر آخر لم أفهمه حتى الآن، أليس من الغريب أن يتمكّن دوغان من تجاوز رجالك الذين يُفترض بهم أن يكونوا خبراء في عملهم؟

وقبل أن يجيب على سؤالي احتسى رشفة من كأسه، وبدا واضحاً من التكشيرة التي علت وجهه أن علاقته بالشرب ليست على خير ما يرام .ظل ممسكاً بالكأس بين يديه فيما بدأ الحديث.

-من الواضح أنك كنت صادقاً حين أخبرتني أنك لا تعرف الكثير عن دوغان، فهو ليس من طراز أولئك القتلة الذين ما إن يحملوا سلاحاً حتى يُحدثوا مذبحة من حولهم .بل هو عنصر تم تدريبه بحرفية عالية على كل المستويات.

سكت وقد ظلت نظراته معلقة على الكأس التي بيده، وكانت نظراتي أيضاً متجهة نحو النقطة ذاتها.

-ستجعل شرابك يدفأ —أوضحت له.

لكنه لم يغيّر وضعيته.

-في الحقيقة أنا أعاني من آلام الحلق منذ بعض الوقت، وقد تقصدت تدفئة الكأس بين يديّ لهذا السبب.

خطر لي أن أقول له ما كان عليك الشرب إذاً، ولكنني لم أفعل، فما علاقتي به إن كان لا يملك ذائقة في الشرب .ما كان عليّ فعله الآن هو البحث عن إجابة للسؤال الذي يشغل ذهني.

-ما الذي تعنيه بقولك عنصر تم تدريبه بحرفية عالية على كل المستويات؟

ظل يرمقني بدقة لبعض الوقت.

-لو قمت بكتابة ما سأقوله الآن، فسأنكره بكل تأكيد، ولكن طالما أننا قررنا التحلي بالصراحة مع بعضنا، فأظن من حقك معرفة الحقيقة كاملة.

كان يتحدث براحة صاحب محل بيع أحذية، يساوم زبوناً على حسم

جيد، إن هو وافق على شراء بضاعته .لذا فقد ارتسمت الابتسامة الساخرة على وجهي هذه المرة.

-لا داعي لتخشى جانبي في هذه النقطة —قلت وأنا أشير إلى عارف بإشارة من رأسي —والشخص الذي عليك أن تخشاه، هذا الذي تلبّسته عفاريت هوس الصحافة منذ بضعة أيام.

ضحك مفيد بحبور.

-هذا ما لن أستطيع الجزم فيه، فمن أهم القواعد التي تعلمتها في مهنتي خلال كل هذه السنوات، أنه يجب عدم الوثوق بالصحفيين مطلقاً.

تصنّع عارف الاستياء، ولكنه كان في الوقت ذاته يغذي الآمال وقد عاوده الحبور مرة أخرى، حين لاحظ الأسئلة التي بدأت بطرحها، وفسرها على أنها بوادر انحلال لامبالاتي، وبدء اهتمامي بالموضوع.

-سامحك الله يا مفيد، أي سوء أصابك منا حتى الآن؟

-إن كنت لم تسئ إليّ حتى الآن، فهذا لا يعني أنك لن تفعل فيما بعد.

ضحكنا ثلاثتنا معاً، ولكن كان من الصعب عليّ أن أحدّد على وجه الدقة إن كنّا نضحك لأنّ ما قاله مفيد مضحك بالفعل، أم بسبب التوتر الذي يخيم علينا —ذلك أنّ أياً منا لم يكشف عن جميع أوراقه ويضعها على الطاولة— فحاولنا التنفيس عنه بواسطة قهقهاتنا.

الفصل السابع عشر

حين لاحظ النادل أننا بدأنا بالقهقهة، اقترب من طاولتنا مجدداً وسألنا »أتودون أن نبدأ بتقديم الوجبة الأساسية؟ «عن نفسي، لم أكن أشعر بالجوع، وقد تناسيته تماماً، حين بدأ مفيد يلوّح بعرض مثير عن تاريخ دوغان السري، ولم يكن عارف، الذي جحظت عيناه لهفة، وبدأ يصيخ السمع لالتقاط أدنى كلمة سيتفوه بها مفيد عن دوغان، أفضل حالاً مني .تمهل مفيد قبل أن يقرر، ولكنه عندما خمّن عدم رغبتنا في تناول شيء، أخبر النادل أن يأتي لاحقاً، وبذلك أبعده عنا.

-دعوا المزاح جانباً، ولكن من المهم أن يبقى كل ما سأخبركما به بيننا نحن الثلاثة —وعادت له جديته حين بدأ بالسرد —لقد كان أخوك يمتلك مهارات عالية في هذا المجال، ولو لم يتورط مع القوميين، لأصبح من أهم رجال المخابرات أو ربما مكافحة الإرهاب .وبطبيعة الحال لم يتأخر هو في إدراك هذه الحقيقة، وحين بدأ يرتقي بقفزات متسارعة في الحركة القومية، بدأت تتكشف أمامه أخطاؤها أيضاً، وأدرك أن منظمته وحدها غير مؤهلة ولا قادرة على الضلوع بمهمة حماية البلد والشعب .ومنذ ذلك الحين بدأ بالتواصل مع الكثير من محبي الوطن والذين لا ينتمون إلى أي جهة سياسية أو تيار فكري.

لم أتمكّن من إدراك ما يرمي إليه مفيد على وجه الدقة.

-أتعني أنه حين كان منضوياً تحت لواء القوميين، بدأ يعمل لحساب تنظيم آخر؟

-تستطيع قول ذلك .فكما تعلمون لم يكن الاتحاد السوفيتي قد انهار حينها، وكان الشيوعيين يعتبرون تركيا الحضن الدافئ لحلف الناتو .وكما تعلمون فقد كان وضع البلد متردياً، فارتفاع الأسعار كان في صعود مستمر، والكثير من الثروات كانت تختفي، ولم يتمكن أي حزب بمفرده من تشكيل الحكومة .وفي كل يوم كانت هناك حوادث إطلاق نار، واضطرابات وموت، وقد أعلنوا منطقة عمرانية في اسطنبول منطقة محررة، وفي أنقرة لم يكن أفراد الشرطة قادرين على دخول جامعة الشرق الأوسط التقنية، وفي إزمير كان العلم الأحمر يعلو فوق كديفة كالى .[7]كانت الحكومة ورجال الشرطة والقضاء في حالة عجز تام، وقد قام مناصرو الشيوعية بتحويل الحزب الشيوعي التركي، إلى أقوى جبهة مناهضة للحكومة لمواجهة الفاشية .فيما قامت منظمة الطريق الثوري، بتشكيل لجان للمقاومة في منطقة البحر الأسود .وأما أكبر الأحزاب المعارضة) CHPحزب الشعب الجمهوري (فقد اخترق صفوفه أنصار اليسار وبدأوا يشكّلون قوة لا يُستهان بها .[8]وبالتالي فقد كان البلد على وشك السقوط في أحضان الشيوعية. وفي هذه المرحلة بالذات اجتمعت فئة من رجال الجيش، ومن البيروقراطيين والمدنيين، ممن أطلقوا على أنفسهم لقب محبي الوطن، وذلك بهدف إخراج البلد من المستنقع الذي يغرق فيه، وإنقاذه من الشيوعية التي تكاد تحكم قبضتها على الدولة وشكّلوا منظمة لتحقيق هذه الغاية .وقد انضوى تحت لوائها كثير من أصحاب الميول القومية، أمثال دوغان وسواه، ولكن هذه المنظمة كانت تختلف عن الخلفية الفكرية والحزبية التي أتى منها القوميون .ربما كانت أهدافهم القريبة متماثلة بعض الشيء، ولكن المنظمة كانت أكثر خبرة وحنكة، كما أنها كانت تستوعب تيارات فكرية أكثر تنوعاً، والأهم أنها لم تكن مبنية على أفكار قومية وعرقية مثلهم.

يبدو أنّ عارف أيضاً لم يدرك عمّا يتحدث عنه مفيد على وجه التحديد حتى سأله:

-حباً بالله يا مفيد توقف عن ترديد كلمة منظمة بين لحظة وأخرى، وقل

لنا ما اسم هذه المنظمة، لنعلم ما الذي تتحدث عنه.

–ليس لها اسم —بدا مفيد منفعلاً —فهي تمثل الشعب والدولة، أو لنقل إنها الوجه الآخر من الدولة الذي يحاول حماية نفسه من التشظّي .فهذه الرغبة هي التي ولّدت المنظمة.

وأخيراً تمكنت من إدراك ما يرمي إليه.

–حسب ما فهمته، فأنت تتحدث عن وحدات مكافحة التمرّد —قلت.

–أو ما يسمى بالمجلس الحربي الخاص – 9علق عارف بدوره.

فارتسم على وجه مفيد ذاك الضيق الذي يشعر به من يعرف بواطن الأمور أمام ثلّة من الجهلة، وهو يوضح:

–قوى مكافحة التمرد، المجلس الحربي الخاص، قوى الأمن، منظمة الاستخبارات القومية، الغلاديو10، والإرغينكون .11أنتم الصحفيون مهووسون بتسمية كل شيء، رغم أنّ الأسماء تعني تأطير المفاهيم ضمن حدود ضيقة .عليكم أن تفكروا بانفتاح أكثر، فالمنظمة تحوي ما ذكرتموه، ولكنها أوسع وأكثر رحابة من كل هذه المنظمات معاً .ودوغان الذي لاحظ هذا الأمر، انضمّ للمنظّمة رغم تحذيرات كثير من رفاقه القوميين.

–أهو ما عثر على المنظمة، أم هي التي سعت إليه؟ —سألته.

تعكر بريق عينيه البنيتين وهو يشيح بنظره عني.

–صدقني أنا أيضاً لا أعرف —وكأنه في هذا الهروب الذي دام لحظات استطاع لملمة جسارته، فعاد ينظر إليّ وهو يكمل —لا فرق، ما يهمنا هو أنّ دوغان كان منضوياً تحت لواء المنظمة .وبهذا فهو لم يكتفِ بالمعارف التي اكتسبها

من الحركة القومية .رغم أنّ من كان يقوم بتدريب الشباب القوميين في تلك المعسكرات، هم من الضباط المتقاعدين الذي ينتمون إلى الحركة القومية، وإلى حركة محبي الوطن، ولكن دوغان تلقى خبرة إضافية في منظمة محبّي الوطن أيضاً.

–وطبقاً لتعليمات المنظمة بدأ دوغان بالانضمام إلى هذه النشاطات – أكملت جملة مفيد.

ألقى الرجل نظرة عليّ، ومن ثمّ على عارف.

–أفهم تماماً ما ترمي إليه، ولكن إن أمعنت التفكير فسيصبح من الصعب الآن، أن تحكم على ما تم القيام به منذ أكثر من عشرين عاماً .فمن السهل تقييم الماضي من زاوية الحاضر –بدا متأثراً، واكتسى صوته بغلالة رقيقة من حزن قديم – ولكن ذلك ليس عدلاً، فلو عدنا إلى ما كان يحدث في تلك الأيام، الاحتلال السوفياتي لأفغانستان، وقيام الثورة في إيران والتي لم يكن من الواضح ما إن كان الملالي أم حزب توده الشيوعي12 هو من سيتولى الحكم .وكان جيراننا جميعاً باستثناء اليونان قد انضووا تحت لواء الشيوعية .وأخذ الطوق الذي يحيط بنا يضيق رويداً رويداً .لقد كان البلد غارقاً في الفساد وفي فوضى مزرية.

أصابتني خيبة أمل، فهذا الدّعي، لم يخبرنا بشيء جديد لا نعرفه .فكل جملة وفكرة من هذه الحكاية التي سمعتها مراراً وتكراراً من العامة، ثم من المختصين والخبراء في كل المجالات، السياسيين، الصحفيين ..قد ترسخت في ذاكرتي حد الغثيان، وبت أستطيع ترديدها غيباً .والأدهى أنه بدا كمن يسخر منا حين أخبرنا بأنه سيطلعنا على معلومات سرية، يجب علينا ألا نخبر أحداً بها.

–اعذرني يا مفيد، ولكن هذه القصة ليست جديدة عليّ –قلت – كما أننا نعلم جيداً ما الذي فعلت منظمتك من محبي الوطن، بحق اليساريين .وكلنا ندرك جيداً كيف تمّ استغلال فوضى تلك الأيام من أجل تبرير استخدام العنف.

أليس لديك معلومات أهم من هذه؟

تكدر وجه مفيد، وبدا للمرة الأولى منذ جلوسي معهم على وشك أن يفقد فيها هدوئه، ورغم ذلك استطاع تمالك نفسه.

-لم أدخل في صلب الموضوع بعد —أوضح لي —ولكن لولا هذه المقدمة لبقيت قصة دوغان غير مكتملة.

ولأن عارف قد اعتبر تعليقي قاسياً بعض الشيء فقد تدخّل:

-دعنا نتركه ليشرح لنا الأمر وفق ما يشاء —عاد ليؤيده —فأنا أيضاً سمعت هذه الحكاية مرات كثيرة، ولكننا لن نموت إن سمعناها مرة أخرى.

-كنت سأنتقل إلى حكاية دوغان —قالها مفيد ليقطع النقاش —فكما أشرت سابقاً، لقد أدرك دوغان أنّ القوميين وحدهم غير قادرين على قيادة هذا الصراع، لذا تعرف إلى المنظمة، ولا داعي لأن ننكر الأمر، فبالإضافة إلى تنفيذ أوامر رئيس الفرقة الحزبية، كان يقوم أيضاً بتنفيذ ما تكلفه به المنظمة من مهمات.

-هل كان خطف طالب من حافلة عامة، من ثم خنقه بواسطة سلك معدني، إحدى المهمات التي كلفته بها المنظمة؟ —عدت لأقطع حديثه بسؤالي.

تمهّل قليلاً قبل أن يجيب عن سؤالي، وأخذ رشفة من كأسه .يا للغرابة، فحتى رجال الاستخبارات المخضرمين أيضاً قد يلجؤون مثلي للكأس في اللحظات الحرجة .توقعت ألا يكشر وجهه هذه المرة حين يشرب، ولكن التكشيرة عادت لتطغى عليه .ومن ثم وضع الكأس المسكينة بنزق على الطاولة، وكأنه يحمّلها سبب الضيق الذي بدا واضحاً عليه.

-أنا لا أؤيد تلك الأفعال — وبدأت فتحتا أنفه تختلجان وهو يواصل — في تلك الفترة كنت أواصل دراستي في الخارج، ولست مسؤولاً عن أي من تلك

الأعمال التي ارتكبت .ولا فرق لديّ بين يساري أو يميني، فكل روح تزهق في هذا البلد تسبب لي الأسى، كما أنني لست إلى جانب طرف ضد الآخر، أنا فقط موظف في هذا الدولة يؤدي واجبه .ومصلحة الدولة تعلو على جميع الانتماءات.

- لم تكن بي نية لاتهامك بشيء —قلت —فقد انتابني الفضول ليس إلا.

وإن شئتم الحق، فقد سرني التوضيح الذي قدمه الرجل.

-لا أعلم تفاصيل الحادثة —قال —وليست لديّ أي معلومة عن الجهة المسؤولة عن عملية الخطف تلك .ولا يمكن لأحد أن يطلعنا على حقيقة الأمر سوى دوغان.

-إن كان حياً —ذكرته.

-بالطبع إن كان حياً —كرّر كلماتي.

لم ترق هذه المبارزة الكلامية بيننا لعارف.

-أياً يكن الأمر —اتجه نحو مفيد، وكأنه مهتم حقاً بمعرفة ما حصل — وما الذي حصل بعدها؟

لم يتردد مفيد في الإجابة.

-سقطت الحكومة التي يتزعّمها القوميون، ومع استلام الحزب الاجتماعي الديمقراطي رئاسة الحكومة، أصبح اتجاه الرياح معاكساً .ومثل كثير من القوميين تم إلقاء القبض على دوغان، ولكنه كان شخصاً ذكياً، ولم يكن ينوي البقاء في السجن لسنوات طويلة، وهذا ما حصل .فبعد ثلاثة أشهر تمكن من الهرب.

-هرب، أم تمّ إخلاء سبيله بسبب خطأ في الحكم؟ —سألته.

وحين لاحظ مفيد الجدية التي ارتسمت على وجهي، بلع ريقه، وبدأ يوضح لي ما حصل.

-أغلب الظن أنّ من ساعده على الهرب من السجن هم القوميون.

وسكت للحظات وهو يرمقني، وكأنه يتوقع مني تعليقاً على كلماته، وحين لاحظ بقائي صامتاً، واصل الحديث.

-ظلّ دوغان حتى قبل الانقلاب العسكري13، يواصل التحرك في الخفاء بواسطة هويات مزورة .وقد سمع بخبر الانقلاب الذي بثته الإذاعة حين كان في المنزل .في البداية راقه الأمر، فقد ظن أنهم سيعاودون استلام السلطة، وبذلك ستسقط القضية المتهم بها، وسيتمكن من التجول أينما يشاء دون قلق أو خوف. ولكن الأخبار الواردة فيما بعد، سببت البلبلة له، كما لكل رفاقه القوميين .فقد كان المجلس العسكري يبحث عن ألب أرسلان توركيش، وكانت البيانات الإذاعية والتلفزيونية تتوالى الواحد تلو الآخر، وهي تطالبه بتسليم نفسه .وأخيراً استسلم توركيش .وقد كان هذا الخبر كفيلاً ليدفع دوغان للسفر خارج البلد بأسرع وقت ممكن .كان جواز سفره، والنقود اللازمة من أجل سفره جاهزة .وبذهن مشوش وكبرياء أصابته نتائج الانقلاب في الصميم، بعد أسبوعين هبط في مطار فيينا، وبقي في النمسا بعض الوقت حتى إتمام إجراءات الفيزا، ومن هناك سافر إلى سويسرا .ولم يبقَ هناك فترة طويلة، حيث كان كل ما فيها غريباً عليه، ابتداءً بالموسيقى والعمارة والطعام، وليس انتهاء بالمناخ .وقد كان مثل كثير من القوميين الذين تربطهم به عرى الصداقة، يقيم في مدينة أولتين، ولكنه كان تعيساً، والأهم أنه كان يائساً. وكما كثير من مواطنيه لم يتمكن من فهم ما حصل، وكان يعاني صعوبة في تفسير التطورات التي أعقبت الانقلاب .ولكنه تمكن أخيراً من فهم ما حصل .فقد قام المجلس العسكري الذي يرغب في كسب تأييد الشعب ودعمه، بالتضحية بهم ليثبت حياده، وأنه لا يعارض اليسار فقط، بل يعارض اليمين أيضاً .لقد تم حرق

الأخضر واليابس على مذبح القرابين.

كانت أياماً عصيبة، شهدت كثيراً من المناقشات المحتدّة بين الذئاب الغبر في أوروبا. وكان دوغان في تلك الأثناء يتردد على ألمانيا بكثرة، ويشارك في المناقشات التي يعقدها رفاقه الأصوليون، ويملي عليهم ما يجب فعله للمرحلة القادمة، وهذا ما لم يرق لبقية القوميين في أوروبا .وحين أخذت الأخبار تصلهم عن علاقة دوغان المحتملة مع جهاز المخابرات قبل أن يسافر، بدأوا بالتهرب منه .ما أدى لدخوله في شجارين استخدمت فيهما السكاكين والمسدسات، وأوقعت إصابات، دفعت ببقية القوميين لتقديم شكوى بحقه أمام الشرطة الألمانية .وقد تمّ إلقاء القبض عليه، لكنه لم يمكث طويلاً في السجن، والمرجح أنه وبعد الحادثة شعر بأنه وحيد وحدة مطلقة في هذا العالم .وربما لم يجد أمامه سبيلاً آخر، حين تورط مع بقية رفاقه الفارين من تركيا في تشكيل عصابة تقوم بعمليات الاعتداء والخطف للمطالبة بفدية، وتجارة المخدرات وسواها من الأعمال المخالفة للقانون.

وفيما مفيد يواصل سرد التفاصيل، ارتسمت في ذهني صورة دوغان حين رأيته آخر مرة، كان وجهه مهزوماً، وقد فقد حيويته، وبدا مجرد رجلٍ متعب في منتصف العمر .فذلك الشاب الذي كانت نظراته تطلق الشرر وتفيض بالتحدي، حين يحتدم النقاش بيننا في أيام الشباب، وكان يرفع قبضته في وجهي وهو يردد هذا البيت:

»نحن أتراك من حدود جبال الله، ومسلمون حتى حدود غار حراء.«

لم يكن يشبه بحال دوغان السجين الذي يحدثني عنه مفيد.

-ومن أجل تجارة المخدرات فقد اختار هولندا، وكان يواصل التنقل بينها وبين ألمانيا .لكنه وبعد فترة اصطدم في هولندا ببعض الكورد الذين كانوا يسيطرون على تجارة المخدرات هناك .وقد انتقل مع أفراد عصابته إلى هولندا وخاض لمدة

أسبوع كامل اشتباكات مع منافسيه، وحين وقفت الشرطة الهولندية إلى جانب الكورد، عاد دوغان للدخول إلى السجن مرة ثالثة بتهمة طعن أحدهم بالسكين، وحكم عليه بستة أشهر، وحين انتهت عقوبته طُرد خارج البلد، وعاد مجدداً إلى ألمانيا، ولكن الحظ لم يكن حليفه في هذه المرة أيضاً .ونتيجة لبلاغ مجهول، تم إلقاء القبض عليه في مكان لبيع الهيروين، ورغم عدم تثبيت التهمة عليه، فقد حكم عليه بالسجن لمدة عام، ومن ثم طرده من البلد حال إطلاق سراحه .ولكن مسار حياته قد تغير أثناء تلك الفترة التي قضاها في السجن، وبدل أن يقضي سنة كاملة كما أقرت المحكمة، فقد خرج بعد شهرين، وحال خروجه عاود العمل في تجارة المخدرات .ورغم أنّ الأمر قد يبدو غير قابل للتصديق، لكن الشرطة الألمانية كانت تغض النظر عنه.

توقف مفيد عن مواصلة الحديث، وأخذ ينظر إلينا وكأنه يتوقع منا أن نقدم إليه تفسيراً لما حصل .ولكي لا يخيب عارف توقعه، طرح أول احتمال خطر له.

-أتعني أنه أصبح شريكاً للشرطة الألمانية؟

-بل المخابرات الألمانية —صحح له يا مفيد —فألمانيا كانت تدرك كبقية الدول أنها لن تستطيع القضاء على تجارة المخدرات بشكل نهائي .لذا اختارت احتواء هؤلاء التجار لمنع توسع تجارتهم بشكل أكبر مما هي عليه، وقد تم احتواء دوغان أيضاً ضمن هذه الاستراتيجية .وتمّ الاتفاق معه على إبلاغهم بتقارير مفصلة، عما يحصل في هذه السوق السوداء، للحد من انتشار مزيد من التجار. وقد بدأ دوغان بتقديم خدماته هذه منذ العام ألف وتسعمئة واثنين وثمانين، أي منذ أن بدأت سلسلة العمليات التي قامت بها تركيا ضد الإرهاب الأرمني خارج البلاد، واستمر فيها بنجاح.

في تلك الأثناء، بدأت منظمات من ضمنها منظمة 14(ASALA)

بتنفيذ هجمات إرهابية على السفارات والقنصليات التركية في الخارج، وقد تسبّبت هذه الهجمات في إصابة كثير من موظفي السفارات وموت بعضهم .وكانت القشة التي قصمت ظهر البعير، هي الهجوم الذي قاموا بتنفيذه على الملحق العسكري التركي في كندا، وقد قرر المجلس العسكري الرد على ذلك بالأسلوب ذاته، وفق مبدأ السن بالسن، والعين بالعين .وكان يجب التخطيط لهذا الصراع بشكل صحيح، فتركيا التي طالتها تهمة الإرهاب وخاصة بعد الانقلاب العسكري، وأخذت هذه التهمة تتردد في كثير من المحافل الدولية، كانت حريصة على ألا تشرك أحداً من رجال الدولة في هذه العمليات، حتى لا تثبّت التهمة على نفسها أكثر.

ومن ثم تمّ تكليف رجل ذي خبرة واسعة يعمل في الاستخبارات القومية، بتشكيل فرق تضم أشخاصاً مدنيين —من دون أن تعلم كل فرقة شيئاً عن الأخرى —وذلك على مسؤوليته الخاصة .وعليّ الاعتراف بأنني حينها كنت أعمل في الاستخبارات القومية، لذا فقد كنت مطلعاً على الأحداث عن قرب .أياً يكن الأمر، فقد تم اتخاذ القرار بتشكيل إحدى الفرق من القوميين المنتشرين كلاجئين في أوروبا .وقد تم اللقاء مع ممثلي القوميين في فرنسا، وهناك عرضوا عليهم الانضمام إلى هذه العملية .وقد طالب القوميون بالمقابل، بإسقاط الأحكام والدعاوى التي أقيمت ضدهم، وحرية عودتهم وخروجهم من تركيا، وإطلاق سراح زملائهم القابعين في سجون الداخل .لا أعلم الرد الذي قوبلت به مطالبهم، ولكن تمت الموافقة على انضمام مجموعة من القوميين السابقين والمقيمين في الخارج، حيث كان دوغان أيضاً أحدهم، إلى العملية التي أُطلق عليها اسم مرسيليا .ورغم أنّ دوغان كان ذا خبرة واسعة في استخدام السلاح، فقد تقرر أن يقدم الدعم اللوجستي للعملية، وذلك بالاستفادة من علاقاته مع عالم الجريمة الخفي في أوروبا، والتي كانت قوية بسبب عمله في تجارة المخدرات، حيث سيزودهم بالمعلومات اللازمة .وإتباع تكتيكات عدة كنشر المعلومات الكاذبة، وخداع الأشخاص المستهدفين، وأخذهم إلى المواقع التي يشاء للتخلص منهم .ورغم أنها لم تكن وسيلة آمنة، لكنهم كانوا مضطرين

لإتباعها أثناء العمليات في وقت الحاجة، من أجل تمرير صفقات تهريب الأسلحة.

وقد استمرت نشاطات عملية مرسيليا هذه، مع بعض فترات الانقطاع لمدة أربع سنوات .ومن الصعب القول إن العملية كانت ناجحة .فقد تم الحديث عن قيام القوميين المنضويين تحت لواء الفرقة بالقيام بحوالى ثمان وعشرين عملية من ضمنها، تفجير سيارات ومحلات وبعض المواقع ذات المكانة القومية أو الدينية، بالإضافة لقتل أحد الإرهابيين في إحدى هذه العمليات .أظن أنّ بعض هذه العمليات قد نُفذ، لكن من الصعب قول الأمر ذاته عن البقية.

كنا مطلعين على المعلومات التي أدلى بها مفيد والتي نشرت من قبل في الصحف، ولكن كان من الغريب سماعها من شخص يعمل في الاستخبارات. والأكثر غرابة هو سماع الأحداث التي عاشها دوغان بتسلسل، والتي كنت أسمع بها على شكل مقتطفات بين الحين والآخر .ولكن السؤال الذي كان يشغل بالي عاد ليقطع حديث مفيد.

-هل كنت مشتركاً في هذه الأحداث؟

لم يحاول الإنكار، بل أوضح بكل هدوء.

-لا أستطيع إعطاءك معلومات بهذا الخصوص —وابتسم قبل أن يردف —كما أوضحت سابقاً، فأنا لست مخولاً بالتحدث في هذا الشأن.

-ثم أننا لا نتحدث عن مفيد —قالها عارف بجدية، وبدا من الواضح أنه حانق عليّ لأنني أقطع حديث مفيد بأسئلتي بين الفينة والأخرى —وما الذي حصل بعد عملية مارسيليا؟

-بالله عليك تمهل قليلاً، ودعنا ندخن سيجارة ونأخذ قسطاً من الراحة —قال مفيد —يبدو أنّ حماسة الحديث قد أنستنا الوقت.

وقبل أن يتناول كثير من أطباق المقبلات أمامه، مدّ علبة السجائر نحوي.

-أترغب في إشعال واحدة؟

رفضت بحركة من رأسي، فقد أطفأت سيجارتي للتو، ولكن عارف أخذ واحدة وأشعل كل منهما سيجارته، وسحب مفيد نفساً عميقاً بشهية من افتقد الدخان لسنوات ليملأ حجرات رئتيه بالدخان المبارك.

-بعد عملية مرسيليا، بدأت أعمال دوغان بالتدهور —واصل مفيد حديثه من حيث توقف —فقد كانت العمليات التي استهدفت (ASALA) تخضع لمراقبة مكثفة من الاستخبارات الأوروبية، وخاصة الهجوم الدموي الذي تعرضت له في مطار أورلي، والذي ذهب ضحيته بالإضافة لبعض المواطنين الأتراك، فرنسيون وأمريكيون أيضاً .فهي وإن لم تكن تشجع هذه العمليات، فقد كانت تغض الطرف عنها، ولكنها بعد سقوط هؤلاء الضحايا، قامت بوضع القوميين المتورطين في العمليات تحت مراقبة شديدة .وكان دوغان من ضمن الذين تمت مراقبتهم، وكان هذا أحد أهم أسباب قطع علاقته مع الاستخبارات الألمانية، التي تعاون معها سابقاً في موضوع تنظيم تجارة المخدرات .وقبل مرور أكثر من شهرين، تم إلقاء القبض عليه، وظل قابعاً في السجن لمدة أربع سنوات.

-أي أنّ الدولة توقفت عن حمايته —قلت.

-معك حق —قالها بنبرة إذعان كطفل مذنب —فالوعد الذي قطعته الدولة لدوغان وأصدقائه لم ينفذ.

-لماذا؟

كان عارف من سأل هذه المرة.

-بسبب الخلاف الذي نشب حينها بين منظمي العمليات، ومن

يحكمون الدولة —وبدا من الواضح أنه كان منزعجاً مما حصل —ذلك أنّ من قام بعقد الاتفاق مع دوغان ورفاقه لم يكونوا في سدّة الحكم، ومع انتهاء العمليات تناسوا جميع الوعود التي قطعوها لأولئك الرجال .فقد تمّ اختيار منظمي العمليات من خارج الاستخبارات القومية، والذين لم تكن لهم سلطة فعلية على إصدار القرارات .ولهذا السبب تم إعدام ليون إكميكتشيان الذي ألقي القبض عليه بتهمة مسؤوليته عن المذبحة التي وقعت في مطار)إسانبوغا15(، والذي مُنح العفو العام بسبب دور مهم قيل إنه لعبه، في إسقاط منظمة (ASALA)في لبنان .وبالطريقة نفسها التي تمّ فيها التخلص من إكميكتشيان، وتم التخلي أيضاً عن القوميين الذي ساعدوا الدولة .وفي الوقت الذي كانوا يحلمون فيه بإسقاط التهم عنهم، والعودة إلى بلادهم كأبطال قوميين، تعرضوا لخيبة حطمت كل آمالهم.

-وماذا كانت ردة فعل دوغان؟ —كان دوري في السؤال هذه المرة.

-لا أعلم بالضبط، ولكن من المؤكد أنه حقد بشدة على الاستخبارات القومية .وفي العام ألف وتسعمئة وواحد وتسعين، حين عاد مجدداً إلى تركيا، والتقى بعدد من منظمي عملية مرسيليا، لم يجد غضاضة في التعبير صراحة عن مشاعره هذه، وقال لهم »سأنتقم منكم بكل تأكيد.«

-ولكن ألم تطلعوهم على طبيعة الظروف، حين اجتمعت بهم؟

-في الحقيقة، كانت الظروف كلها قد تغيرت بشكل كلي، فأنا كنت قد انتقلت من الاستخبارات القومية، إلى قوى الأمن.

-لماذا تركت الاستخبارات القومية؟ —سألته، وقد أجاب دون أي تردد.

-ذلك لأنهم كانوا بحاجة إليّ في قوى الأمن أكثر من الاستخبارات .فقد كانت هناك حرب دائرة على نطاق صغير في جنوب شرق تركيا، وهكذا توجهت إلى تلك المنطقة مع الطاقم الأمني .كانت منظمة ال PKKالتي لم نولها أهمية

كبيرة في البداية قد بدأت باكتساب مواقع مهمة .وأصبحت أكثر فعالية وأقوى في المدن الكبرى مثل اسطنبول وبورصا وإزمير، وكان رجال الأعمال الكورد لا يخفون دعمهم الصريح للمنظمة .وقد قام الجيش باتباع وسائل متنوعة لمكافحة المنظمة، وتم تشكيل فرق خاصة ضمن قوى الشرطة، ولكنها لم تكن قد حصدت النتائج بعد .وقد اتخذت الدولة التي أصابها الجزع، قرار المواجهة المعلنة مع المنظمة، على مبدأ السن بالسن والعين بالعين .وكان عليها في البداية قطع الطريق أمام من يقدمون لها الدعم اللوجستي في المدن الكبرى، ومحاصرة رجال الأعمال الداعمين لها، ووضع المجلات والدوريات التي تصدرها تحت مراقبة صارمة .ولأن القوانين كانت تكبل يد الدولة، فقد لجأت إلى الالتفاف على القانون، وإتباع طرق غير شرعية .كانت الاستخبارات القومية قد تخلخلت بسبب الصدامات المدنية – العسكرية، وكان كل من الجيش وقوى الأمن قد شكلوا استخبارات خاصة بهما. ولكن عوضاً عن التنسيق بين هذه المنظمات الثلاث، كان هناك جو من التوتر المشحون يسود علاقتها ببعض .كما أنّ الدولة لم تكن تثق بأي من هذه المنظمات الاستخباراتية الثلاثة ثقة مطلقة .وكان الحل الأنسب هو تشكيل منظمة شبه رسمية تعمل بالتنسيق مع وزارة الداخلية، وتتصف بالسرعة والحيوية، والقدرة على تنفيذ كل المهمات .ومن جديد نطرق أبواب عناصر عملية مرسيليا الحانقين، لمنحهم فرصة جديدة للعمل.

-ولكن ما لا أفهمه –قلت –كيف لهؤلاء الرجال الذين تخلت عنهم الدولة لمرتين متتاليتين وخذلتهم، القبول بمعاودة العمل معها مرة أخرى؟

-هذا ما حصل، فقد رفضوا في البداية، ولكنهم حين أدركوا أن وزير الداخلية هو من سيشرف على العملية، وأنّ أبواب البلد أصبحت مفتوحة أمامهم، حتى لو دخلوها ببطاقات شخصية مزورة، بدأوا يظهرون القبول .ولكنني أظن أنّ دوغان وأصدقاءه كانوا حذرين، وقرروا ألا يسمحوا للدولة أن توقع بهم مرة أخرى. ولما كان السلاح معهم، فقد كانوا سيحاربون من أجل مصالحهم.

-وهل قاموا بعقد اجتماع لاتخاذ مثل هذه القرار؟ —سأله عارف.

-لا أستطيع الجزم إن كانوا عقدوا اجتماعاً بالفعل للتحدث في هذا الشأن، ولكنني أجزم بأنّ هذا ما كان يدور في أذهانهم .فبالنظر لما قاموا به بعد عودتهم إلى تركيا، ستتحققون من صحة هذه الفكرة .لقد بدأ الفريق العمل، بقتل رجال الأعمال الكورد، وظهرت قوائم سود مشؤومة تضم مئات الشخصيات .في البداية تم اختيار الأشخاص ذوي المكانة المرموقة، والأكثر شهرة، والذين سيخلق موتهم بلبلة وزعزعة في المجتمع، حيث تم اختطافهم، وتم قتلهم باحترافية عالية، من خلال رصاصة واحدة تخترق رأسهم من الخلف .وقد سبب قتل رجال الأعمال الكورد صدى غير مسبوق .وسيطر الخوف على داعمي منظمة PKK، بينما كانت الحكومة والاستخبارات ممتنين .ولكن تطور الأحداث قد أثبت كم كنا مخطئين.

فقد أدت هذه الهجمات إلى هلع بين صفوف من كانوا متعاطفين مع المنظمة، وبدأ الكل ينكر أي علاقة له مع أفراده، ابتداء من الفنانين، ورجال الأعمال، وزعماء العشائر، وكثير من المواطنين الكورد الذين حين أدركوا أنّ اسمهم مدرج بين القوائم، بدأوا بالاعتماد على الوساطات ودفع مبالغ كبيرة جداً، سعياً لإزالة أسمائهم من تلك القائمة .وهذا ما عاد بأموال طائلة على دوغان وعصبته. حين علمنا بما يجري، حاولنا التدخل لوقف الأمر، ولكن القوميين الذي باتوا مدركين لمدى قوتهم، لم يذعنوا للأوامر.

-أتعني أنهم طلبوا منكم بوضوح عدم التدخل في شؤونهم؟ —سألته.

-لا، لم يفصحوا عن ذلك علناً، ولكنهم أنكروا أنهم يتلقون أموالاً، إلا أننا كنا متأكدين من ذلك.

-ألم تحاولوا التصدي لهم، ومنعهم؟ —كان عارف من يسأل على غير

العادة.

-في تلك الفترة كنا نعيش في حالة حرب، ولو أننا قمنا بالاصطدام مع عملائنا، لكن الـ PKKهو المستفيد الوحيد من ذلك، لذا كنا مضطرين لغض النظر عن تصرفاتهم، بعد أن طلبنا منهم ألا يبالغوا في أخذ الأموال .ولكن الذئاب الغبر التي عاملتها الدولة لسنوات طويلة معاملة زوجة الأب، لم يكتفوا بالقليل قط. فقد مارسوا كل أنواع الفساد التي من الممكن تخيلها؛ كسرقة النفط من الأنابيب وتهريبه، والتورط في صفقات غير قانونية، أخذ أتاوات من الأشخاص الذي يقومون بالتحايل على البنوك، عمليات الخطف والقتل، وكل ما يمكن أن يخطر لكم من قذارات أخرى .وقد وصل بهم الأمر في فترة ما، لتنفيذ هجوم في أذربيجان، ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق هدفهم.

-ولكن وسط كل هذه الجرائم وعمليات الخطف والتهريب، ألم يصادف أن تم إلقاء القبض على أحدهم مصادفة، وبالتالي فضح الجهة التي يعمل لحسابها؟ —سألته.

-بالطبع حصل ذلك في العديد من المرات، ولكنهم كانوا يتمكنون من النجاة، بفضل البطاقات التي منحتهم إياها مديرية الأمن العام، وكانوا يتمكّنون من النجاة، وإن لم يسعفهم هذا الإجراء فقد كان أفراد العصابة يقومون باستغلال علاقاتهم مع الدوائر الأمنية لكي يتدخلوا، وكان يتم الإفراج عنهم، وللأسف فقد زاد نفوذ العصبة وأخذت تتسع بفضل الدعم الذي كانت تتلقاه من قوى الأمن.

-أتعني أن دوغان الذي كان عليه حكم قضائي بسبب اتهامه بجريمة قتل، كان سيتم الإفراج عنه بفضل هذا الدعم، فيما لو أُلقي القبض عليه؟

-لا، فمعظمهم كان يملك بطاقات شخصية مزورة، ولم يكن هناك من يعرف أنه دوغان سوزمن، وأظنه بقي لفترة طويلة يستخدم بطاقة صديقه رضا

أصلان؛ المخبر ضد الـ PKK. لذا فحين كان يتم إلقاء القبض عليهم مصادفة، لم يكن ممكناً الكشف عن شخصيتهم الحقيقية، وكانت سجلاتهم تبدو نظيفة. وحتى لو تم التحقق من أنهم أصحاب سوابق، فقد كان يتم الإفراج عنهم .ولم يبخل الأشخاص الذين قاموا بتشكيل هذه العصابة، بالدعم مطلقاً، وكل ما طالبوهم به في المقابل، هو توخي الحذر بعض الشيء، فقد كان من المهم بالنسبة إلى الحكومة أن تسير الأمور ظاهرياً وفق القانون .لذا طُلب منهم عدم الاتصال بذويهم أو أصدقائهم، والبقاء بعيدين عنهم حتى لا يتم الكشف عن هوياتهم الحقيقية، والابتعاد عن المخاطرة قدر الإمكان .ولكن الغرور الذي أصاب أفراد العصابة دفعهم لعدم التقيد بهذه القرارات .ولا بدّ إنكم مطلعون على صور حفلات الأعراس التي كانت تتصدر الصحف.

-ولكن دوغان أذعن للقرار —قلت —حتى أنه لم يأتِ لحضور جنازة والدته.

لم يستغرب مفيد كلامي هذا.

-كما نوهت منذ البداية، فقد كان دوغان يختلف عن البقية.

-تبدو وكأنك تعرفه عن كثب!

-أجل، أعرفه بشكل جيد، فقد توليت مهمة تدريبه لفترة لا بأس بها. ولا أخفيكم أن قدراته البدنية والعقلية، كانت تثير دهشتي على الدوام .فكل ذلك الطموح والهدوء، والشجاعة، والذكاء من النادر أن تجتمع في شخص واحد .لقد كان ذا قدرات وموهبة خارقة.

شعر عارف أنّ مفيد يبالغ بعض الشيء.

-يبدو أن أخاك هذا كان رجلاً استثنائياً —قالها بين الجد والسخرية.

-يبدو أنك لا تملك أدنى خبرة في هذا المجال —قالها مفيد وهو يوجه كلامه إلى عارف، دون تقريع أو إهانة، وإنما كمن يقول :لا تطلق الأحكام جزافاً —أكبر عدو للشجاعة هو الذكاء، أما الهدوء فعدوه الطموح .الأمر تماماً مثل الماء والنار، يفني أحدهما الآخر .لقد عرفت كثيراً من الرجال الذين يتمتعون بشجاعة خارقة، ولكن يعوزهم الذكاء الكافي .أما الأذكياء منهم فقد كانوا يعتبرون الشجاعة نوعاً من الحماقة .لقد كان هناك كثير من الشجعان حولي، ولكنهم جميعاً يفتقرون للصبر والذكاء الذي يمكنهم من استيعاب ما أعلمهم إياه .أما من كان يتحلى منهم بالصبر، فقد كانوا يميلون للكسل والهدوء الذي يحول دون تحقيق طموحاتهم. ولو صدف واجتمعت هذه الصفات الأربع في شخص واحد، فعلينا حينها أن نوليه اهتماماً حقيقياً، وهذا ما كان عليه دوغان بالضبط.

ولكن يبدو أنّ عارف لم يذعن لتفنيد رأيه.

-ولكنه لقي حتفه في النهاية —قال.

رفع مفيد إحدى حاجبيه.

-لا تكن واثقاً من كلامك إلى هذا الحد —قالها مدمدماً، ولم يكن يعني أنه ما زال من المبكر التحدث عن احتمال مؤكد، فقد كان التعبير الذي ارتسم على وجهه واضحاً، فهو غير مقتنع أنّ من قتل هو دوغان بالفعل.

-أتعني أنّ أخي لا يزال حياً؟ —سألته للتحقّق من انطباعي.

-اسمعني يا عدنان —والتفت بكليته إلي وهو يحدثني —حين نحقق في الجرائم المنسوبة إلى فاعل مجهول، فإننا ندقق في البحث عن إجابة عن سؤالين. الأول هو معرفة كيفية وقوع الجريمة، أما الثاني فهو من المستفيد الأكبر من حدوث الجريمة .وفي حال كان للضحية أعداء، فإننا نحاول البحث عن المكتسبات التي سيجنونها من موته .وبالنسبة إلى دوغان، حين حاولنا البحث عن إجابة عن السؤال

الأول، فقد واجهتنا حقيقة غريبة .فقد تمّ ارتكاب الجريمة بطريقة لا تستعملها العصابة في عملياتها، حيث قاموا بقتل الضحية في البداية، ومن ثم إحراق الجثة. وبالنسبة إلى علم الجريمة فهذه الوسيلة تقود إلى نتيجة مفادها، إخفاء هوية الضحية الحقيقية، وإظهار شخص ما على أنه قد قُتِل دون أن يكون كذلك.

-رباه !ما كل هذا —قالها عارف وقد ارتفع حاجباه وجحظت عيناه دهشة —أتعني أنّ دوغان قام بقتل شخص آخر ليوهمنا أنه قد قُتِل؟

بدا مفيد منزعجاً من طرح الفكرة التي أومأ إليها بهذه الصراحة.

-لا أستطيع التأكيد أنّ هذا ما حدث بالفعل، ولكن نتيجة تحليل الـ DNAستخبرنا بالحقيقة، ورغم ذلك فلا أستبعد قيامه بأمر كهذا .فهذا احتمال وارد الحدوث بالنسبة إلى شخص يمتلك مؤهلات دوغان.

ورغم أنّ هذا الاحتمال قد خطر لي من قبل، لكنني أحسست برغبة في معارضته الآن.

-ولكن هناك احتمالاً آخر، فالقتلة يريدون منا أنّ نفكر بهذا الاتجاه، ونشك في حقيقة موت دوغان، لذا قاموا بإحراق الجثة، أليس هذا الاحتمال معقولاً؟ وكما ذكرت سابقاً، فكل الأشخاص الذين ينتمون إلى عصبته يمتلكون خبرة عالية.

-لحظة، لحظة —تدخل عارف معترضاً —فقد اختلط الحابل بالنابل في ذهني، أتعني أنّ هؤلاء القتلة قاموا بإحراق جثة دوغان عمداً، من أجل خلق البلبلة في أذهاننا؟

-أجل.

-ولكن ما الفائدة التي سيجنونها من هذه البلبلة؟

-تحويل التحقيق بالاتجاه الخاطئ، وذلك من أجل كسب الوقت — أوضح مفيد قبل أن أتمكن من الإجابة —فظهور نتائج التحليل تتطلب على الأقل شهراً، وهي مدة أكثر من كافية لمحو آثارهم أو حتى الهرب خارج البلد —سحب نفساً من سيجارته، ومن ثم اتجه نحوي —لا أنفي هذا الاحتمال بالطبع، ولكن العصابة لم تتبع من قبل هذه الوسيلة في عملياتها.

-ربما لم يلجؤوا إلى هذا الإجراء لأنهم لم يكونوا بحاجة إليه من قبل، ولكن عندما يتعلق الأمر بدوغان..

-وهنا بالذات تكمن أهمية معرفة سبب رغبة العصابة في قتل دوغان والتخلص منه —قالها وهو يقطع كلامي —فلو تمكنا من الإجابة عن هذا السؤال سنكتشف حلّ اللغز.

لقد أخبرني دوغان السبب، ولكنني لم أكن متأكداً إن كان عليّ إطلاعهما على الحقيقة .عدت إلى الخلف قليلاً، واتجهت نظراتي نحو النافذة، حيث أصبح لون البحر أكثر قتامة، وحينها لاحظت قطرات المطر التي تضرب النافذة. لقد كان منظر قطرات المطر التي تلامس البحر من الأشياء التي تثير بهجتي.

-المطر ينهمر —قلت، وقدا بدا صوتي جذلاً، وكأنني أزف لهما بشرى.

رمقني مفيد باستغراب، فيما لجأ عارف إلى كأس، دون أن يبالي بكلامي. يبدو أنّ المطر لم يكن يثير اهتمام أحد سواي .وبعد أن ارتشف عارف من كأسه رشفة صغيرة توجّه إليّ.

– لم تخبرنا ما الذي تحدثت عنه أنت ودوغان في آخر لقاء بينكما.

-لا شيء —أجبت.

كان ذلك أول جواب خطر لي، إزاء سؤال عارف المباغت .وحين

استدرت نحوهما، كانت نظرات مفيد تعبر بوضوح عن عدم تصديقه لي.

-لا أريدك أن تعتبر الأمر تطفلاً من قبلي، ولكنني أظنك ترتكب خطأً كبيراً —قال لي —فلن تتمكن من التنصل من هذه المشكلة بإخفاء ما لديك من معلومات .الطريقة الوحيدة لخروجك سالماً من الأمر، بل ورفد سيرتك المهنية بإنجاز مهم، هو في تعاونك وصراحتك معنا.

وفيما كان يواصل حديثه، كنت أستغرب يقينه الذي لا يرقى إليه الشك، من أنني أخفي عنهم شيئاً يتعلق بدوغان .ربما لم يكتفوا بمراقبتي، بل كانوا يراقبون هواتفي أيضاً .ولو صدق هذا الاحتمال، فلا بدّ وأنهم يعلمون بأن دوغان اتصل بي مرات عدة، واستمعوا إلى رسائله التي تركها لي .ولِمَ لا، ومراقبة الهواتف بالنسبة إليهم مجرد لعبة صغيرة، حتى أنهم في معظم الأحيان لا يجدون ضرورة أخذ موافقة القاضي على أمر المراقبة .إذاً لِمَ لا يصارحني مفيد بالحقيقة، طالما أنه أخبرني بأمر مراقبتهم لي؟ لِمَ لا يسألني صراحة عن نوع المساعدة التي طلبها مني دوغان حين ترك لي كل هذه الرسائل؟ ربما كان يخفي عني هذه المعلومة للتأكد إنْ كنت أقول الحقيقة أو أكذب عليه؟ ولمعرفة إن كانت المعلومات التي أدلي بها تتطابق مع مضمون تلك الرسائل أم لا، وبناء على ذلك كان سيحكم عليّ .كما أنه لم يعترف في البداية بمراقبتهم لي، واضطر لإخباري حين سألته عن الأمر .وبدأت أفكر بإطلاعه على الحقيقة لأنني في جميع الأحوال لن أخسر شيئاً، بل قد أنجو من هذه المعمعة الجنونية وأعود إلى حياتي السابقة الرتيبة .وقبل البدء بالاعتراف احتسيت رشفة من الكأس لأبدأ بعدها.

-حسناً —قلتها مخاطباً مفيد —سأطلعك على ما أخبرني به دوغان، ولكنني أرجو منك في المقابل أن تدعني وشأني .لأني لا أملك ذرة اهتمام بكل هذه المسائل .كما أنني لا أطمح نهائياً أن توصم سيرتي المهنية بأعمال من هذا النوع، وهذا هو السبب الحقيقي لإخفائي ما قاله لي دوغان.

-اتفقنا —قالها مفيد —فلو تحققنا من عدم تورطك في هذه الأحداث، فصدقني لن نقوم بإزعاجك مرة أخرى.

-وبدأت اسرد لهم ما جرى بيننا بالحرف، وكيف أنّ لقائه بي لم يكن مصادفة، بل كان يراقبني منذ مدة، وبأنّ في حوزته وثائق ومعلومات مهمة، سيطلعني عليها في حال وافقت على نشر هذه المعلومات أمام الرأي العام، وبأنني رفضت الفكرة نهائياً، ولم أوافق على مساعدته.

-ألم يخبرك عن مكان هذه الوثائق التي يملكها وعن ماهيتها؟ —سألني مفيد.

- لم يخبرني، ولكنني لو وافقت حينها على عرض المواد التي لديه وتحويلها إلى خبر صحفي كما عرض عليّ، كان سيطلعني على مضمونها.

-ألم يخبرك شيئاً عن مقتل العقيد رفعت؟

فرويت له القصة التي أخبرني بها دوغان عن كيفية موت أصدقائه.

-غريب —علّق مفيد —ألم يطلعك على أي تلميح يشير إلى هوية القتلة؟

- لم يفعل —وأظنه لم يكن يودّ توريطي في المشاكل دون داعٍ لذلك .وفي حال وافقت على عرضه، كان سيخبرني بأسمائهم جميعاً إلا واحداً.

-إلا واحداً؟ —كرر مفيد متسائلاً.

-إنه الرجل الذي كان يتولى العملية برمتها، والذي لم يكن يعرف دوغان عنه شيئاً سوى لقب الضابط.

-الضابط؟ —كرر مفيد وقد اتّسعت عيناه فضولاً.

-أجل الضابط، هكذا كان يلقبونه، وقد يكون أحد رجالات الجيش – أوضحت له مخمِّناً.

ولكن مفيد لم يعلق أو يعترض على الفكرة .فقط ظل يفكر لبرهة وقد قطّب حاجبيه .وعاد ليسألني من جديد، لأنه لم يصل إلى جواب شافٍ على ما يبدو.

-ألم يطلعك على أي معلومة بخصوص هذا الضابط؟ مثل طول قامته أو عمره، لون شعره، هل هو ملتح أو لديه شارب، من أي مدينة ينحدر؟

-لا، فهو لم يلتقِه من قبل.

-ومن يكون هذا الرجل الخفي الغامض؟ –وبعد برهة من التفكير أضاف –على أي حال سنحقق في موت العقيد رفعت ونتأكد مما قاله .وهل اتصل بك دوغان بعد ذلك اللقاء؟

-اتصل .أو أنه حاول الاتصال لكنني لم أكن في البيت حينها .وقد ترك لي بضع رسائل على المجيب الآلي يخبرني فيها، بأنه في ورطة كبيرة، وعلينا أن نلتقي بأسرع وقت ممكن.

-وهل قمت بالاتصال به بعد هذه الرسائل؟

- لم أفعل .ربما لو حصل الأمر قبل ثلاث سنوات، كنت اتصلت، ولكن هذه الحوادث لم تعد تثير اهتمامي الآن .فأنا راضٍ عن حياتي ولا أريد لأي شيء أن يعكّر صفوها.

-فهمت –قالها مفيد –وأشكرك على تعاونك معي، وأرجو أن تتصل بي حال وقوع تطورات جديدة .وأعدك أن أبقيك بعيداً عن القضية.

-العفو —قلت ومن ثم اتجهت نحو صديقي الذي بقي صامتاً طوال مدة اعترافي —هل ارتحت الآن يا صديقي، فقد بحت لكم بكل ما لدي .وأظنك ستتركني وشأني الآن، أليس كذلك؟

ارتسمت على وجهه ابتسامة ماكرة وهو يقول:

-حسناً، سأدعك وشأنك، ولكنني سأنشر كل ما قلته للتو.

بدأت الدماء تغلي في عروقي، وأنا أسمع هذا الأحمق يتحدث.

-ألم تعدوني الآن بأنكم لن تورّطوني في هذا الأمر —اعترضت بحدة.

-على رسلك يا رجل، فلن أوضح بأنك من أطلعني على هذه المعلومات .فالصحفي ليس مضطراً لكشف مصدر الخبر.

-ولو طلب منك أحدهم إثبات ما ستنشره، فأي هراء ستتذرّع به حينها؟

التمعت عيناه ببريق خبيث وهو يرد:

-لا أحد سوى القتلة سيطلب مني أمراً مماثلاً .كما أنني لن أوجه تهمة إلى أحد .فأنا لن أفعل شيئاً سوى التلميح بوجود علاقة بين الجرائم الأربع التي تم ارتكابها.

-وما الذي ستجنيه من نشر خبر كهذا؟ أتعتقد أنك ستحقق سبقاً صحفياً بنشر هذه الترهات؟

نفى بإيماءة من رأسه وكأنه يشفق على سذاجتي.

-الخبر الصحفي لا يندثر يا صديقي، ولا بدّ أنه سيفتح لنا باباً ما إن نقوم بنشره .كما أنّ مفيد يشرف على التحقيق، ولن يتغافل عنا في حال حدوث

تطور ما —سكت وهو ينظر إلى مفيد نظرة لم يخفَ على الأخير معناها، ولكن حكمة سنوات من العمل الاستخباراتي جعلته يفضل الموافقة بإيماءة من رأسه والبقاء صامتاً.

-نحن سنزرع بذورنا في الأرض —واصل عارف بحماس —وسننتظر بصبر حتى تبدأ بالنمو.

-أتمنى لك محصولاً وفيراً، ولكنك لو ذكرت أنك استقيت هذه المعلومات مني، سأنكر الأمر، وستكون في وضع حرج حينها.

وضع يده على كتفي وهو يقول:

-سامحك الله يا صديقي، أيعقل أن أتخلى عنك مقابل خبر.

تخلّصت من يده وأنا أقول:

-هذا ما لا أعلمه، ولكن يجب عليّ تحذيرك.

الفصل الثامن عشر

حين وصلت إلى الساحة التي أركن فيها سيارتي، كان المساء قد أسدل ستاره، وزادت شدة المطر المنهمر، حتى أنني لم أجرؤ على النزول من السيارة وقطع مسافة الخمسين متراً التي تفصلها عن باب البناء .بقيت في السيارة قليلاً، بانتظار أن يتوقف المطر أو تخف شدته .وكان صوت القطرات المرتطمة بسقف سيارتي بحدة صاخبة، يشعرني —ولسبب لا أعلمه —بسكينة لذيذة .ولم يكن سبب هذا الإحساس يعود فقط للوعد الذي قطعه لي مفيد بعدم إزعاجي مرة أخرى .لن أنكر أنّ وعده قد أراحني كثيراً، ولكن الأهم أنني استطعت البوح بما أسره دوغان لي أمام شخص آخر، والتخلص من الثقل الرهيب الذي يورثه سر كهذا في النفس .ولا أدري إن كان الجميع مثلي، ولكن الفضول ينتابني لمعرفة خفايا حياة الآخرين، وفي الوقت ذاته أشعر بالقلق إزاء الأسرار التي أعرفها .أهي خصلة سيئة بالنسبة إلى صحفي؟ لا أظن ذلك، فكل الصحفيين يتصفون بهذا الفضول، والذي تليه مرحلة البحث والتحقق، ولا تنتهي مهمتنا حين معرفة الحقيقة، فمهما تكن معلوماتنا مثيرة ومهمة ومؤثرة، فلا أهمية لها ما لم تتحول إلى خبر صحفي نتقاسمه مع الآخرين. فالحدث يصبح خبراً فقط حين نتقاسمه .ولا يخفى على أحد أنّ كثيراً من الصحفيين يستطيعون ببراعة أسلوبهم تحويل رغوة صابون إلى خبر صحفي يثير الرأي العام بل ويزلزله .وهذا يعني أن رغبتي في التلصّص على أسرار الآخرين، ومن ثم تناقلها كما تفعل النساء عادة، تعود بالفائدة الكبيرة على مهنتي —أو على مهنتي السابقة على ما أعتقد.

ولأنني لم أتمكن —وبكل أسف —بسبب ظروفي، نشر الخبر، لكنني شعرت براحة كبيرة حين أطلعت كلاًّ من عارف ومفيد على ما أخبرني به دوغان. وأكثر ما أسعدني في كل ما جرى، عدم اضطراري إلى الكذب على أحد من الآن فصاعداً .رغم أنّ يالفاج وغونغور قد يسوؤهما الأمر ويسببان لي بعض المشاكل لأنني أخفيت الحقيقة عنهما، ولكنني لم أبالِ بالأمر كثيراً .فمفيد كان أعلى رتبة منهما، ولن يسمح لأحدٍ بإزعاجي .وربما لن يجد مفيد ضرورة في إطلاعهما على ما أخبرته إياه، كما أنني لم أطلعه على شيء ذي بال .فلا أستطيع الجزم إن كان ما أخبرني به دوغان حقيقة أم كذباً، ولن أستبعد تلفيقه لهذا السيناريو لكي ينجو من مغبّة أفعاله .فمفيد يعتبر إحراق الجثة التي في السيارة دليلاً قوياً على أنّ دوغان لم يُقتل، ولا يزال حياً.

أحقاً هناك احتمال أنه لا يزال حياً؟ إذاً فلمن تلك الجثة التي احترقت؟ ولمن ستكون سوى لعاثر حظٍ مسكين. فلا أسهل من الحصول على جثة أحد المعدمين من الذين لا أهل لهم، لقاء دفع مبلغ لأحد حراس المقابر أو العاملين في المشرحة .ولكن لا، فالموضوع ليس بهذه البساطة، ماذا لو ظهر أحد أقرباء صاحب الجثة فجأة وطالب بها؟ أو أنّ الرجل الذي تلقى الرشوة، انتابته صحوة ضمير وأدلى بكل معلوماته لمن يهمه الأمر، حينها ستكون العاقبة وخيمة عليه .كما أنّ تقييد يدي الرجل بمقود السيارة ومن ثم إحراقه ينطوي على مخاطرة كبيرة .فكيف لم يلحظ أحد المارين في الطريق ما يجري؟ كما أنّ الجريمة قد وقعت بداية حلول المساء، أي في ذروة الأزمة المرورية .إنه حقاً أمر معقّد، ولكنني لست مضطراً بعد الآن في إرهاق نفسي بهذه الأسئلة، فليتولَّ مفيد ورجاله هذه المهمة عني .ورغم أنها ليست بالمهمة السهلة، لكنها طبيعة عمله .والله وحده يعلم كم من هذه القضايا قد واجه من قبل، كما أنه يعرف أخي دوغان خيراً مني، ولا أستبعد أنه لم يكتفِ فقط بمهمة تدريبه، بل شارك معه في تلك العمليات التي حدثنا عنها .على كل حال فليذهب كلاهما إلى الجحيم، فلست أبالي بما فعلاه .كما أنني لم أسبب له

الأذى حين اعترفت بما قاله لي، بل على العكس، ففي حال ثبت أن الجثة تعود له، سأكون قد ساعدت السلطة الرسمية في الحصول على معلومات قد تكشف هوية القتلة .رغم أن دوغان لم يكن يرغب في إطلاع السلطات بل إطلاع الرأي العام على ما لديه من معلومات .ولكن ما العمل ووضعي لا يسمح لي بالقيام بأكثر مما قمت به، كما أنني لم أعده بفعل شيء.

ولكن هذا المدعو مفيد !أي نوع من الرجال هو؟ لم أفكر في هذا السؤال من قبل .ماذا لو كان كاذباً، أو يحاول تضليل التحقيق بفكرة عدم موت دوغان؟ ألم نكتشف في حادثة سوسورلوك تورط كثير من رجال الأمن ممن هم في موقع مماثل لمفيد، في القذارة حتى ما فوق رؤوسهم؟ فلِمَ لا يكون مفيد أحد هؤلاء الفاسدين أيضاً؟ إذاً لماذا طلب اللقاء بي؟ الأمر واضح، من أجل التحقّق من المعلومات التي أطلعني عليها دوغان .وقد بحت بكل ما لدي، ولكن هل صدقني يا ترى؟ إنها مشكلته .مشكلته؟ لا أعتقد ذلك، فلو كان غير مقتنعاً بكلأمي، ويظنني أعرف شيئاً عن هوية من كانوا ينوون التخلص من دوغان، فلن يتوانى لحظة عن إلحاقي به .ولكنني في المقابل لا أظن مفيد ينتمي إلى عصابة دوغان ورفاقه .فلو كان كذلك حقاً، لما تجاسر على الجلوس مع اثنين من الصحفيين، والتحدث معهم في موضوع على هذا القدر من الحساسية والخطورة .ألم يعترف لنا بنفسه أنه لا يثق بالصحفيين.

لقد تخبّطت في متاهة الأفكار والاحتمالات الهذيانية بنجاح مكنني أخيراً من تشويش عقلي المتعب .ولكن لا، فلا نية لدي بإرهاق نفسي بهذه الأسئلة التي لا دليل على صحتها، وإقلاق راحتي بما لا علم لي به .ثم ما من سبب يدفعني لعدم الوثوق بمفيد الذي كان صريحاً معي قدر المستطاع .ألم يطلعني على كثير من الأمور التي لم أكن مطلعاً عليها حول دوغان؟ إذاً لِمَ علي أنّ أشك به في هذه الحال؟ كما أنّ عارف هو من عرفني إلى الرجل، صحيح أنني لا أثق به كثيراً، ولكنه أكثر خبرة مني في معرفة الناس، ويدرك جيداً مع من عليه العمل .ولو كان لديه شكوك

حيال مفيد، دعكم من دعوتي للتعرف إليه، لكان هو أيضاً قد رفض أي عرض من قبل الرجل، والتدخل في قضية مع شخص لا يثق به .ومع ذلك كان من المستحسن التأكد إن كان عارف أم مفيد هو صاحب فكرة اللقاء هذه.

وفيما كان ذهني مشغولاً بهذه الأفكار لاحظت فجأة أن صوت القطرات المرتطمة بسقف سيارتي لم تتوقّف .وأن المطر لا يزال ينهمر وإن خفت غزارته قليلاً. وربما كان الوقت المناسب للترجل من السيارة، وإن كنت سأغامر بتعرضي للبلل. اتجهت راكضاً نحو باب البناء، وقد ابتل معطفي المطري، وأخذت قطرات المطر المنهمرة على شعري تنحدر على وجهي أيضاً .وقبل الدخول بدأت أنفض الماء عن جسدي كقطة مبلّلة، وأنا أحاول نفض شعري بيدي .ورغم محاولاتي هذه لم أستطع إزالة الوحل الذي التصق بحذائي، ولا الماء الذي كان يرشح مني، ووسخ أرضية المبنى الذي تحرص زوجة البواب على تنظيفه بحرص بالغ مرتين في الأسبوع. وبدأت أمسح قدمي على السجادة الصغيرة الموضوعة أمام الباب، وأنا ممتن لعدم وجود شهود على القذارة التي خلفتها ورائي .وأخذت أتسلق السلالم بالسرعة الممكنة .كان البناء هادئاً ولا يسمع فيه أيّ صوت سوى الصوت القادم من أحد أجهزة التلفاز .وقد أدركت أنه أحد الأفلام القديمة، من أصوات ممثلي الدوبلاج الذين باتت نبرة صوتهم مألوفة، ومن أسلوب الحوار الذي كان سائداً في تلك الفترة .وعند وصولي إلى الطابق الثاني بدأت الأصوات تعلو أكثر، وبات الحوار أكثر وضوحاً .لا بد وأنها السيدة فيروزان التي تسكن في الطابق الرابع، تشاهد واحداً من تلك الأفلام القديمة التي تبثها إحدى المحطات.

كانت السيدة فيروزان من الاسطنبوليين القدماء، وكانت هي وزوجها المتقاعد حكيم مشتاق، الذي توفي قبل ستة أشهر، يعرفانني جيداً من خلال كتاباتي في الصحف .وأذكر المقالات التي نشرتها قبل سنوات عدة حول المشردين —حين كنت صحفياً لم يفقد إيمانه وأمله وشجاعته بل وطموحه —والتي أثارت اهتمام السيد مشتاق حينها، وكان يتابعها بإعجاب واهتمام .ولهذا السبب فقد

كانا يتعاملان معي بود ظاهر، وكلما التقينا مصادفة كانا يقومان بدعوتي إلى منزلهما، ويطمئنان عليّ باهتمام واضح .وفي تلك المرات التي كنت أقوم فيها بزيارتهما، كان السيد مشتاق —والذي كان فيما مضى أحد الشاربين المخضرمين، ولكن جسده العجوز لم يعد يسمح له سوى بشرب كأس صغيرة —يراقبني بغبطة مع كل رشفة أحتسيها، بل ويغمض عينيه متلذذاً بذكرى المذاق المحرم، كذكرى غانية لعوب تخلّت عنه .ولأنني لم أكن أود تعذيبه أكثر بالذكريات، كنت أنهض بعد الكأس الثالثة، لأكمل جلستي وحيداً في المنزل.

أما السيدة فيروزان، فرغم تجاوزها السبعين، ظلت تحافظ على أناقتها القديمة، وبمساعدة الصبغات ووسائل التجميل لم تكن تسمح للشيب وعوامل الزمن أن تحولها إلى عجوز بالية .وكانت دائماً كزوجها لطيفة وأنيقة .ولا أعلم على وجه التحديد ما هي الطريقة التي مكنتهما من مواصلة علاقتهما الزوجية، والحفاظ على رونقها خمسين عاماً .فقد كان الرجل متيّماً بزوجته حتى في تلك السن .وكان كلما نظر إليها بعينيه العجوزين، يعتريهما بريق لا يخطئه البصر، وتعلو شفتيه الشاحبتين ابتسامة حلوة وهو يتحدث عنها .وقد همس لي مرة أنّ زوجته قد تمّ اختيارها ملكة جمال الشاطئ في أزمنة شبابهما القديمة .ولكن السيدة فيروزان لم تأتِ على ذكر الأمر أمامي مطلقاً.

وحين توفي السيد مشتاق، بدت متماسكة جداً، وهذا ما أشعرني ببعض الدهشة، وجعلني أفكر إن كانت كل تلك النظرات الولهة، والكلمات الرقيقة عنها، مجرد ادعاء وتمثيل .ولكن حين دعتها ابنتها التي تعيش في منطقة كادي كوي لتنتقل للعيش معها، قالت إنها إن ابتعدت عن الذكريات التي تجمعها بالسيد مشتاق —وكانت على الدوام تدعو زوجها بالسيد مشتاق —فإنها سوف تموت. أدركت بأنها كانت متعلقة بزوجها بحب هادئ وعميق لا يمكن حتى للموت فصم عراه .وكان عليّ أن أدرك قوة هذه العلاقة، من خلال البهجة التي تظهر عليهما وهما يسردان عليّ قصة الحب التي جمعتهما، ودفعت المرأة لترك اسطنبول، والتجول

مع زوجها من مدينة إلى أخرى، في منطقة الأناضول بسبب طبيعة مهنته .في الوقت الذي لم يكن من الصعب بالنسبة إلى شابة في مثل جمالها، أن تجد زوجاً يمكن له أن يوفر لها حياة زوجية أكثر استقراراً، بدل ترك مدينتها، والتنقل بين مدن نائية لا تتوافق مع أسلوب حياتها، واضطرارها التأقلم مع ظروف لا تشابه الظروف التي ترعرت فيها بأي شكل .وكان مثل والدي الذي شاركه هذا التنقل، لا يكف عن التنهد بعمق وهو يسرد ذكريات هذه الغربة، وشوقه حينها إلى اسطنبول الذي كان يذيب روحه، حيث أنهما واجها صعوبة جمّة في التأقلم مع شروط الحياة في تلك المدن النائية الصغيرة.

والأسوأ من ذلك أنهما حين عادا مرة أخرى، كانت اسطنبول التي في ذاكرتهما قد تغيرت ملامحها بشكل محزن .صحيح أنّ المضيق بقي المضيق ذاته، وظلت مناطق كادي كوي ومودا باقية، ولكن بدل تلك القصور والمنازل الخشبية الأنيقة الجميلة، كانت ترتفع أبنية إسمنتية، وكانت الشوارع قذرة، وقد تضاعفت أعداد السيارات، وفقد البحر رونق زرقته القديمة .وكان هناك ما هو أسوأ من تغير المظهر، وهو تغير الجوهر، فقد تغيرت تصرفات الناس، وطريقة تفكيرهم وعاداتهم. صحيح أن الأمواج البشرية التي كانت تهاجر من الأناضول بسبب قسوة الظروف، وتتدفق على المدن مبرر لتغير كثير من معالم الناس، ودفعهم للتشبث بأي فرصة لإيجاد موطئ قدم، ولقمة عيش وسط كل هذه الجموع المتزاحمة .ولكن ما كان يثير دهشته وأساه، هو التغير اللامبرر الذي أصاب أصدقاء طفولته، وجيرانه الذي ترعرع معهم في الحي ذاته، بل وحتى أخوته» .المال، لقد أصبح المال معبود الناس «كان السيد مشتاق يردد على الدوام هذه الجملة.

»لا يعقل أن يكون المال هو السبب «كانت السيدة فيروزان تعترض وهي ترفع حاجبيها الرقيقين »لا يمكن للناس أن يتخلوا عن أخلاقهم ويصبحون بكل هذا السوء فقط بسبب المال، لا بد من وجود سبب آخر.«

كانت المسكينة لا تعلم السبب الحقيقي، فكل ما تعلمه هو أنّ الناس يزدادون قسوة وأنانية ووقاحة، بل يتحولون إلى مخلوقات أخرى يعوزها الحس الإنساني، مع كل يوم جديد .حين كان السيد مشتاق لا يزال حياً كانا يذكران اسطنبول القديمة في جلساتهما ويأسفان لما آلت إليه .وبعد وفاة زوجها اشتدّ عليها الحزن، ولأنها تعلم أنّ ألم فراقه لا سبيل لشفائه، بدأت تلجأ إلى ذكريات اسطنبول في الأفلام التركية القديمة، الأرصفة الصغيرة التي كان يتدرّج منها الأطفال نحو البحر بسهولة، الشوارع الطويلة التي كانت تمتد بسكينة ودون ضجيج، أشجار الصنوبر الطويلة، اللبلاب الذي يزين حواف القصور الخشبية الجميلة التي كانت جسراً بين ماضي المدينة وحاضرها .كانت تبحث بين هذه المشاهد بالأبيض والأسود عن الذكريات التي عصف بها الزمن بقسوته .ولا بدّ أنها هذه الليلة أيضاً تمسح دموعها أمام هذه الأفلام التي كانت تستدعي من قبل ضحكات شابة جميلة.

حين تجاوزت باب السيدة فيروزان وصعدت إلى الطابق الذي أقطن، كان البرد قد جمّد عظامي .وفيما كنت أدير القفل بالمفتاح، وأدخل تراءى أمام ناظري أحد مشاهد أفلام جيمس بوند .ففيما كان البطل يغادر كان يترك شعرة بين الباب والقفل .وبهذه الطريقة يدرك إن دخل زوار في غيابه المنزل، من خلال الشعرة التي ستقع حتماً إن فتح أحدهم الباب .كانت وسيلة بسيطة، ولكنها على قدر كبير من الفاعلية، إلا أنني لم أعد بحاجة إلى أي تدبير وقائي، طالما أنهم سيتركونني وشأني بعد الآن .رغم ذلك لم أتمكن من مقاومة حاجتي في إلقاء نظرة متفحصة على المكان حين أشعلت الكهرباء .كان المكان كما تركته دون تغير ملحوظ، فخلعت ملابسي المبلولة، واتجهت نحو الحمام لأنشف شعري، وحين وقفت أمام المرآة لأرتب خصل الشعر المتفرقة لم أتمكن من تجنب ذلك الإحساس الذي عاد لينتابني .فكثيراً ما كنت أشعر بأنني أرى وجه والدي وأنا أتأمل وجهي في المرآة. رغم أنني حين كنت شاباً لم أكن أجد شبهاً بيني وبينه، ولن أخفي بأنّ ذلك كان يروقني، لأنني لم أكن أجد والدي وسيماً، بل الأصح أنني لم أكد أجد شبهاً بينه

وبين ممثلي السينما الذي كانوا يروقون لي .ولم ألحظ مدى الشبه بيننا سوى حين تخطيت منتصف العمر. وربما هذا ما بدأ يدفعني للاعتقاد بأنّه كان رجلاً وسيماً بالفعل.

وحين وفاته أدركت بصورة أوضح كم أنني أشبهه جسداً وروحاً، ذلك الرجل الذي كنت أنكر ما يجمعني به في سنوات شبابي .وكنت أقتنع بهذه الحقيقة أكثر كلما نظرت إلى نفسي في المرآة .فشعري الذي بدأ يخف كثافته في الأربعين كان يماثل شعره، والتجاعيد التي لم تتعمق بعد في جبيني ووجهي، كانت تأخذ المنحى ذاته تجاعيده، وتلك اللطخة التي بحجم حبة العدس على خدي الأيسر، كانت تزداد قتامة مع مرور الأيام، لتصبح نسخة عن تلك التي كانت على خده. حتى عيني اليسرى كان حجمها يتقلص قليلاً مع الوقت تماماً مثل عينه .حتى الانتفاخات التي تحت أعيننا كانت متشابهة .وكما والدي فقد كان اهتمامي اتجاه الناس والأحداث والعالم برمته يخفّ .وأظن أنّ هذا الشبه سيكتمل حد التطابق في آخر يوم لي، وسيبلغ تمامه في اللحظة التي سأسجّى فيها داخل التابوت .ولكن الجيد في الأمر أنّ هذا التشابه لم يعد يشعرني بالضيق .ولا أعلم إن كان ابني أيضاً سيصل إلى النتيجة ذاتها حين يصل إلى مثل سني، ولكن هذا الإحساس كان يشعرني بنوع من الطمأنينة، فقد كان دليلاً ملموساً على أنني عبرت هذا العالم ذات يوم، وتركت جزءاً مني فيه.

حين عدت إلى الردهة لم أتمكن من منع نفسي من معاينة رسائل الهاتف، علّني أجد رسالة من دوغان، ولكنه لم يترك شيئاً .الرسالة الوحيدة كانت من شكيب إينجي وهو يقول» :علينا أن نلتقي بأسرع وقت ممكن، فلدي أدلة مهمة تتعلق بمقتل أخيك .وقد أطلعت بحري نارمان أيضاً على الأمر، ولا مانع لديه من أن نعمل سوية على الخبر .أرجو أن تتصل بي .«كان يتصور أنّ بإمكانه خداعي. فلو كانوا حقاً يمتلكون أي أدلة، هل سيطلبون من الشخص الذي قاموا بطرده قبل يومين، العمل معهم مجدداً؟ فليلعقوا الصحون الفارغة، لأنّ الوليمة قد فاتتهم .ولا

بد أن عارفاً يجلس الآن على طاولته متحمساً، وهو يجهز المادة التي سينشرها قريباً. وكم أودّ أن أشاهد وجه شكيب حين يفتح جريدة الصباح ليجد مقالة عارف في وجهه .وما إن يقرأها حتى يتوجه على الفور نحو مكتب رئيس التحرير، وهو يحتج وقد احتقن وجهه وانتكست أعلامه» :ألم أكن من سيقوم بتحضير هذا الخبر؟.« ولو كان صاحب الخبر أحداً غير عارف، لاستدعاه رئيس التحرير معترضاً على أمر كهذا، ولكن لأن علاقة عارف وبحري على خير ما يرام، فسيحاول الأخير المراوغة وتمرير الموضوع دون مشاكل.

»يستطيع كلاكما نشر مادة عن الخبر، وبذا سنعمل على القضية بيدين بدل يد واحدة .«لا بدّ وأنّ هذا ما سيقوله .وسيكرر شكيب معترضاً بأنه كان يعمل على القضية منذ بدايتها، لكن بحري سينهي الحوار بالقول» :تستطيع مناقشة الأمر مع عارف إن شئت .«وسيتملص من الموضوع .ولأن شكيب يفتقر للاعتداد بالنفس، سيذعن، وسيتوجّه إلى عارف وهو يحاول إخفاء حنقه قائلاً» :أنت تعلم بأنني من كان يعمل على هذه القضية .«لكن عارفاً سيستمتع بثمار نصره، وهو يجيبه بخبث» :أنا لا أهتم بالوجهة التي كنت تتناول بها القضية، كما أنّ هناك فائدة من اضطلاع صحفيين مخضرمين مثلنا بالقضية ذاتها.«

ولن يتمكن شكيب سوى من جر أذيال خيبته وهو يتجه نحو طاولته. وبعد أن يتآكله الحنق لمدة ليست قصيرة، سيشمر عن ساعديه، ويبدأ بالعمل مجدداً، لكي يتمكن من هزيمة عارف، ولكنه لن يبلغ أي نتيجة .وما لم يحاول مفيد التملص من التزامه، فسيكون عارف هو من يجني الثمار في النهاية .فرغم عدم توفر أدلة ووقائع توضح ملابسات القضية، لكن الخبر على قدر كبير من الأهمية .فبعد طي فضيحة سوسورلوك في غياهب النسيان، سيعود هذه الخبر ليشعل اهتمام الرأي العام بموضوع العصابات وعلاقتها مع أجهزة الدولة .والصحيفة التي ستفجر خبراً بهذه الأهمية ستتصدر المبيعات لمدة أسبوع على أقل تقدير .ولكنني لا أستطيع الجزم إن كان هذا الخبر سيسمح لعارف بالانتقال مع طاقم العمل إلى الصحيفة

الجديدة .فمفهوم الصحافة قد تغير، والمهم الآن هو نيل رضا القراء —والقراء هنا لا يتجاوز عددهم الثلاثمئة ألف من أصل ما يربو على السبعين مليون مواطن— وأصبحت هناك رؤى جديدة، يعتمد تحقيقها على ارتفاع المبيعات .فمبادئ الصحافة التي تنص على حياد الصحيفة والصحفيين، ونشر الحقيقة، وكشف أخطاء السلطة وتقييم أدائها، وطرح القضايا بشفافية أمام الرأي العام، والاشتراك في عملية التحول الديمقراطي، ومساندة حقوق الإنسان .وسواها من المبادئ، ليست سوى مجرد سفسطات، فالأهم الآن هو إنجاح علاقة الصحيفة بالقراء.

ورغم أهمية الخبر المتعلق بإحدى العصابات وكشف أمرها، فلا يمكن الجزم بأنّ ذلك سيؤثر كثيراً على موضوع تواصلها مع جمهور القراء .ومع أنّ صديقي عارف ليس بالشخص الساذج على الإطلاق، لكنه لم يتمكن من إدراك هذه الحقيقة كما يجب .ربما هو يدرك الأمر، ولكنه يتعلق بأمل أن يمنحه المدير قارب نجاة أخيراً .وهو مخطئ كثيراً إن كان يفكر بهذه الطريقة .فأصحاب العقول القديمة من أمثالنا لم يفهموا بعد، أنّ إدارة الصحيفة تتم على شاكلة إدارة أحد المعامل. وما لم نلجأ إلى الكحول، أو نتحصن باللامبالاة اتجاه ما يحدث، أو نقدم استقالتنا بأنفسنا، فسيتم طردنا من عملنا دون تردد .ولكن صديقي الأحمق يظنّ أنه بنشر خبر على هذه الدرجة من الأهمية، سينجو من الطوفان القادم .فليفعل ذلك، فمن حق الناس ارتكاب الأخطاء، وحتى لو قمت بتحذيره الآن، فأنا متأكد من أنه سيستهلك حقه هذا حتى النهاية .والشيء الوحيد الذي يواسيني في كل ما يجري، هو أنّ عارفاً سيتمكن من إثارة حنق شكيب، وسيبقى يناضل حتى آخر لحظة ضد تطلعات بحري نارمان .وأياً تكن النتيجة، فمن المؤكد أنه سيسبب لهم كثيراً من الضيق .وبالنسبة لشخص مثلي، فهي وسيلة غير مباشرة للانتقام، تبث السعادة في نفسي.

أتاح لي مزاجي الرائق هذا بالعودة إلى الشرب، بعد فراق قصير دام منذ مغادرتي قصر السلال .وقبل التوجه إلى المطبخ شغلت جهاز التلفاز، فلسبب لا

أعلمه، كنت راغباً بأن يسود المنزل هذا المساء بعض الضجيج، وبعض الصور والألوان التي ستغطي على رتابة المكان .كانت أولى المحطات التي طالعتني تعرض برنامج مسابقات فيه الكثير من النساء والغناء .وكان مقدم البرنامج مثلي الجنس، يحاول منافسة الناس في الرقص والتمايل والتظارف من أجل جذب أكبر قدر من المشاهدين .ولكنني لم أكن من نوع المشاهدين الذي يبحث عنه .انتقلت إلى محطة أخرى، حيث كانت تقدم برنامجاً اقتصادياً، وخلال التغير الذي طرأ على الإعلانات التي ترافق البرنامج، فقد ظل الموضوع ثابتاً منذ أكثر من عشرين عاماً، وهو الأزمة الاقتصادية .صحيح أنني أولي أهمية لمواضيع من هذا النوع، لكنني لم أكن في مزاج يسمح لي بمتابعة هذا الحوار .المحطة التي تليها، كانت محطة وثائقية، ومع صور أكبر تلسكوب في العالم كان ينساب صوت المقدم، وهو يتحدث عن إمكانية بلوغ أكوان أخرى .تلك النجوم المعلقة كمصابيح صغيرة في الفضاء، وجسد الكون اللامتناهي الذي تنيره الانفجارات، والثقوب السوداء التي تبعد عنا بما لا أعلمه من السنوات الضوئية .يبدو أنني وجدت المحطة التي أريد .فهذا البرنامج، هو من سيبعد عارفاً ومفيد ودوغان وشكيباً وفوندا عن ذهني، وسيخلصني من التفكير في الاحتمالات التي لا طائل من ورائها.

اتجهت إلى المطبخ بسرعة، لأصب كأس الشراب، وأحضر صحن المقبلات، وجلست قبالة التلفاز .كان مقدم البرنامج الذي لم يظهر وجهه، يوضح بأنّ عالمنا قد ظهر نتيجة انفجار كوني بدأ بالتمدد مع مرور الوقت .ولكن هذا التوسع سينتهي يوماً ما، ويعود الكون إلى التقلّص مرة أخرى .وهذا كان يفضي لنتيجة واحدة مفادها :أنّ كوكبنا الذي يبدو حتى الآن أنه النجم الوحيد الذي توجد عليه حياة، سيكون مصيره الخراب، وسيعود ليندثر في انفجار يماثل الانفجار الذي خلقه.

طالما أنّ هذا ما عليه الوضع، فما قيمة كل الجهد والقلق والجدية التي نواجه كل ما يعترضنا؟ فكما قال الخيام» :املأ كأسك شراباً، قبل أن يملأ التراب

عينيك.«

لكن مقدم البرنامج الذي لم يكن يعرف ما أفكر فيه، يواصل الشرح، بأن الكون يحتاج لمليارات السنين ليعود للتقلص من جديد .ولو تمكن البشر أو بقية أنواع الحياة في الكون من امتلاك التكنولوجيا والآلية اللازمة، فباستطاعتهم مواصلة حضارتهم حتى مجيء تلك اللحظة .لا أعلم على وجه التحديد الحضارة التي تسود في بقية الأكوان، ولكنني متأكد من أنّه لو بقيت التكنولوجيا لدينا تتطور بهذا المنحى، فسيعجّل الإنسان من هلاك الكون دون حاجة للانتظار مطولاً.

وفيما واصلت الشرب، ومتابعة البرنامج .تناهى إلى مسامعي صوت لا يشبه صوت المقدم .خفّضت صوت التلفاز وأنا أصيخ السمع، ولم أكن مخطئاً، فقد كان صوت جرس الباب .من يكون؟ نهضت ململماً نفسي، وفتحت الباب، لأرى ابتسامة السيدة فيروزان اللطيفة تقابلني.

-مساء الخير سيد عدنان.

-مساء النور، تفضلي —قلت وأنا أفسح لها لتدخل.

-لا، لن أدخل —قالتها وهي تمد لي الظرف الذي تحمله —لقد وصلك هذا، وتركوه عندي لأنك لم تكن في المنزل.

-حقاً؟ —قلتها وأنا آخذ الظرف —أعتذر على إزعاجك بالأمر، تفضّلي، ألن تشربي كوب شاي معي؟

-شكراً جزيلاً، ولكن ابنتي ستأتي بعد قليل، قد أجلس في مرة أخرى.

وكما جاءت بصمت فقد هبطت السلالم بصمت .وما أن أغلقت الباب حتى بدأت بفحص الظرف، الذي كتب عليه »عدنان سوزمن«، وتحت الاسم كان عنواني مسجلاً .ولا بد أنّ اسم »أوموت سوزمن «الذي دوّن بحروف صغيرة

هو اسم المرسل، وقد كُتب إلى جانبه رقم هاتف .ولكن الخط لم يكن يماثل خط ابني، ولا كان رقم الهاتف يعود إليه .والغريب أنني كنت أعرف هذا الرقم من مكان ما لا أذكره .قبل أن أفتح الظرف تمهلت قليلاً .ماذا لو كانت رسالة مفخّخة؟ أمسكته من أطرافه بحرص، محاولاً عدم تحريك محتواه وأنا أقربه من الضوء .فخرج صوت احتكاك لقطعتي معدن داخله .زاد خوفي ولكنني لم أتركه من يدي، وأنا أقربه بحرص أكثر من الضوء .فبدا لي أن الصوت المعدني الذي سمعته يعود لقطعتين تشبهان مفتاحين صغيرين .ورغم أنني لا أعلم الكثير عن الرسائل المتفجرة، ولكنني أعرف جيداً كيف يكون شكل المفتاح .وبهدوء وضعت الظرف على الطاولة، وبدأت أقص حافته بالمقص .وحين انتهيت حملته لأتفحص ما بداخله، فتبين لي أنني كنت مخطئاً في مخاوفي، ولكن الظرف كان يحوي على ورقة مطوية والمفتاحين اللذين شاهدت ظلالهما.

وكان هذا ما جاء في نص الرسالة:

أخي العزيز عدنان.

ربما حين تقرأ هذه السطور أكون قد صرت في عداد الموتى .فهم قريبون مني جداً، وقد بدأت ألاحظهم بوضوح، وربما هم يريدون مني أن ألاحظهم. فسيارتهم الجيب في رأس شارع المنزل الذي أقيم فيه في أتاشهير .ولا أعلم كيف تمكنوا من العثور على هذا المنزل الذي لا يعلم أحد بأمره سوى شريكي، وصديق دربي رضا .ربما كانوا يتعقبونني، فلا احتمال سواه يخطر لي الآن .وأعلم أنني سأُقتل لا محالة، ولكنني لن أذهب دون خسائر، فسآخذ معي واحداً أو اثنين منهم.

وقد بعثت هذه الرسالة مع ابن البواب، وطلبت منه إرسالها عبر البريد، دون أن يلاحظوا الأمر .ولا يوجد سوانا من يعلم بأمر هذه الرسالة .أعلم أنك لا تريد التورّط في الأمر، كما أنني أحترم خيارك هذا .وأتمنى لو أنني لم أرسل لك هذه الرسالة، ولم أسلمك هذه المفاتيح، ولكن ليس من أحد سواك يمكن لي الوثوق به.

إن كنت مهتماً بمعرفة الأمر، تعال إلى هذا العنوان :أتاكوي، القسم .10–0المربع 25الباب إكس .الشقة رقم .45وهي شقة آمنة جداً .ولا يوجد من يعرف بها سوى رضا .وستجد في داخل جهاز التلفاز، أسماء رجال العصابة، وصورهم، وبعض الأسلحة وبطاقات البنك .وإن لم تكن مهتماً بالأمر فأحرق هذه الرسالة وارمِ المفتاحين في البحر .أرجو من الله أن تظل بخير.

دوغان

حين أنهيت الرسالة، شعرت بالاستغراب بداية، ومن ثم سيطر عليّ الغضب، وانتابني خوف شديد .لماذا يحصل لي كل هذا؟ ففي الوقت الذي شعرت فيه بأنني نجوت من هذه المعمعة، وبدأت حلقات هذه الدوامة بالانفرج، تصلني هذه الرسالة .ما الذي ينوي فعله دوغان؟ فهو يرسل لي عنوان الشقة ومفاتيح ومكان الوثائق والأسلحة، ومن ثم يقول لي» :إن لم تكن راغباً في الأمر تستطيع نسيانه «وكأننا نمارس إحدى الألعاب، وليس قضية قد قتل بسببها ثلاثة أشخاص. أي عديم مسؤولية هذا الرجل؟ والأدهى من ذلك أنه يعترف بنفسه :«أعلم أنك لا تريد التورّط في الأمر، كما أنني أحترم خيارك هذا.«

إن كنت تحترم خياري بالفعل، فلِمَ ترسل لي هذا الظرف إذاً؟ ولكنه لا يتوانى عن سرد مبرراته أيضاً» :ولكن ليس من أحد سواك يمكن لي الوثوق به.«

ولكن لا فائدة من المراوغة، فشباكك لن توقع بي.

كنت أراوح بالقرب من الطاولة، وأكيل الشتائم لدوغان، دون أن أعرف ما يجب عليّ فعله .ماذا لو اقتحم أحدهم منزلي الآن، وشاهد معي الظرف والمفتاحين؟ لذا من الأفضل التخلص من هذه الأشياء على الفور .ولكن ماذا لو تمكنوا من معرفة وصول هذه الرسالة إلي؟ فرغم أن دوغان أكد لي أن لا أحد سواه يعلم بأمرها، ولكن إلى أي حد يجب علي الوثوق في كلماته؟ فهو يعترف بنفسه

أنهم تمكنوا من اكتشاف المنزل الذي كان يقطنه.

في تلك اللحظة عبر ذهني احتمال آخر، فماذا لو كان مفيد من أرسل لي هذه الرسالة من أجل اختباري، وليس دوغان؟ أيعقل حصول أمر كهذا؟ ولِمَ لا؟ فألاعيب رجال الاستخبارات لا تنتهي .ولكن كان من السهل التحقّق من الأمر، فقد أعطاني دوغان رقم هاتفه من قبل .ولكن أين وضعت تلك الورقة؟ بحثت في جيوب معطفي ولكنها لم تكن هناك، حينها تذكرت أنني بحثت عنها سابقاً للاتصال بدوغان، ولكنني لم أعثر عليها .اتجهت إلى الطاولة فكانت الورقة التي عليها الرقم تحت دليل الهاتف .أخذت على الفور أقارن بين الرقمين، كانت الأصفار وجميع بقية الأعداد متطابقة، ولم يعد لدي شكٌ أنّ الرسالة من دوغان .إذاً أستطيع التخلص منها دون قلق.

حينها لاحظت أنني بدأت أفكر مثل مفيد، وأقتنع بأن دوغان لا يزال حياً، وما تلك الجثة سوى خدعة لتضليلنا، وجعلنا نظن أنه قد مات بالفعل. اعتقدني لم أقتنع تماماً بهذه الفكرة، ولكنني كنت مقتنعاً تماماً، بأن أخي سواء كان حياً أو ميتاً فهو ينوي أن يرمي بي نحو كارثة كبيرة .ولكن ماذا عما حصل له؟ فالدولة قد تخلت عنه مرتين بعد استغلاله، وفي المرة الثالثة قررت التخلص منه. ولكن ما الذي يمكنني فعله؟ كان عليه أن يفكر ملياً قبل أن يقدم على ما ارتكبه. فكيف يمكنني الخوض في صراع من أجل دوغان، ضد العصابات الخطرة، والقوى التي يحاول حمايتها؟ ربما كان من الأسلم إعطاء الظرف بمحتوياته لمفيد، ولكن لِمَ أفعل ذلك؟ أليس الأفضل هو التصرف وكأنني لم أستلم شيئاً، والتملص من تبعات الأمر؟

راقتني الفكرة، وفيما كنت أتجه للمطبخ من أجل إحراق الرسالة، خطر لي العنوان الذي قد أحتاجه لأمر ما .توقفت حينها وأنا أفكر في سبب حاجتي للعنوان، وقررت أنني لن أتورّط في هذه المتاهة الدموية فقط لأنني استلمت هذه

الرسالة .ولكن .لا داعي للتردد، عليّ إحراق الرسالة فوراً، ورمي المفتاحين في قعر بحر مرمرة في أقرب فرصة ممكنة .ورغم كل هذا الحسم، كنت لا أزال أتململ أمام الطاولة .فحتى الآن لم تكن هذه الأحداث قابلة للتحول إلى خبر صحفي له قيمة حقيقية، ولكن الرسالة —كانت قنبلة متفجرة كما يردد عارف على الدوام— جعلت الأمر مختلفاً تماماً، وهي تشير إلى إمكانية الحصول على الوثائق والمعلومات اللازمة التي ستحول الخبر إلى مادة مهمة .وعدم استخدام هذه المواد من قبل صحفي تعني أنه مجنون، أو جبان إلى أبعد الحدود، أو أنه تلقى رشوة كبيرة من أجل التغاضي عن الأمر أو أنه مات قبل نشر الخبر .وأنا لست مجنوناً، ولم آخذ رشوة من أحد، كما أنني لم أمت بعد.

أعترف أنني كنت خائفاً، ولكن لم يكن الخوف ما يمنعني، بل عودتي إلى حلبة العمل مجدداً، والذي بدا لي كأكثر الأمور مشقة على وجه الأرض .كما أنني لم أكن أملك أي سبب يجبرني على القيام بالأمر، فلو افترضت أنني قد أفعلها من أجل الانتقام لدوغان، فأنا لست متأكداً حتى الآن إن كان قد قُتل بالفعل .وحتى لو تم قتله، فلست واثقاً من رغبتي في التورّط بأمر مماثل، من أجل شخص مثل دوغان .كما أنني لم أعد أملك الطموح الكافي، كما منذ بضع سنوات، من أجل تحقيق نجاح في مهنتي .ولو كان هناك من أمل في عودة فوندا إليّ، لكنت قمت بهذه التضحية، وعدت إلى العمل مجدداً رغماً عن إرادتي من أجل تحسين صورتي في نظرها، ولما تركت الخبر يفلت من صنارتي .ولكن هذا الفنان المدعو إتهم، ومنذ اختراقه حياتنا، أفقدني هذا الاحتمال لبقية حياتي .أما حقوق الإنسان والحريات الشخصية وتطور البلد والديمقراطية وخلافها، فلا تصلح لأتذرع بها للخوض في الأمر، فرغم أنّ الجميع يرددها طوال الوقت بتواتر وفي كل المناسبات، ولكنها من أكثر الأشياء التي لا يبالي بها أحد في هذا البلد. وفي هذه الحال، لماذا عليّ التورط بالعمل على خبر كهذا؟

يبدو من الأفضل تسليم كل هذه المستندات إلى عارف الذي سيقوم

بنشرها، وبالتالي ستكون وسيلة غير مباشرة للانتقام من شكيب إينجي، وبحري نارمان .أجل، هذا يبدو أكثر الحلول منطقية، لذا وبدل التوجّه للمطبخ، جلست على الأريكة بالقرب من الهاتف ووضعت الجهاز في حجري، استعداداً لضغط الأزرار، ولكن أصابعي لم تكن تستطيع إطاعة رغبتي .وأخيراً كان عليّ الاستسلام، والاعتراف بما أحاول إنكاره منذ فترة :قد يسميه البعض عادة مهنية، أو ميولاً صحفية، والذي استيقظ من سبات ظننته موتاً، ليستولي على إرادتي، بل ليطيح بكل ما سواه من مبررات، ويمنعني من إضاعة هذه الفرصة التي جاءت بنفسها إليّ. وكل تلك الأقنعة التي تستّرت خلفها، كاللامبالاة والشرب والاعتياد على روتين الكسل، لم تكن سوى ترهات ضبابية تبخرت على الفور .ورغم أنني لم أتغير بالمطلق، ولكن الغريب أنني لا أستطيع منع نفسي من التفكير في هذا الخبر طوال الوقت، ويمكن تفسير الأمر على النحو التالي :لا يمكن لأحد أن يحيا دون رغبات وأهداف في هذه الحياة، فانعدامها يعني حالة من الموت .وكما كان يردد صديقي توفان، الفيلسوف الهاوي »لولا جذوة الرغبة، لكانت الحياة كلها مملة بلا حدود.«

ربما كان كل ما سبق هو مجرد مبررات لأقنع نفسي، ولكن المحظور قد وقع، واستطاع دوغان أن يشدني نحو شباكه، وأن يخرج حياتي من طور جمودها .ولم تكن رغبتي بالذهاب إلى النادي الذي يجتمع فيه الصحفيون من أجل معرفة بعض أخبار القضية، بعد خروجي من قسم التحقيق، وقبولي لدعوة عارف اليوم، بل واعترافي لمفيد بكل ما حصل، سوى للحصول على مزيد من المعلومات .ولكن إدراكي لهذه الحقيقة واعترافي بها، لم يكن بالأمر السهل .فليس من المقنع القول أنني كنت ثملاً فصحوت، وتغيير الحياة التي عشت، وانتابتني الرغبة فجأة بمعاودة العمل، ولست واثقاً حتى الآن من امتلاكي القوة الكافية للعمل على هذا الخبر .ورغم أنّ أقرب أصدقائي قد اضطلع بنشر الخبر، لكن أشعر برغبتي في منحه المواد التي بحوزتي.

ولكن ما الذي علي فعله؟ فلو ذهبت إلى الشقة حسب العنوان، سيتعقبني

رجال مفيد الذين ما زالوا يراقبون منزلي بكل تأكيد .وسيكون علي حينها إقناع الرجل بأنني لم أكذب عليه .والأدهى أن احتمال كونه من رجال القتلة، أحد الاحتمالات الواردة أيضاً، وهم يراقبونني من أجل الوصول إلى الأسلحة والوثائق التي يحتفظ بها دوغان، لذا علي التريث قليلاً قبل الذهاب إلى تلك الشقة .ومن الجيد أن عارفاً الذي ينوي أن يسعر النيران، لا يملك سوى التخمينات التي تعوزها الأدلة، لذا لن يتمكن من الوصول إلى شيء ذي بال .وفي هذه الأثناء قد تظهر حقائق جديدة حول هوية الجثة الحقيقية، كما أن رضا الذي قال عنه دوغان إنه صديقه ورفيق دربه والذي يحاول يالفاج وغونغور العثور عليه، قد يدلي بما يغير مجرى الأحداث .لذا كان الانتظار أفضل الحلول .كما أنني الآن لا أعلم إن كان يمكنني نشر الخبر، رغم أنني إن اتصلت ببحري نامان، ولمحت له إلى ما لديّ، سيغرقني بوابل من الاعتذارات، ويفرش لي السجادة الحمراء على طريق عودتي إلى الصحيفة. ولكنني لا أنوي العودة إلى هناك مرة أخرى، بل سأتوج نكاية به إلى الصحيفة المنافسة التي يعمل فيها إرول، والتي سترحب بنشر الخبر دون أدنى شك، فلا يمكن لأي صحيفة ألا تفعل ذلك.

كان عليّ إيجاد مكان لإخفاء الظرف بما فيه، ولكن أكثر الأماكن ملاءمة لإخفاء شيء على قدر كبير من الأهمية، هو وضعه مع أشياء وأوراق عادية تحتفظ بها دون سرية، فلو وضعتها في مكان خاص ستلفت الانتباه أكثر، وسيتم العثور عليها في أسرع وقت .ولكن وضعها بين أشياء تافهة لا قيمة لها سيصعب مهمة العثور عليها .لذا سجلت العنوان على دفتر العناوين تحت اسم توفان .ووضعت المفاتيح مع مفاتيحي الخاصة.

وحين عدت من جديد للجلوس أمام التلفاز، ظل الكون أحد أعظم الأسرار التي لم يتمكن الإنسان من فك طلاسمه بعد .وكما أنّ لكل شخص همومه التي تناسب مقاسه، فقد ظل دوغان بالنسبة إليّ، أحد الأسرار التي لم أتمكن من فك طلاسمها.

الفصل التاسع عشر

كانت سيارة يالفاج وغونغور الرينو البيضاء تنتظرني أمام مبنى إدارة مقبرة كارا أحمد .كان غونغور يستند إلى مقدمة السيارة، وبدا كأنه ينظر باهتمام بالغ إلى القبور التي أمامه .ركنت البليماوث بقرب الرينو وترجلت منها .كانت السماء صافية، وشمس الربيع الدافئة، بدأت عملها بتجفيف تربة المقبرة الرطبة، التي كانت تعبق برائحة منعشة، وكأنها تحاول أن تقول لنا إن الموت ليس بالأمر الذي يستدعي كل هذا الخوف .وربما كان هذا هو السبب في الراحة التي انتابتني لأول مرة وأنا أدخل هذا المكان، الذي كان الخوف المقنع بطبقة من الاحترام هو ما يعتريني حين كنت أزوره من قبل.

-مرحباً —قلتها وأنا أقترب من غونغور.

وبدل الرد على تحيتي:

-جئت في موعدك المحدد —قالها وهو ينظر إلى ساعته —لقد تأخر موظفو الطب العدلي، لاعتقادهم بأنك ستتأخر.

-ولماذا اعتقدوا أنني سأتأخر؟ —سألته، وفي تلك الأثناء ترجل يالفاج أيضاً من السيارة، في حين رد علي غونغور:

-إيه .إنه أمر طبيعي، لأنك بقيت تشرب البارحة طوال الوقت من الظهيرة وحتى المساء.

ما الذي كان يرمي إليه من كلامه؟ أيعقل أنهم علموا بلقائي مع مفيد؟ حاولت التغاضي عن مقصده وأنا أسأله:

-عفواً؟

تدخل يالفاج وهو يقرب الصحيفة التي في يده من أرنبة أنفي.

-لو كنت نسيت ما قلته البارحة —أوضح لي —فاقرأ ما كتبه صديق عارف وسوف تتذكر.

يا له من وضيع، هل ذكر اسمي في المقال الذي نشره حول حديثنا البارحة؟ وقبل أن أرد على غونغور، تناولت الصحيفة وبدأت بالبحث عن مقال عارف.

كان جزء من الخبر منشوراً في الصفحة الأولى، والبقية في الصفحة التاسعة عشرة .وكان صوته ينضح بلوم شخص تعرض لخيانة كبيرة.

في مكان ما وسط الصفحة قابلني عنوان المقال) :سوسورلوك تنتفض(وتحت العنوان الرئيسي هناك ملخص نصه) :إزاحة الغموض عن مقتل كل من: بكير كاتان زعيم العشيرة، نهال أوزونل، العقيد رفعت باش أوغلو، وأخيراً دوغان سوزمن، فبحسب توضيحات الصحفي عدنان سوزمن، شقيق دوغان، وشخصية أمنية رفيعة المستوى، أن هناك عصابة وراء هذه الجرائم، كما حدث من قبل في حادثة سوسورلوك .(وعلى الطرف العلوي للمقال، صورة لعارف وقد امتدت ابتسامته من الأذن للأذن .فتحت الصفحة التاسعة عشرة لقراءة بقية الخبر، الذي احتل صفحة كاملة .من الواضح أنّ بحري كافأ عارفاً بكرم بالغ .ومن المؤكد أن شكيب يتلوى على نيران غيرته الآن .وحين قرأت المقال، بدأت الدماء تغلي في عروقي غضباً، فهذا الوغد قام بكتابة كل ما قلته البارحة حرفياً، وكأنني لم أطلب منه وبإصرار بالغ ألا يذكر اسمي في مقاله .لا بد وأنه كان يحمل آلة تسجيل معه،

وإلا كيف تمكن من ذكر الحوار بحرفيته؟ وفي نهاية المقال أضاف صورة لدوغان، ولحادثة سوسورلوك .كما كانت صور كل من بكير كاتان، وعشيقته نهال أوزونل، والعقيد رفعت أيضاً منشورة في المقال .وفيما كنت أقرأ المقال، كنت أفكر في ما سأقوله لهذين المحققين الذين يحيطان بي من الطرفين .ماذا لو أخبرتهم أن عارفاً قد اختلق كل هذا، وأن هذا الحوار لم يحدث على الإطلاق .فكل ما أطلعته عليه أنني التقيت صدفة دوغان، ولكنه افترض بأن هذ الأخير قد التقى بي من أجل طلب مساعدتي.

-لقد ارتكبت خطأً كبيراً يا سيد عدنان —صوت يالفاج المتوعد ونبرته الحادة كانت كافية بتشتيت أفكاري —فلقد أخبرت شخصاً ما كان عليك التحدث إليه بجميع الحقائق.

ظننتهما يشيرون إلى عارف.

-الخبر مجرد تلفيقات —قلت —فأنا أخبرته فقط بأنني التقيت دوغان، ولكنه اختلق حكاية على هواه.

-الخبر ليس تلفيقاً —قال يالفاج —فهي تطابق الوثائق التي معنا، ولكن الأهم من هذا هو إطلاع مفيد على هذه التفاصيل.

ما داما يعلمان بأمر لقائي بمفيد قبل نشر الخبر في الصحيفة، فقد يكون أحد رؤساء مفيد من أطلعهما على الأمر، وهذا يعني أن هناك صراعاً داخلياً يشتعل في الدوائر الأمنية .وفي هذه الحال، لست أنا من أخطأ، بل هم.

-لم أفهم؟ أليس مفيد أيضاً أحد العناصر الأمنية؟ —سألت وقد استعدت ثقتي بنفسي قليلاً، ولكنهما بقيا ينظران إلي شزراً، وكأنهما يقولون لي :لقد تسبب غباؤك بفوضى لا يمكن تداركها.

-يبدو أنك لم تفهم حديثنا السابق كما يجب —قالها بنبرة سلطوية لأستاذ ينهر تلميذه —حين أخبرناك أنّنا نحاول التخلص من المتعاونين مع هذه العصابات داخل أجهزتنا، فهذا يعني شيئاً واحداً :أنهم ما زالوا موجودين بيننا.

-لحظة، لحظة —قطعت حديثه —لم تجبني على سؤالي، هل مفيد يعمل مع القوى الأمنية أم لا؟

-إنه كذلك.

-وهل يملك سلطة للتحقيق في حادثة دوغان؟

خفّت حدة ملامح يالفاج وهو ينظر إلي.

-إنه يملكها ولكن —ولم أدعه يكمل، فقد كان الوقت المناسب للانتقال إلى الهجوم.

-لا يمكنك التذرع بشيء —قلت —فقد أخبرني الرجل بنفسه، أنه سيتولى التحقيق في الأمر، حين أطلعته على لقائي بكما، ومعه صديقي الصحفي الذي نعمل سوية منذ سنوات طويلة .وبدأ يطرح الأسئلة علي، وقد أجبته كما فعلت حين حققتما معي .فكيف لكما أن تحاسباني على أمر كهذا؟

-أنت مخطئ سيد عدنان —قالها غونغور الذي ظل ساكتاً حتى الآن —لقد أخفيت عنا ما دار بينك أنت ودوغان، وهذا يعني أنك حاولت إعاقة سير التحقيقات.

-أنا لم أقم بإعاقة أي تحقيق .كما أنني لا أفهم ما يحدث هنا —واصلت الاحتجاج —بمن عليّ أن أثق في هذه القضية؟ ومن هو المسؤول الفعلي عن سير التحقيق؟ هل عليّ إرسال طلب خطي إلى مديرية الأمن من أجل معرفة الحقيقة؟

-هدئ من ورعك —قال يالفاج —أنا أتفهم وضعك، وأعلم أنك تشعر بالحيرة، ولكنك في المقابل أخفيت عنا معلومات كثيرة.

-لا —ولكنه قاطعني.

-لا تحاول أن تنكر الأمر .فقد سألناك أكثر من مرة عن الحديث الذي دار بينكما، وأخبرتنا أنها كانت أحاديث عائلية خاصة لا أكثر، رغم أنه طلب مساعدتك لأنه كان في خطر .وأنت لم تطلعنا على هذه التفاصيل.

-ولكن.

ولم يكلف نفسه عناء الاستماع لاعتراضي.

-اسمعني، نحن لسنا حمقى، ونتذكر جيداً الحديث الذي دار بيننا حينها. وأغلب الظن أنك أنت أيضاً تتذكر .وهذا يعني أنك أعطيتنا معلومات ناقصة.

كان محقاً، ولم يكن للإنكار أي معنى.

-حسناً، أعترف أنني لم أطلعكما على بعض تفاصيل لقائي مع دوغان بالكامل.

-بعضها —قالها غونغور بسخرية قاسية، وهو يرمقني بحنق واضح لم يحرص على إخفائه .ولكنني لم أعلق على كلماته وواصلت حديثي:

-لأكون صريحاً معكما، فأنا لم أشعر بالثقة اتجاهكما، وهذا طبيعي في ظل انتشار العصابات كالوباء.

-وكيف وثقت بمفيد؟ —سألني يالفاج، وقد بدت في عينيه القاتمتين غيرة خفية ظهرت للحظات واختفت.

-لأنّ مفيد أطلعني على الكثير مما يتعلق بدوغان .أما أنتما بالمقابل، فلم

تخبراني أي شيء عنه.

أطلق غونغور ضحكة عصبية.

-هل سمعت سيدي؟ علينا أن نطلع السيد عدنان على كل ما لدينا من وثائق، لنكسب ثقته.

نهره يالفاج بنبرة قاسية، تشير لعدم رغبته في إطالة الحديث، ومن ثم التفت نحوي مومئاً بأن أواصل.

-كما أخبرتك، لقد بدا لي مفيد، وكأنه مطلع على حيثيات القضية أكثر منكما .كما أنه أخبرني بأنه يعمل بالتنسيق مع مديرية قوى الأمن .أما أنتما فأخبرتماني بأنكما من قسم مكافحة الإرهاب .ما يعني أنه المسؤول عن سير القضية.

كانت هذه الكلمات كافية لإثارة جنون غونغور.

-الخائن القذر —احتد صارخاً —إنه يحاول التقليل من شأننا .ولكننا سنريه كم هو وضيع الشأن —لم يكن قادراً على كبح غضبه، فرفس عجلة السيارة بقدمه، ثم التفت إليّ —نحن من نتولى هذه القضية يا صاحبي .هل فهمت؟ مفيد لا علاقة له بالأمر.

وكان غونغور ينوي مواصلة زعيقه لولا تدخل يالفاج.

-هدئ من روعك —حذره جازماً —ثم توجّه نحوي —كما أنّ دوغان هو من يهمنا أمره، وليس مفيد .برأيي أننا لا نزال نملك بعض الوقت، أخبرنا بكل ما لديك، فقد يفيدنا الأمر في التحقّق من صاحب الجثة المحترقة.

لولا تلك السحابة القاتمة التي تظلّل نظرات هذا الرجل، لكنت وثقت في

ما يقوله.

-لقد نشر عارف كل ما لديّ من معلومات —وأنا أشير إلى الصحيفة التي في يدي —ولا أعرف أكثر من ذلك.

نظر إليّ كلاهما بعيون تنضح شكاً، وكان من الواضح أنهما لا يصدقان أي كلمة مما أقول، وكانا محقّين .لكنني لم أملك أي نية في إطلاعهما على الرسالة التي وصلتني البارحة .لن أطلعهما ولن أطلع مفيداً على أي شيء، قبل أن تستعيد الحجارة مكانها، وتهدأ الأجواء.

-هذا ما كنت أخشاه، وقد وقعت في حبائل مخاوفي.

-وما الذي كنت تخشاه؟ —سألني يالفاج.

-لو أخبرتكما بما قاله لي دوغان، فستظنان أنني أخفي أشياء أخرى.

-لو أنك أخبرتنا بذلك منذ البداية، لما اعتقدنا شيئاً —قال غونغور.

عاد بنا يالفاج، الذي بدا غير راضٍ عن محاولات غونغور الاصطدام بي، إلى مجرى الحديث.

-أهذا كل ما لديك عن دوغان؟

-أجل، فكل ما دار بيني وبين دوغان، قد كُتب حرفياً في هذه الصفحة. لقد عرض عليّ عرضاً، وأنا لم أقبل به .هذا كل ما في الأمر .ولم يعطني أي معلومات أو أسماء أو عناوين.

-بل لقد أعطاك اسماً —عاد غونغور يتدخل في الحديث.

ما لم أفهمه حقاً إن كان هذا الوغد يعلم شيئاً لا أعلمه أنا.

-لقد حدثك عن ضابط ما —واصل كلامه.

-معك حق —قلت .فهذا الوقح لا يملك أي هراء يستند عليه —فقد أخبرني أنّ من يتزعم العمل شخص يحمل لقب الضابط.

عاد ليسأل مجدداً، وكأنه يريد التأكد أكثر.

-وهل أطلعك على أسماء أخرى؟

-لا —قلت وأنا أنفي بهزة من رأسي.

غطت وجهه الممتلئ لمحة سخرية.

-وماذا لو صادفنا غداً توضيحات أخرى لك، في صحيفة أخرى؟

-لن تصادفوا شيئاً آخر، لأن هذا كل ما لديّ.

حدق إلى يالفاج بحدة، وكأنه يتوعدني.

-سيد عدنان —قالها وهو يشدّد على كل كلمة يقولها —إن هذه القضية أهم مما تتوقع .دعك مما يدّعيه مفيد، فنحن نعمل بأمر مباشرة من وزير الداخلية .وسيكون من الجيد أن تقاسمنا كل ما لديك.

وأنا بدوري حاولت التشديد على كل كلمة قلتها.

-لماذا تصران على عدم فهم ما أقوله —قلت —حسناً، ربما ارتكبت خطأً بعد إطلاعكما على حقيقة ما أخبرني به دوغان، ولكن ليس لدي أيّ شيء أخفيه الآن.

-ولكن لو علمتَ بشيء.

-لو عملتُ بأي شيء، أعدك بأنني سأطلعك عليه قبل الجميع.

لم أكن أنوي تنفيذ وعدي، وبدورهما لم يصدقا كلمة مما قلت، لذا فقد كانت مشاعرنا متبادلة .ليس فقط مشاعرنا، بل وتصرفاتنا أيضاً .لقد اخترنا الوسيلة ذاتها ليوقع كل طرف بالآخر .ففي غياب ذرة ثقة بيننا، كنا نقدم الوعود، ونواصل الكذب، ونحن نتبادل النظرات .ولكن صوت محرك السيارة القادمة أخرجني من لجة المقارنات هذه .وحين رفعت رأسي رأيت سيارة تويوتا تقترب منا .كان هناك ثلاثة رجال في السيارة، اثنان منهما يجلسان في المقعد الخلفي، وقد ترجّلا منها، حين توقفت السيارة .كانا في حدود الخمسين من العمر.

كان أحدهما قصير القامة ونحيلاً، أما الآخر فكان متوسط القامة وممتلئ القوام .كانت أجمة شعر رمادية بالكامل تغطي رأس القصير، أما متوسط القامة، فكان يملك جمجمة يثير صغر حجمها الاستغراب، والأكثر غرابة في هذا الرأس، هو تانك الأذنان اللتان تحيطان به من كل طرف كشراعي سفينة صغيرة .وقد بدتا أوضح على ما يبدو، بعد تساقط معظم شعره .قدم القصير نفسه» :أنا الدكتور أورهان «وهو يصافحنا نحن الثلاثة بلباقة واضحة .وبدت عيناه خلف عدستي نظارته مجهدتين، وكأنه قضى الليل بأكمله في القراءة .فكانت نظراته تشي بشرود واضح .وقد حذا صاحب الأذنين الشراعيتين حذوه »وأنا النائب العام رسول« وكانت نظرات النائب العام تفيض مللاً بدل التعب، وكان ينظر إلينا، وكأنه يسألنا ما الذي أتى بي إلى هنا .وقد قام يالفاج بدوره، بتقديمنا نحن الثلاثة .أما السائق فقد كان يتابع مراسم التعارف بملل واضح، من نافذة السيارة التي أنزلها حتى منتصفها .وكانت مهمة تعريفه من نصيب أورهان.

-مساعدي إرجان.

ولأنه لم يجد داعياً لذكر رتبته العلمية، فمن الواضح أنه لم يكن على جانب من الأهمية .ولكن إرجان الذي بدا غير مبالٍ بالأمر، أومأ لنا برأسه محيياً من السيارة.

-هل القبر بعيد؟ —سألنا.

ألقيت نظرة إلى ما حولي في محاولة للتذكر.

-إنه بعيد قليلاً ولكن الطريق ضيق، ولا يمكن الوصول إلى هناك بالسيارة.

-إذاً سنترك السيارات هنا.

-أخشى أن تتلوث أقدامنا بالطين —قالها النائب، وبدا أنه يضيق ذرعاً أكثر فأكثر —فالأرض ما زالت رطبة.

-لا تقلقوا —أوضحت لهم —فالطريق الذي سنسير عليه إسفلتي.

نزل إرجان من السيارة، حين علم أننا سنكمل سيراً على الأقدام، كان في نصف عمر أورهان، طويلاً، ذا جسد رياضي .وكان شعره البني الطويل المنسدل على كتفيه، يلمع على ضوء الشمس .وحين رأى البليماوث العجوز، بدا الاهتمام واضحاً في عينيه وهو يقترب منها، حتى ظننته سيلمسها، ولكنه لم يفعل .فقط مرّر يديه بحذر ولباقة على هيكل العنقاء، وكأنه يخشى أن يؤذيها .ومن ثم تمتم الجملة التي يطلقها الفرنسيون حين رؤيتهم سيارة أمريكية تعجبهم.

-أميركية جميلة.

وقد راقتني ابتسامته.

-أتحب هذه السيارات؟ —سألته.

-لقد تعلمت السواقة على هذه السيارات .فقد كان خالي يملك واحدة منها، ويستعملها للنقل على خط كادي كوي، بوستانجى.

وكان الملل قد تلاشى عن وجه النائب الذي يسمع حديثنا، وينظر إلى

السيارة، ولاح وميض فضول بالكاد يُلحظ .ولكنه تلاشى على الفور، وعاد ذلك السأم يخيم على عينيه ووجهه .أما الآخرون فبدوا غير مهتمين على الإطلاق بحديثنا، لذا لم يعلقوا عليه ولو بكلمة واحدة.

وحين شاهد غونغور نظرة الاستعجال في عيني رئيسه، باشر على الفور بالتعليق:

-هل نذهب سيادة النائب؟ —سأل؟

-فلننطلق —أجاب النائب —ألن يأتي أحد من البلدية؟

أشار غونغور بيده نحو البناء المكوّن من طابق واحد.

-إنهم مع العمال في انتظاركم، تفضّلوا أنتم، وأنا سأذهب لإحضارهم.

أخرج إرجان حقيبة ذات غطاء معدني من السيارة، واتجهنا جميعاً نحو قبر الخالة كريمان.

-خالي كان لديه فورد —بدأ يشرح لي —لا أذكر على وجه التحديد موديل أي سنة كانت .وقد تعلمت القيادة عليها .كان لها مقود وفيتيز سيارتك، وكانت أغطية المقاعد في حالة جيدة .وكان المرحوم خالي يحذرني بالقول دائماً: »حاذر من سكب القهوة عليها، وانتبه وأنت تقود، فلو رأيت قطرة واحدة، سأقتلك .كانت سيارة تم الاعتناء بها بحرص بالغ.

وفيما كان يواصل الحديث، كنت أراقب أورهان الذي يسبقنا ببضع خطوات، كان يمسك سيجارته، وقد بدت نتف القشرة واضحة على ياقة معطفه المتسخة .وللحظة اعتقدته رجلاً مطلقاً مثلي، فاتجهت نظراتي إلى بنصر يده اليسرى .كان الخاتم في موضعه المعهود.

-أتعلم أنهم قاموا بالتخلص من جميع تلك السيارات —سألني إرجان.

كنت أعلم ذلك بالطبع، وكان السائقون يقومون بقص هذه السيارات من المنتصف، وإضافة مقعد آخر إليها، من أجل الحصول على مزيد من الركاب، وبدل مقعدين كانوا يحصلون على ثلاثة مقاعد .وبالطبع كان هذا الأمر، يثير حنق والدي.

-كان عملاً مجحفاً —علقت —فهذه السيارة، كانت أجمل في حالتها الأصلية.

-معك حق، ولكن سائقي هذه المواصلات كانوا مضطرين، من أجل لقمة العيش.

ولا بدّ أنّ أورهان قد ضاق ذرعاً بسماع المزيد عن السيارات الأمريكية، فالتفت نحونا.

-متى تمّ دفن والدتك؟ —سألني .ولم يخفِ نظرات الاستخفاف التي وجّهها نحو مساعده.

-ما يقارب السنة.

وقد اقتربت منه فيما كنت أجيبه.

-هممم، هممم —وبدا وكأنه يفكر في أمر على قدر عظيم من الأهمية. وبعد قليل من السير جنباً إلى جنب، عاد يلتفت نحوي —لو كنا محظوظين، فلن تكون المرحلة الرابعة قد بدأت بعد.

وحين لاحظ نظراتي المتسائلة أوضح لي.

-المرحلة الرابعة تصعّب علينا مهمة العثور على عينة مناسبة من أجل

تحليل الـ DNA.فالتفسخ سيكون في مراحل متقدمة .وسيكون ما بقي من الجسد مجرد هيكل عظمي تقريباً .هذا إذا لم يحصل التصبّن.

-أي تصبّن؟ —سألته وأنا أنظر إلى مساعده طالباً المساعدة .وقد اكتفى بالنظر إليّ متبرماً، وكأنه يقول ها قد هزّ الأستاذ رأسه من جديد، ليكن الله في عونك.

-في الحقيقة —قالها أورهان وسيجارته بين أصابعه —في بعض الحالات النادرة، تخضع الجثة لعملية تصبّن .أي أنّ الجثة تحافظ على شكلها لفترة طويلة، دون أن يصيبِّنها التفسّخ .هل كانت والدتك بدينة؟

ورغم أنني لم أكن أملك أدنى فكرة عما يتحدث عنه، لكنني أوضحت.

-قبل أن تمرض، كانت تميل إلى البدانة.

-أنا أعني حالتها حين الوفاة.

-أُصيبت بالسرطان، وفقدت كثيراً من وزنها.

-في هذه الحالة من الصعب أن يحدث التصبّن .ولم تكن كحولية أليس كذلك؟

-لا أفهم مغزى سؤالك.

-ذلك لأن، عملية التصبّن تكون أكثر حدوثاً بين الكحوليين.

اتجهت نحو إرجان مجدداً، فرأيت ابتسامة السخرية التي تعلو وجهه، وهو يومئ برأسه ساخراً من أستاذه، وأدركت حينها أنّ أورهان هذا رجل غريب الأطوار.

-لا سيدي —قلتها وأنا أواري ضحكتي —لم تكن كحولية.

-إذاً لا يمكن أن يصيبها التصبّن.

-ولكن يا أستاذ —انضم إرجان للحديث، وقد حثّ السير ليلحق بنا — المهم أن نعثر على عينة لم تتفسّخ، فالعينة المأخوذة من العظام، ستحتاج فترة أطول من أجل ظهور نتائج تحليل الـ DNA.

ولاحظت أنه يثرثر لمجرد أن يبث مزيداً من الحماسة في أستاذه ليواصل الحديث أكثر .ويبدو أنها طريقته في تحمّل هذا الرجل.

-أهم عنصر هو الدماء —قالها أورهان، وهو يدفع نظارته نحو الأعلى — فلو كانت الدماء طازجة، نستطيع إجراء تحليل الـ DNAبسهولة مطلقة. ولكنك تقول إن الوفاة حدثت منذ سنة، وهذا سيصعب مهمتنا.

-حقاً؟ —سألت.

وقد أوضح أورهان الذي لاحظ بعض القلق في صوتي.

-ولكن لا تقلق، فقد تطور العلم كثيراً، ونحن نملك في مختبراتنا، المعدات ذاتها التي تستخدمها مخابر وكالة الاستخبارات الأمريكية.

-بل هي أكثر تطوراً —قال إرجان —فهم يعانون مشاكل للحصول على جثث لإجراء البحوث عليها .ونحن ليس لدينا أكثر من جثث لا أهل لها.

أما النائب الذي لم يكن يعلم أنّ مساعده يسخر منه، بادر على الفور بتوضيح وجهة نظره.

-أنت مخطئ يا إرجان، مخطئ يا بني —كان يتحدث وهو يهز سبابته في وجه مساعده بتوبيخ —لديهم جثث لا أهل لها، أكثر منا بكثير .ولكن القوانين لديهم أكثر تشدّداً، لذا فهم يجدون صعوبة في إيجاد مادة البحوث الأولية.

وبعد أن أنهى مهمة التصحيح، التفت نحوي وذلك البريق الذي يوحي بالثقة يومض في عينيه.

-لا تقلق، فسنجد طريقة ما، وسنتمكن من الحصول على نتائج هذا التحليل.

-شكراً لك —قلت —فهذا الأمر يهمني كثيراً —عاد إرجان ليقهقه متكتماً، وهو يظنني أواصل السخرية من أستاذه .رغم أنني كنت صادقاً في شكري له .فمعرفة إن كانت الجثة لدوغان أم لا، ستجيب على أهم سؤال يدور في ذهني.

وفيما كنا نتحدث، كان يالفاج والبقية ممن يتبعوننا يسرون في صمت دون أن ينبسوا بكلمة واحدة، ولم يدر بينهم أي حديث .كانوا يسيرون خلفنا بتتابع، مطأطأي الرؤوس غارقين كل في عالمه الخاص .أما أورهان فقد ظل يشرح لي طوال الطريق، حول مراحل تحليل الجثة الثلاث، وكأنه يلقي محاضرة أمام طبيب مبتدئ يحضر تقريره الشرعي الأول .وبقدر ما كان كلامه غريباً، بقدر ما كان مخيفاً في الآن ذاته .ولكن ما أثار غرابتي أكثر من كلمات أورهان، هو قبر الخالة كريمان .فحين رأيت حالة القبر أفقدتني الدهشة قدرتي على الكلام .فبدل ذلك القبر المتواضع، الذي كان يقع بين شاهدين على طرفيه، كان هناك قبر بدا كمزار فخم، تغطيه ألواح مرمرية جميلة .في البداية ظننت أني أخطأت المكان، وبت أتلفت حولي .ولكن الطريق الأسفلتي الذي يمر بمحاذاة القبر، وشجرة الأكاسيا التي تنتصب بالقرب منه، وعلى بعد خطوات كان سبيل الماء، الذي لا أعرف من بناه على وجه التحديد .وحين لاحظ يالفاج حيرتي اقترب مني.

-ما الأمر؟ —سألني.

-لحظة، لحظة —قلتها وأنا أقترب من القبر .ونظرت إلى الاسم المنقوش فوق شاهدة القبر، تحت سورة الفاتحة .كان اسم كريمان كايا، والذي قرأه يالفاج

أيضاً.

-أليست اسم العائلة سوزمن؟ —سألني.

-بلى سوزمن —قلت —كما أنّ مكان القبر صحيح، واسمها واسم والدها صحيح، لكن اسم العائلة غير مطابق وأيضاً..

بدأ الانفعال يظهر على يالفاج.

-وماذا أيضاً؟

-لقد تم تعديل القبر، فهو لم يكن بهذا الشكل.

-ماذا تعني؟ —قالها النائب العام رسول، وهو يهرش رأسه —هل هذا قبر والدتك أم لا؟

-يفترض به أن يكون كذلك، ولكنني لم أسمع قبلاً باسم كايا.

-أليس من الجائز أن يكون كنية زوجها الأول؟ —سألني رسول.

-لا، فكنيته كانت غوكسون، ولا أعلم من أين جاء اسم كايا هذا؟

-ربما كان اسم عائلتها —أوضح أورهان —ولكن من الذي رمّم القبر؟

-ربما يكون أخي دوغان هو من قام بذلك.

-إذاً الأمر واضح —قالها الدكتور أورهان —يبدو أنّ صديقنا كان يكره والده، واعذرني على صراحتي؛ فمن الواضح أنه يكره والدك أيضاً .لذا دوّن اسم عائلتها على القبر .فالعلاقات بين الأب والابن والأم، علاقة مهمة ومعقّدة جداً، وقد وضع عالم النفس فرويد نظريات مهمة حول هذه العلاقة.

كانت كلمات الدكتور أورهان الأقرب إلى الواقع، فدوغان الذي لم يتقبل

يوماً، زواج والدته من أبي، يبدو أنه فضّل مسح هذه الفصول من ذاكرته، وقام بتدوين اسم عائلتها .يا للغرابة، أكان الولد مغرماً بأمه؟ ولكن ليس عليّ الركون إلى تفسير مخلّ كهذا على الفور، فمن الواضح أنه كابد صعوبة كبيرة لتقبل زواجها الثاني، وهذا ما دفعه إلى محاولة إنكاره، خاصة أنها كانت على الدوام تحدثنا كم كان سعيداً في طفولته.

-ها قد وجدتم القبر —كان هذا الصوت كفيلاً بأن نلتفت جميعاً نحو الخلف .كان رجلاً بديناً، يسير مع يالفاج .وكان أحد المرشحين للتصبّن؛ الذي حدثني عنه أورهان، بعد وفاته .كانت تلك المسحة الودودة التي يمتاز بها البُدناء عادة .وكان يتبعه ثلاثة رجال آخرون، يحملون دفتراً ضخماً، ذا غلاف جلدي أسود، ورفشاً ومعولاً .واقترب الجميع منا.

-السيد جمال المسؤول عن شؤون المقابر في البلدية —قالها غونغور وهو يعرفنا إلى الرجل البدين الذي حيّانا بإيماءة من رأسه، والتفت نحو الرجل الذي يحمل الدفتر الأسود، ليقول له، وكأنه سمع الحديث الذي دار بيننا قبل قليل:

-هيا يا قدير، قلّب صفحات هذا الدفتر لنتأكد إن كان هذا هو القبر الذي سنفتحه.

ولا بد أنّ قدير كان المسؤول عن المقبرة، حيث وضع الدفتر الأسود على أرضية المرمر، بينما أوضح لنا جمال.

-ليست قلة ثقة بأقوالكم، ولكن يجب علينا التأكد من الأمر بشكل رسمي، حتى لا نقع في خطأ فتح قبر شخص آخر.

-معك حق —قالها النائب —وإن شئت الحق، فقد شعرنا بالحيرة.

-بالطبع ستحتارون، فليس من السهل العثور على قبر ما، أتعلمون عدد

الناس الذي يموتون كل يوم في اسطنبول؟ لا يمر علينا يوم دون أن يأتينا وافدون جدد .والمقبرة تتسع وتكبر، حتى أنها تعجز عن استيعاب كل هذه الأعداد من الموتى، وكلما أتيت إليها أستغرب هذا الاتساع.

كان يتحدث وهو يقلب صفحات الدفتر.

-حسناً لنرَ، المربع الثالث، الطريق الثامن، القبر التاسع .إنه القبر المنشود —قالها وهو يضرب بيده على الدفتر حيث عنوان القبر، مبتسماً بثقة، وقد التمع خداه الممتلئان بنور شمس الربيع وهو يردف —هذا الدفتر لا يخطئ، أليست هي كريمان سوزمن؟ —قالها وقد رفع رأسه عن دفتر الموت الأسود، وهو ينظر إلينا ليؤكد لنا النتيجة —بلى إنها كريمان —ولكنه تمهل، وهو يقرأ الاسم على الشاهدة المرمرية، وقد اختفت الابتسامة عن وجهه —ولكن الاسم المكتوب هو :كريمان كايا؟

-للأسف هذا ما حصل —قلت —لذا انتابني الشك، إن كنا أخطأنا في القبر.

اختفى كل الحبور والنشاط الذي كان منذ برهة، وأخذ يرمقنا بشك الواحد تلو الآخر بإمعان، وكأنه يبحث عن مسبب هذا الغلطة التي أخلّت بنظام ساكني الدفتر الأسود في رقادهم الأبدي.

-لماذا تودون فتح هذا القبر؟ —سألنا.

ولكن رسول الذي كان يتلظّى حنقاً وهو يراقب جمال وطقوسه البطيئة، انفجر بحدة.

-الأمر لا يعنيك .أهذا قبر كريمان سوزمن، أم لا؟

-العفو سيدي —قال —ولكن تخيل لو أننا فتحنا قبراً خاطئاً، أو تعرضنا

لوباء ما .حينها سيحملونني نتيجة هذا الخطأ.

وكان سيواصل الحديث لولا تدخل قدير.

-هذا قبر كريمان سوزمن.

ولكن تدخل قدير الذي ظهر فجأة ليقطع عليه حديثه، أثار المزيد من غضبه.

-وما أدراك أنت؟ —قال ذلك موبخاً المسكين.

-أنسيت أنني المسؤول عن المقبرة، وأعلم كل ما يحصل هنا؟

هز النائب رأسه بضيق وهو يقول:

-دعه يشرح لنا.

ولكن جمال الذي أطاع الأمر مرغماً، حدج مساعده بنظرة وعيد لم تخفَ على أحد.

- لِمَ أنت متأكد من أنه قبر كريمان سوزمن، اشرح لنا لنجد ما سنفعله.

-قبل ستة أشهر جاء ابن السيدة المتوفاة، وأطلعني على رغبته في تجديد القبر، وبنى لها هذا القبر، ودفع كل التكاليف دون تردد .كما أنّ محمداً أيضاً يشهد على هذا.

كان محمد أحد العاملين في المقبرة، شخصاً نحيلاً، واكتفى بإيماءة تأكيد من رأسه، دون إضافة أي تعليق خوفاً من جمال.

-بدا الرجل غنياً جداً، وكلف السيد دورسون بتجديده .وهو أحد أمهر صانعي القبور في اسطنبول .كما أنه يستخدم أجود أنواع المرمر والإسمنت .وقد

أدعى أنّ الرجل صرف على القبر ما يكفي لبناء منزل صغير .وحين انتهاء القبر طلب من السيد دورسون، بناء على وصية والدته، كما أطلعنا، أن يذيل اسمها بكنية كايا.

-أنت سمحت له بفعل ذلك؟ —وبّخه جمال بحدّة.

-وما الذي يمكنني فعله، فقد كان ابن المتوفاة، وأخبرنا أنها وصية والدته قبل وفاتها.

ولكن توضيح قدير، زاد من غضب جمال الذي احمرّ وجهه أكثر، واتسعت فتحتا أنفه وهما تنفثان الغضب والهواء.

-إذاً فهذا هو القبر —قضى النائب على نوايا جمال بالاستمرار في الجدل.

-دعونا نبدأ بالعمل.

ظلّ جمال يرمق قدير متوعداً، ولكن الأخير بدا غير مبالٍ بالأمر، ولم يحرص على إخفاء لامبالاته أمامنا.

-احذروا وأنتم تفتحون القبر يا محمد —بدأ يوجه العاملين الذين بدأا العمل —لا أريد كسوراً في السطح المرمري —وأردف وهو يتوجه نحونا —لقد أولى المعلم دورسون عناية كبيرة لترميم هذا القبر، وكان يردد وهو يعمل :قسماً أنني سأبني قبراً، لا يتمالك كل من يمر من هذا المكان من الالتفات نحوه إعجاباً .وهذا ما كان بالفعل .كما أنّ أخاك رجل كريم بالفعل .فقد أعطى السيد دورسون كل ما طلبه من مال، كما قام بترميم قبر آخر، في مربع مجاور لسيدة باسم حواء أصلان، قال إنها والدة صديقه.

لا بدّ وأنها والدة صديقه رضا أصلان، يبدو أنّ أخي قد تحول إلى فاعل

خير أيضاً.

وفيما كان قدير يواصل الحديث، كان محمد وزميله قد شرعا في العمل، وبعد برهة من مراقبة العمال، سألهم النائب بوجه علته تكشيرة برم.

-هل سيستغرق الأمر زمناً طويلاً؟ —وأضاف —ليتنا أتينا بعد فتح القبر.

-لا، سيادة النائب —أوضح محمد وهو يمسح قطرات العرق عن جبينه بظاهر كفه —فما أن نرفع الحجر المرمري، سينكون قد وصلنا إلى تربة القبر، وبعدها لن تتطلب العملية أكثر من وقت إنهاء سيجارة .فقد عملت أنا أيضاً على ترميم هذا القبر، لذا لا تقلق.

وقد كان محقاً، فما أنهينا سجائرنا تحت ظلال شجرة الأكاسيا، حتى كانا قد أنهيا العمل .وفتحا القبر، وتوجه محمد نحونا وهو ينادي:

-لقد أنهينا العمل سيدي، وأخرجنا جثة المتوفاة.

وعلى الفور فتح إرجان حقيبته، وأخرج رداءين بلاستيكيين ارتداهما مع أورهان فوق ثيابهما، بالإضافة إلى قفازات مطاطية، وقناع يغطي الفم والأنف. وحملا الحقيبة وهما يقتربان من القبر، يرافقهما كل من يالفاج وغونغور .ولكنني لم أرغب بالاقتراب؟، وتشويه ذكرى الخالة كريمان في ذهني .وقد بقي جمال والنائب معي.

-أعتذر عما بدر مني منذ قليل يا سيدي —قالها جمال وهو يوجه حديثه إلى النائب .وأشار برأسه نحو قدير الذي كان يعمل مع فريقه —لقد أثار تصرفه غضبي، فهو يغير القبور على هواه دون أن يطلعني على شيء .لأنه لن يتعرض للمساءلة في حال حدوث خطأ ما، بل سيقع اللوم كله علي.

وحين لم يعلق النائب بشيء على كلماته، أخذ يواصل نميمته، رغبة في تحريض الرجل.

-رغم أنني أحسنت إليه كثيراً، والكلام بيننا، ولكن هذا الأحمق عندما جاء من مدينة سيواس16، كان عاطلاً عن العمل ولا يتقن أي شيء .وقد قمت بمساعدته وتنظيفه هنا، بسبب القرابة التي تجمعني بزوجته .ورغم ذلك لم يكن جديراً بهذا العمل، فقد جاءني في أحد الليالي وهو يرجف، وقد شحب وجهه وجحظت عيناه هلعاً.

-وما السبب؟ —سألته.

-أخبرني بأنه خائف لأنّه يسمع أصواتاً غريبة في المقبرة ليلاً.

-وما كانت تلك الأصوات؟ —قلت.

ضحك وهو يوضح.

-أخبرته أيها الأحمق :الموتى تنفجر بطونهم بعد شهر من الدفن، وهذا يولد الأصوات التي تسمعها .ورغم ذلك رافقته إلى المقبرة، في تلك الليلة، وها هو الآن يقف أمامي بكل جحود، ويريد أن يفهمني بأنه مسؤول المقبرة .ولكنني سألقنه درساً يعلّمه ألاّ يعض اليد التي ساعدته.

وكان جمال الذي لم يشفِ غليل حنقه بعد، سيواصل صدع رؤوسنا بثرثرته ونميمته المملة، لولا أن أنقذني هاتفي النقال الذي بدأ بالرنين، فتركت الرجلين بمفردهما وأنا أبتعد .كان أحد المراسلين الإخباريين الذي يعمل في إحدى المحطات، التي تتعامل مع صحيفتنا .وبسبب إطلاعهم على مقالة عارف، كانوا يعرضون عليّ الظهور في النشرة الإخبارية، برفقة شكيب إينجي .ولكني أخبرته بأنني لن أفعل. وحين أصرّ المراسل الشاب على إقناعي، قلت له :أرجو أن تظهروا بعض الاحترام،

فأنا في حداد على أخي .«أعتذر وهو ينهي المكالمة .يا لوقاحة شكيب هذا !فمن الواضح أنّ ابن الملعونة لن يكفَّ عن مضايقتي، ولكن من جهة أخرى، فقد راقني اتصال المحطة بي .لا أعلم سبب هذا الإحساس، ولكن من الواضح أنني لم أعد أشعر بالغضب، بسبب ذكر عارف لإسمي في المقال .إلا أن ذلك لن يمنعني من الاتصال به، وتوبيخه على ما ارتكبه .وحين التفت نحوهم وشاهدت جمال لا يزال يواصل حشو النائب بنميمته، وسرد ترهاته، أدركت أنه الوقت الأنسب للاتصال بعارف.

ضغطت على رقمه، وظل الهاتف يرن على الطرف لفترة طويلة قبل أن يرد عليّ، هل السيد عارف نائم حتى الآن يا ترى؟

-ألو —رد عليّ باستعلاء.

-لعنة الله عليك يا رجل —قلتها بحدة.

وما أن سمع صوتي حتى بدأ بالضحك.

-اضحك أيها الحمار، اضحك —قلت —عندما تقع في قبضتي، سأجعلك تضحك حتى الموت.

-عزيزي، أنا الآن أجري لقاءً، سأعاود الاتصال بك.

-أغلق الهاتف إن كنت تجرأ —قلت —لأحطم رأسك.

-إذاً فهو مهم؟ —قالها بنبرة رسمية، وبدأ يوجه الحديث للشخص الذي معه —عن إذنك للحظة.

لم يكن من اللائق أن يتم توبيخه أمام الصحفي الذي يجري معه اللقاء، ولكنه كان هو الملام.

-يا لك من وغد حقير —قلت —ألم نتفق البارحة؟

-صحيح أننا اتفقنا، ولكن الأمر لم ينجح يا صديقي —قالها متلعثماً بصوت منخفض.

-ماذا تعني بأنك لم تنجح؟ لقد طلبت منك البارحة بوضوح ألا تذكر اسمي في المقال.

-على رسلك يا عدنان، هدّئ من روعك قليلاً.

كان صوته أكثر ارتفاعاً، ما يشير إلى ابتعاده عن الصحفي.

-كيف سأهدأ؟ والشرطة تهددني بحبسي لأنني أخفيت الحقيقة عنهم أثناء التحقيق.

-أعتذر منك ولكن هذا القذر شكيب إينجي لوى ذراعي، فقام بتحريض بحري نارمان الذي أخبرني أنه لن ينشر المقال ما لم أطلعهم على مصادري.

-اترك أمر هذين الوغدين لي.

وحين شعر عارف بتلاقي مرامينا العدوانية اتجاه الاثنين، بدأ يتملّقني.

-لا تخشَ يا صديقي —قال —فعما قريب سأتولى مسؤولية نشر كل ما يتعلق بالقضية عوضاً عنه، وهذا ما سيحطمه بكل تأكيد، ولن أعدم وسيلة لأنتقم من بحري فيما بعد.

-وما هي ردود الأفعال على المقال؟

-رائعة !لقد قابلت كبير عائلة بينجي أوغلو، وهو ينفي أي علاقة لهم بالجرائم .كما أنّ مفيد أيضاً مقتنع بهذا الرأي، ويعتقد أنّ هناك من يحاول تقديمهم

كبش فداء .والأهم أنني بدأت أتلقى مكالمات كثيرة حول القضية، أتعلم من اتصل بي منذ قليل؟

- من؟

-رضا أصلان.

-حقاً؟ وماذا قال؟

-قال إن أفراد العصابة من قاموا بقتل دوغان، وقد تمكن هو من النجاة بأعجوبة، كما أنه هرب إلى الخارج منذ تلك الليلة .وقال لي» :إن استطعتم ضمان سلامتي، فسآتي للإدلاء بشهادتي «فحين قرأ المقال، أراد أن يساعدنا .وقد أعطاني أسماء بعض المتورّطين من رجال الأمن، كما أنه أطلعني على شخصية أخرى، لم يذكر لي سوى لقبها، وخمّن من هي؟

-الضابط؟

-تماماً.

-ومن هم رجال الشرطة؟

-قبل أن أخبرك بالأمر عليّ إطلاع قوى الأمن على ذلك.

لم يكن راغباً في إطلاعي، وأنا بدوري لم أبدِ الإصرار لأعرف .وحاول تغيير مجرى الحديث.

-أتعلم من أيضاً اتصل بي؟ واصل.

-وكيف لي أن أعلم؟

-صلاح الدين شقيق رئيس العشيرة بكير كايتان .وطلب مني أن نلتقي

وجهاً لوجه، فلديه ما يخبرني به، واتفقنا على اللقاء مساءً، وحينها سنفهم ما الذي يجري بالضبط .الحدث يتضخّم يا عزيزي، ألم أخبرك أنّ هذا الأمر سيفتح لنا أبواباً لم نكن نحلم بها؟

-ومن الذي يجري معك هذا اللقاء الآن؟

-هذا ما كنت أنوي إطلاعك عليه، فهي واحدة أخرى من المفاجآت. فقد كنت أجلس مع إحدى الحسناوات.

-أيها القذر —هتفت —أتجد وقتاً من أجل قذاراتك في وسط كل هذه المعمعة؟

-لقد أسأت الفهم يا رجل —أوضح —فالسيدة لا تعنيني، ولكنها عشيقة أخيك دوغان؟

-ماذا؟ عشيقة دوغان؟

-أجل، لم يطلعك على الأمر أليس كذلك؟ ولكنها تحفة رائعة .يبدو أنّ أخاك كان ذا خبرة واسعة في هذا الأمر .على كل حال دعنا نلتقي مساءً عند يعقوب، لنأكل شيئاً ما، وأطلعك على كل ما لديّ.

-ولكنك من سيدفع الفاتورة؟

-لا تخشَ يا صديقي، فالصحيفة ستدفعها، لأنك مصدري الإخباري الخاص.

أغلقت الهاتف وأنا أفكر بأن القضية بدأت تتضخم بالفعل، وتدخل كل من رضا أصلان، وشقيق بكير، وعشيقة دوغان، تشير إلى أننا في الاتجاه الصحيح، فها قد بدأت القطع بالتجمع، ما سيطلعنا على مزيد من التفاصيل، ولو استمر

الحال على ما هو عليه، فستظهر الحقيقة عما قريب .ولكن هذه الفكرة كانت ريحاً نقلت بذور القلق، فهل أفوّت أمراً مهماً؟ ولكنني حاولت أن أقلل من أهمية ذلك، وأنا أتذرّع بأنني من اخترت عدم التورط في هذه القضية منذ البداية .ولا مبرر للغيرة، فعارف هو من سيتولى الخبر .فهو يعمل جاهداً، ولا ضير من تسليم العنوان والمفاتيح التي أرسلها دوغان إليه أيضاً .حينها سيتم كشف ملابسات القضية برمتها، وسيلقى قتلة دوغان عقابهم، ولا أجزم أنّ عارف سيتولى رئاسة التحرير، ولكنه بكل تأكيد سيحصل على منصب مهم في الجريدة .وقد يدعوني للعمل معه. أجل هذا هو أنسب الحلول .ورغم إدراكي أنّ هذا هو الصواب، لكنني لم أستطع إخماد دخان القلق الذي كان يتصاعد من أعماقي.

أعدت الهاتف إلى جيبي مجدداً، وأنا أتجه نحو العمال الذين انضم إليهم النائب، بعد أنّ ملّ ثرثرات جمال، الذي لم يدعه وشأنه بل لحق به، وهو يواصل التدخل ليوقع بقدير، دون أن يعيره هذا الأخير أي أهمية، وهو ملتفت بكليته نحو أورهان، ومساعده فيما هما يعملان .كانت المشارط والمقصات، والمفكات، وأكياس البلاستيك الصغيرة، والقوارير تنتقل من يد لأخرى .وكأنهم يجرون عملية على قدر كبير من الأهمية، حيث أورهان يعمل بحذر وتيقظ شديدين، عكس مساعده أرجان، الذي بدا مرتاحاً بل ويعمل بلامبالاة واضحة .بل كان بين الحين والآخر يرفع رأسه عن القبر، وهو يتابع بنظراته العصافير التي تحط على شواهد القبور من حولنا، ساهياً عن عمله.

استمرت العملية حوالى الساعة، وأخيراً تركوا عمال المقبرة يواصلون ردم القبر، واقتربوا منا.

–لقد كنا محظوظين –قالها أورهان الذي خلع قفازي الموتى والقناع عن وجهه .وفيما أعاد إرجان الأدوات إلى الحقيبة، واصل هو الشرح لنا –لم نواجه صعوبة في عملنا، واستطعنا الحصول على عينات مناسبة من أجل التحليل.

-ومتى يمكننا الحصول على النتيجة؟ —سأله يالفاج.

ولكن الطبيب الذي بدا وكأنه سمع السؤال الخطأ، أخذ يرمق المحقق لبرهة، من خلف نظارته.

-الأمر ليس بالبساطة التي تظن —وأضاف وهو يومئ برأسه نحو رسول —وحضرة النائب يعلم جيداً، أننا لو حاولنا الاستعجال، قد نحصل على نتائج خاطئة.

وقد أكّد النائب بإيماءة قبول من وجهه المتكدّر .فلا بدّ وأنه عمل مع الطبيب في عشرات القضايا المماثلة، ولن ينقض كلامه.

-أعلم ذلك يا دكتور —وهو يحاول الابتسام بود —ولكن لو أطلعتنا على وقت تقريبي سيكون..

-ربما في غضون شهر —قاطعه أورهان، وأضاف بصوت حاسم، وكأنه لا يريد سماع المزيد —ولكن عليكم الانتظار قليلاً لمعرفة الوقت على وجه التأكيد.

الفصل العشرون

حين غادرنا المقبرة، كانت الشمس تتوسط كبد السماء .وقد تركنا جمال مع قدير والعمال الذين سيشهدون بصمت الشجار الذي لا بدّ أن ينشب بين الرجلين، وتقريع جمال الذي بدا واضح الحنق طوال الوقت، عند مدخل المقبرة، حيث غادرت التويوتا التي تقل الطبيب ومساعده، والنائب العام، ثم الرينو البيضاء التي تقل المحققين، وأخيراً البليماوث بلونها الأزرق الجليدي .وقبل أن يستقل يالفاج سيارته اقترب مني وهو يقول:

-اسمعني جيداً، فهذا الأمر لا يقبل المزاح والأخطاء، وأعيد لأحذرك من مفيد، وإن علمت بأي شيء جديد، يجب أن تطلعنا عليه على الفور.

وبدوري رسمت ابتسامة ودودة على وجهي، وحاولت زرع الثقة فيه وأنا أقول:

-لا تقلق، ستكون أول من أطلعه على أي جديد أعلم به.

وحين خرجنا إلى الطريق الإسفلتي، اتجهت سيارتا الرينو والتويوتا نحو جسر البوسفور، للوصول إلى القسم الأوروبي، فيما واصلت القيادة باستقامة، دون أن أعلم إلى أين أذهب .هل أعود إلى البيت مجدداً؟ ولكن الجو رائع ولا رغبة لي في حبس نفسي داخل أربعة جدران .أنزلت زجاج النافذة قليلاً، لتقتحم دفقة من عطر منعش تختلط فيه رائحة التراب الرطب بالبحر والشمس والصنوبر والأزهار، فملأت رئتيّ بعطر الطبيعة .ويبدو أن دماغي الذي صحا بعد دفعة الأوكسجين النقي، بدأ

بالعمل، وأدركت أنني لم أتناول شيئاً حتى الآن .فخوفاً من عدم استيقاظي، نهضت قافزاً من السرير ما إن سمعت صوت المنبّه، وحلقت ذقني، وارتديت ثيابي، وخرجت على عجل من المنزل .ونسيت الجوع، بسبب الضيق الذي سببته لي فكرة فتح القبر، والجدال الذي نشب بيني وبين المحققين .ورغم أنني لا أميل إلى تناول الغداء كثيراً، كان لا بدّ لي وقد استيقظت باكراً، من تناول بعض اللقيمات.

بدأت أصوات معدتي الفارغة تصلني، وهي تطالب بوجبة شيخ المحشي، مع بعض الأرز والمخللات، وسلطة الموسم .ستكون وجبة رائعة بحق، والجميل في الأمر أنني أعرف مطعم القناعة في أوسكودار حيث يقدم بعضاً من ملذات المطبخ العثماني .وقد دلني توفان على هذا المطعم.

-هناك أربع ملذات في الحياة —كان يقول المرحوم —المعرفة، الفن، الطعام، وممارسة الحب .وحياة الإنسان مبنية على هذه المتع الأربع .وما عدا ذلك مجرد ترهات.

في الحقيقة لم يكن مهتماً بالعلوم الحديثة بشكل كبير، ومن الفلسفة كان يفضل فلسفة اليونان القديمة، ويقرأ أعمال كل من أفلاطون وسقراط.

»لا أفهم ذرة من الهراء الذي يتفوه به الفلاسفة المعاصرون«، لم يكن يتوانى عن الاعتراف، ولم يكن بذلك الرجل الضليع في الفن، وكان يميل إلى قراءة الأدب، وكما في الفلسفة كان يكتفي بقراءة الأعمال الكلاسيكية .ولن أدعي أنه كان يكثر من المغامرات مع الجنس الآخر .ولكنه كان خبيراً حقيقياً في موضوع الطعام .وكان ذواقة من الطراز الرفيع، وقادراً على استخلاص الطعم حتى من الحجر، لخبرته الواسعة في الطبخ .وكان يعرف عن ظهر قلب، أين يقع أفضل مطعم في كل منطقة من اسطنبول، يختص بنوع معين، من أحسن مطاعم السمك على البوسفور، إلى المحلاية في بيشيكتاش، إلى محل المثلجات في فيفا، وبائع المخللات في جيهانغير، وصانع الحلوى في الفاتح .ويعرف أين تخبئ زوايا اسطنبول أطيب ملذاتها

من شراب أو طعام .وكان لا يمل من الحديث عن الطعام في أي وقت .وأذكر كيف انطلقنا في عصر يوم خريفي، من جاغال أوغلو إلى أوسكودار، من أجل تناول وجبة الأرز وشيخ المحشي هذه .وبما أنني وصلت إلى تخوم أوسكودار جائعاً، فلا ألذ من وجبتي المفضلة في المطعم ذاته .فدعكم من الإجحاف بحق شهيتي، فعظام توفان في قبره لن ترقد بسلام اليوم، إن ارتكبت خطأ عدم إسعاد معدتي بمكافأة كهذه .ودون مزيد من التردد استدرت بسيارتي نحو أوسكودار، وأنا أحلم بالملذات التي ستتجول على حليماتي الذوقية بعد قليل بامتنان عميق .وفي إحدى صدف الحياة التي تعمل على الدوام عكس رغباتي، بدأ هاتفي النقال بالرنين، قبل تجاوز مئة وخمسين متراً.

-هل أتحدث مع السيد عدنان سوزمن؟

بدا صوتها يأتي من مكان بعيد.

-تفضلي —أجبت.

-أنا دميت هوماي.

لم أتذكر أنني أعرف أحداً بهذا الاسم.

-صحيح أننا لم نتقابل، ولكنني أعرف دوغان عن قرب —أوضحت لي.

وكنت سأظل على جهلي بشخصيتها، لولا أنها أوضحت لي:

-لقد حصلت على رقم هاتفك من السيد عارف —حينها خمّنت أنها المرأة التي حدثني عنها عارف منذ قليل؛ إنها عشيقة دوغان.

-أ نتِ —تلعثمت حائراً بأي صفة سأخاطبها، عشيقة دوغان، أم صديقته، أم خطيبته؟

-كنا على علاقة وثيقة –أراحتني بتوضيحها –لقد كان دوغان شخصاً خاصاً في حياتي.

وشعرت برعشة في صوتها.

-فهمت –علّقت.

-ولكنني لا أفهم شيئاً –قالت وكأنها تعترض على حكم جائر –أنت أخوه وتعرفه أكثر، ما الذي حصل لدوغان؟

-للأسف، فأنا أيضاً لا أعلم –والغريب أنني كنت أحسني مذنباً –فالشرطة ما زالت تحقق في الحادثة.

صمتت للحظات، وخمّنت أنها تمسح دموعها بصمت.

-يجب أن نلتقي –قالتها فجأة –علينا أن نلتقي ونتحدث، ما رأيك أن نلتقي الآن؟

-أنا في السيارة، أتجه نحو أوسكودار.

-ألن تأتي إليّ؟ أنا في مخبز حلويات فندق الديفان.

بقيت ساكتاً.

-هناك أشياء يجب أن نتحدث بشأنها –قالت –أرجوك أن تأتي .علينا فعل شيء من أجل دوغان .فقد يكون بحاجتنا.

كنت حائراً في ما عليّ قوله.

-أرجوك أن تأتي –أضافت المرأة –فدوغان لا أحد له سوانا.

أدركت حينها، أنه ما كان يجب أن أرد على المكالمة، وأكثر من ذلك

رفض العرض المقدم إليّ، ولكن الإنسان مجبول على الأخطاء، ولا تكتمل عاداته دونها.

-حسناً، أنا آت —قلت.

-شكراً جزيلاً، أنا في انتظارك.

وقد بدا امتنان عميق في صوتها، جعلني أنسى الندم لأنني أذعنت لها. كبحت جوعي، وأنا أرجو أن يسامحني توفان، واستدرت عائداً، عند أول تقاطع. واتجهت نحو جسر المضيق، متبعاً الطريق ذاته الذي سارت عليه كل من التويوتا البيضاء، وسيارة الرينو قبل قليل.

إذاً فدوغان كانت لديه حبيبة، فكان الرجل الأمثل بالنسبة لكل النساء. وحين كان يرتاد الجامعة، كانت لديه صديقة .وكان يقول إنها خطيبته، وكانت تماثله في تطرفها القومي .وكنا نطلق فيما بيننا، لقب أثينا على فتيات الذئاب الغبر. والغريب أنني نسيت اسمها الحقيقي .على أي حال، أذكر أنّها كانت فتاة طويلة القامة، نحيلة، بشرتها بيضاء شفافة .وأن دوغان قلّدها خاتماً حينها، حتى أنها أتت للتعرف إلى السيدة كريمان، وتقبيل يدها .وأغلب الظن أن علاقتهما انتهت بدخول دوغان السجن، ثم سفره إلى الخارج .وهناك تعرف إلى نساء كثيرات، أحقاً فعل ذلك؟ لا أظنه رافق هناك سوى العاهرات.

أحسست أنني أحمل كتلة طين من أحقادي، وألوث بها كل صفحات حياته» .ولكنه الواقع «تمتمت .فهو بائع مخدرات، ومجرم، ومبتز، وجاسوس عمل لكل الجهات المتضاربة .ووحده الله يعلم أي خبرات أخرى يملكها .فكيف لي توقع حياة طبيعية له، استناداً لهذا المحصول من الفساد؟ كما أنّ دوغان كان مدركاً لهذه، وقد اعترف لي أنه وبعد الخوض معهم في كل هذه القذارات، ها هم ينوون التخلص منه، لكي ينظفوا أيديهم .ولكن اعترافه، لا يبرر لي إلصاق مزيد من التهم

به .فحتى أسوأ الأشخاص، يحافظون على بقعة إنسانية في أرواحهم، وقد يكون دوغان رغم حياة الإجرام التي عاشها، قد عايش في الوقت ذاته قصة حب عظيمة. وما يليق به أكثر من الزواج والبقاء وفياً لزوجته طوال العمر، هو قصة حب مهيبة ولاهبة .لا شك أنني أبالغ كثيراً، فما أدراه بالحب الحقيقي، وهو الذي بنى حياته المهلهلة تلك على جسر من العلاقات الإنسانية الفاشلة .ولكن لهذا السبب بالذات، قد يكون وجه كل المشاعر والأحاسيس الإنسانية التي كان يخبئها في أغواره، نحو امرأة واحدة، حظيت بكل ما حُرم منه الآخرون .لا أظن ذلك، فالأشخاص الذين مثل دوغان، فاقدون لقدرتهم على الحب.

أحقاً؟ وأي نوع من البشر برأيك، يملك تلك القدرة المزعومة؟ الصحفيون الذي تخلوا عن مهنتهم في منتصف العمر، بينما كانوا في ذروة عطائهم؟ ما هي القدرة على الحب أصلاً؟ أهي البقاء طوال العمر على حب امرأة واحدة، قد لا تكون تبادلك المشاعر ذاتها؟ ولكن أليس هذا هو مغزى الحب الحقيقي؟ التعلق الجارف برغبة لن تتحقق؟ كفّ عن الترهات، فأنت لست مغرماً بفوندا على أي حال، ولو لم يظهر ذلك الرسام المدعو إتهم على الساحة، لما شعرت بكل هذا الحزن والأسى الذي تشعر به .ولكن ما العمل، والناس لا يدركون قيمة ما لديهم إلا بعد الخسارات .لا تخدع نفسك، فأنت لم تخسر فوندا منذ ثلاثة أيام، لقد خسرتها منذ شهور وسنوات، والأدهى أنك لم تشعر بالأسى على خسارتك هذه. ولكنك حين علمت بعلاقتها، بدأت تتقمص دور الزوج المخدوع، وتندب حظوظك بشفقة خادعة .وما الذي كان يجب علي فعله، لأنّ فوندا قد أغرمت برجل آخر؟ أكان علي الرقص محتفلاً مثلاً؟ ولكنها لا تزال في مقتبل العمر، وبالتأكيد سيدخل حياتها رجل جديد، إلا أنّني لم أتوقع مكابدة كل هذا الألم جراء ذلك.

ربما لم أعد مغرماً بها، كل ما هنالك شعور مبهم بالمحبة .فهي وإن لم تكن أجمل النساء اللواتي تعرفت إليهن، ولكنها كانت الأذكى، والأكثر طيبة، بالإضافة

إلى روحها المرحة .والأهم من كل هذا أننا كنا أفضل صديقين، ولا أظنني سأعثر على واحدة أخرى تشبهها .ولكن هل بدأت البحث؟ حتى لو فعلت ذلك فمن الصعب ألا أعود خائباً .فهي مثلاً لا يمكن أن تغرم بشخص مثل دوغان، وهذا ما كنت أعنيه قبل قليل، فرجل مثله، لن تربطه علاقة جدية بامرأة مثلها، ولكن قبل الحكم المطلق عليّ مقابلة حبيبته .ما كان اسمها؟ ديميت .ديميت هوماي .فقبل التعرف إليها، لا يمكنني اتخاذ قرار في هذا الشأن .فربما تكون شخصاً جيداً، هذا وارد، ولكنني أشعر أن هناك حلقة مفقودة.

ظلت هذه الأفكار تتجاذب حوارها المتبادل داخل أروقة ذهني، حتى وصولي فندق ديفان، وركن سيارتي في مرأبها، ومن ثم التوجه نحو مخبز الحلويات، والدخول إليه .كان المخبز المتطاول كمطاعم القطارات، بصفي طاولات ليس هناك سوى ثلاثة منها مشغولة .في المقعد الثاني الذي يقابل النافذة، تجلس امرأة في متوسط العمر، مع كهل، أما الطاولة التي تليهما، فقد كان يجلس عليها شابان أجنبيان، أحدهما زنجي، والآخر أشقر البشرة، ورغم ارتدائهما ملابس مدنية، لا أدري ما الذي دفعني إلى الاعتقاد أنهما جنديان .أما المرأة التي كان عليّ مقابلتها، فقد كانت تجلس على آخر طاولة، مرتدية السواد وقد أسندت ظهرها إلى الحائط الذي غطيّ بمرآة كبيرة .وحين رأتني رفعت يدها قليلاً، ملوحة وهي تبتسم، ابتسامة بدت لي جذابة.

-مرحباً، السيدة ديميت أليس كذلك؟ —سألتها.

-ولا بد أنك السيد عدنان؟ —قالتها وهي تمد يدها مصافحة —عرفتك من صورك التي تنشر مع مقالاتك في الصحف.

وفيما أنا أبادلها المصافحة، وأجلس على الكرسي، لم أكن قد قررت بعد، إن كانت جميلة أم لا .كانت في حوالى الثلاثين من عمرها، ترتدي سترة يقارب لونها الأسود لون خصلات شعرها المنهدل على كتفيها .أما بشرتها فقد كانت على

عكس لون شعرها، بيضاء حتى الإذهال .كان وجهها نحيلاً، وتحت حاجبيها المستقيمين، كان الأسى واضحاً في عينيها العميقتي الخضرة، من خلال رموشها التي لم تكن طويلة بما يكفي .وقبل البدء في الحديث، سحبت سيجارة من علبتها، وكأنها تكسب الوقت من أجل استجماع جسارتها .كانت شفتاها الثخينتان المزمومتان، منسجمتين مع أسى عينيها، ووجهها النحيل بدا شحوبه واضحاً في غياب أي مساحيق تجميل عليه .وحين اقتربت منها، وأنا أشعل سيجارتها، تناهى إليّ عطر بالكاد يُشم، فقررت حينها :إنها امرأة جميلة.

-شكراً لك —قالت.

وبدوري سحبت سيجارة من علبتي، وأشعلتها.

-دوغان كان يحدثني عنك كثيراً —قالت —كنت من الأشخاص الذي أثّروا فيه.

وفيما هي تتحدث، كنت أهمّ بوضع قداحتي على الطاولة، فتوقفت يدي في منتصف الطريق، واتجهت نظراتي المستغربة نحوها، وقد لاحظت الدهشة التي ألمت بي.

-أجل —أردفت —كان يقول لي إنك شخص غريب الأطوار، وكنت الشخص الأخير من نوعك.

ورغم كرهي لهذه التشابيه، لكنني ابتسمت .وتماديت أكثر لأثبت لها عدم اهتمامي بالأفكار التي كانت يحملها عني، وأنا أقول:

-إذاً الشخص الأخير من نوعه —قلت متمتماً.

وقد بدت حمرة خفيفة على خديها الشاحبين، وقد ظنت أنني اعتبرت الأمر سخرية.

-يا إلهي، حاولت إصلاح الحاجب، ويبدو أنني اقتلعت العين —قالتها وهي تبلع ريقها —كان يشير إلى مدى نزاهتك، وأن الوسط الصحفي بات يفتقد أمثالك.

-إنها بادرة لطيفة منه —علقت —من الجيد معرفة أن أخاك يكنّ لك التقدير.

-وأنا أيضاً أتابع مقالاتك —أردفت —وقد اكتسبت شهرة واسعة، بعد نجاحك في كشف ملابسات قضية المصرفي.

-كان ذلك فيما مضى، أما الآن فهم لم يعودوا يسمحون لي بالكتابة.

ولكي لا تفهم المرأة أنني أحاول إثارة شفقتها علي، فقد كنت أتكلم بصوت خرج متباهياً، كما يحدث في كل مرة يتم فيها التطرق لهذا الموضوع.

-إنه ظلم كبير —علقت.

-هناك كثير من الظلم في هذا العالم —قلتها نبرة وملامح اكتسحتها الجدية —دعك من الحديث عني، ولنتحدث عن دوغان —رغم أنني كنت أنوي أن أوضح لها، أنني لست مهتماً كثيراً بهذا الموضوع، ولكنها قاطعتني بالقول:

-أجل، فلنتحدث عن دوغان —عاد التكدر إلى ملامحها، وبدأ صوتها يرتعش كما حدث حين حدثتني على الهاتف —ما الذي يحصل سيد عدنان، أنتم الصحفيون مطلعون أكثر على حقيقة الأمر .تلك الجثة التي في السيارة —لم تستطع أن تكمل سؤالها، وقد غامت عيناها الخضراوان تحت غلالة شفيفة من الدمع الذي بدأت تمسحه بمنديلها —ولأنني أكره امرأة باكية قبالتي، كان التصرف الأنسب، هو أن أوضح لها أنني لا أرغب في التورط في الأمر، والمغادرة بأسرع وقت ممكن .ولكن العاشقة التي تجلس أمامي، تعتبرني أملها للعثور على حبيبها، ولا بد

أنها كانت تعتقد؛ كما دوغان، أنني الوحيد القادر على تقديم العون لها .ومن المحال أن يخطر لها، أنّ أخ حبيبها، يمكن له التخلي عنها بهذه البساطة .ولم أتخلّ عنها بالطبع، بل سحبت نفساً عميقاً، واقتربت منها، وأنا أربت على كتفها مواسياً.

-لا تبكي —قلت — فليس من المؤكد حتى الآن إن كانت تلك الجثة تعود لدوغان.

بالطبع لم تعمل بنصيحتي، وبكت ما شاء لها البكاء، ثم تناولت منديلاً من العلبة الموضوعة إلى جانب علبة الدخان، ومسحت دموعها، وهي تقول لي:

-أعتذر، فما جرى كان غير متوقع بصورة مفاجئة، ولم أتمكن من التمالك بعد.

-للأسف أنت محقة —وأردفت —فأنا أيضاً لم أتمكن من تجاوز هول الصدمة.

وبعد أن مسحت عينيها، قالت:

-لقد رأيت الجثة؟ صحيح؟

-رأيتها.

-إنه لا يشبه دوغان، أليس كذلك؟

لا بد أنها هي أيضاً رأتها، وتنتظر مني ما يؤكد آمالها.

-لا تشبهه —أجبت باقتضاب.

وحين لم تسمع ما كانت تتوقعه مني، سألتني.

-ولكننا لن نستطيع التأكد، أليس كذلك؟ —وأضافت بخيبة ألم —

الجسد كان محترقاً بالكامل.

-معك حق، ومن دون نتائج تحليل الـ DNAلن نتمكن من الوصول إلى يقين .وحتى ظهور النتائج، لا بد من الانتظار شهراً.

حدقت إلي بعينيها المحمرّتين.

-سننتظر شهراً بأكمله؟ —سألتني.

-لا حل آخر أمامنا.

كان الهلع الذي في عينيها، يزداد مع كل كلمة.

-ألا نستطيع فعل شيء ما؟

-وما الذي نستطيع فعله؟ —قلت —فالشرطة تحقق في الحادثة.

-ولكنني لا أثق برجال الشرطة أولئك.

-أيهم تقصدين؟

-المحقّقان اللذان اصطحباني من أجل معاينة الجثة، ثم قاما بالتحقيق معي .أحدهما كان طويل القامة، ضخم الجثة، والثاني متوسط الطول.

-أتعنين غونغور ويالفاج؟

-أجل أجل، هذان هما اسماهما، وقد قاما بطرح كثير من الأسئلة حول دوغان، وأخبراني أنهما سيعاودان الاتصال بي إن اقتضى الأمر، ولكن تصرفاتهما لم تكن توحي بالثقة مطلقاً.

هل كانت هذه المرأة تعلم ما لا أعلمه؟ هل عليّ سؤالهما؟ ولِمَ لا، وقد ذكر عارف اسمي في المقال جهاراً نهاراً؟ وحبة رمل زائدة أو ناقصة لن تغير شيئاً في

الموازين.

-لِمَ لا تثقين بهما؟ —خرج صوت بثقة الأيام الخوالي، حين كنت أجري هذا النوع من التحقيقات بحرفية عالية، ولكنني أبعدت الفكرة عن ذهني، وحاولت التركيز على ما ستدلي به ديميت.

-لأنّ أسئلتهما وتصرفاتهما كانت مريبة بعض الشيء .فبدل محاولة الكشف عن القتلة، كانت معظم أسئلتهما تتركز على ما كان يفعله دوغان .أين هو رضا أصلان شريك دوغان؟ وإن كانت لديه أرصدة في البنوك؟ ومن هم أصدقاؤه؟ ومن كان يقابل من القوميين القدامى؟ وإن كنت أعرف أصدقاءه، وفي أي الفنادق كان يقيم؟ وسواها من الأسئلة.

-ولكن —قلتها مقاطعاً حديثها —من الطبيعي جداً طرح هذه الأسئلة بهدف الوصول إلى القتلة .وقد قاما بطرح أسئلة مماثلة علي أيضاً، ما المثير للشكوك في أمر كهذا؟

بعد أن رمقتني للحظات، بعينيها اللتين كانتا أغمق من خضرة عيني دوغان، علقت.

-ليس الأسئلة فقط، بل تصرفاتهما أيضاً كانت توقظ الشكوك في النفس .لا أعرف كيف أشرح لك، ولكن بدا لي أنهما يهتمان أكثر من قتلته، ربما لاعتقادهما أنه ما زال حياً.

لقد انتابتني الشكوك ذاتها أيضاً، ولكن دميت بدت أكثر ثقة في الانطباع الذي كونته عن المحققين .فالنساء —وبخاصة عندما يتعلق الأمر بالشخص الذي يحببنه —يملن عادة للاعتقاد بضرورة الثقة في حدسهن.

-وبرأيك ما الذي دفعهما إلى هذا الاعتقاد؟ —سألتها.

وقبل أن تجيبني، اقترب النادل من طاولتنا ليسألنا عما نرغب فيه، وحين رأيته تذكرت الجوع مرة أخرى، فطلبت قطعة كيك بالزبيب مع كوب شاي، وطلبت هي فنجان كابتشينو.

وحين ابتعد الشاب قالت:

-لقد كان دوغان متورطاً في عالم خطر —بدأت بالتوضيح —ولكنه لم يكن يعمل بمفرده بالطبع، فقد كانت هناك شخصيات من قوى الأمن تعمل معه.

-هل حدثك عنهم، أو صدف أن قابلتِ أحدهم؟

-لقد كان دوغان شخصاً كتوماً، ولم يكن يحدثني عن أعماله، وكان رضا أصلان الوحيد الذي أعرفه .فهو لم يعرفني إلى أحد من أصدقائه .ولكنني تعرفت إلى صلاح الدين شقيق بكير، وقضينا العطلة سوياً في إحدى المرات حين كنا في الخارج.

عاد إليها شرود الحزن مجدداً.

-تعنين خارج البلد؟ —سألتها مستوضحاً.

-أجل سافرنا إلى سويسرا.

-أكنتما تسافران أنت ودوغان إلى الخارج كثيراً؟

-لا ليس كثيراً، فقد سافرنا مرة إلى إيطاليا سوية، ومرتين إلى سويسرا.

-ولِمَ سويسرا؟

-لقد كان لديه بعض الأصدقاء في مدينة أولتن.

-من القوميين؟

ولأنها اعتقدت أن هذه المحادثة لا تسير لصالح دوغان، فقد بادرت بالقول:

-القوميون القدامى، ولكنهم جميعاً تخلوا منذ فترة طويلة عن هذه الأفكار، وهم منشغلون بمواصلة حياتهم دون متاعب .كما أنّهم كانوا يتحدثون عن ذكرياتهم ولم يتطرقوا لأي موضوع سياسي أمامي.

تمهلت للحظة وهي تقرب السيجارة من شفتيها، لسحب نفس آخر، ولكنها عندما رأت أنها محترقة حتى العقب، أطفأتها في المنفضة .وحين لاحظت أنني أراقبها، ابتسمت لي ببراءة .ومن ثم عادت إلى حديثها السابقة وهي توضح لي في النهاية.

-كما أنّ دوغان لم يكن من هواة السياسة.

-ألم يكن له معارف سواهم في سويسرا؟

-بلى، كان هناك مديره السابق في العمل، ويدعى أبراهم أفرييل، وهو يهودي، وقد عمل دوغان في طاقم الحماية الخاص به، وكان الرجل يكن محبة عميقة لدوغان .وكان يختلف عن أصدقائه القوميين .كما أن دوغان أيضاً كان يبادله المحبة ذاتها .ويردد على الدوام »ليتني بقيت في سويسرا، أعمل مع أبراهم.«

-أكان يردد ذلك، بسبب الأعمال الخطرة التي زجّ نفسه فيها في اسطنبول؟ —سألتها.

لم تجبني، ولكنها كانت تتفحّصني بنظرات يخيّم عليها حزن عميق، ولكن هذا لم يردعني، فواصلت.

-كيف علمتِ بأمر تورّطه في هذه الأعمال؟ أهو من أخبرك؟ — ألححت بالسؤال.

-لم يخبرني بشيء —قالتها، وتوقفت للحظات، ظننتها تفكر في ما تجيب، ولكنها كانت تنوء تحت حمل الذكريات، الذي يرسم أسى كبيراً على وجهها، وهذا ما دفعني للتفكير أنها تحب دوغان بالفعل .فقد غامت عيناها الخضراوان مجدداً .ولكنها لم تبكِ، وأشارت بيدها إلى الطاولة التي يجلس عليها الجنديان، وهي توضح.

-هنا التقينا أول مرة.

وعادت تنظر إليّ، وجاهدت في رسم ابتسامة مقتضبة على وجهها.

-أجل —قالت —هنا التقيت به للمرة الأولى، فقد كان زوجي السابق نامق، قد قام بخطف ابنتي بورجين .إن شئت الصدق، لم تكن عملية خطف حقيقية، فبعد أن أقرت المحكمة ببقاء ابنتي معي، أصرّ هو على رؤيتها متى شاء، وأخذها إلى منزله .وفي إحدى المرات، أخذها صباحاً، ولم يعدها إلي مرة أخرى، وحين اتصلت به، رد علي:

»ابنتي ستبقى معي، وإن شئت تستطيعين اللجوء إلى المحكمة التي سيطول حكمها عدة أشهر، ولكن إن أعطيتني المبلغ الذي أريد، فسوف أعيدها إليك.«

احترت في ما عليّ فعله، فأنا وحيدة أبويّ، اللذين كبرا في السن، ولم أجرؤ أن أخبرهما بخبر كهذا، خوفاً عليهما .حينها تذكرت أحد رجال الشرطة الذين تربطني به معرفة في أنقرة، اتصلت به، وأطلعته على ما حصل .وقد أخبرني:

»إن حاولت اللجوء إلى الشرطة، فستأخذ المشكلة وقتاً طويلاً للحل، ولكنني سأرسل لك أحد أصدقائي، وهو سيجد لك الحل في أقصر وقت ممكن.«

وبالفعل، فقد اتصل بي دوغان بعد انقضاء نصف ساعة، لم يطلعني على اسمه، ولكنه أخبرني أنّ مدير قسم الشرطة طلب منه الاتصال بي، وبادر بسؤالي:

»كيف أستطيع مساعدتك؟.«

وعندما أخبرته بخطف ابنتي أوضح لي.

»لا نستطيع التفاهم على الهاتف، علينا أن نلتقي، لتطلعيني على تفاصيل المشكلة، حددي الوقت والمكان المناسبين من أجل اللقاء.«

ولن أخفيك، أنني لم أرغب أن يعرف رجل من هذا القبيل، عنوان بيتي.

»لا يمكننا اللقاء في منزلي، ما رأيك أن نلتقي في مكان عام؟ «سألته.

ولكنه وافق دون اعتراض.

»إذاً فلنلتقِ بعد ساعتين، في مخبز حلويات فندق ديفان —وأضاف —ولا تنسي إحضار صور ابنتك وزوجك السابق معك.

وكانت تلك المرة الأولى التي التقينا فيها، جلسنا على تلك الطاولة، وفي الحقيقة لم يطابق الصورة التي في مخيلتي، فقد كان أنيقاً بشكل ظاهر .وحتى قسمات وجهه أو نبرة صوته لم تكن قاسية أو عنيفة، وكان لبقاً في كل تصرفاته. وأحسست نفسي أجالس أحد رجال الأعمال، ممن يحملون أرقى الشهادات .وقبل البدء في الحديث سألني:

»هل تناولت فطيرة التوت هنا؟.«

وحين أجبته بالنفي أكّد لي» :إذاً عليك تناولها «وقبل أن يتيح لي الاعتراض، أومأ للنادل، وطلب منه، قطعتين من الفطيرة، مع فنجاني كابتشينو. وقد أزعجني أسلوبه السلطوي قليلاً.

»اسمعني «أوضحت له »لست في حال تسمح لي بتناول شيء، كل ما أريده منك هو العثور على ابنتي في أسرع وقت ممكن.«

أضاء بريق ما في عينيه وهو يؤكد لي:

»لا تخشي شيئاً، سأعيد لك ابنتك، ولكن دعينا في البداية نتناول فطيرتنا.«

وكانت الثقة المطمئنة في صوته وهو يحدثني، كافية كي أذعن .وبدأت أشرح له ملابسات القضية، فزوجي السابق، كان يعمل عارض أزياء، وبعد زواجنا، قمنا بفتح وكالة متخصصة بالعارضات بواسطة نقودي، ولكن بسبب تعلقه بآفة لعب القمار، فقد تدهور عمل الوكالة، وحين عرض عليّ أن يتولى رئاسة معمل النسيج الذي يملكه والدي، ورفضت الفكرة، زادت هوة الخلافات بيننا، وأخيراً انفصلنا .ولكنه لم يكن ينوي أن يدعني وشأني، فقد ظل يطالبني بمبالغ مالية ويحول دائنيه إليّ، وحين رفضت الخضوع لمطالبه، قام بخطف ابنتي، وهو الآن يطالبني بفدية كبيرة لاستردادها .وقد ظل دوغان يسمعني بصمت وانتباه، وأخذ صور نامق، وابنتي معه .وسجل على دفتر صغير، بعض الملاحظات عن عنوان نامق، وأسماء أصدقائه، والأماكن التي يتردّد عليها .وأذكر حينها أنني، كما اليوم، لم أتمكّن من حبس دموعي.

»أرجو ألا تبكي «قال لي »ما لم يكن زوجك السابق، قد سافر بها إلى خارج البلد، فالأمر لن يتطلب أكثر من أسبوع، وستجدين ابنتك في حضنك من جديد.«

في مساء اليوم التالي، بدأ جرس المنزل بالرنين، وحين فتحته، وجدت بورجين أمامي .وكان معها مساعد دوغان، الذي سأعرف فيما بعد أنّ اسمه رضا. بحثت عيناي عنه، فوجدته يقف بالقرب من سيارته السوداء الـ BMW، وبعد أن تولت المربية الاهتمام ببورجين، اتجهت نحو دوغان .شكرته، وأنا أسأله كيف لي أن أرد له هذا الجميل.

»لست مدينة لي بشيء «قال.

»لماذا؟ «سألته.

»لأنّ الأمهات مقدسات، وأم جميلة مثلك، قدسيتها مضاعفة .«أجاب.

»تفضّل بشرب فنجان قهوة إذاً — «دعوته لدخول المنزل.

»هل نسيت؟ —سألني بنبرة ساخرة »لا يمكننا اللقاء في منزلك.«

شعرت بالخجل، وأنا لا أعلم ما عليّ قوله، ولكنه احتضن يدي بين يديه، وهو يدس فيهما خلسة، ورقة صغيرة.

»لا عليك «قال »فلست مدينة لي بأي شيء، ولكن إن رغبت في تناول فطيرة ..وفنجان كابتشينو معي، فرقم هاتفي في تلك الورقة التي تحتضنها يداك.«

ولم يطلعني على شيء مما حصل، واستقل سيارته مع صديقه وانطلقا، وقد علمت بتفاصيل ما جرى في اليوم التالي من الصحف، فقد تعرض زوجي السابق للضرب الذي أودى به إلى الغيبوبة، وألقي جسده في مكان مقفر .وظلّ عشرة أيام في العناية المركّزة، وحين استرد وعيه، أفاد بأنه تم الاعتداء عليه من قبل أشخاص لا يعرفهم .ولم يجرؤ على إزعاجي مطلقاً .وقد بقيت مترددة في موضوع الاتصال بدوغان، فصحيح أنه أعاد لي ابنتي، ولكن لم أحدد إن كان من الصواب الاتصال برجل، فعل ما فعله بنامق .لذا اتصلت بمدير قسم الشرطة، الذي أرسله إليّ، ولكن نيتي الحقيقية كانت الحصول على معلومات تخص دوغان.

»إنه رجل صالح «أوضح لي »لا يغرّك ضلوعه في هذا النوع من الأعمال، فهو شخص محترم بالفعل.«

وقد كانت كلمات الرجل كافية لتشجعني، والآن حين أستعيد ما جرى،

أعتقد أني كنت مصممة على الاتصال به، وكان إطراء مدير القسم مجرد ذريعة لا أكثر .وهكذا التقيت دوغان.

»حدثيني عنك «طلب مني.

»لماذا تريد شيئاً كهذا؟ «سألته.

»كنت أحب فتاة تشبهك تماماً فيما مضى .«قال.

»ألهذا السبب رغبت في لقائي؟ «سألته.

»لا، فأنت أجمل وأكثر طيبة منها.«

وقد راقتني كلماته، ولكنني حاولت التستّر على مشاعري.

»لا أعلم كيف كانت حبيبتك، ولكن كيف لك أن تعرف أنني أكثر طيبة منها؟ «استوضحت منه.

»من حديثك، وأسلوبك في الكلام، فهي أشياء تدل بوضوح على طبيعة الشخص «شرح لي.

»أتعني أنه يمكن الحكم على الناس من خلال أسلوبهم في الكلام؟« سألته.

»بالطبع «قال لي، وبدأ يشرح كيف تورط في شجار حين كان في أحد سجون ألمانيا، وأنه عوقب في البقاء في السجن الانفرادي إثر ذلك .وفي الحجرة التي تليه، كان يرقد طبيب نفسي يدعى رودجر، وكان يجري التجارب على مرضاه المسنين، متسبباً في موت كثير منهم .وفي الشهرين اللذين قضاهما في السجن الانفرادي، كان الرجلان يقومان بمحادثات تستمر لساعات طويلة، دون أن يرى أحدهما الآخر.

وقد أخبره الطبيب أنّ معرفة دواخل الناس من خلال عيونهم، ليس سوى كذبة غبية صنعوها لخداع الأغبياء .وكان يقول إن حالة الوجه أثناء الكلام، هي ما تعطي الإنسان الانطباع الأقرب للصحة .ولكن معظم الناس لا يمتلكون هذه القدرة، فهي تتطلب فهماً عميقاً وقدرة على قراءة أدق تفاصيل الوجه.

وفيما كان يواصل دوغان سرد آراء الرجل، كانت تعلو شفتيه تلك الابتسامة التي عُرف بها.

وقد أخبرني بأنه يستطيع معرفة الكثير مما يعتمل داخلي، من خلال صوتي وأنا أتحدث .وكانت تصرفاته تشي بالغرور، ولكنها تجعله أكثر جاذبية، كان قوياً وواثقاً من نفسه، ومدركاً لمدى قوة شخصيته .وقد وقعت تحت تأثيره منذ اللحظات الأولى من لقائنا، وبعد لقاء ثانٍ، حصل ما كان متوقعاً، وأصبحنا مغرمين أحدنا بالآخر.

وبينما كانت دميت تواصل سرد ذكرياتها، بدأ الحزن يخلي المكان لسكينة عميقة تشع من عينيها الخضراوين .وفي تلك اللحظات، اقترب النادل وهو يحمل طلباتنا بيده .وأظن ذلك البريق قد انتقل إلى عيني البنيتين أيضاً، حال مشاهدتي للفطيرة، لأنّ معدتي كانت تنتفض وهي تطالب بالطعام .وقد انتهزت دميت الفرصة، لتواصل التجول بين ذكرياتها بصمت، بينما اقتطعت جزءاً كبيراً من فطيرتي، وتناولتها بنهم ولذة، وأعقبتها برشفة شاي ساخن .وصدقوني أنها كانت كافية لتمنحني بعض القوة، وبعد أن مضغت اللقمة الثانية سألتها:

-متى كانت آخر مرة رأيتِه فيها؟

-قبل حوالى شهر —اختفى بريق عينيها، خلف غيوم الحزن التي عادت تغطي وجهها —فقد انتهت علاقتنا، بعد حب كبير دام ثلاث سنوات.

وعادت تلوذ بسجائرها، ولأنني كنت مشغولاً بشرب الشاي، لم أجد

الوقت لأشعل لها السيجارة .وقبل أن أسألها عن سبب فراقهما، بدأت هي برواية الأحداث.

-لقد ضغطت عليه كثيراً، وطلبت منه أن نتزوج، فقد كنت راغبة في انتشاله من ذلك العالم السفلي الذي كان غارقاً فيه .ورغم أنه كان يكن محبة كبيرة لبورجين، إلا أنني لاحظت مدى رغبته في الحصول على ابن ذكر، من خلال أحاديثه .وقد اتبعت حيلة نسائية، أصبحت حاملاً، لظني بأنه سيجبر على الزواج بي .وحين علم بالأمر تضايق بشدة.

وقال لي» :لماذا لا تفهمين أنني رجل بلا مستقبل، ولا أصلح لأكون زوجاً .فلا أستطيع الاهتمام بك أو بالولد، وهذا إجحاف بحقكما، لذا من الأفضل إجهاضه.«

كانت المرة الأولى التي يحدثني فيها بهذه الطريقة، وقد أثّرت فيّ القسوة والصرامة اللتان اكتسحتا وجهه، أكثر من كلماته، وكأنه ليس الرجل الذي أحببته وعرفته .أُجبرت على إطاعة رغبته، ولكن جروحاً عميقة تتفتق في روحي .لذا طلبت منه ألا نلتقي لفترة.

»كما تشائين «قال لي »وأحترم قرارك، ولكنني أود أن أذكرك بأنني لم أعدك بأي شيء، وربما تعتبرين كلامي وموقفي متصلباً الآن، ولكن مع الوقت ستدركين أنني فعلت ذلك، رغبة في حمايتك أنت وابنتك.«

لم أصدقه، ولم أعاود الاتصال به، ورغم أنني كنت لا أزال أحبه، لكنني لم أملك الرغبة في الاتصال به، بعد ما جرى لي .وهو بدوره لم يتصل بي .فكما تعلم كان يملك كبرياءً لا سبيل لتجاوزها، ومن المحال أن يرجو امرأة تركته بأن تعود إليه. وفي الآونة الأخيرة كنت أتلوى رغبة في البحث عن ذريعة ما للاتصال به، ولكنني حين قرأت الخبر، أدركت أنني تأخرت كثيراً.

-في الفترة التي كنتما فيها سوية، هل أخبرك أن مشكلة ما تعترضه، أو أنّ أحداً يراقبه؟ —سألتها.

اكتسحت الجدية ملامحها، وظهرت خطوط رفيعة على جبينها العريض.

-لقد شعر بقلق بالغ بعد حادثة سوسورلوك، التي أعتبر أنها ليست مجرد حادث عادي، بل كان يظن أنّ هناك مؤامرة خطرة يحيكها بعض رجالات الدولة، بهدف التخلص من محبي الوطن من أمثاله هو وأصدقائه .وقد عاش شهوراً عدة في قلق وتوجس، ثم سافر إلى أنقرة، والتقى بشخص ما .وحين عودته سألته عما جرى، فأخبرني أنه قابل بعض من يحتلون مراكز حساسة، وتمت تسوية الأمور. ولكنني لم أصدقه، فقد ظل مضطرباً.

-هل حدّثك عن شخص يقال له الضابط؟

-الضابط؟ لا، لم يفعل .ولكنه أطلعني مرة على تناوله الغداء مع أحد جنرالات الجيش .ولم يأتِ على ذكر الضابط مطلقاً.

-وما اسم هذا الجنرال؟

-لا أعلم، فهو لم يخبرني، ولكنه أوضح لي أنه من المفيد في هذه الآونة البقاء على صلة وثيقة بالجيش .حيث كان يعتقد أنه باكتساب ثقة الجيش، ستُحل بقية المشاكل الأخرى.

-ربما هذا ما دفعه للتواصل مع الضابط، فقد كان يعتقد أنهم سيقومون بحمايته.

-ولكنهم لم يفعلوا —وعادت سحابة الأسى تظلّل عينيها، ولو لم أتدخل، كانت ستعاود البكاء بحرقة أكثر من ذي قبل.

-وهذا ما لا أفهمه -قلت – فدوغان كان يعلم منذ البداية أن هناك من يريد النيل منه، ولكن كيف لرجل بمثل ذكائه أن يقع في الشباك التي نصبوها له بسهولة؟

-وأنا أيضاً أفكر في هذا الأمر كثيراً، فدوغان حقاً كان شخصاً بالغ الذكاء والحرص في تصرفاته .كان حريصاً على حضور مواعيده في الوقت المحدد، ولكنه في كل مرة يسلك طريقاً مختلفاً .وحين كنت أسأله عن السبب كان يرد: »من أجل تشتيت الأعداء .«ولو أنه قُتل بالفعل، فأنا متأكدة أن لذلك المدعو رضا حصة في هذه المكيدة، فأنا لم أشعر نحوه سوى بالنفور .إنه من أولئك الذي يبتسمون في وجهك، ولا يتوانون عن ارتكاب أكبر القذارات بحقك، ما إن تدير ظهرك .وقد لاحظت نظراته الداعرة إليّ أكثر من مرة .رغم أنه كان يبدي منتهى الاحترام والوقار أمام دوغان، ويخاطبني بزوجة أخي.

-ولكن دوغان كان يثق به.

-لأنه كان شديد الدهاء .فقد كان على معرفة واسعة بدوغان، وكان يلبي جميع رغباته دون أي اعتراض .ولكنني لا أثق به، فهو على استعداد للتضحية بكل أصدقائه، من أجل النجاة بنفسه .وليس من المستبعد أن يبيع دوغان.

لقد كانت محقة في رأيها، ولكن رضا في المقابل اتصل بعارف، وعرض عليه الإدلاء بأسماء القتلة، فلو كان بالفعل متورطاً في الجريمة، لماذا سيقدم على أمر كهذا رغم أنّ اتصاله بعارف يدعو للريبة؟ ولماذا يتصل بصحفي، ولا يتصل بأحد رجال قوى الأمن مثلاً؟ ربما لعدم ثقته بهم .وقد باح لعارف بأسماء اثنين من الشرطة المتورطين في الجريمة .وقد هرب إلى الخارج ليلة وقوع الجريمة بالذات، ذلك أن الوضع على قدر كبير من الخطورة .ومع ذلك ها هو يعرض على عارف العودة والإدلاء بشهادته، في حال حصوله على ضمانات بخصوص سلامته الشخصية .ولكن علينا الانتظار والتحقّق من هوية أصحاب هذه الأسماء، وما لم يكن في كلمات رضا

خدعة ما، فمن الممكن معرفة ما حصل لدوغان.

وبالطبع لم أخبر دميت بأي من هذه الأفكار.

-كل هذه الأفكار لا تعدو حدود الاحتمال والظنون حتى الآن — علّقت، وقد ربّتت على يدها بود وأنا أحاول تهدئة مخاوفها —علينا التحلي بالهدوء والصبر، فمن المحال بقاء الأمور على ما هي عليه .عما قريب ستتكشف الحقائق. وقبل الركون لليأس علينا انتظار ما سيؤول إليه الأمر.

-معك حق —قالت، وقد تغضّنت عيناها، وكأنهما ترزحان تحت ثقل الألم —أرجو أن نبقى على تواصل، وفي حال علمت بشيء جديد، أتمنى أن تطلعني عليه.

-لا تقلقي، سأتصل بك بكل تأكيد —قلتها، وأنا غير واثق من تنفيذ التزامي.

الفصل الحادي والعشرون

خرجنا أنا ودميت سوية من المخبز، ورافقتها حتى سيارتها الفوكس فاغن، وشكرتني مراراً على قبول دعوتها، وبعد أن صافحتني بود، استقلت سيارتها مغادرة. وفيما كنت أراقب السيارة وهي تتجه نحو شارع إلماداغ، وتختفي وسط جموع السيارات، لاحظت مدى ارتياحي، لأن دميت لم تطابق احتمالاتي السيئة .لا أعلم بالضبط سر هذا الارتياح، ربما لأنني أدركت مدى تعلق امرأة بمثل رزانتها —وهذا ما لم أتوقعه —بدوغان .ولا أنكر أنّ جمالها الهادئ، قد ترك لديّ انطباعاً جميلاً، ولكن أكثر من جمال مظهرها، كانت حكمتها، وقدرتها على تحمل المسؤولية، ومعرفة ما تريده على وجه الدقة، هو ما أثّر فيّ في الحقيقة .ولكنني لم أتمكن من تفسير التناقض في شخصيتها، فكيف لامرأة بهذه الصفات، أن تتزوج رجلاً لا يتوانى عن خطف ابنته من أجل بعض النقود؟ لذا لا أدري إلى أي حدّ يمكن القول إنها تتصف بالمسؤولية؟ ولكن من منا معصوم عن الأخطاء؟ ولو حللنا الأمر بموضوعية، سندرك حقيقتها، فهي تحاول مساعدة دوغان بكل الوسائل .وليس ذنبها أنها لم تلتق الشخص المناسب حتى الآن .كما أنّ اختياراتها ليست خاطئة، فالنساء عموماً —والرجال أيضاً على ما أعتقد —يرجحن الثقة على بقية الصفات في العلاقات الإنسانية.

حين يغرم الناس بالفعل، ويصلون إلى حدّ الوقوع بكليتهم تحت تأثير مشاعرهم —وهذا ما يحصل في سنوات الشباب —يغضون النظر عن هذه الصفة. إن أفضل طريقة لإثبات هذه الثقة المطلقة، تكون بالزواج وتكوين الأسرة بما تبثه من

الدفء والأمان في الروح .ولا تفكر النساء فحسب بهذه الطريقة، بل أيضاً معظم الرجال الذين يتذمرون بين الحين والآخر من قيود هذه المؤسسة، وإلا لما استمرت العلاقات الزوجية لسنوات وربما لبقية الحياة .على أي حال، فهذه المؤسسة القديمة، تقوم على المحبة المتبادلة، والرغبة في إنجاب الأطفال، والأهم هو امتلاك ربّ الأسرة الوسائل اللازمة من أجل تدبير أمور معيشته وأفراد أسرته في الحياة .ويبدو أنّ دميت ليست بحاجة لتوفر الشرط الأخير، الذي حُل من تلقاء نفسه .أما بالنسبة إلى إيجاد رجل محب، عطوف، وسيم، ويمكن أن يكون أباً لابنتها، فهذا أمر قابل للجدل. وبما أن نامق عارض أزياء، فالوسامة شرط من شروط مهنته، ومن المرجح أنه حدس كما تريده، فأتقن لعب دور الرجل العاشق، وأوحى لها بالثقة الكافية لتقبل الزواج به، وتشكل معه أسرتها .وفي المحصلة فهو لم يصرف كثيراً من الجهد لإقناعها على ما يبدو .ولكن الكارثة ستتكشف بعد الزواج .ففي حين تكون العروس غافلة عن كل ما يجري فإنها، حين تتكشّف لها الحقائق، يكون الوقت متأخراً جداً.

أما بالنسبة لأخي، فهو على خلاف عارض الأزياء، بدا لها صارماً جداً، ولكنه يوحي بالثقة من خلال ما قدمه لها .ولم يخفِ عنها حقيقته، أو العمل الذي يقوم به .لكنني لا أظنه باح لها بكل ما قام به، كالجرائم التي ارتكبها مثلاً، ولكنه لم يكذب عليها في المقابل، ولست متيقناً إن كانت دميت ستتركه، حتى لو أخبرها بجرائمه .ذلك أنّ هناك كثيرين ممن كانوا يعدون قتلة فيما مضى، يحتلون أماكن مرموقة، ويدعون أنهم كانوا السد في وجه تقسيم البلاد، ويتجولون بكل حرية، دون جزاء على ما ارتكبته أيديهم .فإن كان الشعب قد عاد لاحتضانهم مجدداً، فما الذي يمنع امرأة بسيطة مثل دميت، من احتضان رجل كدوغان، والتغاضي عما قام به؟ ولكن المفارقة أنّ دوغان ظل حتى آخر لحظة متورطاً في الأعمال القذرة ذاتها. ولكننا لا نستطيع لومها، في الوقت الذي يتمرغ فيه الجميع في أوحال الفساد القذرة، من رجالات الدولة والجيش، وليس انتهاءً برجال الأعمال والصحافيين، فلم يبقَ سوى القليل ممن لم يتلطخوا .كما لا يمكن التغاضي عن رغبتها في تخليص

حبيبها من هذه القذارات، والنأي به بعيداً .ولا سبب يوحي بعدم الثقة بصدق نواياها الحسنة .فهي كمعظم النساء، تحاول أن تجعل الرجل الذي تحب، جزءاً من سيرورة حياتها .حتى أنّ المسكينة، وفي محاولة لاستغلال نقطة ضعفه، برغبته في الحصول على ولد، قد غامرت بالحمل منه أيضاً .ولكن دوغان —تصرف بالطريقة ذاتها التي أعرفها عنه —أدار ظهره للمرأة وجنينها، بل وطالبها بالتخلص منه، وأثبت للعدو قبل الصديق، أنّ رجلاً مثله لا يمكن لأي علاقة أن تروّض جموحه.

قد أكون مجحفاً في أفكاري هذه، فلربما حاول أخي المسكين، ألا يغرق المرأة التي يحب، وطفله القادم، في المستنقع ذاته الذي يعيش فيه، لذا طلب منها إجهاض الجنين .كل شيء وارد، وأعترف أنّ كل أفكاري المسبقة بدأت تتزعزع مع كل خطوة جديدة أخطوها في عالم هذا الرجل .فهناك نسختان متناقضتان منه في ذهني .الأولى هي الأخ الذي عرفته قبل سنوات بعيدة، أما الإثنية فهي دوغان الذي قابلته منذ أيام .ولكنني لا أعلم لماذا تحضرني صورته القديمة، كلما فكرت فيه.

انتشلني بوق سيارة البيجو الزرقاء من أفكاري، فمن الواضح أنّ السائق كان يطلق البوق منذ فترة لا بأس بها، ليشير لي بالابتعاد، من أجل الدخول إلى المرأب الذي أقف عند مدخله .وعلى الفور تنحيت جانباً بالقرب من موظف المرأب الذي كان يرمقني شزراً .وقد مرّت السيارة بقربي بسرعة.

-أرجو أن تنتبه قليلاً يا سيدي —نبهني الموظف —لقد أوشكت السيارة أن تدهسك.

-كانت ستفعل أليس كذلك؟ —قلت وأنا أهز رأسي بيأس —لكن الشرود ليس أمراً يمكننا تجنبه.

عاد الموظف الذي لم ترقه كلماتي، ليرمقني للحظات قبل أن يدخل، فيما توجهت نحو البليماوث، وقبل أن أخطو خطوات عدة، تذكرت أنني سألتقي عارفاً

في المساء .نظرت إلى الساعة، فرأيتها تجاوزت الثالثة والنصف بقليل، وفكرت أنّ أفضل شيء في هذه الحال، هو ترك السيارة هنا .سأحاول التوجه إلى أحد المطاعم وتناول الغداء، ثم التسكع في أحياء بيه أوغلو، حتى يحين المساء.

رفعت ياقة معطفي اتقاء للبرد، واتجهت نحو تقسيم، متسلقاً الشارع المقابل لحديقة غيزي .وباستثناء الشابين النيجريين بطولهما الفارع، واللذين يعرضان بضاعتهما، من بعض قطع الزينة الأفريقية الصنع، والمرأة التي تتوسط الرصيف وتستجدي المارة، وقد نام الطفل الذي في حضنها، لم يكن هناك ما يثير الاهتمام في هذا الشارع المتجه صعوداً نحو تقسيم .فقد كان معظم المارة يسيرون بتثاقل واضح، وأحياناً يتجاوزني أحدهم بخطوات مسرعة .وحين اقتربت من الشابين، لفت انتباهي أحد الأقنعة على بسطتهما .جبين واسع، شفتان ثخينتان، ووجه نحيل وجدي الملامح، تماماً كوجهي للبائعين .بدا وكأن أحد الشابين نحت وجهه على قطعة الخشب، بخطوطه الحادة، والتفاف منحنياته، ولكن الخشب قد أسبغ جدية صارمة على هذا النحت .ومن يدري ما تخفيه وجوه البشر التي تغطيها الأقنعة، والأقنعة التي تخفي دواخل البشر خلف مظهرها؟ تماماً كوجه دميت، بعينيها الخضراوين، اللتين زادت الأسرار من قتامة اخضرارهما.

عدنا إلى التخمين ذاته، والشك فيما يخفيه دوغان ودميت، من معلومات. ولِمَ لا؟ فأنا بدوري لم أطلعها على كل ما أعرفه .ومن المرجح أنها أيضاً لم تطلعني سوى على رأس الجبل الجليدي الذي تخفيه في أعماقها .فربما تكون متورطة مع دوغان في أعماله .ولو افترضنا أنّ دوغان افتعل هذه الحادثة للنجاة بنفسه، فلن يكون من المستبعد أنها تلعب أحد الأدوار في هذه التمثيلية .وربما حين رغبت دميت في إبعادها عن هذا النوع من الأعمال، أخبرها —كما أخبرني —أنه حتى لو حاول التخلص منهم، فهم لن يسمحوا له بذلك .وعندما بحثت معه حول إيجاد طريقة ما، عرض عليها الخطة التي في ذهنه، وبهذه الطريقة، نسج الحبيبان الخيوط معاً، ونفذا هذا السيناريو الذي يوحي بموت دوغان، وهي بدورها، تحاول أن تقنع

الجميع من خلال التظاهر بالحزن، أنه مات بالفعل .وفيما يقبع دوغان في مخبئه، منتظراً ما ستؤول إليه الأحداث، ستقوم هي بمهمة الاطلاع على كل مجريات التحقيق، من خلال الصداقة التني تنوي عقدها معي، وبذا سيعلمان من خلال أكثر الناس ثقة، ما يجب أن تكون عليه الخطوة التالية .ولكن كيف لشخص بخبرة دوغان أن يكلف هاوية مثل دميت، بمهمة معقّدة كهذه، حتى لو كان يثق بها ثقة مطلقة؟ كما أنّ المحققين قاما باستدعائها أيضاً لمعاينة الجثة، وهذا يعني أنها في مقدمة من بحثت عنه الشرطة، حين تعلق الأمر بدوغان .لا، لا، يبدو أنني أبالغ في شكوكي .فلو أن الحادثة مدبرة بالفعل، فمن المحال أن يوكل دميت أو سواها بأي مهمة، فهو لا يثق سوى بنفسه.

وفيما تثقل هذه الأفكار على ذهني المتلبد، كنت أصل بداية شارع الاستقلال بخطوات متثاقلة .وكانت أشعة الشمس قد بلغت الطور الذي أحب. ولو كان دوغان حياً، لقال» :الشمس تمحي هذيان الشراب .«وكأن الكوكب العجوز، ورغبة في إضاءة الجموع المحتشدة في كل الاتجاهات، ووداعهم قبل رحيله، كان يطل مبتسماً بين فراغات الأبنية التي ارتصفت على طول الشارع .والوحيد الذي كان يحتفل بهذا الوداع المضيء، من بين كل الغادين والرائحين، أحد الباعة الذي يقف قرب عربته الصغيرة، مواجهاً أشعة الشمس بحبور، وينادي بصوت أجّجه الدفء:

–سميت المساء .هيا تعالواااا ..سميت المساء.

وحين رأيت السميت، عاد الجوع ليستبد بي، بعد أن خففت وطأته قليلاً بقطعة كعكة الزبيب النحيلة تلك .واتجهت نظراتي إلى مطعم حجي بابا، إلى اليسار .وفكرت أنني يمكن تناول وجبة هنا، ومن ثم تزجية الوقت بكأسين من الشراب ريثما يحين موعدي مع عارف .وقبل مزيد من التفكير كنت ألج المطعم، وأتجه نحو الطابق العلوي، وفيما كنت أصعد السلم، تذكرت أنني الآن عاطل عن

العمل، وعليّ الانتباه أكثر لما أنفقه من نقود .وربما كان من الأفضل الذهاب إلى أحد مطاعم الشواء، في الأزقة الخلفية، وكنت على وشك الاقتناع والخروج من المطعم، حين تذكرت بطاقتي المصرفية .سأدفع عن طريقها، كما أنني لم أقبض تعويضات العمل من الجريدة بعد .ودون تردد، وبشهية مفتوحة، واصلت الصعود إلى الطابق الثاني .في هذا الوقت من اليوم، لا يكون المطعم مزدحماً .كانت أصناف الطعام التي تجعل الشبع قبل الجائع يقبل عليها، تتجاور في مناظر لا تُضاهى من الجمال، حتى أنني بصعوبة بالغة استطعت تحويل نظري عنها، والبحث عن أحد المقاعد الشاغرة أمام النافذة التي تطل على باحة كنيسة آيا ترياس .وقبل أن أتمكن من الجلوس عليها، ناديني أحدهم باسمي، وحين التفت، رأيت إرول جالساً إلى إحدى الطاولات التي مررت قربها للتو .ومعه صديقه الفاسق نديم، وقبالتهما تجلس امرأتان .وفيما كنت أقترب، لاحظت أنّ المرأتين تبدوان أجنبيتين .ولم أكن مخطئاً، فقد عرّفني نديم إليهما» :غيسيلا وروزلينا، صديقتان صحفيتان من إيطاليا .«وقد تعارفوا قبل سنوات عدة في روما، أثناء محكمة عبد الله أوجلان زعيم منظمة PKK.

كانت بشرة غيسيلا تميل إلى سمار فاتح، وشعرها الأشقر مفرود على كتفيها .ورغم كبر حجم أنفها بعض الشيء، إلا أنه بدا مناسباً جداً لعظام وجهها الكبيرة، وكان فمها بشفتيه الغليظتين، يوحيان بملذات القبل .ولكنني للأسف لا أستطيع قول الشيء ذاته عن روسيلا، فالمسكينة كانت بادية النحول، حاجباها سميكان، ترقد تحتهما عيناها الباهتتا اللون، وكانت عظمتا خديها البارزتان، تزيدان من عمق محجري عينيها، اللتين تنظران إلى من حولها شزراً، وكأنها على وشك الدخول في عراك قاسٍ .ليس هذا فحسب، بل إن بشرتها السمراء لم تخفِ الظلال الرمادية لشوارب تعلو شفتيها النحيلتين .ولا أتحدث هنا عن بعض الشعيرات التي تظهر أحياناً فوق شفاه النساء، إنما عما يماثل شارب أي شاب .وقد لاحظت من طريقة جلوس الزملاء الأربعة، ومن الضيق الظاهر على وجهه إرول، أنّ ذات

الشوارب كانت من نصيبه في الجلسة .وربما كان هذا سبب إصرار إرول للجلوس معهم، وهو يجرني خلسة من معطفي .ولكن الجوع الذي يعصف بي، لم يسمح لي بالتعاطف مع إرول، ولا بالرغبة في الجلوس معهم، فاعتذرت بلطف بالغ، خاصة أنني لاحظت من خلال الصحون التي أمامهم، أنهم يوشكون على الانتهاء. واتجهت بشهية لا تقاوم نحو الأطعمة المرصوفة وراء اللوح الزجاجي .ودون مزيد من التردد، اخترت الوجبة التي حُرِمت منها قبل قليل، فطلبت شيخ المحشي، وصحناً من الفاصولياء المطبوخة، وسلطة، وجبنة بيضاء، وكأساً صغيرة من الشراب .وبعد تناول قطعة من الخبز الطازج المغمس بالزبدة، بدأت أحتسي أول جرعة من الشراب بمتعة لا تُضاهى، وكأنني لم أشرب منذ أيام.

وبعد أن شبعت، وبدأت موازين عقلي تتأرجح قليلاً بفعل الشراب، لاحظت أنّ إرول وزملاءه يستعدون للمغادرة، فرفعت يدي مودعاً، وأنا أنوي النهوض .لكن إرول اقترب من طاولتي وهو يقول:

-يا رجل —قالها بنبرة تشي بطلب مساعدة ما —لا أحد سواك يستطيع إنقاذي الآن، قل لهم إنك تحتاجني في أمر ما، وإلا سأضطر لقضاء الليلة برفقة المرأة ذات الشوارب هذه.

-ولِمَ لا؟ ما الذي لا يعجبك فيها —بدأت بالسخرية —امرأة بقوام نحيل، أشبه بقوام العارضات.

-ليس هذا وقت السخرية .أنا أرجوك يا رجل، أنقذني من تلك الشمطاء.

-فكر جيداً يا صديقي —قلتها، وأنا أقطع حبل نجاته —لا يغرّك مظهرها الخارجي، فهذا النوع من النساء يضج أنوثة في السرير.

-إذاً اذهب أنت لمرافقتها —قالها معترضاً، ولكنه بعد لحظة عاد ليرجوني

–أنا لا أمزح يا عدنان، فمن المحال أن أقضي الليلة كلها مع هذه المرأة، كما أنني لا أستطيع التخلي عنها دون مبرر .أخبرهم أننا سنتحدث عن المقال الذي كتبه عارف .وبالفعل أنا راغب في التحدث معك، أحقاً أنتم أخوة؟

وفيما كان إرول يحاول إقناعي، اقترب نديم من الطاولة بعد أن لاحظ أنّ هناك ما يدور من خلف ظهره.

–ما الذي يجري هنا؟

–أنا سأبقى مع عدنان يا صديقي –قالها باقتضاب وحزم.

وفي الحال اكتسى الضيق وجه نديم.

–لماذا؟ ما الذي حصل؟

–سنتحدث عن العمل قليلاً –أوضح إرول –أتذكر حادثة سيارة الـ BMW؟ لقد كانت تعود لأخ عدنان.

رمقني نديم كمن يريد التأكد من كلامه.

–للأسف هذا ما حصل –أيدت كلام إرول.

–البقية في حياتك –وبدا عليه الاضطراب، ليس لموت أخي، بل لأن إرول سيتخلّف عن الذهاب معه، وفي هذه الحال، قد لا ترضى الإيطالية ترك زميلتها وحدها، وبالتالي سيضطر نديم لقضاء الليلة بمفرده –ولكن ماذا سنقول للفتاتين –قالها مخاطباً إرول.

–سنشرح لهما ما جرى، وينتهي الأمر، فنحن لم نوقع تعهداً بقضاء الليلة في أحضانهما .وأنا واثق لو أنهما حصلتا على فرصة لكتابة خبر من هذا النوع، فلن تترددا في التخلص منا.

اكفهرّ وجه نديم أكثر، ظناً منه أنّ إرول يطلب منه أن يظل برفقتنا.

-لحظة، لحظة يا صديقي -جاهر باعتراضه على الفور -أعتذر منك، ولكنني لن أبقى .صحيح أنني أسفت لما جرى لشقيق عدنان، ولكن هذا الخبر لا يعنيني في شيء. فأنا لن أترك غيسيلا، وأجلس معك وأستمع لقصص العصابات.

-كما تشاء، ولكنني باقٍ هنا يا صديقي.

تنهد نديم بكرب، وهو يقول:

-على الأقل تعالَ لتودع الفتاتين، حتى لا تعاتباننا بالقول إن الأتراك أجلاف.

لم يبدِ إرول أي اعتراض، ورافق نديم، وقد تصنع الجدية وأخذ يحادث الفتاتين، وهو يشير نحوي بين الفينة والأخرى، لإقناعهما بحجته .والغريب أن المرأتين لم تبديا أي ضيق، ولم ترتسم أي خيبة على وجهيهما، بل كانتا تنظران إليّ بفضول وهما تهزان رأسيهما، ومن ثم قالتا شيئاً ما لإرول .وربما لم تفكر أي منهما في قضاء الليلة مع هذين الأحمقين، اللذين ذهبت بهما ظنون الرغبات نحو هذا الاحتمال. ولو صح ذلك، فلن يجني نديم من آماله سوى حفنة رمال .وإن صح الأمر، فلن أحزن على هذا الفاسق .علّه يكفّ عن التفكير في معاشرة كل امرأة يقابلها .ولكن هل سيكفّ بالفعل؟ إنه أمر بغاية الصعوبة .فأرول حتى بعد فشله في تجربتي زواج -كما عارف -ظلّ يلاحق شهواته، دون اعتبار لما جرى له بسبب هذه العادة الفاضحة .رغم أنّ زواجه الثاني انتهى نتيجة سوء حظه، ولكن السبب كان في الحالتين، سمعته كزير نساء.

فبعد طلاقه الأول، تعهد إرول بعدم الزواج مرة أخرى .ولكنه لم يستطع الالتزام بتعهداته سوى لسنتين، حين تعرف إلى هوليا التي تعمل نائبة مدير أحد البنوك، ووقع في غرامها على الفور، بل واستعجل بالزواج منها في وقت قصير،

وكأنها كانت ستهرب منه .ورغم أنها سمعت بعض التقولات عن هفواته الغرامية، إلا أنها اعتقدت، وبطيب نية، أنّ الزواج يمكن أن يغيره .ولكن هل تزول الطباع قبل زوال أصحابها؟ فبعد مرور أقل من شهرين على زواجهما، عاد الرجل إلى ما كان عليه، وعادت التقولات لتطرق مسامع الزوجة المسكينة .ولكنها تكشفت عن طباع حاسمة، فبعد شجار مزلزل، طردته من البيت شر طردة .ولكن الخادع وبعد كثير من التوسلات، وتدخل كل من يمكن له التوسط من الأصدقاء، وبعد أيْمان مغلّظة، وعهود قاطعة بالتوبة، وترك كل تلك الرذائل خلفه، استطاع إقناع الزوجة المخدوعة من جديد .وبالطبع فهو لم يلتزم بأي منها، وإن ظنت هوليا أنه يفعل ذلك .وكما نوهت، فإروول هو أقلنا حظاً .فقبل سنوات عدة، حين وصلت الأخبار برسو سفينة الممثل دوستن هوفمن وستينغ، على شواطئ مرمرة الجنوبية، أرسلت الصحف والمجلات، أكثر مراسليها كفاءة إلى هناك، لالتقاط الخبر وتصويره، ورغم أنّ إرول لا علاقة له بهذا النوع من الأخبار، فقد اختاره رئيس التحرير.

ربما طلب منه إرول ذلك، لتكون بمثابة عطلة مجانية .هذا ما لا أعرفه، ولكن ما حصل أنّ المراسلين لم يصلوا لضالتهم على تلك الشواطئ .فقد قضى النجمان معظم الوقت على سطح المركب، وحين نزولهما الشاطئ، رفضا بلباقة ولكن بعزم واضح إجراء أي لقاء صحفي .واكتفى المراسلون بالتقاط صور بعيدة لهما، وتزيين الخبر بمتفرقات أكثرها من وحي خيالهم .وحين انتهاء المهمة كان عليهم العودة إلى اسطنبول صباح اليوم التالي، ولكنهم قرروا ليلتها، قضاء الليل في نادٍ يعود لناهيد، وهو صحفي سابق، وشربوا طوال الليل، حتى تجاوزوا حدود الثمالة بمراحل، خلا إرول الذي لم يكن مولعاً بالشرب، وكان يعلم تماماً متى عليه التوقف. وهذا ما فعله تلك الليلة، ولكن إحدى المراسلات الصحفيات التي كانت لا تزال مبتدئة، بقيت لوحدها على إحدى الطاولات، ولم يتطوع أحد بمرافقتها، فأثارت شفقته، وقرر في نوبة طيبة، أن يصطحبها معه لتنام في غرفته .وقد نامت هي على سريره، فيما نام هو على الأريكة .حتى هذه المرحلة كانت القصة عادية، ولكن في

صباح اليوم التالي، ولأسباب مجهولة، استبدت الرغبة بهوليا للاتصال بزوجها، وأخذت تتصل بهاتفه دون توقف .ولأن إرول كان في الحمام حينها، ردت الفتاة – التي لا علم لها بشيء، وكانت تحت تأثير النوم – على الزوجة التي ما إن سمعت صوتها حتى جنّ جنونها .ورغم كل توسلات إرول وتوضيحاته، ورغم أنّ الفتاة قد ذهبت بنفسها لتطلع هوليا على حقيقة ما جرى، فقد ظلت محافظة على عنادها، وبذا اضطر إرول لطلاق زوجته الثانية، رغم أنه كان يحبها كثيراً .وفيما أستحضر ماضيه، كان هو قد انتهى من مهمة توديع زملائه، وأقبل نحوي منشرح الوجه، وسحب الكرسي ليجلس قبالتي.

-وأخيراً –قال –لقد نجوت –وفيما أخذ إحدى الكؤوس، وأخذ يصب الشراب دون دعوتي له، واصل الحديث –يا له من وغد، فقد انتقى الجميلة، واتصل ليوقع بي، وهو يقول إنه أقنع الفتاتين.

-وكأنك لو كنت مكانه، ستتصرف بطريقة مغايرة؟ –علّقت.

رمقني وهو يعقد حاجبيه بجدية للحظة، فظننته استاء من كلماتي، ولكنه عاد لما كان عليه وهو يعترف:

-معك حق يا صديقي .وإن شئت الصدق، فلو كنت مكانه، لما فوتت فرصة التمتع مع امرأة بمثل جمالها.

-ولكن الصياد لا يحصل على طريدة دوماً.

-بالطبع –قالها وهو يرفع كأسه التي أضاف إليها ببعض الماء –دعنا نشرب نخب زميلاتنا الإيطاليات إذاً.

وهذا ما فعلناه.

-ما قصة أخيك غير الشقيق هذا يا رجل؟ –وقد اكتست ملامحه بجدية

مفاجئة —أخبرني بما يجري.

-لا شيء أخبرك به، فقد كتب عارف كل ما جرى.

وقبل أن يعلّق رمقني بتمعّن.

-حسناً، ولكن كيف تترك خبراً كهذا لعارف؟

-لأنني لا أملك الجلد الكافي لخوض معمعة المحقّقين، والعصابات، والدوائر الأمنية .ولا طاقة لي لأبددها بين مكائدهم.

ظننته سيقول لي لِمَ لم تكلفني بالخبر، ولكنه لم يفعل.

-لا بأس – وأضاف —إن كان هذا ما تريده.

-أجل هذا ما أريده —قلتها وأنا أتناول الكأس —فأنا لا أريد التورّط في أمور لا علم لي بها.

وفيما كنت أشرب ظل هو يرمقني بتمعّن.

-الفريق الإخباري الذي يعمل معه، سينتقل عما قريب للعمل في صحيفة مهمة —قلت.

-أجل، لقد سمعت بالأمر.

-وهو يحاول استلام منصب رئيس تحرير تلك الصحيفة.

-ماذا؟ هل جن هذا الأحمق؟ —وضحك من أعماقه قبل أن يكمل – من الذي سيقلده؟..

ورغم أنه كان يفصح عما بداخلي، فقد أبديت الاعتراض.

-لماذا تقول ذلك؟ فعارف شخص جيد.

-يا صديقي، الأمر لا علاقة له بكونك جيداً أو سيئاً، فعارف لا يملك المؤهلات الكافية لتولي رئاسة تحرير صحيفة من هذا النوع —ثم واصل سرد أسبابه، وأنّ الأشخاص من أمثالي أنا وهو وعارف لا نملك سوى فرص ضئيلة للنجاح. ولأنني أعلم أنه محق، فقد بقيت أسمعه في صمت، حتى رن هاتفي النقال.

-أعتذر منك —قلتها قبل أن أجيب على المكالمة —ألو.

-مرحباً سيد عدنان —وصلني الصوت من الطرف الآخر، ورغم أنه بدا مألوفاً لي، إلا أنني لم أتمكّن من تخمين صاحبه.

-أجل، تفضل أنا عدنان.

-سيد عدنان —كرر الرجل بصوت قلق، تعتريه رعشة تشي بالشؤم. وقد انتقل قلقه إليّ أيضاً.

-أجل —قلت بنفاذ صبر.

-أنا تولغا سيد عدنان —حينها تذكرت صاحب الصوت، إنه تولغا المصور الصحفي.

-أجل، أجل ..أهلاً تولغا —قلت —عسى أني حمل هذا الاتصال خيراً؟

-للأسف سيد عدنان، فالأخبار لا تشي بالخير —قال —عارف ..لقد تعرض عارف إلى حادث.

-ماذا؟ ماذا؟ ما الذي تتحدث عنه؟ —تلعثمت جزعاً.

-لقد ضربته سيارة جيب سوداء —أوضح تولغا —اصطدمت به السيارة ولاذ سائقها بالفرار .وعارف — ...صمت لبرهة —لم نستطع إنقاذه .إن استطعت

المجيء، فنحن في مشفى الإسعافات الأولية بتقسيم.

أنهيت المكالمة، وبقي الهاتف في يدي المعلقة في الفراغ .لقد مات عارف، هذا ما يقوله تولغا، ولكن هل مات حقاً؟ أيمكن ذلك؟ ولِمَ سيكذب علي؟ فهو يقول إنه في المشفى معه.

ما الذي حدث؟ هل وقع مكروه ما؟ —بدّد القلق صوت أفكاري .ورغم أنّ من أشق المهام نقل خبر كهذا، لكنني بدأت أعيد ما قاله لي تولغا.

-عارف —قلت، إلا أنّ الغريب أنّ الرعشة لم تعتري صوتي، كما تولغا. وحين رجحت خبر موته، شعرت بألم عميق يسوّط أعماق قلبي، ولكن دون قلق. فجأة تبدد القلق الذي ظل يرافقني منذ لقائي بدوغان، وحتى الآن، ولم أطل انتظار إرول الذي كان يحدق إلي بقلق بالغ —مات عارف —وعدت لأستعيد كلمات المصور الشاب وأنا أوضح —لقد صدمته سيارة جيب سوداء واختفت.

الفصل الثاني والعشرون

لقد جئت إلى هذا المشفى عشرات المرات، حين كنت أعمل مراسلاً صحفياً لقسم الحوادث، لالتقاط صور الجرحى أو حتى جثث الضحايا، ومعرفة حيثيات الخبر وتفاصيله .وكنت معتاداً على مشهد العاجزين الذين يطلبون مساعدة الأطباء لأنفسهم حين يقتربون من حافة الموت، أو لذويهم .ولكنها المرة الأولى التي أدخل فيها هذا المكان، لموت أحد يخصني .فقد كانت تلك الحوادث عندي مجرد مادة لخبر صحفي لا أكثر .ولا أنكر أنني كنت أتأثر بحزن الناس ومكابدتهم الألم، ولكنني لم أكن أنسى مهمتي .فقد كنت صحفياً، وما كان يهمني أكثر من أحزان المصابين أو ذويهم، هو الحصول على مادة تصلح للخبر الذي سينشر حوله .وكان جلّ ما أريده، كأي صحفي آخر، هو الحصول على إجابات حول الأسئلة المتلاحقة عن كيف ومتى ومن المسؤول أو المسؤولون عن الحادث .ورسم أقرب صورة ممكنة عن الحقيقة .ولكن مشاعري الآن، وأنا أجتاز باب المشفى مع إرول، كانت مختلفة تماماً .فالأمر يتعلق بأقرب أصدقائي، ولا أنكر أننا كنا نختلف حول كثير من الأمور، ولكن هذا لن يغير حقيقة أنّ عارف كان صديقي المفضّل، وعليّ أن أشعر بالحزن لموته.

كيف يتوجّب على المرء أن يحزن؟ لا بد أنني ما زلت تحت وقع الصدمة، ولا أستطيع التفكير بشكل صحيح .ولكن كل هذه المبررات لم تغطي على الفضول الذي بات يعتريني، كان أكثر قوة بمئات المرات، من الفضول الذي كنت أشعر به، وأنا أحقق في الحوادث السابقة .كان فضولاً من القوة بحيث طغى على

الحزن الذي اعتراني لموت صديقي .ولكنني حاولت تبرير الأمر على أنه رغبتي في معرفة الحقيقة، والوصول إلى القتلة، والانتقام لموت صديقي .إلا أن وضعي كان أكثر تعقيداً من هذا التعليل .وكأنني عدت إلى تلك الأيام التي كنت فيها صحفياً ناجحاً، فقد كان ذهني لا يسمح بأن تغطيه أي مشاعر، وحواسي كلها تعمل كلواقط في آن، وتجمع التفاصيل في دقة بالغة .وكنت أشعر بنفسي من جديد صحفياً طموحاً جاء لكتابة خبر ما، وليس شخصاً منهاراً لفقدان أقرب أصدقائه للتو .ومهما حاولت، فلم أكن قادراً على تخيّل عارف، وهو يرقد جثة هامدة طازجة، على بعد خطوات مني .فقد ظل ذهني منشغلاً بسيارة الجيب السوداء .لا شك أن من قتل بكير ونهال، والعقيد رفعت، هو نفسه من اصطدم بعارف عمداً، وقتله .ولا بد أنهم الأشخاص أنفسهم الذين قتلوا دوغان أيضاً .صحيح أنني لم أكن متأكداً بعد من موت دوغان، ولكن كلامه بات يتحقق كنبوءة شؤم .وهذا ما يزيد من احتمال موته.

-هل سنتجه إلى الإسعاف؟ —أعادني صوت إرول إلى الواقع.

-أجل —قلت وأنا أومئ برأسي نحو الممر يساراً —الإسعاف من هناك.

كان حشد المنتظرين أمام غرف الإسعاف كبيراً كالعادة، وحين تمر نقالات الإسعاف محملة بجريح أو ميت، كان الحشد القلق يتفرق مفسحاً المجال لمرورها، ويعود للتجمع المرتقب بقلق مرة أخرى ما إن تبتعد .وكما يحدث في مثل هذه الحالات، كسر الصمت المخيم على المنتظرين صرخات رجل في منتصف العمر، يحتج على ترك أحد المرضى —كما يدّعي —دون اهتمام، ودون أن يأتي أي من الأطباء لمعاينته .وعادة ما يأتي رجال الشرطة لإخراج الرجل المحتد، ومنعه من دخول المشفى مجدداّ .ورغم أنّ أمثاله كانوا يصرخون على الممرضين والأطباء، وكل من يعايش هذا الجحيم بشكل يومي، إلا أنّ هؤلاء كانوا يواصلون التصرف بالهدوء البارد ذاته مع أقرباء المرضى وذويهم، الذي يتحلون به أمام أقسى الحالات

التي يقابلونها، ويستمرون في العمل وفق ما يرونه مناسباً، غير مبالين بأي اعتراض. ولكن حتى هم في بعض الحالات كانوا يفقدون السيطرة على أنفسهم، وسط كل هذه الجلبة الدامية، وتحدث شجارات صاخبة بينهم وبين ذوي المصاب.

وفيما كنا ننتظر أنا وإرول، مرت من أمامنا نقالة عليها رجل غرق قميصه الأبيض في دمائه التي تتدفق، فيما الممرضان اللذان طرقا كتفي سهواً، ينطلقان مسرعين، دون أن يباليا بكل هذه الحشود، وشعرت حينها أنني أماثلهما في إزاء ما يجري من حولي .فقد كنت أنظر إلى كل ما يجري من زاوية حياد بعيدة، وكأن عقلي قد أسدل ستارة من المنطق على حواسي .ورغم معرفتي أنني لن أتمكن من رؤية عارف أو التحدث معه مرة أخرى —وهو أمر على قدر كبير من الأهمية بالنسبة إلى شخص لا صداقات كثيرة في حياته —فقد كان ذهني مشغولاً عن الحزن، بالتفكير في الأحداث التي وقعت قبل الحادث .ففي آخر مكالمة بيننا، أخبرني عارف أنه سيذهب إلى قسم الشرطة، ليخبرهم أنّ رضا قد اطلع على تورّط بعض رجال الأمن في جريمة قتل دوغان، كما أنه أعطاه اسم اثنين من رجال الشرطة المتورّطين، أجل هذا ما أخبرني به عارف .وحين طلبت منه إخباري بأسمائهم، أشار إلى أنه يجب أن يطلع الشرطة أولاً على التفاصيل، وهذا يعني أنه ذهب إلى قسم الشرطة قبل الحادث .ومن ثم؟ يبدو أنه التقى تولغا .والاحتمال الأكبر أنهما كانا ذاهبين لإجراء لقاء مع أحدهم .أجل تذكرت؟ فقد كانا متوجهين لمقابلة صلاح الدين شقيق بكير كايتان .ولا بد أنه كان ينوي إجراء لقاء صحفي معه، لذا اصطحب معه تولغا .كنا نسير في الممر الطويل أنا وإرول، نتمعّن في وجوه المترقبين القلقة، لكننا لم نعثر على وجه تولغا بينهم .ربما استدعوه من أجل التحقّق من هوية الجثة، وفيما نكاد نصل إلى نهاية الممر دون أن نلمحه، نادانا صوت من الخلف.

-نحن هنا —التفت حين لمس أحدهم كتفي، فالتقيت مفيداً الذي ارتسم على وجهه الأسى، وبدل التوضيح الذي أنتظره —البقية في حياتك —قالها

معزياً.

-وحياتك الباقية —قلتها، وأنا أفكر بأنه ما من داعٍ لدخول غرفة الإسعاف ورؤية عارف .وأخذنا نسير معاً في طرف هادئ من الممر.

-هل عثرتم على سيارة الجيب؟ —سألت مفيداً.

فتحاشى النظر إليّ.

-ليس بعد —قال —ولكننا نبحث عنها، ونفعل كل ما بوسعنا للعثور عليها.

وبدأ يرمقني وهو ينهي كلماته، وأدركت حينها أنه يشعر بالمسؤولية إزاء ما حصل .وهذا كان علامة خير تشير إلى أنه سيهتم بحل القضية .كما أنه كان يتحمل بالفعل، جزءاً من مسؤولية ما حدث .فلو لم يشجع عارف، لربما ما تجرأ الأخير على الخوض في متاهات قضية بهذه الخطورة.

-لا أظنك تعتبر الأمر مجرد حادث عادي، أليس كذلك؟ —سألته.

-من المبكر البت في القرار، وقبل الإفصاح عن أي شيء، علينا العثور على الجيب.

-دوغان أيضاً حدثني عن السيارة السوداء ذاتها —علقت.

-لقد أخبرتني بذلك —قالها، وبدا من الواضح أنه لا يزال متردداً.

-هناك أمر آخر —قلت —هل التقيت عارفاً اليوم؟

-لقد اتصل بي، ولكنني كنت في اجتماع مهم مع قوى الأمن وتأخرنا، وحين خرجت من القاعة، أخبروني بأمر الحادث .هل أطلعك على الأمر؟

وفيما كان يتحدث كنت أراقب تصرفاته ووجهه، ولكنه بدا طبيعياً، ولم يوقظ في نفسي أي شكوك.

-لقد اتصل رضا أصلان، شريك دوغان، مع عارف —أوضحت له — وقد أطلعه على أسماء بعض رجال الأمن من دون المراكز العليا، والمتورطين في قتل دوغان، وقد أخبرني أنه سيذهب إلى قسم الشرطة، لإطلاعهم على هذه المعلومات، ولكن إن لم يكن قد قابلك، فمن قابل إذاً؟

-لا أعلم من الشخص الذي قابله —وتمهل للحظات، وكأنه يفكر في احتمال ما —صدّقني لا أعرف، ولكننا سنتقصّى عن الأمر، وإن كان قد قابل أحداً من زملائي، فسيتضح الأمر على الفور —سكت للحظات، وهو يرمق المكان بنظرات حذرة، قبل أن يسألني هامساً —هل أطلعك عارف على أسماء هؤلاء المشتبه في أمرهم؟

-للأسف لم يفعل.

ارتسم الضيق على وجهه، وهو يفكر قلقاً.

-يا للحظ !ربما كانت هذه الأسماء سترشدنا إلى الحقيقة.

-لا أظن أنّ رضا أصلان، سيتخلّى عن متابعة الموضوع، وأظنه سيتصل بأحد آخر، ليطلعه على الأسماء ذاتها.

-ربما تكون محقاً .ما لم يكن القاتل هو رضا نفسه.

-وحتى لو كان القاتل، فالأمر لصالحنا .لأننا سنتمكّن من التأكد حينها من صدق كلامه.

-سنتمكّن؟ —قالها وقد ارتسم تعبير ملغز على وجهه —وكأنك بدأت

تنخرط في أجواء القضية أكثر؟

-لا لا —ونفيت بحركة من رأسي —لا أنوي فعل ذلك .ولكن في ظل موت أعز أصدقائك، سيبحث العقل عن أجوبة منطقية لما حدث.

ربّت على كتفي بملامح جدية، وهو يقول:

-لا تخشَ شيئاً، فسنعثر على القَتلة في نهاية المطاف .وقد بدأت بتحقيق موسع حول الأحداث، حيث نضع جميع الاحتمالات نصب أعيننا.

وفي الحشد المتجمع خلفه، تراءى لي شعر تولغا الأجعد، وحين دققت النظر، رأيت وجه الشاب المسكين، بملامحه الحزينة .وكما في كل مرة يراني فيها، حاول الابتسام، ولكنه تدارك الموقف الذي نحن فيه، فتلاشت ابتسامته كما ظهرت فيما كان مفيد يواصل الحديث.

-سنلقي القبض عليهم هذه المرة، ولن يتمكّنوا من النجاة —قال موضحاً لي، حين طلبت الإذن منه، وذهبت إلى تولغا.

-هل أنت بخير؟ —سألته.

وبدل أن يرد عليّ، حدق إليّ، كمن يقول :كيف تتوقع مني أن أكون بخير.

-أعني ألست أفضل من ذي قبل؟ —صححت السؤال —هل تستطيع أن تخبرنا بما جرى؟

وقد أدرك ما أرمي إليه.

-أجل أفضل الآن —وأردف —ونستطيع التحدث.

-إذاً فلنخرج إلى حديقة في المشفى، حتى لا يزعجنا أحد.

وقد لحق بي تولغا دون اعتراض، وسارت الأمور كما أشاء، فيما بقي مفيد وإرول في الممر يراقباننا من بعيد، دون أن يفهما ما يجري.

اخترت زاوية قصيّة، بحيث لا يرانا الداخلون إلى المشفى، وأشعلت سيجارتين .ورغم أنه لا يدخن، لكنه لم يرفض ضيافتي .وسحب نفساً من الدخان إلى أعمق أعماقه، وكأنه مدخن منذ أكثر من أربعين عاماً .وبعد أن راقبت الدخان وهو يخرج، أوضحت له:

-اسمعني يا صديقي —قلتها بصوت ينضح بثقة لم أعهدها في نفسي منذ زمن طويل، حتى أنني بدأت أستمد الثقة من صوتي بالذات —أريدك أن تركز قدر المستطاع، وتروي لي ما حدث .متى التقيت عارفاً، وإلى أين كنتما ذاهبين، وهل لفت انتباهك شيء ما، أو أحد قبل وقوع الحادث؟ أريدك أن تروي لي بحدس المصوّر والصحفي كل ما رأيته أو سمعته أو شعرت به في تلك الأثناء، دون أن تنسى أي تفصيل.

-حتى لو رغبت في ذلك، فلن أنسى —قالها تولغا —فما يحصل لا يبارح مخيلتي ولو للحظة واحدة.

ربّتت بلطف على خده مواسياً.

-لا بد وأنها تجربة صعبة بالنسبة إليك —قلت.

-بالفعل إنها صعبة جداً.

غامت عيناه خلف غلالة رقيقة من سائل شفاف، ولكنه عاد ليتمالك نفسه.

-على أي حال —قال —لقد أيقظني عارف هذا الصباح، فقد ذهبت مع الأستاذ شكيب إلى جانك كالة في مهمة صحفية، ولم نعد إلا قبيل الفجر، لذا

كنت مستغرقاً في النوم، حين أيقظني اتصاله في حوالى الحادية عشرة صباحاً، وطلب مني أن ألغي كل مواعيدي لليوم، لأننا ذاهبان لإجراء مقابلة على غاية من الأهمية مساء اليوم .ولكنني أخبرته بأنني أعمل مع الأستاذ شكيب هذه الأيام، على خبر ما، فماذا أفعل لو طلبني للعمل؟ فقال لي إن شكيب لن يطلبني اليوم لأنه اتصل مع رئاسة التحرير وأخذ الموافقة .وأخبرني في حال وقوع أي مشكلة، ما عليّ سوى الاتصال به.

وعندما لاحظ ترددي أضاف:

ماذا أقول لك يا رجل، أيعقل أنك لست على علم بما يجري؟ الأحداث بدأت تتصاعد، ونحن على وشك تسجيل سبق صحفي، فيما سيحصد الآخرون نعال خيولنا .والجميع سيعتمدون على الصور التي ستقوم بالتقاطها.

وعندما لاحظت مدى حماسته، سألته :مع من سنجري اللقاء يا أستاذ؟

»سنقابل صلاح الدين شقيق بكير كايتان، في حوالى الرابعة مساء، في فندق هران، الذي يقع في بداية أوتوستراد تارلاباشي.

صحيح أنه كان بادي الثقة بنفسه، ولكنني لن أخفيك أنّ اتصاله بي قد أزعجني .أنت تعرف شكيب إينجي، فهو شخص لئيم .وقد سمعت أنّ الأستاذ عارف بدأ يتابع الملف الذي كان يعمل عليه من قبل، ولم أشأ التورّط بينهما. ولكن حصل ما كنت أخشاه، فقبل مرور نصف ساعة اتصل بي شكيب وأخبرني أننا سنذهب لإجراء لقاء مع أحد تجار الأسلحة .ولكنني اعتذرت منه بالقول إنني قد وعدت الأستاذ عارف لإجراء لقاء ما، ورجوته أن يجد مصوراً آخر .ولكنه أرعد بغضب، وقال أيضاً إنه سيطردني من الجريدة لو رفضت الذهاب معه، فقلت له بأنني لا أريد التورط في المشاكل مع أي طرف، وإن كان مصراً على ذهابي معه، فعليه الاتصال بالأستاذ عارف .وحين سمع كلماتي جن جنونه وهو يقول لي :أعلم

جيداً مع من عليّ الاتصال .«وأنهى المكالمة .ولا أستبعد أن يكون هذا الوغد قد اشتكى عليّ لدى رئيس التحرير بحري نارمان .ولأن الكيل قد طفح من كل من في الجريدة، فقد اخترت البقاء في المنزل حتى لا ألتقي شكيب، واتجهت نحو الفندق في الموعد المحدد .لكن عارفاً لم يكن قد ظهر بعد، حين لاحظت ثلاثة أشخاص جالسين في بهو الفندق، يوحي مظهرهم بأنهم من سنجري اللقاء معهم بعد قليل. وقد أدركوا أنني صحفي من حقيبة الكاميرا التي أحمل، فاقترب أحدهم مني وهو يقول، إن السيد صلاح الدين ينتظرني في الداخل، فذهبت معه.

كان صلاح الدين الذي استقبلني واقفاً، شاباً وسيماً، في حوالى الثلاثين من عمره، طويل القامة حاد النظرات، بشعر قصير وشارب كث .لا أستطيع القول إنه كان لطيفاً، ولكنه كان يحاول أن يبدو ذلك، فما أن جلس حتى بدأ يسألني عما أريد، شاي أم قهوة أم كأس شراب؟ وكان مرافقاه يترصدان أدنى رغباته لتلبيتها على الفور .في البداية اعتقدت أنه ظنني عارف لذا فهو مهتم بي إلى هذا الحد، فأردت أن أوضح له الأمر، وأن عارفاً قد تأخر عن الموعد قليلاً .فقال صلاح دون أن يبدي دهشة» :لا عليك سيأتي عما قريب، فطرقات اسطنبول تظل مزدحمة طوال الوقت .«وحين رأيت صحيفتنا موضوعة على الطاولة أمامه أدركت الحقيقة. فقد كانت صورة الأستاذ عارف ترافق المقال، لذا فقد عرف أنني لست عارفاً، ولم يكن هناك أي سوء فهم .والغريب أنني وبدل أن أشعر ببعض الارتياح، بدأ التوتر يحاصرني أكثر .فزعيم العشيرة بجلال قدره، يعاملني وكأنني محافظ اسطنبول .لذا لم أعلم ما عليّ قوله، أو حتى كيف عليّ الجلوس .أما هو فكان يعاملني دون تكلف، وكأننا أصدقاء منذ عشرات السنين .وأخذ يحدثني عن هران في مدينة أورفا حيث ينتمي .ولأنه كان يجلس على يميني، فقد كان من السهل علي مشاهدة أوتوستراد تارلاباشي الذي يطل عليه الفندق .وكنت أسمع حديث الرجل، فيما كنت أراقب الطريق، راجياً أن يصل الأستاذ عارف بسرعة، ويخلصني من هذا الموقف.

»لقد تغيرت تلك المناطق بشكل جذري «كان الزعيم يواصل حديثه —

ليست بحيرة، إنها بحر كبير ذاك الذي أنشأته الدولة .هل زرت تلك المناطق من قبل؟

»أجل ذهبت، والتقطت كثيراً من الصور لمحطة GAPالتلفزيونية – أجبته.

»وهل ستلتقط صوري أيضاً؟ «سألني.

»سأفعل —أوضحت له —فلا مقال صحفي دون وجود صور.«

بدا وكأن كلامي أزعجه، حتى بدأ يمسد على شاربه متأملاً.

»أعتذر منك يا صديقي، ولكن لا يمكنك التقاط الصور —قالها فجأة – نحن التقينا هنا، من أجل دم أخي الذي أُهدر هباء .أما التقاط الصور فهو أمر لا يليق بي، ولا أريد الظهور متبجّحاً على صفحات المجلات كالفنانين.

لم تكن بي رغبة في مجادلته.

»لن نلتقط صوراً ما لم ترغب —قلت —المهم أن يأتي الأستاذ عارف.«

»لا أريد —كرر —لم نلتقط أي صور.«

عندها شاهدت الأستاذ عارف على الطرف الآخر من الطريق، وقد كان مستعجلاً، لأنه تأخر عن موعده .ولكنه كان بانتظار تغير إشارة المرور، لكي يصل للطرف الذي نحن فيه .ولن تستطيع تخيّل الراحة التي انتابتني حين شاهدته مقبلاً.

»ها قد وصل الأستاذ عارف أيضاً.«

في تلك الأثناء أخذت السيارات تقف لتسمح للمارة بالعبور، وقد خطا الأستاذ عارف أول خطواته في الشارع.

»هذا جيد —حسناً، سنجري اللقاء، ولكن دون صور، فلا يعقل أن تتصدر صوري صفحات الجرائد، وأخي لم يرقد في قبره إلا منذ أيام.«

كان يتكلم ونظراته تتجه إلى الخارج نحو الأستاذ عارف .وبدوري واصلت النظر إلى الشارع، دون أن أعلق على حديثه .وفيما يواصل السير بخطواته الرشيقة توقف وقد بدا خوف مريع يكتسي وجهه ونظراته، ولكن الأمر لم يدم سوى لبرهة قصيرة .فقد تمالك نفسه، وأخذ يركض مسرعاً باتجاهنا .وفي تلك اللحظة ظهرت سيارة الجيب السوداء، وقبل أن ندرك ما يجري اصطدمت به بشدة .وقد رأيت كيف ارتفع جسده في الهواء، وارتطم بالرصيف الذي كان يركض نحوه .ودون أن تتوقف السيارة، أكملت طريقها بسرعة جنونية. هرعت إلى خارج الفندق، ما إن تجاوزت هول الصدمة بلحظات .وقد رافقني صلاح الدين ورجاله أيضاً إلى الخارج. وحين وصلنا إليه، كان جسده يرتعد بشدة.

»الإسعاف .اطلبوا الإسعاف «بدأت بالصراخ .وفيما أحاول إيقاف أي سيارة تمر من الطريق، اقترب صلاح الدين مني.

»لا تجهد نفسك يا صديقي —قال —فقد مات الأستاذ عارف.«

حاولت التخلص منه، وأنا ألتفت نحو عارف من جديد، كانت رعشته قد توقفت، وزاغ بصره قليلاً، وبدأ خيط الدم النحيل المتدفق من فمه، يسيل على ذقنه، ليتجمع على الرصيف .وعندها لاحظت قتامة الدم الذي تناثر بقعاً على الرصيف .فكيف لذلك الخيط الرفيع المنساب من فمه، أن يشكل تلك البحيرة القانية حول رأسه، ولكن صلاح الدين الواقف فوق رأسي كوكيل عن ملاك الموت، أوضح لي الأمر.

»لقد أصيب رأسه بشدة، ولكنه لم يكابد الكثير من الألم، فقد مات فور ارتطامه بالأرض تقريباً.«

لم أصدق أنه مات بالفعل، وبقيت أصرخ مطالباً بالإسعاف، التي لم تأتِ، ولكن مرافقي صلاح الدين، تمكنا من إيجاد سيارة ما على الفور .وقد وضعناه في السيارة، وتوجهنا إلى المشفى على الفور .حيث كرر الأطباء ما قاله لي صلاح الدين، بأن رأسه ارتطم بشدة حين سقوطه، وأغلب الظن أنه فارق الحياة بعد لحظات قصيرة .وتعلم ما حصل بعدها.

عادت غلالة الدموع تغطي عينيه، ولكنني أنا من لم يسمح له بالبكاء هذه المرة.

-ألم تستطع الحصول على رقم سيارة الجيب، طالما أنها اصطدمت به أمام أنظاركم؟

-لقد حدث كل شيء بسرعة خاطفة، وقبل أن ندرك ما حصل على وجه التحديد، كانت السيارة قد اختفت.

-ألم تستطع رؤية من كان بداخلها؟ من الذي يقود؟ كيف كانت هيئته؟

نفى بحركة يائسة من رأسه.

-لم أتمكن من ملاحظة شيء، وسط هول الصدمة .وأظن أنّ زجاج السيارة، كان أسود اللون .ذلك الزجاج الذي لا يسمح لك برؤية من في الداخل.

-حسناً، حين كان عارف لا يزال مستلقياً على الرصيف، ألم يسترعِ شيء أو أحد ما انتباهك؟

أخذ يرمقني بعينيه الزرقاوين بشك واضح.

-أتشك في ألا يكون الأمر مجرد حادث عادي؟

-قد يكون كذلك، فعارف ورّط نفسه في قضية بالغة الخطورة .لذا علينا أن ندقق في كل التفاصيل.

وفيما كنت أتحدث لاحظت، أني بدأت أتحدث هامساً دون قصد مني.

-معك حق يا أستاذ عدنان —قال، وقد أخذ يهمس بدوره —ولكن لم يحصل شي في مكان الحادث ليثير شكوكي، ولم يلفت انتباهي أي شخص.

-ومتى جاءت الشرطة؟ —سألته.

-لم تتأخر كثيراً، في البداية جاءت شرطة المرور، ثم بقية الوحدات، وأظنهم أتوا بعد دقائق قليلة على الحادث .وحين أتينا إلى المشفى، جاء مفيد الذي كنت برفقته منذ قليل، ويبدو على قدر كبير من الأهمية، بحيث أنّ الجميع، بمن فيهم المحققين أيضاً، أظهروا احتراماً شديداً وهم يحدثونه .وقد تحدث معي، وأخبرته بكل ما أخبرتك به للتو.

-حسناً فعلت – قلت له —هناك شيء آخر أود السؤال عنه، هل بقي صلاح الدين ورجاله معك طوال الوقت؟

-أجل ظلوا معي، وأتينا إلى المشفى سوية، وقد قدموا لي كثيراً من المساعدة .وأظنهم رجالاً صالحين .كما أنّ صلاح الدين يعرف أخاك جيداً.

-أتعني دوغان؟

-أجل فقد بقي يكيل له المديح طوال الطريق، وكان يتحدث عن شجاعته وكرم أخلاقه.

-ولماذا لم تخبرني بهذا من قبل؟

-لأنك لم تسألني .فقد طلبت مني أن أروي لك كل ما حصل بخصوص

الأستاذ عارف.

لم أجد داعياً للوم المسكين أكثر.

-معك حق —قلت مهدئاً —وكيف بدأ الحديث عن دوغان؟

-حين كنا ننتظر في المشفى علّق صلاح الدين، بأن هؤلاء القتلة، قد تخلّصوا من هذا الصحفي المسكين، بعد قتلهم دوغان .وقد سألته إن كان يعني دوغان سوزمن .فقال لي:

»أجل، هل تعرفه؟.«

فأجبته:

»أعرف أخاه.«

»هل أنت جاد؟ أنا أيضاً أريد التحدث إليه .هل لك أن تعطيني رقم هاتفه؟ —وقد أعطيته الرقم.«

وما إن أنهى كلماته حتى رمقني بعينيه اللتين زاد القلق من قتامة زرقتهما، وحين لم أعلق على الأمر سألني:

-أما كان علي إعطاؤه الرقم؟

-لا أهمية لذلك، لا أهمية لشيء بعدما حدث .كما أنه لو أراد التحدث إليّ، لن يعدم وسيلة للحصول على الرقم.

وقد انتابتني رغبة في أن يتصل بي هذا الرجل، فمن المشوق سماع الأحداث وفق روايته أيضاً .سحبت نفساً آخر من السيجارة، وشعر بحموضة تلذع شفتي، فرميتها وأنا أسحق العقب بقدمي.

-وهل ما زال صلاح الدين في المشفى؟ —سألت.

-لقد غادروا، فحين لاحظوا توافد الشرطة أخبرني صلاح الدين بأنهم سيغادرون، وعرض علي الاتصال به حين أحتاج لأي مساعدة .ولكن إن أردت التحدث معه، نستطيع الوصول إليه عن طريق موظفي الفندق، الذين تربطهم به صلة قربى على ما أظن.

-لا داعي لذلك الآن، كما أنّ الشرطة ستسجل شهادتهم بخصوص الحادث —قلت لأنني لاحظت أنّ الظلام بدأ يخيّم.

وقبل أن أطلب منه الدخول، لأننا تركنا إرول بمفرده، شاهدته يأتي برفقة فيليز ابنة عارف، والتي كانت آخر شخص أود رؤيته، وأنا في هذا الموقف .كانت أصغر من أوموت بسنة واحدة، وتدرس في كلية الحقوق، وتجاورنا وأسرتها في البناء ذاته بمنطقة باسكوي لمدة خمسة أعوام .كانت تقضي معظم الوقت في منزلها، تلعب مع أوموت في الحديقة الصغيرة قبالة المنزل، وهي تهزّ جديلتها الشقراء .وكنا أنا وفوندا نعتبرها بمثابة ابنتنا .وبقدر صعوبة إبلاغ أوموت بموت أمه، كان نقل خبر وفاة عارف إليها، يثقل على صدري .وبدأت أكيل اللعنات في نفسي لإرول الذي أحضرها إليّ.

-أصحيح ما أخبروني به عم عدنان؟ —قالت فيليز، ورغم أنّ وجهها كان يقابل الظل، إلا أنّ آثار الدموع بدت واضحة على عينيها .لا بد وأنها علمت بالأمر منذ برهة قصيرة، ولم تعي بعد ما يحصل حولها.

-إنه لأمر مفجع .ما حصل هو ظلم كبير — .تلعثمت بجمل من هذا القبيل.

-ألن يتمكنوا من إنقاذه؟ —سألت.

يبدو أنهم أخبروها بأن والدها في غرفة العمليات، وهي متعلّقة بأمل نجاته. لذا فقد بلبلت كلماتي ذهنها، وسحبت منها حبال الأمل.

-هل سيموت أبي؟ —عادت لتكرر علي ذات السؤال.

ولأنني لم أشأ لها أن تكابد مشقة التمسك بأمل كاذب أوضحت لها.

-أنا آسف يا فيليز —قلت.

رغم أنّ وقع كلماتي كان صاعقاً عليها، لكنني ظلت تحدق إلى وجهي، راجية أن تكون أساءت فهم كلماتي .لم تكن نظراتها غاضبة أو تشي باللوم والعتب، فقط كانت تواصل النظر منتظرة أن أنفي السؤال الذي يعذب ذهنها، والذي لا تقوى على ما يبدو أن تجاهر به . لم أعد أتحمّل وقع تلك النظرات.

-آسف جداً —كررت —أجل، لقد خسرنا والدك —ولكن كلماتي لم تجدي نفعاً، إزاء تلك النظرات التي ترمقني بها بإصرار غريب .وفجأة، وكأنها لم تسمع الخبر المفجع الذي نقلته لها، طلبت مني:

-أريد أن أراه —قالت —أريد رؤية أبي.

قالتها بسرعة، وهي تضغط على الكلمات، في محاولة لكبح حزنها، فخرج صوتها ناحلاً.

-لا تقلقي، سنراه —وأمسكت يديها بين كفي —ولكن تعالي لنتحدث قليلاً.

سحبت يدها بسرعة.

-وما الذي سنتحدث حوله؟ —اعترضت بحدة، وهي تحاول أن تتمالك نفسها، ولكن صوتها بدأ يخونها —أبي —وقبل أن تكمل لاحظت أنها بدأت

تترنح.

-يا إلهي، لقد مات أبي —صرخت.

أدركت أنها ستقع، فأمسكت بها على الفور.

-عم عدنان، مات أبي —صرخت مجدداً، وكأنها تطلب مني راجية أن أعيد إليها والدها، ولكنني لم أكن قادراً على فعل أمر مماثل .والأسوأ أنني لم أتمكن من التفوه بأي جملة لمواساتها، حين بدأت بالبكاء في حضني .وكما كنت أفعل حين كانت طفلة، بدأت أمسد شعرها الذي اكتسى لوناً بنياً، بكل حنو، وأنا أشعر بخفق قلبها المفجوع، فيما جسدها يهتز .فاستحضرتها طفلة، حين كنت ألاعبها هي وأموت، وأشعر بخفقات قلبها الفتي، يضج بالحياة بين جوانحها الرهيفة. وفجأة شعرت بنفسي أقع في هاوية فراغ سحيقة .فما الذي جاء بنا أنا وفيليز، وتولغا وإرول إلى هذا المشفى؟ ومن هو صلاح الدين ومفيد والآخرون؟ كيف تمكنوا من اقتحام حياتنا؟ ولكن كل الأجوبة التي تدور في ذهني اختفت في فراغ الهاوية الأسود، ولم أعد أعي ما يردده عقله .وبدأت أشعر بأن هناك أياماً أكثر سوءاً في انتظارنا، وأرغب في البقاء قوياً .ولكنني لم أفعل .فخفقة واحدة من قلب فيليز، كانت كافية لهدّ جدار كامل من آلياتي الدفاعية .ولم أعد قادراً على حبس دفقات الألم التي بدأت تتصاعد من أعماقي .وأخذت أجهش في البكاء، دون أن أدري إن كنت أبكي على عارف، أم فيليز، أم نفسي، أم أخي دوغان.

الفصل الثالث والعشرون

حين وصلت البيت، لم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة، رغم أنني حين كنت في المشفى مع فيليز، كنت أشعر أنّ الدقائق تمر طويلة كساعات، محملة بالحزن والضيق. رغم أنّ المسكينة، وبعد أن تجاوزت هول الصدمة، استطاعت أن تتماسك قليلاً، وأخذت تنتقل إلى طور أن تتقبل فكرة موت والدها، ولكنه ليس بالأمر الهين على الإطلاق .ورغم أنها لم تعد تحدق إليّ، بتلك النظرات التي تختلط فيها الصدمة بمرارة الفقد، ولم تعد تسألني إنْ كان مات بالفعل أم لا، لكنها بين الحين والآخر كانت تفقد السيطرة على نفسها، وتعاني نوبة بكاء جديدة، وهي تضع رأسها على كتفي، وتشوش منطق أفكاري —الذي بالكاد بدأ يتوازن— بتنهداتها العميقة .فبعد ذلك التوقد الذي جعل ذهني يعمل كساعة سويسرية، حين وصلت المشفى، أخذ الحزن والأسى، وغضب هزيمة ما، يبلبل أفكاري ويحجبها خلف غيوم هذه المشاعر، وأخذت أتخبط حائراً، لا أدري ما عليّ فعله .وكما في كل مرة أتعرض فيها إلى موقف سيئ، أو فاجعة، أو خسارة، سيطرت عليّ رغبة لا تقاوم بالهرب والابتعاد، ولكن إحساسي بالمسؤولية تجاه فيليز التي اعتبرها ابنتي، كان يكبل قدمي، ويجعلني أواصل المكوث في تلك الممرات المشؤومة التي تفيض برائحة الموت والمعاناة .وقد بقيت على تلك الحال، حتى مجيء بيلغيه والدة فيليز.

بيلغيه هي زوجة عارف الأولى، وعلى عكس ما كان يؤمن به عارف، فالنساء أكثر تماسكاً في أوقات الشدة من الرجال، لكن بيلغيه كانت تفوق جميع بنات جنسها تماسكاً .فلم ألحظ ولو لمرة أنها أخذت قراراً غير صائب، أو لم تلتزم

بما تقوله .لم تكن لديها عادات سيئة، وتعرف كيف تعيش بسعادة ضمن حدود المنطق التي وضعتها لحياتها .ربما لم تكن شخصاً جذاباً، وقد يعتبرها البعض مملة أيضاً، ولكنها استطاعت التوافق مع عارف بشكل جيد .وبرأيي أن طلاق عارف منها كان أكبر أخطاء حياته .ومن الصعب إطلاق حكم من هذا النوع، ولكنه لو بقي متزوجاً بها، لكان غالباً على قيد الحياة الآن، ذلك أنّ بيلغيه كانت بوصلة المنطق في حياته، والعقل المدبر .وكان عارف يلقبها ب »ربّة المنطق«، وكان لقباً يحمل كلا الوجهين .فقد كان عيب بيلغيه الوحيد أنها تكبر زوجها بخمس سنوات، وقد شاخت قبله، وترهل جسدها بسرعة أكبر .وحين بلغت منتصف الثلاثينات من عمرها، كانت توحي بمظهر امرأة كهلة، في حين أنّ عارف كان لا يزال يملك مظهر شاب في العشرينات .وقد اكتسب سمعة زير نساء في الوسط الصحفي بسرعة قياسية، لكن الزوجة المسكينة، حاولت جاهدة الصبر قدر المستطاع، وتغاضت مرة واثنتين وثلاث .وعندما أدركت أن لا أمل يُرجى منه، أغلقت باب حياتها في وجهه .وبعد الطلاق أخذت تعامله برسمية واضحة، ولكنها لم تستطع اصطياد رجل آخر مثل فوندا، بل كرست حياتها لتربية ابنتها فيليز.

حين وصلت المشفى، كانت صدمة الفاجعة التي اكتست بها وجوهنا جميعاً، قد انتقلت إلى وجهها الذي كان ينضح ألماً .ورغم ذلك فقد استطاعت أن تحبس ألمها في صدرها، وأن تبدو أكثر متانة وصلابة منا جميعاً .ولأنني أعرفها حق المعرفة، فقد كنت أدرك أنّ إرول مخطئ بنظراته المستنكرة إليها، ظناً منه أنها غير مبالاة بما حصل .فهي قد ظلت تحب زوجها الذي تركها من أجل أجساد نساء أكثر شباباً، وهو ليس احتمالاً افترضه بسبب معرفتي بها، بل هو نتيجة اعتراف شخصي منها بالأمر.

»أنا أفهمه جيداً —قالتها في إحدى محادثاتنا —ولا أعتبره قد أساء إليّ، فإن كان هناك من ظلم، فهو الظلم الذي تمارسه الطبيعة ضد المرأة —ورغم جميع مبرراتها، فقد كان من الواضح كم هي مجروحة من الداخل —على أي حال يا

عدنان —واصلت كلماتها وهي تهز رأسها باستسلام —فقد وقع المحظور، ولا فائدة من التعلق بشخص لا يريدك، ولكن بعد زوال فورة رغباته، سيتوقف يوماً ما، وحينها —حاولت إخفاء رعشة شفاهها بابتسامة بالكاد ظهرت، ولكن الدموع التي تتلألأ في عينيها فضحتها، ولكنني فهمت من حديثها، أنها ستبقى بانتظاره، حين يعود إليها وستسامحه على كل ما فعل بها .وبسبب معرفتي بحقيقة مشاعرها، كنت أدرك حجم الألم، والصدمة التي تعرضت لها، حين علمت بخبر موته المفاجئ .ورغم ذلك، فبسبب قدرتها على التصرف بحكمة ورزانة حتى في أقسى الظروف، فهي توحي للآخرين —كإرول وسواه —أنها امرأة باردة المشاعر بليدة الأحاسيس .ولكن الأشخاص الذي يملكون القدرة، على قراءة ما تخفيه النفس البشرية خلف قناع البرود، كانوا قادرين على ملاحظة عمق الأسى الذي يخفيه تكدّر قسمات وجهها، والحزن العميق لامرأة رضيت بقسمتها في الهزيمة، وظلت تحب الشخص الذي تخلى عنها في الحياة، وها هو يرحل بمفرده أيضاً، ليتركها لوحدة طويلة دون أي آمال .ولكنها رغم كل هزائمها أبت الاستسلام لمشاعرها، وقبل مضي ربع ساعة على وصولها المشفى، طلبت من ابنتها وهي تمسّد شعرها بحنان:

-هيا يا عزيزتي —قالت —دعينا نعدْ إلى البيت، فلا فائدة من بقائنا هنا —كانت تتحدث بحنان لا يخفي سلطتها، وهذا ما كان كافياً لتتمالك فيليز نفسها، وتخفف من غلواء بكائها .وقد راقني اقتراح المرأة، لأنني سأتمكن من التخلص من أجواء المشفى الكئيبة، والعودة إلى المنزل، حتى أتمكن من التفكير بروية في كل ما حصل .ولكن فيليز التي تعلقت نظراتها بي، وكأنها تسألني عن سداد رأي والدتها —الذي لم يظهر أنها مقتنعة به تماماً —في الذهاب وتركي هنا، جعلتني أقع في حيرة ولا أدري ما سأقوله.

-العم عدنان أيضاً هنا —قالتها على أمل ثني والدتها عن قرارها —ويجب أن يذهب ويرتاح قليلاً.

-لا يا عزيزتي —أخفيت حالتي الحقيقية عنها — لا تشغلي نفسك بي، فلست بحاجة للراحة أو ما شابه.

وفيما كانت نظرات الشابة تنتقل بحيرة بيني وبين والدتها، تدخل مفيد.

-السيدة بيلغيه محقة، فلا مبرر لبقائكم هنا، والأفضل هو ذهابكم جميعاً إلى المنزل.

قالها وهو ينظر إلى الشابة، ولكنها لم تكن مهتمة برأيه، بل تنتظر ما سأقرره أنا، وهي تحدق إليّ .فرفعت يدي كمن استسلم لقرار الأكثرية، وقد ردت هي بإيماءة طاعة من رأسها .مسحت دموعها وأنفها، وهي تحاول لملمة نفسها، وتعلقت بمرفق والدتها مغادرتين، وقد كنت أنوي مرافقتهما، لكن مفيد حال دون تحقيق رغبتي.

-ما رأيك أن تبقى قليلاً لنتحدث؟

ولن أخفي أن طلبه قد راقني، فقد كنت أخشى أن تطلب مني فيليز مرافقتهما إلى المنزل، ولن أستطيع ردّ طلبها بالطبع، وبالتالي كانت هذه الساعات العصيبة ستطول أكثر فأكثر.

-كنت أنوي إيصالهما إلى المنزل —تذرعت.

أومأ برأسه نحو إرول وهو يقول:

-أنا متأكد أنّ صديقك لن يتوانى عن مساعدتهما.

-بالطبع —قال إرول —لا تخشَ شيئاً، سأفعل كل ما يتوجّب فعله.

احتضنت فيليز وبيلغيه مودعاً، وقد ظلت الفتاة حتى آخر لحظة متعلقة بحضني، تنتفض في اهتزازات البكاء، فيما بقيت الأم محافظة على تماسكها، فقد

كان من المبكر عليها مواجهة حزنها بعد .فهي ستنتظر وصولهما إلى المنزل والاطمئنان على فيليز بعد أن تنام، ومن ثم ستطلق العنان لنفسها بعد أن تحكم إغلاق باب غرفتها على نفسها .بقيت أراقبهم حتى أن اختفوا عن ناظري، وحينها عاد مفيد إلى الحديث.

-سأكون صريحاً معك يا عدنان —قال —فنحن عاجزون عن العثور على سيارة الجيب، ورغم انخراط جميع وحدات المرور في عملية البحث، لكن يبدو أنّ السيارة قد اختفت في مكان لا يمكن الوصول إليه .ومن الصعب أن نعثر عليها بعد مرور كل هذا الوقت، خاصة أننا لا نعرف رقم السيارة أو نوعها .وربما —تمهل للحظات وهو يرمقني ليعرف وقع كلماته علي، قبل أن يردف —وربما يكون بالفعل مجرد حادث عادي.

ما الذي يقوله هذا الرجل؟

-أتصدق ما تقوله حقاً؟ —سألته.

-أعترف أنه احتمال ضعيف، ولكنه يظل وارداً .وهناك مئات الحوادث المشابهة التي قُيّدت ضد فاعل مجهول.

أمعنت النظر إليه، لأعرف إن كان ينوي إخفاء شيء ما عني، أم أنه مقتنع بما يقوله.

-ولكن ضحايا تلك الحوادث لم يكونوا يبحثون في قضايا خطرة كهذه —قلتها بضيق —ولا تنسَ أنّ هذه السيارة مألوفة.

-وهذا ما لا أستطيع التغاضي عنه —قالها متنهداً بعمق —ولكن مصادفات غير معقولة تقع في بعض الأحيان.

ويبدو أنه شعر بالضيق من نظراتي التي ترمقه بشك، فقام بالتوضيح.

-دعنا نفكر في اتجاه معاكس .فلو أنّ السيارة ذاتها قد اصطدمت بعارف، قبل أن يقوم بالعمل على هذه القضية، كنا جميعاً سنعتبره مجرد حادث مصادفة لا أكثر .بينما نضع الآن النظريات حول قتله المتعمد.

-أنت مخطئ – وأنا أنفي بهزة من رأسي –نحن نحاول وضع تصور عما حصل له، ضمن الوضع الخطر الذي يتهدّدنا جميعاً .فيما تحاول إقناعي بحديث لا يمت للأحداث بأي صلة منطقية.

وفيما كنت أتحدث كان صوتي يزداد ارتفاعاً وحدةً، حتى أنّ ذوي المرضى وبعض أفراد الشرطة الموجودين في المكان، بدأوا يلتفتون نحونا.

-لا أريدك أن تسيء فهمي –قال مفيد –فأنا أيضاً لا أستطيع الجزم أنّه مجرد حادث عادي .فهناك احتمال كبير أن يكون جريمة قتل، ولكنني لا أستطيع نفي الاحتمال الآخر مهما يكن ضئيلاً .وهذا ما أحاول أن أخبرك به، وأرجو أن تفهم ما أرمي إليه بالضبط.

صمت بعدها وهو يرمقني بجدية، كمن يقول إنّ عارفاً كان صديقه أيضاً، وهو مهتم بكشف الحقيقة وإلقاء القبض على القتلة .ولكنه بدل التصريح بذلك قال:

-مهنتنا تقتضي أخذ كل الاحتمالات على محمل الجد –وأردف –فأحياناً يمكن لتفصيل صغير أهملناه، أن يقودنا إلى الحقيقة عوض الأدلة التي تبدو جلية أمام ناظرينا.

أدركت أنه يتحدث عن خبرة مهنية تمتد إلى عشرات السنين، فقد كان يريد أن يوضح لي أنّ البحث قد يوصلنا إلى نتائج لم تكن تخطر ببالنا، وأنّ الأدلة الظاهرة ليس بالضرورة أن تقودنا نحو الحقيقة في كل مرة .إلا أنّ الحادثة كانت تكشف عن نفسها دون مبرر لكل هذا التدقيق والحرص الذي لا داعي له، وكانت

الحقيقة واضحة وضوح الشمس .فمن قام بحرق دوغان، هو من قتل عارف .وإدراك حقيقة بهذا الوضوح، لا يتطلب من المرء أن يكون مختصاً بعلم الجريمة .ولكنني لم أصرح عن أفكاري لمفيد الذي كان يسرد لي قواعد مهنته، ليوجهني نحو احتمالات أخرى .وقد استغل هو سكوتي ليواصل الحديث:

-ولكنك محق، فرغم أننا لن نهمل بقية الاحتمالات، لكننا سنواصل التحقيق في القضية على اعتبارها جريمة قتل .وسنحاول كشف العلاقة بين قتل دوغان وهذه الحادثة.

سكت لبرهة ووضع يده على كتفي، ثم أردف:

-وفي هذه الحالة فنحن بحاجة كبيرة لمساعدتك لنا .ففي ظل غياب عارف، قد يحاول رضا أصلان الاتصال بك .وحتى لو لم يفعل، فمن الجيد أن يواصل صحفي مثلك العمل على هذه القضية .والأهم أنك مطلع على كل الحيثيات، وأعدك أننا سنقوم بحمايتك ومساعدتك أيضاً.

ضحكت بمرارة.

-كما قمتم بحماية عارف؟

اصطبغ وجهه بالحمرة.

-هو لم يطلب حماية منا.

توقف مدركاً أن تبريره لم يكن موفقاً.

-وإن شئت الحق، فلم أتوقع أن يتصرفوا بكل هذه الجرأة –أوضح –ولكن الوضع قد اختلف الآن، ولن نسمح لهم أن يلمسوا شعرة منك.

-لقد شرحت لك من قبل، أنني لا أنوي الخوض في هذا الأمر –

خرجت الكلمات دون إرادة مني، رغم حيرتي، وعدم معرفتي لما يجب عليّ القيام به. ولكنني كنت مدركاً أنني غير محق في ما أقوله بعد كل ما حصل .ويبدو أنّ مفيد أيضاً كان يفكر بالطريقة ذاتها.

-لا تستعجل في اتخاذ قرار —قال —عُدْ إلى منزلك، وفكرْ في الأمر ملياً.

-حسناً، سأفعل.

وهذا ما فعلته طوال الطريق، وأنا أخرج من المشفى، ومن ثم أتجه إلى فندق ديفان، حيث ركنت سيارتي، وحين كنت أصعد سلالم البناء الذي يفوح برائحة صابون بلدي .وما إن فتحت باب المنزل ودخلت، حتى تملكني شعور غريب. وكأنني عشت هذه اللحظة من قبل .فقد تساءلت من قبل وأنا أدخل المنزل وأراقب أثاثه إن كان عليّ الخوض في الأمر أم لا .وهذا التكرار المضني لتعاقب الأفكار زاد من حيرتي أكثر .أم أنني بدأت أفقد عقلي؟ لم أخلع المعطف وأنا أتجه نحو المطبخ، وكأنه يستطيع حمايتي من هذه الأفكار، وفتحت البراد، وملأت أكبر كأس في متناول يدي بالشراب، وقبل أن تلامس حوافها شفاهي، بدأ الهاتف بالرنين. ولكنني لم أكن أنوي التخلي عن هذه المتعة، من أجل هاتف لعين، لذا استمتعت برشفة كبيرة، نزل فيها السائل المبارك، كالمطر على أرض ظمأى، وعلى الفور شعرت براحة وسلام .ولكن الهاتف الذي ظل يواصل الرنين في إلحاح لعين، أجبرني على رفع سماعته، وأن أتنهد بضيق.

-ألو، تفضّل.

-ألو، هل أُحدّث عدنان سوزمن؟ —سألني صوت رجولي أجش.

-أجل، أنا هو.

-أيها الوغد —بدأ الرجل بالصراخ فجأة، وقد ظننته أحد الأصدقاء الذين لم يسمعوا بما حصل، ويمزح معي لا أكثر، ولكنه واصل —أنتم لا تعلمون من تواجهون في الحلبة أيها القوّاد —حينها أدركت أنّ الأمر ليس مزاحاً على الإطلاق.

-لحظة يا سيد —قلت معترضاً.

-اللعنة عليك وعلى كل أسيادك أيها القذر —بدأ يصرخ متوعّداً، مما أثار غضبي.

-احترم نفسك لو سمحت —قلت.

-سأعلمك كيف يكون الاحترام، حين أمسك بك، والآن افتح أذنيك واسمعني جيداً .نحن نعلم ما تحاول القيام به، وأخبر ذلك الحقير دوغان أنه لن ينجو مهما حاول الهرب.

حين سمعت اسم دوغان، أسقط في يدي، فمن الواضح أنهم من يلاحقونه لقتله، ولكن ما لم أفهمه لماذا يطلبون مني إبلاغه برسالتهم، أليسوا هم من قام بقتله؟ فكيف لي التواصل مع شخص قاموا بقتله؟

-أخبره أن يسلمنا ما لديه، قبل فوات الأوان —واصل الرجل تهديداته — فلا مهرب له منا، حتى لو حاول الاختباء في قعر جهنم .ولكن إن لم يقم بإعادة ما سرقه...

لم أفهم كلمة واحدة من تهديدات الرجل.

-ما الذي سرقه دوغان؟ —سألته —صدقني لا أعلم ما الذي تتحدث عنه.

-بالطبع، فأنت لن تعرف ما سرقه —قالها ساخراً، وبدأت ضحكته العصبية تصلني من الطرف الآخر للمكالمة —إذاً ما عليك سوى أن تسأله، وهو سيشرح لك كل شيء.

إما أنهم مقتنعون حقاً بأن دوغان ما زال حياً، وإما يحاولون التصنع لغاية لا أعلمها.

-ألم تسمعوا بالخبر؟ فقد مات دوغان —كنت أنوي معرفة رد فعله.

-ارو هذه القصة علّهم يصدقونها —عاد التهديد إلى صوته —أتظن أننا صدقنا الخدعة التي نسجت خيوطها مع دوغان؟

لقد كان مقتنعاً بالفعل أنّ دوغان لا يزال حياً .إذاً فليسوا هم من قاموا بقتل أخي .هل هذا يعني وجود أعداء آخرين قاموا بقتله؟ إن كان قد قُتل بالفعل. لقد بدأت الأمور تتعقّد وتتشابك الخيوط في متاهة من التساؤلات.

-لا علاقة لي بأي مؤامرات أو خدع —قلت —ولكن إن شرحت لي ما المشكلة، قد أستطيع مساعدتك.

-أتسخر منا يا هذا؟ —بدأ يصرخ بحدة —ما رأيك أن تجري معنا ريبورتاجاً أيضاً؟

-أنت ترتكب خطأً جسيماً.

-اسمعني جيداً أيها الصحفي .دعك من ألاعيب السذاجة التي تتقنّع خلفها .فنحن نعرفك جيداً، أنت ودوغان .لذا لا تحاول خداعنا، وأخبر أخاك أن يسلمنا ما نريد، وإلا ستكون العواقب وخيمة عليكما.

-أرجو أن تسمعني قليلاً —حاولت الدفاع عن نفسي.

-بل أنت من يجب أن يسمعني .ما لم يسلمنا دوغان ما نريده حتى مساء الغد، فـأنت وابنك، وزوجتك السابقة، وعشيقها الرسام ..أظنك تدرك جيداً ما سأقوله، لذا لا سبيل أمامكم سوى إعادة ما أخذتموه دون أي نقص.

-توقف أرجوك —وقبل أن أنهي كلماتي كان الرجل قد أنهى المكالمة، وبقيت سماعة التليفون معلقة في يدي.

أدركت أن جميع مخاوفي بدأت بالتحقّق واحداً تلو الآخر .ولكن الغريب أنه، وفيما يواصل الرجل كيل الشتائم والتهديدات، انتابني الهدوء ذاته الذي سيطر عليّ لدى سماعي بخبر موت عارف .لم تكن لامبالاة بما سيحصل بعد أن مللت هذا الجو الدموي، بل على العكس، كان هدوءاً منطقياً يخولني التفكير في ملابسات القضية للوصول إلى الحقيقة .كانت أشبه بتلك الحالة التي عشتها قبل وصول فيليز المشفى .رؤية منطقية، وصفاء ذهني لا يشوبه الانفعال .وقد يكون السبب هو توقعي لما قد يحصل، والقلق الذي رافقني طوال أيام تحسباً لما سيجري معي.

حين عرض عليّ دوغان الضلوع في الأمر، رفضت لعدم رغبتي في تكدير صفوي، وتعريض أحد من أفراد لأسرتي للخطر .ولكنني خسرت الهدوء الذي أبحث عنه، وأصبحت حياة من أحب في خطر، شئت أم أبيت، أي لم يعد هناك ما أخسره .لا أنكر أنني كنت أشعر بالقلق، بل كانت فرائضي ترتعد رعباً، ولكنني كنت أعلم أن الخوف لن يخرجني مما أنا فيه .كما أنني إن أعلنت صارخاً أنني لا أريد التدخل في الأمر، فمن الذي سيصدقني؟

أعدت السماعة إلى مكانها، وعادت نظراتي لتستقر على الكأس التي أنهيت ثلثها .خطوت نحوها خطوات عدة، ولكنني توقفت في منتصف الطريق، وأنا أفكر بوجوب بقاء ذهني صافياً هذه الليلة فقد أحتاج إليه .رغم رغبتي العارمة في إنهاء هذه الكأس فقط، ولكنني لم أفعل .عدت إلى الهاتف من جديد، إلا أنني لن

أخبر مفيداً بأمر التهديد الذي تعرضت له، فهو بالتأكيد سيجعل الشرطة يقتحمون كل ما حولي، ولكن إلى متى سيتمكن من حمايتي؟ وهناك فوندا وأوموت، فهما أيضاً أصبحا معرضين للخطر .لذا من الضروري إيجاد طريقة لحمايتهما في البداية. لذا عدلت عن الاتصال بالهاتف وعدت من جديد إلى كأس الشراب، وكأنني لن أتمكن من الإجابة التي تعذب ذهني، ما لم أشربها، لذا فقد رشفتها حتى آخر قطرة في قعرها .وعلى الفور أحسست بتحسن، فعلى الأقل لن يكون هناك من كأس أمامي ترهقني الرغبة في شربها .جلست على الأريكة وأنا أتأمل السماء التي بدأت تظلم، لأعيد التفكير في كل ما حصل.

ما الذي كانوا يريدون استعادته؟ أهي نقود أم مخدرات أم أشياء أخرى؟ حاولت اعتصار جميع الاحتمالات ولكنني لم أصل إلى نتيجة .ولكنني تذكرت نقطة مهمة، وهي الأسلحة والوثائق التي تحدث عنها دوغان في الرسالة التي أرسلها .فربما ما يود هؤلاء الرجال استعادته، مخبأ في ذلك المنزل .رغم أنّ دوغان لم يحدثني سوى عن الصور، والأسلحة، والوثائق، والبطاقات المصرفية، ولكنه ربما لم يأتِ على ذكر المخدرات والنقود حتى لا يسبب الذعر لي .نهضت نحو دليل الهاتف، وأخرجت الورقة التي دونت عليها العنوان، وأخذت أقرأه عدة مرات، وكأن محتويات المنزل ستتجسّد أمامي إن تمعّنت في الورقة أكثر .وأخذت أصابعي تلامس مفاتيح المنزل التي علقتها مع مفاتيحي الخاصة .وأدركت أنه لا مفر من الذهاب إلى هذا العنوان. ولكن هل عليّ الذهاب بمفردي أم اصطحاب أحدهم معي؟ ربما من الأفضل الذهاب بمفردي، ولكن ماذا لو كان هناك من ينتظرني في المنزل؟ وبعد أن أشعلت سيجارة، تساءلت عن السبب الذي سيدفع أحدهم لانتظاري هناك، وأدركت أن مخاوفي لا مبرر لها .فلو كان هناك أحد في المنزل، لما اتصلوا بي منذ قليل، ليهددوني. وأغلب الظن أنّ ما يسعون إليه، موجود في ذاك المنزل .ولو كانوا يعرفون عنوانه، لاقتحموا المكان للحصول على ما يبغونه قبل أن تتعقّد الأحداث إلى هذه الدرجة، فمع كل جريمة جديدة، تقترب الهوة من ابتلاعهم.

بدأ سؤال آخر أكثر أهمية يشغل ذهني :لماذا يصرّ هؤلاء الرجال على أنّه على قيد الحياة؟ ألا يفترض أن يكون من اتصلوا بي، هم من قتلوا دوغان؟ أم أنه ما زال حياً بالفعل؟ أم هناك أكثر من جهة تلاحقه؟ ماذا لو كانت إحدى الفرق قد أمسكت به، فاعترف لهم تحت التعذيب بعنوان المنزل الذي أرسله إليّ؟ وإن صح هذا الاحتمال، فهم في المنزل الآن، والذهاب دون مساعدة الشرطة، يشكل خطورة كبيرة .وفي المقابل لا أعلم مدى الثقة التي يجب أن أوليها للشرطة .فلم يوحِ لي أي من يالفاج وغونغور أو مفيد بالثقة .فمن اتصلوا بي كانوا يعلمون أدق التفاصيل عن حياتي، بما فيها علاقة زوجتي بالرسام .وهذا ما يشير بوضوح إلى أنّ هؤلاء ليسوا إحدى عصابات الإجرام البسيطة .إذاً أليس من الغباء أن أُطلع أحد الطرفين —ولا أعلم على وجه الدقة من عليّ أن أختار —على عنوان المنزل؟ خاصة أنني لا أملك أي ضمان على عدم قيامهم بسرقة تلك الأدلة .وفيما كنت أهيم وسط هذه الأفكار التي تسبح في ضباب سجائري، عاد الهاتف ليرن من جديد .قد يكون من اتصل قبل قليل، ومن الأفضل عدم الرد عليه، حينها سيعاودون الاتصال .ربما علي الرد لكي أكرر له أن لا علاقة لي بكل ما يجري، ورغم أنه احتمال ضئيل، ولكنني قد أبعد خطرهم عن عائلتي .ولكنه لم يمنحني فرصة ترتيب أفكاري، فقد كان جرس الهاتف يرن بإزعاج متواصل .رفعت السماعة مصمماً، على قول كل ما لدي دفعة واحدة.

-اسمعني —قلت —أرجوك أن تسمعني في البداية.

-ألو —قالها الصوت القادم من الطرف الآخر، وكأنه لم يفهم ما أعنيه، لكنني واصلت الكلام بإصرار.

-لا علاقة لي بكل ما يجري، صحيح أنني قابلت دوغان ولكن.

-عذراً يا أخي، ولكنني لا أفهم شيئاً مما تقوله —قاطعني الرجل —فأنا أريد التحدث مع السيد عدنان.

كانت اللكنة الكوردية واضحة في كلماته .صحيح أنّ الرجل السابق كان يتحدث بلكنة أجنبية، ولكنها لم تكن تشبه اللكنة الكوردية بأي حال .لذا فقد سألته:

-ألم تتصل بي قبل قليل؟

-لا، فهذا أول اتصال لي، أريد التحدث مع الصحفي عدنان هل هو موجود؟

-ومن أنت؟ —سألت قبل الإفصاح عن هويتي.

-أنا صلاح الدين كايتان، شقيق بكير كايتان.

إذاً فهو الرجل الذي ذهب عارف وتولغا للقائه .ورغم ذلك كان علي التأكد أكثر.

-من أين حصلت على رقم هاتفي؟

-من المصور، كان يدعى تولغا.

تذكرت حينها أنّ تولغا أخبرني بالأمر، فتبددت شكوكي، ولكن ظل السؤال القائم في ذهني :ما الذي يريده رجال عشيرة كايتان مني؟

-حسناً، تفضل أنا عدنان كيف أستطيع مساعدتك؟

-أحقاً أنت هو عدنان؟ —بدا صوته مستبشراً، وكأنه وجد ضالته — أنت الصحفي شقيق دوغان؟

-أجل أنا هو —وأضفت بنبرة جدية —أنا عدنان سوزمن.

-لقد تكبدنا مشقة كبيرة في العثور عليك يا صاحبي، فمنذ ثلاثة أيام

ونحن نبحث عنك .وقد أعلمت الجريدة برغبتي في رؤيتك ولكنك لم تتصل بي .بل اتصل بي شخص يدعى عارف، وحين طلبت منه محادثتك، عرض علي أن ألتقي به أولاً .وأثناء قدومه للقائي اصطدمت به سيارة ..أظنك سمعت بالخبر.

-سمعت –، لقد كان عارف صديقاً مقرباً.

-وهذا ما أخبرنا به، فليتغمده الله برحمته الواسعة.

-لماذا تريد التحدث إلي؟ —سألت.

-كنت أود التحدث معك بخصوص قتل دوغان وصديقك عارف.

-وهل تعرف من يكونون؟ —وقد خرج صوتي هامساً دون قصد مني.

-لا، ولكن لديّ بعض التخمينات .وأنت أيضاً صحفي، ولا بد أن تكون لديك بعض المعلومات .إن تقابلنا، حينها يمكن أن.

لا ينقصني سوى زعيم عشيرة يريد الانتقام لمقتل أخيه، حتى تكتمل دائرة مصائبي، وفي تلك الأثناء تذكرت احتمال أن يكون هاتفي مراقباً.

-لا معلومات لدي حول الموضوع —قلت بحسم —ولا أفهم تماماً ما الذي يحدث، ولا أظنني سأفيدك بشيء لو تحدثنا.

لكنه لم يكن ينوي الاستسلام بسهولة.

-لا تقل هذا يا أستاذ .فقلمك قادر على إراقة الدماء وإيقافها، وبمقال واحد قد تودي بأحدهم إلى حبل المشنقة، وبمقال آخر قد تعيد له الحرية في آخر لحظة.

-من أخبرك بهذا؟

-دوغان، فقد كان يحبك كثيراً، ولا يتوقف عن مدحك.

-ما قاله دوغان أصبح من الماضي —أوضحت —فقد توقفت عن ممارسة الصحافة.

-أحقاً ما تقول؟ —بدت الخيبة واضحة في صوته —هل تركت العمل في الصحافة؟

-أجل، لذا لا أستطيع مساعدتك في شيء.

-إنها خسارة كبيرة بالنسبة إلينا —وأضاف بكدر —إذاً فمهمتنا ستزداد صعوبة —صمت لبرهة —ورغم ذلك سأترك لك رقم هاتفي، وإن احتجت لي في شيء، ما عليك سوى الاتصال بي، فأنت أمانة من دوغان.

وبعد أن دوّنت رقم هاتفه، أضاف:

-فليحمِك الله يا أستاذ —وأنهى المكالمة.

لا أدري لماذا شعرت بالراحة من اتصال هذا الزعيم الشاب بي، والغريب أنني شعرت بأنه شخص موثوق حتى قبل أن أراه .لقد أدركت أنني لست وحيداً في خضم هذه الأحداث.

من الواضح أنّ الشاب قام بتحليل الأمور بطريقة صحيحة، فهو مقتنع أنّ قتلة دوغان وعارف وشقيقه، هم جهة واحدة .كما أنّ دوغان لم يأت على ذكر وجود جهات عدة، بل أكّد على أنّ من قتل بكير وعشيقته والعقيد رفعت، ومن يلاحقه هي الجهة ذاتها .إذاً من هم هؤلاء الذين اتصلوا بي وهددوني؟ ربما لا يعدو الأمر سوى كونه فخاً للإيقاع بي، فحين طلبوا مني إبلاغ دوغان بطلباتهم، كانوا يدركون أنهم يطلبون المستحيل، وبذا سيزداد الضغط الواقع عليّ، وسأنصاع إلى طلباتهم بصورة أسرع، أو أنّ من يحرك خيوط هذه اللعبة هو أخي بالذات .اللعنة

لقد عدت إلى أرض الضياع .وللخروج منها لا بد من امتلاكي لخارطة الحقائق، إلى دلائل ترقد هناك، في المنزل الذي دلني عليه دوغان .إذاً لا مفرّ من الذهاب إلى هناك .ويجب عليّ أن آخذ معي أحداً من الجريدة، ولكن من؟ شكيب إينجي، أم بحري نارمان؟ فأنا لا أثق بهما، أكثر من ثقتي بالشرطة.

ماذا عن إرول؟ ليس خياراً سيئاً، ولكنني واثق أنه سيسرع لإخبار رئيس التحرير نصرت كفلجم على الفور .وما المانع؟ فرغم أنه لا يكنّ لي أي ودّ، لكنه رجل جسور، لا يمكن ليّ ذراعه بسهولة، والأهم من ذلك أنّه طموح .ولن يفوّت على نفسه خبراً كهذا .ولكن على إرول ألا يطلعه على تفاصيل الأمر، قبل الذهاب إلى ذلك المنزل والتأكد من وجود الأسلحة والوثائق المزعومة .كما يجب أن يرافقنا مصور صحفي .هناك تولغا، ولكن كيف سآخذه معي للعمل على خبر يخص جريدة إرول، وهو يعمل لدى بحري نارمان؟ أذكر أنه كان مستاء في الآونة الأخيرة من عمله، وإن سارت الأمور معنا بشكل جيد، سأجعل إرول يقنع نصرت لكي ينتقل تولغا للعمل معهم.

كنت أملك رقم هاتف كل منهما، ولكن يجب عدم الاتصال من هاتف منزلي .سأتصل بهما من هاتف عمومي ما إن أخرج .ولكن كيف سأفعل ذلك، وقد اعترف مفيد أمامي، بأنهم يراقبونني؟ ومن المرجح أنهم زادوا الرقابة بعد مقتل عارف، فحال خروجي سيلحقون بي على الفور .إذاً كيف سأتمكن من تجاوزهم؟ وفيما كنت أسحب أنفاساً متتالية من سيجارتي، تذكرت الحريق الذي نشب في البناء المجاور بعد منتصف الليل .فالنيران التي اندلعت في منزل البواب، انتقلت لتلتهم الطابق الأرضي برمته، وبقي السكان محبوسين داخل البناء .عندها صعدوا إلى السطح، ومن هناك انتقلوا إلى سطح بنائنا، وتمكنوا من النجاة .رغم أنّ فرق الإطفاء جاءت في الوقت المناسب وتمكّن من إطفاء الحريق قبل أن يتسع أكثر. ماذا لو اتبعت الطريقة ذاتها، وانتقلت إلى البناء المجاور الذي يطل مدخله على الجهة الأخرى من الطريق؟ وهكذا لن يعرفوا أنني غادرت المنزل .فكرة جيدة، لكن هناك

احتمال أن يكون باب السطح مقفلاً خاصة أن نظمي البواب دقيق جداً في عمله، ولا يمكنه ترك الباب مفتوحاً .إلا أنّ الطريقة الأسلم هي التحقق بنفسي .ولكن ماذا عن أضواء المنزل؟ إن بقيت مشتعلة حتى الصباح ستخامرهم الشكوك، وإن أطفأتها منذ الآن، سيصبح الشك أقوى.

اعتصرت ذهني بحثاً عن حل ما، فوجدته بعد لحظات، فجارتي العزيزة فيروزان هي من ستساعدني .سأخبرها أنني وضعت الأطباق في الغسالة، التي تعاني من خطب ما، ويجب إطفاؤها حال الانتهاء .إلا أنني وبسبب هاتف طارئ مضطر للخروج، وسأطلب منها أن تأتي لتطفئ الغسالة بعد ساعة، وتطفئ معها أضواء المنزل .وسأعطيها النسخة الاحتياطية من المفاتيح .ولأنها أسدت لي خدمات مماثلة من قبل، فأنا متأكد من أنها ستوافق .وحين يرى المراقبون أنّ أضواء منزلي أطفئت قرابة منتصف الليل، سيظنونني خلدت إلى النوم .كان كل شيء يبدو في مكانه، إلا أنني كنت بحاجة لمزيد من التفكير، لذا اتجهت إلى المطبخ لصنع فنجاة قهوة، ووضعت الركوة على النار، ومن ثم اتجهت إلى الحمام .نظرت إلى وجهي في المرآة، كانت عيناي محمرتين، وعروق الدماء فيهما نافرة بوضوح، وشعري مشعثاً .أما ذقني التي تحتاج إلى حلاقة، فقد كانت ترمي بظلال رمادية على وجهي المتعب، وتزيده اكفهراراً، وتعمّق من خطوطه .ولا بد أنّ إرول وتولغا حين يشاهدانني على هذه الحال، سيتراجعان عن فكرة التورط مع رجل يوحي منظره بالجنون .غسلت وجهي، ورتبت شعري، لكن الوجه المتعب في المرآة لم يتغير كثيراً، فأدركت أنني دون حلاقة ذقني لن أستعيد مظهري الحقيقي.

الفصل الرابع والعشرون

كانت خطتي تسير بنجاح، وقد فاقت توقعات رجل متشائم مثلي .ولولا أنني متأكد من عدم وجود من يعلم بأمرها، لخطر لي أنّ أحدهم يتعمّد تسهيل الأمور عليّ، للاستمرار في مراقبتي .فقد كانت عملية خروجي من المنزل أسهل مما توقعت، كما أنّ السيدة فيروزان تقبلت طلبي بصدر رحب كعادتها، وحين سلمتها المفاتيح، تصنّعت النزول، وحين أغلقت الباب عدت إلى الصعود على رؤوس أصابعي، دون أن ألتقي بأي من الجيران .وحين وصلت وجدت الباب مفتوحاً على مصراعيه، وكأنه متواطئ معي .وشعرت حينها بأن أسهمي في بورصة الحظوظ مرتفعة جداً الليلة .بدأت السير بحذر على قرميد السطح للانتقال إلى السطح المجاور، الذي كان لديه بدل الباب نافذة واسعة تفضي إلى الداخل .حين بلغتها ظننت أولى العراقيل قد بدأت بالظهور، فقد كانت النافذة مغلقة من الداخل، لكنني لاحظت أنّ إحدى درفتيها مغطاة بنايلون شفيف بدل الزجاج، ورغم أنها كانت سبيل نجاة سكان البناء من الحريق، إلا أنهم قد استكثروا جمع بعض النقود ووضع لوح زجاجي جديد لها .مزقت النايلون بطرف مفتاحي، وأدخلت يدي، وفتحت النافذة .كان عليّ القفز حوالى متر لأبلغ الأرض، وبعد أن هبطت من دون مشاكل أو أضرار، بدأت بالبحث في الظلام عن زر الكهرباء.

أخرجت الولاعة وبدأت أبحث على ضوء نيرانها، عن الزر، وكان على الجدار الأيسر للنافذة، أشعلت الضوء وبدأت الهبوط، وأنا أبتهل ألا أصادف أحداً من الجيران، وحتى لو حصل ذلك، فسأخبره بأنني آتٍ لزيارة أحدهم هنا، وأتملّص

من الأمر .شعرت براحة وأنا أهبط بصمت ولكن بالسرعة الممكنة، ولحسن الحظ لم أصادف أحداً يضطرني إلى سرد الأكاذيب .وخرجت من البناء مسرعاً، واستقللت أول سيارة أجرة صادفتني، وطلبت من السائق أن يأخذني إلى غالاتا سراي للاتصال بإرول وتولغا من أحد الهواتف العمومية هناك .قمت بإغلاق هاتفي النقال حال خروجي من المنزل، حتى لا يتصل بي أحد .ولم أكن أنوي استخدامه طوال الليل. كما أن غالاتا سراي قريبة من منطقة كورتولوش حيث يسكن تولغا، ومن بيه أوغلو التي من المرجّح أنّ إرول يتسكّع في إحدى حاناتها.

ترجّلت من السيارة واتجهت نحو الشاب الذي يبيع بطاقات الهواتف العمومية، على بسطة صغيرة .كان يتناول شطيرة كوكوريتش[17] بشراهة، لا يحرص على إخفائها رغم كثرة المارة من حوله .فلا بدّ أنّ عمله كان جيداً حتى أنه لم يجد وقتاً للأكل حتى هذه الساعة، وحين لاحظ وقوفي أمامه، ازدرد اللقمة على عجل، فطلبت منه بطاقة الستين دقيقة .نقل الشطيرة إلى اليد الأخرى، ليعطيني إحدى البطاقات المرصوفة كورق اللعب، وقد بدا الضيق في عينيه وهو يخبرني بالسعر، الذي كان من الواضح أنه أعلى من المتوقع، ولا بد أنّ هذا التجهم كان وسيلة هجومه لاستباق استياء الزبائن من ارتفاع الثمن .كان ينظر بتحدٍّ يوحي بأنه مستعد للشجار في أي لحظة .وحين أعطيته النقود دون تعليق، اختفت الحدة من ملامحه، بل حاول أن يبتسم وهو يظهر أسنانه الصفراء، فيما كان يدس النقود في جيبه .تركته لأتجه نحو غرفة الهاتف المستندة إلى جدار المدخل السفلي لثانوية غالاتا سراي .داخل الغرفة كانت فتاتان روسيتان جميلتان خمنت أنهما بائعتا هوى، تتحدثان مع عائلتيهما في الوطن .فقد كانت الصهباء تتحدث، ومن ثم أعطت السماعة لصديقتها الشقراء ذات الشعر الأجعد، فيما وقفت على بعد عدة خطوات أسمع المحادثة التي لا أفقه منها كلمة واحدة بصمت .وبعد حوالى عشر دقائق غادرتا، دون أن تعتذرا على انتظاري كل هذا الوقت.

دخلت الغرفة التي كانت تفوح برائحة عطرهما الثقيل والرخيص .ورفعت

السماعة، وأنا أضغط على أرقام هاتف إرول، الذي تمنيت ألا يكون مقفلاً .لا أدري إن كنت دعواتي لاقت القبول، أم أنّ جولاته النسائية الليلة لم تثمر بعد، ولكن هاتفه النقال بدأ بالرنين حالما ضغطت آخر رقم .رنّ لمرتين وثلاث وخمس، ولكنه لم يردّ عليّ .أعدت الكرة من جديد، ولكن النتيجة لم تتغير .هذا ما لم يكن في الحسبان، إلا أنني لم أكن أنوي الاستسلام، فربما كان في الحمام مثلاً، أو أنه في مكان صاخب لا يمكّنه من سماع رنين الهاتف .وقررت معاودة الاتصال به، ما إن أنهيت مكالمة تولغا .وبدأت أضغط على رقم هاتف المصور الشاب .وفي الرنة الثانية رد عليّ تولغا، الذي توجه إلى المنزل، بعد توبيخه من قبل شكيب إينجي، لعدم التقاطه صورة لعارف أثناء الحادث.

-لقد كان الرجل يموت بين يدي، وبدل محاولة إنقاذه، كان عليّ التقاط صورة له، وهو على تلك الحال، أي نوع من البشر هذا الوغد؟ —كان يشكو لي وهو ممتعض —وربما يتم فصلي من العمل أيضاً.

-لا تفكر في العمل —دخلت لبّ الموضوع فوراً —سأجد لك عملاً أفضل بكثير.

صمت للحظة، ربما من الدهشة، وقبل أن يعلّق أردفت:

-يجب أن نلتقي على الفور.

-ما الذي حدث؟ هل هناك من تطورات جديدة؟ —سألني.

-حديث طويل، سأرويه ما إن نلتقي، أحضر الكاميرا معك وتعالَ.

-الآن؟

-الآن، فالأمر لا يقبل التأجيل .الساعة الآن تقارب التاسعة .هل تستطيع الحضور قرابة التاسعة والنصف إلى موقف السيارات في تيبى باشي؟

سنذهب إلى أكسراي.

-حسناً يا صديقي.

وكنت متأكداً أنّ القلق الممزوج بالفضول في صوته، لن يمنعه من الحضور في الموعد المحدد.

حين أنهيت المكالمة، لاحظت نظرات الرجل الخمسيني الذي يقف خلفي، وهو يراقبني في اهتمام .فانتابني ذعر شديد، أيعقل أنهم تمكنوا من اللحاق بي، بعد كل تلك الجهود والخطط؟ ولكنني بعد مشاهدة وجهه النحيل، وهو يرمقني بعينيه الواسعتين، أدركت أنه ليس سوى شخص ينتظر انتهائي بلهفة .أشرت إليه بيدي، أطلب منه التمهل ثانية، ودون انتظار اعتراض منه، بدأت أتصل برقم إرول مجدداً. رنّ لمرتين وثلاث وأربع، فانهالت عليه شتائم حنقي، واعتقدت يائساً أنه لن يجيب عليّ هذه المرة أيضاً، ولكن صوته المراوغ وصلني في تلك اللحظة.

-ألو.

لم أكن في مزاج يسمح لي حتى بإلقاء التحية عليه.

-إرول، علينا أن نلتقي، هناك تطورات هامة —قلت.

ساد الصمت القلِق الذي لاحظته قبل برهة وأنا أحدث تولغا .ولكنه تمالك نفسه بسرعة.

-هل يتعلّق الأمر بعارف؟

-سأخبرك حين نلتقي —أجبت.

-حسناً، أين أنت؟

كان قد استعاد الثقة المعهودة وهو يسألني.

-أنا في بيه أوغلو، أين أنت؟

-لست بعيداً، أنا في أحد مطاعم شارع سِراسفيلر.

-ممتاز، هل تستطيع الحضور بعد نصف ساعة إلى موقف السيارات في تيبى باشي؟ علينا الذهاب إلى أكسراي.

-بالطبع، السيارة معي، هل أحضرها؟

لم تخطر لي الفكرة، فهو لديه سيارة هوندا بيضاء.

-سيكون ذلك جيداً —قلت.

حين أعدت السماعة إلى مكانها، أحسست بأن مخاوفي بدأت تتبدد، فمن الواضح أنّ الحظ يعمل لصالحي هذه الليلة .وتمنيت أن يواصل الحظ رفقته لي، حتى بلوغ ذلك المنزل.

وصل تولغا في البداية، وبعد تأخر دام لبضع دقائق، رأينا سيارة إرول تتجه نحونا .جلست في المقعد الأمامي، فيما جلس تولغا مع حقيبة الكاميرا في المقعد الخلفي .وحين رآه إرول قال بنبرة تتراوح بين الدهشة والسخرية:

-يبدو أننا ذاهبون لالتقاط خبر ما؟

-خبر لن تتوقعه —أجبت.

ولسماع الأحداث بالتفصيل، كان عليهما الانتظار، حتى وصولنا إلى محطة بنزين في مارتار، وفيما كنا نتجه نحو بكير كوي، كنت أراقب الطريق من المرآة الجانبية، للتأكد من عدم وجود سيارة تلحق بنا، دون أن ألفت انتباه الشابين. وبعد وصولنا المحطة، ركنا السيارة في المرأب وتوجهنا إلى الكافيتريا الصغيرة التابعة للمحطة، وهناك أفصحت للمرة الأولى عن كل ما جرى بيني وبين دوغان منذ

لقائنا في المتجر، وحتى موضوع المنزل .استمع إليّ الاثنان حتى النهاية بصمت تشوبه دهشة في البداية، ما لبثت أن تحولت إلى القلق .ومن ثم بدأا يمطرانني بكل تلك الأسئلة التي كانت تشغل ذهني منذ أيام .فأجبت عما أعرفه، وأوضحت أننا بالبحث سوية سنتمكن من العثور على بقية الإجابات، ثم سألتهم بدوري:

-ما قولكما؟ هل توافقان على أن نعمل سوية؟

-أنا موافق يا صديقي —قال تولغا دون لحظة تردد واحدة —فليس لديّ شيء أخسره.

أما إرول فقد كان أكثر حذراً.

-بالطبع أنا موافق، ولكن هل علينا الذهاب إلى ذاك المنزل قبل إخبار الشرطة؟ فخصومنا قتلة، كما أنهم يمتلكون جرأة كبيرة .دعكم من قتل أحد شركائهم، فهم لم يتوانوا عن قتل صحفي لا ناقة له في القصة ولا جمل مثل عارف أيضاً .ولا أظنهم سيعاملوننا برأفة أكبر.

-إن استطاعوا، فسيفعلون ذلك بكل تأكيد —وقد ساءتني محاولة إرول للمماطلة وتمييع الحديث.

-ولنحول دون تحقيق ذلك، علينا العمل سوية مع قوى الأمن، وكما تعلم فإن رئيس تحرير جريدتنا لديه علاقات وثيقة مع الاستخبارات، ويمكننا إطلاعه على الأمر لكي يساعدنا.

-لا يمكننا الثقة بهم يا صديقي —علقت —فأنا أيضاً أعرف شخصيات استخباراتية تحتل مناصب مرموقة، فنحن نخوض في مستنقع قذر، لا ندري من الذي يحرك أوحاله .والأدهى أن يكون الأشخاص الذين سنلجأ إليهم لحمايتنا، هم وراء قتل عارف ودوغان.

كان إرول يريد الاعتراض مجدداً على كلامي حين تدخل تولغا لمساعدتي.

-عدنان معه حق، فقد كنت أعمل مع شكيب إينجي على هذا الملف، وقد اكتشفنا أنّ بكير كايتان، كانت له صلات حتى مع وزير الداخلية السابق. وقد وصلتنا تقولات عن عمل العقيد رفعت مع الاستخبارات أيضاً.

-حسناً، ولكن —اعترض إرول.

-اسمعني يا إرول —قطعت عليه كلامه —لقد فكّرت ملياً في الموضوع، وصدقني لا حل آخر سوى بهذه الطريقة .كما أنك لست مضطراً للذهاب معنا إلى ذلك المنزل، وإن شئت تستطيع العودة الآن، فلن يلومك أي أحد، فليس لي الحق في إجبارك، لأنّ الأمر ينطوي بالفعل على مخاطرة كبيرة .ولكنني مجبر على الذهاب إلى هناك، سواءً معك، أو مع صحفي آخر.

حين سمع إرول كلماتي الأخيرة، بدا بريق الاهتمام في نظراته المترددة.

-لا، سأذهب معك، فأنا لم أرفض الفكرة .وحتى لو أخذنا معنا شخصاً آخر، فليس بحوزتنا أي شيء لحمايتنا.

كنت أدرك ما يخفيه هذا الكلام، إنه الخوف .وقد مررت بالأحاسيس ذاتها من قبل .فمهنة الصحافة تعتبر من أخطر المهن في هذا البلد .وخلال المئة عام المنصرمة، تمّ قتل أكثر من سبعين صحفياً، فقط لأنهم كانوا يحاولون أداء عملهم بإخلاص وصدق، وكان إرول مطلعاً على هذا الأمر بكل تأكيد .وقد لا تكون المرة الأولى التي يواجه فيها خوفاً من هذا النوع، لذا كان من غير المنطقي ألا أسانده ضمناً .فالحياة غالية، وما من خبر أياً كان نوعه يستحق المخاطرة من أجله بحياتك. وكان إرول الذي تراوده هذه الأفكار يواصل حديثه.

-نستطيع الاعتماد على قوى الأمن، فلا بدّ من وجود بعض الشرفاء

هناك .أي أننا نستطيع العمل على هذا الخبر دون أن نعرّض أنفسنا للتهلكة.

كنت مقتنعاً بوجهة نظره، ولكنني بالمقابل كنت مجبراً على إقناعه بعكس ذلك، خوفاً من المخاطرة.

-لن ننجح في تقديم خبر مميز ما لم نخاطر بأنفسنا —قلت.

ضاعفت كلماتي من خوفه، وخمّنت أنه سينسحب من المشروع، لذا ومنعاً من حدوث الأمر، غيرت استراتيجيتي، وبدأت باتباع ابتزاز خفي.

-أنا سأكتب الخبر حتى من دون مساعدتك، لذا عليك أن تخبرني الآن إن كنت ستشاركنا أم لا —كنت أتكلم بكل هدوء —لأنني مصرّ على الذهاب إلى ذلك المنزل، فلو ذهبنا سوية، سنخفف من الخطر الذي قد نصادفه، ونتمكن من إنجاز خبر مزلزل، يعوضنا عن الخطر الذي تعرضنا له .ولكن فيما لو لم تكن موافقاً، عليك إخباري الآن، لأتصل بزميل آخر يذهب معي.

تغيرت تعابير وجهه على الفور، فرغم الخوف الذي كان يشعر به، إلا أن صورة المقال الذي سيكون مرفقاً باسمه، وهو يتصدر الصحف لأيام والاهتمام الذي سيحظى به، كانت أكثر إغراءً من الخوف .ويبدو أنّ تولغا الذي بقي صامتاً لبعض الوقت، قد أدرك ما يعتمل في صدر صديقه.

-أنا لا ألوم إرول —بدأ كلماته، فانتابني القلق لأنّ مخاوف إرول قد انتقلت إليه أيضاً .ويبدو أنني سأذهب إلى ذلك المنزل بمفردي .ولكن تولغا وبمراوغة ذكية، أثبت أنني كنت أبخسه حقه، حين واصل —من الغباء أن ندخل المنزل نحن الثلاثة سوياً .ستنتظرنا في الأسفل يا إرول، ونحن سندخل للتحقق من عدم وجود ما يدعو للخوف، وسنتصل بك .وفي حال لم نفعل، فذلك يعني أننا في مأزق، وسيتوجب عليك الاتصال بالشرطة على الفور .وبهذه الطريقة سننجو نحن والخبر سوية.

اختفى التردّد من نظرات إرول.

-فكرة صائبة —علّق.

سحبت نفساً عميقاً.

-علينا أولاً إلقاء نظرة على الشارع الذي يوجد فيه المنزل —واصل إرول كلماته، وكأنه لا يحاول إقناعنا قدر إقناع نفسه —لنرى إن كان هناك أحد يثير الشكوك في الجوار، وإن لاحظنا أي شيء، سنتصل بالشرطة بدل دخول المنزل.

وجّهت شكراً ضمنياً إلى تولغا قبل أن أعلق.

-هذا ما علينا فعله بالطبع —أوضحت —فلا يمكننا الارتماء في أحضان الخطر، دون تدبّر بعض الحذر.

حينها بدأنا نسمع لغطاً أخذ يتحول إلى همهمات مرتفعة، وحين أدرنا رؤوسنا معاً، شاهدنا سيارة الشرطة على الطرف المقابل، في حين بدأ بعض الأشخاص، ممن كانوا نصف عراة تقريباً، يركضون مشتتين في مختلف الاتجاهات.

-المثليون —أوضح تولغا —الشرطة تداهم المكان، وستحدث جلبة كبيرة.

-إذاً فلنغادر —قلت —لا أريد أن أقضي ليلتي في المخفر لسبب لا يعنيني.

-أي مخفر يا صديقي —قال تولغا —إن كنا ننوي نشر الخبر في الغد، فليس لدينا لحظة لنضيعها.

-إن كنا ننوي حقاً نشر الخبر في الصباح، فعليّ الاتصال برئيس التحرير، وإخباره أنني أعمل على خبر مهم، وعليه أن يترك الصفحة الأولى فارغة، لنشر

الخبر.

-حسناً —قلت —اتصل بالجريدة بينما أدفع الفاتورة.

وفيما كنا نتجه إلى السيارة البيضاء، كان إرول قد أخبرهم بإفراد الصفحة الأولى لعدد الغد، من أجل الخبر المتعلق بتفاصيل موت عارف .وحين علم رئيس التحرير أننا نتابع الخبر أبدى اهتماماً كبيراً .وأخبرنا أنه سيكون بانتظارنا حتى آخر لحظة .وقد سرني الأمر، فمن المهم أن ينشر الخبر في صحف الغد .وناقشنا ما الذي سنطلبه من رئيس التحرير نصرت كفلجم، ولم يعترض إرول، لا على توظيف تولغا لديه في موقع جيد، ولا على الكيفية التي سنعرض فيها الخبر.

-وأنت أيضاً تستطيع الحصول على عمل في الجريدة —أضاف بشهامة —إذا وجدنا ما أخبرك به أخوك، من أسلحة وبطاقات مصرفية، ووثائق .فنصرت سيطير فرحاً لحصوله على خبر كهذا .فهو قد صدع رأسي في كل فرصة، لأننا لم نتمكن من الحصول على خبر مميز حول مقتل بكير وعشيقته، والعقيد رفعت — سكت لبرهة —كما أننا —اصطبغ صوته بنبرة مؤثرة وهو يواصل —سنتمكن من الانتقام لموت عارف أيضاً.

عندما تحدث عن مقتل عارف، كنت أهم بسؤاله عن كيفية معرفته بالأمر، حين تذكرت أنني لم أتابع التلفاز هذا المساء.

ولأنني أبقيت هاتفي النقال مغلقاً، فلم أتلقَّ أي اتصال من المهتمين بالقضية.

-هل تابعت نشرة الأخبار؟ —سألته —هل يتحدثون عن عارف؟

-أيعقل ألا يفعلوا؟ —قال إرول —شاهدت الخبر في المطعم الذي كنت أتعشى فيه، فهو يتصدر نشرات جميع المحطات .فرئيس الوزراء، ورئيس الحزب

المعارض، وممثلو الصحافة الأوروبية في تركيا، والوسط الصحفي، والدوائر الإعلأمية وكل الجهات المهتمة بالصحافة من مؤسسات وهيئات، قد علقت على الخبر. ولكن الشرطة تراوغ، وقد أعلن مدير قوى الأمن، أنه ليس من المؤكد بعد إن كانت جريمة قتل.

-وكنت تطلب مني الثقة بهؤلاء الناس —قلت لإرول.

-لكن هناك من صرح، بعلاقة الحادث بالجرائم التي وقعت من قبل — تدخل تولغا.

-وكيف لم يعرضوا عليك الظهور في إحدى نشرات الأخبار؟ —سألت تولغا —فأنت كنت شاهداً مباشراً على ما جرى.

-لقد ظهر شكيب إينجي على إحدى نشرات الأخبار وهو يقول» :كنا نعمل مع عارف سوية على هذا الخبر، وقد تلقيت بدوري رسائل تهديد كثيرة، إلا أنهم لن يتمكنوا من إسكاتنا عن الحق .«وبعد قليل ظهر في نشرتين لإحدى أهم محطتين، وهو يذرف الدموع ويتكلم عن الحادثة وكأنها وقعت أمام ناظريه.

-الوغد —علقت —فهو لم يكن يطيق النظر إلى وجه عارف.

-هذا معلوم للجميع —قال إرول —فهو كان يعمل على إبعاد عارف أيضاً عن الجريدة كما فعلوا بك .فهؤلاء الأوغاد من لوثوا مهنتنا بمطامعهم القذرة.

-لا تقلق يا صديقي —علّق تولغا —فحين يقرأ الخبر غداً صباحاً في الجريدة، سيغرق في قذارته بالذات.

كان تولغا أكثرنا حماسة للأمر، فهو يريد الأخذ بثأر عارف، والانتقام من شكيب إينجي وأمثاله، وإثبات جدارتنا كصحفيين مميزين أمام الجميع. كان يعتقد أننا سنصيب كل هذه الأهداف برمية واحدة .أما إرول فلم تكن تراوده كل هذه

الرغبات، فكل ما يطمح إليه هو نشر خبر على قدر كبير من الأهمية .ما من شك أنه كان يريد أن تنشر صحيفته الخبر قبل الجميع، وأن نتمكن من الكشف عن قتلة عارف، ولكن بريق هذه الرغبات كان يبدو كضوء شمعة أمام جذوة حماس تولغا المتقدة .أما بالنسبة إليّ، فرغم عدم تحديدي حتى الآن ما أسعى إليه على وجه الدقة، فقد كنت أشعر أنني مضطر للقيام بهذه المحاولة لحماية عائلتي، وربما أقل من ذلك إنقاذ نفسي أيضاً .وكما في كل الأعمال التي قمت بها مضطراً، لم أشعر بالحماسة هذه المرة أيضاً .ورغم أنني كنت أحاول إخفاء الحقيقة عنهما، لكن ما كان ينتابني بدل الحماسة؛ هو خوف عارم .لذا فقد كانت حماسة تولغا تشعرني بالغيرة .رغم أنني أعلم أن حمية الشباب كانت تمنعه من رؤية الخطر الذي يوشك على خوضه، وتمنحه كل هذا الحماس .ولكن هذا لا ينفي رغبته الأصيلة في إنجاز خبر مهم، والكشف عن الحقيقة .وفيما كان ينظر من زجاج النافذة زاماً عينيه، كان التصميم يشع منهما بوضوح، ليشير إلى تلك القوة التي يشعر بها في أعماقه، والتي تخوله مواجهة الحياة بكل أخطارها المجهولة، دون خوف .إنه الشباب.

في الوقت الذي بقيت الشكوك تنتابني حول صحة القرار الذي اتخذته في خوض غمار هذه المخاطرة، وقد يكون منبع هذا الشك الذي يعذب روحي، هو الثقة التي أفتقدها بنفسي .أذكر أنني في أزمة ما، كنت أماثل تولغا في شدة اندفاعه .فحين تم اغتيال رئيس التحرير، وتعرض مبنى الصحافة لوابل من الرصاص، وحين كان زملائي يتعرضون للاعتداء، وقد رفعت دعاوى كثيرة ضدي، بقيت مصراً على مواصلة العمل بالحماس ذاته، والتغلب على مخاوفي بالكشف عن الحقائق .ورغم الحذر ورسائل التنبيه التي كان المنطق يواجهني بها، لكن المتعة التي تتولد من حماستي، كانت تطغى على كل ما سواها .عدا عن البهجة التي كانت تضفيها تلك الانتصارات الصغيرة على حياتنا، والثقة التي تعززها من حولنا .وهذا ما كان يدفعني لأن أغبط تولغا على حماسته .وكنت مستعداً للتضحية بأكثر مما يتوقع هذا الشاب —الذي كان يكنّ لي إعجاباً يسهو أحياناً عن إخفائه—

لأكون في مكانه الآن .ولكنني أعلم أنّ الوقت قد فات .ورغم أنني تمكنت من تحقيق النجاح والشهرة، لكن ما لا أعلمه، كيف تمكن هذا النجاح من سلبي أحلامي وحماستي وآمالي ورغبتي في مواصلة الحياة.

كانت هذه الأفكار تشغلني طوال الطريق، حتى وصولنا أتاكوي .وكانت أضواء نوافذ المنازل المضاءة في تلك الأبنية، توحي أنها وحوش بأعين كثيرة.

-أهناك من يعرف المنطقة؟ —سألنا إرول —كيف سنعثر على العنوان؟

-أنا لم أزر هذه المنطقة من قبل —أجاب تولغا.

وأنا بدوري كنت قد أتيت لزيارة أحد الأصدقاء مرات عدة منذ سنوات طويلة، ولكن الشوارع والأبنية تغيرت بشكل لا يحمل من الماضي أي طابع.

أشرت إلى ثلاث سيارات أجرة، مرصوفة بتتابع أمامنا.

-أظن أن هناك موقف سيارات أجرة إلى الأمام قليلاً —قلت —اقترب منهم لنسألهم.

حين اقتربنا، وجدنا الكشك الصغير الذي يجلس فيه السائقون عادة، وقد كان أحدهم غير مبال بصقيع الشتاء، يجلس على كرسي صغير على الرصيف، وهو يدخن سيجارته بنهم .حين اقتربنا أكثر فتحت نافذة السيارة، ومددت رأسي لأسأله عن العنوان .وفيما أنا أتحدث، كان يرمق السيارة بفضول الخبير، وقد دلني على الفور.

-اتبع هذا الطريق، وانعطف من المفرق الثاني على اليمين .بعد مسافة قصيرة ستجد تقاطعاً صغيراً، اتجه نحو اليسار .وبعد حوالى مئتي متر ستشاهد أبنية أكثر ارتفاعاً من هذه الأبنية، وهناك ستجدون العنوان الذي تبحثون عنه.

كان دليلاً ماهراً، فبعد دقائق وجدنا أنفسنا بالفعل أمام تلك الأبنية المرتفعة .لا بد وأنها المنطقة (10–9)، وعلينا البحث عن الكتلة Dخمس وعشرين .وبدأنا نتفحص الأبنية التي نمر بها ببطء شديد .وقبل أن نجتاز خمسين متراً.

–إنه هناك، ولكن علينا البحث عن الباب)إكس – (قلت مخاطباً إرول

—لا بدّ وأنه في مكان قريب .حاول أن تجد مكاناً مناسباً لركن السيارة، ونحن سنترجل للبحث عنه.

–لحظة يا صديقي —اعترض إرول —ألم نتفق على تقصي المكان في جولة تفتيشية؟

–لا تخشَ شيئاً يا صديقي —تدخل تولغا —ففيما كنا نبحث عن العنوان، كنت أراقب المكان، وأتلفت بحثاً عن شيء مريب .لكنني الأمور تبدو على ما يرام.

يبدو أنّ تولغا أيضاً كان يشاركني المراقبة، وبالفعل لم ألحظ ما يدعو للريبة، وكان المكان هادئاً، ورغم ذلك فلم يقتنع إرول.

– لا —قال وهو يعترض بحركة من رأسه —فأنت كنت تراقب الطريق، أما أنا فأريد التحقق من المنطقة هنا .لن أركن السيارة، ولن تنزلوا قبل أن نتقصى المكان المحيط بالكتلة Dخمس وعشرين هذه.

لم يكن في وسعنا الاعتراض .وقد أكملت السيارة طريقها ببطء، فيما عيوننا وآذاننا ترقب أي شيء غريب أو يدعو للريبة في المكان . لم نشاهد في شوارع أتاكوي الهادئة، سوى بعض السيارات العابرة، أو الأشخاص العائدين إلى منازلهم على عجل .عاد إرول ليركن السيارة في الزاوية التي أشرت إليها سابقاً، بعد انتهاء الجولة، وهو يقول:

-كونوا حذرين، وإن لاحظتم أي شيء يثير الريبة، ارجعوا على الفور.

نزل كلانا من السيارة.

-لا تهول الأمور يا صديقي —علق تولغا —من له عمرٌ لن تهزمه شِدة.

ركنت إلى رأي تولغا فلو كنا نملك بعد صفحات في كتاب الحياة، فلن تستطيع الشدائد أياً كانت أن تودي بنا .وفيما كنا نبتعد عن السيارة، مقتربين من الأبنية، فكرت بأن هناك سببين يدعوانني للتفاؤل .الأول هو الخبرة والدقة التي يتمتع بها دوغان في هذه المواضيع، ما يعني أنه اختار هذا المنزل بعناية فائقة .والثاني هو مكالمة التهديد التي تلقيتها هذا المساء، فلو كانوا يعلمون شيئاً عن المنزل لما كلفوا أنفسهم عناء الاتصال بي .بينما كان تولغا يسير بخطوات حذرة، ولكن بثقة شديدة، وكأننا في أحد أفلام الجاسوسية، وقد تمكن من العثور على البناء قبلي.

-انظر هناك، إنه الباب إكس.

كان يشير إلى البناء الذي على اليسار، والمكون مما يناهز الاثني عشر طابقاً .ويبدو أن هناك أربع شقق في كل طابق، ما يعني أنّ البناء يحوي أربعين شقة .وكانت موقعاً سكنياً مميزاً لشخص لا يريد لفت الانتباه .كانت معظم نوافذ المبنى مضاءة خلا نوافذ لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة .وأغلب الظن أنّ الشقة التي نقصدها، إحدى تلك الغارقة نوافذها في الظلام .وربما هناك من يراقبنا في ذلك الظلام، ولكنني استبعدت الفكرة على الفور .فلا مبرر لكي يراقبنا أحد من هناك. وحين اقتربنا من الباب، وشاهدت أزرار الأجراس الموضوعة على طرفي الباب، خطرت لي فكرة أن نرن جرس المنزل، قبل صعودنا لنرى إن كان هناك أحد في المنزل أم لا .طبعاً في حال لو قام من في الداخل بفتح الباب .وأظنهم سيفعلون، فكل من يأتي إلى هذا المنزل، قد يشكّل خيطاً يرشدهم إلى دوغان .أجل من الأفضل رن الجرس قبل الصعود، وماذا لو فتحوا الباب؟ بالطبع لن نخاطر بالصعود.

بل سنتجه إلى السيارة بكل سرعة، ونسلم أنفسنا لرحمة الأقدار، ونحن ندلي أمام الشرطة بكل ما لدينا .ويبدو أنّ تولغا أيضاً لم يكن يفكر بعيداً هذا الاتجاه، حين اقترح عليّ.

-ما رأيك أن نرن الجرس أولاً؟

نظرت إليه، بحثاً عن الخوف الذي كان يعتمل في صدري، ولكنه لم يدرك ما أفكر فيه، وواصل استفساره.

-ما كان رقم المنزل؟

-خمس وأربعون.

-إذاً فهو في أحد الطوابق العليا —قالها وبدأ يتجول بسبابته على اللائحة اليمنى، بحثاً عن الرقم .فيما بدأت البحث في الجهة اليسرى.

-ليست جميع الأرقام مدونة على اللائحة —قالها تولغا ببرم —فبعضها قد مُحي، والبعض الآخر سجلت قبالته أسماء، ولكن ليس الجميع .أخوك اسمه دوغان، أليس كذلك؟

أجبت بإيماءة تأكيد من رأسي، ولكنني استبعدت أن يضع أخي اسمه الحقيقي على لائحة سكان البناء .إلا أنني لم أعارض تولغا، بل بدأت أدقق البحث في الأسماء بدوري .وكما توقعت، فلم يكن اسمه موجوداً بين الأسماء .ولمعرفة الحقيقة لم تكن لدينا من وسيلة، سوى الدخول إلى عرين الوحش بأقدامنا .انتابتني قشعريرة مفاجئة .فتساءلت إن كانت من الخوف، أم من الكحول؟ أم عليّ القول من الحرمان منه؟ ليتني أحضرت معي زجاجة شراب .ولكنني تداركت غباء رغبتي، وحاولت حجب هذه الأفكار على الفور خلف جدار المنطق، وأنا أبرر قشعريرتي بسبب البرد الذي عصف بي، بعد ترجلي من السيارة .هذا كل ما في الأمر .ولا

يمكنني الشرب ونحن مقبلون على مخاطرة جدية كهذه .ودون إضاعة مزيد من الوقت في هذه الأفكار، بحثت يدي على رزمة المفاتيح في جيبي، حيث علقت مفتاحي دوغان.

دار القفل بسهولة، وفتح الباب على الفور .دفعت الباب، وأنا متيقن أنّ الحظ ما زال يرافقني، وخطوت نحو الداخل، وتبعني تولغا دون تردد .أضيئت المصابيح الأتوماتيكية حال دخولنا، لتنير الممر الطويل بشحوبها الباعث على الضيق، فيما نتجه نحو باب المصعد الذي يقع على اليمين .وفيما ندخل المصعد، تفحصت عدد الطوابق الموجودة، لأننا لم نكن نعلم في أي طابق تقع الشقة. وبعملية حسابية تفترض وجود أربع شقق في كل طابق، كان يجب علينا الصعود إلى الطابق الثاني عشر .ودون أن أزيل علامات الاستفهام الواضحة في نظرات تولغا، بأي توضيح، ضغطت على الرقم اثني عشر بصمت .ولكن الشاب لم يبادر بالسؤال، وأغلب الظن أنه فكر في حال أخطأنا الطابق، فيجب علينا هبوط أو صعود طابق لا أكثر .وفيما تظهر أرقام الطوابق وتختفي على شاشة المصعد الرقمية، كنت أفكر في المرات التي أستخدم فيها دوغان هذا المصعد.

وبينما كنت أفكر فيه، لاحظت أن ذكراه لم تعد تسبب لي أي حزن .لا أدّعي أن موته آلمني كثيراً، ولكنه كان صدمة بكل تأكيد .وربما لأنني بدأت أقتنع بأنه ما زال حياً، فقد تبدد حزني .رغم أنّني كان يجب أن أشعر بالغضب منه، فقد كسب القضية حتى لو كان ميتاً، ونجح في إقحامي في هذه المتاهة القذرة، التي قد تكون نهايتها بوصولي إلى باب الموت في هذا البناء اللعين .ليس أنا فقط، بل إرول وتولغا أيضاً، ورغم أنني لا أعلم ما الذي يفكر فيه إرول، لكن تولغا بدا راضياً تماماً عن كل خطوة نخطوها. كان يحمل حقيبته على ظهره، ويبدو هادئاً ينتظر توقف المصعد، وكأننا ذاهبان لإجراء لقاء عادي .وخطر لي أنني فسرت موقفه منذ قليل أمام الباب، بشكل خاطئ .شاب جريء، فرغم احتمال مواجهتنا الموت بعد لحظات، لم يكن يبدي أي قلق أو تردد .فإرول الذي قضى في تلك المهنة أعواماً

طويلة، بدأ يتململ حال استشعاره الخطر، ولكن هذا الشاب الذي شهد موت عارف أمام ناظريه قبل ساعات، كان يتقدم بشجاعة قلّ نظيرها.

-عدنان —بدد صوت تولغا توليفة أفكاري —ما رأيك أن نقرع الجرس قبل دخولنا؟

-حسناً، سنفعل ذلك —قلتها وأنا ألملم أفكاري —وإن شئت انتظرني في المصعد، فيما أقرع الجرس.

تغضّن وجهه الشاب.

-لا يا صديقي، لن أفعل ذلك، فنحن معاً في السراء والضراء.

-اسمعني قليلاً —قلت —سأقرع الجرس، وإن فتح الباب أحد ما، سأعطيه اسماً خاطئاً، أدعي أنني أبحث عن منزل صاحبه .وبالطبع سيخبرني أنني مخطئ في العنوان، وسأغادر معتذراً.

ولكنه رمقني غير مقتنع باقتراحي.

-إنهم دهاة يا صديقي، وسيدركون الحقيقة ما إن يفتحوا لك الباب.

-وما الذي سنخسره؟ فهم لن يتمكنوا من الإمساك بكلينا، قد ينجحون في احتجازي فقط، وحينها ستتصل أنت وإرول بالشرطة على الفور.

-حسناً، ولكن ماذا لو كان هناك شخص واحد في المنزل؟ فربما لن تستطيع التغلب عليه بمفردك، ومن الأفضل أن نبقى سوياً.

كانت جرأته تتضاعف مع مرور كل لحظة، والحماسة التي تعتمل في روحه الشابة، كفيلة بتحويله إلى جيمس بوند حقيقي.

-كفّ عن الترهات —قلتها موبخاً —سنحاول قدر الإمكان تجنب

العراك معهم .ولو كان هناك بالفعل أحد ما في الداخل، وقام باحتجازنا، سنخبرهم بأننا صحفيون، وأنّ زملائنا يعرفون أننا هنا الآن، وبذا سنتجنّب خطر قتلنا .ولكن في جميع الأحوال أنت ستبقى في المصعد، ولا أريد سماع أي اعتراض.

وفيما كنا نواصل الجدال، بدأ المصعد بالتباطؤ، ومن ثم الوقوف في الطابق الثاني عشر الذي ظهر على الشاشة الرقمية.

حدقت إلى وجه الشاب بتصميم بالغ.

-كما أخبرتك، فأنت ستنتظرني هنا —قلت وأنا أتجه نحو الباب —وإن لم يفتح أحد الباب، واضطررت لاستخدام المفتاح، حينها فقط ستلحق بي.

حين خرجت من المصعد، وجدتني في طابق يماثل الطابق الأرضي تماماً، ورأيت الباب رقم ستة وأربعين يقابلني، فاتجهت نحو اليمين، وهناك وجدت الباب المنشود .كان الرقمان أربعة وخمسة الذهبيان مثبتين على الباب الحديدي البني، الذي كان يواجهني بصمت مطبق، دون أن يمنحني أي إشارة عما يجول في الجهة الأخرى منه .اقتربت بحذر، وحبست أنفاسي، وأنا أقرب أذني من الباب، علني أسمع ما يجول في الداخل .وقبل أن أقرع الجرس التفت نحو المصعد من جديد .حيث كان يقف تولغا على حافة بابه، وهو يراقبني بانتباه .أشرت له بيدي نحو الجرس، الذي قرعته بعد سحب نفس عميق .بدأ الجرس يرن بصوت حاد ومتواصل، فيما حاولت تصنّع ابتسامة ودودة على وجهي بانتظار الشخص الضخم المتجهّم، الذي توقعته أن يفتح لي الباب .وحاولت أن أصيخ السمع قدر المستطاع، لأي حوار من الممكن سماعه من الداخل قبل أن يهموا بفتح الباب .ولكنني لم أسمع أي صوت، ولم يُفتح الباب .وقبل الركون إلى سعادة مبكرة، عدت لقرع الجرس من جديد، ولكن في رنة أطول من سابقتها هذه المرة .وعدت لرسم تلك الابتسامة البلهاء على وجهي، وأنا أصيخ السمع، ولكن أحداً لم يفتح الباب، ولم أسمع أي صوت يشير إلى وجود أحد في الداخل .ولمزيد من التأكد عدت لأضغط على الجرس لفترة أطول

هذه المرة، ولكن البيت كان يغرق في صمت القبور.

لجأت إلى المفتاح الثاني الذي أرسله لي دوغان .وفيما كنت أدخل المفتاح في القفل، غادر تولغا المصعد، واتجه نحوي، رغم أنني كنت أفضّل بقاءه في مكانه، علّ من في الداخل تعمّد عدم فتح الباب لنا .ولكن الوقت قد فات على كل ذلك، لذا أدرت المفتاح نحو اليسار، ومع الدورة الثانية، فتح الباب بيسر، حينها نظرت إلى تولغا، الذي شعّ وجهه بابتسامة مضيئة .وتمنيت لو أنني استطيع الشعور بالراحة التي تملأ روحه .ولكن لا فائدة من تمني المستحيل، أمام الباب الحديدي الذي فُتح ليفسح لنا مجال الدخول، وكأنه يقول ما الذي تنتظره يا هذا؟ دخلت المنزل وتولغا على إثري، ولن أخفي مدى الاطمئنان الذي أشعرني به وجوده معي، رغم إلحاحي على بقائه في المصعد .ورغم أنني لم أكن أعول على قدراتنا البدنية في حال حدوث مكروه، ولكن الرفقة تمنح، حتى في أقسى الظروف، أملاً بالنجاة. وقبل أن أشعل الأضواء، بقينا لبرهة في الظلام نحاول الإصغاء لأي صوت قد يصدر من الداخل، ولم يصلني سوى صوت رتيب أظنه لمحرك البراد .وحين بدأت أقتنع بعدم وجود أحد، أضيء المكان برمته بضوء، جعلني أثب في مكاني هلعاً .وحين لاحظ تولغا خوفي، طمأنني بالقول:

-لا تخف، فأنا من أشعل الضوء، لأننا لم نكن نستطيع الرؤية في هذا الظلام.

-لا، لا، لم أخف —قلتها وأنا أتحدث شبه هامسٍ —ولكنني تفاجأت من الضوء.

وفيما كنت أجتاز الممر الصغير نحو الداخل، أغلق تولغا الباب .كان الممر يفضي إلى صالون فسيح، ما إن دخلته حتى أحسست بالرائحة الحادة المنبعثة منه، ولكن ما كان يهمني حقاً هو التأكد من خلو المنزل من أحد سوانا، وليس عبق الرطوبة الذي يضمّخ المكان .كنت أميز مواقع الأشياء على الضوء القادم من

الممر، ولكنني لم أكن أرى شيئاً بوضوح .فضغطت مفتاح الكهرباء، حينها شاهدت جهاز التلفاز الكبير والأرائك الفردية الثلاثة، والأريكة الكبيرة في المنتصف بجلدها البني الغامق الأقرب للون القهوة، حينها أدركت سبب الرائحة .وفجأة تعلقت نظراتي بسجادة جلد الذئب الصوفية على الأرض .إنها السجادة ذاتها التي كانت تفترش أرضية غرفة دوغان .إذاً فقد أخذها دوغان من المنزل كما خمنت، عندها فكرت إن كان قد أحضر صندوق جهاز عرس أمه أيضاً، حيث كان أرشيف والدي الضخم يرقد في قعره منذ سنوات .كنت سأبحث عنه بعد التحقّق من أنّ المنزل آمن بالفعل .جالت نظراتي في أطراف الصالون، ولكنني لم ألحظ ما يثير الشكوك .حتى أنني بحثت في الفراغات بين الأرائك، ولكن لا أثر لإنسيّ في المكان .ماذا عن بقية الغرف؟ قمت بجولة مع تولغا على الغرفتين في الداخل، والحمام والمطبخ، وتأكدنا أنّ المنزل خالٍ من سوانا.

ولم أكن مخطئاً بحق دوغان، فهو إن كان وغداً وقاتلاً وتاجر مخدرات، وجاسوساً عمل لصالح جهات استخباراتية مختلفة، وكان وسيلة في يد الحكومة، في زمن ما، للبطش بكل من يخالفها الرأي .ولكن ما من أحد يجرؤ على التشكيك في براعته، وهي خصلة كانت تعمل لصالحنا الآن .فوسط كل تلك العيوب، كانت براعته تضيء كفنار وسط الظلام .وفيما كنا نفتش المنزل حرصت على البحث عن الصندوق القديم، ولكنني لم أتمكن من العثور عليه، أو على ما يمكن أن يخبئ فيه أخي أرشيف والدي .كان تولغا يغلق خزائن المطبخ، حين عدت إلى الصالون. اتجهت نظراتي نحو جهاز التلفاز الذي قال دوغان أنه يخبئ فيه الأسلحة والوثائق وبقية الأشياء .فاقتربت منه.

-منذ أيام عدة لم يقم أحد بشرب شاي أو قهوة أو أي شيء آخر في هذا المنزل —قالها تولغا وهو يقف قربي.

-وما أدراك أنها عدة أيام؟ —سألته.

فأشار بيده نحو جريدة »حرييت« التي على الأريكة وهو يقول:

-التاريخ الذي عليها يشير إلى ما قبل ثلاثة أيام.

أجريت حسبة سريعة في ذهني، واتضح لي أنّ سيارة دوغان قد احترقت قبل ثلاثة أيام، إذاً فهو كان هنا في صباح ذلك اليوم، رغم احتمال إحضارها من قبل شخص أيضاً .حين لاحظ تولغا شرودي بادر بالقول:

-الجريدة دليل مهم أليس كذلك؟ —ونظر إليّ مبتسماً.

-أظنها ليست بتلك الأهمية —أجبت —فربما جاء أحدهم إلى هنا بعد التاريخ الذي تشير إليه الجريدة .فما من قانون يجبر من كانوا يقطنون البيت، على إحضار الجريدة اليومية معهم كلما عادوا إليه.

حلت خيبة أمل خفية، مكان الابتسامة التي علت وجهه.

-ورغم ذلك فلها أهميتها —أضفت —فعلى الأقل أصبحنا متأكدين من وجود أحدهم في المنزل منذ مدة قصيرة.

عادت الحماسة إليه وهو يسألني.

-سنبحث عن الأسلحة الآن؟

-أجل، ولكن علينا الاتصال بإرول أولاً، لأنه ينتظرنا قلقاً.

أخرج تولغا الهاتف النقال وهو يقول:

-أنا سأتصل به.

وفيما كان يتصل به، اتجهت نحو التلفاز لفحصه .ضغطت على الشاشة قليلاً، ولكنها بدت مثبتة بإحكام .فبدأت بالبحث خلفه، وعلى أطرافه، علني أجد

طريقة لفتحه، ولكنني لم أفلح .عدت إلى الشاشة، وأنا أحاول دفعها، وأخيراً بدأت تتململ، أمسكتها بيديّ الاثنتين، وأنا أحاول سحبها نحو الخارج، فخرجت بسهولة من مكانها .حينها اكتشفت أنّ أحدهم قد تمكن من إزالة محركها بحِرفية .وفي المكان الذي كان مخصصاً فيما قبل للدارات الإلكترونية، وتلك الأجهزة الدقيقة الأخرى التي تبث الحياة في هذا الهيكل، كانت هناك علبتا ورق مقوى، إحداهما أكبر من الأخرى بقليل .أخرجت العلبة الأكبر، وقد كانت ثقيلة، بالكاد استطعت حملها بيدي الاثنتين .وحين أنهى تولغا اتصاله مع إرول بعد أن دله على عنوان المنزل، هبّ لمساعدتي بعد أن لاحظ المشقة التي أتكبّدها .وضعنا العلبة على الأريكة، واكتفينا بمراقبتها لبرهة من الصمت.

-ما الذي تحويه يا ترى —سأل تولغا، وكان الفضول يظهر في صوته المرتعش، كعالم أركيولوجي، عثر أخيراً على القبر الذي يبحث عنه منذ عشرات السنين .ورغم أنني خمنت ما بداخلها:

-افتحها لنرى —قلت له.

أخرج مطواة صغيرة من جيبه، وأخذ يقطع الشريط اللاصق الشفاف الذي يحيط بأطراف العلبة .وما إن قصّ الأشرطة، حتى فُتح غطاء العلبة الممتلئة عن آخرها، من تلقاءِ نفسه .لتظهر ستة أسلحة بمعدنها البارد ترقد أمام أعيننا، دون أن تشي لنا بعدد الأشخاص الذين كانت سبباً في مفارقتهم الحياة.

-يا إلهي، انظر إلى كل هذا —دمدم تولغا وهو يهم بحمل المسدس الذي في القمة.

-لا تلمسه —حذرته على الفور —فقد تمسح بصمات الأصابع التي عليه.

سحب يده على الفور، وكأنه يلامس النيران، ولكنه سألني:

-هل سنصوّر الأسلحة وهي في داخل العلبة؟

-أجل —ولكن جوابي لم يكن مقنعاً حتى بالنسبة إليّ —ألا يفي ذلك بالغرض؟

-لن يفي بالغرض يا صديقي، فكما تعلم، التفاصيل لن تظهر في الصورة، وبالتالي ستفقد قيمتها .علينا تصوير الأسلحة، كلٌّ على حدة، ومن ثم تصويرها مجتمعة.

كان محقاً.

-إذاً أحضر منديلاً، أو قطعة قماش، وأمسكها من أطرافها وأنت تحملها واحداً تلو الآخر، وحاول قدر المستطاع ألا تلامس المواضع التي يحتمل وجود بصمات عليها.

-حسناً، لا تقلق —قالها متحمساً.

وفيما اتجه إلى المطبخ لإحضار المناديل، عدت إلى التلفاز لأحمل العلبة الثانية، التي مزقت أشرطتها اللاصقة بمطواة تولغا .كان فيها قرصا فيديو، وثلاثة مظاريف .حملت الأول، فرأيت عليه اسمي، وعلى الفور فتحته وبدأت القراءة.

عزيزي عدنان

أعلم أنك ستأتي إلى هذا المنزل، فرغم ادعائك أنك قد تركت المهنة، ولكنك ستبقى صحفياً بارعاً .والصحفي الجيد لا يمكن أن يتخلى عن خبر بهذه الأهمية، حتى لو أراد ذلك .لا بد وأنك لاحظت تحقق كل ما قلته لك أثناء لقائنا، وأدركت أنني لا أكذب عليك، لأنّ الأموات لا يكذبون .ورغم أنني بقيت معظم سنوات حياتي أواجه الموت في كثير من الزوايا، بل أنني في كثير من الأحيان، كنت أعمل تحت وطأة أنفاسه التي تلتصق بي، لكن تقبله ليس بالأمر السهل على

الإطلاق، حتى وإن كنت أتوقع قدومه في أي لحظة .ولكنني شخص يؤمن بالقدر، لذا لا أعترض على حكم الله، بل أكثر من ذلك، أطمع في أن تشملني مغفرته الواسعة .ولا أخفيك أن هذه الأفكار تريحني، رغم أنّ قدري قد جف عنه الحبر وليس بالمقدور تغييره.

لقد حضّرت شريطي فيديو، أحدهما ستقدمه للقاضي، والآخر للرأي العام .وكما أخبرتك فقد ضمت العلبتان كل الأدلة التي بحوزتي .أسماء من قمنا بقتلهم، الأسلحة التي استخدمناها، الأسماء الحقيقية لشركائنا، وصورهم، أسماءهم المزيفة، والهويات المزورة التي تم استصدارها لهم، جوازات سفرهم، وبطاقاتهم المصرفية .أي جميع الأدلة التي من الممكن أن تودي بهم إلى السجن .وما لم تقم بخيانتي —وهذا ما لن تقدم عليه —فما من قوة تستطيع إنقاذهم .وبذلك سأتمكن من تحقيق ما عجزت عنه وأنا حي، وسينتهي أولئك الأشخاص الذين استغلوني لسنوات طويلة، ثم حاولوا التخلص مني كخرقة بالية، في غياهب السجن.

وقد يخطر لك أن تتساءل عن فائدة الأمر عليّ بعد موتي، ولكنني رجل يحمل على كاهليه قضية، دفعته للمحاربة على كل الجبهات لسنوات طويلة من أجل بلاده وشعبه .لذا أرغب في أن يعود موتي بالنفع على ما ناضلت من أجله. أعلم أنك لن تصدق كلماتي، فقد كنت تعتبرني في البداية فاشياً متطرفاً، والآن لست سوى قاتل مأجور في نظرك .ومقارنة بك فأنا رجل بعيد عن العلم، وحركة الفكر البشري، ولست سوى مستبد يحاول فرض ما يؤمن به بقوة السلاح والسلطة .ولكنني سأطلب منك أن تعيد التفكير في ما جرى مرة أخرى .ففي الحرب الباردة، حين كان السوفييت يطمحون إلى توسيع حدودهم لابتلاعنا، وكان الغرب يحاول قدر المستطاع تمزيق وحدتنا .فيما نحن منقسمون إلى يسار ويمين، لا يتوانى كل طرف فيه عن قتل الآخر، والقضاء عليه؛ فكرت في الأمر مراراً، واستطعت حينها النظر إلى اليساريين، من منظار مختلف .فرغم أنني أعتبر إيديولوجيتهم خاطئة، وأفكارهم مجرد لوثات مرضية، لكنني أدركت أنهم لم يكونوا

يقلون عنا، حباً للوطن .ربما ستضحكك كلماتي هذه وتعتبرها مجرد هذر شخصي واعترافاً متأخراً لرجل شارف على الموت .ولكنني أعي ما أقوله تماماً، وأشعر براحة ضمير اتجاه كل ما فعلته في الماضي البعيد والقريب .ورغم ذلك لا أريد أن أترك لديك انطباعاً سيئاً.

حين تقابلنا في المتجر آخر مرة، تمنيت أن يكون لي أخ شقيق مثلك، وحينها أدركت مجدداً مدى وحدتي العميقة في هذا العالم .لن أخفيك أنني كنت أكرهك في فترة ما .فلن تتصور مدى صعوبة تقبّل فتى مراهق، فكرة أن تتزوج والدته من رجل غريب، وأن تأخذه ليسكنا في منزله .ولا تحاول أن تخفي بدورك ما وراء تلك اللباقة الباردة التي كان يبديها والدك اتجاهي، فلم يكن أي منكما متقبلاً لوجودي في ذلك المنزل .ولدى أول فرصة لاحت في الأفق قمتم بالتخلص مني. ولن أنكر أنّ الأمر سرني أيضاً، حتى لو كان ثمن التخلص من معايشة غروركما، هو الابتعاد عن والدتي .لذا فقد كنت أكن لك كرهاً عميقاً، زاد من حدته اختلاف وجهاتنا السياسية، بل تنافرها بين قطبي اليمين واليسار .ولكن بعد مرور سنين على كل ما جرى، بدأت بمحاولة فهم الماضي، حينها بدأت حدة حنقي تخف .فحين تختفي الأحكام المسبقة والقوالب الجاهزة، تصبح النفوس البشرية أكثر ليناً وتقبلاً. وأدركت حينها أنّ موقفك لم يكن يقل صعوبة عن موقفي، فقد ماتت والدتك، وأنت تستقبل الحياة، وبعد سنوات من اليتم، تحضر امرأة غريبة إلى بيتك لتحتل مكانة والدتك، والأدهى أنها أحضرت معها ابنها أيضاً .وكان من الطبيعي أن تشعر بالعداء نحونا .ولكننا لم نكن حينها سوى طفلين، أما الآن، فقد أضفت علينا الحياة بتعاقب سنواتها، ميزة التسامح وتجاوز هفوات الماضي .وأتمنى أن تظهر القدر نفسه من سعة الصدر، وتسامحني على ما بدر مني.

لا أكتب هذه الكلمات لأثير شفقتك عليّ، كما أنني أعلم أنك لن تتأثر كثيراً بموتي .ورغم ذلك فقد شعرت بضرورة هذه المكاشفة المتأخرة .ربما ليقيني أننا لن نتقابل مجدداً، وربما لأنني حتى الآن لم أصارح أحداً بما يجول في صدري، وربما

بسبب عادة كتابة الرسائل التي اكتسبتها في سنوات غربتي .على أي حال، فقد بحت بكل ما لدي .ولكنّ هناك شيئاً أخيراً أود الإفصاح عنه، وهو أنك أوفر حظاً مني، فلديك كثير من السنوات لتعيشها، والأهم أنه لديك ابن .وأتمنى أن تترك لامبالاتك هذه، وتعود للتمسك بحياتك، وتحاول الاهتمام بابنك .ولأنني لم أحظَ بمن يهتم بي، فأنا أدرك جيداً، ما الذي يعنيه اهتمام الأب .لا تتركه يواجه عقبات الحياة بمفرده، لأنها قد تقوده إلى دروب لا رجعة عنها .ولا تنسَ فمهما كانت الحياة محبوكة بحبال من المصاعب، فإنها تظل الفرصة الأجمل.

ورغم عدم إيمانك، فإنني أبتهل إلى الله أن يحميك، ويشملك بمحبته على الدوام.

أخوك دوغان

بعد الانتهاء من الرسالة بقيت مسمّراً في مكاني، وأنا أفكر في الصدق الذي كانت تنضح به كلمات دوغان، حتى أنني بدأت أيقن أنه مات بالفعل. فمن قام بكتابة هذه الكلمات والجمل، التي لا تحوي على ذرة من الخداع، لا يمكن أن يتلاعب بي .أحقاً لا يمكن؟ ألست أنا من اعترف منذ قليل ببراعته في حبك مؤامرات من هذا النوع .ولكن البراعة شيء، وهذا الصدق الذي تنضح به مشاعره التي خطّتها الكلمات شيء آخر .فقد تمكّن من البوح بكل ما يعتمل في صدره بكل عفوية.

-أهناك خبر سيئ؟ —وضع صوت تولغا حداً لصراع التناقضات في ذهني —لقد تغضّن وجهك في ضيق بالغ.

أشرت إلى الرسالة في يدي وأنا أقول:

-لقد كتبها دوغان، إنها أشبه برسالة وداع.

لم يبادر لطلب مزيد من التوضيح، وأخذ يتبع نصائحي في إخراج الأسلحة الواحد تلو الآخر بكل حذر ودقة .وكان يرصفها على الطاولة الموضوعة بين التلفاز والأريكة، والمغطاة بملاءة بيضاء.

وفيما كان يعمل هو، لم يكن لديّ مزيد من الوقت لمواصلة التفكير، فبعد إعادة وضع الرسالة في المظروف، وضعته في جيبي معطفي، واتجهت نحو المظروف الثاني .كان يحوي جوازات السفر والوثائق الشخصية والبطاقات المصرفية .أخذت أول جواز منها وفتحته، فواجهتني صورة لدوغان وهو ملتحٍ .وبدل اسمه الحقيقي، كتب اسم)محسن أردِشك .(حين فتحت الجواز الثاني، تعرفتُ في الحال على الوجه النحيل كوجه حصان، بحاجبيه السميكين، وشاربه الكث، فقد كان شقيق الرجل الذي فارق عارف حياته وهو يذهب للقائه؛ إنه بكير كايتان، ولكن الاسم كان مزوراً .تلاه جواز سفر مزوّر للعقيد رفعت باش أوغلو أيضاً .ولكن ما كنت أحتاجه ليس هؤلاء، بل الشرطيان اللذان تحدث عنهما دوغان .فسحبت جوازاً آخر من بينها، لأكتشف أنه إحدى النسخ المزورة التي تخص دوغان .سحبت جوازاً آخر، وحين شاهدت الصورة، لم أتمكن من التعرف عليه بداية، فقد كان شعره فاحم السواد، وفوق شفته المكتنزة شارب رفيع، وشبه مستقيم .ولكنني بعد التدقيق أدركت أنني أعرف هاتين الوجنتين البارزتين، وتجاويف العينين اللتين ترمقان الناس بوحشية باردة، فهو لم يكن سوى الشخص المكلف بالتحقيق في مقتل أخي؛ المحقّق يالفاج .وقد سجل باسم محمد بويابات .أحقاً كان هو بالفعل؟ ولمزيد من التأكد أخرجت جوازاً آخر، وفتحت الصفحة الأولى بيدين مرتعشتين، ولكنني لم أر يالفاج هذه المرة، بل مساعده غونغور بابتسامته الساخرة التي تميز وجهه .بالطبع لم يكن مسجلاً باسمه الحقيقي، فكل الوثائق الشخصية لم تكن مسجلة بأسماء أصحابها الحقيقية .ولكنني أدركت أنهما ينتميان إلى الجهة التي أخبرني دوغان أنها تقوم بملاحقته .وقد كنت متأكداً أنّ دوغان قد أشار إليهما بوضوح في شريطي الفيديو اللذين تركهما .حينها لاحظت المظروف الثالث .ما الذي يحويه يا ترى؟ فتحت

الظرف، لأجد فيه ملفين ألصقا معاً بواسطة مشبك .قلبت أوراقهما، فشاهدت المذكرة الموجهة إلى القضاء، والتي ورد فيها:

—أعترف أنّ الجرائم التي سأوردها في هذا الملف، قد تم ارتكابها من قبلي؛ أنا دوغان سوزمن، ومن قبل شركائي في الفريق الخاص، المحقق يالفاج كِرأوغلو، ومساعده المحقق غونغور توبراك، وبكير كايتان، والعقيد السابق رفعت باش أوغلو، وذلك بالاشتراك مع شخص آخر يدعى الضابط، ولكني لا أملك أي معلومات عنه .كما أعترف أنّ بكير كايتان، ونهال أوزونل والعقيد السابق رفعت باش أوغلو، قد قتلوا من قبل شركائي السابقين، المحقق يالفاج كِرأوغلو، وغونغور توبراك، والمدعو بالضابط .كما أنّ الأشخاص ذاتهم يقومون بملاحقتي أيضاً من أجل التخلص مني، لذا أرجو من محكمتكم الموقرة اتخاذ الإجراءات اللازمة .وقد أرفقت هذين الملفين، بالأسلحة والوثائق اللازمة.

دوغان سوزمن

ثم كانت هناك قائمة بأسماء ستة رجال أعمال من أصول كوردية، كانوا يقيمون في أنقرة واسطنبول، حيث تم استجوابهم تحت التعذيب ومن ثم قتلهم. وأسماء لأحد عشر شخصاً، من مختلف مناطق الأناضول، تمَّ قتلهم رمياً بالرصاص في الطريق .بالإضافة لشخصين يقيمان في أوروبا، ويشكلان مصادر تمويل لمنظمة الـ PKK، حيث تمّ استجوابهما وقتلهما، عملية تفجير ذهب ضحيتها أحد الصحفيين المناصرين لـ PKKفي مدينة ديار بكر، اغتيال مدير حقوق الإنسان في اسطنبول، الاعتداء المسلح الذي تم تنفيذه في أحد فنادق منطقة لاليلي في اسطنبول، إصابة اثنين من العاملين في إحدى محطات التلفاز الخاصة، الاستيلاء على محل للصاغة في السوق المغلق بعد تهديد صاحبه الذي ينحدر من أصول سريانية، الاعتداء المسلح على مبنى شركتين انسحبتا من إحدى المناقصات التي تطرحها الدولة، بعد ظهور ملفات الفساد، الاعتداء على أحد النوادي الرياضية من

الصف الأول أثناء انعقاد اجتماع هام .وبالمحصلة كان هناك ما مجموعه واحد وعشرون جرماً مماثلاً قام دوغان بتوضيح تفاصيلها في الملفين.

الفصل الخامس والعشرون

لم أستغرب كثيراً وأنا أرى صور يالفاج وغونغور على كل تلك الوثائق المزورة، فقد كنت أتوقع هذا الاحتمال منذ البداية، ورغم ذلك لن أقول أنّ جرأتهما لم تفاجئني .فهما يتوليان التحقيق في مقتل الرجل الذي قاما بقتله .ولا شك أنّ هذه الجرأة لا تنبع من شجاعتهما بالتأكيد، بل هي دليل على مدى القوة التي يتمتعان بها داخل أجهزة الدولة .وهذا كان أكثر ما يخيفني .ذلك لأنني كنت مضطراً في النهاية لتسليم كل ما لدي من أسلحة ووثائق ودلائل لقوى الأمن، التي تشبه وكراً للضواري، لا أدري على وجه الدقة بمن عليّ أن أثق فيه .وتسليم كل هذه المعلومات المهمة، يشبه تسليمي قطعة لحم لقطة .وإن وقعت في أيديهم، وهم المحترفون في إزالة الأدلة وتحوير المعلومات، وإخفاء القرائن والتخلص من الشهود، سيمحون كل شيء في لمح البصر .ولكنني لا أملك خياراً آخر للأسف .فغداً حين يتم نشر الخبر في الجرائد، لن يكون مفيد وحده من سيصدع رأسي، بل الاستخبارات بكل فروعها ستنهال عليّ وتلاحقني .لذا، وقبل حدوث أمر مماثل، عليّ تسليم ما لديّ، ولكن بعد نشر كل ذلك في الجريدة غداً .فلا يمكن التخمين بما قد يتذرّع به هؤلاء المتآمرون لمنع نشر المعلومات، بحجة مساسها بأمن الدولة وما إلى ذلك من مبررات.

ولكن ما الذي سيحصل بعد نشر الخبر وتسليم الأوراق لمحكمة الأمن العام؟ أظن أن الأمر واضح، ستتم الإجراءات الروتينية، واستجواب كل من يالفاج وغونغور .ولكن هل سيتم القبض عليهما؟ أم سيتم الاستجواب من دون حجزهما

على ذمة التحقيق؟ أعتقد بإمكانية الاحتمالين، فالأمر يعتمد على وجهة نظر القاضي، وتقديره الشخصي للقضية .ولكنهما في جميع الأحوال سينكران هذه التهم، ويدعيان أنّ شخصاً خارجاً عن القانون مثل دوغان، يزخر ملفه بكل أنواع الجرائم، والذي لم يتم التحقق حتى الآن من موته بالفعل، يحاول توريط عنصرين من الشرطة، وتلويث سمعتهما، للطعن في مصداقية الحكومة .ولكن حتى لو حالفنا الحظ، ولم تتم إزالة الأدلة، وبدأت المحكمة إجراءاتها الروتينية من أجل العمل على الدعوى، وتم إلقاء القبض عليهما، فسيتم إطلاق سراحهما بكل تأكيد بعد الجلسة الثانية أو الثالثة، وبذلك سأكون قد ضمنت لنفسي مجرمين محترفين، سيقومان بقتلي حال إطلاق سراحهما، كما أخبرني الشخص الذي اتصل بي منذ بضع ساعات في المنزل وهو يهددني، وكما فعلوا بعارف تماماً.

ولكن من الذي أخبرهم أنّ عارف اطّلع على أسماء المتورطين من رجال الشرطة؟ رغم أنه رفض الإفصاح حتى لي عن أسمائهم، وأصر على إخبار الشرطة بما أطلعه عليه رضا أصلان، قبل القيام بأي خطوة .يبدو أنه أخبرهم بالفعل، ما عجّل في نهايته .ولا أعلم مع من تحدث بالضبط في مديرية الأمن، فمفيد يدّعي أنه لم يقابله، رغم أنني لا أعرف إن كان عليّ الوثوق بكلامه أم لا .فقد اتصل الشخص الذي قابله عارف، بيالفاج وغونغور، وأخبرهما أنهما باتا مكشوفين، وبالتالي قام هذان المجرمان بقتل صديقي المسكين على الفور .وهذا ما سيؤول إليه مصيري أيضاً، بالطبع ما لم يقوموا بإيذاء فوندا وأوموت قبل التخلص مني .فهم كانوا يطالبون بتسليمهم ما يريدون، وكانوا متأكدين من أنني أعرف عما يتحدثون.

ولكن لحظة ..ألا يمكن أن يكون ما يطلبه هؤلاء الرجال، هو تلك العلب التي عثرنا عليها في جوف التلفاز؟ ولِمَ لا؟ فقد كانوا يطالبون دوغان بعد الخلاف الذي حصل بينهم، بتسليمهم هذه الوثائق والأسلحة والصور .أما هو فقد بقي محتفظاً بها ضماناً لبقائه على قيد الحياة .وربما قاموا بخطفه، وتعذيبه للاعتراف بمكان الأدلة، وحين رفض البوح قاموا بقتله .ولكن لماذا سيقومون بقتله، قبل عثورهم على

ما يريدون؟ ربما قُتل أثناء التعذيب، دون أن يتعمّدوا ذلك .وبعد موته، قاموا بملاحقة كل من كان على علاقة به .وقد تمكن رضا أصلان من إيجاد طريقة ما والهرب، أما دميت فهي لم تتواصل مع حبيبها منذ بضعة أشهر .ولم يبقَ سواي للحاق به، خاصة أنني وبحماقتي المعهودة قد أعلنت أمام الجميع أنني التقيت دوغان قبيل مقتله، وبالتالي جمعت كل الشكوك حولي .وقد كانوا محقين في شكوكهم، فقد استطاع دوغان بطريقة أو بأخرى أن يضع كل تلك الوثائق بين يدي .وغداً سيطّلع كل البلد على هذه الأدلة والأسلحة والصور .أي سيتم الكشف عن حقيقة يالفاج وغونغور، وإن حالفنا الحظ، سيتم كشف هوية هذا الضابط أيضاً، وكشف كل ما كان يطالب به أولئك المجرمون ويهددونني من أجله .وقد تكون هذه طريقة لكي يتوقفوا عن اللحاق بي، فغداً لن يبقى شيء مخفياً مما كانوا يودون الحصول عليه .ولا أظنهم سيقومون بقتل صحفي آخر، والمخاطرة بكشف أنفسهم، فهؤلاء الأشخاص لا يتحركون وفق أهوائهم وعواطفهم، بل وفق قواعد منطقية تجنّبهم الخطر .ولن يفيدهم قتلي في شيء بعد ظهور الحقيقة.

هذه النتيجة جعلتني أشعر ببعض الراحة، وأطمئن إلى أنهم لن يقوموا بإيذاء فوندا وأوموت .ولكن راحتي لم تستمر طويلاً، فماذا عن دوغان؟ ولماذا أصر أولئك الرجال على أنه لا يزال حياً، وأننا قد خططنا لهذه اللعبة سوية، كما يدّعون؟ ربما يحاولون الضغط عليّ بصورة أكبر من أجل ترهيبي، وتسليمهم ما بحوزتي .ولِمَ لا؟ فحتى المحققون يستخدمون هذه الوسائل النفسية أثناء التحقيق مع المجرمين، وينسبون إليهم جرائم كثيرة لم يقوموا بارتكابها، وبذلك يعترف المجرم بما ارتكبه فقط، لينجو من مغبة ما لم يقم به .وهذا ما اتبعوه معي، أم أنهم مقتنعون حقاً بأنه حي؟ ولكن هل هو حي بالفعل؟ عدت إلى النقطة التي بدأت منها، فلو كان حياً بالفعل، فهذا يعني أنّ الخطر مضاعف بكل تأكيد، وحين تتكشّف الحقائق، سيزدادون يقيناً أنني أعمل بالتنسيق مع دوغان .إذاً فالخطة التي اتبعتها وكل الأفكار التي ركنت إليها قبل خروجي من المنزل، لن تفيدني في شيء بعد نشر

الخبر على صفحات جريدة الغد .ربما سيتمهّلون لبعض الوقت، ولكنهم لن يكفوا عن ملاحقتي مطلقاً .وستكون حياتي وحياة فوندا وحياة ابني في خطر شديد، وهذا يعني أنني بدأت بالفعل أغرق في المستنقع ذاته الذي غرق فيه أخي من قبل.

وفيما كنت أحاول عبثاً البحث عن منفذ من متاهة الموت هذه، كان تولغا يضع آخر سلاح على الطاولة، حين رن هاتفه النقال .كان إرول الذي وصل إلى البناء، ويطلب منه أن يفتح له الباب .وفيما كان تولغا يتجه نحو الباب، عادت نظراتي تتفحص تلك الوثائق المزورة التي بين يدي .فوقعت عيناي على صورة بكير؛ زعيم العشيرة، بحاجبيه الكثّين، وشاربه، ووجهه النحيل الطويل، بنظراته المغرورة، والذي كان سيبدو مضحكاً بعض الشيء، لو لم يرتبط في ذهني بكل هذه الأحداث الدامية .أيشبه صلاح الدين؟ يا إلهي لقد نسيت هذا الشاب، وغاب عن ذهني في خضم تلاحق الأحداث، فكلانا في وضع مماثل .ومع أنّ دوغان ليس شقيقي، ولكن كلاًّ منّا قد خسر أخاً في المحصلة .لماذا لم أتذكره من قبل، رغم أنه عرض عليّ الاتصال به؟

كان صديقي المرحوم توفان يردد على الدوام جملة تصلح لكل المواقف برأيه» :حين لا تتحلى بنظرة فلسفية عامة لما يجري، ستضيع وسط متاهة التفاصيل .«تساءلت إن كان عليّ اكتشاف المنطق الكامن خلف هذه القذارة التي التصقت بي كلعنة .ربما توصلت إلى بعض النتائج، ولكنني لم أكلف نفسي عناء التفكير بعمق في كل ما يجري .والحقيقة أنني لم أفعل ذلك عامداً، إنما لرغبتي في عدم التورّط في الأمر حتى فكرياً .ولكنني الآن، وبعد تجاوز مرحلة التورّط، أظنّ أنّ الوقت قد حان، بل بات متأخراً على الجلوس والتفكير ملياً في كل ما يجري .وأول خطوة هي عدم التقليل من شأن هذا الشاب الذي فقد أخاه، وتولى الزعامة بدلاً منه .فهو قد صرّح لي بأنه يتعقّب قتلة أخيه، حتى أنه عرض عليّ أن نعمل سوياً في هذا الشأن .فيما قابلت عرضه بكل برود، ظناً مني أنني سأبقى بمنأى عن الخوض في الأحداث .أما الآن فأعتقد أن كلينا يقف في الصف نفسه .وقد تكون الجهة

الوحيدة التي تستطيع تخليصي، أو على الأقل توفير الحماية لي من هذه المخاطر، هي عشيرة كايتان .وفيما كنت أتنقل على حبال الأفكار والاحتمالات، كان تولغا قد عاد إلى مواصلة عمله، بعد أن ضغط زر الأوتوماتيك لفتح باب البناء السفلي.

-قل لي يا تولغا، أي نوع من الرجال هو صلاح الدين هذا؟

نظر إليّ المصور الشاب مذهولاً إزاء سؤال لم يتوقّع سماعه الآن.

-ما الذي تعنيه بالضبط؟ —سألني بدوره.

بدا وكأنه يريد معرفة ما أفكر فيه، ولكنني لم أعطِه الفرصة.

-أعني —قلتها محاولاً المراوغة —هل أثارت تصرفاته أو كلماته الشكوك لديك؟

ازدادت دهشته عمقاً.

-لا، لم يحدث شيء من هذا القبيل.

سكت وهو يرمقني بإمعان قبل أن يضيف:

-بل على العكس، فقد حاول مساعدتي قدر المستطاع .وإن كنت تريد معرفة علاقته بمقتل عارف، فأنا مقتنع بأن لا علاقة له بالجريمة.

-لماذا تتكلم بكل هذه الثقة؟

يبدو أن سؤالي كان مباغتاً، حتى أنه بدا حائراً في إيجاد جواب.

-لا أؤكد لك شيئاً، ولكنني شهدت الضيق الذي بدا عليه حين قُتل عارف .فهو أيضاً يتعقب من قاموا بقتل أخيه.

وصل إلى النقطة التي كنت أحاول الاستفسار عنها.

-أمتأكد أنه كان صادق المشاعر؟ ولم يكن يحاول أن يتصنّع ذلك أمامك؟

-بالطبع كان صادقاً، وكان لا يزال حزيناً على مقتل أخيه، حتى إنه رفض التقاط الصور أيضاً .لو لم يكن صادقاً لما تكبد مشقة المجيء من مدينة أورفا للقائنا.

كانت مبرراته منطقية، والأهم من ذلك أنها كانت توافق الأفكار التي في رأسي، وتسير لصالح خطتي .ولكنني كنت أودّ التأكد رغم ذلك.

-وهل هو مصر؟ أعني هل هو على استعداد لفعل أي شيء من أجل الانتقام لموت أخيه؟

-بالطبع —قالها بنبرة توكيد —فدعك من حزنه على أخيه، فهو قد اختير زعيماً للعشيرة من بعده .وليظهر استحقاقه لهذا المنصب، عليه العثور على من قتل أخيه، والأخذ بثأره .وإلا، دعك من الرجال، فحتى أطفال العشيرة لن يظهروا له الطاعة والولاء.

لقد كانت النتيجة التي توصّل إليها بسيطة ومنطقية بصورة مذهلة، والأهم أنها سبيل خلاصي من كل المخاطر التي قد تصيبني جراء تورّطي في هذه المعمعة، لذا فقد خامرتني الرغبة في القفز، وتقبيل وجنتيه فرحاً .ولكنني لم أفعل بالطبع، لأنني لم أكن أنوي إطلاع تولغا أو أي أحد سواه على ما يدور في ذهني .وحين لاحظ الشاب صمتي، أشار إلى الوثائق التي بيدي وهو يواصل الكلام:

- لِمَ تهتم به إلى هذه الدرجة؟ أهو أيضاً ينتمي لهذه العصابة؟

-ليس هو، بل شقيقه بكير.

-لقد كنا نتوقع أمراً كهذا يا صديقي —قالها ثم أشار نحو الأسلحة المرصوفة على الطاولة —ما رأيك بهذه الوضعية؟ هل أبدأ بالتقاط الصور؟

كانت المسدسات الستة والتي لا أعلم ماركاتها، مرصوفة على الطاولة ببراءة وهدوء يناقض الدماء التي سُفكت بسببها.

-أجل، التقط صورة تظهرها كلها معاً، ومن ثم التقط لكل واحد منها صورة على حدة.

أخرج الشاب كاميرته وأخذ يركّب الفلاش، حين رنّ الجرس .اتجهت نحو الباب، فلا بد أنّ إرول قد وصل .إلا أنني لم أفتح الباب، قبل النظر من العين الساحرة .ورغم أنّ العدسة تحدب الوجوه بشكل كبير، لكنها لم تستطع إخفاء القلق الذي على وجه إرول .وفيما أفتح الباب، تيقنت أنه مثلي، وأن ثقل السنين لا يخوله تحمّل كثيراً من مفاجآت هذه المغامرة .وحين رآني بدت عليه الراحة، ولكنه كان يريد التأكّد أكثر.

-الأمور بخير إذاً؟ —لقد أخبره تولغا على الهاتف أنّ المنزل نظيف، لكنه كان يريد الاطمئنان قدر المستطاع.

-أجل بخير —قلت وأنا أتنحّى جانباً لأفسح له طريق الدخول —لا يوجد أحد في المنزل، كما أنّ كل ما أخبرني به دوغان بدأ يتحقّق الواحد تلو الآخر.

حين أدرك أنه ما من داعٍ للخوف، دخل وقد برقت عيناه حبوراً.

-رائع يا صديقي —قالها جذلاً —إذاً سنتصدّر لائحة المبيعات غداً ما إن ينشر العدد .والكل سيكيل لنا الشتائم حسداً —وأغلق الباب من خلفه.

-أظن أنّ هذا ما سيحدث، لقد بدأ تولغا بتصوير الأسلحة.

ظهر تعبير جدي على وجهه، ولم يستطع محو الحماسة التي طبعت ملامحه. ورغم ذلك بادر بالقول:

-بالطبع —قالها وحاول تمالك نفسه —ولكن ليس لدينا وقت طويل.

كانت الشهية التي يتحدث بها، شهية بدين ينتظر الوليمة التي حلم بها منذ عقود .وحين دخل الصالون، وشاهد تولغا الذي بدأ بالتقاط أولى الصور. هتف:

-بالتوفيق يا صديقي —وتوجه نحوه، كأنه يريد فعل ما أحجمت عنه منذ قليل، بطبع قبلتين على خدي الشاب، ولكنه حين رأى المسدسات نسي رغبته، وواصل من دون أن يرفع نظراته التي غمرتها الدهشة عنها —إذاً فكل شيء موجود هنا حقاً — !قالها وهو يتفحّصها عن قريب، حريصاً على عدم الظهور في كادر الصورة .ثم اتجه نحو العلبة الأخرى على الأريكة، وأخذ يرمقني بعينين تتسعان دهشة، فيما كنت أشرح له كل ما عثرنا عليه.

-إنه أمر رائع بالفعل —قالها بعد أن أنهيت كلامي، من دون أن أحدّد على وجه التحديد إن كان يخاطب نفسه، أم يخاطبني —إن دوغان رجل بارع بالفعل، فقد ترك لنا مجموعة رائعة من الأدلة.

-أجل، ولكن علينا إبلاغ السلطات بعثورنا على هذه الأدلة —كانت كلماتي كافيه لتخرجه من نشوته، فأخذ يحدجني بنظرات تساؤل تريد سبر نواياي.

-إن لم نفعل ذلك، سيتهموننا بإخفاء الأدلة عن العدالة.

-معك حق —قالها وبدا عليه تفكير عميق —ولكننا سنؤجل إبلاغهم بالأمر قدر المستطاع، لأنهم سيخبرون بقية الصحف .وسيتحول المكان على الفور إلى حلبة مصارعة، وسنخرج من المولد بلا حمّص.

علت وجهي ابتسامة ودّ، وأنا أربت على كتفه.

-لا تخشَ شيئاً، فالشخص الذي يدعمني في قوى الأمن لن يعترض، وسيتمكن من تأجيل الدخول إلى المنزل حتى صباح الغد .وحتى ذلك الحين ستكون الصحيفة قد طُبعت، وفي طريقها لتوزع في كل مكان .ولكن عليّ التحدث إليه، قبل إضاعة مزيد من الوقت.

عاد ذلك القلق الذي لمحته عليه، حين كان واقفاً بالباب، ليغطي وجهه.

-ولكنك تعرف كل تفاصيل الخبر، وإن غادرت الآن، فمن سيكتبه؟

كان يستطيع كتابته بنفسه، ولكنه كان يخشى البقاء أكثر في هذا المنزل.

-أنا لا أعرف أكثر مما أخبرتك به —وأضفت وأنا أشير نحو شريطي الفيديو الموضوعين على الأريكة —ولا بدّ أنّ دوغان قد أوضح كل التفاصيل في شريطي الفيديو هذين .وإن شاهدتهما ستتمكن من الحصول على كثير من المعلومات .كما أنني لن أتغيب كثيراً، سأسلم الشريط لصديقي، وأطلب منه الانتظار حتى الصباح لاستلام بقية الأدلة، ثم سأعود إلى الجريدة، لنكتب الخبر سوية.

-وماذا لو تم إلقاء القبض عليك؟

-ولماذا سيلقون القبض عليّ؟

-أنسيت أنك أنت من أخبرتنا، ونحن في الطريق، بعدم الثقة برجال الأمن والشرطة؟

-حينها لم نكن التقطنا صور الأسلحة، وحصلنا على هذه الوثائق، وشريطي الفيديو، حيث فيهما كل الاعترافات —أخذت أحد شريطي الفيديو

بيدي وأنا ألوّح به —فحين يشاهدون ما بداخلهما، سيمنحونني وساماً بدل التفكير في اعتقالي.

كان يرمقني بعينيه البنيتين، بنظرات تتراوح بين الشك واليقين، وحين اعتقدت أنه ينوي الاعتراض، بادر بالقول:

-حسناً إذاً، دعنا ننتظر انتهاء تولغا من عمله، لنغادر سوية .وحتى ذلك الحين سنجري جولة تفتيش في المنزل.

كان تولغا يعمل بتأنٍّ ودقة .لذا فقد أنهينا جولتنا في المنزل للتحقّق من عدم وجود أدلة أخرى، وقمنا بتدخين سيجارتين أيضاً، قبل أن ينتهي من التصوير. حين خرجنا من الشقة كانت الساعة تقارب الحادية عشرة .وقد أوصلني إرول إلى موقف سيارات الأجرة، الذي توقفنا فيه عند ذهابنا .وقد نبّهني والقلق بادٍ على وجهه:

-لا تتأخر في العودة، فلن ننشر الخبر ما لم تلقِ نظرة عليه.

وغادر مسرعاً باتجاه الصحيفة، فيما استقللت إحدى السيارات، وطلبت من السائق إيصالي إلى الفندق الذي يقيم فيه صلاح الدين، وأنا أبتهل أن يكون موجوداً في الفندق .ورغم أنني كنت أستطيع الاتصال به، وإخباره أن ينتظرني هناك، لكن من المرجح أن يكون هاتف الفندق أيضاً مراقباً، لذا كنت أخشى استخدام الهواتف .كما أنّ الفندق مراقب بكل تأكيد، ولكن بسبب حركة الدخول والخروج الكثيفة، فمن المستبعد أن يتعرفوا إليّ، خاصة أنّ من يراقب الفندق ليس يالفاج ولا غونغور .ولكن ماذا سأفعل إن لم يكن الرجل في الفندق الآن؟ بالتأكيد سيكون بعض رجاله هناك، فهؤلاء الأشخاص لا يسافرون لمهمة على هذا القدر من الأهمية، من دون أن تصحبهم ثلة من رجالهم .في الحقيقة، كنت أعول كثيراً على مساعيهم في بحثهم عن الحقيقة، ومحاولة الثأر لأخيهم، ومن الواضح أنهم غير

مقتنعين بمقتله على يد عائلة بينجي أوغلو.

ومن خلال حديثه عن دوغان، تبين لي أنه يثق به كثيراً .ولكن دوغان لم يكن يبادلهم تلك الثقة، وإلا لكان أطلعهم على الحقيقة .حقاً لماذا لم يخبره دوغان أنّ من قام بقتل أخيه، هو يالفاج ومساعده؟ وما أدراني أنه لم يفعل ذلك؟ ولكن لو كان قد أخبره، لما توانى صلاح الدين عن ملاحقة المحققين .وحتى لو افترضنا أنهما تمكّنا من إقناع زعيم العشيرة الشاب، بأن دوغان كاذب فيما يدعيه، إذاً لماذا قام هذان الشرطيان الفاسدان بقتل عارف؟ هل تستحق مقابلة صحفية مع شقيق بكير، التورّط في جريمة قتل صحفي، وإثارة كل الجهات ضدهم؟ لذا فمن المستبعد جداً، أن يكون دوغان أو سواه قد أخبر صلاح الدين بتورط المحققين في مقتل أخيه .ولكن لماذا؟ لماذا لم يخبره دوغان أنّ من قام بقتل شقيقه هما هذان الوغدان؟ ألأنه لا يثق بصلاح الدين؟ ولكن لو كان لا يثق بالشاب فعلاً أو يعتبره مصدر خطر، فلماذا لم يقم بتحذيري منه إذاً؟ كما أنّ الوثائق التي عثرنا عليها، لا تحمل أي شيء يشير إلى تورّط صلاح الدين مع العصابة .إذاً لِمَ لم يطلعه دوغان على الحقيقة؟ ربما يكون قد فعل، ولكن الشاب يريد التأكد من كلام دوغان .أيعقل أن يتأكد من كلام رجل يوليه كل هذه الثقة والاحترام؟ بدأت أفكاري تتطاير عن حبالها وسط رياح الضياع، وتوقفت عن محاولة لملمتها، حتى لقائي بصلاح الدين، للعثور على الأجوبة، وفتحت النافذة لأتنشق نسيم اسطنبول، وأنا أرقب أضواءها الليلة، ولكن الأفكار أبت أن تتركني وشأني، وعاودت ظلالها لتخيم على ذهني .لذا استسلمت لها، وأنا أعلم أنني لن أتمكن من التخلص منها، حتى وصولي باب الفندق.

طلبت من السائق التوقف حين بلغنا باب الفندق، ورفعت ياقة معطفي في محاولة لإخفاء وجهي قبل أن أغادر السيارة .دخلت الفندق بخطوات ثابتة، ولكن بالسرعة الممكنة .كان المكان هادئاً، ولم يكن في البهو سوى ثلاثة رجال يشاهدون التلفاز، وقد كانوا مستغرقين بمتابعة المسلسل المعروض، حتى أن أياً منهم لم يكلف

نفسه عناء النظر إليّ .لكن فتاة الاستقبال، نهضت لاستقبالي، وهي تتصنّع ابتسامة بدا التعب واضحاً فيها.

-مساء الخير —قلت.

-مساء النور تفضل.

-أود مقابلة السيد صلاح الدين كايتان.

لم تستغرب الفتاة طلبي.

-لحظة من فضلك —قالت، واتجهت بحركة رشيقة نحو الباب الموارب خلفها —سيد رمزي، هلاّ أتيت من فضلك؟ —خاطبت أحداً ما في الداخل —أحدهم يسأل عن السيد صلاح الدين —ومن ثم التفت إليّ —سيساعدك السيد رمزي —وهي تحرص على بقاء ابتسامتها المتعبة، والجميلة على وجهها، ولكن من الصعب قول الشيء نفسه عن السيد رمزي؛ الذي كان يماثل يالفاج في الطول، ولكنه أكثر نحفاً، وهو يفتح الباب بحدة، ويرمقني باستصغار، وقد بدا منزعجاً من جرأتي على إزعاجه.

ورغم أنّ الفتاة قد أوضحت له الأمر، فقد عاد للسؤال:

-عمن تسأل؟ —قالها بنزق .وكانت اللكنة الكوردية بادية في كلامه.

-عن السيد صلاح الدين —أوضحت له —صلاح الدين كايتان.

رمقني من رأسي حتى أخمص قدمي.

-لماذا؟ ما الذي تريده من السيد صلاح الدين؟

-هو من اتصل بي —قلت وأنا أحدق إلى عينيه وأواصل الحديث —هو من طلب مقابلتي.

لم يختفِ الضيق من ملامحه، ولكنه تمهل للحظات قبل أن يعاود السؤال:

-ما اسمك؟

-عدنان سوزمن —ولكنني حين لاحظت أنّ اسمي لم يعنِ له شيئاً واصلت التوضيح —الصحفي عدنان سوزمن، ودوغان سوزمن هو أخي —ما إن سمع اسم دوغان حتى انتفض في مكانه .وتحول ذلك الرجل الفظ الذي كان يخاطبني في احتقار، إلى النقيض .وأبدى كل ما يملكه من لباقة واحترام وهو يوضح لي:

-أرجو عفوك سيد عدنان .فأنا لم أكن أعلم من تكون —تلعثم —فكل من ينحدر من أورفا بدأوا بالتقاطر على الفندق، حين علموا بمجيء السيد صلاح الدين .ولم نعد قادرين على تلبية رغباتهم.

ولكني لم أكن أملك الوقت لسماعه.

-لا عليك، فأنت تقوم بواجبك .هل السيد صلاح الدين هنا؟

تمهل وقد بدا واضح التردّد.

-إنه هنا .لكنه ذهب إلى غرفته للنوم —وأردف لمزيد من التوضيح — فهو معتاد على النوم باكراً.

أدركت أنه لم يكن راغباً في إيقاظ سيده.

-اسمعني جيداً —قلتها بجدية، لأوضح له إصراري على مقابلته —لقد اتصل بي السيد صلاح الدين هذا المساء، وأصر على أن أقابله .وأخبرني أنني أستطيع القدوم متى شئت، لأنه يريدني في أمر مهم .ولكن إن كان لديك رأي آخر، فهذا شأنك.

-العفو سيد عدنان، أنا لم أقل شيئاً كهذا —أوضح على الفور، وعلمت أنه سيوقظ صلاح الدين بكل تأكيد —تفضل بالجلوس، وأنا سأخبر السيد صلاح الدين على الفور.

والتفت نحو الشابة مرتبكاً.

-آنسة نيلوفر، هلا أخذت السيد عدنان إلى مكتب المدير؟

لم يكن رمزي مرتاحاً لفكرة إيقاظ سيده، وإقلاق راحته .ولكنه كان يعلم أنّ زعيم العشيرة، قد تكبد عناء السفر كل هذه المسافة، للبحث عن قاتل أخيه. وقد يكون ما سأخبره به، على قدر كبير من الأهمية بالفعل .وحتى لو لم يكن الأمر كذلك، فأنا شقيق شخص له وزن وسمعة راسخة في هذا العالم الخفي الذي يعرف رمزي سراديبه جيداً .وكان هذا وحده كافياً لإيقاظ سيده، الذي قد يصبّ عليه جام غضبه في الغد، إن أخبره أنه امتنع عن إبلاغه بمجيئي .لقد كانت ورطة صعبة بالنسبة إلى هذا الشاب الكوردي، الذي غامر في النهاية، وذهب لإيقاظ سيده.

أما الآنسة نيلوفر التي كانت تتابع حديثنا منذ البداية، وإن ظلت محافظة على ظل ابتسامتها، فقد تلوّى وجهها بشيء من الاشمئزاز .وبدا من الواضح أنها لا تستلطف الشاب الكوردي، ولا حتى زعيم عشيرته أيضاً، بل وتنظر إلى تصرفاتهما القروية، باستعلاء خفي يخالطه الاشمئزاز .ورغم ذلك لم تتوانَ عن تلبية طلبه.

-تفضّل معي سيد عدنان —قالت وهي تشير نحو الباب الذي يحتل صدارة الصالة.

وفيما اتجهت معها نحو المكتب كنت لا أزال أخشى من رد فعل صلاح الدين، الذي قد يستشيط غضباً لأن رمزي تجرأ على إيقاظه، ويرفض اللقاء بي، حينها ما الذي سأفعله؟ ولكن ظنوني تبدّدت، بعد أن جلست وسألتني الفتاة بكل لباقة عما أود شربه، فطلبت قهوة سادة، حيث دخل رمزي باشّاً، وهو يقول:

-سيوافيك سيدي بعد لحظات، وقد بدا ممتناً جداً لزيارتك له.

شعرت بالراحة من هذا التصريح، واسترخيت في الكرسي، حين وقعت نظراتي على جهاز التلفاز ذي الشاشة المسطّحة المعلّق على الحائط.

-أيوجد جهاز فيديو في الفندق؟ —سألت رمزي الذي يقف بالباب — لأننا سنحتاجه.

-بالطبع يوجد —قالها —سأحضره على الفور —وخطا نحو الخارج خطوة وهو يقول —وإن شئت نستطيع إحضار جهاز أكبر من هذا؟

-سيكون ذلك رائعاً يا صاحبي —قلت.

راقه حديثي معه من دون تكلف، وأكثر من ذلك إنّ هذه الزيارة الطارئة في منتصف الليل، لم تفصح عن أي مشكلة كما توجّس، بل جعلت سيده يشعر بالامتنان، فأخذ الرضا يشع من عينيه السوداوين وهو ينظر إليّ .وخلال دقائق كان جهاز تلفاز سبعين بوصة وجهاز الفيديو، قد أصبحا في المكتب .ولم يتأخر صلاح الدين في القدوم، فقد وصل قبل وصول القهوة .كان يقف في الباب مع اثنين من مرافقيه، وهو يظهر أسنانه المرصوفة في تناغم واضح خلف شفتيه الثخينتين، في ابتسامة ودودة.

-أهلاً بك أستاذ عدنان —قالها وهو يمد يده مصافحاً فنهضت لأصافحه بدوري .كان أطول مني بعلو رأس، وقد خط الشيب أطراف شعره القصير، ولأن الضوء كان خافتاً في الغرفة، فلم أتمكن من تمييز لون عينيه القاتمتين بدقة .أما شاربه الكث، وأنفه المعقوف كمنقار نسر ضارٍ، فكان يضفي عليه هالة من القسوة .توقف وهو يرمقني بتمعّن من جديد.

-لا يوجد شبه بينك وبين دوغان في الطول وملامح الوجه.

كنت أفكر في أن أشرح له أننا لسنا شقيقين، بل وأكثر من ذلك كنت أنوي أن أريه بطاقتي الشخصية، للتحقق من هويتي وسط ثقل نظراته المتفحصة، والحيرة التي استبدت بي جراءها حين بادر بالقول:

-وأنا أيضاً لا أشبه المرحوم أخي كثيراً ومن لا يعرفنا، من المحال أن يخمن أننا شقيقين .إنها تقديرات إلهية، تتجاوز قدراتنا نحن البشر.

قالها وهو يجلس على الأريكة التي قبالتي، مظهراً الاحترام في عدم جلوسه خلف المكتب، رغم أنه زعيم عشيرة وليس شخصاً عادياً مثلي .وقد ظل ذلك التعبير الودود مرتسماً على وجهه وهو يرمقني لفترة لا بأس بها.

-لا —قال —أظنني مخطئاً، فتلك النظرة الحازمة في نظراته، واضحة في نظراتك أيضاً .ومن الواضح أنك لا تقل عنه شهامة، وجرأة.

يا للجرأة التي تفيض مني؟ داهمتني رغبة في الضحك عالياً، ولكني كبحت رغبتي، فيما توجه صلاح الدين الذي كان بعيداً عما يجول في ذهني، نحو مرافقيه:

-هل سألتم السيد عدنان عمّا يود شربه؟

نظر إليه الشابان بتردد، من دون أن يبادرا إلى الجواب، حتى تدخل رمزي وهو يوضح:

-لقد طلب السيد عدنان فنجان قهوة، هل أطلب لك فنجاناً يا آغا؟

-لا أريد —أوضح —أحضر لي كأس ماء.

ومن ثم عاد الزعيم الشاب ليرمقني بتمعن.

-أقسم لك يا صديقي أنني كنت أحب المرحوم دوغان وأعتبره بمنزلة أخي — توقف للحظات، وقد بدا عليه التأثر، فتساءلت إن كان سيبكي، ولكنه

واصل الحديث —أحضروه إلى قريتنا في إحدى المرات وقد كان مصاباً .فبعد خروجه من المشفى، بقي ملازماً الفراش لمدة شهر في منزلنا .وبعدها أخذني معه إلى سويسرا، وتجولنا في مدنها .وقد أصبح كريفي18، وأطلقت اسمه على ابني الصغير. لقد كان رجلاً صالحاً، لا يخلف وعداً، ويمتاز بقلب لا يعرف الخوف، ولكن الأوغاد تمكنوا منه أيضاً، وقد أحرقوا جثته لأنهم كانوا يخشونه، فالرجال الذين على شاكلته لا يمكن للموت النيلُ منهم ببساطة .ولا بدّ أنهم أوقعوا به غيلة وغدراً، وإلا فمن المحال أن يتمكنوا منه .وأظن من قام بقتله، هم الأشخاص ذاتهم الذي قاموا بقتل أخي أيضاً .فأنا لا أصدق أن عائلة بينجي أوغلو تقف وراء قتل أخي .ليس لأنهم أقسموا الأيمان على براءتهم، بل لأنهم جبناء، لا يجرأون على التورط معنا، وليس لديهم القوة أو الشجاعة لمواجهتنا، كما أنّ أصدقاء المرحوم أخي أيضاً غير مقتنعين بتورّطهم في الأمر.

-من الذي تعنيه بقول الأصدقاء؟

تمهّل للحظات قبل أن يجيب، وهو يرمقني باهتمام، وكأنه يريد أن يدرك ما الذي أخفيه، وإلى أي مدى تصل معلوماتي.

-أعرفهم، ولكنني لا أعرف أسماءهم الحقيقية —قالها وهو يتجنّب النظر إليّ —كان لقب أحدهم البربري، ولقب الآخر الصقر.

أدركت مغزى الصقر، ولكن لماذا البربري؟

- لِمَ سموه البربري؟ —سألت.

-إنه طير جارح، لا يحلّق إلا في الذرى .يمسك الفريسة بمخالبه، ويمزّقها بمنقاره.

وفي تلك الأثناء فُتح الباب، ودخلت الآنسة نيلفور وهي تحمل صينية

عليها فنجان قهوة وكوبي ماء .وضعت القهوة وأحد كوبي الماء أمامي، والكوب الآخر أمام الشاب، وخرجت كما دخلت في صمت وسرعة .ارتشفت جرعة من قهوتي.

-إذاً فقد كانا يلقبان بالصقر والبربري؟ —سألت —وهذا يعني أنهما شخصان.

-هممم —همهم الشاب —كانا اثنين.

أغلب الظن أنّ هذين الجارحين ليسا سوى يالفاج وغونغور.

ظلّ صلاح الدين يتهرّب من نظراتي، وهو يحاول الانشغال بكوب الماء، فتأكدت أنه يكذب عليّ .وهذا ما يعني أنه يخفي شيئاً مهماً عني، أو أنه لا يثق بي كما يدّعي، رغم أنني كنت أثق به .ليس بما قاله، ولكن بنظراته وطريقة حديثه التي تشي بالصدق .تركته حتى أنهى شرب الماء، ومن ثم سألته من دون مراوغة:

-أظن الصقر والبربري ليسا سوى يالفاج وغونغور —قلتها وأنا أبتسم.

اكتسى وجهه الجميل بحمرة الخجل، فاستغربت أن يكابد رجل في موقعه الخجل بسبب كذبة صغيرة، ومن دون أن أعطيه الفرصة للرد واصلت.

-اسمعني جيداً يا صلاح الدين —قلتها بجدية —علينا التحدث بمفردنا.

عاد إليه الحزم السابق على الفور.

-كما تشاء.

والتفت نحو رمزي، والشابين اللذين يقفان بالباب، وقال بلهجة آمرة:

-اتركونا لوحدنا قليلاً، فأنا أرغب بالتحدث مع السيد عدنان على انفراد.

خرج الثلاثة وهم يغلقون الباب، ومن دون إضاعة مزيد من الوقت أخرجت شريط الفيديو من جيبي، ووضعته في الجهاز، بينما كان الشاب يراقبني بصمت، وقد اتسعت عيناه حيرة.

-لقد سجل دوغان قبل موته هذا الشريط، وأرسله إليّ، وقد ذكر فيه من قام بقتل أخيك والعقيد رفعت، ومن سيقوم بقتله هو لاحقاً .دعنا نشاهده سوية —قلتها وأنا أضغط زر تشغيل التلفاز، وعدت إلى مكاني.

لم يعلق على كلمة مما قلت، بل تعلقت نظراته بالشاشة، وهو ينتظر بفضول وترقب .في البداية ظهرت أشكال وخطوط غير مفهومة على الشاشة، ثم ظهر وجه دوغان بهدوئه المعهود، ولكن نظرة عينيه كانت تشي بمدى الأسى العميق لشخص تعرض لخيانة وجور عظيم.

-أنا دوغان سوزمن —بدأ التحدث بهدوء واضح —أعمل منذ عشر سنوات في إحدى منظمات الدولة السرية .وقد عملت سابقاً لحساب الدولة في فترات مختلفة، لن أفصح عنها، لأنني من الأشخاص الذين يعتقدون بأن ما نقوم به من أجل دولتنا هو واجب مقدس .ورغم كل الظلم، وكل الإجحاف الذي تعرضت له، لو أتيحت لي فرصة العيش ثانية، سألبي نداء الواجب، وأعمل من أجل بلادي من دون لحظة تردّد واحدة .وأعلم تماماً أنّ الظلم الذي لحق بنا، كان نتيجة أطماع بعض المنتفعين الذين يضعون مصالحهم الخاصة فوق مصلحة الوطن، والذين تغلغلوا في جسده .وللأسف فبسبب طفرة تاريخية، انحرف مسار الأمور لصالحهم، وأصبحوا هم الأقوياء ونحن الضعفاء .ولكن الزمن سيتغير، وسينتهي عهدهم، لتظهر الحقيقة في يوم من الأيام .وحينها سيدرك شعبنا العظيم حقيقة ما كان يجري.

وفيما كان يواصل الحديث، كان غضبه يزداد حدة، وتتقد عيناه حنقاً. ولكن صوته ونظراته، والكلمات التي يعتمدها في خطابه، كانت تشي بتلك الثقة

الراسخة في آرائه، والإيمان الذي لا يتزعزع بما يقوله .رمقت صلاح الدين بنظرة جانبية، فكان يصغي إليه عاقد الحاجبين، بتركيز شديد.

-أنا وأصدقائي —واصل دوغان حديثه —وفي الأزمنة التي كان يخشى فيها أفراد الأمن والشرطة الخروج إلى الشارع ليلاً، بسبب احتدام المشاكل بين الدولة ومنظمة الـ PKK، كنا نخوض المعارك في أشد المناطق خطورة في الأناضول، دون أن نبالي بسلامة أرواحنا، سواء بالمواجهة المباشرة في الجبال، أو الاصطدام بكل من كان يقدم لهم العون والدعم في المدن .أجل، لقد قَتلنا، وقُتلنا، ولكن كل تلك الدماء المهدورة كانت من أجل هذا الوطن .وقد تمكنا في النهاية من إحلال السلام .إلا أنّ الأوضاع قد انقلبت علينا منذ ذلك الحين، وتغيرت المعاملة معنا، ابتداء من تلك المرحلة .فأولئك الذين كانوا يعتبروننا في أزمنة القلاقل من أخلص خلصاء الوطن، ولم يكونوا ليجرؤوا على الخروج من منازلهم في مدن الأناضول، من دون حماية أسلحتنا .انقلبوا علينا في زمن السلم، ووضعونا في الكفة ذاتها، مع اليساريين، والخونة .وأخذوا ينظرون إلينا وكأننا أحد مسببي هذا الصراع .ولم يقتصر الأمر، على الصحفيين، والبرلمانيين، ورجال الأعمال، والنقابيين .بل حتى قوى الأمن والجنود الذين كنا نقاتل معهم يداً بيد وفي الخندق نفسه، ووصل الأمر ببعض مؤسسي المنظمة التي كنا نعمل لصالحها، إلى التململ من وجودنا .والأدهى من كل ذلك، أنهم لم يكونوا صريحين معنا.

لو أنهم قالوا لنا» :شكراً على الجهود التي بذلتموها حتى الآن من أجل هذا الوطن وشعبه، ولكن الموازين قد تغيرت، وحان الوقت لتنسحبوا من الساحة، وتعاودوا ممارسة حياتكم اليومية، حتى يحين الوقت من جديد للحاجة لخدماتكم«، صدقوني كنا مستعدين لفعل ذلك .ولكننا لم نصادف أحداً بهذه الصراحة، بل كان الجميع يبتسمون في وجهنا، ويحاولون طعننا من الخلف .وقد استخدموا معنا الأساليب ذاتها التي كنا نستخدمها ضد أعدائنا، ليتخلصوا منا .وقد قام الشخص الذي يطلق على نفسه لقب الضابط، والذي لا أعلم شيئاً عن هويته الحقيقية،

سوى بأنه كان مكلفاً بالعمل في المنظمة السرية في الأناضول، ويدّعي الآن أنه يعمل مع قوى الأمن في قسم مكافحة الإرهاب، وبالتعاون مع المحقق يالفاج كيرأوغلو، ومساعده المحقق غونغور توبراك، بوضع خيوط مؤامرة قذرة، راح ضحيتها، أقرب أصدقائي بكير كايتان الذي ينحدر من أصول كوردية، والذي عمل معي لسنوات في صراعنا ضد منظمة ال PKK، بالإضافة إلى أحد أكثر الأشخاص كفاءة في قوى الجيش، العقيد رفعت باش أوغلو .وقد نجوت بمحض الصدفة من هذا الكمين الغادر .فيما حاول هؤلاء الخونة إلصاق التهمة بعائلة بينجي أوغلو .ذلك لأنهم كانوا يخشون رد فعل الرأي العام، وعشيرة كايتان على وجه الخصوص.

أما بالنسبة إليّ، وبعد أن تجاوزت صدمة موت أعز أصدقائي، حاولت الاختباء في مكان آمن، للتفكير ملياً في هذه الأحداث الدموية .وقد اقتنعت بمرور الوقت والتفكير، أنّ فرمان موتنا لم يصدر من الضابط بشكل شخصي، بل من جهات أكثر سلطة في الدولة .فمهما يكن هذا الضابط شخصية متنفذة، فهو لن يجرؤ على القيام بأمر مماثل بمفرده .وحين أدركت هذه الحقيقة، اكتشفت أنني لن أنجو من مصيري المحتوم في هذه العملية مهما أحاول الهرب .وكان موتي محتوماً، ذلك أنّ من يلاحقني هم رفاقي في السلاح، الذين يعلمون جيداً، كيف أفكر وما الذي أخفيه، وإلى أين يمكن أن ألتجئ .والشيء الوحيد الذي لم يكونوا يعلمون بأمره، هو الخبرة التي اكتسبتها طوال هذه السنوات، والتي دفعتني لاستئجار هذا المنزل من دون علم أحد منهم، وخبأت فيه الأسلحة والوثائق، والأدلة .وأنا متأكد من أنهم سيتمكنون من قتلي، ولكنني في المقابل سأقوم بكشفهم أمام العدالة، وبذا سأنتقم لموتي ولموت أصدقائي.

لذا قمت بالتواصل مع الصحافة، وسجلت هذا الشريط من أجل الغاية ذاتها .وستثبت الأسلحة وجوازات السفر والبطاقات الشخصية المزوّرة، والتي تمّ فتح حسابات مصرفية على أساسها، صحة كلماتي .وكل ما أرجوه أن ينال الخونة

عقابهم، وأن يعرف شعبنا الظلم الذي لحق بي وبصديقي بكير كايتان والعقيد رفعت باش أوغلو .وأن يتم تقييم كل ما قمنا به، بميزان العدل والإنصاف .لا أنكر أننا أخطأنا في بعض الأحيان، وتسببنا في زهق الأرواح، وخالفنا القوانين .ولكننا لم نفعل شيئاً من ذلك لمنفعتنا الشخصية .لقد كانت غايتنا الوحيدة الحفاظ على بلادنا، وأن ينعم هذا الشعب العظيم، بالكرامة والحماية إلى الأبد .لذا فنحن نتحمّل وزر كل ما قمنا به، ومستعدون لدفع الثمن في الدنيا وفي الآخرة .فنحن إلى زوال، أما الوطن فله الخلود والبقاء.

وقد بدأ صوته بالارتعاش، وهو ينهي آخر كلمات خطابه، وغامت عيناه خلف غلالة رقيقة من الدموع .وكان من الواضح أنه سيبكي فيما لو استمر في الكلام أكثر، وربما لهذا السبب حاول إنهاء الحديث بسرعة، كي لا يبكي أمام من سيشاهده.

لم تكن كلماته جديدة بالنسبة إليّ، لكنني لن أقول الشيء ذاته عن صلاح الدين .فقد ظل الزعيم الشاب يواصل التحديق إلى الشاشة، حتى بعد أن اختفت الصورة، وكان من الصعب تخمين ما يفكر فيه، وما يشغل ذهنه .وأخيراً نهضت، وأطفأت التلفاز، وأخرجت شريط الفيديو .وحين عدت إلى الجلوس قبالته، نظر إليّ .وقد انتابني فضول شديد لمعرفة ما سيقوله، ولكنه أشار بإصبعه إلى فنجان القهوة وهو يقول:

-اشرب قهوتك يا صاحبي، قبل أن تبرد.

يا للغرابة، حدّقت مطولاً إلى عينيه، لأفهم ما الذي يعنيه بهذا الكلام. كان يقلّص عينيه، وهو يفكر بعمق، إلا أنّ اتقاد نظراته الغاضبة كان من الصعب إخفاؤه .ولكنني أطعت كلماته، وأنهيت الفنجان في رشفة واحدة.

-من هو هذا الضابط؟ —سألني.

-لا أعرف —قلت —كنت آمل أن تعرف أنت حقيقة هويته.

-وأنا أيضاً لا أعلم من يكون، ولكننا بعون الله سنصل إليه .فلا بد أن غونغور ويالفاج الوغدين يعرفان من هو.

-هل ستتحدث إليهما؟ —سألته.

ظهرت على شفتيه ابتسامة مخيفة.

-سنحاول أن نجد طريقة ما —ونهض واقفاً، وبدا وكأن إعصاراً من الغضب يعصف بروحه، حرص على إخفائه .ولكنه بعد أن نهض قال مدمدماً بحنق:

-إذاً فقد قام الأوغاد بقتلهم جميعاً، وأخذ كل النقود.

إذاً فقد كان هناك نقود أيضاً؟

-أي نقود؟ —سألته.

-لا —أجاب —لم أذكر شيئاً عن النقود، لا بد وأنك أخطأت الفهم.

كنت متأكداً مما سمعت، ولكنني لم أعلق على إنكاره، وبقيت جالساً في الكرسي، لا أدري ما عليّ فعله .أما هو فقد بدا مدركاً لما سيفعله، ولا يريد تضييع مزيد من الوقت.

-شكراً جزيلاً لك سيد عدنان —قالها ومدّ يده مصافحاً —فقد أسديت لنا معروفاً كبيراً، وتمكنت بفضلك من معرفة هوية من قام بقتل أخي .وقد انتهت مهمتك، وحان دورنا الآن .إن شئت دعنا نستضفك في الفندق .وإن شئت الذهاب إلى أي مكان، فسيقوم رجالي بمرافقتك .أعلمني بما تريده لننفّذه على الفور.

في الحقيقة كنت أتحرّق شوقاً لمعرفة ما الذي ينوي القيام به، ولكن تلك الصرامة التي ارتسمت على وجهه، والجدية التي صبغت كلماته، أفقدتاني جرأة القيام بالاستفسار.

-عليّ الذهاب إلى الجريدة —قلت —ولا داعي لأن يتكلف أحد مشقّة مرافقتي، سأذهب بمفردي.

-لا يجوز —قالها واتجه نحو الباب على الفور، وفتحه وهو ينادي على رجاله —رمزي، جهّز السيارة، لتقوم بإيصال السيد عدنان إلى الجريدة —وعاد ليلتفت إليّ —جزاك الله خيراً، فبفضلك لن تذهب دماؤنا هدراً، ولن تبقى رؤوسنا مطأطئة .وبإذن الله سنساندك كما فعلت معنا، ونرد لك المعروف بأحسن منه. والآن أرجو أن تصل بالسلامة، وإن قُدّر لنا، فسنلتقي مجدداً.

الفصل السادس والعشرون

رغم أنّ كل ما مررت به، كان غريباً عليّ، ولكنني لن أنكر أنني لم أكن غافلاً عن فراشات الحظ التي تحوم حوالى .فقد تمكنت من العثور على كل ما أخبرني به دوغان، من وثائق وأسلحة وبطاقات مزورة، وكان رد فعل صلاح الدين إزاء ما حصل يطابق ما كنت أصبو إليه .وأفضل ما في الأمر أنني تمكنت من تحقيق كل هذه الأهداف من دون أن يشعر من يراقبني بأي من هذا .ففي أحلك اللحظات التي كدت فيها أخسر آخر ذرة من الثقة بنفسي وسط تلاحق الضربات، كانت قدرتي على إنجاز كل هذه الخطوات بنجاح، حبلاً لرفع معنوياتي من حضيض اليأس .ولكنني، وبدل الاستمتاع بنشوة هذه اللحظات من النجاح، والاسترخاء في المرسيدس السوداء التي يقودها رمزي بسرعة كبيرة، كنت غارقاً في متاهة من الاحتمالات والتفكير حول ما سيحصل، وما سيترتب عن كشف الغطاء عن المستور .وكانت الأسئلة التي لم أتمكّن من تخمين إجاباتها تتلاحق في ذهني كالخطوط البيضاءِ التي تظهر أمام المرسيدس السوداءِ في تتابع بدا لانهائياً.

لم أتمكّن حتى الآن من الكشف عن السبب الذي دفع بدوغان إلى طلب مساعدتي، عوضاً عن صلاح الدين، رغم أنّ العلاقة بينهما كانت على خير ما يرام .وقد صرّح أنه كان يكنّ له محبة لا تقل عن تلك التي كان يكنها لأخيه بكير. وفي ظل وجود شخص قوي كزعيم العشيرة الشاب الذي يخلص له الود، وأكثر من ذلك، يستطيع إنقاذه من ملاحقة القَتَلَة، لماذا لم يلجأ إليه، ولجأ إليّ أنا؟ أيعقل أن يكون صلاح الدين أحد الأطراف المتورّطة؟ أي أنه قام بقتل أخيه؟ محال، ذلك أنّه

رغم تعقّد العلاقات العشائرية والنزاعات في مناطق الجنوب الشرقي، ولكن من النادر أن يقوم أخ بقتل أخيه من أجل الوصول إلى زعامة العشيرة، ورغم ذلك لا يمكن الإقرار بيقين مطلق .فقد تغيرت الظروف في العشرين سنة الأخيرة في تركيا، ولا أستبعد أن تتبع حتى عشائر مناطق الأناضول هذا النوع من المكائد التي تضرب جذورها عميقاً في التاريخ وصولاً إلى المكائد الدامية التي كانت تحاك في قصور السلاطين .ولكنه كان احتمالاً ضعيفاً في المجمل، فرغبة الشاب في القبض على قتلة أخيه والانتقام منهم كانت واضحة في عينيه الجريئتين .إذاً فهل هناك من سبب لعدم الوثوق به؟

إن كانت مخاوفي صحيحة، فأعتقد أنني ارتكبت خطأ فادحاً باللجوء إليه. نظرت إلى رمزي الجالس بجانبي خلف المقود، وانتابتني قشعريرة وأنا أتخيّل ما الذي سيكون عليه مصيري لو أنّ صلاح الدين أحد المتورّطين في هذه المكيدة، حينها لن يتوانى هو ورجاله عن التخلّص مني، وربما أوعز لرمزي في غفلة مني، بأخذي إلى ركن مهجور ورمي جثتي في زاوية خفية .ولكن صلاح الدين لم يتركني ولو للحظة واحدة تتيح له فرصة التحدث مع رمزي على انفراد .كما أنّ الرجل يتجه نحو الجريدة في الطريق الذي وصفتها له تماماً .وفيما كانت تتقاذفني الأفكار والمخاوف، لاحظ رمزي أنني أرمقه، فالتفت نحوي، وتقابلت أعيننا، فابتسم.

-أتريد شيئاً سيد عدنان؟

تمالكت نفسي على الفور.

-ألديك سجائر؟ —قلت —لقد فرغت علبتي.

-سجائري نوع الجمل، أتود أن تدخنها؟

-لا فرق.

مدّ يده إلى جيب سترته وأخرج العلبة، ومدها نحوي، فتناولت سيجارة.

-احتفظ بالعلبة، فالوقت متأخر، ولن تجد دكاناً الآن.

-شكراً، سآخذ من أصدقائي في الجريدة.

-ما هذا الكلام، أقسم إن لم تأخذ العلبة، سأزعل منك.

بدا رمزي شخصاً حاز تعليماً مناسباً، وربما بعد انتهاء الثانوية، جاء إلى اسطنبول لإتمام تعليمه الجامعي .ورغم ذلك فهو لم يتخلَ عن عادات العشيرة التي تطبعت في نفسه .وحتى لو حاول ذلك، فلن يكون التغيير سهلاً، لأنَّ العادات التي نكتسبها في طفولتنا، من الصعب أن نتخلى عنها فيما بعد .لذا فهو يواصل التصرف وفق أساليب عشيرته في التعاطي اليومي، ويهوى إظهار الكثير من الكرم أمام الأصدقاء .ولم يكن عليّ في هذه الحال، سوى قبول العلبة التي في يده. أشعلت سيجارة، ووضعت العلبة في جيبي .وفيما كنت أسحب الدخان، أخذت ألوم نفسي على الشكوك التي انتابتني قبل قليل اتجاه رمزي .ورغم زوال الخوف، لكن السؤال ظل يجول في الأفق .لماذا بقي دوغان بعيداً عن هؤلاء الرجال الذين سيبذلون الغالي والرخيص لحمايته وراحته؟ كان أقرب الاحتمالات للمنطق، بعد تقليب الأمر في ذهني، أنه كان مقتنعاً، أنّ من يلاحقونه، قد وضعوا صلاح الدين ورجاله تحت المراقبة، وفي حال التجأ إليهم، سيتمكن القتلة من العثور عليه من دون جهد .ولكنه كان قادراً على الاتصال بالشاب، وإخباره بالحقيقة، أو إرسال شريط الفيديو إليه بأي طريقة، تماماً كما فعل معي.

ربما كان واثقاً بصلاح الدين، ولكن ليس بمن يحيطون به .أو أنه بدل استغلال سلطة صلاح الدين، ارتأى اللجوء إليّ، لكي يُطلع الرأي العام بمجمله على ما كان يخفيه .فلو أنه ذهب مباشرة إلى زعيم العشيرة، وأخبره أنّ يالفاج وغونغور هما من قتلا أخاه، كان سيرديهما قتيلين على الفور، أخذاً بثأر أخيه.

وبموتهما، كان من الصعب أن تظهر الحقائق للعلن، وتنكشف خبايا القضية. فبلجوئه إليّ سيتمكن من إطلاع الجميع على الحقيقة، ومن المحتم أنّ الزعيم الشاب حين يكتشف هوية القَتَلَة، سيطلق رجاله خلف المحققين للنيل منهما.

كانت خطة بارعة، محكمة التفاصيل .ورغم ذلك كانت هناك حلقة مفقودة .فكل هذه الخطة تقوم على فرضية موت دوغان .وهذا ما كان يثير تساؤلي :فهل يمكن للإنسان تقبل موته بكل هذه السهولة؟ وحتى لو رضخ لواقع لا مفر منه، فهل سيقوم بالتخطيط بكل هذا البرود والبراعة، لما بعد موته؟ لو كان الموت أمراً محتوماً لا أمل فيه من النجاة، فما المانع من القيام بمثل هذه الخطة الذكية للانتقام؟ فهو قد أقرّ أمامي أنه ميت لا محالة، ولا سبيل لنجاته من مصيره .ربما لأنني لا أملك الشجاعة التي كان يتحلّى بها، فمن الصعب عليّ الإذعان لفكرة الموت بهذه البساطة .ولكن هؤلاء الأشخاص الذين يجابهون الموت في كل لحظة، يقتلون، ويخيم ملك الموت على حياتهم كظلّ دائم؛ يعتادون عليه، بل وقد يتقبّلون قدومه بصورة منطقية .لقد سمعت كثيراً من هذه الأقاويل، ولكنني سمعت بالمقابل مدى تمسكهم بالحياة، في أحلك اللحظات، بقوة وأمل لا يمكن تخيّلهما .لا جدوى من إنهاك ذهني بهذه الظنون أكثر، فمن الواضح أنّ دوغان قد تقبل فكرة موته كأمر لا مفرّ منه، هذا ما كان عليّ الاقتناع به حالياً، حتى يثبت العكس. فما باليد حيلة.

ركنت هذه الفكرة جانباً، لتظهر أخرى في الأفق، فما الذي سيفعله صلاح الدين مع قَتَلَة أخيه؟ كان هذا السؤال يلحّ عليّ وأنا في الفندق، ورغم ذلك لم أتمكن من طرحه على الشاب .فهل كان سيستجوبهما عن حقيقة تورطهما في قتل أخيه؟ أم أنه كان سيفرغ رصاصات سلاحه في جسديهما، دون أن يكلف نفسه عناء السؤال؟ لا أظنه سيقدم على خطوة كهذه دون التحدث معهما، وبالطبع سينكران في هذه الحال أي علاقة لهما بالجريمة .وفي ظل تناقض ما سيقولانه، مع ما قاله دوغان، أظن أنّ الكفة سترجح لصالح الأخير، حيث بدا

الشاب مقتنعاً بما قاله تماماً .كيف لا، وقد كان كل ما قاله منطقياً، حتى أنه توقع بموته، وتحققت كل توقعاته الواحدة تلو الأخرى .وقد يكون هناك كثير من التفاصيل التي لا علم لي بها، كالنقود التي ذكرها صلاح الدين أمامي سهواً .ولكن لمن تلك النقود؟ أذكر أنه تمّ الحديث منذ سنوات عدة عن اختفاء مبلغ لا يُستهان به من الميزانية المخصصة لمحاربة تنظيم ال PKK. ولم يُعلن أبداً عن الجهة التي أخذت النقود، وأعلن رئيس الحكومة حينها أنها ذهبت إلى عملية ترمي للقضاء على قيادات الكورد المنتفضين، ولكن ظهر أن أحداً لم يكن يعلم عن أي عملية بالتحديد يتحدث الرجل، كما أنها لم تسفر عن أي نتيجة .ألا يمكن أن تكون النقود التي تحدث عنها صلاح الدين هي النقود المختفية ذاتها؟ ورغم أنّ دوغان لم يتحدث عن أي نقود، فهذا لا يعني أنها غير موجودة .ربما كان يؤثر —مثل صلاح الدين —أن تظل بعض الأمور طي الكتمان .الله وحده يعلم حجم الأمور التي يخفونها، ويرغبون أن تظل طي الكتمان.

على أي حال، ما لم يقدم المحققان أدلة قوية تنفي ما قاله دوغان، فمن المرجح أنّ الشاب سيصدق كلام الأخير، وسيتصرف وفقاً له .وهذا يعني قتل المحققين من أجل الحفاظ على مكانته، وإثبات قدرته كزعيم أمام أفراد عشيرته .وإلا فلن يتمكن من الصمود مطولاً أمام متطلبات الزعامة، ومواجهة الناس .ولكن قتل هذين المحققين، لا يشبه ما قام به المئات من الشبان الكورد المظلومين، ولاذوا بالجبال هرباً .لأنه سيثير ضجة كبيرة، وقد لا يتمكن الشاب من تحمل عبءٍ كهذا .لِمَ لا، وعشيرة كايتان من العشائر التي تحظى بدعم وحماية الدولة؟ فلسنوات طويلة قامت بإيواء عناصرها وحمايتهم، وهم يعتبرون أنفسهم امتداداً للشرطة .وفي هذه الحالات، حين تحدث تصفيات دموية داخلية من هذا النوع، فهي ستُجابَه بإدانة أقل، مما لو ارتكب الجريمة شخص عادي .خاصة وأنّ من سيقوم بهذه العملية هو زعيم لعشيرة قوية، فيها المئات من الرجال المسلحين، ولها ممثلون حتى في البرلمان .فمن المؤكد أنهم سيقومون بحل المشكلة بأسرع وقت ممكن، أو التغطية

عليها، وسيحاولون التكتم على الخبر قدر المستطاع .فليفعلوا ذلك، أليس هذا ما أبغيه؟ لا، فأنا لست مع التغطية على أي جريمة، كما أنني لا أريد أن يُقتل أحد، وكل ما أحاول القيام به هو النجاة من هذه المعمعة التي أُجبرت على خوضها.

ولن أنكر أنني بعد اكتشاف حقيقة كل من يالفاج وغونغور، فكرت بطريقة للتخلص منهما، وقد تعمدت إطلاع صلاح الدين على محتويات الشريط، لهذا السبب بالذات، كنوع من التحريض على النيل منهما .ولكنني لم أفعل ذلك بغاية قتلهما، بل لعجزي عن مواجهتهما .فما الذي كان بوسعي فعله، أمام تهديدهما لي، بقتلي وأفراد عائلتي؟ بالتأكيد لن أنتظر قيامهما بذلك من دون محاولة إبعاد خطرهما عنا .كان المرحوم والدي يردّد على الدوام كلام عصمت إينونو رغم أنه لم يكن يحبه مطلقاً» :لا يمكن إصلاح شؤون هذا البلد، ما لم يتحلَّ الشرفاء بالجرأة ذاتها التي يتحلّى بها الأوغاد .«وأعلم أنني لجأت للقسوة بدل من الجرأة، ولكن كيف لي حماية نفسي سوى بهذه الطريقة؟ كما أنني متأكد من أنّ أي شخص لن يتوانى عن التصرف بالطريقة ذاتها، لو تعرّض للموقف ذاته .أياً يكن الأمر من المبكر البتّ في الموضوع، فقد ينجح المحققان في إقناع صلاح الدين ببراءتهما، ويتفق الثلاثة على قتلي .فأنا لا أعلم ملابسات القضية وتفاصيلها، وما يربطهم ببعضهم على وجه الدقة.

-هل نذهب من هذا الطريق سيد عدنان؟ —شتّت صوت رمزي أفكاري.

-أجل، سنتجه يميناً لعبور الجسر وصولاً إلى الجهة المقابلة.

انحرف رمزي عن الأوتوستراد، واتّجه نحو الطريق الفرعي.

-لقد أتيت إلى هنا من قبل —أوضح لي —ولكن لكثرة الجسور في اسطنبول، ولأنها تتماثل في الظلام، فمن الصعب معرفة الطريق الصحيح.

-أتعني أنكم ذهبتم إلى مبنى الصحيفة؟ —سألته لا فضولاً، ولكن لفتح باب الحديث، وتمضية الوقت.

-لا، إلى محطة تلفزيونية .فبعد موت بكير، أخذت المحطة تروج لإشاعات سقيمة، كخطف بكير وأصدقائه لأحد أبناء عائلة بينجي أوغلو، ومطالبتهم بخمسة ملايين دولار كفدية .وقد ذهب الآغا وتحدث مع المسؤولين في المحطة، والذين اعتذروا عن الأمر، ووعدوا بعدم تكرار حدوثه مرة أخرى.

حاولت استغلال فرصة الحديث، والحصول على بعض المعلومات عن دوغان.

-هل كنت تعرف أخي دوغان؟

-وكيف لا أعرفه، فقد كُلفت بمهمة سائق خاص له لفترة من الزمن. كان قليل الكلام مثلك تماماً، إلا أنّ ما يُردّد حوله، كان كافياً لمعرفة أي نوع من الرجال هو.

-وما الذي كان يردّد حوله؟

-لقد سمعت الكثير، ولا أعلم من أين أبدأ في الحقيقة، فهناك الاقتحام الذي قام به إلى مقر اجتماع عقده الأرمن، وملاحقته لهم في أكثر شوارع باريس ازدحاماً، وقيادته للحملة التي نفذها بالتعاون مع رجال عشيرتنا، في أكثر الجبال خطورة، وملاحقة عناصر تنظيم الـ PKK، في الوقت الذي كان عناصر الجيش، وأعتى الوحدات الحكومية تخشى ولوج تلك المناطق، ونجحوا في السيطرة عليها خلال ثلاثة أيام، أم عن اعتدائه بالضرب المبرح على أحد أعتى زعران اسطنبول، في واحد من أشهر بيوت القمار، وأمام الجميع، وهناك الكثير .إن شئت الصدق يا سيد عدنان، فأنا لم أعرف رجلاً بهذه الجسارة والشجاعة من قبل .فهو كان يقتحم عرين الأعداء، ويبدّد شملهم ويلقي القبض على غريمه، ويخرج سالماً من دون حتى

خدش بسيط .ودون أن يجرؤ أحد على مجرد رفع السلاح في وجهه.

-ولكنهم فعلوا ذلك في النهاية.

-فعلوا ذلك غيلة، وأوقعوا به غدراً .وإلا فما من أحد يجرؤ على محاولة قتله، وهو ينظر في عينيه .وكان بكير يردد على الدوام، أنه يتحلى بشجاعة سيدنا علي رضي الله عنه .رغم أنه هو أيضاً لم يكن يقل عنه شجاعة وجرأة.

وقبل أن ينتقل لكيل المديح لزعيم عشيرته، علقت:

-منذ متى وأنت تعرف دوغان؟ —أعدت الحديث إلى النقطة التي أريد.

-ما يقارب ستة أعوام أو سبعة، حين جاء إلى القرية مع بكير والعقيد رفعت .كان الثلاثة أصدقاء مقربين، ويظلون سوية طوال الوقت .أحياناً كان يأتي معهم بعض رجال الجيش وقوات الأمن الخاصة، لكن الثلاثة كانوا لا يفترقون مطلقاً .وقد سافرنا سوية إلى سويسرا في إحدى المرات، مع دوغان وصلاح الدين والآخرين .وكانت معنا زوجة دوغان أيضاً، السيدة دميت.

أجل، لقد حدثتني دميت أيضاً عن هذه الرحلة .إذاً فقد كان يقدمها للآخرين على أنها زوجته، فمن غير المناسب أن يقول إنها عشيقته .رغم أنه كان يستطيع الادّعاء بأنها صديقته، تماماً مثل نهال وبكير .ولا أستبعد أن يكون للعقيد رفعت أيضاً صديقة من هذا النوع .فالثلاثة كانوا أبطالاً، والأبطال لا تخلو حياتهم من وجود عشيقة إلى جوارهم .إلا أنه كان يملك ما يكفي من اللباقة والاحترام اتجاهها، ليدعي أمام الآخرين أنها زوجته، حتى لا يتهامسوا عليها بالسوء .وقد يكون بكير أيضاً عقد قرانه على نهال لدى أحد الشيوخ .وحتى لو لم أرغب في الاعتراف، فقد كان تصرف هؤلاء الرجال مع نسائهم، ينمّ عن خلق رفيع.

–كان المرحوم دوغان يعرف سويسرا حق المعرفة، وكان يتحدث الألمانية

أيضاً، ويتقنها كلغته الأم .وله كثير من المعارف هناك .وقد ذهبنا في إحدى المرات، لزيارة أحد أصدقائه اليهود، وكان بائع ساعات أثرية .ولا يخطر لك بائعو الساعات بمحلاتهم المتواضعة، فقد كان الرجل يملك بناءً من ثلاثة طوابق .وكان يبيع الساعات القديمة والنادرة، ويتاجر بالألماس أيضاً .وفي الطابق العلوي كان لديه مكتب للسمسرة، يتابع من خلاله أعماله، وقد شرحوا لي طبيعة عمله، ولكنه كان من تلك الأعمال المعقدة التي يصعب فهمها .وقد احتفى الرجل بنا حين رآنا واستقبلنا أحسن استقبال، وأهدى للسيدة دميت إحدى الساعات القديمة. وبحسب ما كان يدّعيه اليهودي، فقد كانت هذه الساعة تعود لأميرة، لا أدري من تكون على وجه الدقة، قبل حوالى مئة عام .ولكن الأغرب أنّ اليهودي رفض أن يتقاضى ثمن الساعة رغم إصرار دوغان .فكما تعلم هؤلاء اليهود، قوم بخلاء جداً، ومن المؤكد أنه يكن محبة كبيرة لدوغان، ليكون كريماً معه إلى هذه الدرجة .بل وأكثر من ذلك، فقد دعانا الرجل إلى الغداء أيضاً، ولكنني أنا والآغا صلاح الدين لم نذهب .فما فائدة ذهابنا، ونحن لن نفهم حرفاً مما سيقال.

-هل ذهبتم إلى سويسرا من أجل السياحة؟ —سألته.

-من أجل السياحة، وبسبب مرض ألمّ بالآغا حينها —أوضح رمزي، وبدأ بالضحك.

-ما الذي يضحكك؟

-لا شيء.

-لا يا صاحبي، لا يعقل أن تضحك فجأة بلا سبب .لا بد أنك تخفي عني شيئاً.

-صدقني، لا أخفي عنك أي شيء —قالها، ولكنه لم يتمكن من كبت ضحكاته.

-أنا متأكد أنك تخفي شيئاً ما، ولكني سأعرف الأمر بطريقتي.

-كيف ستعرفه؟

-سأسأل صلاح الدين.

توقف عن الضحك على الفور.

-أرجوك، لا تسأله عن الأمر.

-إذاً أخبرني أنت، ولن أُطلع أحداً عليه.

سكت للحظات، وهو يهزّ رأسه، وأغلب الظن أنه كان يلعن نفسه على ثرثرته التي أوقعت به، وجعلته في موقف لا يُحسد عليه.

-ولكن عليك أن تعدني بألا تطلع أحداً على ما سأخبرك به .لا أدّعي أنّ الموضوع على قدر من الأهمية، ولكن الآغا صلاح الدين لا يحبذ تناقل هذا النوع من الأحاديث.

-لا تقلق، فلن أبوح بكلمة مما ستخبرني به.

-لقد كان الآغا يعاني من مشكلة صحية —سكت للحظة، وحاول التحكّم في نوبة الضحك التي كانت توشك على قطع حديثه، وأردف —لقد كان مرضاً قذراً .فكما تعرف نحن معتادون على أكل الطعام الحار، وقد تسبب الأمر بظهور مشكلة البواسير لدى الآغا .ولا تظن أنها كانت ورماً عادياً، فقد كانت تنتفخ لتصبح كتفاحة لعينة، وتجعل هذا الشاب الذي يبدو شامخاً كجبل، يبكي كالأطفال تماماً من الألم .ولم يكن يعلم بالأمر سوى المقربين منه كثيراً، ولأننا أبناء عم، فقد علمت بالمشكلة .وحين لاحظت أنّ الآلام تزداد مع مرور الوقت، عرضت عليه الذهاب إلى الطبيب، لكنه بدا خائفاً .وقال لي حينها» :إن طريقة

معاينة الطبيب للمشكلة مقززة يا رجل، فعليك أن تتجرد من ثيابك، وأن يفحص مكاناً لا ترغب في اقتراب أحد منه، ونحن لدينا أعداء أكثر من الأصدقاء —وإن سمع أحد بما جرى، فسأتحول إلى أضحوكة .وأنا مستعد لتحمل هذه الأوجاع مئة سنة، على أن أذهب إلى أي طبيب.«

وفي أحد الأيام، عادت اللعينة للانتفاخ، وتصادف الأمر مع زيارة دوغان للقرية .وحين سأله عن المشكلة، أخبره الآغا صلاح الدين بالأمر، لأنه كان يوليه ثقة كبيرة .فاقترح عليه دوغان أن يسافر إلى سويسرا لإجراء الفحوصات الطبية، ولن يعلم أحد بحقيقة شخصيته هناك .وهذا ما دفعنا للسفر حينها إلى سويسرا.

-يا للعجب —علّقت —أيعقل أن يخجل أحدٌ من المرض؟

-معك حق، ولكن تعقيدات زعامة العشيرة، تفرض على المرء أحياناً التزامات أكبر من طاقته، أرجوك ألا تخبر أحداً أنك سمعت القصة مني.

-لا تخشَ شيئاً —حاولت تطمينه —وهل بقيتم في سويسرا لفترة طويلة؟

-قرابة أسبوع، فقبل سفرنا، كان دوغان قد اتصل بالأطباء، وأخذ المواعيد وأنهى بقية الإجراءات، وفي اليوم الثاني لوصولنا، ذهبنا لمراجعة الطبيب، الذي أقر بإجراء عملية جراحية على الفور، ومكثنا في المشفى أربعة أيام، وعدنا بعد خروجه من المشفى إلى تركيا.

-هل كان دوغان معكم طوال الوقت؟

-لا، فبناء على طلب الآغا، لم نعلم السيدة دميت بشأن العملية، وادّعينا أننا مسافران إلى مدينة أخرى لتسيير بعض الأعمال، وغادرنا الفندق بعد أن ودعناهما .وبحجة وداعنا، قام دوغان بإيصالنا إلى المشفى، وهناك عرّفنا إلى طبيب يتحدث التركية، حيث تولى الاهتمام بنا، ولكنه لم يكن يزورنا كثيراً حتى لا تعلم

السيدة دميت بالأمر.

-حقاً إن صلاح الدين هذا رجل غريب الأطوار.

-في الحقيقة إنه كذلك بعض الشيء —علق رمزي.

حينها أدركت أن علاقته بصلاح الدين لم تكن على خير ما يرام، فعندما كان يتحدث عن بكير، لم يكن يستخدم ألقاباً، خلاف صلاح الدين الذي كان يلقبه بالآغا .وقد يكون سر الخلاف غير المعلن بينهما، هو رغبة رمزي في تولي زعامة العشيرة بعد مقتل بكير، فهما أبناء عم، وربما وجد نفسه أحق بالمنصب من صلاح الدين .لذا فقد كان يكنّ له حقداً خفياً.

استغربت في البداية علاقات دوغان المتنوعة في سويسرا، ولكن في ظلّ حقيقة قضائه أعواماً طويلةً هناك، من الطبيعي أن يكون للرجل معارف وأصدقاء. ولكن ما أثار دهشتي حقاً، ليس علاقاته مع مواطنيه الذين يعيشون هناك كلاجئين، أو مع السويسريين أنفسهم، إنما مع هذا اليهودي الذي تحدث عنه رمزي .فما الذي جمعه بهذا المصرفي يا ترى؟ وأذكر أنّ دميت أيضاً حدثتني عنه. والأغرب أنه كان يحب دوغان محبة كبيرة، دفعته لأن يهدي دميت ساعة أثرية، من دون أن يرف له جفن .ألا يفترض أن يكون هناك سبب قوي يدفع الرجل ليقدم هدية مماثلة لصديقة دوغان؟ إن المديح الذي يكيله رمزي لدوغان، ليس مبرراً كافياً لكل هذا الكرم .ولا بد من وجود علاقة عمل تربط بين الاثنين .ولا أظن الأمر يتعلق بتجارة المخدرات أو ما شابه، فرجال الأعمال اليهود أمثال أبراهام، لا يحبذون عادة التورط في هذه الأعمال القذرة .لذا أظنني مضطراً للتحدث مرة أخرى مع صلاح الدين، وربما مع دميت أيضاً، فقد يكون لديها معلومات أو حتى شكوك ترشدني إلى الحقيقة .وعليّ فعل ذلك في أقرب فرصة .ولكن لماذا أحاول إقحام نفسي في الأمر أكثر، فما شأني بعلاقات دوغان في سويسرا أو سواها؟ أم أنه كان مصيباً حين أخبرني أنني لن أستطيع النجاة من حبائل هذه المهنة ما بقيت حياً؟

وفيما كانت التساؤلات تحيلني إلى مراتب الحيرة، كانت المرسيدس قد بلغت اليقين في معرفة طريقها، وهي تنعطف لتدخل الشارع الذي يقع فيه مبنى صحيفة إرول، والمؤلف من عدد لا أعلمه من الطوابق .وبعد حوالى خمسة عشر متراً، رأينا أضواء النيون البيضاء التي تضيء مدخل المبنى .وقد أعلن رمزي في حبور:

-ها قد وصلنا.

وحين رآني أنظر إلى الساعة، استفسر قلقاً:

-أرجو أن أكون قد أوصلتك في الوقت المحدد.

كانت الساعة تقارب الواحدة.

-في الوقت المحدد تماماً —قلت —أشكرك جزيل الشكر.

وقبل أن أغادر السيارة، صافحني مودعاً وهو يقول:

-أرجوك، لا تخبر الآغا عما حدثتك به.

-اطمئن، لن أخبره بكلمة —فارتسمت ابتسامة توحي بالثقة على شفتيه .صافحته بود وغادرت السيارة.

عند باب مبنى الصحيفة، كانت يقف موظفا أمن لم أكن أعرفهما، وأغلب الظن أنهما لا يعرفانني أيضاً .ولكن إن أخبرتهما أنني ذاهب لرؤية إرول فسيسمحان لي بالدخول .كانا متجهّمي السحنة، ولكن الفتاة كانت أكثر تجهماً من الشاب الذي فضلت التوجّه نحوه.

-إرول جريت بانتظاري.

نظر إلى الورقة التي أمامه.

-هل أنت عدنان سوزمن؟ —سألني.

إذاً فقد أخبرهما إرول بمجيئي.

-أجل —قلتها وأنا أناوله بطاقتي الشخصية، فأعطاني بطاقة زائر.

-الطابق الثامن —قال وهو يشير إلى المصعد الذي وراءه ليدلني عليه.

-شكراً، فأنا أعرف الطريق —فرغم أنني لم أعمل هنا، لكنني أتيت لزيارة إرول عشرات المرات.

حين وصلت الطابق الثامن، كان إرول جالساً خلف شاشة الكمبيوتر، يكتب الخبر .ولكنني لم أجد تولغا، الذي قد يكون في مختبر تحميض الصور، يحاول طباعتها لإرفاقها بالخبر.

تهلل وجهه حين رآني.

-وأخيراً —قالها وهو ينهض من كرسيه —لقد بدأت أشعر بالقلق من حدوث مشكلة ما، بعد أن تأخرت كل هذا الوقت.

-وما الذي سيحدث؟

-لا أعلم يا رجل، فالأمر عويص .ولا أحد يعلم متى ستظهر العثرات.

-لا تخشَ يا صديقي، فلن يستطيع أحد فعل شيء —قلتها وأنا أخلع معطفي —هل كتبت الخبر؟

-لقد أنهيته، وكنت بانتظارك من أجل إدخال ما تراه من تعديلات، أحضر كرسياً لتقرأه، وإن شئت سأطبعه لك على الورق.

سحبت كرسياً من خلف الطاولة المجاورة، وجلست وراء الشاشة .ولأن

السنين قد تركت آثارها حتى على نظري، فقد كنت بحاجة لنظارة القراءة التي نسيتها في المنزل، ما اضطرني لأن ألصق أرنبة أنفي بالشاشة، لأتمكن من تفسير الحروف.

-هل شاهدت شريط الفيديو الذي معك؟ —سألته.

-أجل، إنه رائع —علق —إنها المرة الأولى التي يعترف فيها أحد من الداخل .لا أعلم على وجه التحديد إن كنت تكره أخاك أو تحبه، ولكن ما أعلمه تماماً، أنه بهذه الاعترافات قد أسدى خدمة لا تُضاهى للديمقراطية في تركيا.

هذا المديح الذي بدأ ينهال على دوغان؛ أولاً من رمزي، والآن من قبل إرول، أخذ يسبب لي البلبلة .فلو عزوت إعجاب رمزي به، إلى جهله وعدم معرفته بحقائق الأمور، فكيف أبرر موقف صحفي مخضرم مثل إرول؟ وهو المطّلع على تفاصيل حياة دوغان وما قام به من جرائم؟ أم أنني تسرّعت في الحكم على أخي، وبالغت في الشك بنواياه حين حاول اللجوء إليّ؟ فرغم تمسكه بآرائه السياسية القديمة بعناد بغل، لكنه بهذه الاعترافات استطاع كسب اليمين واليسار إلى صفه، وجعل كل الأطراف تتعاطف معه، حين غامر بكل شيء من أجل البوح بالحقيقة.

-إنها اعترافات على قدر كبير من الأهمية يا صديقي —واصل إرول —الشباب في الأسفل يعملون على الشريط لأننا ننوي بثه كما هو، وقد اعتمدت على كتابة نص المادة من خلال مقتطفات لما قاله في الشرط.

-عظيم —قلتها وبدأت بقراءة ما كتبه إرول) —عصابة الإجرام(، كان هذا عنوان المقال الذي كُتب بطريقة حرفية متماسكة، بناء على ما أخبرتهم به، والمقال الذي كتبه عارف البارحة، وعلى ما ورد في الشريط الذي تركته لدى إرول، وعلى الصور والوثائق والبطاقات والأسلحة التي عثرنا عليها في منزله .النقطة الوحيدة التي كنت أنوي الاعتراض عليها، هو ذكره الصريح لدوري في كل ما جرى

من أحداث.

-سلمت يداك، مقال رائع —قلت —ولكنك ستفعل خيراً لو تغفل عن ذكر اسمي في المقال كمصدر لمعلوماتك، يكفي أنك ذيلت المقال باسمينا.

-وما المانع يا رجل؟ فهذا سيساعد من زيادة شهرتك.

-شكراً، ولكنني لا أحلم بالشهرة يا صديقي.

-كما تشاء، سأحذف المقطع الذي أشرت فيه إليك، ولكن توخّ الحذر، فقد أصبحت مشهوراً، شئت ذلك أم أبيت .بعد قليل سيصل نصرت أيضاً، فقد فغر فاه دهشة حين سمع بالخبر .وقال أنه سيقبّل عينيك شاكراً، وأنك من الآن فصاعداً ستعمل في الجريدة.

-وتولغا؟ —سألت إرول.

-لا تقلق، سأحدثه في أمر تولغا ما إن يصل.

-لا تقل سأحدثه —حذرته —فالشاب سيُطرد من عمله بسبب هذا الخبر .وأنت مجبر على تأمين عمل له في الجريدة.

أذعن على الفور.

-حسناً، حسناً .هوّن عليك يا صديقي .سيبدأ بالعمل لدينا اعتباراً من الغد.

سكت للحظات، وهو يرمقني امتناناً، وبريق النشوة يلتمع في عينيه.

-دعك من هذه التفاصيل وانزل إلى الطابق السفلي، ليلتقط لك الشباب صورة .فليس لدينا صورة شخصية لك، من أجل إرفاقها بالمقال.

الفصل السابع والعشرون

حين انتهينا من الخبر وأرسلناه للطباعة، كانت الساعة تناهز الثالثة فجراً، ولأن الأعداد المخصّصة للمناطق البعيدة، قد تمّ إرسالها قبل أن يجهز الخبر، فإنّ سكانها لن يتمكنوا من قراءته، ولكن سكان المدن الرئيسية مثل اسطنبول وأنقرة وإزمير، سيتمكنون من قراءة الخبر في الصباح، وهذا هو ما كنا نعول عليه .فبعد شيوع الخبر، ستتحرك محطات التلفاز أيضاً، وسيتم بثّ اعترافات دوغان لتسمعه تركيا كلها.

في ساعات الصباح الأولى كنا نجلس في مكتب نصرت، نحتسي القهوة، ونطالع العدد الذي خرج منذ وقت قليل من المطبعة .فقد بقينا طوال الليل، ونحن نسابق الوقت ونعمل، ونكابد القلق والخوف، ولكن النتيجة كانت تستحق كل العناء .ورغم التعب البادي علينا، فقد كان الرضا يشع من عيون إرول وتولغا وحتى نصرت الذي انضم إلينا في سباقنا الماراثوني البارحة، وكنا نجلس في راحة من أنهى عمله المضني، وينتظر جني الثمار .ولكنني لم أكن أشعر بالرضا ذاته، بل كنت أسبح في متاهة فراغ بلا قرار يُغرق كل مشاعري .رغم أنّ سهامي قد أصابت قلب الأهداف، وتحقق كل ما كنت أرجوه، فقد تكشف نصرت عن شخص واعٍ، وخلافاً لتوقعاتي، فقد عاملني بمنتهى الاحترام .لأنني وقبل ست سنوات، حين كنّا نعمل في الصحيفة ذاتها، تسببت في عرقلة طموحه من دون قصد مني .فقد كان على رئيس قسم الأخبار اختيار أحدنا لتكليفه بإعداد خبر .وقد كان نصرت أقدم مني في المهنة، بالإضافة إلى أهمية هذا الخبر بالنسبة إلى مسيرته المهنية .ولكنني في

تلك السنوات كنت صحفياً لامعاً، لذا فقد وقع الاختيار عليّ، وامتعض نصرت من الأمر كثيراً .حتى أنه قدّم استقالته في اليوم التالي، وترك العمل في الصحيفة .ولا أنكر أنني شعرت ببعض الذنب، واعتقدت أنّ نصرت يكن لي كرهاً بالغاً، ومن المحال أن يرضى بالعمل معي مهما كانت الأسباب .لكنني أدركت الآن أنني مخطئ في اعتقادي .ففقد أبدى الرجل قدراً كبيراً من الاحترافية المهنية، ولم يستحضر موضوعاً من الماضي ليحوله إلى مشكلة شخصية .في وقت يفيض فيه وسطنا الصحفي بصراعات تافهة من هذا النوع، تحول مسار العمل إلى حلبة لتصفية حسابات شخصية عقيمة.

حين وافقت على عرضه بالعمل معه، علّق بالقول:

-لنا الشرف أن تعمل معنا في الصحيفة.

كما أنه لم يتردد ولو للحظة في توظيف تولغا أيضاً، وقد واصل كيل المديح لي، معبراً عن امتنانه لعملي معهم.

-من الجميل أن يعمل صحفي ذو خبرة وباع طويلين في صحيفتنا، والأجمل من ذلك عودة شخص بارع مثلك إلى العمل مجدداً.

وحقيقة سماع هذه الكلمات بالنسبة إلى شخص طُرد من عمله قبل أيام عدة، مدعاة للبهجة بالفعل .ولا أنكر أنها راقتني كثيراً .ولكن هواجس الأسئلة التي كانت تجول في ذهني، قد غطت بقية مشاعري بغلالة من ضباب القلق .فما الذي سيحصل بعد نشر الخبر؟ وماذا سيكون رد فعل كل من يالفاج وغونغور حين انتشار الاتهامات؟ والأهم أنني لم أعلم أحداً من قوى الأمن حتى الآن .ربما كان الأجدى، هو الذهاب مباشرة إلى القاضي، وتسليم العريضة التي دوّنها دوغان مع بقية الاعترافات والأدلة والأشرطة .أم أنه يجب عليّ الاتصال بمفيد وإطلاعه على المستجدات؟

-إيه .ها قد انتهينا من عملنا، وما لم يذهب كل منا إلى منزله لنيل قسط من النوم، فلن نتمكن من الاستمتاع بالنصر الذي حققناه .هيا فليغادر كل منا إلى منزله.

ومن دون أن يعطينا الفرصة للرد، نهض واتجه نحوي، ومدّ يده ليصافحني بحرارة.

-شكراً جزيلاً يا عدنان، فمنذ عدة شهور لم نتمكن من العثور على خبر بهذا القدر من الأهمية .إن شاء الله سنواصل العمل على أخبار بالمستوى ذاته دائماً.

ورغم أنّ كل ما كان يجول في ذهني لحظتها، هو النجاة من مغبة هذه المخاطرة فقد أجبته:

-إن شاء الله..

وبعد أن كال بعض المديح لتولغا أيضاً من باب المجاملة، غادر المكتب مع إرول.

-لا تبدو على ما يرام —قال تولغا الذي كان يجلس بقربي على الأريكة ذاتها —هناك ما يُشغل ذهنك.

حاولت تصنع ابتسامة.

-لا —أجبت، وأنا أربت بود على ظهره —أنا على خير ما يرام.

في الحقيقة لم أكن بخير مطلقاً، وكنت متوجساً مما سيحمله لي انبلاج ضوء الصباح .وحين طلب منا نصرت أن نغادر إلى منازلنا، تصاعدت مخاوفي وأنا أفكر بأن منزلي لم يكن مكاناً آمناً، أو أنّ هذا ما سيصبح عليه بعد ساعات .فإلى أين أذهب؟ إلى منزل تولغا أم إرول؟ ولكنه كان خياراً سيئاً، فبعد انتشار الخبر،

سيكون منزلهما أول وجهة للقَتَلَة للبحث عني .ولا أريد أن أعرضهما لأي متاعب بسببي .كما أنني لم أقم بتحذير فوندا وأوموت حتى الآن .وحتى لو فعلت فماذا سيتغير؟ لن يغادرا البلد على متن أول طائرة على أي حال .ففوندا مجبرة على الذهاب إلى عملها، وأوموت إلى الجامعة .كما أنّ قتل فرد من العائلة، ليس الأسلوب الذي يعمل عليه هؤلاء الرجال .فهم يعمدون إلى التوجه نحو هدفهم مباشرة، دون تشتيت الجهد والوقت .ورغم أنّ من اتصل بي كان يلمح إلى إيذاء أفراد عائلتي أيضاً، ولكنها كانت مجرد تهديدات لإخافتي .وربما يشعرهم المقال بجدية الموقف، فيكفون عن مضايقتي خوفاً .ولا بد أنّ صلاح الدين أيضاً لديه خططه، والتي أرجو أن تساهم في إبعادهم عني.

-ما الذي تفكر فيه؟ —سألني تولغا.

لا بد وأن تطميناتي لم تقنعه.

-لا شيء .فقط أفكر إن كان كل ما نفعله سيؤدي إلى نتيجة حقيقية.

-أتظن أنّ الأمر لن يسفر عن شيء؟ بالتأكيد سيتم إجراء تحقيق مع كل من ورد ذكره في الاعترافات، بل وسيُلقى القبض عليهم أيضاً.

-أحقاً سيُلقى القبض عليهم؟

تمهل للحظات وهو يحدق إليّ، وبدا من الواضح أنه لم يفكر في هذا الاحتمال .فأجبت بدلاً منه عن سؤالي.

-لا أعلم، ولكنني لن أستغرب إذا لم يقوموا بذلك.

-وما الذي لن تستغرب منه؟ —علّق إرول وهو يدخل.

-كنا نتحدث عن أفراد العصابة —أوضحت —برأيك هل سيتم

اعتقالهم بالفعل؟

-بالطبع سيُعتقلون —أجاب دون تفكير، ولكنه سكت وأخذ يرمقنا في تردد، ومن ثم سألني، وكأنني أملك كل الأجوبة —ألن يتم اعتقالهم؟

-لا أعلم —كررت حيرتي مرة أخرى.

تحولت ملامحه من الحيرة إلى القلق .فأدركت أنني نجحت في إحباط زميلي أيضاً، وقوّضت فرحتهما.

-فليكن —استطاع إرول تمالك نفسه في وقت قياسي —فحتى لو لم يتم إلقاء القبض عليهم، سيدرك الجميع أي نوع من الفاسدين هم .ولن يتمكنوا من الآن فصاعداً، من قتل الناس وفعل ما يشاؤونه دون رقيب أو حسيب —وبدأ يحدق إلى وجهي، وكأنه يطالبني بتأكيد، ولكنه إزاء صمتي الحذر واصل التمسك بتفاؤله وهو يردف —كما أننا قمنا بواجبنا، ولا قدرة لنا على اعتقالهم وزجهم في السجن، فما نحن إلا مجرد صحفيين.

ونظر هذه المرة إلى تولغا طلباً للعون، فأيّد زميله، من دون النزوع مثلي نحو التشاؤم.

-معك حق —علق تولغا وهو يومئ برأسه —كما أنّ هذا البلد ما زال فيه قضاة شجعان، وأفراد شرطة شرفاء —والتفت نحوي قبل أن يكمل —وأنا متيقن من أنهم سيؤدون واجبهم أداءً صحيحاً.

ليتني كنت قادراً على التحلي بالتفاؤل ذاته الذي ينظرون من خلاله إلى العا لم.

-مهما تكن النتائج —عاد إرول ليستلم دفة الحديث —فاليوم هو انتصار تاريخي بالنسبة إلينا، وفي صباح الغد ستتوقف قلوب كثير من الصحفيين

غيظاً وحسداً.

وقف قبالتي وهو يواصل الكلام.

-ما بالك يا صديقي؟ ألا ترى أننا قمنا بعمل رائع؟

أرغمتني بهجته على محاولة مسايرته قدر ما أستطيع.

-بالطبع أرى ذلك —قلت —فقد حققنا نجاحاً باهراً بالفعل.

-إذاً لماذا يقطر وجهك بؤساً؟ اضحك قليلاً يا رجل.

-أنا متعب يا صديقي —أجبت —ولا رغبة لي في الذهاب إلى البيت، في هذا الوقت المتأخر.

نظر إلى ساعته.

-أووو .إنها الثالثة والنصف فجراً .سيحل الصبح بعد قليل، إن شئتم دعونا ننم هنا.

-ما الذي تعنيه؟ —سألت —أهناك غرفة للضيوف في الجريدة؟

بدأ يقهقه ضاحكاً.

-ها هي غرفة الضيوف أمامك —وأشار بيده نحو الأريكة التي كنت جالساً عليها —إننا نطلق عليها اسم قصر نصرت للضيافة.

-أواثق أنه يمكننا النوم هنا؟ أخشى أن ينزعج إن علم.

-ولِمَ ينزعج؟ والأهم أنه لن يعلم بالأمر، لأنك ستكون قد استيقظت قبل موعد مجيئه بكل تأكيد .وحتى لو بقيت نائماً، فما الذي سيحصل؟ أنا متيقن أنه سيشعر بالامتنان لأنك نمت في مكتبه.

-وأنتما أين ستنامان؟ فلا توجد سوى أريكة واحدة هنا.

ازدان وجهه بابتسامة واثقة، وهو يوضح لي:

-لا تشغل بالك، فهناك غرفتان فارغتان ستكونان ملاذاً مناسباً، لبضع ساعات من النوم.

-ولكن —اعترض تولغا الذي كان يتململ في مكانه —أنا سأعود إلى المنزل.

-لماذا يا صاحبي؟ —سأله إرول بنبرة تراوح بين الجد والمزاح —أهناك من ينتظرك في المنزل؟

-في الحقيقة، أجل —أجاب تولغا، وبدا كأن وجهه اصطبغ بحمرة خفية —لقد تركت صديقتي في البيت بمفردها.

-آه .لقد اختلف الأمر الآن —علق إرول —ففي حضرة النساء، ما علينا سوى الوِصال والطاعة .سأطلب لك سيارة أجرة في الحال.

وفيما كان يتجه نحو الهاتف الذي على الطاولة، خاطبت تولغا:

-ما رأيك في البقاء هنا، فبالتأكيد ستكون الفتاة نائمة الآن.

نظر إليّ آمِلاً تفهم موقفه.

-لا أظنها قد نامت، فقد أخبرتها بأنني عائد، ولا بد أنها بانتظار عودتي الآن.

-حسناً كما تشاء، اذهب، ولكن توخّ الحذر.

-سأفعل، شكراً لاهتمامك.

غادر تولغا بعد برهة، واتجه إرول نحو الثلاجة الصغيرة في زاوية مكتب نصرت، بحثاً عن زجاجة شراب احتفالاً بالحدث .أخذ لعابي يسيل تلذّذاً بالطعم المتخيل لكأس من الشراب بعد كل هذا الإرهاق .فانضممت بسرعة لإرول في بحثه .ولكن أحلامي قد خابت إزاء الثلاجة الفارغة ليس من الشراب فحسب، بل حتى من قطرة ماء .فعلى ما يبدو كان الرجل مدركاً أنّ غرفته تتحول إلى مأوى ليلي، لذا فقد كان يترك الثلاجة خاوية .ولا بدّ أنّ النادي قد أقفل أبوابه منذ وقت طويل، ولا أظن أن هناك متاجر في الجوار .لم يكن أمامنا سوى النوم .فانسحب هو إلى الغرفة المجاورة، فيما تمددت على الأريكة، وتغطيت بمعطفي، ولكنني لم أنم بالطبع .فقد كانت الذكريات والتوقعات، الأصوات والصور، القلق والمخاوف، تتناوب على ذهني، وتجعل النوم يجافيني .وبعد وقت لا بأس به من التململ فوق الأريكة، ومحاولات يائسة، نهضت متجهاً نحو النافذة، وبدأت أتفرّج قليلاً .هذا القسم من المدينة، والذي كان فيما مضى مجرد بساتين وحقول، يرتادها الصيادون، قد تحول إلى مناطق مأهولة، تعج بمئات المباني السكنية المتجاورة والطوابق المتراكمة، وأماكن العمل، لكن دون طابع مميز أو حتى لمسة جمال عمرانية، بل مجرد كتل إسمنتية قبيحة لا أكثر .ورغم أنّ الليل قد أخفى معظم ملامحها تحت ردائه السود، لكنه لم يكن قادراً على إخفاء القبح الذي ينضح به المكان.

وفيما كانت نظراتي تتجول على أشكال الأبنية التي تتبدى من خلال أضوائها المشتعلة، كنت أشعر بخيبة من يراقب بريق قطعة زينة زائفة .والأدهى أنني كنت أعلم أنّ ضوء النهار القادم بعد ساعات، سيُظهر هذه البشاعة البشرية بكل تفاصيلها، وكان هذا ما يجعل خيبتي تنتقل إلى مرحلة العجز المطلق .ففي كثير من الأحيان حين أفكر في هذه المدينة، لا تتجسد في مخيلتي سوى مستنقع من الأبنية القبيحة .والأسوأ أنني لم أكن متيقناً، من وجود مخرج من هذا المستنقع المتنامي. وغالباً ما كانت هذه الأفكار تغزو ذهني في لحظات الضيق، لتزيدني بؤساً .وفي المقابل، حين أنظر إلى هذه المدينة، أدرك أنه ما من مكان آخر في العالم يمكنني

العيش فيه .وفيما كنت أراقب الأضواء، أحسست بمرارة مذاق السيجارة، فاتجهت نحو المنفضة لإطفائها، دون أن تكون قد بلغت النصف، وعدت إلى الأريكة ثانية.

لا أذكر متى وكيف غفوت، ولكن يبدو أن سلطان النوم غلبني أخيراً، وقد شاهدتني في الحلم مع زعيم العشيرة الشاب صلاح الدين في غرفة سوداء قاتمة، لم يكن لها باب أو شباك، وكان يرتدي الزي التقليدي .ولم أكن أستغرب شيئاً سوى لون ملابسه البيضاء التي أصابتني بالفزع .فحذاؤه ذو الكعب المدبب، والشروال الواسع، والقميص بلا ياقة، والجاكيت، والشملة التي على رأسه، كلها كانت بيضاء ناصعة .فقط سلاحه المثبت على خصره، بزنار من القطن الأبيض، كان يبدو كبقعة قاتمة وسط كل هذا البياض .وقد اشتد انحناء أنفه الصقري أكثر، وكانت عيناه تومضان بوحشية، وهو يحدق إلى ما حوله .والأغرب من كل ذلك أنه كان يتكلم بتركية لا تشوبها شائبة، وبلهجة أهل اسطنبول.

-أنت مستغرب مما تراه؟ —سألني —على رسلك، فما هذه سوى البداية، فأنا لست صلاح الدين كما تظن، أنا الضابط توغاي.

وفيما هو يتحدث، كان يقترب مني أكثر، وقد خمّنت أنه ينوي الانقضاض عليّ، لكي يفرغ طلقات مسدسه الأسود في رأسي .كنت أفكر في ضرورة الهرب من هذه المكان الشبيه بقبر أسود، ولكنني لم أكن قادراً على فعل ذلك، فقد كنت مسمّراً كالمسحور في الزاوية التي أقف فيها .بينما كان الشاب يقترب مني، وقد ارتسمت ابتسامة قذرة على شفتيه .كنت أراقب حركة يديه، التي توقعتُ أن تحمل السلاح في أي لحظة لتوجهه نحوي، ولكنه بدل ذلك رفع سبابته متوعداً:

-أتذكر هذا الضابط الذي تبحث عنه، ولم تعثر عليه؟ —سألني —هذا الرجل الذي حدثك عنه أخوك، والذي يعمل مع قوى الأمن؛ إنه أنا —ولا بد أنّ حيرتي كانت ظاهرة حتى أردف —لا ترمقني بكل هذه الدهشة، فأنا لم أخدعك

وحدك، بل نجحت في خداع الجميع .وقد كان الأحمق بكير يظنني شقيقه، وكل أفراد عشيرة كايتان، مقتنعون بهذه الفكرة، ولكنني أخبرتك من قبل أنني لا أشبه بكير في شيء .فلو كنا متشابهين لما أقدمت على قتله، ولكنني للأسف لسنا كذلك .والمضحك أنهم اقتنعوا بكلماتي حين أخبرتهم، أنّ هناك شخصاً آخر قد قتله، بل وقد أرسلوني بالذات من أجل العثور على القاتل .إنهم موكب من الحمقى.

وبدأت يطلق القهقهات، حتى دمعت عيناه، ولكنه قطع ضحكاته فجأة، وعادت إليه جديته.

-وأنت من ضمن ذلك الموكب بالطبع —قال.

ولا بد أنه كان راغباً بشدة على ألا أفوت حرفاً مما يقوله، حتى كان يشدد على كل كلمة يقولها:

-وربما تكون أنت زعيم الحمقى في هذا الموكب، لأنك أتيت إليّ بنفسك لتفضح رجالي أمامي .ولا أخفيك أنها كانت خطة مقبولة من أجل الإيقاع بشخص هاوٍ، فبهذه الطريقة سيقوم رجال العشيرة بقتل كل من يالفاج وغونغور، وستنجو أنت من الخطر الذي يتهددك .ولكن معلوماتك ناقصة قليلاً، ويبدو أنّ دوغان لم يطلعك على حقيقة أنّ مثل هذه العمليات، تعلو على الحقائق والقوانين. ولن أخفيك أنّ دوغان أيضاً قد أصابني بخيبة أمل، فرجل محنّك مثله، تنقّل بين فروع الاستخبارات المحلية والأجنبية، وكان يفترض بذهنه، إنجازُ ما هو أكثر دهاء من هذه الخطة .وبدل الاعتماد على شخص لا أمل منه لمساعدة نفسه مثلك، كان يُفترض به الاعتماد على صحفي أكثر ذكاءً وطموحاً .أليس كذلك؟

نظر إلي لبرهة ودون أن يمهلني فرصة للرد، أردف في ثقة كبيرة:

-أعلم أنك توافقني على ما أقول، فكل منا يعرف حقيقة ما هو عليه، تمام المعرفة .هل أنا مخطئ؟ ألست شخصاً ميئوساً منه؟

طالت فترة صمته هذه المرة أكثر، وحين لم يتلقَ جواباً على أسئلته، واصل بحدة وصوت مرتفع:

-أجبني، لماذا أنت صامت؟

ومع ارتفاع صوته، كانت الجدية التي على وجهه تنحو باتجاه الغضب.

-تكلم، ما بك؟ هل بلعت لسانك؟ أليس صحيحاً أنّ زوجتك قد تركتك من أجل رسام من الدرجة الثالثة؟ وأن زملاءك في عملك السابق، كانوا يبتسمون في وجهك، ويرددون خلفك أنّك سكّير مأفون، لا خير يرجى منك؟ وماذا عن ابنك؟ أجل أنا أتحدث عن ابنك، فمن المؤكد أنه لا يشعر بالفخر كونك والداه .لا تقلق، فعمّا قريب سيتخلى هو أيضاً عنك، ما إن يسافر.

ومع مواصلته الحديث، بدأ صوته بالتغيير، لم يصبح أكثر قسوة أو حدة، ولكنه بات يشبه صوتاً مألوفاً، إلا أنني لم أتمكن من استحضار صاحبه.

-هل لك أن تخبرني ما هي الفائدة التي تجنيها منك بلادك أو شعبك؟ — سألني، وقد أصبحت متأكداً من أنّ هذا الصوت لم يكن لصلاح الدين، أو للمقدم توغاي، كما يسمي نفسه .ولكن لمن يعود؟ كان يحدق إليّ منتظراً الإجابة عن سؤاله، حين لاحظت أنّ ملامحه أيضاً بدأت بالتغير .بدأت التجاعيد تظهر على وجهه، وأخذ الشيب يغزو شعره، حتى لون عينيه أصبح أكثر قتامة .وفيما كانت القشعريرة تنتابني خوفاً مما يحصل، بقيت عيناي مثبتتين على وجهه رغماً عني، بانتظار ما سيؤول إليه في نهاية هذه التغيرات .بينما بقي يواصل حديثه دون أن يعبأ بالخوف الذي يسيطر علي.

-فأنت رجل تغمره الأخطاء منذ لحظة ولادته —لم أتوصل لمعرفة صاحب هذا الصوت، ولكن مخاوفي بدأت بالاختفاء، وحلّ مكانها سخط بدأ يعتمل في داخلي، وبدأ يزيد من انفعالي.

–ربما كان من الأفضل، لو لم تولد من الأساس —كان يواصل الحديث، دون أنّ يخمن ما يعتمل في صدري من غيظ، فيما كانت تغيراته الجسدية واضحة للعيان.

–لو لم تولد لما ماتت والدتك.

ما علاقة والدتي بما يجري الآن؟ كنت أفكر، وقد خمّن سيرورة أفكاري.

–ما بك؟ أنسيت أنها ماتت بسببك أنت؟ —ارتسمت ابتسامة لؤم على فمه، وهو يحدق إليّ بإمعان، ليستمتع بأثر الضربة التي خلفتها كلماته في روحي، وحين بقيت صامتاً، واصل:

–إن كنت قد نسيت، فيسعدني أن أذكرك .لقد ماتت والدتك أثناء إنجابك —قال —هل تذكرت؟ لقد كانت جدتك لوالدك هي أول من أخبرك بالأمر، حين أسقطت أصيص زهرة الأزالية التي كانت المسكينة تعتني بها، من الشرفة وحطمته .فقالت لك حينها، فليصلحك الله، ألا يكفي أنّ المسكينة والدتك قد ماتت بسببك؟

من أين له معرفة كل هذا؟

»من أنت؟ ولماذا تخبرني بهذه الأمور؟ «كنت أودّ أن أسأله، ولكنني لم أفعل، وكأن أحدهم سلبني القدرة على الكلام .فقط كنت أشعر بأنّ الغضب الذي بداخلي يزداد، وأنا أسمع اتهاماته القذرة تتوالى على مسامعي.

–لقد ماتت المسكينة والدتك أثناء الولادة بسبب النزيف الحاد الذي أصابها .هل تذكرت الآن ما أتحدث عنه؟

كنت أودّ الصراخ، وأرجوه أن يصمت .كنت أودّ الاحتجاج، ولكنني لم أستطع.

-لقد خسرت المسكينة حياتها، من أجل شخص جبان وفاشل مثلك.

وفيما كان يتحدث، أخذ يقترب مني أكثر، وظلت ملامح وجهه تتغير، وتتبدل .فقد أصبحت قتامة عينيه البنيتين واضحة، وكان الشيب قد غزا معظم شعره، والتجاعيد حفرت خطوطها على بشرته .لقد كانت هذه الملامح تذكرني بشخص ما، وأغلب الظن أنني أعرفه.

-أتفهم ما أقوله؟ —قالها وهو يمدّ يديه نحوي، وقد بدأ صوته بالارتفاع أكثر —لقد ماتت أمك بسببك أنت.

ودون أن يمهلني التفكير فيما سيفعله، أحاط عنقي بمخالبه البارزة، فيما بقيت ساكناً، حتى أنني لم أحرك ولو إصبعاً واحداً للدفاع عن نفسي .وقد زاد هدوئي وصمتي، من غضبه.

-أتسمعني؟ لقد ماتت والدتك بسببك أنت —أخذ يكرر، وقد بدا صوته أقرب إلى العواء، فيما واصلت مخالبه القوية الضغط على حنجرتي، حتى أحسست بعجزي عن التنفس .كانت عيناي اللتان جحظتا رعباً، تنظران إليه في تساؤل مؤلم عن السبب الذي يدفعه لمحاولة قتلي .إلا أنّ ملامحه ظلت تواصل تغيرها، دون أن أخمّن من يشبه، حتى لاحظت لون عينيه البنيتين .ففيما كنت على وشك الاختناق، أخذت تانك العينان البنيتان، اللتان يملؤهما الحقد، تغادران المرايا التي في ذاكرتي، وتمثلان أمام وعيي .وحين تذكرت صاحب هاتين العينين، أخذت كل شعرة، وكل ذرة في بشرته، كل تجعيدة، وكل جزء من وجهه، يأخذ مكانه الطبيعي .لأدرك في النهاية أنّ الرجل الذي يحاول خنقي، لم يكن سواي أنا بالذات .حين أدركت الحقيقة، انتابتني قشعريرة، سرت في كامل جسدي كتيار كهربائي، وأخذت أرتعش بشدة .حاولت استجماع قواي للنجاة بنفسي من نفسي، وإبعاد يدي عن عنقي، لأتمكن من سحب نفس، ولكنني لم أنجح .فقد ظلّ جسدي يسير بي نحو الموت، وحبس الهواء عن نفسه، وكأنه جسد رجل غريب،

معاكساً رغبتي في التمسك بالحياة .وفي الوقت الذي كنت فيه أفرغ آخر نفس في صدري .سمعت صوتاً يناديني.

-عدنان، استيقظ يا عدنان —وشعرت بأن هناك من يهزني .حين فتحت عيني، قابلني وجه إرول بنظراته القلقة.

كنت أنتظر منه القول» :انهض، فلم يكن سوى كابوس وقد انتهى.« ولكنه عوضاً عن ذلك، أوضح لي والقلق ينضح من صوته.

-لقد جاء رجال الشرطة، وهم يرغبون في رؤيتك.

وفيما كنت أجلس على الأريكة، قابلني وجه مفيد الذي احتقن من الغضب .ووراءه كان يقف إرول الذي يرمقني، وقد قطب حاجبيه .وقبل أن أعي ما يحصل، أبعده مفيد وهو يدفعه من كتفه بخشونة.

-اخرجْ —قال له.

-ولكن —حاول إرول الاعتراض.

-لو سمحت، اخرج من الغرفة —قال مفيد —أود التحدث مع عدنان بمفردنا.

وحين لاحظ مفيد أنّ إرول ظل يرمقنا كلينا في حيرة، دون أن يقرر ما يجب عليه فعله، نظر إلى الشابين الذين برفقته، وهو يقول:

-أخرجوه من الغرفة —كان صوته قاسياً وصارماً، تماماً كصوت الرجل الذي رأيته في الحلم قبل لحظات .وكانت المرة الأولى التي أشاهده فيها على هذا القدر من الحزم والقسوة .ولم يكن أمام إرول سوى مغادرة الغرفة مرغماً، برفقة الشابين .فيما ظل مفيد يرمقهم منتظراً بصبر خروجهم من الغرفة.

-ما الذي تنوي فعله بالضبط؟ —أخذ يصرخ بحدّة، فيما بقيت جالساً، أحاول فهم ما يحصل من حولي.

-ما الذي تعنيه؟ —سألته.

-لا تحاول التغابي —كانت نظراته وصوته، وملامحه، وسبابته التي رفعها في وجهي تنضح بالتهديد .وقد شعرت لوهلة أنه سيثب ليأخذ بتلابيبي، ولكنه لم يفعل، بل واصل تقريعه —لِمَ لم تخبرني منذ البداية؟ —واصل الصراخ، وقد ظننت أنه يتحدث عن الخبر الذي نزل في الجريدة.

-كنت أنوي إخبارك —أوضحت —ولكن العمل استغرقنا البارحة مساءً .ولم نتمكن من إنهاء الخبر إلا بصعوبة بالغة، وفي وقت متأخر .صدقني كنت أنوي إخبارك، ولكنني غفوت رغماً عني.

-لا أتحدث عن المقال —قال —بل أتحدث عن زيارتك لصلاح الدين. لماذا ذهبت إليه؟ لماذا لم تأتِ إليّ أولاً؟

حينها شعرت بأنني صحوت، وأخذت أتساءل عن الكيفية التي علم بها بأمر زيارتي صلاح الدين.

-من أخبرك أنني قمت بزيارة صلاح الدين؟ —سألت.

-دعك من الشخص الذي أخبرني، وأجبني عن سؤالي، لماذا ذهبت إليه البارحة؟

من الواضح أنّ أحداثاً جسيمة قد وقعت، ولكنني كبحت رغبتي في السؤال .وبقيت صامتاً، أتصنّع دور الغافل، وأنتظر أن يبوح هو من تلقاء نفسه بما جرى.

-لقد كان يهاتفني منذ أيام، وقد أخبرني أنه صديق لدوغان، وألحّ على رؤيتي .وحين قررت نشر هذا الخبر، أدركت أن لا مفر من اللقاء به.

نظر إليّ شزراً، وكأنه يقول لي أتظنني أحمق، لتصديق ألاعيبك هذه؟

-وهل أدركت ذلك، بعد عثورك على تلك الوثائق في منزل دوغان؟ وبعد معرفتك حقيقة يالفاج وغونغور، وفي منتصف الليل؟ أليس كذلك؟

-ليس للوقت أهمية في عملنا —قلتها في هدوء، وفي نبرة الواثق من نفسه —فنحن نباشر العمل، في أي وقت يصلنا فيه الخبر —استحضرت أقصى ملامح البراءة، وأنا أحدق إلى عينيه وأواصل الحديث —لا أفهم سبب اهتمامك الكبير بزيارتي لصلاح الدين، ما الذي يغضبك إلى هذا الحد؟

كانت كلماتي كفيلة بإخراجه عن طوره.

-أتسأل عن سبب اهتمامي؟ أتسأل حقاً؟

-أجل، ما الأمر؟ —قلتها وأنا أرفع كتفي تعجباً.

-لأن يالفاج وغونغور قد قُتلا —أخذ فكه يرتعش غضباً، واتسعت فتحتا أنفه وهما تزفران كثور هائج .ولكنّ ما تجسد أمام عيني كان مشهداً مغايراً تماماً، مشهد صلاح الدين ورجاله، وقد قطعوا الطريق على سيارة المحققين في أحد الأزقة، وبدأ الرصاص ينهمر من أسلحتهم على الاثنين، حتى تهشمت مقدمة السيارة، وتحول الزجاج إلى شظايا .ودون أن يتمكن أي منهما، حتى من رفع يده، سقطا ضحية كل ذلك الرصاص.

-هل فهمت الآن؟ —شتّت صوت مفيد المشاهد التي ارتسمت في ذهني —فبعد حديثك معه، توجه صلاح الدين مع رجاله للتحدث مع غونغور ويالفاج، وقد تجادلوا في البداية، ثم حلّ الرصاص محل الكلام .وقد قُتل كل من يالفاج

وغونغور وصلاح الدين وأحد رجاله، وأصيب رمزي بجروح بليغة، وقد تم نقله إلى المشفى، وهو الآن في العناية المركّزة، لكن الأطباء ليسوا متفائلين على الإطلاق، وقد أوضحوا أنه ربما لن يتمكن من البقاء حياً حتى المساء.

عاد إلى السكوت، ولكنه لم يرفع نظراته عني ولو للحظة .فيما كانت تعتمل في نفسي مشاعر متناقضة، فحين سمعت بمقتل المحققين، انتابني خوف كبير من اعتباري المسؤول عن ذلك، ثم حلّ مكانه شعور براحة عميقة .فهم لا يملكون أي دليل يخوّلهم اتهامي أو القبض عليّ .والأهم أنني تمكنت في النهاية من النجاة من أعدائي.

-أتدرك الآن ما الذي تسببت فيه؟ —عاد مفيد إلى كيل اتهاماته وهو ينتصب أمامي، وكأنني مجرم —يجدر بي إلقاء القبض عليك في الحال، لأنك قمت بإخفاء أدلة متعلقة بقضية يجري التحقيق فيها، وتواصلت مع المتّهمين.

بالطبع لم يكن من حقه إلقاء القبض عليّ، ولم أكن متأكداً بعد من حقيقة نزاهته.

-أنا لم أتواصل مع أحد —كنت أتكلم بحدة ظاهرة، وقد قررت الطريقة التي يجب علي التصرف وفقها —وكل ما فعلته، أنني قمت بمهمتي كصحفي. ونشرت الوثائق التي يجب أن يطّلع عليها الرأي العام.

-لم يقم سوى بمهمته كصحفي —ردد في سخرية، ومن ثم أرغى مزبداً —دعك من هذه الألاعيب، لستُ طفلاً لتنطلي عليه حججك .فكلانا يعلم تماماً، ما تقصّدت القيام به .كان صلاح الدين يبحث عن هدف، وأنت أرشدته إليه.

زادت اتهاماته الصريحة لي من الضيق الذي كنت أشعر به، ولم أعد قادراً على الحفاظ على هدوئي أكثر، رغم أنني حاولت تمالك نفسي قدر المستطاع.

-لا —قلت —أنا لم أقتل أحداً، ولم أطلب من أي شخص القيام بقتل أحد .وكل ما حدث هو نتيجة لما قاموا به هم أنفسهم.

-ولكن ذلك تمّ بفضلك —قال، وسكت لبرهة، وهو يهز رأسه في حنق بالغ، وبعد أن سحب نفساً عميقاً، نظر إليّ وكأنه ينظر إلى شيء يثير اشمئزازه، وواصل الحديث —لقد مات أربعة أشخاص بسببك، والخامس في صراع يائس مع الموت.

-أنا لا علاقة لي —نهضت من مكاني محتداً، وواصلت وأنا أحدق إلى عينيه —بل بسببكم أنتم —صرخت —أجل كل ذلك بسببكم أنتم، فلو لم تقوموا باستغلال هؤلاء الأشخاص، والاعتماد عليهم، لما حصل شيء من هذا .ولكنكم فعلتم، وهذا يعني أنكم خالفتم القوانين، ولم تقوموا بواجبكم بالشكل الصحيح .فلو منعتم القَتَلَة من التجول بحرية في كل مكان، لما حصل شيء .ولكنكم بدل ذلك قدمتم لهم الأسلحة، وقمتم بتسليطهم على رقاب الناس وحياتهم .والآن تقف أمامي، وتقول لي أنّ ذلك حصل بسببي؟ لا يا صاحبي، فكل ما حصل بسببكم أنتم، وإن كان هناك من مسؤول يجب محاسبته، فهو أنتم.

كان الصراع الذي يحتدم في داخلي منذ أيام قد بدأ بالانفجار كبركان، جعلني أصرخ في وجهه، دون أن أفكر في عاقبة الأمر .لكن الغريب أنّ مفيداً بدا متأثراً بكلامي .وبدا مذعناً لتقريعي، دون إبداء أي اعتراض .وقد زاد الأمر من جرأتي .لذا واصلت الكلام، دون أن أمهله وقتاً للرد —أنا صحفي، ومهنتي تفرض عليّ كشف القذارة أمام العلن .وإن خرقت القانون فالقضاء هو من يتكفّل بمعاقبتي، ولكن لا يحق لك على الإطلاق، الوقوف أمامي الآن، وكيل الاتهامات لي.

وفيما كنت أواصل الحديث، فُتح الباب قليلاً، وأطل أحد الرجال الذين برفقته، برأسه من الباب .لا بد وأنهم قد شاهدوا جدالنا الحاد، من خلال الجدار

الزجاجي، لذا بادروا للاطمئنان على مفيد، والتحقق إن كانت الأمور على ما يُرام. وقد لاحظهم هو أيضاً، وأشار برأسه، طالباً منهم الخروج، واستغل صمتي، ليبادر بالحديث.

-لقد أسأت فهمي —بدا صوته أكثر هدوءاً، واختفت الحدة التي في نظراته —يبدو أنّ كلاًّ منا أساء فهم الآخر، دعنا نجلس ونتحدث في هدوء.

-لا شيء لدي لكي أتحدث عنه —شعرت بثقة ملاكم، كسب جولة بالغة الصعوبة، وأنا أرفض عرضه.

-بل لديك —قالها بنبرة العارف ببواطن الأمور وهو يومئ بهزة من رأسه —دعنا نجلس قليلاً —فاتجه كلانا نحو المقاعد، وفيما كنا نمشي، مدّ يده إلى جيب جاكيته، وأخرج علبة السجائر ليمدها نحوي.

-لا أريد —قلت —ومن غير المسموح التدخين هنا.

-ولكننا سنفعل —قالها وهو لا يزال يمد العلبة نحوي —خُذْ واحدة، أعلم أنك بحاجة إليها —جلسنا متقابلين، وأشعل لي السيجارة، قبل أن يشعل سيجارته، وفيما كنت أسحب الدخان بشراهة إلى أعماق صدري، أدركت أنني كنت بالفعل بحاجة إليها.

-حسناً، أعتذر منك —بدأ مفيد بالتوضيح —ولكن حاول أن تضع نفسك مكاني، ففيما أفتح جريدة الصباح، أجدّ تفاصيل القضية التي أعلمها، تحتل الصفحة الأولى من الجريدة .وكأن هذا لا يكفي، فإذا بي أسمع بعد قليل بمقتل اثنين من أفراد الشرطة يعملان على هذه القضية بالذات، إثر اشتباك مسلّح .فكيف تتوقع مني التصرف بهدوء في موقف مماثل؟ أنت أمانة تركها لي صديقي عارف، ولا نية لي على الإطلاق بالإساءة إليك، لكنك في المقابل لا تبدي أي بادرة لمساعدتي .فلو أنك أحضرت إليّ هذه المعلومات بدل نشرها على صفحات

الجرائد.

-وبرأيك لماذا لم أفعل ذلك؟ -قطعت حديثه -هل فكرتَ في الأمر؟

-بالطبع فكرت -قال -وقد خطرت لي احتمالات كثيرة .ولكني أريدك أنت أن تخبرني، لماذا لم تطلعني على هذه الوثائق؟

-سأكون صريحاً معك، فأنا لا أثق بأي رجل من رجال الأمن .فكيف لي أن أفعل، وقد تبين أنّ المحققين اللذين كانا يحققان في جريمة قتل أخي، هما من قاما بقتله؟

-أنت محق، ولكن من المحال معرفة الناس من وجوههم، وتخمين إن كانوا قَتَلَة أم شرفاء .لقد تمّ توظيفهم، كما الآخرين، لا أكثر ولا أقل .وقد تحرينا عن الأمر، واكتشفنا أنّ مديرهم في العمل هو من أشرف الناس، ولكنه تصرف بقليل من الإهمال، وقام بتعيين كل من يالفاج وغونغور في قسم التحقيق، بشكل روتيني، دون أن يولي الأمر الجهد المطلوب .ورغم ذلك، فقد قمنا بإحالته إلى التحقيق.

-اعذرني على صراحتي، ولكنني لا أصدق هذا الكلام -قلت -فكيف تتوقع مني التصديق، وأنا لا أعرف عنك شيئاً .فرغم أنّ أقرب أصدقائي، قد عرّفني إليك، ولكنك لم تتمكن من حمايته في نهاية المطاف.

تهرّب من مواجهة نظراتي.

-أليس هذا ما حصل؟ -واصلت -أجبني؛ أليس ما أقوله صحيحاً؟

-صحيح، ولكن لا ذنب لي في ما حصل -قالها وقد أحنى رأسه، وسحب نفساً عميقاً من سيجارته، وفيما كان ينفث دخانه، واصل بضيق -لم أتوقع أن تتطور الأحداث بهذه السرعة .ولا أملك سوى أن أقول لك؛ أطلب منك أن تثق بي.

عاد مفيد ليصبح المحقق اللطيف الدمث، الذي عرفني إليه عارف منذ بضعة أيام .ولكن هل يمكن أن أثق به حقاً؟ لا أظن ذلك، ولا رغبة لي في إخفاء هذه الفكرة عنه.

-لست متأكداً من ذلك —قلت —ولو أطلعتك على مكان الوثائق التي أخفاها دوغان، فلا أعرف إن كانت ستنشر اليوم صباحاً في الجريدة أم لا.

-بل كانت ستنشر —قالها بنبرة الواثق من نفسه —لا أجزم أننا كنا سنوافق على نشرها اليوم، ولكنها كانت تظهر للعلن بكل تأكيد.

-أرأيت؟ —علقت على الفور —ها قد اعترفت بنفسك، أنّ الرأي العام، ما كان ليطلع على المعلومات التي اكتشفناها.

-ألم تسمع ما قلته للتو؟ —تساءل —لقد أخبرتك أنّ المعلومات كانت ستنشر ولو بعد حين.

» -بعد حين «التي تعنيها، تشير إلى أنّ الخبر سيفقد زخم التوقيت المناسب، ولن تبقى له أي أهمية إن نُشر فيما بعد .لقد قُتل عارف البارحة، ولا بد لخبر كهذا أن يُنشر اليوم بالذات .وهذا ما قمنا به .كما أنّ هذه كانت رغبة دوغان أيضاً، فقد طلب مني نشر المعلومات والوثائق التي حصلنا عليها بأقصى سرعة ممكنة.

نظر إليّ كمن يستخف بسذاجتي.

-ولكن هذا الأمر قد أضرّ بمجرى التحقيق بشكل بالغ —قال —لكنك لو أتيت إليّ، صدقني كنا سننشر هذه المعلومات عاجلاً أم آجلاً، دون أن يعيق ذلك سير التحقيق.

لم أتيقن إن كان يحاول خداعي بمقولات الشرطة المكرورة هذه أم لا.

-أتعني أنّ التحقيق قد تضرّر الآن؟ —سألته.

-بالطبع تضرّر كثيراً، ولولا ذلك لما رأيتني محتدّاً وغاضباً إلى هذه الدرجة.

-لا أعلم، ظننتك متأثّراً بموت اثنين من زملائك.

-الأمر ليس كما تتصوّر.

-إذاً كيف هو الأمر؟

-أحقاً لم تفهم ما الذي حصل؟

-لا . لم أفهم —أجبت.

رمقني بنظرات متشكّكة قبل أن يتحدّث.

-غريب —قالها بسخرية لم يحاول إخفاءها —كيف لصحفي بارع مثلك، ألاّ يفكر بهذا الاحتمال؟

شعرت حينها بأنني أحمق تتم معاينة ندرة غبائه تحت مجهر ما.

-ما الذي تعنيه؟ —سألته بنفاد صبر.

-السبب واضح، لأن كل الرجال الذين من الممكن أن يرشدونا إلى الحقيقة تمت تصفيتهم .وإن كان دوغان لا يزال حياً، فليس هناك من أحد يمكن أن يزوّدنا بأي معلومات عنه .وإن صدق ادّعاؤه حول وجود شخصية الضابط، فقد قُتل الشخصان اللذان من الممكن أن يكونا مفتاحنا لمعرفة شخصيته؛ وهما يالفاج وغونغور .هلاّ أخبرتني كيف سنتمكن من كشف ملابسات هذه القضية الآن؟

انتابتني الدهشة على حين غرّة، فأنا لم أفكر بهذا الاحتمال على الإطلاق.، ولا بد أنّ الغباء الذي شعرت به، قد ارتسم على وجهي .فيما ظلت

نظرات مفيد مسمّرة عليّ، وهو ينتظر توضيحاً ما.

-لا أعرف —استطعت التكلم بصعوبة.

-وأنا أيضاً لا أعرف —قال —هل أدركت الآن، لماذا كنت مستاءً منك؟

الفصل الثامن والعشرون

أحياناً تتسارع وتيرة حياتنا فجأة، إلا أننا وفي خضم توالي الساعات والأيام، لا نتمكن من ملاحظة هذا التسارع .ولكن حين يصيبنا الدوار من هذه السرعة اللامألوفة وتتضعضع ركائزنا، نحاول حينها فقط إلقاء نظرة على ما حولنا متسائلين عما يحصل، وكيف وصلنا إلى هذا المكان، ونضطر للالتفات إلى الخلف، إلى الماضي، في محاولة تقييم الأحداث منذ بدايتها، وهذا ما حصل لي .فرغم كل الأحداث الصادمة التي عايشتها مؤخراً، بغرابتها ومخاطرها، وما انتابني من انفعالات جراءها، لم أشعر ولو للحظة أنّ الخيوط قد سُحبت من يدي، أو أنّ هذا ما كنت أعتقده .ذلك أنني وفي خضم ملاحقة التفاصيل، غابت عني حقيقة قد تُعد الأهم في كل ما حصل .وحين قال لي مفيد» :هلاّ أخبرتني كيف سنتمكن من كشف ملابسات هذه القضية الآن؟ «حينها فقط اصطدم الخطأ الذي ارتكبته كلطمة بوجهي .وكان عليّ الاعتراف بأنني لم أكن مهتماً مثقال ذرة إن كان دوغان حياً أم لا، أو أنّه سيتم إلقاء القبض على أفراد العصابة، أو حتى أن تنكشف حقيقة الضابط .فكل ما كان يهمني في هذه المعمعة، هو إبعاد الخطر عن نفسي وعائلتي.

ولأكون أكثر صراحة، فلم أشعر بأدنى قدر من الذنب، بسبب مقتل يالفاج وغونغور .بل حزنت لمقتل صلاح الدين ومن معه وإصابة رمزي .وحتى لا يسيء أحد فهمي، فأنا لست من الأشخاص الذين يتلذذون بموت الآخرين، كما أنني لم أقدم على قتل أحد، أو أتسبب في فقدان أحد حياته .أنا لم أقم بقتل المحققين، ولكنني سأكون أكثر صراحة، وأعترف أنني من دفع صلاح الدين إلى

قتلهما، وكنت أعتقد أنني حتى لو امتلكت دوافع جدية للتسبب بموت أحد ما – وفي هذه الحال، أنا متأكد من أنني لو لم أتخلص منهما بهذه الطريقة، لأصبحت الضحية التالية بعد عارف –فمجرد تحوّل الموت من فكر إلى واقع حقيقي، كان سيسبب لي عبئاً جهنمياً من تأنيب الضمير، ولكن هذا ما لم يحصل على الإطلاق .بل على العكس، فقد شعرت بالتخفّف من وزر ثقيل، حتى تلك اللحظة التي واجهني فيها بالحقيقة التالية :هلاّ أخبرتني كيف سنتمكن من كشف ملابسات هذه القضية الآن؟ كنت أعتقد أنّ دوغان قد مات بالفعل، وأنّ من يمثل الخطر الحقيقي هو ذلك المدعو بالضابط، فطالما بقي على قيد الحياة، سأبقى أنا وعائلتي تحت التهديد .وبذا فقد دارت الأحداث دورة عكسية كاملة لتعيدني إلى البارحة مساء، لحظة تلقيت ذلك الاتصال الذي هددني فيه أولئك المجهولون .وكل الخطط والمكائد التي حاولت جاهداً التحصّن خلفها، ذهبت هباء، ويبدو أنّ كل من مات، قد مات دون طائل .وذلك المدعوّ بالضابط، لا بدّ وأنه مستاء مني إلى أقصى الحدود، وهو يملك مجموعة من الأسباب الكافية لذلك .فعدا عن أنني تسببت في قتل اثنين من أحسن رجاله، قمت بالإعلان عن وجوده أمام الرأي العام، حتى ولو لم أتمكن من اكتشاف هويته الحقيقية .وبذا فهو يملك مبرراً أكثر من كافٍ للتخلص مني، في الوقت الذي لا أملك فيه أي فكرة عما يجب عليّ فعله .فذهني الذي كان يعمل بدقة ساعة سويسرية، غرق في فوضى العجز، دون أن يدري إلى أين يجب أن يتجه .فكما قال مفيد، ما من دليل أو شاهد يرشدنا إلى الضابط .وقد نجا مفيد من صدمة توالي الأحداث بهذا الشكل المتسارع، لأنه تمكن من رؤية المصيدة التي وقعنا فيها، قبلي.

–علينا أن نؤمن الحماية لك –كان جالساً قبالتي –فلا نعلم ما الذي تخبئه لنا الأيام القادمة.

نظرت إليه بامتنان، وبدأ الشك يخالجني، لأنني لم أولِه ثقتي منذ البداية.

-لست وحدي، فعائلتي أيضاً ستكون بحاجة للحماية .لقد هددني الرجل الذي اتصل بي، بإلحاق الأذى بابني، وزوجتي السابقة.

-الرجل الذي اتصل بك؟

-اتصل بي رجل البارحة مساء، وطلب مني أن أسلّمه ما لدينا بأسرع وقت ممكن .وأظنه كان يعني الوثائق والأسلحة التي تركها دوغان .وعلى الأرجح أنهم غير مقتنعين بمقتل دوغان .ذلك أنني حين سألته عما يعنيه، قال لي :اسألْ دوغان، وهو سيوضح لك.

عقد حاجبيه، وضاقت عيناه وسط تجاعيد القلق.

-غريب، إذاً فهم لا يصدقون موت دوغان .هل استطعت التعرف إلى صاحب الصوت؟

-لا، فقد كان الصوت غليظ النبرة، ولا بد أنه قد وضع منديلاً على سماعة الهاتف، أو جهازاً خاصاً لتغيير طبقة الصوت.

-إذاً فهو شخص تعرفه بكل تأكيد.

وعلى الفور عقّبت على كلامه.

-من المرجح أنه كان يالفاج أو غونغور.

رمقني لبرهة بنظرات ملغزة، قبل أن يعلّق.

-أو أنه..

سكت وقد توقّع مني إتمام جملته، ولكنني لم أكن أملك أي احتمال في ذهني.

-أو أنه؟ —كررت كلماته متسائلاً بعجز.

-دوغان —قالها بين الشك واليقين، وواصل الشرح —فكر معي قليلاً، فلو قام هؤلاء الرجال بقتله بالفعل، لماذا يصرون على أنه حيٌّ إذاً؟

-ربما من أجل الضغط عليّ أكثر.

-إنهم ليسوا بحاجة لفعل ذلك .فلو كانوا متأكدين من معرفتك مكان الوثائق، لما تجشّموا عناء الاتصال بك وتهديدك، لأنهم كانوا سيخطفونك، ويرغمونك تحت وطأة التعذيب على الاعتراف بمكانها، ومن ثم كان سيتخلّصون منك .وباعتقادي أنّ يالفاج وغونغور لم يكونا مدركين لحقيقة الوضع بصورة تامة، ورغم أنهما كانا يلاحقان دوغان، إلا أنهما لم يتمكنا من العثور عليه، وفي تلك الأثناء فوجئا بحرق سيارة دوغان، والعثور على جثة فيها .لذا فقد قطعا علاقتهما بالضابط، وقررا أنّ مواصلة التحقيق بمفردهما ستكون أفضل .وبرأيي فإن هدفهما كان ينصبّ على فهم ما يحدث من حولهما .وفي تلك الأثناء علما بلقاء دوغان بك، وحين لم تخبرهما بالحقيقة، ارتكبا خطأً فادحاً حين شكّا بك، وظنّا أنك تعمل مع دوغان، وتحاول الإيقاع بهما.

سكت وعاد ليحدّق إلى وجهي بإمعان، ومن ثم أردف:

-في الوقت الذي لم تكن لك أي علاقة بما يجري.

ولكن الاتهام الذي في عينيه كان أوضح من ألاّ أخمن ما يريد قوله.

-بالطبع لا علاقة لي بما يفعله دوغان —قلت —وحتى البارحة مساء، لم تكن لدي أي نيّة بالتورّط في هذه القضية .ولهذا السبب بالذات، لم أطلعك أو أطلعهم على عنوان المنزل والرسالة التي أرسلها لي دوغان .لأنني كنت أدرك جيداً، أنكم ستشكون بي، ولن تصدقوا ما أقوله لكم .أجل لقد كنت خائفاً من أن أتحول

إلى متهم، حين أطلعكم على الرسالة .ولكن حين تلقيت ذلك الاتصال، أدركت أنه ما من مهرب.

-وهذا ما أتحدث عنه —أضاف بانفعال —دعنا نرتب الأحداث مجدداً؛ فدوغان وجد نفسه في مأزق كبير، وذلك نتيجة الخلافات الحادة بين أفراد العصابة، حتى أنهم بدأوا بصفون بعضهم بعضاً .ولم يبقَ سواه تقريباً، لذا بدأ يفكر بطريقة للنجاة، وهنا خطر له الاتصال بك .فحتى لو كان وضعك المهني متردياً، لكنك ما زلت تملك سمعة جيدة في الوسط الصحفي .وهكذا أتى إليك بعد عشرين عاماً، ليخبرك أنه في خطر شديد، وهناك من ينوي قتله، ويطلب منك العون، لكنك رفضت .وقبل انقضاء أربع وعشرين ساعة، يتحقق ما تنبأ به لك، حيث يتم حرق سيارته، وبداخلها جسد أحد ما .والأغرب أنك تتلقى رسالة منه، ليخبرك عن مكان الأدلة والوثائق التي تكشف عن هوية أعدائه الحقيقيين وتدينهم .ولكنك تبقى مصراً على عدم التورّط في كل ما جرى، وهنا بالذات تتلقى ذلك الاتصال، الذي يثبت لك أن لا مفر من الانخراط في الأمر .وحينها تقوم، كقط حوصر في زاوية، بمهاجمة من ظننت أنهم يهددونك.

-لقد خطر لي هذا الاحتمال من قبل —قطعت حديثه —ولكن حين تظهر نتيجة التحليل، ويتم الكشف عن أن من مات في السيارة، لم يكن دوغان، ما الذي سيحصل حينها؟

اختفى ذلك البريق الذي ظهر في عينيه، وبدأ يتململ في مقعده.

-لا أملك بعد الجواب على هذا السؤال .قد تكون خطة منه، لكسب الوقت، والقضاء على أعدائه حتى ظهور النتيجة، وهذا ما حدث بالفعل، فقد تخلّص من يالفاج وغونغور.

-ولكن الضابط ما زال حياً.

-هل أنت واثق؟ —سحب نفساً عميقاً، وهو يسند رأسه بتعب إلى ظهر المقعد، وبقي كلانا صامتاً لبرهة قصيرة —وماذا لو كان هذا الضابط المزعوم غير موجود؟ —ألقى سؤاله المفاجئ أمامي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة ملغزة، وعاد ليرمقني بإمعان من جديد، وكأنه يتوقع مني إجابة عن سؤال أشبه بالفخ، لكنني فضلت البقاء ساكتاً، بانتظار ما في جعبته.

-لو نظرنا إلى الأحداث من هذه الزاوية، فهناك شخص وحيد أتى على ذكر الضابط؛ وهو دوغان .ولا يوجد أحد سواه تحدث عن هذه الشخصية من قبل، ولم يتردد اسمه في أي قضية أخرى .وبحسب ما نشرتموه في الجريدة، فلم يكن هناك أي صورة أو وثيقة تشير إلى حقيقة شخصية هذا الرجل.

كانت كلماته الأخيرة تحمل شكوكاً تبحث عن تأكيد ما.

-أجل —علّقت —فكل الصور والوثائق التي في المنزل، كانت تعود إلى دوغان وبكير والعقيد رفعت ويالفاج وغونغور، ولا أحد سواهم.

-إذاً كما أخبرتك، دوغان هو الشخص الوحيد الذي أتى على ذكر الضابط .ولو تمكنا من إثبات أنّ الأحداث التي وقعت ما هي إلا مؤامرة خطط لها دوغان، فهذا قد يعني أنّ قصة الضابط أيضاً ليست سوى أحد ألاعيبه، أليس كذلك؟

كان محقاً في ما يقول، ولكنني لم أشأ إظهار اقتناعي على الفور.

-أظن أنه من المبكر الحديث عن هذا الأمر —ولاحظت اختفاء الابتسامة التي لاحت على وجهه —فنحن مضطرون لتصديق الرواية التي قالها دوغان، حتى نتأكد من هوية الجثة التي كانت في سيارة الـ (BMW)، لأنّ كل ما تنبأ به، بدأ بالتحقّق الواحد تلو الآخر.

بقي مفيد ساكتاً، لذا سألته دون مواربة، وأنا أحدق إلى وجهه بإمعان، كما فعل هو قبل لحظات وهو يسألني.

-أليس كذلك؟

-هذا ما يبدو عليه الأمر، ولكن لا ضير من أخذ بقية الاحتمالات أيضاً في الاعتبار .وهذا ما يجب على الشرطة الاعتماد عليه في تقييم القضية —سكت لبرهة —ولكنك محق بالطبع، فنحن بحاجة لأدلة ملموسة وقوية، من أجل تحقيق متوازن .وحتى إثبات العكس، سنواصل البحث عن هذا الشخص المدعو بالضابط. وقد يكون دوغان محقاً في ما قاله .وربما يكون قد قُتِل من قِبَل أحد شركائه، كرضا أصلان مثلاً.

حينها تذكرت ما قالته لي دميت عن رضا أصلان هذا» : لم أشعر نحوه سوى بالنفور، إنه من أولئك الذي يبتسمون في وجهك، ولا يتوانون عن ارتكاب أكبر القذارات بحقك، ما إن تدير ظهرك .وقد لاحظت نظراته الداعرة إليّ أكثر من مرة .رغم أنه كان يبدو في منتهى الاحترام والوقار أمام دوغان، ويخاطبني بزوجة أخي.

-بالمناسبة، أهناك أخبار جديدة عن رضا أصلان؟ —سألت مفيداً.

-لقد تحقّقنا من سفره إلى إيطاليا، عبر مطار يشيل كوب، في الليلة ذاتها التي احترقت فيها السيارة.

-إذاً فقد سافر في تلك الليلة؟ —سألت —لا أستبعد أن يكون متورّطاً في قتل دوغان، ولكن ألا يمكنكم الإمساك به عن طريق الإنتربول؟

تكدّر وجهه قليلاً.

-بالطبع يمكن ذلك، ولكن المسألة قد تستغرق وقتاً .ولا أدلة لدينا،

تخولنا القبض عليه .كما أنه من المحال أن يقدم على خطوة كهذه بمفرده .فلو كان هو من قتل دوغان، فلا بد من وجود طرف يقوم بحمايته.

-ما الذي دعاك للتفكير هكذا؟

-لقد اطّلعت على ملف رضا، فهو لم يكن شخصاً ذا مكانة مهمة في تنظيم ال PKK، لذا من المستبعد أن يقْدم شخص مثله على مخاطرة من هذا النوع بمفرده .فهو لا يصلح سوى لتنفيذ الأوامر .ومن المرجح أن هناك شخصاً آخر خطط للجريمة، أو أنه مجرد بيدق في خطة دوغان المحكَمة.

-أتعني أنّ شراكتهم ما زالت قائمة؟

-لِمَ لا؟ فأخوك من النوع الذي يمتلك مهارة عالية في بناء علاقات قوية مع الآخرين، وإخضاعهم لسلطته .فهو يوحي لهم بالأمان، وقوة شخصيته تدفعهم إلى الثقة والإعجاب به .وضعاف الشخصية من أمثال رضا، يخضعون لسحره أكثر من سواهم.

لقد ظل يراوغ ويدور في حديثه، ليعود بنا إلى الفرضية التي تقول إن دوغان ما زال حياً .لذا اخترت مواجهته بالسؤال صراحة.

-دعنا نكن صريحين —قلت —ما رأيك في موضوع مقتل دوغان؟

أعاد رأسه إلى الخلف.

-لماذا تسألني هذا السؤال؟ فقد أطلعتك على كل ما لدي من معلومات.

-لا، لم تفعل .فمنذ قدومك وأنت تخبرني بأشياء تناقض بعضها بعضاً. لذا فأنا راغب بالفعل في معرفة ما تعتقده.

قبل أن يجيبني، تناول علبة السجائر، وأخرج واحدة .ثم شرع يعترف لي.

-برأيي أنّ دوغان حي —قالها، وقد اكتسى وجهه بجدية واضحة —لقد كان من الصعب علي البارحة، التيقّن من هذه النتيجة، ولكن حين طالعت الصحف اليوم صباحاً، وعلمت بمقتل يالفاج وغونغور، بتّ أكثر يقيناً من الأمر.

ظلت السيجارة في يده، دون أن يشعلها.

-إذاً فأنت متأكد؟ —علقت.

-لا، فأنا لا أؤكد لك أنه حي .ولكن التفكير في كل ما حصل، يقودني إلى نتيجة واحدة، مفادها أنّ دوغان ما زال حياً .أما الاحتمالات الأخرى، فلا تقود إلى أي نقطة يمكن الارتكاز عليها.

لقد كانت الاحتمالات التي توجه تفكيره، توجهني أيضاً نحو النتيجة ذاتها، ولكن هل هناك ما يجول في ذهنه ولم يطلعني عليه بعد؟ وفيما كنت أبحث في ذهني عن جواب منطقي، وضع مفيد السيجارة بين شفتيه، وأخذ يبحث عن الولاعة، التي كانت قريبة مني، حيث تناولتها وأشعلت له سيجارته.

-إذاً لماذا أقدم يالفاج وغونغور على قتل عارف؟

أخذ نفساً عميقاً من السيجارة، وحبس الدخان الفضي في صدره لبرهة، قبل أن ينفثه في نفس طويل .وفيما هو يفعل ذلك، كان يرمقني بإمعان، وقد رفع أحد حاجبيه.

-وكيف حكمت بأن من قتل عارف هما يالفاج وغونغور؟ —سألني — فما من أحد رأى من كان يقود سيارة الجيب.

-هل عثرتم على الجيب؟

-أجل -قال، ومن الواضح أنه كان مستاء من النتيجة -لقد تبين أنّ الجيب تعود إلى العقيد السابق رفعت باش أوغلو.

لقد سمعت هذه المعلومة من قبل، ولكن متى؟ بدأت أبحث في خبايا ذاكرتي، حتى وصلت إلى المحادثة التي دارت بيني وبين دوغان، حين أوضح لي أنّ الجيب تعود إلى رفعت، وقد أضاف بأنه كان متعلقاً بها إلى درجة الهوس .لكنني لم أخبر مفيداً بالأمر.

-أين عثرتم على الجيب؟ -سألته.

-قريباً من منزل يالفاج.

ودون أن يمنحني فرصة لأؤكد له وجهة نظري، واصل الكلام.

-صدقني فهذا الأمر لا يثبت أي شيء، بل على العكس قد يؤكد لنا عدم تورّطهما في هذه الجريمة.

وحين لاحظ الدهشة التي علت وجهي، بادر بالشرح.

-فكّر معي قليلاً، فلو قمت بقتل أحدهم بواسطة سيارتك، سيكون أول ما يخطر ببالك، هو التخلص من السيارة التي شاهدها الجميع أثناء الحادث، إلا إن كنت متخلفاً عقلياً؛ وهذا ما لم يكنه يالفاج على الإطلاق .ولن تقوم بركن السيارة التي قتلت بها رجلاً بالقرب من منزلك، أم أنني مخطئ؟

لقد كان محقاً، فما من مجرم يقوم بترك أداة الجريمة قريبة منه، وعلى مرأى من أنظار الشرطة .كما أنّ تولغا أيضاً قد أخبرني بأنهم لم يتمكنوا من رؤية من كان داخل السيارة .والسبب الوحيد الذي دفعني لاتهام يالفاج وشريكه بقتل عارف، هي اتهامات دوغان.

-إذاً من الذي كان يقود الجيب، ما لم يكن يالفاج؟ —تمتمت متسائلاً.

-دوغان هو أول من يخطر لي.

دوغان، دوغان، دوغان .هل يعلم شيئاً ما، لا أعلمه عن دوغان؟

-كيف لك أن تثق لهذه الدرجة من أنّ دوغان لا يزال حياً؟ —سألته بضيق.

أضاءت ابتسامة الواثق بنفسه، وجهه من جديد.

-هل شاركت في سباق الخيل من قبل؟ —سألني.

-ما علاقة هذا بالأمر؟

-بل له علاقة كبيرة .عادة ما يخسر معظم المشاركين في السباق، ولكن مع تكرار الخسارات يكتسبون خاصية مهمة .أنا لا أحدثك عن الخبرة، التي لا أنكر أهميتها، ولكنك لن تتمكن من الفوز في السباق، من خلال الخبرة فقط .بل من نوع من الحدس، والذي يمكّنك من تخمين الحصان الذي سيكسب السباق. والرجل الذي يثق بحدسه يفوز .ليس عليك التفكير بالأمر كثيراً، فلو فعلت ذلك لن تفوز .وهذا الحدس بالذات، يخبرني بأن دوغان لا يزال حياً.

كانت نظرية غريبة، ولكنها لم تتمكن من إقناعي.

-لا أعلم إن كان دوغان حياً، ولكن كلامك لم يقنعني بما فيه الكفاية. ولو صدق ما تقوله، لما كان من داعٍ لإنشاء مختبرات علم الجريمة، ولإجراء تحاليل طبية معقّدة لمعرفة النتيجة، واتباع أساليب علمية للتحقّق من هوية القاتل .ولكن رجال الشرطة من ذوي الخبرة الطويلة، قد قاموا بحل الجرائم اعتماداً على حدسهم.

-تلك المختبرات والتحاليل التي تتحدث عنها، ليست سوى لتأكيد هذا

الحدس الذي ينتابنا إزاء الجرائم .فمهنتنا، مثل كل مهنة أخرى، الإنسان هو من يقوم فيها بالوصول إلى النتيجة النهائية —وبعد سحب نفس آخر من سيجارته، واصل الكلام —ولكنني أريدك أن تتأكد من شيء واحد، وهو أنني لن أتبع حدسي، ما لم تتوفر الأدلة الكافية .لذا فأنا أتحفّظ على ذكر ما أفكر فيه، ولولا إصرارك لما أطلعتك على الأمر.

–ومتى كنت ستفعل إذاً؟

–حين أثبت لك بالأدلة أنّ دوغان حي .أي حين تظهر نتائج تحليل ال (DNA).

وفيما كان يدخن، ويواصل ترتيب أفكاره بصمت، سألته:

–أما من احتمال أن تكون النتيجة خاطئة؟

–بالطبع لا —قالها بثقة كبيرة —فهذه وسيلة آمنة .وهي متبعة في أكثر الدول تقدماً، وتعتبر حاسمة في إثبات هوية الجاني والمجني عليه.

–أتعني إذا ما أكّدت النتيجة بأن دوغان حي، فعلينا الوثوق بها؟

–ولو أكدت أنه ميت فعلينا الوثوق بها أيضاً .فما من سبيل آخر.

–لا أعلم، ولكن أليس هناك من احتمال أن يقوم أحد برشوة الطبيب المسؤول عن التحليل، من أجل تغيير النتيجة لصالحه؟

–لا، هذا محال .فمن يقوم بالعمل على التحليل ليس شخصاً واحداً، بل هناك تقارير كثيرة ولجنة خاصة تشرف على العملية .ولم يواجه الطب الشرعي أي قضية من هذا النوع حتى الآن .لا لا، لا يمكن حدوث أمر مماثل .ولكن لا تقلق، سأقوم بالاهتمام بهذه النقطة بنفسي.

بقينا صامتين لبرهة، وكل منا يفكر في اتجاه ما .فلو صدق ما يقوله مفيد، إذاً سيتغير الوضع كله، وهذا يعني أنه ما من شخص يدعى الضابط، وبالتالي فما من تهديد أو خطر يترصدني أنا وعائلتي.

-هذا يعني أنه لا مبرر لخوفي —قلت.

رمقني باستخفاف واضح، وكأنني أبله لا يستطيع رؤية ما هو أبعد من أنفه.

-لا تغضب مني على صراحتي، ولكنك تبدو لي شخصاً لا يفهم أي شيء مما يدور حوله .فالخطر الذي يترصّدك أصبح الآن مضاعفاً عما قبل.

- لِمَ ذلك؟ فلو صدقت تخميناتك، فهذا يعني أنّ من يقف خلف كل ما جرى هو دوغان، وبالتالي فلا مبرر لديه لقتلي.

-بل سيفعل ذلك من أجل بلبلة الأوضاع —قال —لإيهام الجميع بوجود شخصية الضابط بالفعل .ومن أجل ذلك سيقوم بقتلك أو قتل أحد المقربين منك، وسيترك بعض الأدلة التي تشير إلى شخصية الضابط، وبالتالي سيقتنع الجميع بوجود هذا الشخص، وبالخطر الجاثم على صدورهم .وسيتم نسيان دوغان، ليتم التركيز على هذا الضابط المزعوم.

تبلبل ذهني بهذه الأفكار المتناقضة، ولم أعد قادراً على الإمساك بخيط المنطق .أيعقل أنّ كل ما يحدث، ما هو إلا مكيدة من دوغان؟ وأنّ الحلقة الأخيرة فيها، ستكون بقتلي أو بقتل أحد أفراد عائلتي مثلاً؟ ولكنني لم أستطع أن أتخيل أنّ دوغان حتى في أوج قوته وسطوته، قبل عشرين عاماً، قد فكر ولو للحظة في إلحاق الضرر بي .ففي تلك الأيام التي كان يلقى الكثير من الناس مصرعهم، أو يتعرضون للاعتداء بشكل يومي، ورغم أنني ودوغان لم نكنّ المحبة أحدنا للآخر، وكنا متعاكسين في كل أفكارنا وميولنا، لم تخطر ببالي فكرة قيامه بإيذائي، كما أنه لم

يقم بأي خطوة توحي بنيّة مماثلة على الإطلاق.

لا بد أن صمتي الطويل قد أقلق مفيداً، الذي رمقني متفحصاً.

-هل فهمت الآن ما أعنيه؟ —سألني.

-فهمت، ولكن ما تقوله على درجة كبيرة من التعقيد، بحيث لا يمكن أن يستطيع شخص بمفرده تدبير كل هذا.

-لكن دوغان يستطيع ذلك، صدقني إنه يستطيع —وحين لاحظ حيرتي واصل —على أي حال، دعنا لا نراهن على أمر كهذا، فالحقيقة ستظهر في وقت قريب .المهم الآن هو حمايتك أنت وعائلتك، سواء منه أو من غيره.

-حسناً —قلت.

-إذاً متى ستقوم بتسليم الأدلة والوثائق التي لديك؟

وحين لاحظ تردّدي، مدّ يده إلى جيب معطفه، وهو يقول لي:

-أم أنك تريد أن أريك موافقة القاضي على استلأمي ما بحوزتك؟ — ودون أن يمهلني فرصة الإجابة، أخرج الورقة من جيبه، التي ألقيت عليها نظرة، ومن ثم نهضت نحو معطفي، وأخرجت شريط الفيديو من جيبه، والرسالة التي كتبها دوغان، مع المفاتيح، وسلمتها جميعاً لمفيد.

-عنوان المنزل مدوّن في الرسالة —أوضحت له.

في تلك الأثناء سمعنا ضجة في الخارج، فُتح الباب على إثرها، حيث دخل نصرت، برفقة إرول واثنين من الأمن الخاص بالجريدة، دون أن يعبأوا باعتراضات الشرطيين المرافقين لمفيد .فمن الواضح أنّ نصرت الذي وصل الجريد للتو، وشاهد رجال الأمن في الأسفل، اصطحب معه اثنين من الأمن الخاص بالجريدة، واقتحم

المكان .ولا يمكن لي سوى الاعتراف بشجاعته، على عكس إرول الذي توارى خلف جدران خوفه .وحين شاهدني جالساً قبالة مفيد نتكلم بهدوء بالغ، انتابته حيرة شديدة، ولكنه لم يخفّف من حدته التي توجه بها نحو مفيد وهو يخاطبه.

-ما الذي يحصل هنا؟ —تساءل محتداً، وهو يرمق مفيداً.

-على رسلك يا نصرت —أوضحت —ما من مشكلة، فالجماعة يقومون بأداء مهمتهم لا أكثر.

نظر إلي، فغمزته بعيني، وأنا أومئ برأسي أن لا مشكلة، وقد فهم مرادي على الفور، وغيّر من أسلوبه بسرعة قياسية، ليبدي واجب الترحاب بضيوفه.

-حسناً إذاً —قال —تفضّلوا بالجلوس، ودعونا نقدم لكم شيئاً .أو إن شئتم سندعكم بمفردكم لمواصلة الحديث.

-شكراً لك —قال مفيد —علينا الانصراف، فقد تأخرنا عن تعقب القضية بما فيه الكفاية.

-لا بد وأن شرب فنجان قهوة معنا، لن يضيع من وقتك الكثير —علّق نصرت كفلجم.

لكن مفيداً بدا مصرّاً على المغادرة.

-ربما في وقت آخر —قالها وهو ينهض، ومن ثم التفت نحوي —كنت سأنسى إخبارك، عليك القدوم إلى مديرية الأمن، من أجل أخذ أقوالك .فاسمك واسم تولغا وإرول وارد في المقال .هل رافقكم أحد آخر إلى ذلك المنزل؟

-لا —قلت —نحن الثلاثة فقط.

-حسناً —وأشار بيده نحو أحد الشابين الذين معه —سيقوم كورهان

بمرافقتكم.

-لا داعي لأن تكبد السيد كورهان هذه المشقة —تدخّل نصرت— سأرسل زملائي الثلاثة مع محامي الجريدة إلى المديرية.

ارتسمت على وجه مفيد ابتسامة ملغزة وهو يوضح:

-السيد عدنان وزملاؤه ليسوا مذنبين .وسنأخذ أقوالهم باعتبارهم شهوداً لا أكثر.

-أعلم —علّق نصرت —ولكن الإجراءات المهنية في الجريدة تفرض علينا هذا الأمر .لا يمكن الذهاب من دون مرافقة المحامي.

-كما تشاء .المهم أن نقوم بتسجيل أقوال الشهود —وعاد ليلتفت إليّ من جديد —سيكون من الجيد أن تكونوا في المديرية بعد ساعات .وسأكون قد وصلت إلى مكتبي حتى ذلك الحين .وسنناقش مسألة توفير الحماية لك حين تحضر.

الفصل التاسع والعشرون

لم نتمكن من الذهاب إلى مديرية الأمن، إلا بعد انقضاء الظهيرة، فقد أحدث الخبر الأثر المتوقع، وأخذت محطات التلفاز كلها دون استثناء، تقوم بنشر تفاصيله بتواصل محموم في نشراتها الإخبارية، وانهالت علينا المكالمات الهاتفية، تطلب مني الظهور في النشرات الإخبارية، فطلبت من إرول الظهور بدلاً مني . لم يبدِ سوى اعتراض شكلي، وهو يقول بأنه يجب علينا الظهور معاً، لكنه لم يتكبّد عناء إقناعي، حين لاحظني مصراً .بل بدا ممتناً من الأمر، فهو يعتقد أنّ ظهوره على المحطات، وصفحات الجرائد، سيعني الكثير لمستقبله المهني، ولم يكن مخطئاً بالطبع. أما أنا فقد كنت خائفاً على سلامتي وعائلتي، ولم أكن في وضع يسمح لي بالتبجّح أمام شاشات التلفاز، وإطلاق الأحكام .لكنني وافقت على كتابة مقال سينشر في اليوم التالي، وذلك بناء على رغبة نصرت كفلجم، للتعليق على مقتل كل من يالفاج وغونغور، أوضحت فيه أنّ مقتل المحققين، هو استكمال لسلسلة التصفيات الداخلية التي تقوم بها العصابة .واتجهنا نحو مديرية الأمن برفقة محامي الجريدة، السيد هياتي، وقد دام الاستجواب قرابة الساعتين، وقبل أن ينتهي بقليل جاء مفيد أيضاً. ثم غادر تولغا وإرول برفقة المحامي، فيما بقيت أنا لأناقش مع مفيد إجراءات توفير الحماية لي .واتجهنا سوية نحو المصعد للذهاب إلى مكتب المحقق عزت، والذي كان مدير كل من غونغور ويالفاج.

-هل عثرتم على كل الأدلة والأسلحة التي في المنزل؟ —سألته.

وقبل أن يجيب على سؤالي، حدق إليّ لبرهة، ومن ثم ضغط على زر

الطابق الرابع، وانتظر أن يغلق باب المصعد.

-لا تخشَ شيئاً، فقد عثرنا على كل ما أوردته في المقال، دون أن تختفي أي وثيقة أو صورة أو قطعة سلاح —كان يتكلم بنبرة جليدية —وإن لم تصدق، سأريك كل شيء حين نعود إلى الأسفل.

-ولماذا لا أصدقك؟ لقد أسأت فهمي.

هز رأسه، وهو يضحك بصمت.

-أنت رجل كثير الشكوك —وقد اختفى ذلك البرود من صوته، وعاد إلى نبرته المألوفة، وربت على كتفي بود قبل أن يردف —ولكن لم يعد هناك من مبرر لكي تواصل شكوكك .فقد عثرنا على كل الأدلة، وشاهدنا أشرطة الفيديو. وكما في كل مرة فقد استطاع دوغان تنفيذ عمله ببراعة، آخذاً بالحسبان كل التفاصيل .ولكن لا يمكن التحقق من صحة ما يقوله، حتى ينتهي الفحص الجنائي للأسلحة.

-وهل سيطول الأمر؟

-لا، فخلال يومين على أكثر تقدير، ستصلنا النتيجة.

سكت لبرهة، ومن سألني وكأنه تذكر أمراً مهماً.

-صحيح، أكنت أول من دخل المنزل؟

-أجل، أنا وتولغا دخلنا معاً —أجبت.

-تعني أنه لم يدخل أحد قبلكما المنزل؟

-هذا محال، لأنّ المفاتيح كانت معي.

لا بد وأنه كان يريد التحقق إن كانت هناك وثائق أخرى في المنزل لم نكشف عنها .فكما كنت أشكّ به، كان هو أيضاً محقاً في الشك بي.

-أهناك من مشكلة؟ —سألته.

-لا، مجرد تفصيل صغير —اكتفى بذلك، وبدوري لم أطلب منه مزيداً من التوضيح .وقد وصل بنا المصعد إلى الطابق الرابع.

لم نتبادل الحديث حتى وصلنا مكتب عزت، وهو رجل متوسط الطول، ممتلئ الجسم، ذو شعر فضي، ووجه باسم .ولأن جفونه كانت منتفخة وتغطي عينيه، فقد كان يولد انطباعاً لدى الآخرين بأنه عانى من ليلة أرق طويلة، وهذا الأمر يزيد من مظهره اللطيف .وكان عزت من الأشخاص الذين إن صادفته في الطريق، فمن المحال أن تتوقع أنهم شرطة .وما إن دخلنا الغرفة، حتى نهض واقفاً، وصافحني.

-نشكرك جزيل الشكر على الخدمة التي أديتها لنا —قالها وهو ينظر إليّ بود، وبصوت لا تشوبه أي مجاملة أو تصنع، ما دفعني للوثوق به —فرغم أننا لم نتمكن من إثبات تورّط يالفاج وغونغور، لكننا نعلم أن العصابة متغلغلة في صميم الجهاز الأمني .وأؤكد لك أننا نخوض صراعاً على قدر كبير من الصعوبة، نحتاج فيه إلى دعم الإعلام والرأي العام.

أدركت من كلامه أنّ مفيد لم يطلعه على دوري في مقتل كل من يالفاج وغونغور، ما أشعرني في البداية بالامتنان نحوه، ولكنه من جهة أخرى، أيقظ في نفسي الشكوك اتجاهه مجدداً .فلِمَ يفعل أمراً مماثلاً؟ فأنا لم أكن صديقه، كما أننا لا نخطط سوية لأمر ما .فلماذا يقوم بإخفاء المعلومات عن زميله، بل وربما عن مديره أيضاً من أجل شخص مثلي؟

طلب لنا عزت القهوة، ثم بدأ بالحديث عن مرؤوسيه السابقين.

-كان سجلهما الوظيفي ناصعاً، لا تشوبه شائبة، كما أنها أديا كثيراً من المهام الصعبة بنجاح، أثناء خدمتها في منطقة الأناضول .وحين تمّ تعيينهما في اسطنبول، قمنا بنقلهما إلى شعبة مكافحة الإرهاب .وأذكر أنّ غونغور جاء إلي حينها وقال لي» :أنا ويالفاج نشكل فريقاً ناجحاً في العمل، وأرجو أن توافق على بقائنا في العمل سوياً يا سيدي .«ولم أكن أعلم أنهما يعملان لحساب هذه العصابات، لأنّ سجلاتهما تشير إلى أنهما بطلان .لذا لم أجد أي مانع من عملهما سوية .في النهاية كلنا بشر ونرتكب الأخطاء من وقت لآخر.

وحين أنهى توضيحه، التفت نحو مفيد.

-حسناً، كيف سنرتب مسألة توفير الحماية للسيد عدنان؟

-يجب أن نكلف فريقين بهذه المهمة —أوضح مفيد —فزوجته السابقة وابنه أيضاً، مهددان بالخطر.

-فهمت .سأكلف بعضاً من أكثر الشباب الذين أثق بهم بالمهمة .ما رأيك بالوحدة الأولى؟ فمسموعاتهم جيدة على الدوام.

-وهذا ما كنت أفكر فيه —علق مفيد —ولكنني سأكلف اثنين من شباب المديرية بمرافقة عدنان حالياً، فقد تستغرق إجراءات تكليف الوحدة الأولى، وقتاً حتى الغد.

وقد لفت انتباهي أنه كان يلقب عزت بسيدي، عند مخاطبته .ورغم اعتقادي أنهما في المرتبة ذاتها، لكنني لم أكن أعرف أي شيء حول مفيد، باستثناء ما أخبرني به عارف .وقد أخبرني أنه يعمل مع الاستخبارات، ولكن من هو هذا الرجل، وما هي طبيعة عمله الحقيقي؟ أظنني بحاجة لمعرفة بعض الحقائق عنه.

غادرت مديرية الأمن، وقد رافقني اثنان من الشرطة المدنية، وحين ركبنا

سيارة الرينو البيضاء المخصصة لهما، كان الظلام قد حلّ منذ وقت لا بأس به. كان من يقود السيارة، شاباً نحيلاً، ذا لحية بدت متسخة، أما الآخر ذو المعطف الجلدي، فقد كان يجلس بالقرب منه، وكان المقعد الخلفي من نصيبي مجدداً.

كان كلاهما في الثلاثينات، وكل ما فيهما يشير إلى أنهما مجرد شرطيان عاديان لا أكثر .ولم يبد عليهما الامتنان مطلقاً، لتكليفهما بهذه المهمة .وحين لاحظت التبرم والضيق البادي عليهما، والاحترام الزائف، ندمت لأنني وافقت على فكرة الحماية .والأدهى أنني كنت متأكداً، أنّ هذين الشابين اللذين تبدو عليهما قلة الخبرة واضحة، لن يتمكنا من حمايتي من أشخاص يملكون خبرة واسعة في عالم الإجرام .ولكن الأمر قد تمّ، وتقرر أن يرافقني أحدهما، فيما سيتوجه الثاني إلى منزل فوندا .وفيما تنطلق السيارة نحو منطقة تقسيم، كنت أفكر في الكيفية التي سأحدث بها فوندا .فما زلت مستاءً منها، وأظنها كذلك، ومن المحال أنها لم تسمع بموت عارف، وما حصل بعدها، ورغم ذلك لم تكلف نفسها عناء الاتصال بي، ولو لمرة واحدة .كما لم تطلب من أوموت أيضاً الاتصال .في تلك اللحظة، تذكرت أنّ هاتفي النقال مغلق منذ البارحة .وفي الحال انتابني فرح خفي، وخمّنت أنهما اتصلا بي، ولكن الهاتف كان مغلقاً .وما إن شغّلته، حتى تلقيت خمس رسائل على الفور .وكلها كانت من أوموت.

»أين أنت يا بابا؟ لم نتمكن من العثور عليك، اتصل بنا.«

كانت الساعة حوالى الثامنة، ولا بد أنهما في المنزل الآن، ورغم ذلك لم أملك الجرأة الكافية للاتصال على الهاتف الأرضي .بل ضغطت على رقم هاتف أوموت النقال .وقد ردّ علي بعد الرنة الثانية.

–بابا هل أنت بخير؟ —سألني على الفور، وبدا القلق واضحاً في صوته —أين أنت؟

-سأشرح لك —أجبت —أخبرني أين أنت؟

-أنا في المنزل، ولكن دعك مني الآن، وأخبرني بما يجري .فنحن نبحث عنك منذ البارحة، في عملك القديم، وفي النوادي التي تتردد عليها، ولكننا لم نتمكن من العثور عليك .وقد سمعنا بما جرى للعم عارف .وكنا قلقين جداً عليك.

وفيما كان يواصل الحديث، بدأت أشعر بسعادة خفية تغمرني .وسررت لأنهما كانا يهتمان لأمري، ويخافان علي.

-أنا بخير .وسأخبركما بكل ما جرى .هل والدتك في البيت؟

-أجل.

استجمعت كل الجرأة التي لديّ.

-حسناً، أنا آت إليكما —قلت.

توقف قليلاً قبل أن يسألني.

-إلى المنزل؟

-أهناك من مشكلة؟ —علقت، وقد أثار سؤاله حنقي، خاصة أنني كنت متوتراً من فكرة لقاء فوندا —لو لم أكن مضطراً لما فعلت .فهناك بعض الأمور التي يجب أن أخبركما عنها.

-لا تزعل على الفور —وقد لاحظ استيائي —بالطبع ما من مشكلة، تستطيع القدوم متى شئت.

-سأصل بعد حوالي نصف ساعة.

لِمَ لم ترقه فكرة ذهابي إليهما؟ ربما كان قلقاً لأنني لم أكن على وفاق مع

أمه، أو ربما هي إحدى نوبات غرابة الأطوار التي يمرّ بها بين الحين والآخر .أياً يكن السبب، فقد كان يتوجب عليّ الذهاب إلى ذلك المنزل، والتحدث إليهما .فحماية فوندا وابني، أهم بكثير من كبريائي .لذا هيأت نفسي لكل الاحتمالات، وطلبت من الشرطي التوجه نحو منطقة جيهان غير.

كانت فوندا من فتح لي الباب، وقد ارتسم على وجهها تعبير غريب، يشوبه القلق.

-مرحباً —قلت.

-أهلاً —ردت عليّ، وهي تفسح لي طريق الدخول —تفضّل بالدخول، أهلاً بك —كانت تتصرف بطريقة رسمية، وبارتباك واضح .لكنني لم أستغرب كثيراً، لأنني كنت أتوقع الأسوأ .وفيما كنت أخلع حذائي ومعطفي، توجهت نظراتي إلى الصالون لرؤية أوموت .في تلك اللحظة، شاهدت ما أصابني بالذهول .فذلك الرجل الذي خط الشيب لحيته، ذو الشعر الأجعد الطويل، والجسد الموفور الصحة، قد جلس على الأريكة التي اعتدت الجلوس عليها فيما مضى .حينها أدركت أنه الرسام إتهم .وانتابني الضيق ذاته، الذي ألمّ بي البارحة، حين أتيت وسمعت أصواتهما المشؤومة معاً .وخطر لي العدول عن فكرة الجلوس معهم، بل الاكتفاء بتوضيح الأمر بينما أنا واقف بالباب، والمغادرة بأسرع ما يمكن .حينها التقت نظراتي نظرات فوندا التي لم يكن فيها أي تحدٍ .بل كانت تظهر على زاوية فمها ظلال ابتسامة خجولة .بقيت على فكرة الذهاب، حين وصلني صوت أوموت جذلاً.

-هل وصل أبي؟

كان الصوت يأتي من الصالون، ولا بد أنه يجلس قبالة ذلك المدعو إتهم، لذا لم أتمكن من رؤيته .علقت معطفي على المشجب، وحين التفت كان أوموت يقف قبالتي .ارتمى في حضني فجأة، وكان تصرفاً لم أتوقعه منه على الإطلاق.

وشعرت على الفور بتلاشي الضيق الذي يعتمل في صدري، بل انتابتني رغبة بالبكاء، بالكاد استطعت كبحها .وربت على ظهر ابني بود وأنا أقول:

-حسناً، حسناً يا بني .لا داعي لأن تبالغ —قلت.

ابتعدَ عني قليلاً.

-ما الذي يحصل بابا؟ —سألني —أولاً العم دوغان، ومن ثم العم عارف.

-سأشرح الأمر يا بني —قلت، واتجهت نحو فوندا —الوضع على قدر كبير من الجدية، وما لم يكن الأمر يستدعي التحدث معكما على الفور، لما كنت أزعجتكما بمجيئي —أوضحت لها.

-أنت لا تزعجنا على الإطلاق.

كانت كلماتي كافية، لكي تسبب لها قلقاً كبيراً، بدا واضحاً على ملامحها .وفي تلك الأثناء اقترب إتهم أيضاً.

-مرحباً .أنا إتهم —ومدّ يده مصافحاً.

-مرحباً —قلت —وأنا عدنان.

تصنّعت ابتسامة عابرة، جاراني فيها هو أيضاً .التفتت فوندا نحوه، وهي توضح.

-هناك أمر مهم علينا التحدث فيه، لذا سنجلس في الغرفة الصغيرة لبعض الوقت.

تلاشت ابتسامته على الفور.

-بالطبع —تمتم.

-أعتقد بضرورة بقاء إتهم معنا —قلت —فالأمر قد يعنيه هو أيضاً للأسف.

زاد القلق الذي علا وجهها، فيما كان أوموت وإتهم يرمقانني بحيرة واضحة، ولكنها تمكنت من تمالك نفسها بسرعة وهي تخاطبنا:

-إذاً لا داعي للانتقال إلى الغرفة، فلنجلس كلنا في الصالون.

عندما دخلنا الصالون، خمّنت السبب الذي جعل أوموت يرتبك حين أخبرته بأنني قادم .فعلى الطاولة كانت تصطف أنواع من المقبلات والسلطات، في أناقة واضحة .فيما تنتصب قنينة شراب من النوع الذي تفضله فوندا الطاولة بشموخ.

-اليوم هو عيد ميلاد إتهم —أوضحت فوندا بصوت يشوبه الضيق. فاتجهت نظراتي رغماً عني نحو ابني الذي بدا مرتبكاً، وأدركت أن هذا ما أحجم عن إخباري به .لكنني التفت نحو إتهم.

-عيد ميلاد سعيد.

-شكراً لك —رد علي بالتهذيب ذاته، وبدا من الواضح أنه غير مهتم بالتهنئة وعيد الميلاد، فقد انتقل إليه القلق أيضاً، وبدا متلهفاً لمعرفة ما سأقوله.

وفيما كنت أختار مكاناً للجلوس، أحسست للمرة الأولى بأنني غريب في هذا المنزل.

كان المرحوم والدي يردّد لنا حكاية تتعلق بالموت» :حين يسلم الإنسان روحه، لا يدرك حقيقة ما يجري للوهلة الأولى، ربما بسبب المفاجأة أو لغرابة الموت.

حتى لحظة دفنه، وإهالة التراب على جسده .فحين يبقى وحيداً، يشعر بالملل ويحاول النهوض، لكن جبينه يرتطم باللوح الخشبي، في تلك اللحظة فقط يدرك أنه قد فارق الحياة .«وفي تلك اللحظة أحسست بالأسى الذي يشعر به الميت، وقد ارتطم جبيني بألواح الخسارة .فهذا المكان الذي كان فيما مضى، أكثر بقعة أتجول فيها براحة تامة، والبيت الذي يأويني وأسراري، قد أصبح غريبا بالنسبة إليّ، وأخذ يبعدني عن أحبتي وذكرياتي .والأريكة التي اعتدت الجلوس عليها، بات لها مالك آخر .فيما بقيت واقفاً، لا أعرف أين يتوجب عليّ الجلوس .بقي الجميع واقفين في حيرة واضحة، بانتظار جلوسي، وبالتالي كان علي إنهاء هذه اللحظات الحرجة، واختيار مكان للجلوس .وقعت نظراتي على أريكة كنت لا أحبذها قبلاً، لأنها قوية الإضاءة، بالقرب من أصيص شجيرة الغار .فاخترتها مرغماً لقربها .بينما عاد إتهم للجلوس في مكانه السابق، وجلست فوندا على الأريكة التي بجواره .فيما سحب أوموت كرسياً، وجلس بالقرب مني .ولأنهم كانوا على علم بمجريات الأمر، لم أكابد مشقة في الشرح لهم، فبدأت من اللحظة التي قابلت فيها دوغان، فيما الجميع يستمعون لي بصمت مطبق ظلّ مخيماً عليهم، حتى بعد انتهائي من الحديث، دون أن يبادر أحدهم بسؤالي عن أي شيء.

كان أوموت أول من تخلّص من الدهشة التي غمرتهم.

-لا أظنهم سيقحموننا في الأمر، فلا مبرر لديهم لإلحاق الأذى بالمقربين من الأشخاص الذين يتعقبونهم.

-وما أدراك أنت؟ —تدخلت فوندا —أنهم قَتَلَة، ولا يمكن التنبؤ بما سيقومون به.

-لا يمكن التنبؤ، ولكنهم يملكون أسلوباً واضحاً في العمل —اكتفى أوموت بهذا التوضيح.

-عن أي أسلوب تتحدث أنت؟ —سألته فوندا بحدة —أنهم يقومون بقتل كل من يعترضهم، ويحاولون إلحاق الأذى به.

بدا من الواضح أنها مستاءة من الأمر، فبعد أن تصورت أنها خلفت المشاكل وراءها، وتستطيع بناء حياتها من جديد، دون مشاكل أو مضايقات. تفاجأ بزوجها القديم، يعاود الخروج كعفريت من قمقم الماضي، ليهدم كل ما بنته.

-يا إلهي ما هذه المصيبة التي ألمت بنا؟

-هدئي من روعك يا فوندا —تدخل إتهم.

يا للغرابة، بدا هذا الرسام الذي توقعت أن ترتعد فرائصه حين يسمع بأمر العصابة، والخطر الذي قد يتهدده، أكثر تماسكاً مما تخيّلت .رغم أنني وفي قرارة نفسي، كنت أرجو أن يظهر الضعف أمام فوندا، لكنه خيّب ظنوني.

-فقد يكون أوموت محقاً —حاول أن يقلّل من مخاوفها —وبحسب معلوماتي، لم يقوموا بإيذاء عوائل أي شخص يلاحقونه، وأغلب الظن أنهم حاولوا من خلال هذا التهديد إخافة السيد عدنان والضغط عليه، ليبوح لهم بما يعرفه، أو يتخلى عن متابعة الأمر .صحيح أنهم قَتَلَة، ولكنهم ليسوا مرضى نفسيين، والجرائم التي يقومون بارتكابها، لها مبررات واضحة.

- كيف تقول إنهم ليسوا مرضى يا إتهم؟ —وقد تهدج صوتها —أنسيت ما كان يفعله هؤلاء المجرمون في الماضي؟ وماذا عن الأحداث التي وقعت في الجنوب الشرقي للبلاد؟ لقد كانوا يجدعون أنوف ضحاياهم ويقطعون آذانهم، ويضعونها في جيوبهم بعد ارتكاب جرائمهم.

-ورغم ذلك —كان إتهم يستعد لسرد مزيد من الحجج والذرائع، لكن فوندا قطعت عليه الطريق.

-ما هذه المصيبة التي ألمت بنا —عادت للنواح.

-أعتذر منكم أنتم الثلاثة —قلت —لو كان الأمر بيدي، لما تورطت في القضية على الإطلاق .ولكنني وكما أوضحت لكم؛ رغم كل محاولاتي، وجدت نفسي في خضم الأحداث فجأة.

نظرت إليّ فوندا وهي تمسح دموعها، وظننت للحظة أنها ستصرخ في وجهي وتتهمني، بل وتطردني من المنزل ولكنها لم تفعل.

-لا ذنب لك لتعتذر عنه، فأنا أعلم جيداً، أنك لم تكن راغباً في التورّط في الأمر .إن كان هناك من مذنب؛ فهو هذا البلد .إنّ هذه الأرض ملعونة، ولا أعلم سبب مواصلتنا العيش في هذا البلد حتى الآن .فرغم كل العذابات التي عاشها الناس، ورغم كل الضحايا، لم تتحسن الأمور ولو قليلاً .أنا جادة في ما أقوله، دعونا نترك هذا البلد، ونغادره دون رجعة.

لقد سمعت هذه الكلمات مئات المرات، وتجادلنا حولها كثيراً، لذا بقيت صامتاً، لكن إتهم كان له رأي مغاير.

-أتظنين أنّ الوضع في بقية البلدان يختلف كثيراً عن أوضاعنا؟ —سألها.

-على الأقل ما من أحد يقدم على قتل الناس على هواه، ودون مبرر. كما أنّ الدولة لا تضع يدها في يد القَتَلَة، وتعمل معهم.

-لا يجب أن تكوني واثقة من الأمر إلى هذا الحد يا أمي —تدخل أوموت —فما إن يتعرضوا لمأزق ما، حينها سترين ما سيقدمون على ارتكابه.

-أوموت محق —كرر إتهم العبارة ذاتها للمرة الثانية، ولكن اتفاق الآراء بينه وبين ابني لم يكن يروقني كثيراً —فالحكومات في أميركا وأوروبا أيضاً، لن تتوانى عن خرق القوانين حين تتعرض لأزمة ما، كما أنّ تاريخها حافل بالأحداث الدامية

التي تشهد على ذلك.

كان إتهم محقاً في ما يقوله، ولكن هناك حقيقة مهمة لا يدركها؛ وهي أنّ فوندا كلما ازداد ضيقها وتوترها، ازداد عنادها أكثر.

-لا أظن ذلك —واصلت زوجتي السابقة التشبّث برأيها بعناد بغلة — فالوحشية التي عندنا، لا مثيل لها في أي مكان.

ولو لم أقم بالتدخل، لكانت هذا المناقشة العقيمة ستطول كثيراً.

-دعونا نترك النقاش في هذه المواضيع إلى وقت آخر —قلتها وأنا أنظر إليهم الواحد تلو الآخر، وحين لم يعترض أحد، واصلت الكلام —ستقوم مديرية الأمن بتوفير حماية لنا، كحل مؤقت .على الأقل حتى تتضح ملابسات القضية.

التمع بريق من الرضى في عيني فوندا، ولكنه لم يستمر لوقت طويل.

-وماذا بعد ذلك؟ ما الذي سنفعله حين تغادر الشرطة؟

-لماذا أنتِ متشائمة إلى هذا الحد يا أمي؟ —هتف أوموت —ربما تتمكن الشرطة من حلّ القضية في وقت قصير، وتتمكن من كشف الحقيقة .ألم تسمعي ما قاله أبي؟ لقد تمكنوا من العثور على أدلة في غاية الأهمية.

إما أنّ ابني لم يستوعب ما قلته بدقة، وإما أنّ عنفوان الشباب واتقاده، كانا يمنحانه جرأة في غير محلها، وتجعله يستخف بالأمر.

-سأكون صريحاً معكم —قلت، وقد حرصت على إبداء أقصى جدية ممكنة —لا أعلم ما سيحدث فيما بعد —اتجهت نحو فوندا وأنا أتحدث، حتى لا تشعر بأنني أستخف بمخاوفها —ربما يتحقق ما قاله أوموت، وربما لا .فأنا لا أريد خداعكم، بل يتوجب عليّ أن أوضح لكم الخطر الذي من الممكن أن تواجهوه.

واعتباراً من هذه اللحظة، يتعيّن عليكم توخي الحذر الشديد.

-ولكن؟ —تساءلت فوندا التي كانت يداها ترتعدان من الانفعال— كيف سنتوخّى الحذر، وهم يستطيعون الوصول إلى عنوان المنزل ومكان عملنا؟ ولا يمكن لنا تقلد السلاح والتجول هنا وهناك، رغم أننا حتى لو فعلنا ذلك، فلن تختلف النتيجة.

لقد كانت فوندا أكثر نساء الكون حكمة، وعيبها الوحيد أنها كانت متشائمة أكثر من اللازم، وكانت الاحتمالات السيئة هي أول ما يخطر ببالها.

-بالطبع لن نتقلّد الأسلحة، ولكن لا بأس من أخذ بعض التدابير على سبيل الوقاية، ففكرة السفر إلى الخارج تعتبر مقبولة الآن؛ ولكن لفترة مؤقتة بالطبع. ومن الأفضل أن تسافروا أنتم الثلاثة لأسابيع عدّة، إن كان ذلك ممكناً.

-نسافر إلى الخارج؟ —تساءلت فوندا، وقد اتسعت عيناها دهشة وهي ترمقني، وكأنها لم تكن تولول قبل لحظات مطالبة بالسفر وترك هذا البلد —ولكن إلى أين يمكننا السفر؟ وماذا سأقول لهم في العمل؟ وماذا عن جامعة أوموت؟

كنت سأقول لها إن أخذ إجازة أفضل من الموت قتلاً، لكنني لم أفعل.

-من الأفضل أخذ إجازة قصيرة من العمل والجامعة، في ظل تعرضكم للتهديد بالقتل —قلت.

-لا أعرف —قالت فوندا، وقد زمّت شفتيها، وهذه دلالة على أنها بدأت تفكر في اقتراحي بجدية.

-في الحقيقة إنها فكرة جيدة —علق إتهم —حاولي تنظيم أمورك في العمل، وأنا لا مشكلة لدي .لديّ كثير من الأصدقاء المقربين في فرنسا .ونستطيع الذهاب إليهم.

-ها قد اخترتم وجهة للسفر -تدخلت -ألا يمكنكِ أخذ إجازة من العمل؟

-لا أعرف .فصحيح أنّ العمل راكد هذه الفترة بسبب الأزمة المالية ولكن ..ولكن ماذا عن جامعة أوموت؟

-برأيي أنكم تهولون الأمر كثيراً -علق أوموت -سافروا أنتم إن أردتم، لكنني سأبقى هنا.

-اسمعني يا بني -قلتها وأنا أحدق إلى عينيه مباشرة -لقد تمّ قتل خمسة أشخاص خلال أسبوع واحد جراء هذه الأحداث، كما قتل قبل ذلك ثلاثة أشخاص آخرين .أي أنّ الأمر على قدر كبير من الخطورة .وأمك محقة، فلا يمكن التنبؤ بما قد يفعله هؤلاء القَتَلَة .وأسلم الطرق، هو السفر إلى الخارج لفترة وجيزة. والسيد إتهم لديه خيار مقبول، سافروا جميعاً إلى فرنسا، لحين جلاء الحقيقة، واستقرار الأوضاع.

تمهّل للحظات، وهو يرمقني بحدة قبل أن يعترض.

-لا أستطيع السفر بهذه الطريقة، فما الذي سأقوله لبورجو؟

كان يتحدث عن حبيبته.

-ستخبرها بأنك مضطر للسفر إلى فرنسا من أجل سلامتك وسلامتها.

لكنه لم يفهم ما أعنيه.

-وما علاقتها بالأمر؟

-لأنها قد تتلقى رصاصة في مؤخرتها الجميلة، بينما تتجوّل معك.

اكفهرّ وجهه وأخذ يحدجني بضيق.

-لا تقل ذلك حباً بالله —تدخلت فوندا مذعورة —لن يُصاب أحد بأي أذى، لأننا لن نسمح بذلك.

-في هذه الحال عليكم بالسفر، فلا يوجد حل آخر.

-برأيي أنّ السيد عدنان محق في ما يقوله —قال الرسام —فلن تتم إقالتك من العمل إن تقدّمتِ بطلب إجازة .فهم جميعاً أصدقائي، وحين أشرح لهم خطورة الوضع، سيتفهمون الأمر بكل تأكيد .بل وسيقومون بتشجيعك على السفر.

بدأت فوندا تلين، وتتقبّل الفكرة، لذا قمت باستغلال الفرصة.

-حتى لو قاموا بطردك من العمل، وفُصِل أوموت من الجامعة، عليكم أن تسافروا .فلا يمكنكم المغامرة بالبقاء في ظل هذه الظروف.

بدا أوموت مستاءً جداً، لكنه لم يكن قادراً على الاعتراض إزاء الحجج المنطقية التي قدمتها لهم .أما فوندا فكان من الواضح أنها متردّدة، وغير قادرة على اتخاذ قرار ما.

-سأقوم الليلة بالاتصال بأصدقائي في باريس، وسيسرون جداً لرؤيتنا. فمحمد هو صديقي من أيام الجامعة .وقد سافر إلى باريس منذ سنين حين تزوج بفتاة فرنسية .وهو يدعوني على الدوام لزيارته هناك —والتفت نحو أوموت وهو يغمزه، وكأنه صديق حميم لابني —ولديهم ابنة شابة في عمرك تقريبا، اسمها أوفيليا، وهي على قدر كبير من الجمال، كما أنها لطيفة جداً، وستوافق بكل سرور على اصطحابك معها في جولة في أرجاء باريس .وأنا متأكد من أنكما ستصبحان صديقين.

رغم أنه سمج، وثقيل الظل، لكنني لن أنكر أنه كان يبذل كل جهده

لإقناعهما بفكرة السفر .إلا أنّ فوندا التي أعرف، لا يمكن أن تتخذ قراراً بهذه السهولة.

-حسناً، دعوني أفكر في الأمر قليلاً —قالت —سأناقش الأمر مع أوموت بمفردنا، وغداً سأبلغكم بما قررت.

واتجهت نحوي.

-وماذا عنك؟ ما الذي ستفعله بعد أن أثرت غضبهم وحنقهم إلى هذه الدرجة؟

لم أعرف على وجه التحديد إن كانت تسألني مجاملة، أم أنها قلقة عليّ بالفعل .لكنني حين نظرت إليها، أدركت حقيقة الخوف المرتسم على وجهها وهي ترمقني .كما لاحظت أنّ وجه إتهم تكدّر حين سألتني فوندا هذا السؤال، أو أنّ هذا ما بدا لي.

-أنا مجبر على البقاء هنا —قلت —فأنا أحد أطراف القضية .وسفري في وقت كهذا، قد يفسّر في غير صالحي.

-محال —هتف أوموت —إن لم تسافر معنا، فلن أسافر أنا أيضاً. فلتسافر أمي، لكنني سأبقى معك لأنك قد تكون بحاجتي.

نظرت إلى ابني بفخر.

-فليباركك الله يا بني —قلت —أعلم أنك خائف عليّ، ولكن الأمر أكبر مني ومنك .وبقاؤك هنا قد يسبب لي الضرر أكثر من الفائدة .صدقني يا بني، إنّ أفضل ما يمكنك فعله من أجلي، هو السفر مع والدتك ومع السيد إتهم في أقرب وقت ممكن.

-إن شئت تستطيع السفر معنا —قال إتهم.

بالطبع سأرافقكم، حتى أسهر على صوتك وأنت تمارس الحب مع زوجتي! كنت أعلم أنه لم يكن يعني شيئاً من هذا القبيل، وقد طرح الفكرة بحسن نية لا أكثر، لكن نواياه الحسنة، وطيبته الزائدة، كانت تزيدني نفوراً منه.

-شكراً لك —قلتها محاولاً إخفاء مشاعري —يكفيني أن تسافر معك فوندا وأوموت.

الفصل الثلاثون

»الحياة ليست سوى رحلة لتعلم الخسارة «كان المرحوم توفان يبدأ تداعياته الفلسفية عادة بهذه الجملة، بعد أن تكون الكأس الثانية من الشراب، قد فتحت مسارات الحكمة في ذهنه، وقادها نحو الفلسفة التي كان يلج عتباتها بنشوة بالغة، وهو يمسح فمه بظاهر كفه، ليواصل البوح» :تبدأ رحلتنا نحو الخسران في اللحظة التي نخرج فيها من رحم أمنا .فذلك العالم الدافئ الآمن، الذي نحصل فيه على كل ما نشاء دون بذل أي مجهود، والذي تعود ملكيته إلينا بالكامل، تشكل مغادرتنا له أولى الخسارات .ليبدأ العالم بمهاجمتنا، منذ اللحظة الأولى، بأضوائه التي تخترق عيوننا، وضجيجه الذي يصم آذاننا، بالحر والبرد، بالجوع والقذارة والمرض، وكأنه يعاقبنا لأننا تخطينا عتبته .ولكننا لسنا مخلوقات تستسلم بسهولة، فعلى الفور نقوم بتعويض ما خسرناه، بأشياء أخرى .وحتى لو خسرنا جنتنا الأولى، فما زالت الربة المقدسة لهذه الجنة، وهي الأم، تعيش معنا، والأجمل أنّ هناك الأب الذي يرافقها، من أجل رعايتنا .وحين نعتاد على الحياة في الخارج، ننسى تلك الجنة الوادعة التي كنا نعيش في كنفها .ولكن ومع تقدم السنين يبدأ والدانا بالابتعاد عنا، وندرك أننا نتقاسمهما مع بقية أشقائنا .ليبدأ الاهتمام الذي كنا نتلقاه بالتناقص مع كل يوم جديد .وهو أولى الإشارات التي توحي بأن العالم ليس ملكاً لنا وحدنا .ولكننا نتجاهل هذا التحذير، ونستمر في تعويض خسائرنا بأشياء جديدة، نحلم وتراودنا الآمال، ونظل على الاعتقاد الأخرق بأنّ هذا الكون هو ملك لنا وحدنا، ونواصل الانخداع بهذه الكذبة الجميلة .فنبدأ بعقد الصداقات التي تعوضنا عن ضعف الرابط الأسري، ونظن أنّ صداقتنا ستستمر إلى الأبد .ونتمنى

أن نواصل الحياة حتى آخر، في الحي ذاته، المدرسة ذاتها، ومع الأصدقاء ذاتهم، بل ونقطع الوعود على أنفسنا بأبدية علاقتنا، ولكن مرور السنين، يسلبنا هؤلاء أيضاً الواحد تلو الآخر.

إلا أنّ الأمل الذي تضج به صدورنا، أكبر من كل الظلم الذي يغمر عالمنا .فمع قدوم المراهقة، يطرق قلوبنا زائر جديد اكتسى وجهه بحمرة الخجل، لفجوره وطهره، روعته، عظمته، والخوف الذي يرافقه؛ إنه الحب .لتتعلق قلوبنا وعقولنا بشخص واحد، نجعله محور عالمنا، حيث تدور حوله جميع مسراتنا وآمالنا، أفكارنا ومشاعرنا .ونرى أنفسنا فقط من خلال نظراته، ونحن نظن أننا وجدنا من يماثلنا أخيراً .ونبني أكثر الأحلام جمالاً، وغباء، واستحالة .ونظن أننا بلغنا منتهى السعادة، وقد يحالفنا الحظ لفترة، في استمرار هذا الحلم الجميل، ولكنه كما كل الأحلام، لا بد وأن ينتهي .فقبل مرور وقت طويل، يقوم العالم بتعقيداته، والوسط الاجتماعي الذي نحياه، بالمرور فوق أحلامنا، وتحطيمها كما تفعل شاحنة ضخمة، حين تدهس لعبة طفل صغير، ولا تترك لنا سوى الحطام .وبذا نكون قد تلقينا صفعة جديدة من الحياة، حين تأخذ الحب الأول من حياتنا، نحو مجهول لا قدرة لنا على سبر دروبه .ولا يسعنا إزاء هذه الطعنة المؤلمة، سوى الاحتفاظ بذكرى ذلك الحب، في أعمق ثنايا روحنا، كجرح مقدس.

وخسارة الحب الأول ليست سوى تحذير آخر من الحياة، لتنبئنا بأن العمر يمضي والسنوات تتوالى، ولكننا كما في كل مرة نتجاهل، ونصم آذاننا .ومن جديد نقع في الحب، أو أنّ هذا ما نعتقده، ونتوهم أننا محبوبون بالمقابل، وتتطور علاقتنا، لتصل إلى النتيجة التي لا مفر منها؛ الزواج .فحين نتشارك الحياة مع شخص آخر، نظن أنّ أقدارنا قد توحدت مع أقداره، وأننا سننجو من الخسائر، وفي هذه الأثناء ننجب الأطفال، ونميل للاعتقاد بأن الحياة أخذ وعطاء في الوقت ذاته، وبذا نواصل خداع أنفسنا بهذه الحسابات، بمكر تجاري .لكن الحقيقة مغايرة تماماً، لأنّ الصحة، وعنفوان الشباب، ورغباته التي لا ترتوي، وهيجانه، تكون قد لملمت بقاياها وتركتنا

منذ وقت طويل .وبعد حين يقوم والدانا —اللذان نظل بحاجتهما نفسياً، مهما تقدم بنا العمر —بتسديد أكبر طعنة لنا، ويتركاننا مغادرين هذا العالم .نقابل هذا الهجران بالبكاء والألم والغضب، ولكن لا مفر من مواجهة الحقيقة، فالحياة تواصل دورتها، وفي كل مرحلة تسلبنا شيئاً جديداً، حتى تلك اللحظة التي لا تعود فيها أجسادنا الهرمة قادرة على المواصلة أكثر، فنمنحها أرواحنا المتعبة، في استسلام أبدي.

ولكن الغريب، أننا ورغم معرفتنا برحلة الخسارة التي لا مناص منها، نواصل الحياة برغبة لا تُضاهى .ذلك أنّ قانون الحياة الخفي، الذي لن تجده مكتوباً على أي لوح، قد أقرّ بذلك .فمعظمنا لا يدرك بالفعل ما يخسرونه، ومع كل يوم يمر، نحترق كالشمعة رويداً رويداً .أما من يدرك حقيقة هذه الخسارة، فقسم منهم لا يتقبل الأمر، ويبدأ بالتذمر كطفل بدأ بخسارة اللعبة، ليحول حياته وحياة من حوله إلى جحيم مستعر، ويغرق على مهل في بحر التعاسة المظلم .والقسم الباقي، ورغم إدراكه أنه سيخسر كل شيء في يوم ما، فلا يكف عن الحلم والفرح ومواصلة الحب .والاستمتاع بكل لحظة في هذه المغامرة العظيمة التي تنتهي حدودها على تخوم الموت، بحيث يعيشون الحياة بدهشة وانبهار لا ينفد حتى آخر لحظة .ولا يتخلّون عن الفرح مهما تقلبت الظروف، فحياة لا حب فيها، ليست إلا بئراً قاتمة من اليأس .فمن يتخلون عن هبة التمتع بالحياة، ليسوا سوى أرواح بائسة تهيم على الأرض .أما أولئك الذي أغنت السعادة أرواحهم، فهم يتقبلون الحياة بحلوها ومرها، خياناتها وبشاعتها .فهم قد أتقنوا فن الخسارة، لذا فقد تطورت لديهم مهارة التأقلم مع الحياة.«

ورغم أنه كان يملك المعرفة النظرية، لكنه لم يتمكن من تطبيقها، وإلا لما أغرق نفسه في بحر من الكحول .أما بالنسبة إليّ، فدعكم من إتقان فن الخسارة، فأنا لا أعلم حقيقة إن كان هذا الفن موجوداً بالفعل .كنت أكتفي بالإصغاء فيما هو يواصل التحدث، ولم أكن أشغل ذهني كثيراً بما يقوله .ولكنني في هذه الليلة،

حين خرجت من منزلي القديم تاركاً ابني وزوجتي السابقة مع ذلك الرسام، ولم أقبل دعوتهم بالبقاء لتناول العشاء، عادت إلى ذاكرتي كلمات صديقي وحكمته التي كان يتلوها على مسامعي قبل سنوات مضت .حتى حين ركبت سيارة الشرطة، وطوال الطريق إلى المنزل، ظلت هذه الجملة تتردّد في ذهني رغماً عني، كمقطع من أغنية لا أستطيع محوها عن ذاكرتي.

»الحياة ليست سوى إتقان فن الخسارة .الحياة ليست سوى إتقان فن الخسارة.«

حين وصلت إلى البناء الذي أقطن فيه، تركت الشرطي المكلف بحمايتي ليسهر في سيارته حتى الصباح، وقبل صعودي إلى المنزل، ألقيت نظرة على طائر العنقاء، وتأكدت أنها رابضة في المكان الذي تركتها فيه، ثم احتميت بجدران منزلي، فيما ظلت العبارة ذاتها تتردّد في ذهني طوال الوقت.

»الحياة ليست سوى إتقان فن الخسارة .الحياة ليست سوى إتقان فن الخسارة.«

كان أول ما فعلته هو صبّ كأس من الشراب، أتيت على نصفه بجرعة واحدة علني أُسكت هذا الصوت، ولكن عبثاً.

لم تكن بي رغبة لإتقان أي فن، ولم أكن أملك القوة الكافية لتحمل أي خسارة جديدة .ربما كان من الأفضل البقاء بعيداً عن تطورات الحياة، فما كان عليّ الذهاب إلى ذلك المنزل، ورؤية إتهم وهو يحتل أريكتي السابقة .ما كان عليّ التحدث إليه، ومنحه فرصة عرض المساعدة عليّ .كان عليّ الابتعاد عن الجميع، وهي حقيقة تأكدت من صحتها اليوم مرة أخرى .ولكن للحياة منطقها الخاص، وللأسف فهو لا يعبأ كثيراً برغباتي.

حينها تذكرت اتصال التهديد الذي تلقيته البارحة، وتساءلت إن كانوا قد

اتصلوا بي مجدداً .شربت جرعة كبيرة من الكأس، واتجهت نحو جهاز المجيب الآلي. أعدت الشريط من بدايته، لأسمع الرسائل الأربع التي وصلتني؛ كانت ثلاث رسائل من أوموت وواحدة من دميت .فقد علمت بمقتل عارف، وأصابها ذعر شديد، وتود التحدث إليّ، ولم يكن هناك من رسائل أخرى .هل يعني هذا أنني تخلصت منهم؟ لا أظن، ربما اتصلوا بي، ولكن حين رد عليهم المجيب الآلي، أحجموا عن ترك رسالة .لنرَ ما الذي سيحصل الليلة.

أنهيت الكأس في جرعة أخيرة، وأحسست أنني بدأت أسترد هدوئي، ما شجعني على صب كأس ثانية، لذا فقد نهضت متجهاً نحو المطبخ .أزحت ستارة نافذة الصالون قليلاً، للتأكد إن كان الشرطي قابعاً في مكانه .وشعرت بالشفقة حياله، فهو سيقضي ليلة طويلة، محشوراً داخل سيارته حتى الصباح، وفكرت في استدعائه، ليشرب معي كأساً، ولكنني حين تذكرت سحنته الغاضبة، تخليت عن الفكرة .وأغلب الظن أنه سيرفض عرضي بالشرب أثناء أدائه العمل .لذا توقفت عن التفكير فيه، فلينتظر هناك حتى الصباح، فهو يتقاضى راتبه مقابل هذا العمل. وقفت أمام المرآة أتأمل وجهي، راعني منظر وجهي، وتلك الهالات السوداء حول عينيّ، والتي كانت تشير بوضوح إلى حاجتي الكبيرة للنوم .كما أنني لم أتناول أي طعام يُذكر منذ البارحة، ولكنني لم أكن راغباً في تناول شيء .ارتميت على الأريكة، أنتظر انحسار الدوار الذي ألمّ بي فجأة .وحين شعرت بقليل من التحسّن، نهضت متجهاً نحو المطبخ من جديد، ووضعت شريحة جبن بين قطعتي خبز وازدردتها، ولو لم أفعل ذلك، كان سيغمى عليّ بكل تأكيد .بلعت آخر لقمة بصعوبة بالغة، وما إن انتهيت حتى صببت كأساً جديدة، وعدت وأنا أفكر بضرورة الاتصال بدميت، حيث طلبت رقمها ما إن عثرت عليه.

-ألو تفضل —كان صوت فتاة صغيرة ردت على الهاتف.

لا بد وأنها ابنتها من زوجها السابق، والتي قام دوغان باسترجاعها، حين

خطفها والدها.

-مرحباً آنستي الصغيرة، هل أستطيع التحدث إلى والدتك؟

-ومن أنت؟ —كان صوتها مفعماً بالحبور، وكأنها وجدت شريكاً لها في لعبة جديدة.

-اسمي عدنان —قلت —أنا صديق والدتك.

وصلتني أصوات طرطقة وخشخشة السماعة لبرهة، ومن ثم صوت دميت وهي تسأل الفتاة:

-مع من تتحدثين؟

-أتحدث مع صديقك ماما، اسمه عدنان.

-حسناً، أعطني السماعة —قالت للصغيرة، وقد شاب صوتها القلق — ألو سيد عدنان.

-أجل أنا.

-أصحيح ما سمعت؟ —بدأ القلق يتحول إلى رعشة واضحة في صوتها — هل قاموا بقتل عارف؟

-للأسف، هذا ما حصل.

-لا أصدق —قالتها بأسى —لقد قابلته البارحة .يا للمسكين، لقد بدا رجلاً طيب القلب.

-أجل، كان كذلك بالفعل —أكدت على كلماتها.

-والمسكين صلاح الدين أيضاً قد قُتل، ما كان له أن يقوم باعتداء

مسلح على أولئك الرجال، فقد خسر حياته جراء ذلك .أحقاً كانوا قَتَلَة كما قيل عنهم؟

-هذا ما يقوله دوغان في الشريط الذي تركه.

-إن كان هذا ما قاله، فهو صحيح —علّقت.

لقد أذهلتني تلك الثقة التي في صوتها، فهي تثق به بشكل مطلق إذاً. ولكن كيف لا يخطر ببالها أنّه قد يكون مخطئاً، أو كاذباً في ما يقوله؟

-أرجوك أن تكون حذراً، فهؤلاء القَتَلَة لا يردعهم شيء —واصلت الكلام.

-سأفعل —وسألت بحذر لمعرفة رد فعلها —بالمناسبة، ألم تصلك أخبار جديدة عن دوغان؟

-لا جديد للأسف —وبعد برهة قصيرة، اعترضت في نبرة اتهامية —أنت تخفي عني كثيراً من المعلومات حوله.

-كل ما كان لدي من معلومات لا بد أنك سمعتِه في نشرات الأخبار، وفي صفحات الجرائد، ولا شيء آخر لديّ.

-لقد سمعت —سكتت للحظة، ومن ثم سألتني السؤال ذاته الذي وجهته إلى مفيد —برأيك ما الذي حصل لدوغان؟

-لا أدري، فكل شيء مختلط في ذهني .صدقيني لا أستطيع حتى التفكير في الأمر.

-ولكنه لم يُقتل أليس كذلك؟ —سألت.

-لا أعلم، علينا الانتظار والتحلي بالصبر خلال هذه الفترة.

-أليس هناك من شيء آخر نستطيع القيام به؟

-لا —قلت —ولكن إن علمت بأي شيء أرجو أن تخبريني على الفور.

-بالطبع سأفعل، فلا أحد سواك أستطيع الوثوق به —سكتت —وأرجو منك بالمقابل أن تطلعني على ما يجري، فلا تستخف بمشاعر امرأة تكاد تجنّ خوفاً وقلقاً.

شعرت بالضيق من هذه المحادثة، ففي خضم كل هذه الأحداث والمخاوف، لم أكن مرغماً على التفكير في مشاعر عشيقة دوغان، ولكنها من جهة أخرى محقة في طلبها، فهي تثق بي، ولا تعلم شيئاً عن الصعوبات التي أواجهها.

-لا أريدك أن تفكري بأنني أقلّل من شأنك، فلا يهمني على الإطلاق إن كنت متزوجة من دوغان أم لا، لأنني أحترم مشاعرك بالفعل .وكنت أنوي الاتصال بك حال ظهور فرصة مناسبة، ولكن تواتر الأحداث وتطورها بشكل رهيب، حال دون تحقيق هذه الرغبة .صدقيني هذا كل ما في الأمر .وأؤكد لك، في حال حدوث أي شيء جديد سأعلمك بذلك.

-شكراً لك —قالتها بامتنان واضح.

أعدت السماعة إلى مكانها، وأخذت رشفة من الكأس، وخطر لي لوهلة أن تكون هي أيضاً جزءاً من اللعبة .ولكنني أدركت إنني لو واصلت التفكير على هذا النحو، سأبدأ بالشك حتى بالعم نظمي البواب .أغمضت عينيّ لبرهة في محاولة لإبعاد هذه الوساوس عني، ولكن جرس الباب أجبرني على قطع محاولتي .من يا تُرى؟ وضعت الكأس على الطاولة، ونهضت متجهاً نحو الباب .وحين نظرت من العين الساحرة، شاهدت السيدة فيروزان واقفة بالباب.

-بُنيّ هل أنت بخير؟ —سألتني بقلق ما إن فتحت الباب —لقد

شاهدت ما حصل على التلفاز، ورأيت صورتك أيضاً مرفقة بالخبر .لذا فقد قلقت كثيراً.

حاولت إبداء أقصى ما أستطيعه من هدوء.

-أنا بخير، سيدة فيروزان، وأشكرك على مشاعرك الصادقة.

لكن يبدو أنّ العجوز المسكينة، كانت تشعر بخوف بالغ.

-ما عدد الأشخاص الذين قاموا بقتلهم؟ أي نوع من البشر هؤلاء؟ أرجو ألا يقوموا بإيذائك أنت أيضاً يا بُني.

-لن يتمكنوا من فعل ذلك –أوضحت –لقد حُلّت المشكلة.

ولكن كان من الصعوبة التغلب على مخاوفها.

-ما هذا الذي يحصل لنا يا بُني؟ –تساءلت في أسى –إلى أين تتجه هذه البلاد؟ فرجال المافيات يعشّشون في كل ركن .وقد أخبرتني زوجة البواب أنّ المافيا تودّ السيطرة على الأرض الفارغة قبالة بنائنا أيضاً .وهي محقة، فقد قام هؤلاء المجرمون، بتقسيم اسطنبول فيما بينهم .فهم يسيطرون على معظم الأراضي والأموال، وكأن الدولة قد تخلت لهم عن مهمتها في الإدارة .صدقني في كثير من الأحيان، أعتقد أن السيد مشتاق، قد نجا من رؤية هذه الكارثة التي تمتد يوماً إثر آخر.

وفيما تواصل الحديث عاد إليّ الدوار من جديد، فتمسكت بالباب كي لا أقع.

-تفضّلي بالجلوس –قلت وأنا أحاول تمالك نفسي –ولنكمل حديثنا في الداخل.

-شكراً يا بُني –ردت علي العجوز –كل ما في الأمر أنني شعرت بالقلق عليك، حين شاهدت الأخبار .وإن احتجت لأي شيء، أرجو أن تعلمني على الفور.

-شكراً للطفك سيدتي.

وبعد أن أعادت إليّ نسخة مفتاحي.

-عمت مساءً –قالتها، وغادرت بهدوء.

ما إن أغلقت الباب، حتى اتجهت نحو الكأس .ولكن الدوار لم يفارقني، وغامت الرؤية .ما الأمر، هل أصبت بمرض ما؟ ولكنني تحسنت بعد برهة وجيزة، ففكرت بإنهاء الكأس والخلود إلى النوم .إلا أنني لم أتمكن من تحقيق رغبتي، ذلك لأنّ قواي خارت فجأة، وسقطت على الأريكة، ولكن دون أن يغيب وعيي، فخطر لي الاتصال بأوموت، لكي يأتي إلي، ولكنني استبعدت هذا الخاطر على الفور، فما من داع لإثارة مخاوفهم، وإقلاقهم في مثل هذا الوقت .يكفيهم الخوف الذي أصابهم هذا اليوم. بقيت فترة على هذا الحال، حتى شعرت ببعض التحسن، ولم تعد بي رغبة لشرب المزيد، فاتجهت نحو غرفة النوم، وارتميت على السرير، دون أن أبدل ملابسي، وعلى الفور رحت في نوم عميق.

حين فتحت عينيّ، كانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحاً، إذاً فقد بقيت نائماً كل هذا الوقت .وخوفاً من معاودة الدوار نهضت على مهل .كنت لا أزال أترنح، ولكن لا أثر للدوار والغلالة التي كانت تحجب عني الرؤية .وقبل حلاقة ذقني، وضعت إبريق الشاي على النار، واتصلت بالبواب، وطلبت منه إحضار بعض الأشياء من أجل الفطور.

بعد نصف ساعة، حين كنت جالساً إلى مائدة الفطور، تذكرت أنني لم أتلقَّ أي اتصال يهددني البارحة .فتساءلت عما يجري .أيعقل أنهم توقفوا عن

ملاحقتي، أم أنه لم يبقَ أحد لملاحقتي؟ ولكن كيف ذلك؟ فلو كان دوغان محقاً في ما قاله، فذلك المدعو بالضابط ما زال على قيد الحياة .أما إن كان مفيد محقاً، فهذا يستدعي أن يلاحقني دوغان بدلاً منه .ربما كان الاثنان مخطئين .وكانت شخصية الضابط وهمية، اخترعها يالفاج من أجل إخافة بقية أفراد العصابة، والتلاعب بهم، في الوقت الذي يتزعم هو العصابة بشكل خفي .ومع مقتله، اختفت تلك الشخصية الغامضة أيضاً .إن صح هذا الاحتمال، فهذا يعني أنني تخلصت من جميع مشاكلي ومخاوفي .ولكن من المبكر الركون إلى نتيجة، ويجب انتظار تطور الأحداث مع الوقت .والأهم هو التفكير في ما علي فعله، بينما أقبع تحت وطأة الانتظار.

قبل هذه الأحداث، كنت سأنزوي في ركن ما، وراء طاولتي في الجريدة، وأواصل كتابة مقالات بائسة، كيفما يتّفق، بانتظار أن يملّني نصرت كفلجم، كما سواه، ويطردني خارج أبواب الجريدة ذات صباح .ولكن ما حصل معي مؤخراً، جعلني رهينة لتوقعات الآخرين، وأجبرني على القيام بما لم أكن مقتنعاً به، وإن واصلت الإذعان لرغباتهم، لن يطول الأمر بي لأجد نفسي، وقد أُهيل عليّ التراب وارتطم جبيني باللوح الخشبي .لذا كان عليّ التصرف وفق ما أراه مناسباً لي، وبحسب ما تمليه عليّ مشاعري .ورغم أن عودتي للصحافة لن تكون بالأمر السهل، بعد كل تلك الفترة من الخمول، إلا أنني مجبر على كشف حقيقة ما يدور من حولي .أما سفر فوندا وأوموت في الوقت الراهن، فسيسهل عليّ تنفيذ هذه المهمة بشكل كبير، لأنني لن أنشغل بالقلق عليهم.

في البداية عليّ جمع بعض المعلومات عن دوغان، ومعرفة آخر تاريخ عاد فيه إلى البلد، وأي اسم استعمل، ومن هم الأشخاص الذين تواصل معهم .وهناك مفيد الذي يجب التقصّي عنه أيضاً .ومعرفة سبب انفعاله المبالغ فيه البارحة .لا أستبعد أن يكون بالفعل شخصاً نزيهاً، ولكنني قد خدعت من قبل الشرطة مرة، ولا أريد أن تُعاد الكرة .لذا كان عليّ البحث عن شخص موثوق لمساعدتي.

استبعدت إرول من ذهني، فبعد الشهرة التي حصل عليها، لن يوافق على مهمة العمل كمساعد لي، ولأنني لا أعرف كثيراً من الصحفيين الشبان، كان من الصعب إيجاد شخص مناسب بينهم .ولم يبقَ أمامي من خيار سوى تولغا، لذا اتصلت به على الفور، واتفقنا على اللقاء في الجريدة.

أما أجمل ما في هذا الصباح، فهو أنني سأعود للقاء طائري العنقاء، الذي لم أجتمع به منذ البارحة .وحين غادرت البناء متجهاً نحو سيارتي، لم ألتقِ ذلك الشرطي ذا السحنة الغاضبة، بل قابلني شابان من الوحدة الأولى، بوجهين نضرين، تعلوهما ابتسامة لطيفة .وما إن انطلقت سيارتي، حتى لحقا بي في سيارتهما الرينو البيضاء .ولم تغب سيارتهما عن ناظري طوال الطريق .إنها المرة الأولى التي ترافقني فيها حماية، وكنت أعتقد في السابق أنه أمر مزعج أن تكون مراقباً على مدار أربع وعشرين ساعة .ولكنني مع خوض التجربة، لم أشعر بأدنى انزعاج من الأمر .حتى أنني شعرت لوهلة بأهميتي، وخالجني بعض الغرور إزاء هذا الشعور.

وصلت الجريدة واتجهت إلى مكتب نصرت، وحين أخبرته السكرتيرة بوصولي، استقبلني على الباب.

-تفضّل يا عزيزي، تفضّل —وأشار نحو الصحف الموضوعة على الطاولة —كلها أفردت صفحاتها الأولى للخبر الذي نشرناه .إنه حقاً نجاح باهر.

جلست على المقعد الذي أشار إليه.

-ما رأيك بفنجان قهوة سادة؟ —عرض علي.

-شكراً لك .ربما في وقت آخر، فأنا على عجلة من أمري الآن.

لم يجلس خلف الطاولة، بل اختار المقعد الذي قبالتي، وجلس يرمقني منتظراً سماع ما لديّ، ودون أن أطيل انتظاره بدأت بالتوضيح.

-أريد التوسع في الخبر والتعمق فيه أكثر —قلت —فهناك كثير من الأسئلة التي لم نجد لها أجوبة بعد.

نظر إليّ وكأنه يقول لي لا داعي حتى لتشرح الأمر.

-افعل ذلك إذاً —قال —إنه عملك —ولكنه تمهل للحظة، ومن ثم رفع سبابته كمن يحذرني —لكن أرجو منك ألا تتجاوز إرول .فهو من أحضرك إلى هنا.

ما الفكرة التي كان يحملها عني هذا الرجل؟

-يبدو أنك تعتبرني أحد التماسيح الذين تكاثروا في الوسط الصحفي؟ —قطعت حديثه —لا أنكر أنني أهملت عملي مؤخراً، ولكنني لا أفكر في طعن أحد من الخلف، وخاصة إن كان أحد أصدقائي.

أدرك أنه صوّب نحو هدف خاطئ، لذا بادر بتصحيح خطأه على الفور.

-على رسلك يا رجل، لقد أسأت فهمي .ولكن الأمور قد اختلطت، وبات من الصعب معرفة الأشخاص الذين عليك الثقة بهم.

-لا عليك —علّقت —ولكني لا أحبذ أن يسيء الآخرون فهمي .إن شئت سأبلغ إرول بكل ما حصلت عليه من معلومات، ليكتب هو الخبر .ولا مانع لدي من تذييل المقال باسمه فقط.

نظر إليّ لبرهة، قبل أن يعلّق.

-يبدو أنك استأت من كلامي.

-صدقني لم أستأ —قلت، وأنا أحاول تصنع ابتسامة —فأنا لست مهتماً كثيراً بذكر اسمي في المقال، ولست مستاءً من العمل مع إرول على الإطلاق.

نظر إليّ بإمعان، محاولاً معرفة إن كنت صادقاً في ما أقوله أم لا.

-لا تنظر إلي بهذه الطريقة، فأنا أعني كل كلمة أقولها .فما يهمني حقاً هو الوصول إلى إجابات لما يدور في ذهني من أسئلة.

-حسناً، ابحث عما تشاء من أجوبة، ولكن ما لم يتم ذكر اسمك في المقال، سيفقد جاذبيته .وأنا واثق من أنك وإرول ستقومان بعمل رائع.

-وأنا لا مشكلة لديّ على الإطلاق .ولكنني بحاجة إلى مساعدة مصادرك في مديرية الأمن.

قطب حاجبيه الكثّين، وزم شفتيه الرقيقتين وهو يرمقني.

-مصادري؟

حاولت أن أكون صريحاً معه قدر المستطاع.

-أريد من مصدرك أن يتحرّى عن مفيد.

تلاشت شكوكه، وعادت ابتسامة لطيفة تغطي وجهه.

-ومن أخبرك أن لي مصادر في مديرية الأمن؟ —سألني.

-كف عن المراوغة، فنحن نلعب اللعبة ذاتها، ونعلم كل تفاصيلها، ما خفي منها وما عُلم.

-حسناً، حسناً —قالها ضاحكاً —إن شئت الصدق، فقد راودتني أنا أيضاً بعض الشكوك حال رؤيتي له .لا أعلم ما الذي يمكننا معرفته، ولكنني واثق أننا سنصل إلى يقين ما حول هذا الرجل.

-عظيم —علّقت —ولكنْ هناك طلب أخير سأطلبه منك.

-ما هو؟

-أنا بحاجة لمساعد، ما رأيك لو ترك تولغا التصوير مؤقتاً، ليعمل مساعداً لي؟

-حسناً، لا مشكلة لديّ على الإطلاق .هل ستحدثه أنت، أم تريد مني فعل ذلك؟

-سأحدثه أنا.

نظر إلي بود قبل أن يقول:

-لا بدّ أنكم بحاجة لبعض النقود أيضاً .لذا فقد اتصلت بالمحاسبة، وسيقدمون لكم دفعة على الفور.

-شكراً لك، ولكنني لست في حاجة لشيء الآن —قلت.

كنت أهم بالنهوض.

-سنذهب سوية إلى الجنازة —قال.

لسعني سوط خفي .ولعنت نفسي لأن أمر الجنازة قد غاب عن ذهني تماماً .ولكنني لم أظهر له أنني قد نسيت.

-حسناً —أجبت —هل اتضح موعد الجنازة؟

-اليوم ظهراً، من جامع تشفيكية.

لاحظ الذهول الذي اعتراني.

-لقد عملت لفترة مع عارف، صحيح أنه كان يفضل التقرب من مدرائه في العمل، ويحرص على منفعته الشخصية .ولكنه كان شخصاً طيباً – تنهد بعمق

قبل أن يردف —كنتما صديقين مقربين، أليس كذلك؟

-كان صديقي المفضّل —أجبت.

كنت أخشى أن أضعف أمامه.

-عادة لا ندرك حقيقة خسائرنا في البداية —قال، وغامت عيناه قليلاً — فكما تعلم، نكون مندفعين في غمرة الأحداث، ولكن مع مرور الأيام، ندرك ما خسرناه، ومدى فظاعة الأمر.

لا بد وأنه قد خسر أحد المقربين منه أيضاً .لا أعلم من يكون، ولكنني لو حاولت التذكر، فسأعرف .إلا أنّ تلك العقدة التي كانت تضغط على صدري، وترتفع نحو الأعلى قد منعتني من التفكير .لم أكن راغباً في الاستسلام، لذا استجمعت كل قوتي، وحاولت دفنها أعمق ما يمكن، حينها شعرت بلسعة ألم حارقة تصدر من مكان في ثنايا روحي.

الفصل الواحد والثلاثون

بالكاد استطعت حبس دموعي وأنا أندفع خارجاً من مكتب نصرت. مررت بالسكرتيرة دون النظر إليها، حين كدت اصطدم بإرول.

-لقد كنت أبحث عنك —ولكنه حين رأى تعابير وجهي، اعتراه القلق —ما بك؟ هل من خطب ما؟

-لا لا، لا شيء —قلت وأنا أدير رأسي، وأمسح عيوني التي امتلأت بالدموع —الأمور بخير، ولكن لماذا كنت تبحث عني؟

-هناك عضو في البرلمان من جماعة اليمين، يُدعى نجات غوك، وقد اتصل بالجريدة عشرات المرات .ويريد التحدث إليك.

هذا ما كان ينقصني في هذه المعمعة، متطرف آخر.

-ولماذا يريد التحدث إلي؟

-يقول إن دوغان لم يكن ينتمي إليهم، وإن هناك خطأً في المقال، وما إلى ذلك .وهو يدّعي بأنك يجب أن تكون أدرى الناس بذلك، لأنك أخوه.

لم أكن في مزاج يسمح لي بالتجادل معه، وسط كل هذه المشاغل.

-أخبروه أن عدنان لم يأتِ إلى الجريدة بعد، وتخلصوا منه.

-يبدو أنه لا ينوي أن يدعنا وشأننا، فهو يتصل كل نصف ساعة بأحد

الصحفيين ليسألهم عنك.

-ماذا كان اسمه؟

-نجات غوك.

لقد سمعت هذا الاسم من قبل، ولكن أين؟ وفيما كنت أحاول التذكر، واصل إرول سرد معلوماته عن الرجل.

- إنه ليس من أولئك الأعضاء الذين ينتهزون أدنى فرصة، للظهور على شاشات التلفاز، وصفحات الجرائد .فهو من الأشخاص الذين لا يحبون هذا الضجيج، ولكن لسبب ما، يبدو مهتماً كثيراً بهذا المقال .وإن شئت رأيي فمن الأفضل الاتصال به.

رغم كل محاولاتي لم أتمكن من تذكر من يكون نجات هذا.

-حسناً —قلت وأنا أتجه نحو المكتب الذي سأعمل فيه مع إرول —دعنا نحدثه، ونفهم ما الذي يريده بالضبط.

كان تولغا أيضاً هناك بانتظاري.

-مرحباً —قلت —كيف الحال؟

أضاء وجهه حين رآني.

-بخير، وأنت ما أخبارك؟

-كما ترى، لا شيء جديد.

وفيما كنت أتبادل الحديث مع تولغا، كان إرول قد اتصل بمكتب الرجل، وأخبرهم بأنني أريد التحدث إليه .وأشار بيده التي وضعها على السماعة وهو يقول:

-إنه على الخط.

-ألو سيد نجات —قلت بعد أن تناولت السماعة —تفضّل، لقد أخبروني أنك تود التحدث معي.

-مرحباً سيد عدنان —كان يتكلم باحترام وهدوء —ربما لا تتذكرني، ولكننا التقينا من قبل.

كنت أتوقّع رجلاً غاضباً، ولكنني فوجئت برجل لطيف، راغب في كسب ودي.

-حقاً؟ —قلت —وأين التقينا؟

-لقد كنت صديقاً لدوغان، بالطبع أنا أتحدث عن أمر مضى عليه أكثر من عشرين عاماً .كنت أتردد على منزلكم أحياناً، وقد حدث بيننا جدال مرات عدة .ولكن آخر مرة التقينا فيها، كانت في سجن مالتيبي العسكري .حين أتيتم لزيارة دوغان، حيث تمت محاكمتي معه في القضية ذاتها.

إذاً فأنت أحد القَتَلَة الثلاثة .حاولت استعادة صور الماضي بحثاً عنه، فحضرت إلى ذهني صورة شاب كان يرتدي معطفاً سميكاً، وينتعل جزمة جندي، جمع أطراف بنطاله الواسع تحت ساقيها الجلديتين، بجبينه الواسع ونظراته الحادة.

-هل أنت متوسط القامة، أسمر البشرة؟ —سألته.

-لا —أجاب —فأنت تخلط بيني وبين رسول.

-رسول؟ —لا بد وأنه ذلك الشخص الذي أرسل تلك الرسالة التي وجدتها بيت أغراض الخالة كريمان، ولكن ما كانت كنيته، حاولت التذكر، ولكن نجات وفر عليّ هذا الجهد.

-رسول جوبان، ذاك من تتذكره، أما أنا فمتوسط القامة أصهب الشعر.

تراءت أمام ناظري صورة فتى أصهب نحيل، بنظرات خجولة، لم يكن قد بلغ بعد مبلغ الشباب، بل كان يوحي بأنه ما زال صبياً غرّاً، وهو يحدثنا من وراء الشباك الحديدي للسجن.

-حسناً، أعتقد أنني تذكرت، وأظنك تنحدر من باليكئسير، أليس كذلك؟

-من بيغادي -قال مفصّلاً -كنت طالباً في كلية الصيدلة، ولكنني لم أتمكن من إتمام دراستي بالطبع.

-وماذا حصل لرسول؟ -سألته -لقد أرسل رسائل عدة إلى المرحومة خالتي.

بدا الضيق على صوته.

-لقد تدهورت صحته في السجن، واتضح أنه يعاني من مشاكل نفسية. والآن يعيش في قريته في سابانجا، فقد آثر الانزواء .ونقوم نحن أصدقاؤه القدامى بمساعدته بين الحين والآخر .على أي حال ليس هذا سبب اتصالي المتكرر وإزعاجي لك، فالأمر يتعلق بالمقالين اللذين تمّ نشرهما البارحة واليوم، حيث تكرر ذكر انتماء دوغان إلى اليمين القومي، وهي معلومة خاطئة.

-خاطئة؟ -قلت مستغرباً، وقد علا صوتي حدّ الصراخ -أتعني أنّ دوغان لم يكن من القوميين؟ أنا أعرف هذا الشخص منذ أنّ كنا طفلين.

لكن نجات ظل محافظاً على هدوئه.

-صحيح أنك تعرفه، ولكن هناك معلومات كثيرة لا تعرفها.

-وماهي تلك المعلومات التي لا أعرفها؟

-لا يمكن التحدث في هذه المواضيع على الهاتف سيد عدنان، علينا أن نلتقي، وسأشرح لك كل شيء حينها.

لم أكن راغباً في فكرة اللقاء هذه، لذا بقيت صامتاً، فأدرك تردّدي.

-لا يوجد من سبب يدعوك للتردد —أوضح —أقسم لك أنّ سلامتك الشخصية ستكون مصونة، كما شرف زوجتي .إنه وعد رجل قومي.

كان لكلماته مفعول عكسي عليّ، فقد زادت من ضيقي، لأنه كان يتكلم بوصاية، وكأنني توسلته لحمايتي.

-لست متردّداً —قلت —لكنني أفكر في الطريقة التي ستتم فيها مقابلتنا؛ كريبورتاج صحفي، أم مقال يتضمن بعضاً من أقوالك؟

-لقد أسأت فهمي، فلا نية لي بإجراء أي لقاء صحفي أو ما شابه، لأنني في هذه الحالة لن ألتقيك .كل ما في الأمر أنني أريد تصحيح بعض معلوماتك، فمن الواضح أنك غير مطلع على كثير من الخفايا.

أصبح الموقف أكثر غرابة، وقد استنتجت أنّ رغبته في التحدث إليّ ليس رغبة شخصية، وإنما بناء على طلب من الحزب، ما يعني أنه قد يطلعني على بعض المعلومات المهمة، وبالتالي، لا ينبغي تفويت هذه الفرصة.

-اتفقنا —أوضحت —لن يكون هناك ريبورتاج.

-ولن تذكر اسمي أيضاً.

كان يصعّب شروطه أكثر، ويستخدم أسلوب التضليل والمراوغة معي.

-في هذه الحالة، لن أذكر شيئاً عن المعلومات التي ستقولها لي.

-دعك من ذلك سيد عدنان -قالها ضاحكاً -أليست ذريعتكم الأشهر التي تلوّحون بها متى ضاقت بكم السبل؛ أنكم لستم مجبرين على الإفصاح عن مصدركم الإخباري؟

-ولكن ماذا لو كانت المعلومات التي ستطلعني عليها خاطئة؟ وتنوي تضليل الرأي العام؟

-لن أقوم بتضليل أحد، وحين تسمع ما لديّ ستدرك أنني أقول الحقيقة. ولكن إن اتضح لك أنني أخبرتك بأي شيء غير صحيح، فلك الحق بذكر اسمي كمصدر لهذه المعلومات الكاذبة، وإن اقتضى الأمر، فلن أتوانى عن عقد مؤتمر صحفي معك، من أجل كشف الحقائق أمام العلن .أرجو أن تدرك أنّ كل غايتي هي مساعدتك لا أكثر.

-حسناً -وافقت، وأنا أنظر إلى تولغا وإرول اللذين كانا يتابعان محادثتنا باستغراب واضح -متى تريد أن نلتقي؟

-الساعة الآن تقارب الثانية عشرة، ما رأيك أن نلتقي في الواحدة، في بهو فندق إرسين في توب كابي؟

-اتفقنا -قلت -سأكون هناك في تمام الواحدة.

وهنا بدأ إرول يومئ بيديه و برأسه، ليقول لي شيئاً ما، فاستفسرت بحركة من رأسي عما يودّ قوله.

-أنسيت جنازة عارف؟ -قال هامساً.

لقد كان محقاً، فقد نسيت عارف ما إن سمعت أنّ الرجل ينوي إطلاعي على معلومات جديدة.

-أعتذر سيد نجات -قلت مرتبكاً -لقد تذكرت للتو أنّ هذا التوقيت لا يناسبني.

-إذاً في الثانية.

-للأسف لن أتفرغ في الثانية أيضاً، ما رأيك لو أجلنا الموعد إلى الثالثة والنصف أو الرابعة مثلاً؟

-محال، لأنني سأسافر إلى أنقرة على متن طائرة الثالثة والنصف، فلدينا اجتماع لمجلس الحزب في السادسة مساءً، وأنا مضطر لحضوره .وهذا ما دفعني للاتصال المتكرر بك منذ الصباح.

-ومتى ستعود من أنقرة؟

-بعد أسبوع.

نظرت إلى إرول وتولغا اللذين كانا يراقبانني بصمت، وقد رفع كل منهما ذراعيه دلالة الحيرة، ففكرت حينها أنّ عارف لو كان في مكاني لفعل الشيء ذاته.

-حسناً، سأكون هناك في تمام الواحدة.

وأنهيت المكالمة.

-ما الذي يودّ قوله لك؟ أهو على هذا القدر من الأهمية؟ -سألني إرول بفضول بالغ.

-لا أعلم، ولكن من الواضح أنهم مستاءون من ذكرنا أنّ دوغان ينتمي إليهم.

-يبدو أنّ الرجل يعرفك من قبل؟ -تساءل تولغا.

-لقد حُكِم عليه في القضية ذاتها مع دوغان.

-أي قضية؟

-لقد قاموا باختطاف طالب جامعي من حافلة نقل عامة في بيازيد، وقاموا بخنقه بواسطة سلك معدني، وقد كان معهم شخص ثالث يدعى رسول جوبان، وقد حوكم الثلاثة في القضية بعد إلقاء القبض عليهم.

-أي قذارة هذه يا رجل —اعترض تولغا —فبعد أن يُحاكم بجريمة قتل، يتحول إلى عضو في مجلس الشعب؟

-هناك قانون يُسمى إعادة الحقوق الممنوعة —أوضح إرول —فبعد صدور العفو عن جميع القوميين المعتقلين، تقدموا بطلب للمحكمة من أجل استعادة حقوقهم المدنية، وقد أعادت المحكمة هذه الحقوق لمعظمهم.

-تعني حقوق القَتَلَة السياسية؟ —قالها الشاب بغضب واضح .لكن هذه المواضيع التي كتبت حولها كثيراً من المقالات، والدراسات، وتم تداولها أمام الرأي العام، وتقديم الكثير من الاعتراضات عليها دون طائل، فقدت قدرتها على إثارة حنق صحفيين عتيقين مثلي أنا وإرول .ولم نستغرب الأمر كزميلنا الشاب .كما أنني كنت منشغلاً بأمر آخر.

-ما الذي يريده هؤلاء مني؟ —سألت إرول.

-من الصعب التكهّن بالأمر، ما لم تتحدث إلى نجات —بدت عليه الحيرة ذاتها —ربما تكون لديه معلومات مهمة ستفيدنا في بحثنا .فليس من السهل معرفة ما يفكر فيه هؤلاء الأشخاص.

ربما لن يخبرني الرجل بشيء ذي بال، وسأفوّت جنازة عارف، فخطر لي إرسال إرول بدلاً مني، ولكنني أدركت أنّ الرجل لن يبوح له بأي شيء، لذا كان

عليّ الذهاب بنفسي .كما أنني أكره هذه المظاهر السخيفة التي ترافق موت أحد ما، والبكاء وإظهار المشاعر أمام العلن، بطريقة أقرب للادعاء والنفاق، فمشاعر الحزن يجب أن يحتفظ بها الشخص لنفسه، ولا يفاخر بالتعبير عنها في العلن بفجاجة .وفي المساء سأتصل بفليز وأشرح لها سبب عدم حضوري الجنازة، وأنا أكيد أنها ستتفهم الأمر، فهي فتاة واعية .إذاً، طالما قررت قبول العرض، فينبغي ألا أضيع مزيداً من الوقت في التردد.

قبل انطلاقي نحو فندق إرسين، عرضت على تولغا فكرة العمل مساعداً لي من أجل البحث في هذه القضية، إلى جانب عمله مصوّراً صحفياً .وكانت أول مهمة كلّفته بها؛ البحث في الجرائد عن الأحداث التي أوردها دوغان في الاعتراف الذي كتبه لنقدمه للقاضي .في الحقيقة كان الأجدى بإرول القيام بهذه المهمة، ولكنني خمنت أنه راغب في الذهاب معي للقاء الرجل، ولا نية له في حضور جنازة عارف، حيث أنّ علاقتهما لم تكن وثيقة بأي حال .وحتى لا يسيء فهم نواياي، كما فعل نصرت كفلجم هذا الصباح، لم أبدِ أي اعتراض على رغبته .كما أنه يعتبر خبيراً في هذه القضايا، وقد يتفتّق ذهنه عن بعض الأسئلة المهمة التي قد تزيح الستار عما لا نعلمه، وتمنحنا معلومات إضافية.

بعد عشرين دقيقة، امتطينا صهوة العنقاء، واتجهنا نحو توب كابي، مع مرافقة من حمايتي الشخصية بالطبع .كان فندق إرسين قد تم بناؤه أسفل أسوار اسطنبول التاريخية .حين دخلنا بهو الفندق، عرفت أنّ ذلك الرجل الأصهب الذي يتوسط رجلين آخرين، ويجلسون إلى يمين الاستعلامات، هو صاحبنا المنشود. رغم أنّ السنين قد حولت ذاك الشاب النحيل، إلى رجل ممتلئ الوجه، ذي بشرة بيضاء، لكن خصلات شعره الحمراء، ما زالت تحمل بعضاً من ذاك الفتى الذي كان. وبدأت حينها أتذكّر زياراته إلى منزلنا برفقة رسول، في نهايات الأسبوع، حيث كانا يتحاشيان التحدث إليّ معظم الوقت، ولكنهما كانا يرمقانني بنظرات فاحصة، حين يشعران أنني سهوت عنهما .وخاصة رسول الذي كان في بعض اللحظات

ينظر إلي بتهديد واضح، وكأنه يقول لي، لو لم تكن أخاً لدوغان، لكنت لقّنتك درساً لن تنساه .وإن لم أكن مخطئاً، فقد نام نجات في منزلنا، في إحدى زياراته. وبينما كانت تحضرني هذه الذكريات البعيدة لاحظت أنه قد رآني بدوره .فنهض على الفور، في احترام مبالغ فيه، وزرّر جاكيته، وقد جاراه مرافقاه الاثنان .وبدوري رسمت ابتسامة وقورة على وجهي، وأنا أقترب منه .وقد اختار إرول أن يتخلف عني بضع خطوات ليراقبنا .بينما كان مرافقاي الاثنان، واقفين في بهو الفندق يتفحّصان الشخص الذي اتجهت نحوه.

-مرحباً —قلتها ومددت يدي نحوه مصافحاً.

-أهلاً، أهلاً —قالها وهو يرد على مصافحتي بحرارة بالغة —إذاً فقد عرفتني على الفور.

-من اللحظة الأولى —قلت، وأضفت ممازحاً —الأحمر لون يصعب نسيانه.

سكت لبرهة، ظننت أنه سيضحك فيها، أو سيرد لي المزحة بأخرى، لكنه لم يفعل .إما أنه لم يفهم مغزاها، وإما لأنه آثر التغاضي عنها.

-أهنئك —اكتفى بالقول —أما أنا، فلو لم أطّلع على صورك التي رافقت المقال، لما تمكّنت من معرفتك.

-إيييه، لقد هرمنا —قلت.

ظن أنني استأت من كلامه، فأوضح:

-لا يا رجل —وحاول مراضاتي —ما زلت تبدو شاباً —ومن ثم أشار نحو مرافقيه —رفيقاي من الحزب، هل من مانع لديك إن شاركانا الجلسة؟ —سألني.

-لا مانع على الإطلاق —قلت وأشرت بدوري نحو إرول —إنه زميلي الذي أعمل معه على هذا الخبر —ثم أشرت إلى مرافقيّ —والشابان هناك يرافقاننا —أوضحت.

-إذاً فقد أمّنوا لك حماية؟ حسناً ما فعلوه .فما تقومون به عمل خطير، ولا ضير من تأمين الحماية.

بدا قلقه حقيقياً.

-دعونا نتجه إلى المطعم إن شئتم، فالمكان هنا مزدحم، ولن نستطيع التحدث براحة.

كان محقاً في أننا سنتمكن من الحديث هنا على نحو أفضل، فقد كان المطعم خالياً إلا منا، ورغم أن المرافقين دخلا بعد برهة، واختارا الطاولة التي قرب الباب، لكن حتى وجودهما، لم يكسر الهدوء البارد الذي يلف المكان، ويشي بحزن يخيم على الطاولات الشاغرة بأغطيتها البيضاء، لينتقل إلينا .لم يكن أحدٌ منا راغباً في تناول الطعام، ولكن لاعتقادي أن المرافقين قد يكونان جائعين، أرسلت شاب الخدمة إليهما، فالجريدة هي من سيدفع التكاليف .ولم أكن مخطئاً، فقد نظرا إليّ مستفسرين، وحين أومأت برأسي أن لا مشكلة، اتجها نحو الشاب وهما يطلبان الطعام، بشهية واضحة .أما نحن فقد طلبنا قهوة وشاياً، ودون مزيد من إضاعة الوقت، بدأ نجات الحديث.

-كما أوضحت لك على الهاتف، فأنتم ترتكبون خطأً سيد عدنان —لم يكن هناك تهديد في صوته، بل كان يتكلّم بهدوء، كمن يقدم نصيحة لصديق ليس إلا —وهذا الخطأ قد يمنع ظهور الحقائق من جهة، كما أنه يسيء إلى سمعتنا من جهة أخرى.

-نحن لا نريد الإساءة إلى أي شخص —قطعت حديثه —وغايتنا من

نشر المقال، ليس الإساءة أو الطعن في سمعة أحد، بل نشر الحقائق أمام الرأي العام.

-ولكن ما نشرتموه غير صحيح، فلا علاقة لدوغان باليمين القومي.

-ما هذا الكلام؟ -قلتها ضاحكاً -نحن نتحدث عن دوغان، عن الشخص الذي حوكم معك في القضية ذاتها، وحقيقة كونه قومياً، منذ حوالى الخمسة والعشرين عاماً لا تخفى على أحد، ولست وحدي من يقول ذلك، فبوسعك الإطلاع على القضايا التي رُفعت ضده في دوائر الشرطة والأمن.

-صدقني أنتم جميعاً مخطئون، بمن فيكم الشرطة والأمن أيضاً .فقد قطع دوغان علاقته بالحزب منذ حوالى العشرين عاماً، أي منذ اللحظة التي تمّ فيها إطلاق سراحه من السجن، نتيجة خطأ القاضي.

-ولكنه حين سافر، كان أول من لجأ إليهم في الخارج، هم زملاؤه القوميون -اعترضت على ما يقوله.

إلا أنه أوضح على الفور:

-لم يكن لديه مكان آخر للذهاب إليه، وكان يستخدم صفة القومي من أجل إخفاء حقيقته.

وقد سكت حين لاحظ اقتراب شاب الخدمة منا، وهو يحضر طلباتنا، ولكن بينما كان الشاب يقدم لنا مشاريبنا، قال:

-ما رأيك بأن أشرح لك الأحداث في البداية -وأضاف -ومن ثم نناقش ما لديك من أسئلة.

-حسناً -وافقت، وقبل أن أكمل، أخذت رشفة من قهوتي التي داعبت

رائحتها الزكية أنفي، فأمتعتني —هل تمانع إن استخدمنا آلة التسجيل؟ —سألته.

اكتفى بضحكة قصيرة، وما إن غادر الشاب، حتى عاد إلى جديته السابقة.

-اسمعني سيد عدنان، أظننا اتفقنا على الأمر حين حدثتك على الهاتف، فلا تسجيل ولا صور، ولن تلجأ لذكر اسمي، ما لم تستدعِ الضرورة ذلك .إن وافقت على شروطي، سنكمل حديثنا بكل سرور، وإلا فسينهي كل منا فنجانه، ونغادر المكان.

-إنّ استخدام آلة التسجيل، لا يعني بالضرورة ذكر اسمك، ولكن إن كانت هذه رغبتك، فكما تشاء.

-أرجو ألا تستخدم الآلة.

-حسناً —قلت وأخذت رشفة أخرى من فنجاني، وقبل أن يبدأ الحديث، أخذ رشفة بدوره من شايه، ومن ثم بدأ:

-ما قلته صحيح، فقد تم إلقاء القبض علينا في القضية ذاتها، وتمت محاكمتنا بتهمة جريمة القتل تلك، أنا ودوغان ورسول، وبعد فترة تمّ إطلاق سراحنا لعدم كفاية الأدلة .ولكن حين ظهر أحدهم، وادّعى أنه شهد على ما حدث، أعادوا إلقاء القبض علينا .وفي هذه الفترة قام دوغان بعقد علاقات خارج منظومة الحزب، وكان يتحدث عن لقائه بشخص برتبة مقدم، وقد أوضح له بأنهم يماثلوننا في توجههم المعادي للشيوعية، وأنهم مستعدون لتقديم كل أنواع المساعدة لنا، بما في ذلك الأسلحة .ولأننا في الحزب معتادون على الالتزام بقاعدة الانضباط التي نعتبرها أولوية في نشاطاتنا، فقد أطلعت رؤسائي على علاقة دوغان بالمقدم، حيث تم استدعاؤه على الفور، وطلبوا منه قطع علاقته بهذا الرجل، وقد وافق دوغان على طلبهم، ولكنه لم يتقيد به بالطبع .وإن سألتني كيف عرفت ذلك، فلأن هذا المقدم

جاء لمقابلة دوغان، في المرة الثانية لدخولنا السجن، والغريب في الأمر أنه لم يأتِ في اليوم المخصص للزيارات، أي أنه كان يخرق القوانين في أحد السجون العسكرية. وبعد اللقاء أخبرنا دوغان بقرب حدوث تغييرات مهمة في البلد، وأن محبي الوطن سيقودون حركة كبيرة، لكن قادة اليمين أبعد ما يكونون عن فهم هذا التطور، فهم يحاولون البقاء على الحياد، والتصرف بسلبية إزاء الأمور .إلا أنّ الوقت قد حان ليختاروا الجهة التي سيقفون إلى جانبها في مواجهة الخطر الشيوعي، واتباع سياسة أكثر حزماً .وقد كنا أنا ورسول مطلعين على الجهات التي تستغل حبنا العلني للوطن، والتي تحاول التسلّل إلى صفوفنا، والتستر بغطاء اليمين من أجل تمرير أفكارها المتطرفة .وقد أخبرنا المرحوم رئيس الفرقة الحزبية بالأمر، ونبهنا إلى عدم الانخداع، والانجرار وراء ادعاءات أي جهة، حتى لو كانت تدعي أنها من محبي الوطن .وكانت الجهة الوحيدة التي تنظم صراعنا ضد الشيوعية، هي قيادة الحزب نفسه .وقد أطلعنا دوغان على أننا غير مقتنعين بما يقوله، فاستاء منا، وقال إن ما نفعله هو الحماقة بعينها، خاصة أنه لمح إلى إمكانية مساعدة شركائه الجدد، في عملية إخراجنا من السجن .لكننا واصلنا التشبّث برأينا، وقد قلت له:

»اسمعني يا رفيقي، هؤلاء الرجال ليسوا أهلاً للثقة .وأنت مخطئ بالتواصل معهم، فنحن يجب أن لا نتجاوز أوامر الحزب.

لكنه نظر إلينا باستخفاف وهو يقول:

»إن أفقكم ضيق للغاية، بحيث لا يمكنكم استشراف المستقبل .وسأكون صريحاً معكم، فمن بقي محكوماً بسياسة الحزب، سيظل قابعاً بين هذه الجدران.«

لكننا سخرنا من كلامه، ولم نلقِ له بالاً .إلا أننا فوجئنا بعد شهرين بتحقّق ما قاله، فقد تم إطلاق سراحه قبل مرور شهرين على هذه المحادثة .وبعد أسبوعين تم الإعلان بأن إطلاق سراحه قد كان مجرد خطأ قضائي، وبدأت عمليات البحث عنه .ولم يسافر دوغان حال خروجه من السجن، كما كنتم

معتقدين .بل ظل طوال شهور داخل البلد، ينفّذ المهام التي كلفه بها الأشخاص الذين قاموا بإخراجه من السجن.

كان كلامه يتّخذ منحاً غريباً مع كل كلمة جديدة يقولها، ورغم أنني لم أكن راغباً في قطع حديثه، لكنني لم أستطع كبح نفسي أكثر.

-ما هي طبيعة هذه المهمات؟ —سألت.

-لا أستطيع أن أعدد لك تلك المهام الواحدة تلو الأخرى، لكن الأوضاع الأمنية الداخلية كانت تسير من سيئ إلى أسوأ، وكان البلد يسير نحو حرب داخلية بخطى متسارعة .أو أنّ هذا ما كنا نعتقده، في الوقت الذي كان يتم التحضير فيه لانقلاب عسكري .ففي كل يوم كانت تحدث اشتباكات مسلحة وتفجيرات، ويزداد عدد القتلى .وكان دوغان منخرطاً في هذه النشاطات المشبوهة، حيث بدأ باكتساب خبرة كبيرة.

ارتبط المقدم الذي ذكره نجات، بالضابط الذي نبحث عن شخصيته الحقيقية في ذهني، فسألت على الفور:

-هل كان هناك أشخاص آخرون يلتقي بهم دوغان على شاكلة هذا المقدم؟ شخص يُدعى الضابط مثلاً؟

نظر إليّ بإمعان في محاولة للتذكّر، ثم أوضح:

-لقد كنا نسمع بين الحين والآخر، عن بعض رجال الجيش المتقاعدين ممن يودون عقد صلات مع رفاقنا في الحزب ومع رؤسائنا .ولكنني لا أذكر أحد برتبة ضابط.

-ربما كانت صفة الضابط مجرد لقب.

لمحت بريقاً مفاجئاً في عينيه قبل أن يجيب:

-أخوك من كان يلقب بالضابط.

-أتعني دوغان؟ —تساءلت مستغرباً.

-بالطبع، ذلك لأنّ رئيس فرقتنا الحزبية كان برتبة كولونيل في الجيش، وقد كان دوغان يقلده ممازحاً، وهو يطلب منا أنّ نناديه بسيادة الضابط .وكنا بالفعل نناديه بهذا اللقب فيما بيننا.

فيما كان نجات يواصل الحديث، بدأت الأفكار تختلط في ذهني بسرعة جنونية .إذاً فلقب الضابط كان يُطلق على دوغان في تلك الفترة، أهي صدفة؟ أم أنّه يوقعنا في حبائل مكيدة قذرة كما نوّه مفيد؟ ولكن رجلاً يمتلك القدرة على التخطيط المرهف لكل تفصيل بهذه البراعة، ألم يخطر له أننا سنعرف بأنّ هذا اللقب كان يُطلق عليه في السابق؟ أيمكن أن يغفل أمراً على هذا القدر من الأهمية؟

-تقول إن دوغان كان منخرطاً في بعض النشاطات المسلحة —تدخل إرول في الحديث —ولكن كيف حصلت على هذه المعلومات؟

-بالطبع من رفاقنا في الحزب، حيث كان دوغان يتردد عليهم ويعرض عليهم الانضمام إليه في هذه العمليات، وكان معظمهم يرفضون الفكرة .إلا أنّ هناك قسماً كان يوافق، تحت ذريعة أنّ كل وسيلة مباحة في مواجهة المدّ الشيوعي. على أي حال فقد وقع الانقلاب العسكري، وبعد مرور يومين اثنين فقط، وأودّ هنا أن تركزا معي؛ فبعد يومين من الانقلاب العسكري، حيث جميع الحدود تخضع لمراقبة شديدة، قام دوغان بالفرار إلى خارج البلد.

عادت بي كلمات نجات إلى أحداث تلك الفترة، فعقّبت بالقول:

-بصراحة، كنت أعتقد أنّ من سهّل هروبه إلى الخارج هم القوميون، ولا

أحد سواهم.

-محال، فقد شكل الانقلاب صدمة حقيقية بالنسبة إلينا .حتى أننا لم نتمكن من حماية رئيس حزبنا .في البداية ظننا أنّ الضباط المنضوين تحت لواء الحزب، هم من نفّذوا الانقلاب، وسيطروا على الحكم .ولكننا حين علمنا أن رئيس الحزب ملاحق، أدركنا حجم الخيانة التي تعرضنا لها .وقبل مضي وقت طويل بدأوا بملاحقة أعضاء الحزب النشطاء وقياداته، وزجهم في السجون، حيث تعرضوا لظلم كبير .وفي تلك الفترة بالذات هرب دوغان إلى الخارج دون أن يواجه أي صعوبة، وذهب إلى رفاقنا في الخارج، وهو يقول لهم إنه اضطر للهرب من البلد لأنه مُلاحَق، وطلب منهم توفير مأوى له .وقد صدّقه بعضهم في البداية، لكنهم حين لاحظوا التناقض في تصرفاته انفضّوا من حوله .وبعد استقرار الأوضاع بعض الشيء في تركيا، ووصول المعلومات بتورطه في عمليات مشبوهة، قطع الرفاق كل علاقتهم به. لكنه كان يعاني في تلك الفترة من ظروف صعبة بالفعل، فالأشخاص الذين استغلوه في الداخل، قد تخلوا عنه .وقد أصبح وحيداً في أوربا مع بعض من أصدقائه الذين اختاروا الطريق ذاته .ووسط مشاعر الغضب والحنق التي انتابته نتيجة شعوره بتخلي الجميع عنه، جمع حوله بعضاً ممن يفكرون مثله، وبدأ بمهاجمة رفاقه السابقين من القوميين .وقد سقط جرحى من الطرفين .وبذا فقد فرّقت الدماء المهدورة بيننا وبين دوغان .واعتبارا من ذلك اليوم لم تجمعه أي صلة بالحزب على الإطلاق.

-وماذا فعل دوغان بعد ما حصل؟ —سألت.

-لا أعرف على وجه الدقة طبيعة نشاطاته، ولكن المرجح أنه انخرط في أعمال غير قانونية.

كانت محاولته في إلقاء اللوم فقط على دوغان الذي انحدر من صفوفهم؛ وإنكار الدور الذي لعبوه أثناء الحرب الباردة؛ خوفاً من توجه للبلاد نحو الاشتراكية، بالضغط على أحزاب المعارضة، وبل وممارسة أعمال إرهابية بحقهم .وإن تنكره لكل

ذلك، وغسل يديه من كل تلك القذرات والدماء، وتحميل مسؤوليتها لدوغان وأمثاله، ينطوي على إجحاف كبير، ويبدو أنّ إرول أيضاً كان يشاركني الشعور ذاته، لذا فقد بادر بالقول:

-ولكن الرجل الذي تدّعي بأنه كان متورطاً في أعمال غير قانونية، قد قام، وبناء على طلب من الدولة التركية، بتنفيذ كثير من الهجمات على حركة ASALA، والتي كانت تنطوي على خطورة بالغة.

-صحيح، فقد جرت بينهما لقاءات عدة، وتم إبرام اتفاقات متعدّدة، ولكن لا علاقة لنا بكل هذا.

-ولكن دوغان ظل حتى اللحظة الأخيرة يعتبر نفسه منضوياً تحت لواء القوميين، وقد اعترف كما فعلتم، بارتكاب أخطاء في الماضي، إلا أنه أكّد على انتمائه إلى توجّهه القديم .هل الحركة القومية محتكرة عليك وحدك، حتى تقرر أنه ليس واحداً منكم؟ وما السبب الذي يدعوكم للخوف من دوغان إلى هذه الدرجة؟

-نحن لا نخشى شيئاً أو أحداً سوى الله سبحانه وتعالى —أوضح لنا نجات، وقد احمر خداه الممتلئان —ونحن على استعداد؛ كقوميين للتضحية في سبيله بالروح والجسد .وبعد كل التضحيات التي قدمها رفاقنا، والدماء التي دفعوها ثمناً لصون قضيتنا، لن نسمح لبعض المتسلّقين والانتهازيين بتلطيخ تلك التضحيات العظيمة —تنهد بعمق، وأضاف بطريقة تشي بأنه على وشك البوح بسر عظيم — هل تعلمون أنه كان يتعاون مع الاستخبارات الألمانية؟ ومن ثم عمل لصالح ال (CİA)وقام بتنفيذ بعض العمليات في جنوب أميركا؟

لقد بدأ يبالغ كثيراً.

-يا رجل — !علّقت —ألا تشعر أنك تبالغ كثيراً؟ فما تقوله يشبه فلم إثارة أميركي من الدرجة الخامسة.

لكنه نفى بحركة من رأسه، وأضاف بثقة كبيرة.

-حين تظهر الحقيقة للعلن، ستعرف إن كان ما أخبرك به فيلماً أم واقعاً.

-ومتى ستظهر هذه الحقيقة برأيك؟

-لقد بدأت بالظهور بالفعل، فها أنا أسردها أمامكم بكل وضوح.

-ولكن ما أخبرتنا به لا يفضي إلى أي نتيجة —قلت، رغم أنّ ما رواه لنا عن الضابط كان مثيراً للاهتمام، وربما سيبوح بمزيد إن تمكّنت من إثارته— فأنت تريد أن تخبرنا، أنّ بعض القوى التي كانت تهدف لزعزعة استقرار البلد قد قامت باستغلال دوغان، وتوريطه في عمليات غير قانونية .ولكن إن شئت الصدق، فالقوميون، أعني ألم يكن بعض القوميين ممن لم تربطهم علاقة مع قوى الظلام التي تشير إليها، متورطين في العمليات الإرهابية التي عصفت بالبلد؟ فأنت شاهد حيٌّ على ما جرى في تلك الأيام، وبصفتك من القوميين، وأرجو منك أن تكون صريحاً. هل تنكر علاقة حزبكم بما جرى من جرائم في تلك الفترة؟

كنت أتوقع أن يدّعي أنهم يفترون عليهم بهذه الادعاءات، ولكنه لم يفعل.

-أرجو منك ألا تخلط الحابل بالنابل —قال، وقد مال بجذعه نحو الأمام، في مواجهتي، وبدا وكأنه يستعد لعراك ما، فأدركت أنني نجحت في إثارة مزاجه الناري الراكد تحت ذلك الشعر الأحمر —صحيح، فقد لجأنا لاستعمال السلاح، وقتل البعض .ولكن لم نفعل ذلك دون سبب، فقد كنا في حالة دفاع عن النفس —بدا وكأنه يكابد في التنفس —ورغم ذلك فأنا لا أبرّر ما حصل بالطبع .كما أنّ اليساريين أيضاً قد قاموا بقتل الكثير من زملائنا .أي أنّه كان فعلاً متبادلاً من الطرفين .ربما تمّ استدراج كلا الطرفين إلى لعبة قذرة، ولكن لم تكن لنا أي غايات أو مآرب خاصة، فكل ما قمنا به، كان من أجل هذا الوطن وهذا الشعب

ومصالحه .ولم نخضع لمطامع أي جهة خارجية من أعداء هذه الأمة، بإرادة أو وعي منا .وهذا هو الفرق بيننا وبين دوغان وأمثاله.

كان يتكلم بحدة وصوت مرتفع، حتى أن الشرطيين قد توقفا عن تناول الطعام، وأخذا يراقباننا بانتباه، متوقعين حدوث شجار على ما يبدو .عندها ربت الرجل الجالس إلى يمينه، على كتفه بهدوء وهو يقول:

-على رسلكم .نجات؛ اهدأ قليلاً حتى لا يُساء فهمنا.

-حسناً، أنا هادئ —قالها وعاد للاسترخاء على كرسيه، وأوضح فيما يحاول تصنع ابتسامة —حين تفتح دفاتر الماضي، يضطرب الإنسان رغماً عنه.

-من المفيد التحلي بالهدوء —قلتها ببرود، وكأنني لست من قام بإثارته — ولكنْ هناك سؤال أود طرحه عليك .فأنت تدعي أنّ دوغان كان ألعوبة في يد الاستخبارات الأجنبية .هل هناك من دليل على ما تقوله؟

بدت الخيبة على وجهه وهو يعترف لي:

-حالياً، لا نملك أي دليل.

كان عليّ ألا أمهله الوقت ليتمالك نفسه، لذا وجهت إليه ضربة جديدة.

-إذاً فلن نعتمد على ما أطلعتنا عليه، حتى ظهور أدلة تثبت صحة ادعاءاتك .وأرجو أن تتخيّل ما الذي سيحصل، لو أعلنّا أنّ أحد أعضاء البرلمان، من الحزب القومي، يدّعي أن دوغان كان عميلاً لل .(CİA)

احتقن وجهه الأحمر حدّ الاختناق.

-وهل طلبت منك نشر شيء من هذا القبيل —اعترض بحدة —وحتى لو فعلتم ذلك، سأقوم بتكذيب الخبر على الفور.

-إذاً كيف ستتصدون للمعلومات التي نشرناها حوله، والتي تعتبرونها مسيئة لسمعة الحزب ومواليه؟ فكل ما أخبرتنا به لا يحمل قيمة تخولنا الاعتماد عليه، أو نشره في الجريدة.

أخذ يرمقني بحنق، وعاد يتكئ بجذعه على الطاولة في مواجهتي، واعتقدت أنه سينفجر غضباً في أي لحظة، لكنه استطاع السيطرة على غضبه، وتناول كأس الشاي، ورشف ما تبقى فيه جرعة واحدة.

-لا أعلم على وجه الدقة، إن كان كلامي يحمل قيمة صحفية أم لا – قالها ووضع فنجانه على الطاولة –فقد أديت واجبي، وكان يجب أن تسمعوا ما لدي .وحتى لو لم تصدّق ما أخبرتك به، فهو سيبقى محفوظاً في زاوية ما من ذاكرتك .وحتى لو لم يحصل ذلك، فلن أشعر بالذنب إزاء ما حصل .ذلك أنني أخبرتك بالحقيقة كما هي بالفعل.

لكنني لم أكن أنوي تركه وشأنه، بل إثارة مزيد من حنقه.

-أنت تردّد كلمة الحقيقة منذ لقائنا بك، دون أن يكون لديك أي دليل أو وثيقة تثبت صحة ما تقوله .فهلاّ أخبرتني كيف لي أن أصدقك وأثق في كلامك؟

-لا تصدّقني .فهذه مشكلتك أنت.

قالها وقد فتح كفيه باستسلام، فيما ابتسم رفيقاه.

أدركت حينها صعوبة إثارة غضبه، ولكنني حاولت معه في جولة أخيرة.

-هل تلاحظ أمراً سيد نجات؟ –قلتها وأنا أحدق إلى عينيه بإمعان – الشخص الذي تحاول الطعن في مصداقيته، كان فيما مضى رفيقك في درب النضال، والمفارقة المرة أنني مجبر الآن على الدفاع عنه، أمام اتهاماتك.

لكنه لم يبدِ أي تأثّر.

-لا يعلم سوى الله سبحانه وتعالى ما سيؤول إليه الناس في المستقبل. ولكنني أؤكد لك، بأنك ترتكب خطأً كبيراً بالدفاع عنه.

تدخل إرول هذه المرة.

-نحن لا ندافع عن أحد سيد نجات، ولكننا نطلب منك دليلاً أو وثيقة تثبت صحة ما تقوله، حتى نصدقك .وهناك أمر مهم لم أجد له تفسيراً —كان يتكلم بهدوء تام، وأعصاب حديدية، جعلتني أقدّر خبرته —طالما أنكم مستاؤون من أن يُحسب دوغان على حزبكم، وتدّعون أن ذلك سيؤثّر على سمعة الحزب، فلماذا لا تعقدون مؤتمراً صحفياً تعلنون فيه الحقائق أمام الملأ؟

لكن الرجل الأصهب رمق شريكي بنظرة ساخرة، قبل أن يوضح:

-أنتم الصحفيون جماعة لا تتصف ببعد النظر على الإطلاق —بدا وكأنه تخلّص من غضبه، بل وأخذ يواصل بشيء من السخرية —فأنتم تريدون منا الظهور أمام الرأي العام في الوقت الخاطئ، لتصنعوا منا مادة إخبارية على صفحات جرائدكم .ولكن اللعبة لن تنطلي علينا، لأنّ كل شيء سيأتي في وقته المناسب. وحين يأتي هذا الوقت سيعقد الحزب مؤتمراً بكل تأكيد .وسنعلن أمام الجميع أن لا علاقة تجمعنا بدوغان .ولكن، حين يحلّ الوقت المناسب فقط.

الفصل الثاني والثلاثون

طوال طريق عودتنا إلى الجريدة كنت أفكر بما قاله نجات، حيث كان يشبه ما أطلعني عليه مفيد .فكلاهما صرح بأن دوغان، وإن كان قومياً فيما مضى، لكنه الآن لا يملك أي مبادئ أو قيم، وهو مستعد للانضواء تحت جناح الطرف الأقوى في أي لحظة، وهو يعمل من أجل مصالحه فقط، وليس سوى إرهابي يملك خبرة وبراعة كبيرة .ورغم أنّ نجات لم يصرح بأن كل ما حصل هو مؤامرة من رفيقه القديم، ولكن ما قاله، كان يطابق بشكل مريب ما أخبرني به مفيد .أيعقل أن يكون مفيد من أرسله إليّ، من أجل أن أسمع الرأي ذاته من جهة مغايرة؟ وبالتالي تضليلي عن الحقيقة؟ لِمَ لا، وهو يعمل مع الاستخبارات التي لا تتوانى عن استخدام هذه الألاعيب .وما مررت به في الأيام القليلة الماضية، أثبت لي أنّ أكثر الاحتمالات بعداً عن الواقع من الممكن أن تتحقّق، وتجدها ماثلة أمامك .كما أنه لا يوجد مانع من إعادة إحياء شراكة الماضي .ففي الثلاثين سنة الأخيرة، ألم تقف قوى الأمن إلى جانب القوميين على الدوام؟ فهي تعتبرهم قوة إضافية، ولا سبب يحول دون عودتهم إلى العمل سوية.

ولكن مع قليل من التفكير بدأت أدرك بعض الفروقات بين كلام مفيد ونجات .فأول فارق هو ما قاله مفيد حول أنّ القوميين هم من ساعدوا دوغان على الفرار من السجن .وبحسب ما لاحظت من كلماته، أنه كان يستخف بالقوميين، ويرى أنهم يفتقرون إلى الخبرة .أما نجات، فقد اعتبر أنّ من ساعده على الفرار، هم قوى الظلام الذين تحدث عنهم، وإن كان يلمّح إلى رجال الدولة من هذه التسمية.

فهو لم يخفِ استياءه مما حدث، حين سحبت منهم الدولة صلاحيات محاربة اليسار، حيث اعتبروا الأمر نوعاً من الظلم والخيانة، التي تعرضوا لها .لذا، فمن غير المنطقي أن يكون مفيد هو من أرسل نجات لإقناعي .إذاً فهو حين أخبرني أن لقب دوغان كان الضابط، لم يكن يلمّح إلى أي شيء آخر .ولكن هذه النقطة كانت على غاية من الأهمية بالنسبة إليّ، لأنّ مفيد يعتبر أنّ الجثة التي احترقت في السيارة ليست جثة لدوغان .كما لا يجب التغاضي عن حقيقة أخرى، وهي توقف اتصالات التهديد منذ البارحة، أي منذ مقتل يالفاج وغونغور ونشر الخبر في الجريدة .لا لا، من المبكر اتخاذ قرار ضد دوغان، والأفضل انتظار ظهور نتائج التحليل، وحتى ذلك الوقت عليّ ألا أفكر في القضية .ولكن، كيف سأتمكن من فعل ذلك، ونصرت ينتظر مني إتمام التحقيق حول الخبر؟ كما أنّ الوقت قد فات على محاولة الابتعاد، فحتى لو فعلت ذلك، لن يتركني الآخرون وشأني، كما حصل مع نجات الذي أصر على اللقاء بي.

-ما رأيك فيما حصل؟ —توجّهت نحو إرول الذي يجلس بجانبي —ما الذي يريده هذا الرجل منا؟

-من الواضح أنهم خائفون —أوضح إرول —فإن صعدوا هلكوا، وإن نزلوا غرقوا .فدوغان محبوب في أوساط اليمين الذي يناصر استخدام القوة والعنف في القضاء على خصومه، ولكنه في الوقت ذاته منخرط في الكثير من الأعمال المخالفة للقانون، وهي حقيقة لا يستطيعون إنكارها .وإن قاموا بأي تصريح ضده، فسيستجلبون على أنفسهم استياء مناصريه، وإن أعلنوا العكس بدعمهم له، سيعني ذلك تحديهم للقوانين، وبالتالي ستوضع مصداقية الحزب على المحك، وتتعرض مشروعيته للطعن .ففي الوقت الذي يحاولون فيه دفن ماضيهم، وتغيير أساليبهم القديمة، سيكون ارتباط اسمهم مع دوغان نقطة في غير صالحهم .لذا فهم يحاولون الترويج من خلالنا بأن دوغان لا ينتمي إلى صفوفهم .وهناك نقطة مهمة يجب عدم إغفالها؛ فهؤلاء قد دفعوا ثمن الكثير من أخطائهم، وهم في طور النضج والتمتع

بثمار مسيرتهم، ولا يريدون لشخص مثل دوغان أن يشاركهم في حصتهم .فصحيح أنه كان يعمل معهم في وقت من الأوقات، ولكنه غير من توجهه، وعمل مع أطراف أخرى أيضاً .وحين يخرج الآن من عالمه الخفي المظلم، ليعلن أمام الملأ أنه قومي، فهذا ما لن يقبلوا به .وهم لن يجرأوا على قول كل هذا علانية، لذا فقد اكتووا بالنار من كلا الجانبين.

-ولكن يا صديقي، ما لنا وكل هذا التاريخ .نحن نعمل على إظهار الحقيقة، والتي تقول إن دوغان لو لم يكن قومياً، لما انخرط في كل هذه الأعمال.

-إنك محق، فهذا احتمال كبير .وبرأيي لو قلنا عنه إنه قومي قديم، فنحن لا نجانب الحقيقة.

وقبل أن ينهي كلامه بدأ هاتفي النقال بالرنين، خففت من سرعة السيارة، وأخرجت الهاتف من جيبي، حيث شاهدت اسم أوموت على الشاشة.

-ألو أوموت .هل حدث أمر ما؟

-لا لا بابا، ما من شيء —قال —لا تخف .لقد قررنا السفر إلى فرنسا. وقد اتصلت من أجل إطلاعك على الأمر.

ورغم معرفتي أنّ الرسام أيضاً سيرافقهما، إلا أنني شعرت بأنني أنزلت عن كاهلي حملاً ثقيلاً.

-لقد أسعدني ذلك يا بني .فهذا هو عين الصواب، ومتى قررتم السفر؟

-ما إن نحصل على الفيزا، سنسافر على الفور.

-وكم يستغرق الحصول على الفيزا؟

-اليوم سنقدم طلباً للحصول عليها .نحن الآن في مكتب العم إتهم، فهو

لديه بعض المعارف في السفارة، وقد اتصل بهم، وأخبروه أننا سنحصل على الموافقة في أسرع وقت ممكن.

-عظيم —تمتمت —فكلما أسرعتما بالرحيل، سيكون ذلك جيداً.

-ليتك سافرت معنا بابا.

-لقد تحدثنا في الموضوع البارحة —قلتها باقتضاب وحسم.

-ولكن عدني بأن تتوخى الحذر.

-حسناً، أعدك .سأفعل ذلك.

-أمي والعم إنهم يرسلان لك السلام.

يبدو أنّ هذا المأفون قد تمادى في وقاحته، وها هو يرسل لي سلامه أيضاً. حسناً، لنرى ما ستؤول إليه هذه المهزلة.

-وأنت أيضاً بلّغهما سلأمي —وأنهيت المكالمة.

-هل سيسافران إلى مكان ما؟ —سألني إرول.

-إلى فرنسا —أجبت، وأنا أزيد السرعة مجدداً —حتى تهدأ الأوضاع، فمن الأفضل لهما الابتعاد لفترة مؤقتة.

-برأيي أنك تبالغ في مخاوفك —قالها مظهراً اللامبالاة —لقد مرت العاصفة، ولا يمكن للأمور أن تصبح أكثر سوءاً.

- أتعني بأننا لن نعثر على هذا المدعوّ بالضابط؟ —سألت.

قالها في نبرة واثقة، وكأنه يملك دليلاً ملموساً على كلامه:

-لن نعثر عليه.

-ولكن نصرت له رأي آخر.

-بالطبع، فقد عثر على نبع جديد للأخبار، وسيستغله حتى آخر قطرة، ويواصل البحث حتى أبعد نقطة .وهذا ما سيثير مخاوف صاحبنا .لذا، من المرجح أن يبقى هادئاً لبعض الوقت .وقد يلجأ رؤسائه إلى تصفية الجميع، فهم لم يعودوا راغبين في الظهور بهذه الطريقة أمام أنظار الغرب .لذا، فهم لا يودون سماع كلمة عصبة، أو رؤية شرطي أو رجل مخابرات أو سواهم، متورطاً في هذه الأعمال .وما فعلناه قد عزز رغبتهم هذه بصورة أكبر .أنا لا أنوي التقليل من قيمة ما نقوم به، ولكن إن كنت تظن أننا سنتمكن من كشف المستور، والوقوف على خبايا كل الأمور، وما كان يجري في الخفاء طوال هذه السنوات، فأنت مخطئ .فنحن ومن دون أن نلحظ، نسير في الطريق الذي تم التخطيط له مسبقاً، بحيث تنتهي الأمور، من دون أن نصل إلى من يقبعون عند قمة الهرم.

لم يكن إرول متشائماً، أو مستاء وهو يشرح ليّ الأمر، بل بدا وكأنه يطرح أمامي أكثر الحقائق بداهة، وبالطبع كنت أؤيده في وجهة نظره هذه، ولكنني كنت أودّ الاقتناع بالمقابل، بأن الخطر الذي يتهددنا جراء الخوض في هذا الأمر، قد زال. إلا أن احتمال أن من كتب سيناريو هذه اللعبة، قد حضّر لنا نهاية مأساوية، كان أحد الاحتمالات التي لا تفارق ذهني .ورغم أنّ المرافقة الأمنية، وتوقف اتصالات التهديد قد خففت من وطأة مخاوفي، لكنني لم أكن أشعر بالأمان التام على الإطلاق.

حين وصلت الجريدة، وجدت ملاحظة من نصرت على طاولتي يطلب فيها كتابة مقال عن عارف، لكي يتم نشرها في عدد الغد .وكان محقاً فصحيح أنني لم أحضر جنازته، ولكنني كنت أقرب أصدقائه .لذا كان من الواجب عليّ، توديعه في مقال يليق به .فأنا الوحيد الذي كان بالرغم من تصرفاته الرعناء بعض الأحيان،

ومغامراته النسائية الفاشلة في معظمها، وميله إلى المداهنة، وجلافته، وضجري أحياناً من صحبته، كنت قادراً على رؤية تلك النظرة الطفولية التي تشع كوميض في لحظات الصفاء، من عينيه العسليتين.

جلست أمام شاشة الكمبيوتر، وأنا اشعر بوطأة ثقل كبير، وكأنني أحمل على كتفي تابوت صديقي، وبقيت لبرهة غير قادر على الضغط على حرف واحد، رغم أنني خير من يعرف تفاصيل حياته العائلية والمهنية؛ طليقته وابنته، مدراء التحرير الذين عمل معهم .ولكنني لم أكن أعرف من أين عليّ البدء بالكتابة.

فلو كتبت بأنه كان صحفياً لامعاً، وأباً عظيماً، وصديقاً رائعاً .وما إلى ذلك من مقولات مستهلكة، لن أكون سوى كاذب لا يحترم ذكرى صديقه الأقرب .فهو لم يكن صحفياً بارعاً على الإطلاق، بل أكثر ما يمكن أن يقال عنه؛ أنه كان متوسط الموهبة .لم يحقق نجاحاً في مجال الصحافة الإخبارية، ولم يستطع الصعود بصحيفة ما، من القاع إلى القمة .ورغم ذلك فقد كان الكل في الوسط الصحفي يعتبره ناجحاً، لأنّه كان يعرف كيفية عقد علاقات ناجحة بأسلوبه اللطيف .ونجاحه لم يكن يعود إلى مهارته الصحفية، بقدر مهاراته الاجتماعية.

أعلم أنها ليست الكلمات المناسبة التي سأنعي بها صديقي، ولكنها الحقيقة بكل أسف، فقد عاش تجربتي زواج فاشلتين بكل المقاييس .حيث قام بخيانة زوجتيه، ولم يتوانَ عن التعامل معهما بوقاحة بالغة .وأكثر شخص يحبه؛ هو ابنته فيليز، وكان يردد على الدوام» :إن أفضل ما فعلته في هذه الحياة، هو أنني أصبحت أباً لفيليز .«ورغم كل هذه المحبة، إلا أنه كان يهملها أحياناً، ولا يقوم بكامل مسؤوليته إزاءها .بسبب ميله للإهمال أحياناً، وأحياناً أخرى لأنه ينسى أمرها، حين يسهر في نادٍ ما مع أصدقائه حتى الصباح، أو يخوض مغامرة نسائية جديدة من مغامراته .وفي السنوات الأخيرة، لاحظت أنه بات أكثر طمعاً، وقد تأثر بالتغيرات التي عصفت بمجال الإعلام، وقضت على الكثير من المبادئ المهنية، ورغم أنه كان

يتمتع بمكانة وظيفية معتبرة، إلا أنه كان يشعر بقلة الثقة، وبأنه مهدد بالطرد .لذا كان يميل إلى مجاراة الآخرين في العمل على مواضيع لا قيمة حقيقية لها، بدل الانشغال بمواد أكثر أهمية .وفي الحقيقة، كان هذا الشعور هو ما أودى بحياته في النهاية، فلرغبته اللحاقَ بالقطار، حاول العمل على مقالة مهمة، بعد سنوات من الانشغال بالسفاسف، وقاده هذا الجشع للتهور بحيث لاقى حتفه .هذا ما كان الوضع عليه بكل أسف.

في المقابل، كانت هناك حقيقة أخرى أهم من كل عيوبه ونواقصه، وهي أنه كان صديقي المقرب .وحين أتحدث عن الصداقة، فأنا أعني ذلك الشعور المنطوي على محبة خالصة من دون مآرب، شعور بريء لا تشوبه المصالح .ولكننا قد نختار في بعض الأحيان أصدقاء لا يتحلون بكل هذا الكمال، فالصداقة ليست عملية شراء تعتمد على الربح والخسارة، وتستدعي أن تكون الرابح في النهاية، فهناك صداقات تفرض عليك خسارة متواصلة من أجل أن تستمر .ولكن خساراتنا هذه قد تكون أهم مما سنكسبه في بعض الأحيان .ومهما تنطحت الدراسات الاجتماعية بتفسير هذه العلاقة، فأنا أجد صعوبة بالغة في وصفها .فالصداقة هي مجرد صداقة .حين تشعر بالراحة لرؤية شخص ما، والتحدث إليه، وسماعه، حين لا تفضي بك عيوبه، ونواقصه إلى استصغاره، وحتى لو شعرت ببعض الغيرة من جماله أو ذكائه، فإنك تظل فخوراً بصداقته على الدوام، حين لا تجد غضاضة في التحدث معه حول سفاسف لا قيمة لها، وتشعر بضرورة الاتصال به والاطمئنان عليه، وعندما تراه يشرق وجهك بابتسامة راحة، فهذا يعني أنّ هذه الشخص هو صديقك بالفعل .ولا يعود من أهمية لكونه دميماً أو جميلاً، ذكياً أو غبياً، جلفاً أو لطيفاً، مشهوراً أو مغموراً .فالصداقة تعلو فوق كل ذلك، لكن المهم أن لا تفقد براءتها .أجل، فالموضوع برمته يتمحور حول البراءة وصفاء النية بالنسبة إليّ .إنها توقظ فينا طفولة منسية، وهذه كانت طبيعة علاقتي بعارف، فصحيح أننا وجهنا لبعضنا إساءات في أحياناً، لكننا بالمقابل ساندنا بعضنا كثيراً، تخاصمنا، ولكننا

تقاسمنا معظم أسرارنا أيضاً.

وبناء على كل ما ذكرت، لم أكتب مقالاً أشيد بمناقب لم تكن موجودة فيه، ولم أبالغ في مدحه، بل كان مقالاً أقرب لرسالة وداع، ذكرت فيها بأنه كان يطمح على الدوام أن يصبح صحفياً ناجحاً، كتبت عن صداقتنا، عن طيبته، وقدرته التي لم يفقدها على الانبهار حتى بأبسط الأشياء، عن الليالي التي كنا نسهر فيها مع الأصدقاء حتى الفجر، عن المباريات التي كنا مصرين على حضورها حتى تحت وابل من الأمطار، عن مغامراته النسائية، ومحبته الكبيرة لفيليز، عن المرات التي كان يتصل بي في منتصف الليل، ليطلعني على ما سمعه في النادي من نميمة أو أخبار جديدة، عن روحه المرحة، وميله للدعابة .وأنه لو كان صحفياً في بلد آخر فمن المرجح أنه كان سيعيش عمراً أطول مما قضاه معنا، ولكنه لم يكن ليعيش الحياة الصاخبة الجميلة التي قضاها هنا .وأنهيت المقال بأن صديقي الذي قضى في سن مبكرة، لم تمرّ حياته عبثاً، بل كانت غنية بغنى روحه .وفيما كنت أعيد قراءته لتصويب الأخطاء، أطلّ إرول برأسه من الباب.

-جنازة عارف تعرض على شاشة التلفاز —قال.

تركت المقال، وأسرعت نحو زملائي المجتمعين أمام شاشة التلفاز في الردهة. حيث كانت تعرض الكلمة التي ألقاها نقيب الصحفيين أثناء الجنازة .كان الرجل الذي نكن له جميعاً بالغ الاحترام يعيد ذات الكلمات في عجز وغضب واضحين، كلما خسرنا واحداً آخر من زملائنا في حوادث مماثلة .ومن ثم تمّ عرض مشاهد لنعش عارف على الشاشة، ورغم الحشد الكبير، استطعت تمييز فيليز ووالدتها خلف النعش .لم تكن فيليز تبكي، ولكنها تتلفت فيما حولها بحركات آلية، ونظرات لا روح فيها .وبقربها كان يقف كل من شكيب إينجي وبحري نارمان، وقد علت وجهيهما تعابير من الحزن المبالغ فيه، وكأنهما أقرب أقربائه .وشعرت بأسى بالغ لأنني لم أكن هناك .ولكنني فكّرت في أن وجودي لم يكن ليغير شيئاً، فهو لن

يخفف من أحزان فيليز، ولن يجعل شكيب أو بحري يشعران بالخزي من جشعهما.

انتهت مشاهد الجنازة، والتفت لأغادر حين وصلني صوت المذيعة تتحدث عن مقتل اثنين من أفراد الشرطة، وعن مراسم دفنهما، لقد كانت تتحدث عن يالفاج وغونغور .فعدت للمشاهدة .حيث وضع تابوتان أمام مبنى مديرية الأمن، وقد تم لفهما بالعلم .لم يظهر مدير الأمن، لكن أحد المسؤولين كان يلقي كلمة تأبين.

-هل سيتم دفنهما وفق مراسم رسمية؟ —سألت.

-وهل هناك من حل آخر؟ —أجاب إرول.

لم يكن مستغرباً مثلي.

-أليسا متورطين في جرائم قتل؟

-هذا ما نراه نحن، هناك بعض من يعتبرونهما بطلين.

وبدأت أضحك بعصبية.

-رغم أنّ مفيد كان يدعي أمامنا، بأنهم يحاولون القضاء على العصابات المتغلغلة بين الدوائر الأمنية .وقد شكرني عزت لأنني قمت بكشف اثنين من الفاسدين .ها هم الآن يدفنون الفاسدين بجنازة رسمية.

لم تعد بي رغبة لمواصلة المشاهدة، فاتجهت مع إرول نحو المكتب.

-لما أنت مندهش من الأمر إلى هذا الحد؟ —قال إرول —أنسيت أننا في تركيا، وأن الأمور تسير على هذا النحو على الدوام .فما الذي يستطيع بعض من مسؤولي الأمن الصالحين تحقيقه؟ لا يمكن تغيير عادات قديمة خلال يومين. الأمر يستدعي انقلاباً كبيراً، وهذا ما لا طاقة لأحد، ولا نية عنده للقيام به.

لو لم أشاهد جنازة عارف على التلفاز، وصور فيليز، ولو لم أكتب تلك المقالة عنه منذ لحظات، لما شعرت بكل هذا الحنق والغضب حين رأيت الجنازة الرسمية التي أقيمت لهما، والتابوتين اللذين لفهما العلم.

-ولكن هذا ما يجب أن يحدث —واجهت إرول بحدة —لقد حان الوقت لقليل من التغيير.

-ولما تصرخ في وجهي؟ —قال إرول —اتصل بمفيد واسأله عن سبب ما يحصل، واستفسر عما حل بابن عم صلاح الدين، إن كان قد خرج من العناية المشددة أم لا، فقد طلب منا نصرت إجراء لقاء معه أيضاً.

ربما لو تريثت قليلاً، لما فعلت، ولكنني لم أفكر في الأمر وأنا أضغط على رقم مفيد ما إن دخلنا الغرفة.

-ألو —رد عليّ مفيد بصوت متعب.

-مرحباً مفيد —قلت.

-أووو .أهلاً عدنان.

ومن دون أن أمنحه الفرصة ليسألني عن أخباري، ويطيل المكالمة، بادرت بالقول:

-ظننت أنني لن أستطيع التحدث إليك الآن.

-ولما لا؟

-ظننتك لم تعد من الجنازة بعد.

كان التلميح الذي في كلأمي واضحاً .لذا، ظل صامتاً لبرهة قبل أن يسأل:

-أي جنازة؟

-وهل من جنازة أهم من جنازة زميليك اللذين أقيمت لهما مراسم دفن رسمية.

-لكنني لم أحضر الجنازة.

وبدا واضحاً من صوته أنه استاء من كلامي.

-ولكن رؤسائك كانوا هناك.

-اسمعني يا عدنان —بدأ يتكلم بثقة وحدة لم يحرص على إخفائهما— لم يتم التحقق بعد من ثبوت التهمة على يالفاج وغونغور، وأفراد الشرطة في هذا البلد مثلهم مثل بقية الناس، لا يمكن تجريمهم ما لم تثبت عليهم التهمة.

- حقاً؟ —علّقت —ولكنك البارحة كنت مقتنعاً بأنهما من أفراد الشرطة الفاسدين .فكيف تدعي الآن بأنهما بريئان؟

-أنا لم أقل أنهما كذلك بالفعل، بل قلت إنه احتمال وارد —صحح كلامي —فالقضية لم تحل بعد، ولا يمكن اتهام غونغور ويالفاج من دون التحقق من أنّ البصمات التي على الأسلحة التي تم العثور عليها، والتي تدعي أنها تعود لهما .وهذا لا علاقة له بكونهما من أفراد الشرطة، بل كما نوهت، لا يمكن اتهامهما ما لم يتم التحقق من كافة الأدلة.

-حسناً، أنا لا أطلب أن تتم معاملتهما كمتهمين، ولكن لما أقيمت لهما جنازة رسمية بالمقابل؟ وجميع محطات التلفاز تقوم ببث الجنازة.

-لا تبالغ كثيراً، فما الفرق إن أقيمت لهما جنازة رسمية أم لا؟ فلو لم تتم المراسم بهذه الطريقة، وثبت أنهما بريئان، ألا نكون قد أجحفنا بحق عائلتيهما؟

وكيف سنفسر الأمر لبقية زملائنا؟

-ستخبرونهم بأن هذا ما تفرضه القوانين.

-لا يوجد قانون ينص على ما تقوله .ولا تنظر إلى الأحداث بانحياز لو سمحت —ارتفعت حدة صوته —لو أنّ شخصاً مدنياً تعرض لأمر مماثل، فإنكم تقيمون الدنيا ولا تقعدونها، بينما حين يتعرض أحد أفراد الشرطة لذلك، تعتبرونه أمراً طبيعياً حصل له أثناء قيامه بعمله .أليس هذا ظلماً؟ أليسوا هم أيضاً بشراً، لديهم عوائل وأصدقاء وأقارب؟ ثم ما الذي سيتغير إن أقيمت لهم جنازة رسمية؟

-لا تهمني الجنازة في شيء، ولكن لفّ التابوتين بالعلم، وكل تلك الكلمات في حفل الـتأبين، ألا يعني أنّ هناك استمراراً في مواصلة الخطأ؟

-ما الذي تعنيه؟ — سأل بحدة.

لكنني واصلت التوضيح من دون أن أبالي بغضبه.

-أعني أننا قدمنا لكم كافة الأدلة التي تثبت تورطهما، ورغم ذلك أشعر أن هناك من يودّ التغطية على الحدث من بين زملائهما، ولا يرغب في كشف الحقائق.

-اعذرني، ولكن يبدو أنّك تبالغ في وساوسك —كان صوته يرتعش من الانفعال —لقد فعلت الكثير لتثق بنا، وأخذتك للتحدث مع عزت، ورغم ذلك ما زلت تواصل الشك .وكلما حاولنا مدّ يد العون لك، تعتبر أنّ في الأمر مؤامرة ما، وأنّ لدينا غايات دنيئة، وتعتبر أنّ كل من في الأمن ينتمون لعصابات قذرة، ويعملون لمآربهم الخاصة .ألا ترى أنك تبالغ في الإساءة إلينا؟

-أنا لا نية لي بالإساءة لأحد —قلت مرتبكاً —كل ما في الأمر أنني أشعر بالقلق إزاء مجريات قضية تخصني كما تخصكم.

لكن مفيد لم يكن ينوي التخفيف من حدته.

-ولما تشعر بالقلق يا أخي؟ لقد نفّذنا كل ما قلته، بل وأمنّا لك حماية شخصية أيضاً .ولكن لا يمكن ظهور الحقائق بين ليلة وضحاها، عليك التحلي بالصبر، وأن تولينا بعض الثقة.

-الغضب والانفعال لن يوصلانا إلى أي نتيجة —قلت، ورغم أنني لم أكن أنوي التراجع، لكنني لم أجد أمامي من وسيلة أخرى لمواصلة الحديث —لو لم أكن أثق بك، هل سأقوم بإطلاعك على مخاوفي وشكوكي؟ كل ما أبغيه أن يتم التحقيق في القضية وفق القوانين لا أكثر.

يبدو أن مسايرته لي في اليومين المنصرمين، قد شقّت عليه كثيراً، وكانت كلماتي الآن كفيلة ليطفح الكيل .لذا فقد واصل بغضب.

-ما هو هدفنا برأيك؟ ما الذي نريده ونعمل عليه بأقصى ما لدينا من طاقة؟ —صرخ بحدة —حين نكتشف وجود أشخاص فاسدين بيننا، فهذا أمر يحزننا أكثر منكم، ونبذل قصارى جهودنا للتخلص من أمثالهم، ولكننا بالمقابل لا نستطيع كيل الاتهامات جزافاً، من دون وجود أدلة حقيقية .فهذا ظلم كبير.

-وأنا أيضاً لا أطلب منك كيل الاتهامات جزافاً —لكنني لم أتمكن من إتمام جملتي.

-أفضل ما تقوم به الآن أن تأتي إلى هنا، لأريك كل ما عثرنا عليه في ذلك المنزل، ولو وجدت نقصاً في رصاصة أو ورقة واحدة، سأقدم استقالتي .أهذا كفيل بتطمينك؟

لقد بدأ الوغد بنهري علناً.

-هذا الأسلوب لن يوصلنا إلى أي نتيجة —قلت — ولو بقيت تكلمني

بهذه الطريقة، سأضطر لإنهاء المكالمة.

كنت أنتظر منه أن يقول اذهب إلى الجحيم، ويغلق الخط في وجهي، لكنه لم يفعل.

-ولما ستنهي المكالمة؟ —سأل —أنا لست غاضباً، كل ما هنالك أنني أحاول فهم ما تريده مني .لقد قتل صديقك وأنت غاضب، وتشعر بالخطر يتهددك وعائلتك، وأنت محق في كل ذلك، لكننا بالمقابل لسنا في وضع أفضل، فقد قتل اثنان من زملائنا، وجميع الفرق في استنفار تام .قد يكون كلاهما مجرمين، وهذا ما نحقق فيه .ولكن لا تحاول الضغط علينا أكثر من ذلك، فأنت صحفي بارع، وتستطيع أن تمدنا بالعون بدل لومنا .حتى نتمكن من التخلص من الفاسدين المتغلغلين بيننا .وأرجو منك ألا تعتبر جميع أفراد الشرطة أعداء لك .ألا يوجد صحفيون فاسدون بينكم؟ هل الجميع شرفاء لا تشوبهم شائبة؟

سكت لبرهة، ووصلني صوت أنفاسه اللاهثة.

-أجبني هل أن مخطئ؟ —واصل الحديث، ولكن بنبرة أقل حدة — أرجوك أن تكون منصفاً، وأنت تحكم علينا، فنحن نعمل كل ما باستطاعتنا للتخلص من الفاسدين، ولكن بدل من التشكيك فينا، وعرقلة عملنا، حاول أن تثق بنا قليلاً، فجميعنا نعمل لمصلحة هذا البلد وخيره، وما من داع لأن نصطدم ببعضنا دون مبرر.

لم أكن قادراً على تأييد ما قاله، أو الاعتراض عليه، بل بدأت أشعر بالحنق من نفسي لأنني قمت بالاتصال به من الأساس.

-أبعد الأفكار السيئة عن ذهنك يا عدنان —واصل الحديث ولكن بهدوء ولطف، بعد أن أفرغ كل ما في جعبته —التحقيق في هذه القضية متواصل بكل أمانة، ودون إهمال أي من التفاصيل .ولو حصل أي من ذلك، فمن حقك

أن تنبهنا إلى الأمر.

-كيف لي أن أنبهك —قلت وأنا أضحك بعصبية واضحة —فمن أول محاولة للاعتراض، تهجمت عليّ وكنت ستضربني لو كنت قريباً منك.

-على رسلك يا صديقي، لما تقول ذلك؟ —قالها بلباقة مبالغ فيها — فأنا أعتبرك صديقاً بالفعل، كل ما في الأمر أنني حاولت شرح حساسية الموضوع لك .وسيسرني أن تتصل بي، وتبدي كل ما لديك من ملاحظات، في الوقت الذي تشاء.

لقد عاد مفيد الذي أعرفه، من جديد وهو يواصل.

-ولا أعني فقط هذه القضية، بل بإمكانك الاستفسار عن كل ما تشاء، فقد كانت علاقتي بعارف وثيقة ومبنية على هذا الأساس من الصراحة .ولكن عليّ الاعتراف أنه لم يكن شكوكاً مثلك —سكت لبرهة —صحيح نسيت أن أخبرك أنني لم أشاهدك، فأنا لم أحضر جنازة يالفاج وغونغور بل كنت في جنازة عارف.

ربما جال في ذهنه، أنني وبعد كل ادعاءاتي برغبتي في إظهار الحقيقة، وحزني على فقدان أقرب أصدقائي، لم أكلف نفسي عناء حضور جنازته، ولكني لم أكن مبالياً بما سيعتقد عني .بل فكرت في الاستفادة منه ولو بقليل بعد سماع كل هذا التوبيخ.

-طالما تقول إننا يجب أن نساعد بعضنا، أريدك أن تؤمن لي لقاءً مع رمزي، ابن عم صلاح الدين.

-ألم تعلم؟ —قالها ببرود —لقد مات البارحة مساء.

-لا —قلت —لقد أحزنني الأمر.

-لو لم يمت، لكنت ساعدتك بالطبع —وقبل أن ينهي المكالمة، أضاف —لا أريدك أن تستاء مني بسبب هذه المحادثة، لا تنسى، فنحن نقف في الجهة ذاتها.

-حسناً، لا عليك —قلت.

وحين أنهيت المكالمة، شاهدت الوغد إروِل واقفاً خلفي، يضحك بخبث، من دون أن يخفي شماتته.

الفصل الثالث والثلاثون

غادرت الجريدة باكراً ذلك المساء، ليس لأنني كنت متعباً، بل لأنه لم يبقَ لديّ ما أفعله .اتجهت نحو محطة البنزين، لملأ السيارة بالوقود، ولغسلها أيضاً، فرغم أنّ الجو كان مشمساً منذ يومين، إلا أن آثار قطرات المطر الذي انهمر آخر مرة، كانت لا تزال واضحة على جسد عنقائي الجميلة .وبعد أن خرجت لامعة، نظرت إليها بزهو، وهي تلمع بكل أبهة تحت شمس الربيع، التي تضفي عليها هالة أسطورية. ومن ثم توجهت نحو المتجر الذي التقيت فيه بدوغان منذ ستة أيام .أجل لقد مر على هذه المعمعة التي تورطت فيها ستة أيام، بدت لي وكأنها ستة أشهر .والسلفة التي حصلت عليها من عملي الجديد، كانت كافية لشراء حاجيات المنزل، ولكنني لن أشتري شيئاً من الشراب، فدزينة الزجاجات التي اشتريتها حين التقيت بدوغان، لم تنته بعد .ورغم ذلك وجدتني أتجه إلى الركن الذي التقيته فيه، وتذكرت ابتسامته الجميلة وهو يعلق» :ألم تكف عن عادة الشرب طوال هذه السنوات؟ .«كنت أريد رؤية الأحداث من وجهة نظره .ووقفت عند الزاوية التي كان واقفاً فيها وهو يرمقني، بينما أنحني لأخذ زجاجات الشراب، وتساءلت عما كان يفكر فيه حينها، وأدركت أنها ليست المرة الأولى التي كان يراني فيها، فقد اعترف أنه يراقبني منذ عدة أيام. ولكن لما اختار اللقاء بي في هذا المتجر، وأمام رفّ الشراب بالذات؟ هل لأنه كان يود أن يشعرني بإطلاعه على نقطة ضعفي؟ لما اعتبرها نقطة ضعف؟ فالشرب ليس عادة أخجل منها .ولكن ما لم تكن صاحب محل للشرب والسهر، فليس من دواعي الفخر أن تشتري دزينة من الزجاجات، بدل واحدة أو اثنتين .ولكن هل كان يغمز من وراء ذلك، أنه يعرف أنني شخص كحولي، وبالتالي ستزيد فرص

قبولي لعرضه؟ فمن السهل السيطرة على شخص ما، حين الإمساك به في موقف ضعيف .وربما كان يريدني أن أدرك بأنّ كلينا متماثلان في انحدارنا نحو القاع وفشلنا، أي أنه اختار بداية موفقة للتواصل معي .كما أنني بدأت بالفعل أفكر بعد لقائنا، على أننا متشابهان في الكثير من النقاط .وكانت هذا أمراً لصالحه، حيث سأشعر بالشفقة عليه، وبالتالي أوافق على مساعدته وتلبية مطلبه .ولكن إن نظرنا إلى الأمور، من وجهة نظر مفيد، فيبدو أنه كل ما قام به، كان جزءاً من مكيدة كبيرة .ربما كان يبالغ بعض الشيء في التهويل من قدرات دوغان، ولكن سواء أكان يبالغ أم لا، فمن الواضح أنني لا أعرف سوى القليل عن أخي .ومن يعرفه حق المعرفة؟ فدميت تعتبره ملاكاً، وصلاح الدين ورمزي كانا ينظران إليه كنموذج كامل عن الرجولة والأخلاق .بينما حين يتحدث مفيد ونجات عنه، تشعر بأنهما يتحدثان عن شيطان رجيم .من منهم الصادق؟ ومن الكاذب؟ ربما كل منهم يراه من الزاوية التي يشاء، وهو يتحلى بجميع هذه الصفات معاً .فشخصيته المعقدة جعلت البعض يعتبرونه بطلاً، فيما يعتبره آخرون مجرد خائن .ولكن من وضع هذه الخطة الجهنمية، وقام بقتل سبعة أشخاص، من دون أن يرف له جفن، وربط الأحداث ببعضها، بحيث اختلط الحابل بالنابل، وضاعت الحقيقة وسط التفاصيل، من المحال أن يكون بطلاً .وبالمقابل لست متيقناً إن كان هو من فعل كل ذلك. وماذا عن لقب الضابط الذي كان يطلق عليه؟ فرغم أنه أمر يثير الشكوك، لكنه قد يكون مجرد مصادفة لا أكثر.

فيما أتجول بين رفوف المتجر، وآخذ ما أحتاجه من مشتريات، كنت أواصل ربط الحقائق ببعضها، وفكها من جديد لأعيد صفها في ترتيب جديد، ولكني في كل مرة، كنت لا أزداد سوى حيرة، وأهيم في الفوضى التي تسيطر على أفكاري أكثر .كنت أعلم أنني بحاجة إلى معلومات جديدة، تمكنني من وضع القطع في مكانها المناسب، بدل تلك الفتات التي يلقيها في طريقي كل من مفيد ودوغان ونجات، كل على حدة .وبدأت أكيل الشتائم لهم، وأدركت أنه من

الأفضل الكفّ عن التفكير في الأحداث، التي لا بدّ وأن تُحلّ بطريقة ما، وتركها تذهب نحو الوجهة المقدرة لها .شعرت بالراحة وأنا أركن إلى هذه النتيجة، ولكن إحساسي لم يستمر طويلاً، وأنا أتذكر القرار الذي اتخذته البارحة، بالبحث والتنقيب عن الحقيقة بنفسي .ما الذي يحصل لي؟ وكيف انحدرت إلى هذا الدرك من الضياع، وفقدان الثقة بالنفس، بل ونسيان ما أقرره بالأمس، والتخبط في شتى الاتجاهات مع كل يوم جديد؟ ولكن ما الذي يمكنني فعله؟ ففي كل مرة أخطو فيها خطوة إلى الأمام، تجبرني الظروف على التراجع خطوتين إلى الخلف.

انتهيت من شراء حاجياتي، وانطلقت بصديقتي الوحيدة، نحو الطريق السريع، وما إن أغلقت بابها على نفسي حتى عادت الأفكار للتزاحم في رأسي، وأخذت تزداد سرعة مرورها لتنافس سرعة سيارتي .وبقيت على هذه الحال، حتى وصولي المنزل، حين وجدت رسالة فوندا، أو محادثتها التي تركتها لي على المجيب الآلي.

-مرحباً عدنان —هكذا بدأت —تعرف أنني أكره المجيب الآلي، بل أكره التحدث على الهاتف في مواضيع خاصة، ولكنني لست مستعدة بعد للحديث معك وجهاً لوجه .كما تعلم، فقد قررنا السفر إلى فرنسا .وقبل سفرنا أردت إخبارك ببعض الأمور؛ فمهما حدث بيننا ستظل شخصاً مهماً في حياتي، ورغم أنني ارتبطت برجل آخر، وقد تفعل الشيء ذاته مع امرأة أخرى، لكنك ستظل على الدوام، استثنائيا في حياتي .وأرجو منك أن تتفهم موقفي، لأنه أمر يعني لي الكثير. وطوال فترة سفرنا، سأبقى قلقة عليك .أرجوك أن تتوخى الحذر وتنتبه لنفسك، مع قبلاتي الحارة .وأرجو أن نلتقي عما قريب.

وفيما أسمع رسالتها انتابتني مشاعر متناقضة، فقد سررت لأنها تفكر في، وتبدي قلقها عليّ، ولكنني في المقابل سُحقت تحت وطأة مشاعر الغيرة القاسية، وأحسست بسوط يلهب أضعف ثنايا قلبي .فكّرت أنها ربما تشعر بالخجل لأنها

ستغادر وتتركني لوحدي، لأنني وفي جميع ظروفها، لم أتخلَ عنها ولو لمرة واحدة. ولكن هذا التوضيح لم يقنعني، لأنني من أجبرها على السفر .وعدت للتفكير بأنها تعيش أسعد أيام حياتها، مع حب جديد، وكل ما ينغص عليها هو التعاسة التي أتمرغ فيها .وليس ذلك فحسب بل الخطر الذي يحدق بي من كل جانب .ولأنها امرأة حكيمة، فقد أرادت أن تحسن علاقتها بي، لكي لا يؤثر الأمر عليها مستقبلاً. ولكن لا، لن أمنحها هذه الراحة، ولن أسمح لها بالتمتع مع ذلك الرسام اللعين. أعلم أنها أنانية من قبلي، ولكنني لا أستطيع تقبّل الأمر، فليس من العدالة أن تسافر مع عشيقها لتقضي معه لحظات رومانسية في باريس، بينما أتلوى هنا وسط أوحال وحدتي وفشلي ومخاوفي .لن أتصل بها وأخبرها بأنني أتفهم موقفها، وأوضح لها أنني لست غاضباً منها لأن الظروف هي من أوصلتنا إلى هذه النتيجة، وأنّ صداقتنا ستستمر مهما تقلبت بنا الظروف، وأنني مستعد لفعل أي شيء من أجل سعادتها .لا لن أخبرها بأي من هذا.

زاد غضبي، وأخذ الحنق يغرس أنيابه في روحي، فيما أتجه نحو المطبخ. ودون أن أكلف نفسي عناء توضيب المشتريات في مكانها، صببت لنفسي كأساً من الشراب، اجترعته على دفعات متتالية، وبعد انتهاء الكأس الثاني، كانت غيرتي وحنقي قد سيطرا عليّ بشكل أكبر من ذي قبل .وأخذت الأوهام تتعاظم في نفسي، وهي تصورني مسكيناً، يستحق الشفقة، أمام جبروت فوندا وأنانيتها، وقد بالغت في تصديق هذه الأوهام، حتى أنني تصورت للحظة بأنها السبب في كل المصائب التي ألمت بي .فلو أنها عاملتني ببعض الرفق والتفهم، في بداية إقبالي على الشرب، لما غرقت فيه كما الآن، ولما خسرت عملي، وتحولت إلى فاشل، مما شجّع دوغان على القدوم إليّ واستغلالي بهذه الطريقة .ولما وجدت نفسي وسط هذه المتاهة الدامية .وبقيت فترة طويلة أتقلب على تناقضات الأوهام، حتى استنفدت كل طاقتي، وغفوت في سبات عميق.

أفقت صباح اليوم التالي على صوت الهاتف النقال، كان المتصل؛ إرول.

-أين أنت يا رجل —قالها بقلق —أنسيت أننا سنجتمع مع نصرت في الحادية عشرة؟

سحقاً، لقد غاب الموضوع عن بالي، وحتى لو بقيت متذكراً الأمر، فمن الصعب النهوض باكراً بعد كل ما تجرعته البارحة.

-كم الساعة الآن؟ —سألت.

-وكم تظنها؟ إنها العاشرة والنصف —وواصل التوبيخ —تباً لك، ما زلت نائماً، أليس كذلك؟

-اخرس —بادرت بالهجوم، لأتحاشى مزيداً من التوبيخ —أنا في الطريق، لا تقلق سأكون هناك في الحادية عشرة.

أنهيت المكالمة، ونهضت بقفزة واحدة، متجهاً نحو الحمام، حيث غسلت وجهي، ولم أملك الوقت الكافي لحلاقة ذقني، ففكّرت أن أقوم بذلك في الجريدة إن اقتضى الأمر، ولبست كيفما اتفق، وأسرعت نحو الخارج.

حين شاهدني الشرطيان، أنطلق كالمجنون، انتابهما القلق، ظناً أنني تعرضت لهجوم ما، ولكنني أوضحت لها أنني تأخرت عن اجتماع مهم، وتوجهت نحو عنقائي، وبدأت القيادة بأقصى سرعة ممكنة .بعد ربع ساعة كنت على الطريق السريع، حين بدأ هاتفي النقال بالرنين، فأخذت ألعن نفسي على هذه العادة الجديدة، حيث صرت أنسى إغلاق الهاتف .تركته يرن، علّ المتصل يمل، ويكف عن إزعاجي، ولكن أمام إصرار الرنين، تبادر إلى ذهني أوموت، وخشيت وقوع مكروه لهما، فخففت السرعة قليلاً، وأخرجت الهاتف من جيبي، كان رقماً لا أعرفه .أجبت:

-ألو.

-ألو عم عدنان —وصلني صوت حزين لفتاة شابة —أنا فيليز —لقد خمنت ذلك حال سماع صوتها، وشعرت بخجل شديد، ذلك أنني كنت أنوي الاتصال بها مساء البارحة، ونسيت الأمر كما نسيت سواه.

-أهلاً فيليز —قلت —كيف حالك يا ابنتي؟

-أحاول أن أكون بخير —قالت.

وفيما أحاول البحث عن مبررات وذرائع، واصلت الكلام:

-قرأت المقال الذي كتبته عن والدي —وبدأ صوتها يختلج —وقد أثّر في، شكراً لك، لقد كان مقالاً جميلاً.

-يسرني أنه راق لك —قلت —هل أنت بحاجة لشيء ما؟ أيٍ شيء يمكنني فعله لك.

-شكراً لك عم عدنان —وقد تخيلت عينيها المخضلتين بالدموع —ما من شيء لتفعله، فلا أحد يستطيع فعل شيء بعدما حصل.

-تستطيعين الاتصال بي، في أي وقت تشائين، إن شعرت بالضيق، أو احتجت لمساعدة، أو لمجرد التحدث مع أحد.

-سأفعل، انتبه لنفسك —قالتها وأنهت المكالمة.

وحسناً ما فعلت، لأنّ صوتي أيضاً بدأ يختلج، ولو استمرت المحادثة أكثر، كنا سنبكي كلانا .سحبت نفساً عميقاً لأتمالك نفسي مجدداً، ولعنت نفسي لأنني بدأت بالتأخر على العمل، منذ اليوم الثالث وواصلت الطريق وأنا أزيد السرعة، ورغم ذلك كانت الساعة الحادية عشرة والربع حين وصلت الجريدة ,وما إن دخلت، حتى بادرت بالقول:

-أعتذر جداً —كنت لاهث الأنفاس —ولكن كان هناك حادث كبير، وقد تمّ إغلاق الطريق بسببه.

-لا عليك، تفضل بالجلوس —لكن نظراته كان تشي بأنه لم يصدقني، وأنه يعرف أنّ إفراطي في الشرب مساء هو سبب تأخري.

كان إرول أكثر قسوة منه حين بادر بتوبيخي:

-لو خرجت من البيت باكراً لما تأخرت.

-حسناً، لن يتكرر الأمر —قلتها وقد تخلصت من الحرج الذي ألمّ بي عند دخولي، وجلست قبالة إرول في تحدٍّ واضح، وأنا أبدي عدم مبالاتي به وبمديره أيضاً، وربما هذا ما جعل نصرت يتراجع خطوة نحو اللطف، ويعرض عليّ قائلاً:

-حسناً، ماذا تريد أن تشرب؟ —ولكنه كان سؤالاً مفخخاً —ما رأيك بفنجان قهوة سادة؟ سيشعرك بالتحسن.

لم أبدِ استياء من ملاحظته على الإطلاق.

-حسناً، سيكون ذلك جيداً.

ومن دون أن يكلف نفسه عناء سؤال إرول عما يود شربه، طلب ثلاثة فناجين قهوة سادة.

-إذاً ما الذي بحوزتنا حتى الآن يا زملاء؟ بدأ الاجتماع.

وقبل أن أجيبه، بادرته بالسؤال:

-ألم يحضر تولغا؟

-لقد كان في الجوار —أجاب إرول وكان لا يزال مستاء مني، وقد عقد

حاجبيه وهو يسألني —ما الذي تريده من تولغا؟

-ألا يعمل معنا على القضية ذاتها؟ فقد طلبت منه التحقق من الحوادث التي ذكرها دوغان في طلبه .وأريد أن أعرف ما توصل إليه.

كان ينوي الاعتراض، ولكن نصرت لم يمنحه الفرصة.

-حسناً —قال —عدنان محق، دعونا نستدعي تولغا أيضاً.

كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة ونصف، حين تم العثور على تولغا، وأنهينا شرب القهوة.

-كل الحوادث التي ذكرها دوغان في تقريره صحيحة —بدأ تولغا بسرد نتائج بحثه —ولم يتم العثور على الجاني في أي منها .والأهم أنها جميعاً وقعت في ذات الزمان والمكان الذي أورده دوغان، من دون أي تغيير .وهذا يشير إلى احتمال صحة ما قاله.

-لا يمكننا التأكد من الأمر، فلولا شخصية الضابط التي حدثنا عنها، لكنت وافقتك الرأي، ولكن.

-ما قصة هذا الضابط؟ —تدخل نصرت متسائلاً.

-ألم يخبرك إرول بالأمر؟ —جاء دوري لأنتقم من صديقي، الذي حاول الإيقاع بي قبل قليل —لقد كان الضابط هو اللقب الذي أطلقه أصدقاء دوغان عليه فيما بينهم.

-حقاً؟ —قالها نصرت، ولكنه لم يبدُ مندهشاً كثيراً، بل اتجهت نظراته نحو الأوراق الموضوعة أمامه وتابع في ضيق —إنها معلومة غريبة.

-معك حق — وواصلت الشرح —ربما علينا تصديق ما قاله لنا مفيد بأن

دوغان لم يُقتل، وكل ما حصل هو.

-لا تتسرع في اتخاذ القرار —قالها وقد بدا على وجهه انطباع غريب، وظننت أنه سيعاود فحص الأوراق التي أمامه، لكنه واصل —إنها سيرة مختصرة عن مفيد —قال وهو يشير بيده إلى الأوراق —ما رأيك أن تسمع ما كتب هنا، ومن ثم نتبادل الأفكار.

أخذنا نحن الثلاثة نرمقه بفضول كبير.

-مفيد سوزمن، من مواليد أدابازار، العام ألف وتسعمئة وثلاثة وأربعين، فقد والديه حين كان في الخامسة من عمره نتيجة حادث مروري .وانتقلت رعايته إلى عمه الكهل في أدرنة، الذي كان مدرساً لمادة الأدب، وفي الوقت ذاته شاعراً. ورغم أنه بالكاد كان يستطيع تدبر أمر ولديه الاثنين، إلا أنه لم يخل بواجبه اتجاه ابن أخيه، حيث أخذه على الفور، واهتم برعايته .درس في مدارس أدرنة، ومن ثم قدّم على امتحان الثانوية العسكرية، ولأنه كان فتى ذكياً فقد نجح في امتحانات القبول .وتابع دراسته في الثانوية حيث كان من الطلبة المتفوقين .وانهالت عليه الثناءات والتقديرات، حتى أنه حاز المرتبة الأولى في سنته الثانية .ومن ثم تابع في الكلية الحربية، وقد حافظ على تفوقه في سنواته الأولى، لكنه تراجع قليلاً في نهاية دراسته .تخرج برتبة ملازم ومن ثم تلقى تدريباً لمدة سنتين مع قوات الكومندوس. وكان من بين الثلاثة المتفوقين الذي أنهوا التدريب .وحتى أحداث قبرص، لم يفعل مفيد أي شيء يثير الانتباه .وكان كأي ضابط آخر، في القوات المسلحة .ولكن مع أحداث قبرص، تصدر واجهة الأحداث .حين لعب دوراً هاماً في الاستيلاء على الكثير المواقع، ولفت انتباه رؤسائه من خلال القرارات التي يتخذها، والتي كانت على قدر كبير من الحنكة والذكاء، وأما بالنسبة إلى مرؤسيه، فقد كان مستعداً لمواجهة الخطر بنفسه من أجل حمايتهم .وقد كانت في تلك الأثناء برتبة مقدم .وبعد تلك الأحداث لا فكرة لدينا عن المهمات التي كلف بها .ولكننا

نعرف أنه انضم إلى القوات الخاصة، واعتبارا من ذلك التاريخ، اختفت كل المعلومات المتعلقة بنشاطه وحياته، حتى أبسطها، فنحن لا نعرف إن كان متزوجاً أم لا، وإن كان لديه أولاد مثلاً .حاولنا قدر المستطاع، ولكنه بدا بئراً لا قرار له .أي أنه شخص أهم مما كنا نتوقع.

وقد نظر إليّ، نظرات ملؤها الشك.

-ما الذي تعنيه؟ أتلمح بأن مفيد هو الضابط؟ —سألته.

-لست متأكداً، ولكنه رجل يثير الشبهات.

بقينا جميعاً صامتين لبرهة.

-ومع ذلك —شعر نصرت أنه ملزم بتقديم إيضاح ما —فهذه المعلومات لا تثبت بأنه هو الضابط بالفعل .تماماً كما لا يثبت اللقب الذي كان يحمله دوغان قبل سنوات، بأنه هو الضابط الذي نبحث عنه.

بدأت أشعر بأن جميع الخيوط تفلت من يدي، وأنني تورطت في أمر أكثر تعقيداً وخطراً مما تصورت .وأخذت أفكر بأنها أكبر المصائب التي مررت بها.

-أليس كذلك؟ —واصل نصرت وهو يسأل.

-أجل، أنت محق —تمتمت —فهذه المصادفات أكبر من أن تعتبر مجرد أمر عادي، وإن شئت الصدق، فأنا عاجز عن مواصلة التفكير بصورة منطقية، لأنني كلما تعمقت في التفكير أكثر، زادت المتاهة اتساعاً أمامي.

ولا بد أن العجز كان ظاهراً عليّ بصورة جلية، حتى بادر نصرت لمواساتي.

-لن يحصل أي شيء —قال —وسنعمل جميعاً على كشف الحقيقة،

ومعرفة كافة تفاصيلها.

-بالطبع لن يحصل شيء —أيده إرول في كلامه، وهو يدّعي مساندتي، ولكن بقية كلامه كان كفيلاً بأن يخرجني عن طوري —فذهنك يعمل كساعة سويسرية يا صديقي، ولكن يجب عليك التخفيف من الشرب.

كنت على وشك القيام، ولكمه على منتصف سحنته القذرة، وبالكاد استطعت التحكم بنفسي، وكبح الشتائم التي كانت ستفيض من فمي، وأنا أنظر إليه شزراً .فما الذي يدفعه للتعليق على تأخري لبضع دقائق، بهذه الصورة المتكررة؟ وحين لاحظ نصرت ما ارتسم على وجهي من حنق، عاد بنا إلى موضوع الاجتماع.

-هل أسرّ لك مفيد بأي شيء عن حياته الشخصية؟ —سألني.

وبدل الإجابة عن سؤاله، بادرت بالقول:

-هل لي بتدخين سيجارة؟

-أنت تعلم أنّ التدخين ممنوع هنا.

-أعلم، ولكنني غير قادر على مواصلة التفكير.

-حسناً، تستطيع ذلك، ولكن من دون أن يعلم أحد سوانا.

-لا تقلق —قلتها وأنا أشعل سيجارتي، وما إن سحبت الدخان إلى صدري، حتى بدأت أشعر بأنني أفضل حالاً —لقد قال لي إنه يعمل في الاستخبارات، وبأنه كلف بالعديد من المهام، وعمل مع العديد من الفروع الأمنية، ولكنه لم يطلعني من قبل على أنه كان في القوات المسلحة —أوضحت له.

-ولكنك أخبرته عن الرجل الملقب بالضابط.

-بالطبع، وقد سألته عمن يكون، ولكنه علّق على الأمر بأننا كمن يبحث عن إبرة في كومة قش، فهناك الكثير ممن يعرفهم، وممن لا يعرفهم، يحملون هذا اللقب.

بادر تولغا الذي تمكن أخيراً من تجاوز دهشته بالقول:

-يا للغرابة —تمتم —إذاً فحتى مفيد من الممكن أن يكون الضابط؟

-لا تتسرعوا باتخاذ القرار —أعاد نصرت تنبيهه بذات العبارة —فمغادرة مفيد لمنصبه في القوات المسلحة قد تكون مجرد مصادفة، وحتى لقب الضابط، الذي كان يطلق على دوغان فيما مضى، قد لا يكون سوى مصادفة أيضاً .وربما يكون الضابط شخصاً آخر لا يمكننا توقعه، أو أنه ليس سوى مكيدة لتضليلنا .لذا علينا التأني قبل اتخاذ أي قرار، فهذه المسائل تتصف بحساسية عالية.

هل كان يخاف؟ أخذت أرمقه علني أستكشف ما يدور في ذهنه .فنصرت ليس بالرجل الجبان، وهو صحفي جريء، ربما كان يخشى من أن ننشر معلومات خاطئة في جريدته .ولكن لو لم يكن الأمر متعلقاً بأحد الشخصيات من ذوي الرتب الرفيعة في قوى الأمن، لما توانَ عن مناقشة أفكاره وشكوكه علانية، بل لطلب منا أن ننشر هذه الأفكار في الجريدة بكل جرأة .ولكنه الآن يطلب منا أن نكون حذرين في مقاربة الموضوع، وأنا متأكد بأنه سيطلب منا ألا نكتب أي شيء حول هذه النقطة، ما لم تتضح الحقائق.

-وماذا في الأمر؟ —تدخل إرول في النقاش —ربما ترك منصبه في القوات المسلحة بعد انتقاله للعمل في قوى الأمن.

-ربما تم استبعاده، فنحن لا نعلم أي شيء حوله.

-وما هي وظيفته الآن في الأمن؟

-خبير في مكافحة الإرهاب .وهو منصب قد يوحي بالكثير من الاحتمالات.

عدنا إلى المتاهة ذاتها، وإلى ذات الهاوية التي يلف الظلام كل ما حولها. وكلما وجدنا باباً يفضي بنا نحو الضوء، وسرنا عدة خطوات نحو الأمام، نجد أنفسنا في مواجهة جدار أكثر علواً من سابقه .ففي الوقت الذي لم نتمكن فيه من كشف حقيقة موت دوغان، ها نحن نواجه الغموض الذي يلف مفيد وشخصيته المشبوهة.

-حسناً يا زملاء —عاد نصرت للحديث —هل من أفكار حول ما يجب علينا فعله؟

-دعونا ننشر كل ما وصلنا من معلومات —قال تولغا، لقد كانت حماسة الشباب تفيض من كل حركة من حركاته، وفيما أراقبه بإعجاب واصل الكلام —وليثبتوا هم العكس إن استطاعوا .ويقدموا لنا الأدلة إن كان ما ننشره غير صحيح، لنقم بنشرها مجدداً .دعونا نكشف عن الحقائق من دون أي مواربة.

كان إرول أول من اعترض على هذا الرأي، فقد خمّن مثلي، ما يفكّر فيه نصرت كفلجم.

-أيعقل هذا الأمر؟ فكيف لنا أن نكيل الاتهامات للآخرين من دون أن يكون لدينا أي دليل أو وثائق؟ برأيي أن نواصل جمع المعلومات والعمل بصمت علنا نصل إلى بعض الحقائق .وسيقوم عدنان بإطلاعنا على المزيد من المعلومات التي يعرفها عن دوغان .كما أننا يجب أن نلتقي بمفيد مرة أخرى، فربما نتمكن من الحصول على شيء جديد، وأن نبقي علاقتنا جيدة به .سيقبل أن يساعدنا أليس كذلك؟

-أظنه سيفعل —أجبت —فهو من يكرر على الدوام أننا يجب أن نساعد بعضنا.

بدا تولغا غير مصدق لما يسمعه.

-ولكن يا أستاذ نصرت، قد يكون الرجل مجرماً، وبالتالي سيوجهنا بالاتجاه الخاطئ.

هزّ نصرت رأسه، قبل أن يوضح.

-الصحافة لا تعني طرح الخبر كما يبدو عليه في الظاهر، بل تقليبه على كافة الوجوه وكشف جميع خباياه .وقد يحاول دوغان أو مفيد أو سواهما تضليلنا، وإبعادنا عن الحقيقة، ولكننا قادرون على التمييز بين الحقيقة والكذب .ومن أجل ذلك علينا الحصول على أكبر قدر من المعلومات —والتفت إلي —وأنا أوافق إرول الرأي، في كتابة سيرة حياة دوغان ونشرها في عدة مقالات .فالمقال الذي كتبته عن عارف لاقى إعجاباً بالغاً .ذلك النوع من الكتابة الذي ينطوي على حميمية كبيرة، من دون إطلاق أي نوع من الأحكام .وجعل القارئ يواصل متابعة الخبر من دون أن يتكهن بأنه مذنب أم لا .فليكن سلسلة ستنشر على ثلاث أو أربع مقالات.

وحين لاحظ ترددي.

-ألا تستطيع؟ —سألني.

-أستطيع، وما المانع —أجبت —ولكنني أفكر فيما سأكتبه بالضبط.

-عن الذكريات وما شابه، ولا بد أنك تملك بعضاً من صور طفولته لكي نرفقها بالمقال.

-أظنها فكرة جيدة —تدخل إرول —الوجه الإنساني لأحد الإرهابيين، والمميز أنها ستكتب من قبل أقرب الناس إليه .لم أسمع بصحفي قام بمثل هذه المهمة، وأظنها ستكون فكرة جديدة في الوسط الصحفي.

ما إن أنهى كلامه، حتى خطر لي بأن الاثنين قد خططا للفكرة من قبل، وتوصلا إلى القرار الذي يحرصان على إظهاره وليد مصادفة لا أكثر .لا أجد غضاضة في الأمر، فمدير التحرير من يعطي القرارات عادة، وعلى الصحفيين الالتزام بها، واللاطبيعي هو جلوسنا معه، وكأننا من سيقرر ما يجب فعله .وربما بسبب شعورهما بالحرج، لم يفصحا عن الأمر منذ بداية الاجتماع .وهذا ما جعلني أشعر براحة، حيث أشرق وجهي بابتسامة وأنا أنظر إليهما، فرأيت الابتسامة ذاتها تضيء وجهيهما .لا بد وأنهما مسروران لتمرير الخطة من دون مشاكل .لم أهتم بالأمر، فإن كانت هذه المكائد الصغيرة تسبب لهما السعادة، فما الذي يمكنني فعله بالمقابل، سوى التفرج بصمت ذكي .أما بخصوص مفيد فأظن أن قرار عدم ذكر اسمه حالياً، قد جاء من الجهات الأمنية التي أمدت نصرت بالمعلومات، وطلبت منه التركيز على دوغان حالياً، حتى تنجلي بعض الحقائق، وهم محقون نوعاً ما، فلا يمكن كيل الاتهامات للرجل، لأنه كان يعمل في القوات المسلحة سابقاً. ووضع اسمه على اللائحة السوداء، خاصة أننا لا نملك أي دليل يثبت تورطه .لا أنكر أنه يخفي عنا الكثير من المعلومات، وأنه لم يطلعنا سوى على جزء من الحقيقة، ولكننا لا نستطيع تلويث سمعته، والجري خلف مكاسب صحفية بعيدة عن الموضوعية، كما تفعل الصحافة الصفراء .ومن جهة أخرى لا أستبعد أن يكون هو الضابط الذي حدثنا عنه دوغان، إلا أنه موضوع يحتاج إلى تفكير جدي، ومتوازن .ولأنني كنت متعباً من التفكير في الاحتمالات التي لا تفضي إلى أي نتيجة، قررت ترك الأمر، وتنحيته جانباً .فكل ما عليّ فعله، هو كتابة المقال الذي طلبه مني نصرت، والعمل مقابل النقود التي أحصل عليها .كما أن دوغان قد سمح لي بالكتابة عنه .بل وزاد في القول» :الأحداث التي ستسبب في حتفي والقضاء عليّ، قد تسهم في بزوغ نجمك «ورغم أنه لم تكن لديّ مطامع في بزوغ نجمي، فقد كنت مجبراً على ممارسة عملي للبقاء واقفاً على قدمي .ولكن إن كان هذا السرور الذي يشع من عينيّ زميلي عائداً إلى اعتقادهما أنني سأكتب مقالاً مفعماً

بالعواطف، فهما مخطئان بكل تأكيد .سأكتب عن دوغان الذي أعرفه من دون زيادة أو نقصان، وأورد الحقائق التي عشتها كما هي، ولن يتجرأ إرول أو نصرت على معارضتي .ومن ثم سنحاول الحصول على معلومات جديدة، وننتظر ما قد تأتي به التحقيقات .لكن تولغا لم يكن يشاركني الأفكار ذاتها، فما إن غادرنا مكتب نصرت حتى بادر بالاعتراض.

-ما الذي ينوي فعله هذان الاثنان؟

ورغم أنني كنت أعرف جيداً ما الذي يعنيه، لكنني حاولت التجاهل.

-ما الذي تعنيه؟

-ألم تلحظ ذلك؟ أنهم ينوون وأد الخبر.

-هون عليك يا صديقي، فقد يكون الخبر موؤداً منذ البداية .دعنا ننزل ونأكل شيئاً.

ورغم أنه رمقني باستغراب واضح، لكنه لم يعترض على طلبي، وبدوري لم أحاول أن أثقل عليه بترديد ذات المقولات السمجة، عن أن مهنة الصحافة تستدعي التأني، وعدم التسرع، الخ .بل كنت مهتماً بمعرفة ما يدور في ذهنه، وما الذي يعتقده حولي .لا بد وأنه يفكر بأنه ما كان علينا ترك عملنا القديم، والانتقال إلى جريدة جديدة، إن كانت جميعها تسير وفق الهواء ذاته .وربما يشتمني سراً .ومن جهة أخرى قد يحاول تقبل الفكرة، وتبرير موقفي .على أي حال فحتى لو كان يشتمني، فلن أغضب منه، لأنه إن لم يدرك الحقيقة الآن، سيدركها في المستقبل.

لم يخرج إرول برفقتنا بعد أن انتهى الاجتماع، وهذا يقوي احتمال أنه يواصل الحديث الذي بدأه الاثنان قبل عقد الاجتماع .وفي تلك المدة القصيرة التي غبتها عنهما، تمكن نصرت من جرّ إرول إلى طرفه بحرفية ودهاء .ولكن عليّ

الاعتراف أن الرجل حتى وإن كان مخادعاً، فقد اتخذ ذات القرار الذي اتخذته أنا؛ وهو التريث بانتظار ما ستحمله لنا الأحداث.

الفصل الرابع والثلاثون

مرت الأيام من دون حدوث أي تطورات، والحقائق التي كنا نحاول التحري عنها، لم تكن تفضي إلى أي نتيجة، أو أننا لم نكن نعرف كيفية الوصول إليها بالشكل الصحيح .وقد استمرت المقالات التي نشرتها عن دوغان بالصدور لمدة أسبوع .أما بالنسبة إلى مفيد فقد حاولت تخفيف التواصل معه إلى أقصى حدٍّ ممكن، ولو عملت بما يمليه عليّ نصرت لكان عليّ الاتصال به بشكل يومي، ولكنني لم أكن راغباً في مواصلة علاقتي برجل قد يكون اليد الخفية وراء كل ما جرى من أحداث دامية .لذا لم أحاول اللقاء به إلا للضرورة القصوى .أما هو فبعد ذلك الاتصال العاصف الذي حدث بيننا، عاد ليعاملني باللطف واللباقة ذاتهما المعهودين، واتصل بي عدة مرات، كان آخرها منذ أسبوعين، حيث اعترف بحرج واضح:

-لقد كنت محقاً فيما قلته.

فقد أكدت نتائج الفحوص، أن بصمات كل من يالفاج وغونغور، موجودة على الوثائق والأسلحة التي عثرنا عليها، بل والأهم في سيارة الجيب التي أودت بحياة عارف .وبذلك فكل الحقائق التي ذكرها دوغان كانت تتحقق الواحدة تلو الأخرى .ولأنني لم أكن واثقاً من صحة كل أفكاري، لم أشأ الضغط على مفيد أكثر .فبالرغم من شكوكي في البداية من أن مسألة البحث حول بصمات الأصابع قد يتم اللعب فيها، فقد اتضح أنهم يتعقبون الأمر بجدية كبيرة .وبالتالي فكثرة شكوكي في قوى الأمن كانت أمراً مبالغاً فيه بعض الشيء كما أشار هو .ما يعني

أن نظرتي للأمور لم تكن صائبة تماماً .ورغم ذلك، فلم أكن أنوي الوثوق به بصورة مطلقة، حتى ظهور أدلة أكثر وضوحاً، أو على أقل تقدير حتى انتهاء تحليل ال (DNA).

وأفضل ما في الأمر، أنني وخلال هذه الأسابيع الثلاثة، لم أتلقَ أي تهديد، ولم أتعرض لأي حادث يثير الشبهات، وتوطدت علاقتي مع مرافقيّ بصورة كبيرة.

ورغم أنني لم أصطحبهما إلى النادي الذي كنا نسهر فيه عادة، لكنني قمت بدعوتهما في الكثير من المرات إلى المنزل، حيث كنا نسهر ونتبادل أطراف الحديث، حتى أنهم كانوا يحدثونني عن زملائهم ومشاكلهم في العمل، بل وحبيباتهم أيضاً .وربما كانت علاقتنا ستتطور إلى صداقة حقيقية، لولا أن مفيد حال دون تحقيق ذلك، حين اتصل بي قائلاً:

-نحن بحاجة إلى المزيد من العناصر .وأظن أن الوقت قد حان لرفع الحماية عنك .وإن لم يكن لديك مانع، فنحن سنقوم باسترجاع الحارسين.

ما الذي أستطيع قوله، وأنا لم أشهد أي شيء يوحي بوجود خطر يتهددني، إلا إن كان القتلة ينتظرون فرصة رفع الحماية عني .ولكن لما سيقدمون على قتلي، والقضية على وشك أن تطوى ويتم نسيانها؟ فحتى بعد اكتشاف أن البصمات التي على الأسلحة وعلى مقود السيارة تعود للمحققين السابقين، لم تتطرق أي جهة صحفية، بمن فيها نحن، إلى ذكر الأمر .وعدت إلى ذات النهج الروتيني، كما في عملي السابق .ولأنني كنت مقتنعاً باستحالة عودتي إلى نشاطي السابق في العمل كما في الأيام الخوالي، فقد كنت أنتظر ظهور سائق السيارات على عتبة سلالم المنزل، ليرافقني صعوداً وهبوطاً، وكنت متيقناً من ظهوره الوشيك، في حين ظل الشراب، صديقي الوفي الذي يلازمني في ليالي وحدتي.

ورغم أنني في كل صباح كنت أتجه إلى الجريدة وأتجاذب النقاش مع إرول

حول الأحداث اليومية، إلا أننا لم نعد إلى العمل على القضية .وقدر نصرت أنّ حماستي للعمل قد بدأت بالخفوت، فحاول توبيخي بشكل مهذب، وحين لاحظ أن لا أمل يرجى مني، كفّ عن المحاولة، وتركني وشأني .كل ما في الأمر أنه تحاشى اللقاء بي قدر المستطاع، ولأنني لم أكن أملك حامياً كعارف يدافع عني حين الحاجة في عملي الجديد، فقد كنت أتوقع أن أجد نفسي أمام الباب في أي لحظة. ولكنني لم أكن مهتماً بالأمر، فقد حصلت على تعويض لا بأس به من عملي السابق، يكفيني لعدة أشهر إن تمّ طردي، رغم أنني كنت واثقاً من أنهم لن يقدموا على فعل ذلك، حتى ظهور نتائج تحليل الـ .(DNA)وسواء أكانت النتيجة سلبية أم إيجابية، فسيحتاجون إليّ، وبعد ذلك.

أما بالنسبة إلى تولغا فقد استطاع أن يحتل مركزاً هاماً في الجريدة، حيث كانت صوره تحتل الصفحة الأولى للجريدة، مرة أو مرتين في الأسبوع، وكان زملاؤه المصورون يتحدثون عنه بغيرة واضحة، أما رؤسائه فبمديح وتقدير.

لم تعد فوندا وأوموت من فرنسا بعد، وإثر عدم ردي على الرسالة التي تركتها لي، فقد فضلت هي أيضاً عدم التحدث إليّ، بل اكتفت بسماع أخباري من أوموت، الذي كنت أتحدث معه بشكل يومي لأبلغه عن آخر التطورات .وقد أوضحت له أن ما من خطر يلوح في الأفق، أو أنّ هذا ما يبدو عليه الأمر .وبدوره أخبرني بأنهم ينوون العودة في غضون يومين أو ثلاثة .وبحسب ما فهمت، فقد كانت علاقته وطيدة مع أوفيليا، فلا تمر أي محادثة دون ذكرها والتحدث عنها .أما عن حبيبته التي هنا، فقد كانت تنتظره بصبر .من منا يشبه هذا الأزعر؟ من المؤكد أنه لا يشبهني في هذا الجانب .ولكن فليتمتع قدر ما يشاء، فذلك أفضل من أن يعاني ما عانيته.

لم يتضح بعد إن كان دوغان حياً أم ميتاً، ومن هي شخصية الضابط الحقيقية، وقد ظلت هذه الأفكار تشغل ذهني، لكنني وبسب انعدام أي دليل أو

خيط يوصلني إلى مكان ما، توقفت عن متابعة القضية، وأكثر من ذلك، خوفاً مما قد يجره عليّ الأمر .وفضّلت البقاء في الظل منتظراً ما ستحمله الأيام .لذا واصلت هدر الوقت بين الجريدة في النهار، وجدران منزلي مع كأس الشراب في الليل .حتى وصلني ذلك الاتصال من دميت.

حين اتصلت بي، كنت قد وصلت للجريدة للتو، وأجلس وراء المكتب بمفردي، مستمتعاً بشرب قهوة الصباح .ولأنها اتصلت قبلاً، لتسألني إن كان هناك من جديد حول دوغان، ظننتها ستعاود الأسئلة ذاتها، لكنها بادرت بصوت مرتعش.

-هل قرأت صحف اليوم؟ —حينها أدركت أنّ هناك بعض المستجدات.

-أجل، ما الأمر؟

تلعثمت وهي تهتف برعب.

-لقد قتل أبراهام أفرييل.

ومن يكون هذا الرجل؟

-وفي اسطنبول —أوضحت لي، ولأنها لم تعطني أي معلومات عنه، فهذا يعني أنني أعرفه من قبل، ولكن كان عليّ السؤال.

-أستميحك عذراً، ولكن ما شأننا بقتل هذا الرجل؟

-كيف تقول ذلك؟ —قالتها بنبرة أشبه بالتوبيخ —أبراهام هو صديق دوغان الذي في سويسرا .وقد كان دوغان حريصاً على زيارته في كل مرة نسافر فيها إلى هناك.

شعرت بالحنق من ذاكرتي البلهاء، فقد قامت دميت ورمزي أيضاً، بذكر

الرجل أمامي.

-أتعنين ذلك اليهودي الذي كان يبيع ساعات أثرية؟ —تمتمت متسائلاً.

-أجل —أكدت دميت.

وقد انتقل انفعالها إليّ أيضاً.

-في أي جريدة تم نشر الخبر؟ —سألت قلقاً.

-في جريتكم، وكافة الجرائد الأخرى.

-حسناً، سأقرأ الخبر وأعاود الاتصال بك.

سكتت لبرهة.

-حسناً —قالت —ولكن أرجو ألا تنسى الاتصال بي، لأنني أشعر بقلق بالغ.

-لا عليك، سأتصل بك بعد عشر دقائق.

وما إن أنهيت المكاملة، انطلقت مسرعاً، وأنا أبحث عن نسخة من الجريدة.

لم أجد شيئاً في الصفحة الأولى، ولكنني وفي نهاية الصفحة الثالثة، لمحت خبراً صغيراً تحت عنوان »جريمة غامضة«، وكان الخبر يتطرق إلى الجريمة من دون الخوض في تفاصيل كثيرة، وهذا ما ورد فيه» :العثور على جثة رجل أعمال يهودي. عثر بعض العاملين في غابات بلغراد أمس في ساعات الصباح الباكر، على جثة رجل خمسيني، وبعد إبلاغ الشرطة التي ذهبت إلى الموقع، تم العثور على جواز سفر يحمل اسم أبراهام أفربيل بحوزته، وتبيّن أن الرجل قد قدم إلى اسطنبول منذ ثلاثة

أيام فقط .كما تبيّن أن الجثة قد تلقت عدة طعنات في أكثر من مكان .وقد كانت يداه وقدماه مقيدتين، كما أنه وبعد الفحص تبيّن أنه قتل برصاصة اخترقت جبينه .وقد أوضح أحد المسؤولين، عن احتمال تعرضه للتعذيب قبل قتله .كما أوضح أنه يتم البحث إن كان للجريمة أبعاد سياسية، وقد أبلغت السلطات الأمنية السفارة السويسرية بالجريمة، وتم التواصل مع الإنتربول، للحصول على معلومات عن القضية، وهناك إشاعات عن اتصالات جرت مع جهاز الاستخبارات الإسرائيلي؛ الموساد، للكشف عن ملابسات الجريمة.

وقد أرفق المقال بصورة مأخوذة عن جواز سفره، تم تصويرها بشكل رديء، ولكن صورة الرجل الأشقر بعينيه الملونتيم، ونظرته العميقة التي تشي بشيء من الغموض، كانت تدفع للاعتقاد بأنه ألماني، وليس يهودياً .ما الذي يحصل؟ هل عادت قضية دوغان بعد الهدوء الذي ساد كل هذا الأيام، لتتصدر واجهة الأحداث؟ فهذه الجريمة تشي بأنها على علاقة بدوغان بشكل ما .لذا بادرت إلى الاتصال بدميت ليس فقط لأنني وعدتها بذلك، بل للحصول على بعض المعلومات الإضافية، إن أمكن ذلك .وتحسباً من أن يكون الهاتف مراقباً، قمت بتسجيل المكالمة.

وما إن رفعت السماعة حتى بادرتها بالسؤال.

-هل قام أبراهام بزيارة اسطنبول من قبل؟

فردت من دون تردد.

-أجل، أتى مرة، واصطحبناه لتناول السمك في كريجبورنو، وأذكر أنه انبهر بجمال اسطنبول ومضيق البوسفور .ولكنني لا أعرف إن عاد لزيارتها مرة ثانية.

-وهل كانت تربطه بدوغان علاقة عمل من نوع ما؟ فبحسب ما أعلمه أن دوغان عمل عنده لفترة معينة.

-صحيح، فقد عمل دوغان ضمن طاقم الحماية لديه، ومن ثم أصبحا صديقين، ولا أظن أن هناك علاقة عمل تجمعها، وإن كانت موجودة، فلم يأتِ أي منهما على ذكرها أمامي.

-أكان أبراهام يعمل في مجال آخر، سوى القطع الأثرية؟

-أظنه كان يعمل مع بنك ما.

ربما تفيدنا هذه المعلومة.

-ما اسم البنك؟

-لا أعرف .ولكنني أذكر أن دوغان تطرق للأمر ذات مرة .ولا فكرة لديّ عن طبيعة علاقته بهذا البنك.

خطر لي العثور على أحد الصحفيين الذين في سويسرا، وتكليفه بالبحث عن هذه المعلومة، ولكنني عدت لأسأل دميت:

-أين أقام عندما زار اسطنبول؟

-هناك قصر قديم في منطقة السلطان أحمد تم تحويله إلى فندق، يدعى بالبيت الأخضر، لقد كان يقيم فيه.

-أي أنه لم يكن يقيم في منزل دوغان؟

-لا، فقد كنا نذهب لرؤيته في الفندق.

-وهل كان له معارف في اسطنبول؟

-لا، لم يكن يعرف أحداً سوى دوغان .وهو من قام بدعوته.

-وحين ذهبتم لتناول السمك، هل رافقكم أحد آخر؟

-لا، فلم يرافقه أحد إلى اسطنبول.

-أعني أصدقاء دوغان.

-لا، فقد ذهبنا نحن الثلاثة فقط.

-هل كان أبراهام عازباً؟

-كان متزوجاً، من امرأة لطيفة اسمها ميلا، ولديهما ابنتان، لا بد وأن وقع الخبر عليهما كان صدمة كبيرة.

-حسناً، ولما لم يحضر زوجته أو ابنتيه معه حين جاء في المرة الأولى؟

-أظن بسبب ارتباطهما بالمدرسة والدراسة، وقد ظلت الأم برفقة ابنتيها، لذا لم تحضر مع زوجها.

وقد استغلت دميت فرصة صمتي القصيرة، لتبادر بالسؤال:

-ما الذي يحصل سيد عدنان؟ لماذا تسألني كل هذه الأسئلة؟

-أحاول فهم ما يجري.

-أتعني أن هناك علاقة بين اختفاء دوغان، وقتل أبراهام؟

-هذا وارد، فإن لم يكن ما حدث صدفة غريبة ونادرة، فهذا يعني وجود علاقة كبيرة بين الحدثين.

-وهذا ما اعتقدته أيضاً —اعترفت —فلا أعتقد أنه قام بزيارة تركيا، ما لم يكن قد تلقى دعوة من دوغان .المسكين، فهو لم يكن رجلاً شجاعاً.

وفيما تتحدث عن أبراهام، فكّرت بوجود عمل يربطهما، وقد قام أخي بقتل الرجل، حين حدث خلاف بينهما من أجل النقود .وحاولت الحصول على

معلومات حول هذا الشأن من دميت.

-في هذه الحال، فاحتمال أن يكون دوغان حياً، يصبح أقوى .بالطبع إن كان أبراهام قد جاء إلى تركيا، بناء على طلب منه .ومن جهة أخرى، قد تكون زيارته لأسباب أخرى، لا علم لنا بها.

-ربما —تمتمت دميت ولكنها لم تكمل جملتها.

-ربما ماذا؟ —سألت.

-ربما جاء للبحث عن دوغان، حين لم يتلقَ منه اتصالاً أو أخباراً، وربما كان يبحث عني، لمعرفة تفاصيل ما حدث.

-إذاً لما لم يقم بالاتصال بك؟

-لا أظنه يعرف رقم هاتفي .ربما اتصل بدوغان، ولكن بسبب احتراق هاتفه —صمتت لبرهة —لقد احترق هاتفه أيضاً، أليس كذلك؟

-هذا ما لا أعلمه —قلت .وأنا أفكّر في السبب الذي دفع أبراهام للقدوم إلى تركيا —حين جاء في المرة السابقة، هل قام بالتواصل مع أحد ما من أجل العمل؟ ألم تذهبوا إلى السوق المغلق)كابلي جارشي (مثلاً؟

تمهلت قليلاً قبل أن تجيب على سؤالي.

-حين كنا سوية لم يذهب إلى هناك —قالت —ولكنه كان يلتقي بدوغان كثيراً بمفردهما .ولا أعلم إن كانا قد ذهبا في تلك الأثناء .وكما أخبرتك سابقاً، فقد كان دوغان حريصاً على عدم التطرق إلى تفاصيل عمله أمامي، وقد سألته مرة عن سبب إخفائه الأمر عني، إن كنا نولي بعضنا كل هذه الثقة، فنهرني موضحاً أنه يفعل ذلك من لأجلي.

-فهمت —قلت —ولكنني أرجو منك، إن تذكرتِ أي شيء يتعلق بأبراهام، أن تتصلي بي على الفور.

-بالطبع سأفعل —قالت —ولكن إلى أين ستفضي كل هذه الأحداث برأيك؟ ربما قاموا بقتل دوغان كما فعلوا مع أبراهام .ما من أحد يستطيع القبض على أولئك القتلة ومحاسبتهم؟

كنت سأقول لها :كيف ستتم محاسبتهم، ولا أحد يعرف من هم؟ لكنني تخليت عن ذلك، فلا أريد أن أزيد من مخاوفها.

-لا تخافي، فعما قريب سيتم الكشف عن الحقيقة —قلت، ومن ثم طرحت السؤال الذي يشغل ذهني منذ بداية المحادثة —سأطلب منك شيئاً، ولكن أرجو ألا تسيئي فهمي، هل توافقين على إجراء ريبورتاج حول مقتل أبراهام؟

-من المحال أن أوافق —وقد كان مجرد السؤال كفيلاً بإثارة مخاوفها واستيائها —أرجوك لا تورطني في هذه الأحداث.

-صدقيني لا نية لي بفعل ذلك —قلت بنبرة حرصت أن أضمنها أقصى قدر من الثقة —ولكن لمعرفتي أنّ الجريدة ستطلب مني أمراً مماثلاً، فقد استبقت طلبهم .ولكن لا تخافي، فلن يتم ذكر اسمك في أي مقال ننشره.

شكرتني المسكينة، وهي تنهي المكالمة، وعلى الفور أخرجت شريط التسجيل، ووضعته في جيبي، تحسباً لكل الاحتمالات .ورغم يقيني أن هذه الجريمة لن توصلنا إلى أي مكان، فقد كنت أعلم أن هناك الكثير من العمل في انتظاري، وقبل إبلاغ أحد من الجريدة، اتصلت بمفيد .لأعرف إن كان على علم بالجريمة.

بدا مستغرباً حين سمع صوتي.

-كيف خطر لك الاتصال بنا؟ —قالها بنبرة ملغزة.

-على رسلك يا رجل، ألم نتحدث عدة مرات؟

-صحيح أننا فعلنا، ولكنني أنا من كان يتصل، وقد بدأت أعتقد أن علاقتنا قد ساءت بعد ذلك الجدال الذي حصل.

أحقاً لم يكن يعلم بأمر المعلومات التي حصلنا عليها حوله؟

-وهل يجوز حصول أمر كهذا؟ —قلت —فنحن سنظل بحاجة إلى بعضنا بعضاً.

-معك حق —أكد على كلامي.

-لقد حدث تطور مهم في قضية دوغان —وبدأت أحدثه عن مقتل أبراهام.

-إنه أمر غريب بالفعل —علّق على كلامي، مدعياً أنه لم يكن يعلم بالأمر —ولكن من الذي أخبرك بهذه المعلومات؟ —سألني.

لم أرغب أن أعطيه اسم دميت.

-لقد حدثني رمزي، ابن عم صلاح الدين عن الأمر، وحين رأيت اسم أبراهام في الجريدة، تذكرت محادثتنا تلك.

قام بطرح عدة أسئلة لمعرفة المزيد عن الحادث، وقد أفضيت له بما عندي، من دون أن أخفي شيئاً.

-أشكرك على اتصالك بي —قالها بسرور واضح، ظناً منه أن علاقتنا قد عادت إلى سابق عهدها —لا بد وأن قسم مكافحة الجريمة يعمل على الأمر. سأتواصل معهم للحصول على تفاصيل إضافية، وسأبلغك بما سيقولونه —قال.

حين أعدت السماعة إلى مكانها، أدركت الخطأ الذي ارتكبته، فربما من

ارتكب هذه الجريمة وسابقاتها، هو الشخص الذي كنت أتحدث معه للتو .فنحن لم نتحقق حتى هذه اللحظة من براءة مفيد، ونزاهته .ولكنني في المقابل لم أكن أملك خياراً آخر، فحين يرى المقال منشوراً في الجريدة غداً، سيفكر محقاً بأننا نشك فيه. في الوقت الذي لا أرغب بحدوث أمر مماثل، حفاظاً على سلامتي، وعلى سير التحقيق .وبعد مزيد من التفكير أدركت أنني فعلت الصواب بالاتصال به .فحتى لو كان هو الضابط، لا يجب أن أطلعه على شكوكي، بل عليّ مواصلة تقديم المعلومات له، حتى لا يعتقد أنني أخفي عنه شيئاً ما أو أحاول خداعه، وهذا هو واقع الأمر بالفعل .فليس عندي ما أخفيه .وقد ارتحت لهذه الفكرة .وبدأت بالبحث عن إرول، الذي لم يكن من الصعب العثور عليه، فكما توقعت كان في مكتب نصرت، يثرثر كعادته .وما إن دخلت مكتبه، أدرك نصرت أن هناك تطورات جديدة .وحين سمع بالحدث، أضاءت عينا الوغد وهو يرمقني .وكان أول سؤال طرحه عليّ:

-أهناك من يعرف بالأمر سواك؟

-المصدر الذي حصلت منه على المعلومات ومفيد —أوضحت.

-أي أن بقية الصحف لا علم لها بالأمر؟ —سألني بتلهف.

-لا —أجبت —لا أظن.

اتصل على الفور بمصادره في الشرطة، وحصل على تفاصيل الحادثة، واتجه نحوي بحبور حين أعاد السماعة، وهو يقول:

-قام أحدهم بالاتصال بالشرطة، وأخبرهم أنه ينتمي للمقاومة في لبنان، وأنهم نفذوا العملية نصرة لإخوانهم الفلسطينيين كما ادّعى .وأن أبراهام هذا كان بمثابة خزينة متنقلة لجهاز الموساد .وأنهم قاموا بمعاقبته .أريد لهذا الخبر أن يتصدر عدد الغد.

تناسى نصرت على الفور أنه كان يتحاشى اللقاء بي منذ عدة أيام، وأقبل يصافحني بحرارة.

-أنت شخص مذهل —قال —سنتمكن من تحقيق سبق صحفي جديد بفضلك .ويبدو أن القضية أكبر مما كنا نعتقد، فقد ظهرت لها تشعبات خارجية أيضاً .وأخوك هذا شخصية مثيرة للاهتمام بالفعل .هيا إلى مكاتبكم من أجل كتابة المقال، وبدوري سأطلب من جماعتنا أن يقوموا بإلتقاط صورة للرجل.

سألته مستغرباً:

-الرجل في المشرحة الآن، كيف ستلتقط له صورة؟

نظر إلي باستصغار واضح، قبل أن يوضح:

-العلاقات يا عزيزي، العلاقات .إنها الكلمة السحرية في عصرنا. فالصحفي الناجح يجب أن تكون لديه مصادر في قصر الرئيس، كما في المشرحة. وإلا فكيف سيحصل على معلوماته؟ ولكنك بسبب إهمالك العمل مؤخراً، بقيت بعيداً عن هذه المستجدات —ويبدو أنه استجمع جرأة إضافية من نشوة نصره الجديد، حين سألني —ولكن لما لا تحاول بذل مجهود أكبر في العمل؟ فقلة هم الصحفيون الذين يملكون مهارتك، وخبرتك المهنية.

بدأ الحديث يثير أعصابي.

-دعك من هذا الآن —اكتفيت بالتعليق.

-لماذا تحاول التهرب في كل مرة؟ صدقني أنا أشعر بالحزن عليك .فلو توقفت عن معاقرة الشراب، وركّزت على عملك كما في السابق، فسنتمكن من تحقيق نجاحات مذهلة معاً.

لم يكن حديثه عن سوء نية، ولكنه كان يثير حنقي مع كل كلمة جديدة .وخشيت، إن استمر في ترداد الكلام ذاته، أن ألقيه أرضاً، وأشبعه شتماً وضرباً .فمن يخال نفسه، ليقول لي كيف عليّ مواصلة حياتي؟

-دعنا نرجئ هذا الحديث لوقت آخر —قلت وأنا أتجه نحو الباب — فلدينا عمل الآن.

ولكن نصرت لم يكن ينوي أن يدعني وشأني.

-حسناً، سنتعشى سوية عما قريب، ونواصل حديثنا .فأنا لا أريد أن أخسر شخصاً مثلك.

لو بقيت معه، لواصل سرد ترهاته على مسامعي، ولكنني أسرعت بالخروج من مكتبه، بإتجاه غرفتي، حيث جلست وراء شاشة الكمبيوتر لكتابة المقال، فيما قام إرول بمحاولة الاتصال بأحد الصحفيين الأتراك في سويسرا، للحصول عما نبغيه من معلومات.

وفي المساء، بدأت المعلومات التي ننتظرها بالوصول، فحين عجز إرول عن إيجاد صحفي موثوق، يمكن الاعتماد عليه لا يقوم بتسريب الخبر لسائر الصحف، قام بالاستعانة بزميل لبناني، والذي أوضح لنا، أنّ أبراهام بالإضافة إلى عمله في بيع الساعات الأثرية، كان وكيلاً لأحد فروع أكبر البنوك السويسرية في الشرق الأوسط. وكما في معظم البنوك السويسرية، كان البنك ووكلاؤه حريصين على خصوصية عملائهم، والحفاظ على سرية المعلومات المتعلقة بهم .أي أنهم كانوا مهتمين بالنسبة التي يحصلون عليها، أكثر من اهتمامهم بمعرفة مصادر أموال عملائهم. وهذا ما أكد شكوكنا السابقة بأن علاقة دوغان بأبراهام كانت تتعلق بتبييض الأموال .وربما كان الأشخاص الذين اتصلوا بي قبل ثلاثة أسابيع وطلبوا مني تسليم أمر ما، كانوا يشيرون إلى النقود .ولكن ما هو مصدر هذه النقود، ولمن تعود،

لدوغان؟ أم للعصابة؟ وهل حصلوا على النقود بقتلهم لأبراهام؟ أم أنهم قاموا بقتله، لأنه لم يعطهم شيئاً؟ كانت كل هذه الأسئلة تنتظر أجوبة لها، ولكن الغريب أننا وفي بحثنا حول أبراهام، لم نجد ما يشير إلى علاقته بالموساد .فربما من قام بقتل اليهودي، تعمد لصق التهمة بالمقاومة، حتى يضللنا .أم أن الرجل بالفعل كان يعمل لحساب الموساد؟ وحين تذكرت ما سمعته عن علاقة دوغان بالاستخبارات الألمانية والأميركية، لم أستبعد هذا الاحتمال من ذهني .قمت برصف هذه المعلومات بالشكل المناسب في المقال، وقبل الانتهاء منه بقليل، اتصل بي مفيد، فأجبت على اتصاله، ظناً أنه اتصل في الوقت المناسب، حيث سأقوم بإضافة المعلومات التي سيطلعني عليها إلى المقال، قبل إرساله للطباعة .ولكنه بدلاً من ذلك، بادر بالسؤال:

-أتدخن النرجيلة؟

لم أدرك ما الذي يرمي إليه بالضبط، ولكنني أجبت:

-أجل —فلم أجد غضاضة في رفض عرضه، ولم أكن أدعي ذلك، فرغم أنني لم أدخنها مؤخراً، لكنني كنت مغرماً بسحب دخانها.

-أتعرف أين تقع مدرسة جورلو علي باشا؟ —سأل.

كان يشير إلى المدرسة الواقعة في منطقة بيازيد، والتي تحولت إلى مقهى، تحيط به حوانيت بيع السجاد.

-أعرفها —أجبت.

-ما رأيك أن نلتقي هناك بعد ساعتين؟

لم أسأله عن سبب هذه الدعوة، فقد خمّنت حصول تطورات جديدة، من نبرة صوته التي يشوبها بعض الضيق .فقد بدا جلياً أنه لا يريد التحدث في الأمر عبر

الهاتف .لذا وافقت على الفكرة.

-حسناً —قلت —سأكون هناك بعد ساعتين.

أخبرت إرول أنني سألتقي به .فعرض عليّ مرافقتي، ولكنني رفضت. فالرجل قام بدعوتي، وإن رافقني أحدهم، فأغلب الظن أنه لن يفضي بما لديه.

خرجت من الجريدة قبل موعد لقائنا بساعة كاملة، ومع ذلك بالكاد استطعت الوصول في الوقت المحدد .ركنت سيارتي، في مرأب في جامبرلي تاش، وأسرعت سيراً نحو المدرسة مختلطاً بالحشود التي كان معظمها يعود إلى منزله، بعد انتهاء يوم آخر من العمل .وحين اقتربت من باب المدرسة، لفت انتباهي شخصان يقفان في الظلام، وحين رأيتهما أدركت أنهما الشابين المكلفين بحمايتي، واللذين لم أرهما منذ ما يقارب الأسبوع .وقد رأياني، ولكنهما تجاهلاني، فتصرفت بشكل مماثل، وأنا أدخل بهو المدرسة .واستغربت أن مفيد خصص الشابين المكلفين بحمايتي، لمرافقته.

حين دخلت، وجدت مفيداً جالساً أمام أحد حوانيت بيع السجاد، وهو منشغل بوضع الفحم على نرجيلته.

-أراك قد سبقتني —قلت وأنا أقترب.

-أعتذر منك، ولكنني وصلت باكراً بعض الشيء، وحين رأيت النراجيل من حولي، ووصلتني الرائحة الزكية، لم أستطع الانتظار أكثر.

-خيراً فعلت —قلت وأنا أجلس بالقرب منه —يبدو أنني تأخرت بعض الشيء.

أسندت ظهري للجدار، وزررت المعطف، فعلق قائلاً:

-لقد اخترت الجلوس في الخارج، ولكن يبدو أن البرد اشتد —وعرض عليّ بلباقة —إن شئت، دعنا نجلس في الداخل.

-لا .فأنا أيضاً أحب هذه البرودة .إنها منعشة، تنفض عنك غبار التعب، وهي تشي بأن الشتاء قد شارف على توديعنا.

ظل ساكتاً، وقد أغمض عينيه، ليسمح للنسيم البارد التغلغل إلى كل خلايا بشرته.

-معك حق، هذا الهواء يشعرك بطريقة ما، أن الربيع قادم قريباً —سحب نفساً عميقاً من نرجيلته، وبعد أن أخرج سحابة الدخان من صدره، واصل —أنا أشعر بهذا الإحساس في الخريف، فصحيح أن الهواء لا يزال يحمل بعض الدفء، ولكن لسعات البرد التي تتخلله أحياناً، توحي بأن الشتاء، سيطرق أبوابنا عما قريب.

بعد لحظات اقترب منا شاب الخدمة، فطلبت نرجيلة بدوري، وفنجان قهوة سادة، وبانتظار وصول نرجيلتي، أخذ نثرثر، كصديقين قديمين، يضيعان وقتهما في هذه الباحة الأثرية، وأخذ مفيد يسرد عليّ بعضاً من تاريخ هذا المكان الجميل:

-لقد بنى هذه المدرسة جورلولو علي باشا؛ صهر السلطان مصطفى الثاني، والذي أصبح فيما بعد الصدر الأعظم للدولة في عهد السلطان أحمد الثالث، قبل حوالى ثلاثمائة عام .وبالإضافة للجامع الذي خلفنا، هناك مكتبة كانت بمثابة مدرسة لتعليم الفتيان .أتستطيع تخيل مشهد العلماء، وهم يقومون بتدريس أولئك الفتية؟ أنا لا أستطيع ذلك .فقد اختفوا عبر أروقة الزمن .ولكن إن دققت النظر فيما حولك، ستجد الكثير من الأشياء التي تشير إلى ذلك العهد. وهو شيء أكثر سهولة من استشعار الفصول في النسيم الذي يهب علينا في كل

ربيع وخريف.

ورغم أنه كان يسرد عليّ تاريخ المكان، والأحداث التي رافقت ذلك العصر بحماسة واضحة، ولكنني خمنت أن ذهنه مشغول بحدث معاصر، يحاول التغطية عليه بستارة التاريخ الذي يرويه .وبعد قليل أحضر الشاب النرجيلة، ومن ثم القهوة .ولم يبدُ مستعجلاً في الإفصاح عما لديه، بل انتظر حتى شربت آخر رشفة من فنجاني.

-هل أخطأت بشأن أمر ما في حياتك المهنية؟ —سألني وقد اكتسى صوته ووجهه بجدية مفاجأة.

-بالطبع —قلت —وفي أحيان كثيرة.

لم أفهم ما يرمي إليه بالضبط من وراء هذا السؤال، رغم الفضول الذي انتابني، بل انتظرت بصبر أن يبدأ بالاعتراف بما لديه، من دون إلحاح مني.

-أما أنا، فنادرة تلك المرات التي أخطأت فيها —قالها وقد توقف عن تدخين نرجيلته —وأستطيع القول بأنني لم أخطأ من قبل، حتى ظهور نتيجة تحليل الـ (DNA)اليوم .التحليل الخاص بدوغان.

ظلّ رأس خرطوم النرجيلة معلقاً في فمي لبرهة .إذاً فقد ظهرت النتيجة، وبحسب اعترافه بأنه أخطأ التخمين، لا بد وأنّ النتيجة إيجابية .بدأت أتحرق شوقاً للتأكد من هذا الاحتمال .ولكنني استطعت كبح نفسي، وأخذت أحدق إلى وجهه بحثاً، عن تعبير يشي بما لم يقله بعد .ولكن تعابير وجهه لم تتغير، بل ظل كما لو غارقاً في التفكير، لن يستطيع حتى أكثر الخبراء النفسيين معرفة ملمح عنه. وبقي ذلك القناع الجدي يغطي وجهه، ويخفي ما يعتمل في صدره .وفي المقابل ربما كان الرجل صادقاً لا يخفي شيئاً سوى كدره من النتيجة، ولكن ما مرّ بي من أحداث زاد من وساوسي، حتى بتت أعذب نفسي بالشكوك من دون طائل.

-أجل —بدأ بالشرح —فبحسب خبراء الطب الشرعي، طابقت العينة المأخوذة من الجثة المحترقة، تلك التي أخذت من قبر السيدة كريمان .أي أن نتيجة تحليل ال (DNA)، أكدت بشكل حاسم مقتل دوغان.

ورغم توضيحه لأمر، لم يتمكن من إخفاء نبرة الشك التي تعتري صوته.

-ولكن —علقت —تبدو غير مقتنع بالنتيجة.

لم يبادر إلى الإجابة على الفور، بل عاد ليسحب جرعات أخرى من الدخان، لكن فحم النرجيلة بدأ بالخمود، حتى قارب أن ينطفئ .وبعد أن أشار بيده للشاب، لكي يحضر له فحماً جديداً، التفت نحوي.

-من المفترض ألا أصدق، ولكن الواقع يقول العكس —سكت لبرهة — وأريد أن تكون على ثقة أن الفريق الذي أجرى عملية التحليل، من أكثر الفرق ثقة وكفاءة، ومن المحال أن تربطهم أي علاقة بدوغان .وبالتالي فنتيجة التحليل لم يتم التلاعب بها مطلقاً.

إذاً كان عليّ تصديق ما قاله دوغان، فبعد مقتل أبراهام أيضاً، لا بد وأن تكون شخصية الضابط، وعلى عكس ما كنا نأمل، حقيقية .عادت نظراتي لتراقب وجه مفيد الغارق في تفكير عميق، وخطر لي أن الشخص الذي أعياني التفكير في معرفة من يكون، قد يكون جالساً أمامي الآن، ويبادلني الحديث، وبمجرد التفكير في هذا الاحتمال، انتابتني قشعريرة اجتاحت كل جسدي .وما أثار شكوكي أكثر هي المرافقة التي يتجول برفقتها .من جهة أخرى، عادت أفكاري لتختلط، فبدل أن يصرح بطعن النتيجة، وأن دوغان ما زال حياً، بل وأنه من قتل أبراهام، هو يجلس أمامي مستسلماً، ليبدي إذعانه للنتيجة .ولكن أياً منا لم يصرح عما يجول في ذهنه، بل بقينا صامتين نراقب الشاب الذي أتى حاملاً بيده مرمدة صغيرة فيها قطع فحم متوهجة، وضع قطعتين كبيرتين منها على رأس نرجيلة مفيد، حيث بدأ بسحب

أنفاس متلاحقة، ونفث الدخان الرمادي حولنا .فبادرت بسؤال آخر كان يشغل ذهني.

-وماذا عن جريمة أبراهام أفرييل؟

-لا بد وأنك سمعت بأن المقاومة قد تبنت الأمر —أوضح بلهجة توحي باقتناعه بهذا التفسير.

-ألا يمكن أن يكون في الأمر خدعة ما؟ فأي شخص يستطع الاتصال بالشرطة، والادعاء بأنه ينتمي للمقاومة، ويتبنى الجريمة.

-هذا احتمال وارد بالطبع، ولكن الشرطة أبدت اقتناعها بهذا التفسير. ورغم ذلك ما زلنا نواصل البحث.

-ألم تتمكنوا حتى الآن من العثور على أي دليل أو شاهد يلقي الضوء على ما حدث؟

-للأسف لا نملك أي شيء قد يرشدنا —وأخذ يوضح لي، لقد وصل إلى اسطنبول قبل ثلاثة أيام من وقوع الجريمة، ونزل في فندق البيت الأخضر الذي حدثتني عنه دميت من قبل، وفي اليوم الثاني خرج، ولم يعد .وقد ذهب مفيد إلى الفندق، حيث كانت أغراضه هناك، وبعد الفحص، لم يجد بينها ما يمكن أن يرشده .ولكنه وجد رقم هاتف دوغان محفوظاً في هاتفه النقال .كما اتضح أنه تلقى مكالمتين من هاتف عمومي، في منطقة أوسكودار .ولكنه لا يملك معلومات عن هوية الأشخاص الذين اتصلوا به .ومن تاريخ مغادرته الفندق، وحتى العثور على جثته، لم يكن هناك من رآه أو عرف عنه شيئاً .وحتى لو كان هناك من لديه بعض المعلومات، فهو لم يطلع الشرطة على ذلك .ولكن صور أبراهام ستنشر اليوم مساء على شاشات التلفاز، وستوجه الشرطة طلباً للجميع من أجل المساعدة.

-وما رأيك فيما حصل؟ —سألته —أيعقل أن قتل أبراهام الذي تربطه معرفة بدوغان وفي هذا التوقيت، مجرد مصادفة؟

-ولما لا؟ فقد زار تركيا أكثر من مرة، وقام بتحويل مبالغ مالية ضخمة، من هنا إلى سويسرا .وقد يكون ما قلته صحيحاً، وأن من قام بقتله أحد عملائه، وليس المقاومة في لبنان .ولكننا لا نملك أدنى فكرة عن هوية هؤلاء العملاء، لأنهم لا يعتمدون على وثائق مكتوبة في معاملاتهم .وحتى لو كانوا يفعلون ذلك، فمن المحال العثور عليها بين الأوراق الرسمية للبنوك .فهناك نظام مبني على أساس الثقة المتبادلة بين الطرفين، وقد يكون أساء إلى أحد عملائه، الذي قام بقتله من دون تردد .وقد تكون المقاومة في لبنان من قتلته بالفعل، لأنّنا وخلال كل الأحداث المتعلقة بأخيك، وأشرطة الفيديو التي سجلها، والطلب الذي كتبه للمحكمة، لم نسمع ما يشير إلى أي نقود، وهذه نقطة تدعو لإبعاد التهمة عنه .ولو كان هناك بالفعل أمر مماثل، فما الذي سيمنع دوغان من إفشائه، طالما أنه يسعى لفضح أفراد العصبة، وجرائمهم.

كان محقاً، فما الذي سيدفع دوغان لإخفاء أمر كهذا؟ ولكن بالرغم من كل الذرائع المنطقية التي أوردها، كنت مقتنعاً، أن هناك علاقة بين دوغان ومقتل أبراهام أفرييل.

الفصل الخامس والثلاثون

على الرغم من أن دوغان مات، لكنه استطاع تحقيق الكثير من مآربه، فقد نال كل من يالفاج وغونغور أقسى عقوبة، كما أن المدعو بالضابط، أصبح في وضع حرج، رغم أن شخصيته الحقيقية لم تظهر .كما أنه تم الكشف عن الغموض الذي كان يكتنف مقتل بكير كايتنا وعشيقته، والعقيد رفعت .ولن أنكر أنني لعبت دوراً مهماً في تطور الأحداث بهذه الطريقة رغماً عن إرادتي، فقد سرت في الطريق الذي خططه لي دوغان، بنجاح تام، وطبّقت خطته بحذافيرها .وحين أنظر للخلف، لا أشعر بأي ندم جراء ما قمت به، فرغم أن دوغان كان مجرماً، ورغم أننا لم نكن أخوين حقيقيين، لكن تحقيق رغبته، ومعاقبة من قام بقتله، كانت كفيلة بأن تشعرني بالراحة والرضا .وحين تخطرني ذكراه، لا أرى الطفل الذي كان، أو الشاب المفعم بالحيوية، بل ذلك الرجل الذي قابلني في المتجر، بوجهه المتعب، ونظراته المنكسرة الحزينة .ولو لم أره على تلك الحالة، وأطلعت على تفاصيل حياته في تلك السنين التي غاب فيها عنا، لما أسفت لموته، بل لاعتبرته لاقى مصيره المحتوم، لشخص كان مجرماً، وفاشياً وجاسوساً قذراً .ولكنني قابلته وتحدثت معه، واستحضرنا الماضي .ورأيت كل ما مر به البلد منذ ثلاثين عاماً، من أحداث مؤسفة، محفوراً على وجهه في تجاعيد عميقة، ونظرات منكسرة، وحزن لا سبيل لشفائه، يعصف بروحه المتعبة .لقد كان مختلفاً عن الشخص الذي في ذاكرتي. وبالرغم من كل ذلك، كنت أغضب من نفسي كلما فكّرت فيه بهذه الطريقة، فهو أيضاً كان أحد القتلة الذين لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الجرائم، من دون أن يرفّ له جفن .وقد اعترف بنفسه في المذكرة التي تقدم بها للقضاء، بأنه كان

مسؤولاً عن قتل العشرات من الأشخاص .ومن جهة أخرى، كان دوغان كما سواه أحد ضحايا الخطط والمكائد التي أغرقتنا فيها الحرب الباردة، والضغوطات الخفية التي كانت تمارسها الولايات المتحدة الأميركية على بلدنا .فقد تمّ تحويل جيل كامل من الشباب المنحاز لليمين القومي، والذي كان يعتقد أنه يناضل من أجل مبادئه، ويواجه أعدائه .أولئك الشباب الذي كانوا أصغر من إدراك حقائق الأمور، ومن فهم الوقائع بشكل جليّ، وتحديد الصواب من الخطأ، إلى قتلة ومتورطين في الكثير من القذارات .وبعد مرور سنين على هذا الصراع، احتل الكثير من القتلة، مراكز مرموقة، وأخذوا يواصلون حياتهم بشكل طبيعي، من دون أدنى محاسبة، فيما تمّ تجاهل الضحايا، وتغييبهم في غياهب النسيان، وكأنهم لم يمرّوا بهذا العالم قط. والبعض الآخر منهم بقي يتحصن بالقوة التي حصل عليها، ليغرق في عالم خفي من الجريمة والمؤامرات، وكل أنواع الجرائم .وكان دوغان واحداً من هؤلاء .ولكنه لم ينجح، فلقد قرر أولئك الذين يعمل تحت سلطتهم، والذين قد تظل هويتهم مجهولة للأبد بالتخلص منه، لأسباب مجهولة، ربما لن نعرفها أبداً .فبعد كل هذه السنين من الخدمات الدموية التي قدمها لهم، قرروا أن موته أكثر فائدة من بقائه حياً، وتحركوا لتنفيذ خطتهم .هذا كان موجز لحياة أخي القصيرة .وقد انتهت المهمة التي كلفني بها، مع ظهور نتائج تحليل الـ (DNA)، التي تثبت موته بشكل حاسم. وعادت الأحداث لتغرق في مستنقع مظلم، لن أستطيع أنا أو أي واحد من زملائي مهما بلغ ذكاؤه، ومهارته الصحفية، من كشفها ومعرفة الحقيقية .وهذا الوضع كان يقلقني، ويسبب لي تأنيباً خفياً، فعدا عن كون الضابط، ما زال طليقاً، كانت هناك الكثير من الأمور التي لم تتضح، وتنجلي بعد .ولكنني في المقابل لم أكن ذلك الصحفي الجسور، ولا المدافع المستميت عن العدالة والديمقراطية .وحتى لو كنت كذلك، فما الذي أستطيع فعله؟ فالطرق كلها مسدودة .فجريمة قتل أبراهام ظلت غامضة، ولم تظهر أي أدلة أو شهود يساعدون على الوصول للحقيقة .حتى أنه في صباح اليوم التالي، قام أحد زملائي الجهابذة، بنشر مقال ادعى فيه أن الرجل كان

مثلي الجنسية، وهذا كان سبب ذهابه إلى غابات بلغراد للقاء أحد ما، والذي قام بقتله، ونسب التهمة للمقاومة في لبنان، ليبعد الشبهات عنه .وقد تم تداول بعض الشائعات التي تدّعي أن الموساد أيضاً يقوم بالبحث في القضية، ولكن لم تظهر أي دلائل تشير لعلاقة الجريمة بدوغان، ولم تأتِ أي صحفية على ذكر هذه العلاقة، سوى صحيفتنا التي تناست الأمر بدورها بعد مدة، حين لم يظهر ما يعزز هذا الادعاء .وكما نوهت، فقد طويت قضية دوغان، وجاء الدور لتنفيذ واجبي الأخير اتجاهه، وهو دفن جثته المحترقة بطريقة لائقة، وقبل البدء بهذه المهمة، كان عليّ القيام بخطوة غاية الصعوبة وهي إخبار دميت بالأمر .لم أجرؤ على موجهتها، حين إبلاغها الخبر، لذا اخترت realpagex0471xالاتصال بها، ولكنها خلافاً لتوقعاتي، فقد تلقت الخبر برباطة جأش.

-إذاً فقد تمّ تأكيد الأمر؟ —اختلج صوتها بعض الشيء، ولكنها لم تصرخ أو تبدأ بالعويل —في الحقيقة لم يكن أملاً كبيراً —تلعثمت —ورغم أنني كنت أحاول خداع نفسي بأمل كاذب، إلا أنني كنت أتوقع هذه النتيجة.

-إنه وضع صعب —وترددت لبرهة، لا أعلم ما عليّ قوله قبل أن أردف —لكننا على الأقل بتنا نعرف الحقيقة الآن، مهما كانت قاسية.

-معك حق سيد عدنان، فعلى الأقل سيصبح لديه قبر الآن.

وبعد تنفيذ هذه المهمة، انصرفت للاهتمام بأمور الجنازة والدفن .ولم أكن أتوقع أن يحضرها أحد، فرفاقه السابقون من اليمين، باتوا يتجنبون كل ما من شأنه أن يربط بينهم وبين دوغان، وبالطبع لن يغامر أحد من قوى الأمن أو الاستخبارات بحضور جنازة شخص أطلقوا عليه صفة القاتل، وبالتالي، كان من المتوقع أن نكون أنا و دميت المشاركين الوحيدين في الجنازة .ولكن اتضح كم كنت مخطئاً، فقد عرض عليّ نصرت أن نعلن خبر الجنازة في الجريدة .ولم أخمن إن كان يفعل ذلك من أجل غاية ما، أم رداً للجميل، بسبب مساهمتي في ارتفاع أسهم الجريدة في

الشهر الأخير.

-لست مجبراً على فعل ذلك —قلت.

ولكنه أصر على الأمر، وتم إفراد صفحة كاملة من الجريدة، لنشر النعي، وتم ذكر اسمي في صدارة النعي .ومنذ تلك اللحظات، انقلبت الأمور، وانهالت عليّ الاتصالات، من قبل القوميين، من شتى بقاع البلد، بدءً بأنقرة واسطنبول، وليس انتهاء بمالطيا، من أجل تعزيتي، والكل من دون استثناء كان يعرض خدماته، وكأنه واجب وطني .وكانوا جميعاً يتحدثون عن دوغان بصفته شخصاً شجاعاً، وكريماً. حتى إن اثنين منهم أخبراني أنهما يدينان له ببعض المال، وسألا عن الكيفية التي سيردان الديون ليّ، وعرض آخر مكاناً مجانياً لدفنه في مقبرة زينجيرلي كوي، في حال لم نتمكن من دفنه في بقية مقابر اسطنبول .وكان هذا عرضاً جيداً، فقد بقيت ليومين أبحث له عن مكان في أحد المقابر ولم أعثر عليه، لذا قبلت عرض الرجل.

وأدركت مرة أخرى كم كنت مخطئاً في الحكم عليه، باعتباره قاتلاً، وفاشياً، بل ومضراً بالمجتمع .فالاتصالات كانت تنهال من كل مكان، لتثبت شعبيته الواسعة بين مختلف الشرائح، وكنت سأتحقق من هذا الأمر في يوم الجنازة بصورة أكبر.

يوم الجنازة اكتست السماء باللون الرمادي، وفكرت أنه لون ملائم للجنازة، فيما كنت أخرج من المنزل صباحاً .كانت الجنازة ستقام عند صلاة الظهر في جامع شيشلي .فاتجهت إلى الجريدة أولاً، وكتبت مقالاً عن موت دوغان أوحيت فيه بأنه كشف الكثير من المعلومات، ولكنها للأسف لم تكشف سوى رأس الجبل الجليدي .ومن ثم اتجهت إلى الجامع بصحبة إرول وتولغا وصحفي إخباري آخر. وقد كلف نصرت اثنين من الموظفين الإداريين الأكفاء، بأخذ الجثة من المشرحة والتوجه بها نحو الجامع .وحين لاحظت الزحام أمام الجامع، ظننته بسبب الأزمة المرورية المعتادة، ولكننا عندما شاهدنا سيارات المرسيدس وال (BMW)المركونة

أمام الجامع .التفت تولغا نحوي وقال:

-يبدو أن هذه الزحمة بسبب الجنازة.

وقد كان محقاً، فقد بقينا محصورين في تلك الزحمة لمدة ربع ساعة، لم نتقدم فيها سوى خمسة عشر متراً، لذا اتجهت نحو أحد الشوارع الفرعية بجهد بالغ، ووجدت زاوية لركن البليماوث، وبعد ذلك اتجهنا سيراً نحو الجامع، وبينما كان الإمام يؤذن لصلاة الظهر، بصوت جهوري، دخلت حرم الجامع .حيث كانت الباحة مليئة بأشخاص من الطراز الذي لم أكن معتاداً على اللقاء بهم كثيراً .فقد كان هناك الكثير من الرجال الملتحين، ممن هم في أواسط العمر، تعلو وجوههم تعابير كالحة بنظرات حادة، ويقف خلفهم الأكثر شباباً .كانت الجثة قد وصلت قبل وصولي، وقد وضع التابوت أمام المصلى، حيث أحاط به حشد يناهز على المئة رجل، وخيل لي لبرهة أنني لمحت دميت تقف على جهة اليسار بين الحشود. فحاولت اختراق الحشود للاقتراب منها، وقبل أن أخطو عدة خطوات خاطبني أحدهم:

-سيد عدنان -التفت لأرى رجلاً أسمر طويل القامة، بارز الشارب يقف أمامي .انحنى نحوي باحترام مبالغ فيه، وأمسك يدي بين كفيه، وهزها بعنف وهو يردف -البقية في حياتك، أنا سليمان جانير.

لقد سمعت بهذا الاسم من قبل، ولكن أين؟ وحين أدار رأسه قليلاً وهو يكلمني، ليظهر أثر الجرح الممتد من حاجبه الأيسر وحتى طرف شفته العلوية، وإن بشكل غير مقصوداً، عرفت صاحب هذه العلامة الأسطورية، فقد كان أشهر زعماء اليمين، ممن يعملون في تحصيل الضرائب.

-لقد كان دوغان أحد أصدقائي المقربين -واصل سليمان جانير- ولقد قرأت المقالات التي كتبتها حوله في الجريدة، لقد كانت مقالات جيدة .وربما

لا نحظى بشعبية واسعة في الوسط الصحفي، ولكنني أعتقد أنك طرحت الموضوع بحيادية تامة .وأنا أقدر مهنيتك هذه، وإن كان من شيء أستطيع تقديمه، فسيسرني ذلك.

-شكر الله سعيك، وأشكرك جزيل الشكر —وبعد تبادل التحيات، أكملت طريقي، أو هذا ما كنت أنوي فعله، ولكن الحشد المكون من خليط من الصحفيين، وزعماء تكتلات اليمين، والكثير ممن كانت تتردد أسمائهم في الصحف مقترنة بجرائم قتل أو اعتداء أو صفقات مشبوهة، والذين يشكلون مافيات محلية، بالإضافة إلى البطانة المرافقة لهم، تجمعوا حولي، وبدأوا الواحد تلو الآخر بتقديم التعازي إليّ، فأحسست لوهلة أنني زعيم إحدى عشائر الجنوب الشرقي، أو أحد أعضاء البرلمان، وهو يتلقى التهاني في صباح العيد .وقد ضاعت دميت عن ناظري. وبدا لي لوهلة أنني لمحت مفيد أيضاً وسط الحشود، ولكن ما الذي سيأتي به إلى هنا؟ وفي تلك اللحظة ساد هدوء تام، باحة المسجد .ووصلني صوت الإمام يصدح :

-الله أكبر —إذاً لقد بدأت صلاة الجنازة، وبعد برهة عدت لسماع التكبير —الله أكبر —ليرددها الحشد من ورائه كجوقة.

ومن ثم أخذ الإمام يقول شيئاً لم يصل لمسامعي، فردد الحشد مجدداً: »نعرفه جيداً .«وعاد ليقول شيئاً آخر، ليردد الحشد» :سامحه الله .«بصوت جهور. وما إن انتهى الإمام، حتى أخذ الحشد يتماوج ويضطرب، ولا أدري من أين خرج التابوت، وقد لفّ بالعلم التركي، وأخذت الأيدي تتسابق على حمله .ومن ثم أخذوا يرددون بصوت واحد» :لا إله إلا الله، محمد رسول الله «وهو يتجهون نحن الباب. وقد حاولت الخروج معهم، منساقاً مع حركة الحشود المندفعة .وكنت طوال الوقت أتلفت يميناً، ويساراً علني أجد إرول أو تولغا أو دميت ولكن عبثاً، وبعد خمس دقائق من الصراع استطعت الوصول إلى الباب، الذي اجتزته لاهثاً باتجاه الخارج.

وانتقلت على الفور إلى الطرف المقابل من الطريق، وأخذت أبحث من جديد عمن أعرف، ولكن دون طائل .وفي هذه الأثناء كان التابوت، وسط أصوات التكبير يتجه نحو سيارة الدفن الخاصة، ودون أن يتجهر الحشد كثيراً في الخارج، توجه الجميع إلى سياراتهم .أما أنا فبقيت قابعاً في حيرتي أنظر إليهم، من دون أن أعرف ما يجب عليّ فعله، وكأنني أراقب جنازة شخص غريب لا يمت لي بصلة .حتى إنني فكّرت للحظة بعدم الذهاب إلى المقبرة .ولكنني لم أستسغ الفكرة، فطالما أنني خضت الأمر، عليّ أن أكمل واجبي اتجاه أخي، ومرافقة جثمانه حتى يوارى الثرى. واختلطت بالحشود المتوجهة مثلي نحو الشوارع الفرعية حيث قاموا بركن سيارتهم، ومن تعرف عليّ منهم، فقد توجه نحوي بذات الاحترام المبالغ فيه، ليقدم التعازي. ولكنها لم تكن بالمهمة السهلة، وكان الطريق مزدحماً، ومع وجود أكثر من مئة سيارة في موكب الجنازة تحول الأمر إلى كارثة من الفوضى .والأسوأ أنني تأخرت كثيراً عن مرافقة الموكب، ذلك أن شرطة المرور، قد أوقفت حركة المرور العادية، للسماح للموكب بالعبور .ووسط عجزي أشعلت سيجارة، منتظراً وسط رتل السيارات المتوقفة .وفكّرت أن هذا أفضل، لأنني كنت متأكداً من تكرار ذات الطقوس التي أقيمت في الجامع، وسيليها إلقاء خطب، وتعاد التكبيرات والصلوات، وسيتم اعتباره شهيداً، وبطلاً قومياً، وقد يصل الأمر بهم إلى التعهد بالانتقام من قتلته .وفي هذه الحال، كلما تأخرت عن مواكبة الحشد، سيكون الأمر في صالحي.

تأخرت ما يقارب الساعة عن اللحاق بالجنازة، واخترت ركناً آمناً لسيارتي، وأكملت سيراً، وأنا أواصل التلفت حولي، ولكن عبثاً .كنت أعلم أن هذه الشخصيات لا تأتي بمفردها، بل يروقها على الدوام اصطحاب رهط من الصحفيين، ومراسلي المحطات التلفزيونية، والمصورين، حتى تكتمل مراسم البهرجة، وربما حالت المنافسة دون أن يتمكن زملائي سوى من التقاط بعض الصور، ومغادرة المكان .وفيما أواصل السير لاحظت بأن الحشود بدأت بالتفرق.

حين اقتربت من القبر، لاحظت وجود جمهرة صغيرة مؤلفة من حوالى

عشرين شخصاً، مجتمعين حول القبر .لذا تعمدت السير ببطءٍ متأملاً أن يتفرقوا بسرعة .ولكنهم لم يكونون ينوون المغادرة سريعاً على ما يبدو، لذا اخترت الوقوف تحت شجرة سرو ضخمة منتظراً، وأخذت الرياح تحمل إليّ بعض الكلمات العربية، التي يرددها شخص ما، فخمنت أنه يقرأ سوراً من القرآن .وبعد برهة توقفت الرياح عن حمل الحروف العربية إلى مسامعي .وأخذت الحشد يهمهم بشيء ما، وأكفهم مفتوحة ومتجهة نحو السماء، بعد لحظات، مسحوا وجوههم بأكفهم، فأدركت أن طقوسهم على وشك الانتهاء، وأنهم سيغادرون قريباً .حين تفرق الجمع، رأيت دميت واقفة في الجهة المقابلة، يفصل القبر بيني وبينها .وقد آثرت مثلي البقاء بعيدة حتى تذهب الحشود .حينها اقتربت من القبر الذي حولته عشرات من أكاليل الورد إلى تلة صغيرة .وقد لاحظت احمرار عينيها، وهي تفتح يديها بالدعاء، وقد ظلت لبرهة على تلك الحال، فقررت الاقتراب منها، لكن الأطفال الذين تجمعوا حولي، منعوني من السير حتى وزعت عليهم كل النقود المعدنية التي في جيوبي.

-عظم الله أجرك —قلت.

عندما شاهدتني، قامت بحركة لم أكن أتوقعها على الإطلاق، فقد ارتمت في حضني، وانهارت باكية في نشيج متواصل .بقيت جامداً، تلفني الدهشة، وأنا لا أعلم ما الذي يجب عليّ فعله، فيما أتنشق رائحة عطرها العذب الخفيف .خطر لي لوهلة أن أمسد شعرها مواسياً، ولكنني حين شاهدت نظرات النساء التي ترمقنا بفضول، تخليت عن الفكرة .فهي امرأة عزباء جميلة، وأنا رجل وحيد، ما الذي سيفكرون فيه؟ ربما كانوا يراقبوننا من باب الفضول ومن دون أي نوايا خبيثة، ولكنني بالغت في تهويل الأمر، وربما كنت خائفاً من نفسي، أو منها .لا أعلم، ولكنني قرأت في مكان ما، أن الكثير من النساء، وخلال الفترة الأولى من ترملهن، يعقدن علاقات عاطفية مع المعالجين النفسيين اللواتي يترددن عليهم .وقد أكون الآن بمثابة واحد من أولئك المعالجين، فهي تستطيع البوح لي بكل حزنها ومشاكلها، من دون خوف .وإن لم تكن تولي ثقة كبيرة، لكنها تعلم في المقابل أنني لن ألحق

بها الأذى .وليس من الصعب أن أحتل مكانة دوغان في قلبها .لا أعلم متى بدأت هذه الأفكار تراودني، ولكن من المؤكد أن عقلي الباطن قد وضع هذا الاحتمال أيضاً في دائرة احتمالاته اللامنطقية .ذلك أن دوغان وإن لم يكن أخي الحقيقي، لكننا تربينا على أننا كذلك، ومن المشين أن تخطر لي هذه الأفكار .ولكنها تفعل ذلك رغم إرادتي .ولكن من حسن حظي أن تلك النسوة كن هناك يراقبن المشهد، ويشكلن حاجزاً يحول دون تحقيق ما يجول في ذهني من قذارات .لذا لم أربت على شعرها، ولا ربتت على كتفها مواسياً .حتى أنني لم أقل شيئاً للتخفيف عنها، لأنني كنت موقناً، باستحالة مواساة امرأة تبكي في وضع مماثل، فكل ما سأقوله قد يزيد من عمق جروحها أكثر .بقيت ساكناً لا آتي بأي حركة، وبينما تفرغ أحزانها على كتفي، كانت نظراتي متجهة نحو أكاليل الورد، وكأنني أسقط في فراغ عميق، حيث لم أشعر بأي حزن على ذلك الشخص الذي يرقد تحت التراب، وكأنه ليس أخي، أو الشخص الذي كان السبب في كل ما مررت به من أحداث منذ شهر وحتى الآن .وبينما يختلج جسدها تحت وطأة نوبات البكاء، شعرت ببعض الندم لأنني أتيت إلى هنا .وفي تلك اللحظة أدركت، أن لا رابط يجمعني بدوغان .لقد كان ه جزءاً من هذه الحشود التي غزت المقبرة منذ قليل، كان بطلهم، والإنسان الذي تعرض للخيانة في نظرهم .وفيما تجول في ذهني هذه الخواطر، كانت دميت تواصل البكاء، ولكن إحدى النساء اللواتي تقف بالقرب منا، هبت لمساعدتي، وخلصتني منها.

-كفى يا ابنتي —قالت مواسية —ستنهارين من كثرة البكاء .هيا لنغادر.

اتجهت نحوي وهي تتمتم وسط دموعها:

-ما كان يجب أن يتركني .لما غادرني باكراً.

أو شيئاً من هذا القبيل، ولكن النسوة اللواتي برفقتها، قاموا بجرها جراً،

وأجبروها على المغادرة، ففكرت بدوري أن أغادر هذا المكان، لأن هذا الطقس الجنائزي بات يثير ضيقي، وخاصة مع نواح دميت وبكائها .وبينما أهم بالانصراف، أقبل أحدهم نحوي وهو يقول:

-السلام عليكم.

كان يرتدي قبعة من النوع الرخيص، وسترة رمادية، وبنطالاً من المخمل أخضر اللون، وينتعل حذاءً مطاطياً أسود .وكانت المسبحة التي في يده، ملائمة تماماً للحيته الطويلة التي كادت أن تبلغ صدره .ولكن ما يلفت الانتباه في منظره، كان تلك العينان السوداوان الواسعتان، اللتان تناقض البراءة الواضحة في نظراتهما، والتعابير الجدية التي تعلو وجهه .تلك البراءة التي كانت توقظ في النفس مشاعر منسية وجميلة .لا بد وأنه أحد الفقراء الذين يعتاشون من الصدقات التي يوزعها أقرباء الموتى .وحين عرف بأنني من عائلة الميت، جاء يطلب مني صدقة، وبينما أضع يدي في جيبي، وأفكر في مقدار ما سأمنحه إياه، بادر بالقول:

- لم تعرفني أليس كذلك؟

تأملت وجهه، لكنه لم يوقظ في نفسي أي ذكرى .فانتظرت توضيحاً منه.

-أنا رسول —قال —رسول جوبان، كنا نتردد على منزلكم، أنا ونجات.

ولم أتمكن من الربط سوى بعد برهة من التأمل، بين ذلك الشاب الذي كان يرمق الآخرين بنظرات حادة، توحي بالتهديد، وبين هذا الرجل الذي يقف أمامي بنظراته الوادعة.

-أهلاً —قلت —لقد تغيرت كثيراً، ولم أتمكن من التعرف عليك أبداً.

-وحده الله من لا يتغير —قال —أما نحن فنتغير.

–معك حق –قلت وأنا أواصل تأمل وجهه –لكنك تغيرت بصورة بالغة .ألم تكن عيناك أفتح قليلاً؟ يبدو لي لونهما أكثر قتامة الآن.

–من كثرة النظر إلى القتامة.

–أي قتامة؟ –سألت.

–قتامة روحي.

حينها تذكرت ما قاله عنه نجات، من أنه يعاني من مشاكل نفسية.

–لما تنظر إلى قتامة روحك؟

–لأرى الظلمة التي تلفها.

–اعذرني، ولكنني لا أفهم.

–وما الذي يبدو لك غير مفهوم في كلماتي؟ فأنا أتحدث عن الظلمة التي نعرفها جميعاً .ألم تشعر برغبة في رؤية تلك الظلمة، والضياع وسطها؟

هل كان ينقصني مجنون الآن؟

–ما الذي تتحدث عنه يا رجل؟ –سألت –لما سأرغب في الضياع وسط الظلمة؟

–لكي تعثر على نفسك .فإن لم تتمكن من رؤية الظلمة، كيف ستعثر على نفسك؟

–وهل أنا مجبر على البحث وسط الظلمة؟ ألا يمكن البحث في مكان آخر؟

–لكنك لن تتمكن من العثور على نفسك في مكان آخر –قالها في ثقة

بالغة —فمن لا يعرف الظلمة التي تغمر روحه، لن يعرف نفسه.

-كلام جميل —قلت ذلك، وأنا أنوي إنهاء الحديث، والخروج من هذا المكان، والابتعاد عن هذا المسكين الذي فقد عقله.

-ليست كلماتي، إنها كلمات يونس.19

-أتعني يونس إيمريه؟ لم أسمع بها من قبل.

-لا بد وأنك سمعت بها، ولكنك لم تمعن التفكير فيها .فهو يقول: »هناك أنا، وهناك ذاتي التي تحتويني «أتظن أن تلك الذات هي مجرد الضوء، والخير؟ إنها في الوقت نفسه الظلمة أيضاً .فإن لم تعرف الظلمة لن تعرف الشر، وحينها كيف لك أن تميز الخير؟

حينها تذكرت أنها بالفعل كلمات يونس إيمريه، وللمرة الثانية تمكن رسول من إثارة دهشتي .أكان فيلسوفاً، أم مجرد مجنون يهذي أمامي؟ ولمعرفة ذلك، واصلت التحديق إلى وجهه .وكان بدوره يواصل التحديق إليّ، فشعرت بغرابة الموقف .كنا نقف وسط المقبرة، نواصل النظر إلى بعضنا البعض بغرابة، ولكن دون غضب أو حقد أو أي نوايا سيئة، بل كان من الممكن أن نبتسم لبعضنا في أي لحظة، وأن نتبادل حديثاً لطيفاً.

-يا إلهي، أنت حقاً تثير دهشتي — دمدمت.

-فلتعم روحك على الدوام دهشة الفرح.

-ما أخبارك، هل أنت بخير؟ سألت.

-أنا بخير، وأحمد الله على نعمه —قالها، وعلا وجهه تعبير فرِحٍ —وبإذن الله سأواصل حمده، حتى الذهاب إلى ذات المكان الذي غادر إليه دوغان.

بدا غير مصدوم لموت دوغان، ولم يسألني أي أسئلة تتعلق بما حدث، وكيفية حدوثه، حتى إنه لم يقم بتعزيتي أيضاً.

-لقد سررت بمقابلتك هنا —قال .وكانت تعابير وجهه، ونظرات عينيه البريئتين تؤكد صدق كل كلمة يقولها —لم تكن الخالة كريمان تحبك، وكانت على الدوام تعتقد أنك تكره دوغان .ولكن هناك باب للمحبة في روحك، ويبدو أن الخالة كريمان لم تتمكن من العثور عليه .فكل مخلوقات الله سبحان وتعالى، ليست بتلك البساطة التي يظنها الآخرون أحياناً .وفي داخل كل منا جوهرة خفية .ولهذا السبب لم يكن دوغان يتحدث عنك بأي سوء.

عن أي أزمنة يتحدث رسول؟ عن الماضي حين كنا شباباً؟ أم عن الوقت الراهن؟ فبحسب علمي أن دوغان لم يكن يحمل مشاعر إيجابية اتجاهي في أيام الشباب .فبادرت بالسؤال لمعرفة الحقيقة.

-متى كانت آخر مرة التقيت فيها بدوغان؟

-بعيون القلب أم الجسد؟

-وما الفرق بين الاثنين؟

-عيون الجسد تمنحني القدرة على رؤيتك تقف أمامي الآن .أما عيون القلب فتمنحني القدرة على رؤية شخص ما، حتى لو لم يكن قريباً مني بجسده، بل حتى لو انتقل إلى دنيا البقاء.

-إذاً فأنا أعني عيون الجسد —قلتها وأنا أبتسم رغماً عني .ولكنه لم يبد أي انزعاج، بل على العكس أظهر صفّ أسنانه الناصعة البياض، وهو يجاريني الابتسام.

-من حوالى شهرين أو شهر ونصف.

استغربت أن دوغان لم يقطع علاقته برسول، بعد كل هذه السنوات، ولم يحدث دميت عن أمره.

-وكيف عثر عليك دوغان؟

-لقد كان رجلاً وفياً مثلك، وقد تكبد عناء المجيء إلى سابانجا من أجل رؤيتي والاطمئنان عليّ، وقام بزيارة أخي ليسأل عن عنواني، والذي أحضره إليّ .لقد سررت سروراً بالغاً برؤيته، وقبل مجيئه كنت أراسل الخالة كريمان، قبل أن يتغمدها الله برحمته، وقد كانت ترسل إليّ بين الفينة والأخرى، بعض الطعام والملابس، حتى أنها حاكت ثلاث كنزات صوفية من أجلي .لقد كانت سيدة رؤوم، أتمنى أن يتغمد الله روحها برحمته .وأن ترقد في جنان الخلد.

-وهل كان دوغان يزورك باستمرار؟

-كان يزورني كل ثلاثة أو أربعة أشهر، ولكن في الأشهر الستة الأخيرة، زادت زياراته لي .وكان يجلب معه بعض الهدايا .كالطعام والملابس والأغطية الصوفية وسواها .ليتغمد الله روحه بواسع رحمته، فقد كان رجلاً صالحاً.

وفيما كان يواصل حديثه عن دوغان، أخذت الأفكار تعاود النهوض في ذهني، لتخلق فيّ رغبة في الاستطلاع عن المزيد، علّني أصل إلى شيء يفيدني، ويكشف الغطاء عن بعض الأسرار التي تخصه.

-لقد سررت كثيراً لرؤيتك —قلتها وأنا أتأبط ذراعه فيما نسير سوية، وبدوره لم يبد أي استغراب من تصرفي هذا —وإن شئت الصدق، فأنا راغب في قليل من الدردشة حول الأيام الخوالي، إن لم يكن لديك عمل أو التزم آخر، ما رأيك بالجلوس في مكان ما، ومواصلة الحديث؟

-لا عمل لديّ —قال —لا عمل سوى مواصلة مشيئة الله سبحانه

وتعالى في العيش وفق ما يقتضي رضاه .كما أنني لم أسمع بخبر موت دوغان سوى مصادفة، فلا تلفزيون أو راديو، أو حتى جرائد تصلني في المكان الذي أعيش فيه. وقد رأى ابن أخي الخبر منشوراً في الجريدة، ولم يتأكد من الحقيقة سوى حين رأى صورة دوغان مرفقة بالخبر حينها جاء إليّ وأخبرني .فاستقللت الباص وأتيت إلى اسطنبول، إنها الزيارة الأولى منذ أكثر من سنتين .رغم أنني كنت مضطراً للمجيء بجميع الأحوال حال سماعي الخبر، من أجل العثور عليك.

-ولما كنت ستفعل ذلك؟

-لكي أردّ لك الأمانة التي تركها دوغان لديّ، كونك قريبه الوحيد.

-وما الذي تركه لديك؟

-في الحقيقة، لم يكن دوغان من ترك الأمانة، إنها الخالة كريمان رحمها الله، حيث تركت عندي صندوقاً قديماً من خشب الجوز.

بدأ وجيب قلبي اللاهث يصل لمسامعي بوضوح، إزاء هذه المصادفة، فبعد شهور من البحث عن ذلك الصندوق الذي يحوي أرشيف والدي المفقود، ها أنا أجده يأتي إلي بنفسه، تركت ذراعه، ووقفت قبالته، وأنا أسأل لمزيد من التحقق:

-هل الصندوق يحوي على صور السيارات؟

-أجل —قالها بلامبالاة، بينما كانت كل كلمة يبوح بها كفيلة بأن تجعلني أطير فرحاً، وقد واصل دون أن يعلم بما يجول في صدري —في الحقيقة أنا لم أقم بفتح الصندوق على الإطلاق، ولكن الخالة كريمان عندما أعطتني إياه أخبرتني بأنه يحوي صور السيارات .وحين جاء دوغان وأطلعته على الأمر، أخذ المفتاح، وفتح غطاء الصندوق، وقال لي أنه يحوي أرشيف المرحوم والده من صور ومجلات تخص السيارات الأمريكية القديمة.

-وهل ما زالت داخل الصندوق؟

-إنها هناك على الأرجح، فحين كان يأتي دوغان لزيارتي، كان يدخل الغرفة التي بها الصندوق، ويبدأ بتصفح تلك المجلات لبرهة من الوقت، وأنا متأكد أنه لم يقم برميها أو أخذها، فلو فعل ذلك لكنت عرفت.

كانت كلماته كفيلة بإنعاش روحي، وأخيراً عاد إليّ أرشيف والدي المفقود.

-ومتى أعطتك الخالة كريمان الصندوق؟

-منذ ما يقارب العامين، فقد استدعتني لرؤيتها، وكانت هذه آخر زيارة لي إلى اسطنبول .حيث زرتها في منزلكم القديم، ولم يكن دوغان قد ظهر بعد في تلك الفترة .أخبرتني بأنها تعتبرني بمثابة ابنها، وطلبت مني الاحتفاظ بالصندوق، لأنّ دوغان سيظهر ويقوم بزيارتي، وحينها سأعطيه الصندوق، وهذا ما حدث بالفعل، فقد ظهر دوغان وجاء لزيارتي، وقد أطلعته على الأمر.

-ولكنك تقول إن الصندوق ما زال بحوزتك؟

-أجل هو كذلك، فحين رآه دوغان قال لي إنه تذكار من والدته، وطلب مني الاحتفاظ به إلى حين أن يتزوج ليأخذه إلى منزله، واكتفى بأخذ المفتاح. ولكن يبدو أن للقدر رأي آخر، فها هو يؤول إليك.

في يوم غريب ومشؤوم كهذا، كان ظهور هذا الرجل الغريب الأطوار أمامي، وهو يزف لي خبراً كاد أن يذهب بعقلي فرحاً، أكثر الأحداث غرابة.

-أتعني أن الصندوق في منزلك؟ —سألت.

-أجل، إنه هناك، وتستطيع المجيء لأخذه متى شئت، وستكون فرصة

ملائمة لاستضافتك عندي.

-أشكرك جزيل الشكر يا صاحبي، فأنت لا تعلم أهمية هذا الصندوق بالنسبة إليّ، إنه أكثر ما ورثته عن والدي قيمة .وقد بقيت أبحث عنه لشهور طويلة.

عادت تلك الابتسامة الصادقة المحببة لتغطي كامل صفحة وجهه، وزادت من وميض عينيه البريئتين.

-أنا لم أفعل شيئاً في حياتي سوى الامتثال لمشيئة الله .وإن كان هناك من أحد جدير بالشكر، فهو الله الذي يجب أن ترفع يدك بالشكر إليه .فهو ما إن يغلق باباً، حتى يفتح في وجهك أبواباً أخرى.

-الحمد والشكر لله —قلتها وحاولت مجاراة رسول في تصرفاته، وأنا أرفع يديّ نحو السماء وأعيد الحمد —ألف حمد وشكر لله سبحانه وتعالى —لم أكن أفعل ذلك تزلفاً أو مداهنة، بل كنت صادقاً في شكر كل من له يد في تحقيق هذه المصادفة التي أسعدتني من أعماق قلبي، وعدت للتوجه إليه —أود الحصول عليه في أقرب وقت ممكن، متى ستعود إلى سابانجا؟

-متى ما انتهت محادثتنا.

-إذاً ما رأيك أن نذهب إلى هناك سوية؟ فسيارتي قريبة .وبذا سنواصل صحبتنا، وسأتمكن من استعادة الصندوق أيضاً.

-إن شئت سأحضره أنا لك، دون أن تكلف نفسك هذه المشقة.

-أي مشقة يا رجل؟ فأنا كنت سآتي بجميع الأحوال لأخذ الصندوق.

-حسناً —قال، وأضاف بعدها —أرأيت كيف أن الله سبحانه وتعالى

يقود خطانا نحو الخير دوماً، رغم أنه الوحيد العالم بخبايا الأمور والصدور.

الفصل السادس والثلاثون

حين غادرنا المقبرة كانت الغيوم التي تغطي السماء قد ازدادت تكاثفاً، وأزداد اللون الرمادي قتامة، وبينما أعبر جسر المضيق الذي لم يكن يشهد أزمة مرورية في مثل هذا الوقت من ساعات النهار، متجهاً نحو الطريق المفضي إلى الأناضول، باتجاه سابانجا، كان رسول الجالس بقربي، قد بدأ بسرد قصة حياته، بناء على رغبة مني.

كان موسى والد رسول قد غادر بلغاريا، في نهاية الحرب العالمية الثانية، مخلفاً ورائه والديه العجوزين اللذين ربما خوفاً من مخاطر الطريق، وربما رغبة في مواصلة ما تبقى لهما من عمر في بلدهما، قد اختارا البقاء، وعدم مرافقة ابنهما في رحلته، حيث كانت بلغاريا في تلك الأثناء تشهد أحداثاً داخلية عنيفة .وكانت الدولة في تلك الأثناء تطلب من المهاجرين المسلمين القادمين من بلغاريا، ممن ينحدرون من أصول تركية، الاستقرار في مكان قرب بورصا، لكن موسى حين جاء إلى اسطنبول، ورأى جمال وروعة تلك هذه المدينة آثر البقاء فيها، على الذهاب إلى بورصا .وانفصل عن أقربائه وأصدقائه الذين هاجر برفقتهم، واستقر في هذه المدينة الأجمل والأكثر اتساعاً من صوفيا .ولكنه بعد أسابيع من التجول في المدينة الكبيرة، بجيب فارغ من النقود، ومن دون وجود أحد يعرفه، أخذ يكابد الجوع، ولم يكن من السهل العثور على عمل في ذلك الشتاء القاسي، حيث كان أهل اسطنبول نفسها يعيشون تحت وطأة الجوع بسبب الحرب .وفي إحدى الليالي التي بلغ به العجز والجوع أقسى الدرجات، استلقى أمام أحد القصور القديمة المهجورة، وراح في سبات

عميق، وأخذ يحلم بغابات بلغاريا التي ترعرع فيها، وفي تلك الأثناء عثر عليه أحد المولوية، فاصطحبه إلى دار للدراويش في توب كابي، حيث قدموا له الطعام، والثياب، ومأوى كي ينام فيه.

ومنذ تلك اللحظة، لم يغادر الشاب الدار، وبقي هناك يقوم بكل ما يكلف به من أعمال في صمت مطبق، وبعد مرور فترة ليست بالطويلة، استرعى هذا الشاب الكتوم النشط انتباه أحد الشيوخ، فوافق على بقائه هناك على الدوام. ولم تمرّ فترة طويلة حتى اعتبروه واحداً منهم، ولكن الدرويش الشاب لم يكتفِ بأداء المهمات، والعمل بنشاط، بل حاول تعلم كل ما يمكن تعلمه من جماعته الجديدة، والأهم من ذلك أن نظرته للحياة تغيرت، وباتت أكثر حكمة .وبقي هناك لمدة اثني عشر عاماً، في حالات مماثلة يتطلب تحول الدرويش العادي إلى مدة أقصر بكثير من أجل أن يصبح شيخاً، ولكن لأنّ موسى كان مدركاً أن وضعه لا يؤهله لمرتبة مماثلة، فقد قنع بالبقاء حيث هو، وواصل تنفيذ ما يكلف به من مهمات، بكل رضى وسرور، فكان يقطع الحطب، وينظف الباحة، ويعمل على إصلاح البناء وترميمه .أي أنه كان يقوم بكل مهمات الخدمة في الدار القديمة .ولكن في إحدى الليالي أتى حريق كبير على الدار ليحولها إلى كومة من الخشب المتفحم، وبالكاد استطاع موسى أن ينجو بنفسه، ويخرج من الدار .إلا أن بعضاً من زملائه ممن يشعرون بالغيرة من رضا الشيوخ عنه، ومحبتهم له، بدأوا ينشرون الإشاعات ويدّعون أمام الشيخ أنه المسؤول عن الحريق، ولم تتأخر هذه الشائعات في بلوغ مسامع موسى الذي كان يشعر ضمناً ببعض التأنيب، والمسؤولية اتجاه الحريق، فبادر إلى التحدث مع الشيخ.

–الأخوة معهم حق، فأنا المسؤول عن حماية هذا المكان المقدس، ولأنني لم أقم بواجبي بصورة صحيحة، فليس من المناسب بقائي في هذا المكان، اسمح لي بالمغادرة يا شيخي.

لم يكن الشيخ ليوافق على طلبه، لو لم يكن موسى مصراً، إلا أن الرجل الحكيم كان يعلم أن موسى ما إن يخرج خطوة واحدة خارج المكان، سيغدو كالسمكة التي خرجت من الماء، لذا اشترط عليه بالقول:

-اسمعني يا بني، أعلم أنك قد عملت هنا وبقيت معنا لمدة اثني عشر عاماً، وحاولت أداء كل ما أنيط بك بإخلاص ومحبة، ولكن مهمتك في هذا العالم لن تنتهي بمغادرتك المكان، فإن بقيت مصراً على الذهاب، يجب أن تتجه للمكان الذي أختاره لك .اذهب إلى قريتي في سابانجا، لتصبح أمام الجامع هناك، لأنّ الناس بحاجة إليك يا بني.

وقد قبل موسى المهمة برضا بالغ، وبعد عدة أيام توجه مع شيخه إلى قرية يولزى، حيث عرفه الشيخ على أعيان القرية وسكانها.

-ها هو إمام جامعنا الجديد.

وإزاء رغبة الشيخ، أظهر أهل القرية القبول، وفي وقت قصير تمكن الإمام الجديد من كسب محبة الجميع، بطبعه السمح .حتى أن المختار قد زوجه من ابنته اسما، والتي وإن لم تكن على قدر كبير من الجمال، فقد كانت امرأة حكيمة ومطيعة، وهذا ما كان يبحث عنه موسى أكثر من الجمال .وقد أنجبا ابنين الأكبر اسمه أيوب، والثاني هو رسول . لم يبدِ أيوب أي اهتمام بالتعليم، على خلاف رسول الذي كان من المتفوقين في المدرسة الابتدائية، وحين قام والده بإرساله إلى سابانجا ليكمل دراسته، لم يخيب الفتى آمال والده، واجتاز مرحلتي الإعدادية والثانوية بنجاح كبير، وتفوق .وهذا ما دفع الجد المختار، لبيع قطعة أرض صغيرة، لكي يوفر مصاريف إرسال الشاب إلى اسطنبول ليدرس الحقوق في الجامعة .أقام رسول لفترة في فنادق رخيصة، دون أن يجد مأوى مناسباً، وذات يوم التقى صدفة بأحد زملاء الدراسة الذين كانوا معه في سابانجا، وحين علم زميله بأنه لم يجد حتى الآن مكاناً مناسباً للسكن، أخذه معه إلى مقر الحزب القومي .وهناك بدأت سلسلة الأحداث

بانقلاب دراماتيكي، فالشاب الجديد، قد حصل على مكان في السكن الجامعي الحكومي، بعد عدة أيام، رغم أنه كان قد قدم طلباً بالقبول منذ عدة أسابيع دون ينال الموافقة .وتقبل بحماسة الشباب وعنفوانه جميع مبادئ الحزب، وتحول إلى أحد أكثر الأعضاء نشاطاً، وهكذا أفضت به الدروب إلى السجن بدل التخرج من الجامعة، وهناك أخذ يعيد التفكير، ويسترجع ما مرّ به، ليكتشف الوهم الذي كان غارقاً فيه، وأخذ يسترجع ذكرياته عن والده، وكم كان على الدوام رجلاً سعيداً، وراضياً .وقبل مرور وقت طويل اختار السير في طريق والده ذاته.

كان رسول يسرد عليّ هذه الأحداث حتى وصولنا سابانجا، التي اجتزناها نحو طريق تحف به الأشجار والبساتين، ورأيت اللوحة التي كتب عليها، أن قرية يولزى تبعد خمسة عشر كيلومتراً.

-هل يعيش والدك في القرية حتى الآن —لكنه بدل أن يجيبني، ظل يواصل النظر إلى الطريق الممتد أمامنا، وهو غارق في أفكاره، فأعدت السؤال ظناً مني أنه لم يسمعني.

-لا داعي للتكرار —قالها ولكن دون غضب أو استياء، بل بصوت حيادي —لقد انتقل والدي منذ سنوات إلى دار الحق.

لم أكن قادراً على رؤية وجهه كاملاً، وسبر ما في أغواره، لكنني أدركت أن سؤالي قد أزعجه .فآثرت الصمت وظل يرمق الطريق بالنظرة ذاتها، وبقينا صامتين لحوالى ربع ساعة، حين تفرع الطريق الذي أسلكه.

-هذا الطريق يوصل للقرية —وأشار بيده نحو الطريق المتفرع جهة اليسار —، ولكننا سنكمل باستقامة، لأنّ منزلي يقع خارج القرية.

بدأ الطريق يصبح أكثر وعورة، فانتابني الخوف على السيارة، التي خشيت أن أخسرها من أجل استرداد أرشيف والدي .توجهت نحوه، وأنا أسأل بضيق:

-لما لا تعيش في القرية؟

-الناس يشتتون انتباهي، عن الانشغال بعبادة الله والتقرب منه، وحين أبتعد عن نوره، أتحول إلى شخص عصبي، ولا يود أحد التعامل معي.

لم أستوعب كيف أن هذا الرجل، الذي كان في بداية لقائنا يفيض سلاماً ومحبة قد أخذ بالتحول إلى شخص عصبي المزاج.

أما هو فقد واصل الحديث بجدية تامة:

-وإن بقيت لوقت أطول معي، ستدرك ما أعنيه .فأنت الشخص الوحيد الذي تبادلت معه حديثاً مطولاً منذ ما يقارب الشهر.

لم أدرك إن كان يمازحني، أم أنه جاد فيما يقوله، ولكنني كنت متيقناً من الصعوبة التي تكابدها البليماوث وهي تصعد الطريق، وكان صوت محركها المتعب تصلني بوضوح .وتمنيت لو أنني تركتها في الأسفل وواصلنا الطريق سيراً.

-ها قد وصلنا —وأشار بيده نحو بستان الكرز الذي على جانب الطريق .نظرت إلى الاتجاه الذي أشار إليه فلم أجد أي منزل —أنظر هناك، ذلك هو منزلي —لو لم يشر بيده نحو نهاية البستان، حيث يقبع كوخ خشبي صغير تحت شجرة دلّب ضخمة – عليك ترك السيارة هنا —وأخذ يتجهز للنزول —سنكمل طريقنا سيراً على الأقدام.

حين نزلت من السيارة، استقبلني نسيم رطب ومنعش حد الخفة لم أعتده من قبل، حتى أنني شرعت بدوار خفيف، وقبل أن أواصل الاستمتاع به، لحقت برسول الذي بدا باجتياز أشجار الكرز والخوخ والسفرجل التي أزهرت، من دون أن ينبس بكلمة واحدة .يبدو أن المطر تساقط مساء البارحة، حتى تحولت طبقة التربة السطحية إلى أوحال أخذت تلتصق بأسفل حذاءينا مع مواصلة السير .اتجه رسول

نحو البئر، حيث سحب الدلو البلاستيكي المملوء، وتوجه نحو المصطبة الإسمنتية لغسل حذائه المطاطي، فيما كنت أجيل النظر حولي، في المنزل والمصطبة، وعريشة وارفة تقبع تحتها طاولة خشبية متينة، وخلا الغرابين اللذين كانا يعتليان شجرة الدلب وينعقان بصوت عالٍ، لم يكن هناك من شيء آخر، أو مخلوق أليف يؤنس وحدته .أنهى رسول تنظيف حذائه بسرعة، فحان دوري بينما اتجه هو نحو باب المنزل، وبعد أن غسلت يدي في الماء الباردة الخارج مع أعماق البئر، اتجهت بدوري إلى الباب الذي كان ينتظرني مضيفي بالقرب منه، ففتحه، لأدخل، ومن ثم دخل عقبي بعد ترديد البسملة .استقبلتني رائحة عفن خفيفة ممزوجة برائحة أخشاب وحشائش، ولكنها لم تكن مزعجة، ويسهل الاعتياد عليها بعد مرور وقت قصير. لكن الستائر القاتمة التي كانت تغطي النوافذ، كانت تحول دون رؤية شيء، ولهذا السبب قام بإزاحة الستائر، وإشعال مصباح الكاز، حيث بدأت الأشياء تظهر رويداً رويدا.

في وسط الغرفة كانت تتموضع مدفأة حطب ضخمة، و إلى جانب الجدار وضعت طاولة خشبية كتلك التي في الحديقة، ولكنها كانت نظيفة، كما البيت كله، بحيث لم أجد صحناً وسخاً، أو بقاياً خبز أو ما إلى ذلك، في أي ركن، وكانت هذه النظافة توحي بأن ربة منزل نشطة تسكن هذا المكان الذي كانت أرضيته كما الجدران مصنوعة من ألواح خشبية .كانت النوافذ تتوزع على الحائطين الجانبين، أما في الصدر فقد علقت صورة قديمة، حال لون الإطار المحيط بها، كانت لشاب ينظر إلى الكاميرا بعينيه الواسعتين السوداوين بثقة، وتغطي وجهه ابتسامة جميلة توحي براحة وسلام داخلي .وفي الحائط الآخر حقيبة قماشية من المخمل الأخضر، خمنت أنها تحوي نسخة من القرآن الكريم.

أشار بيده لأحد الكرسيين المتوضعين بالقرب من الطاولة وهو يقول:

-تفضل، سأشعل المدفأة الآن، لأجهز شاياً.

جلست قبالة الصورة فيما واصل صاحبها الشاب التحديق في وجهي باسماً، وأخذ رسول وبمهارة فائقة، يبدأ بإشعال المدفأة التي كانت مليئة بالحب من قبل .انتشرت رائحة دخان في الأرجاء، وبعد لحظات أخذت النيران تستعر داخلها، وعلى الفور وصلني الدفء المرحب به، وبعد أن وضع إبريق الشاي عليها، جلس قربي.

أشرت إلى الشاب الذي في الصورة وأنا أسأل:

-هل هو ابن أخيك؟

نظر إلى الصورة وكأنه مثلي يراها للمرة الأولى، وبعد لحظات أجابني، وهو لا يزال يواصل النظر إليها

-ليس ابن أخي، بل أقرب من ذلك .إنه رفيق دربي —قال —سأقوم معه برحلة مهمة، سنجتاز أصعب طريق في الحياة سوية.

لم أفهم ما الذي يعنيه.

-أي طريق؟

أجاب من دون تردد:

-الصراط المستقيم.

كانت الدهشة التي تعتريني تتحول إلى ما يشبه الذعر.

-الصراط المستقيم؟

-أجل الصراط المستقيم، لا بد وأنك تعرفه أليس كذلك؟ إنه ذلك الجسر الذي أرفع من حد السيف، وأرهف من شعرة .ذلك الطريق الذي سيحدد اتجاهك نحو العالم الآخر.

-أعرفه بالطبع، ولكن ما علاقته بالشاب الذي في الصورة؟

-بل له كل العلاقة، فإن لم أنل رضاه بحمله على ظهري، فلن أنال رضا الله، وإن لم أنل رضاه، لن أتمكن من عبور الصراط.

كان يتكلم بهدوء وصورة طبيعية، وكأنه يتحدث عن أكثر الأشياء بديهية ووضوحاً، ثم قال لي إن الشاي أصبح جاهزاً.

-اعذرني يا رسول، ولكنني لا أفهم شيئاً مما تقوله، ولا أعرف من هو هذا الشاب، وما علاقتك به.

أحنى رأسه قليلاً، وبدأت نظراته توحي بتفكير عميق يشغل ذهنه قبل أن يبادر.

-في الحقيقة أنت تعرفه –قالها وقد برقت عيناه وكأنه سيعترف بسر خطير –وقد سمعت باسمه من قبل، ولكن مشيئة الله سبحانه وتعالى شاءت أن تبعده عن حياتكم في وقت باكر.

أعدت النظر إلى الصورة، ولكنني كنت واثقاً من أنني لا أعرفه ولم ألتقِ به من قبل، وهنا عدت لاستحضار ما قاله نجات، وأخذ الخوف ينتابني، وبدأت أشعر أنني ارتكبت خطئاً بالمجيء معه إلى هذا المكان.

-أنت مخطئ –قلتها بصوت خافت.

-لست مخطئاً –قالها بثقة بالغة، لم أجرؤ معها على الاعتراض –لو فكرت قليلاً فستتذكره، هل سمعت باسم ليفينت أويتون؟

لم يكن لي أصدقاء باسم ليفينت، مرت ذاكرتي على أسماء زملائي الصحفيين أيضاً فلم أجد بينهم من يحمل هذا الاسم.

-لو كان دوغان حياً لذكرك به —حينها بدأت أعي بعضاً مما يقول، ولكن لغرابة الاحتمال، فضلت البقاء ساكتاً.

-أجل —قال رسول —ليفينت أويتون، ذلك الشاب الجامعي الذي قمنا باختطافه منذ سنوات طويلة من حافلة عامة، وأخذناه إلى السكن الطلابي حيث قمنا بتعذيبه، ومن ثم خنقه بسلك معدني.

كان يتحدث بهدوء من دون أن يختلج صوته، أو تتغير ملامح وجهه التي حافظت على ذات السكينة حين شاهدته للمرة الأولى.

-أتعلم أنني أنا من قام بخنقه؟

ووضع كفيه الضخمين على الطاولة أمامي، فنظرت نحوهما من دون إرادة مني، ولاحظت التشققات التي اعترتهما، وتغير نسيج بشرتهما .وخطر لي أنهما ما كانت بهذا الشقاء حين قامتا بخنق الشاب المسكين .بينما واصل رسول التوضيح، غافلاً عما يدور في ذهني.

-كان الشاب مقيداً، فيما كان دوغان يضع المسدس على رأسه وهو يهدد، ونجات يكيل له الشتائم والوعيد، وبين الحين والآخر يفقد السيطرة على نفسه، فيوجه له ضربات متتالية، واقتداء به، توجهت نحو الشاب وأنا أحمل بيدي السلك المعدني لإخافته، وقد غاضت الدماء عن وجهه حال رؤيته له.

وأخذ ينظر إليّ وهو يرجونا أن نتركه، ووعدنا أن يترك الحزب على الفور، وأخذ يردد متوسلاً بأنه لم يفعل شيئاً، ولم يقم بإيذاء أي من رفاقنا القوميين.

فانهال دوغان بعقب المسدس على رأسه غاضباً، فقد قتل منذ يومين أحد رفاقنا، وهو لم يكن صديقاً مقرباً إلا أن موته كان كفيلاً بإثارة حنقنا وغضبنا. سقط رأس الشاب على صدره، فاقداً الوعي، وحين حاول نجات أن يوقظه، تلوثت

يداه بالدماء النازفة من الجرح، فانتابه الهلع وأخذ يمسح يديه بقميص الشاب، ومن ثم توجه نحوي، ربما رغبة بالتخلص من هذا الموقف المربك، وهو يقول لي:

»خلصنا منه.«

لكنني لم أكتفِ بالأذى الذي ألحقناه بالشاب، فقد كان الشيطان يتراقص في داخلي.

»ليس الآن «أجبته »دعه يستيقظ.«

استيقظ المسكين بعد برهة، فعدت ألوح بالسلك المعدني أمام وجهه، واتجهت بخطوات بطيئة لأقف خلفه، ولكي أصعد من رعبه أكثر بقيت على تلك الحال لدقائق، ومن ثم أسندت ركبتي إلى ظهره، وأحطت عنقه بالسلك، وأنا أقول »بسم الله .«أجل لقد كنت أردد اسم الله، فيما أحاول سلب أحد مخلوقاته الروح التي منحه إياها بنفسه.

بدأ يختنق، وأصبح عاجزاً عن التنفس وأخذ يتلوى متوسلاً، وقبل أن يسلم الروح بلحظات تركته، فأخذ يسعل بحدة، وعاد يتنفس بصعوبة، ولكنه ما إن تحسن قليلاً، كرر توسلاته، فيما كنا نسخر منه أنا ودوغان .أما نجات، فقد ابتعد عنه، وهو يصرخ من زاويته» :خلصونا من هذا الشيوعي القذر.«

ولكننا لم نكن قد شفينا غليلنا بعد، عدت لألف السلك حول عنقه، وقبل الاختناق بلحظات، أرخيته مجدداً، ولكن نجات لم يعد قادراً على التحمل أكثر، فاندفع نحونا صارخاً:

»اقتلوا هذا اللعين.«

عدت للف السلك حول عنقه، ولم يأخذ الأمر وقتاً طويلاً، فبعد برهة سقط رأس المسكين على صدره، ولكي أتأكد من أنه مات حقاً، بقيت ممسكاً

بالسلك بقوة حتى أيقنت أن الروح فارقته من دون عودة.

لقد سمعت بالكثير من أمثال هذه الحوادث في تلك السنوات، حيث كان يتم تداول تفاصيلها في الجرائد وعلى المحطات التلفزيونية والإذاعية، ولكنها كانت المرة الأولى التي أسمعها من فم القاتل .وفيما يواصل حديثه، كانت القشعريرة تغزو بدني، مثل موجات متلاحقة، أما هو فلم يبدِ أي تعبير يوحي بالندم .بل كان يتحدث بذات التعابير الثابتة الجامدة، وكأن الأمر لا يعنيه .وأخذت أفكر بأخذ الصندوق والهرب من هذا المكان بأقصى سرعة ممكنة، وغافلاً عن مخاوفي استمر في سرد تفاصيل جريمته:

-وبعد أن تأكدنا من موته، وضعنا الجثة في كيس كبير، وألقينا بها في البحر بالقرب من يديكولى، وعدنا إلى السكن وكأن شيئاً لم يكن، وأذكر جيداً أنه كان لدي في اليوم التالي امتحان مادة العقوبات، حيث جلست ودرست المادة حتى مطلع الفجر.

سكت ورفع وجهه ليرمقني، حيث اختفت تلك النظرة البريئة من نظراته، وحلت محلها قسوة واضحة، فتأكدت حينها، أن ما من أحد قادر على القيام بكل ذلك ما لم يكن مجنوناً بالفعل، وازداد خوفي ووجيب قلبي، الذي كان صوت الماء المغلي على المدفأة يغطي عليه لحسن الحظ.

-لما أنت ساكت؟ —سألني فجأة.

-ماذا؟ —قلت.

زاد صوتي المرتعش من اضطرابي.

-هل أخبرك دوغان سبب تعليقي للصورة هنا؟ —سألني.

-لا —أجبت وأنا أحاول أن أخفي هلعي —لم يحدثني دوغان عنك

مطلقاً.

-ألا ينتابك الفضول إذاً؟ —سألني.

-بلى، وهذا ما دفعني لسؤالك.

-أنت محق، فأنا أسرد القصة على مسامع كل من يدخل هذه الغرفة، فإن حاولت إخفاءها عن الناس —وأشار برأسه نحو الصورة —أجل فأنا أتحدث عنه، وإليه، وفي بعض الأحيان يبدأ هو بالتحدث إلي، ليخبرني عما شعر به، ونحن نقوم بقتله، عن الخوف الذي انتابه —صمت لبرهة —في البداية كان يحدثني عن الكره الذي يشعر به نحوي، ولكنه توقف عن ذلك فيما بعد .أحياناً حين أدخل أجده جالساً إلى الطاولة.

التفت ينظر إلى الطاولة، وبالكاد استطعت كبح رغبتي بالهروب من هذا المكان، ربما منعني الفضول، أو قيدني الخوف، ولسبب لا أعلمه، أدرت رأسي نحو الجهة التي ينظر إليها، ولكنني لم أجد سوى الفراغ الذي يغطيه البخار المتصاعد من الإبريق.

-إنه يغلي —قالها مبتسماً —سأعد الشاي، ومن ثم نكمل حديثنا.

أخذ بإعداد الشاي على مهل، وعلى الفور غمرت المكان رائحة أوراق الشاي التي غمرها الماء المغلي، أعاد وضع الإبريق على زاوية أقل حرارة فوق المدفأة، وعاد ليجلس بالقرب مني.

-علينا الانتظار قليلاً حتى يختمر —وعاد ووضع يديه على الطاولة، وكأنه طقس مكمل للقصة التي يرويها، وهو يواصل الحديث —في الحقيقة لقد كان تعليق الصورة على الحائط فكرة والدي.

كان ذلك التعبير الغريب على وجهه يثير مخاوفي، ولكنني لم أستطع كبح

فضولي وأنا أسأله:

-لقد توفي والدك على ما أظن؟

-أجل لقد توفي، ولكن ما الفرق —وعادت تلك الابتسامة الودودة تغطي وجهه —فإن كانت رغبة الإنسان صادقة، سيتمكن من رؤية الأموات والأحياء على حدٍّ سواء، سيستطيع التحدث إليهم، والتعلم منهم وتعليمهم— سكت لبرهة —بعد أن دخلت السجن، أو لنقل بعد أن ارتكبت الجريمة توقف والدي عن التحدث إليّ.

وقد صرح أنه لن يتحدث إلى شخص تجرأ على سلب الروح التي منحها الله عز وجل لأحد مخلوقاته، فكما أخبرتك، ظل والدي لفترة طويلة بين شيوخ المولوية، وقد عاش على تعاليمهم بقية حياته .ولم يسامحني، بل تبرأ مني أيضاً .ورغم أن دوغان لم يكن شقيقك، فقد أتيت لرؤيته في السجن والاطمئنان عليه، لكن والدي لم يفعل حتى ذلك .في أول عامين كان أخي يأتي برفقة والدتي، وبعد أن توفيت، أخذ أخي يأتي لوحده، وحين كنت أسأله عن والدي، كان يكتفي بالقول إنه بخير، من دون أن يحمل منه سلاماً، أو دعاءً .وبعد فترة توفي هو أيضاً ولم يقدر لي أن أراه بعيون الجسد .ولكنه قبل موته أخبر أخي، بأنه نادم لأنه قاطعني كل هذه السنوات، وغضب عليّ .وأخبره أن يطلب مني العفو، لأنه عفا عني، كما أوصى بأن أطلب العفو من هذا الشاب المسكين أيضاً .وهو من أرسل لي القرآن الكريم، والذي علقته هناك على الحائط.

وقد قال لأخي» :فليقرأه وليجد الحق، فليقرأه ليعرف، فليقرأه ليعثر على نفسه.«

حين أنهى أخي كلماته، بدأت بالبكاء، كنا في قاعة الزيارات، والكل أخذ يرمقني وأنا أجهش بالبكاء، ولكنني واصلت حتى التعب، ومن ثم بدأت بقراءة

القرآن المكتوب باللغة العربية، والذي لم أكن أعرف عنها شيئاً، ولكن مع مرور الوقت، أخذت الكلمات تتضح في ذهني، وأخذت الجمل تزيح الستار عن المعنى الكامن خلفها، وبعد فترة وجيزة رأيت والدي في الحلم .وقد قال لي:

»علق صورة ذلك الشاب على حائط منزلك، وأخبر كل من يزورك بقصتك، أخبرهم كيف قتلت ذلك المسكين .دون أن تبكي أو تشعرهم بالشفقة عليك، أروي قصتك بكل هدوء، دون استجداء مشاعر الناس، وحتى إن غضبوا، وثاروا في وجهك، وحاولوا ضربك أو قاموا بشتمك، عليك الإصغاء بصمت، وتحمل كل ما يبدر منهم، فبهذه الطريقة قد تتمكن من تخفيف ذنوبك قليلاً، ولا تنسى أن ذلك الشاب، ينتظرك أمام الصراط المستقيم، حيث ستقوم الملائكة بوضعه على ظهرك، وستعبر به الصراط المبارك الذي هو أحد من حدّ السيف، وأرهف من شعرة .وإن شاء الله ستبلغ الطرف المقابل.

أدركت ما يرمي إليه والدي، وفي الزيارة التالية طلبت من أخي أن يحصل لي على صورة الشاب، بأي ثمن، ولكنه لم يقبل .بل نهرني بالقول:

»هل جننت؟ كيف سأدق بابهم، وأطلب صورته من أجلك؟.«

ولكنني كنت عازماً على الحصول على تلك الصورة، وكنت أعرف شاباً معي اسمه ساكو كامل، والذي كنت أساعده في الكثير من الأحيان، وأقدم له بعض الخدمات، وحين علمت بأنه سيخرج في وقت قريب، توجهت نحوه بطلبي. وقد وافق على الفور، ووعدني بأنه سيجد طريقة للحصول على الصورة .وبالفعل بعد مرور أسبوع جاءني بهذه الصورة المؤطرة التي علقتها على الحائط الملاصق لسريري، وحين رآها نجات، ثار غاضباً .وأخذ ينعتني بالجنون ويصرخ، ولكنني لم أبد أي رد اتجاه ذلك، حتى سئم مني، ولكنه لم يكن قادراً على رؤية الصورة أكثر، فبعد عدة أيام طلب نقله إلى غرفة أخرى، أما أنا فبقيت محتفظاً بالصورة منذ ذلك اليوم.

وبعد أن أنهى كلامه نظر إليّ بجدية بالغة، وكأنه يسألني عن رأيي .ولكنني كنت حائراً فيما سأقوله، فما يفعله هو الجنون بعينه، لأنه يقضي أيامه وسنوات عمره لإرضاء اثنين من الأموات .ومن جهة أخرى، أظن أن حياته تحمل قيمة أكبر من حياة الكثيرين من الناس العاديين.

-لا بد وأنك مررت بظروف صعبة للغاية —اكتفيت بالقول —أتمنى أن تنال ما تريده، وأن تتحقق رغبة والدك.

-وهل ستسامحني؟ —سألني.

ولكنني بدل الإجابة، قابلته بسؤال آخر:

-لا بد وأنك ألقيت ذات السؤال على دوغان أيضاً، ماذا قال لك حينها؟

-أجل سألته، وقد قال لي :لا بد وأن والدك يريدك أن تقوم أنت بمسامحة نفسك، وإن استطعت ذلك، وعفوت عن نفسك حقاً، فسينتهي عذابك، وتتوقف معاناتك.

استطاع أخي بعد أن ورطني في الكثير من المصائب، أن يخلصني هذه المرة من موقف صعب.

-وأنا أيضاً أوافقه الرأي .فهو محق فيما قاله .فالمهم أن تستطيع أنت مسامحة نفسك، وليس أن يقوم الآخرون بالعفو عنك.

وللمرة الأولى لاحظت ظلال القلق تخيم على نظراته، واكفهرت ملامح وجهه كما السماء التي تغطيها الغيوم في الخارج.

-إنه أمر بالغ الصعوبة .فكيف للشخص أن يتخذ القرار بحق نفسه؟

-إذاً فعذابك لم يحن له الانتهاء بعد.

-هذا ما يبدو عليه —قالها بصوت منكسر، ومن ثم حاول تحاشي النظر إليّ، ونهض فجأة وهو يقول:

-ورغم ذلك، فالله أعلم.

-صحيح، الله أعلم.

ظننت أنه سيصب لنا الشاي، ولكنه اتجه نحو الداخل .لا بد وأنها غرفة نومه، طالما أنه لا وجود لسرير في هذه الغرفة .بعد لحظات، سمعت صوت جرجرة ثقيلة، فأدركت أن يسحب الصندوق المنشود، وللمرة الأولى منذ دخولي هذا المنزل شعرت بالراحة .ولم يخب توقعي، فقد عاد للغرفة، وهو يجر الصندوق الخشبي الداكن اللون، حين رأيته أصابتني خيبة أمل، فقد كان في مخيلتي أكبر من هذا الحجم، كما أن لونه قد بهت، ولكن بعد برهة من التركيز، واستحضار الصور القديمة، أدركت أنه هو بالفعل .ذلك الصندوق الذي احتفظ فيه والدي بأرشيفه الرائع، وأصرت الخالة كريمان، في عناد أن تخفيه عني .ولكنه أخيراً عاد إليّ من جديد.

-ها هي أمانتك —قالها رسول، فنهضت لمساعدته، وقمنا بجره ووضعناه بالقرب من الطاولة، حيث بدأت أمسح سطح الأمس بمحبة وحنان.

-محتويات هذا الصندوق تعود لوالدك أليس كذلك؟ —سألني وهو يراقبني.

-أجل، إنها له —أجبت.

-أنا أيضاً كنت أحب والدي، إنه شعور رائع أن يحب المرء والده.

ظننته سيواصل الحديث، ولكنه عاد للتوجه نحو الداخل، وعاد حاملاً صينية عليها أكواب وعلبة السكر .حاولت رفع الغطاء ولكنه لم يتحرك.

-هل المفتاح معك —سألته.

-لا، فقد أخبرتك أنني أعطيته لدوغان.

للحظة فكرت بأن أطلب منه مفكاً، لفك القفل، ولكنني تخليت عن هذه الفكرة، إزاء رغبتي في الحفاظ على هذه الهدية القيمة التي تركها لي والدي، والتي ما زالت محتوياتها تحمل بصمات أصابعه .وبينما يضع الصينية على الطاولة، فكرت في الحصول على بعض المعلومات عن دوغان.

-سمعت أنكم كنتم تلقبون دوغان بالضابط، فهل كان لديك أنت أيضاً لقب ما؟

- لم يكن لي أي ألقاب، ولكننا كنا بالفعل نلقبه بالضابط، وذلك بناء على رغبته.

لم يقل المزيد، وبدا شارداً في مكان آخر.

- لم تسألني أي شيء حول دوغان —حاولت أن أثير رغبته في الكلام — ألا ينتابك الفضول لمعرفة كيفية موته، ومن فعل ذلك، ولماذا؟

-لا، فالأقدار تتحقق بطرق مختلفة، ولأسباب مغايرة، لتصل إلى ذات النهاية المحتومة .وما يهمني هو الحقيقة، بعيداً عن تفرعاتها.

-ولكن —قلت —هناك ستارة تغطي على هذه الحقيقة، وتخفي الأسرار.

وبعد أن صب الكوبين، قال:

-إذاً فهناك ستارة؟ —وهو يواصل الانشغال بالإبريق، وبعد برهة كرر

الجملة —ستارة تغطي الحقيقة —وأعاد الإبريق فوق المدفأة، وألتفت نحوي —لقد قال عمر الخيام، أجمل ما يمكن أن يقال عن الستارة والحقيقة والأسرار، وإن شئت سأسرد على مسامعك ما قاله.

-بالطبع أشاء.

لا أحد منا يعرف أسرار الأزل

لا أحد فينا يدري ما تحمله الأقدار

خلف الحقيقة كنا للحظة ولا نزَلْ

ولكننا سنختفي حينما يرفع الستار

الفصل السابع والثلاثون

الحياة تحمل المسرات مع تعاقب أيامها كما المصائب، وكل منها يطرق بابك في الوقت الذي لا تتوقعه، لتتواصل مسيرة القدر حتى الفناء .ومهما كنت من العارفين الذي بلغوا مراتب الحكمة، أو كنت متقناً لفن الخسارة الذي كان توفان يحدثني عنه على الدوام، فمن الصعب تقبل الضربات والمصائب الواحدة تلو الأخرى، من دون أن ينتابك اليأس لوهلة، وتقرر الارتماء في حضن الظلمة الأبدية. لا بد من بعض التوازن بين النور والظلمة وبين الفرح والحزن .وفي لحظة نادرة من تلك اللحظات، قدمت لي الحياة إحدى أجمل المسرات، في الزمان والمكان اللامتوقعين، في مقبرة، وبالقرب من قبر أخي الذي دفن للتو، هناك أعادت لي أرشيف والدي النادر الذي فقدت الأمل من العثور عليه.

حين غادرت رسول، وعالمه الغريب المزدحم بأرواح الموتى، وأنا أحمل ميراث والدي، أول ما فكرت فيه، هو العثور على محل للأقفال، من أجل فك قفل الصندوق الخشبي .وصلت في ساعة متأخر بعض الشيء، واتجهت على الفور إلى المحل الذي أعرفه في بيشيكتاش، ولكنه كان مقفلاً .فاتجهت إلى محل البقال على الطرف المقابل، وبعد شراء بعض المكسرات، سألت صاحب المحل إن كان يعرف رقم هاتف صاحب المحل، لأنني أريده لأمر ضروري، فأوضح لي الرجل:

-من الصعب أن يوافق على الحضور إلى المحل في مثل هذا الوقت يا سيدي، ولكن هناك محل آخر في الشارع الخلفي، اذهب إليه، عله لم يغلق بعد.

-أظنه مغلقاً أيضاً.

-لا إنه لا يغلق باكراً، بل ينتظر الحالات الطارئة كحالتك .رغم أنه يتقاضى أجراً مرتفعاً، ولكنه مفيد وقت الحاجة.

كان الرجل محقاً، فحين اتجهت للشارع الخلفي، كان الشاب لا يزال يعمل في محله.

-تفضل، كيف لي أن أساعدك؟ —قال لي حال دخولي المحل.

وبينما كان يتحدث، فاحت رائحة الشراب من أنفاسه، فخمنت أن عشرات الزجاجات الفارغة ترقد تحت طاولة العمل، ولم ألمه، فكيف يتمكن من تزجية الوقت حتى وقت متأخر، إن لم يكن هناك من رفيق؟ وحين شرحت له الأمر، حاول التملص، وهو يقول:

-اترك الصندوق هنا، وعد لأخذه في الصباح.

لو لم يكن الأمر متعلقاً بالأرشيف الذي أبحث عنه منذ سنين طويلة، لوافقت على كلامه، ولكنني بعد العثور عليه، لن أغامر بتركه مرة أخرى.

-سأسافر الليلة، وهناك وثائق تهمني فيه عليّ أخذها معي، ألا تستطيع فكه اليوم، وسأعطيك الأجر التي تطلب.

حين اشتم رائحة النقود، بادر للعمل على الفور، واتجهنا نحو السيارة، لنحضر الصندوق ونحن نلهث من فرط ثقله.

-إنه أثقل من جثة حمار —بدأ الشاب يتذمر —ولكن ما الذي يحويه هذا الصندوق؟

-كتباً ومجلات ووثائق.

وبدأ العمل من دون أن ينبس ببنت شفة، وبعد عشر دقائق تمكن من فك

القفل، ورفع الغطاء، وحين رأى صور السيارات والمجلات راقدة في جوفه، بادر بالقول:

-يبدو أن لديك معرضاً لبيع السيارات؟

لم أشأ إطالة الحديث أكثر.

-تستطيع قول ذلك —وأعطيته المبلغ الذي طلب، واتجهت نحو المنزل.

حين رفع الشاب الغطاء لمحت تلك المجلات والصور، وبت متشوقاً للوصول إلى المنزل بأقصى سرعة ممكنة، لاحتضان ذلك الأرشيف الذي ما زال يحمل رائحة والدي وأنفاسه، وبصمات أصابعه .تلك الثروة الغريبة التي عادت إليّ بعد دورة كاملة، لا بد لي من الحفاظ عليها بطريقة لائقة، ففكرت في وضع مكتبة في الصالون لأصفّ فيها الكتب والمجلات والصور، وخزانة زجاجية، من أجل وضع ماركات السيارات، والأعلام الصغيرة وسواها.

عندما بلغت البناء طلبت من نظمي مساعدة في حمل الصندوق، وحين وصولنا إلى باب منزل كان الرجل ينضح عرقاً، وهو يلهث .ولم أكن أفضل حالاً منه، ولكن شوقي للإطلاع على ما يحويه الصندوق، أنساني كل التعب .وكما فعلت مع الصانع الشاب، فقد أعطيت البواب أيضاً بعض النقود، حتى أنني أعطيته أكثر مما يجب، ولكنه ظل كعادته يتأفف ويتمتم بكلام غير مفهوم .لم أبالِ به كثيراً، وصرفته بالسرعة الممكنة، لأتمكن من الانفراد بثروتي التي كنت أنظر إليها بلهفة قرصان تمكن بعد سنوات بحث طويلة من العثور على كنزه المنشود .رفعت الغطاء، وبدأت بتفحص ذلك الأرشيف الذي كان والدي يجمعه منذ خمسينيات القرن المنصرم .وعلى صفحات الكتب والمجلات وغلافها، صور متنوعة لسيارات الشيفروليه، البليماوث، الكاديلاك، الفورد، بونتياك، الميركوري، اللينكولن، فقد بدت وكأنها ترمقني هناك .أخرجت مجلة وأخذت أتصفحها .وضعتها على الطاولة

وأخرجت أخرى .وحتى لا أخلّ كثيراً بترتيب الأرشيف، بدأت بنقل محتويات الصندوق ورصفه على الطاولة، وبعد لحظات غطت الكتب والمجلات والصور، الماركات، البطاقات .سطح الطاولة بالكامل، رغم أنّها لم تشكل سوى نصف محتويات الصندوق .وكان أكثر ما أثرّ في، هو الصور التي ألتقطها والدي، مع سياراته الثماني الأمريكية، ثلاثة منها كانت شيفروليه، واثنان كاديلاك، واثنان بونتياك، والأخيرة هي البليماوث التي بحوزتي .كانت بمثابة تقويم لتقدمه العمري .في صورته الأولى مع سيارة الشيفروليه كان في مقتبل العمر، ومع سيارته الثانية كان في الأربعينات من عمره، وأما الثالثة، فيبدو أن المدة الزمنية بين الصورتين لم تكن كبيرة، فلم يبدُ عليه تغير كبير .مع سيارات الكاديلاك، كان قد تجاوز الأربعين، ومع البونتياك، كان في الخمسينات من عمره .أما في الستينات من عمره وحتى وفاته فقد كان مع البليماوث، والتي لا بد أنه كان متعلقاً بها كثيراً حتى أنه لم يفكر في بيعها.

عدت لفحص محتويات الصندوق من جديد، وبعد أن رفعت بعض البروشورات التي تحمل صور سيارات الفورد، وجدت قطعة ورق مقوى تحتها، وكأن من وضعها أراد تقسيم الصندوق إلى طبقتين .حاولت إخراجها بيدي، ولكنني عجزت، لأنها كانت مطابقة لحجم الصندوق تماماً، بحيث لم تترك ولو شعرة من الفراغ للإمساك بها ورفعها، لذا اتجهت إلى المطبخ، وعدت بشوكة وسكين، فحشرت رأس السكين بين جدار الصندوق والورقة، وحين ارتفعت قليلاً، أمسكتها بطرف الشوكة، ورفعت بمقدار يسمح لي بالإمساك بها بيدي، وإخراجها .وحين رأيت ما يقبع في الأسفل، كادت الدهشة أن تذهب بعقلي، كانت رزم الدولارات من فئة المئة مرصوفة إلى جانب بعضها بعضاً .لم أصدق ما أره في البداية، وظننتها صوراً من الإعلانات المتعلقة بالسيارات الأميركية التي تمّ رسمها على شكل دولارات، فمددت يدي نحو القاع، ولكنها كانت رزماً حقيقية، كل رزمة تحوي مئة ورقة نقدية من فئة المئة دولار .أي أنني كنت أحمل بين يدي عشرة آلاف دولار .بدأت

بإخراج الرزم الواحد تلو الأخرى، وبعد عدها، وإجراء بعض العمليات الحسابية، تبين لي أنها ثروة مكونة من خمسة ملايين دولار عداً ونقداً .وهذا يعني أنها ثروة حقيقية لو تمَّ تحويل الدولار إلى الليرة التركية، لكنني توقفت عن محاولة العد والحساب، وأنا أرى كنزاً حقيقياً يخرج من قعر الصندوق القديم .للحظة انتابني الذعر وأنا أتلفت حولي، فنهضت على الفور لأغلق الستائر، ولأتأكد من أن الباب مغلق، وكأن هناك من يراقبني، ولكنني بعد لحظات من التروي شعرت بأنه ما من سبب يدفعني للخوف، فمن كان يراقبني، كل هذه المدة، لا بد وأنه أدرك أن لا علاقة لي بما كان يقوم به دوغان .وبالتالي توقف عن مراقبتي، ولن يخمن أن هذا الثروة ستؤول إليّ بعد سلسلة مصادفات، من المحال التكهن بها.

جلست على أقرب كرسي، ورزمة الأوراق بيدي .وأخذت أفكر في الأمر، فلا بد وأن دوغان هو من وضع النقود هنا، فلن تكون هذه النقود للخالة كريمان بأي حال .ولكن لمن هذه النقود؟ بالتأكيد هي للعصابة، وأغلب الظن أنها سبب التصفيات والجرائم التي حدثت، فبعد أن فرّ بها دوغان قام كل من الضابط، ويالفاج وغونغور بملاحقته، ومن ثم قتله .إذاً لما قاموا بقتل بكير وعشيقته، والعقيد رفعت؟ وألصقوا التهمة بعائلة بينجي أوغلو؟ السبب واضح، فمن المرجح أن دوغان والضحايا الثلاثة، حاولوا الانشقاق عن العصابة والهرب بالنقود، وحين أدرك الضابط بأمر هذه الخيانة، لجأ إلى القتل لاسترداد النقود .ولكن هناك نقطة غامضة تقوض أركان هذه النظرية؛ فطالما أن دوغان كان واثقاً أن لا مهرب له من مصيره المحتوم، لما لم يأت على ذكر هذه النقود في أشرطة الفيديو التي تركها، والمذكرة التي تركها للقضاء؟ لو افترضنا أنه ما زال حياً، وأن كل ما حصل ما هو إلا مكيدة منه، فذلك سيعني أن شخصية الضابط لم تكن سوى كذبة أخرى، وأنه قام بكل هذه العملية البالغة التعقيد من أجل الحصول على النقود والفرار بها .لكن تقرير الطب الشرعي يثبت بما لا يدع مجالاً للشك بأن دوغان قد مات.

قد يكون ورغم اليقين اليائس بأنه ميت، كان هناك أمل ما يراوده

بالنجاة، وكان بحاجة إلى هذه النقود لمساعدته في النجاة والهرب، لذا احتفظ بها في قعر هذا الصندوق، وربما خطر له أنه حتى لو قتل، سيرث صديقه هذه الثروة وينعم بها .لكنه بالتأكيد لم يفكر ولو للحظة، أن الرجل الذي أودى ضميره بعقله، سيأتي يوماً ما، ليعيد إلي ما اعتبره إرثاً من أخي .وهكذا بدأت القطع تأخذ مكانها الصحيح في هذه اللوحة أخيراً .أما مقتل أبراهام فليس سوى حلقة أخرى في هذه السلسلة من الجرائم، ولا بد أنه قام بتحويل النقود بناء على طلب دوغان، وحين طال به الوقت من دون أن يتلقى منه أي خبر، قدم بنفسه إلى تركيا، ليستطلع الأمر .ولكن ألا يطّلع هذا الرجل على الجرائد؟ ألم يقرأ الخبر المتعلق باحتراق سيارة دوغان؟ حينها أدركت أنه لن يطالع الصحف التركية التي نشرت الخبر، فمن المرجح أنه لا يتقن اللغة التركية .وحتى لو علم بطريقة ما بالخبر، فربما جاء ليتأكد من الأمر بنفسه، ويعرف تفاصيله .ولا أستبعد أنه فكر بالاتصال بدميت من أجل معرفة ما حصل بصورة أوضح .ولكن هل سيغامر الرجل بالمجيء حقاً؟ لما لا، وهو سيقبض عمولة تعتبر ثروة حقيقية، جراء تحويل النقود؟ كما أنه لن يفكر أبداً في احتمال قتله .لذا استقل الطائرة وجاء من دون تردد .إلا أن الضابط الذي كان ينتظر مجيئه، علم بالأمر، وقد يكون هو من اتصل به من الهاتف العمومي، ليخبره بأنه يريد التحديث إليه حول دوغان، وهكذا وضع الرجل المسكين نفسه تحت رحمة الجلاد، الذي عذبه في البداية ليبوح بمكان النقود، لكن اليهودي لم يكن يعلم عنها شيئاً، وعند فشله في الحصول على معلومات تفيده قام بقتله، ورمي جثته .حين أفضت بي الأفكار إلى هذه النتيجة، انتابني هلع بالغ، وأخذت أنظر إلى أرشيف والدي المرصوف أمامي، والذي كنت أعتبره منذ برهة هدية من السماء، وكأنه لعنة ستودي بي إلى الموت في أي لحظة .وأدركت أن الضابط لن يقوم بقتلي سوى بعد اقتناعه، بأن لا علاقة لي بما كان يخطط له دوغان، ولكنه عاجلاً أم آجلاً سيتمكن من العثور على رسول، ويعرف بأمر الصندوق، وعندها لن أنجو حتى لو حاولت الاختباء في أقصى زاوية في الكون .ربما كان عليّ أخذ الصندوق كما هو إلى

الجريدة، وتحضير مقال متفجر كما كان يردد عارف، ليرى الجميع بمن فيهم الضابط، صوره تتصدر الصفحات الأولى غداً صباحاً .ولكن هل كان هذا الحل كفيلاً بأن ينجيني من شر الرجل الذي تسببت في موت رجاله، ومن ثم كشفت معلومات هامة عنه، والآن سأقوم بسلبه الثروة التي أحدثت زلزالاً بين أفراد عصابته؟ لا أظن ذلك، ولو كنت أنا مكانه لما سامحت من تسبب بكل هذا الأذى، ولقتلته على الفور .إذاً ما الذي عليّ فعله؟ هذا السؤال الذي بتّ أردده منذ شهر؛ منذ لقائي المشؤوم بدوغان، دون أجد له جواباً، عاد ليحول حياتي إلى كابوس، ويغرق روحي في ظلمات الخوف المجهولة.

كان الخوف يعصف بي، ويحول دون قدرتي على مواصلة التفكير، ما الذي يجب عليّ فعله؟ ظل السؤال يتردد في الفراغ، هل عليّ حمل هذه النقود والهرب خارج البلد، لأقضي بقية عمري في إحدى جزر الكاريبي حيث تحيط بي النساء الجميلات كما يحدث في أفلام الإثارة الأميركية؟ حتى هذه الدعابة لم تكن كفيلة بدفعي للابتسام .لأنني بدأت أتيقن أنها متاهة بالفعل، وسأستمر بالدوران فيها من دون هوادة حتى الموت .ولا خيار أمامي سوى الاستسلام لمصيري المحتوم والانتظار قابعاً حتى يأتي الموت ليدق بابي .فلكل منا قدر محتوم وطريق خاص نحو الموت، ولا بد أن هذه المتاهة هي طريق الخلاص .ولا حل أمامي سوى الانصياع لمشيئة الأقدار، لأنني كلما حاولت التحرك خطوة، أزداد غرقاً في هذا المستنقع .ووسط عجزي اتجهت نحو المطبخ حيث تقبع مواساتي الوحيدة داخل تلك الزجاجات. وبعد ذلك كما هو معلوم؛ غفوت بعمق.

في الصباح أفقت على ضوء الشمس التي باتت الآن أكثر إصراراً على إبلاغنا بقرب الربيع .وما إن استيقظت حتى عادت تلك النقود لتثقل على ذهني، الذي لم تبارحه حتى في أحلامي .ولكنني أدركت أن مواصلة التفكير لن تفضي إلى أي نتيجة، فنهضت على مهل، وأنا أشعر بالألم في كل موقع من جسدي، وكأنني عجوز ثمانيني .اتجهت نحو النافذة فوجدت عنقائي الجميلة تتمتع بأشعة الشمس

اللطيفة وحدها في الساحة التي خلت من بقية السيارات .وحين اتجهت إلى الحمام، وقع نظري مجدداً على أرشيف والدي وهو يرقد على الطاولة منذ البارحة، وعلى رزم النقود، وكأنها نذير شؤم .وفكّرت فيما عليّ فعله بها؟ هل أعيدها إلى الصندوق، وأضعه في زاوية ما؟ لكن من المرجح أنهم يملكون نسخة عن مفاتيح منزلي، ويستطيعون الدخول متى شاءوا، وحينها لن يكابدوا مشقة في العثور على هذه الثروة .لا، لن أمكنهم من الحصول عليها بهذه السهولة .ولكن ما أرجوه حقاً أن تكون زيارتهم لمنزلي أثناء غيابي عنه، حتى لا ألتقي بهم، فمن يعلم ما ستؤول إليه الأمور حينها .ولكنني إن وجدت مخبأً آخر غير المنزل، وأتوا بالفعل لتفتيش المنزل، بعد أن يعلموا بأمر الصندوق، فلن يجدوا شيئاً، وإن حالفني الحظ فسيصدقون أن لا علاقة لي بالأمر، وسيتركونني وشأني، خاصة أن رسول لم يكن يعرف ما بداخله، ولن يفضي إليهم بشيء سوى أنه كان يحوي على أرشيف والدي القديم .لذا كان عليّ إيجاد مكان آمن أضع النقود فيه، لحين انجلاء هذه الغيمة السوداء .ولكن أين؟ وفيما أجهد فكري في البحث عن مكان ما .بدأ الهاتف النقال بالرنين. كانت فيليز.

لما أشعر بالذنب كلما اتصلت بي هذه الفتاة؟

-أهلاً فيليز —أجبت —كيف حالك يا ابنتي، أرجو ألا تستائين مني، لأنني لم أتصل بك.

-أنا أفضل حالاً، كيف حالك أنت؟

كنت في أسوأ حال، ولكنني لن أصرح للمسكينة بما أعانيه، وأزيدها بؤساً.

-بخير يا ابنتي بخير —قلت.

-اعذرني لأنني أزعجك عم عدنان، ولكننا نقوم بإفراغ منزل والدي، فصاحب البيت يريد أن يعيد تأجيره .وهناك بعض الوثائق والأوراق بين أغراضه،

والتي لا نعلم ما الذي علينا فعله بها .ربما تكون مهمة، وتحتاجها في عملك، ما رأيك أن تأتي وتلقي نظرة عليها.

كان عليّ عدم الموافقة على الذهاب، لثقتي أن ما من شيء مهم بين تلك الوثائق، ولأنني وفي هذه الحال لم أكن راغباً في زيادة تعاستي، ورؤية ما تركه صديقي المتوفى، ولكنني لم أكن قد شاهدت فيليز منذ أن كنا معاً في المشفى، ولم أحضر جنازة والدها، لذا لم يكن بمقدوري رفض طلبها.

-سأحضر على الفور —قلت —هل أنت الآن في منطقة سالاجاك؟

-سأكون هناك بعد نصف ساعة، وسنلتقي في المنزل.

-حسناً —أنهيت المكالمة.

بقي ذهني مشغولاً بالبحث عن مكان ملائم لوضع النقود فيه، وفجأة خطر لي المنزل القديم في كوزغونجوك، فبما أنني متجه نحو سالاجاك، أستطيع الذهاب إلى هناك أولاً، ووضع النقود في مكان ما، ومن ثم التوجه للقاء فيليز .فلا أحد يعلم بأمر ذلك المنزل، وحتى لو اكتشف الضابط أمره، وعثر على النقود، سأكون قد وفرت على نفسي الكثير من الخطر، وابتعدت عن احتمال مواجهته. ومن دون مزيد من التفكير حسمت أمري، وقررت التوجه إلى هناك، لأنني كنت أعلم أن التفكير سيفضي بي إلى احتمالات سلبية، وسيجعلني أغيّر رأيي، وهذا ما لم أكن راغباً فيه.

-أجل أجل، إنه أنسب مكان —تمتمت.

لم يكن هناك ما يشير إلى تغير في المنزل القديم الذي زرته منذ شهر .كان راقداً في هدوئه الحزين، كعجوز لا يترقب زيارة من أحد .ولكنني لم أكن في حال تسمح لي بالانشغال بمشاعري، لذا ركنت السيارة بالقرب منه، وأخرجت كيسي

القمامة الأسودين، اللذين ملأتهما بالدولارات، واتجهت نحو غرفة دوغان، حيث وضعتهما تحت سريره، وانصرفت بسرعة، وكأن هناك من سيطل من الباب في أي لحظة، ويكتشف ما أفعله.

وفيما اتجه نحو سالاجاك، كانت شمس الربيع المشرقة، تنعكس على البحر الذي أخذت أمواجه الفيروزية تلمع بحبور، فأخذت أتأمل المشهد براحة من تخلص من عبء ثقيل .كنت أعلم أنه ليس بالحل المثالي، و أن الضابط، حين يعثر على النقود هناك، لن يقتنع ببراءتي، لكنني بالمقابل لم أكن أملك سوى هذا الخيار .لذا حاولت طرد المخاوف من ذهني مؤقتاً، ومواصلة العيش منتظراً ما ستحمله الأيام. ولم تكن هذه محاولة للهرب، بل كانت الحل الوحيد المتاح أمامي.

وصلت منزل عارف، وأنا متفائل بعض الشيء، حتى أنني عندما وقفت بالباب، انتابني شعور جميل بالأمل، بأن عارف من سيفتح لي الباب، كما في الأيام الخوالي .ولكن حين شاهدت فيليز، والانكسار بادٍ على وجهها، وعينيها الذاويتين، عادت الأحزان لتلسعني بسياطها .وحين ارتمت في حضني باكية، وكأنني والدها، بالكاد استطعت حبس دموعي، وتمالك نفسي حتى لا أزيد من بؤسها .دخلت المنزل، فرأيت أغراضه متناثرة في كل مكان، هذا المنزل الذي لم أتوقع أن أدخله في غياب عارف من قبل، بدا موحشاً جداً .فغامت عيناي وسط سحابة من الدموع رغماً عني .وقد لاحظت فيليز ما ألمّ بي، فعلقت بالقول:

-كل ما هنا يدّل عليه، أليس كذلك؟

-سيكون من الصعب أن نعتاد على غيابه —دمدمت.

-لكن الغريب أن ما يطغى عليّ هو الحنق والغضب أكثر من الحزن، أشعر أن أحدهم قد سرق مني أغلى ما لديّ، من دون أن أعلم السبب، ومن دون أن أعلم من يكون، وما الذي يمكنني فعله .أنا لا أتحدث عن الشرطيين اللذين قاما

بقتله، بل أتحدث عن الحياة برمتها، عن سيرورة الأحداث التي عصفت بحياتنا لسبب مجهول، وأخذت مني أعز شخص.

بينما كانت الفتاة الشابة تتحدث، تذكرت ما كان يردده توفان» :لا يحدث شيء في الحياة نتيجة المصادفة، فما نراه مصادفة، هو وليد سلسلة من قوانين الطبيعة .والموت أحد هذه القوانين، ولكنه عندما يصيب الناس في ظروف معينة، يعتبرونه مجرد مصادفة .«ولكنني لم أكن في حال تسمح لي بشرح هذه النظرية لفتاة أثقل الحزن على قلبها، فاعتذرت في سري من ذكرى صديقي، وأبعدت كلماته عن ذهني، وأنا أواسي فيليز بكلمات أقل تعقيداً.

-هناك أمور لا يمكننا الحيلولة دونها —قلت — لأننا غير قادرين على استشراف المستقبل.

اكتفت بهز رأسها، وبقينا صامتين لفترة .وحين شعرت بأن الجو بات يغرق تحت ثقل الحزن، بادرت بالقول:

-حسناً يا ابنتي، أين الوثائق التي حدثتني عنها؟

نفضت عنها الشرود بسرعة، ويبدو أنها قد تعبت من اجترار حزنها.

-هناك —وأشارت نحو المكتبة —لقد وضعتها كلها في الرف الثاني.

كما خمنت لم يكن بينهما ما هو جدير بالاهتمام، كانت نسخاً عن مقالات قديمة، وصوراً عن مواضيع معينة تم نشرها .وأهم ما فيها كانت بعض الأبحاث التي تشير إلى اهتمامه بالمناقصات الوهمية، ولكن حتى تلك الأبحاث كانت ناقصة .فكعادته، كان يبدأ بالعمل على فكرة بحماس كبير، ولكن ما إن تتشابك الأحداث، ويواجه بعض الصعوبات، كان يتخلى عن الفكرة، ويملّ منها، ليلتقطها سواه، ويعمل عليها، ويجني ثمارها .ومعظم القضايا الناقصة بين ملفاته، كان قد تمّ

حلها من قبل صحفيين آخرين، ولم تعد لها من قيمة.

-إنها ملفات قديمة لا قيمة لها يا ابنتي، وتستطيعين رميها إن شئت — قلت للفتاة التي كانت توضب بقية الأغراض، وتضعها في علب وحقائب —هل من شيء آخر تريدين إطلاعي عليه؟

-أظن هناك بعض الأشياء الأخرى —قالت وأخذت نظراتها تجول على الأغراض —حسناً، لقد تذكرت إنه دفتر الملاحظات الموجود على طاولة الهاتف. اطلع عليه إن شئت .وهناك أيضاً شريط تسجيل، قيدت عليه بعض المكالمات، استمعت إليه دون أن أفهم عما يتحدث، تستطيع سماعه إن أردت.

رغم يقيني بأنني لن أعثر على شيء هناك أيضاً، لكني أخذت الدفتر لأتفحصه .كان مليئاً بأرقام وأسماء، وترهات أخرى لن يفك طلاسمها سوى صاحبها .وضعته جانباً، وأخذت الشريط ووضعته في آلة التسجيل .لكنني لم أسمع أي صوت، لا محادثات أو خشخشة أو موسيقى .كان فارغاً.

-إنه فارغ، لم يسجل عليه شيء.

-بلى، لقد سجل عليه شيء ما، حاول أن تسمعه من البداية.

أعدت الشريط منذ البداية، فوصلني صوت عارف .كانت نبرة القلق والانفعال واضحة فيه، وكما كان يحدث له في مثل هذه الحالات، فقد كان يُسقط بعض الحروف، ولا يلفظها، حين يستبد به الهياج.

-ما أدراك أن من قتل دوغان هما يالفاج وغونغور؟

-كيف لا أدري؟ —قالها الصوت الآخر —لقد كان دوغان شريكي، كما أن هذين المحققين، حاولا قتلي أيضاً.

كان من المفترض أن يكون الصوت الآخر لرضا أصلان، ولكنه كان مألوفاً بصورة غريبة .فأنا لم ألتقِ به من قبل أو أتحدث إليه، فكيف يكون صوته مألوفاً؟ والأهم من هذا أن الرجل كان ينحدر من أصول كوردية، ورغم ذلك كان يتحدث بتركية طلقة، لا توحي بلكنة غريبة على الإطلاق.

-لو لم أهرب إلى الخارج، لقاموا بقتلي أيضاً، ولكنني ما إن سمعت الخبر، حتى قمت بالفرار.

كان الرجل يواصل الحديث وأخذت أقارن صوته بصوت الرجل الذي اتصل بي مهدداً.

-ما الذي كان باستطاعتي فعله —واصل الكلام.

لا، فأنا لم أسمع هذا الصوت عبر الهاتف، بل كان لشخص أعرفه جيداً.

-هذا .هذا محال —تلعثمت —هذا غير ممكن.

توقفت فيليز في منتصف الغرفة وهي ترمقني، من دون أن تفهم ما أقوله.

-ما بك عم عدنان؟ —سألتني —لقد اصفر وجهك، أجلس لأحضر لك كوب ماء.

-شكراً —قلت — لا أريد.

لكنني لم أكن بخير على الإطلاق، كنت مصدوماً، بل كنت أرتعد من هول الصدمة، وعلى وشك أن أفقد عقلي .هذا الصوت .يا إلهي .وهنا بدأ عارف بالحديث.

-هل تستطيع إثبات ما تقوله؟ —سأل.

وانتظرت متلهفاً أن يواصل الصوت الآخر حديثه.

-إن استطاعت قوى الأمن ضمان سلامتي، أستطيع العودة وتقديم كافة الأدلة التي بحوزتي، كما أن مقالاتك قد تثير الرأي العام، وتدفع الشرطة للاهتمام بالأمر والكشف عن الحقيقة.

كنت أواصل السمع بانتباه تام، حتى لا تفوتني أي كلمة أو حرف أو انطباع يصدر منه.

-ولكنني أؤكد لك —واصل —أن من قتل دوغان هما يالفاج كيرأغلو وغونغور توبراك.

تأكدت بما لا يقبل أي شك، أن الصوت الآخر كان لدوغان من دون سواه .وحاولت وسط حيرتي وهول الصدمة، فهم ما يجري، وربط الأحداث ببعضها .إذاً فقد قام دوغان الذي من المفترض أن جثته كانت في السيارة المحترقة قبل يومين، بالاتصال بعارف، مدعياً أنه رضا أصلان.

ولكن كيف تمكن من خداعنا جميعاً؛ أنا والطب العدلي وقوى الأمن والشرطة، وجرنا معه إلى مؤامرة قذرة بهذا القدر؟ لقد كان مفيد محقاً في شكوكه منذ البداية، أما الضابط فكان جزءاً من اللعبة بغية تضليلنا .حينها تذكرت كلمات مفيد وهو يحدثني عن دوغان، رغم أنني لم أقتنع بها في ذلك الحين:

-فكل ذلك الطموح والهدوء، والشجاعة، والذكاء من النادر أن تجتمع في شخص واحد .لقد كان ذا قدرات وموهبة خارقة، أكبر عدو للشجاعة هو الذكاء، أما الهدوء فعدوه الطموح .فهي تماماً مثل الماء والنار، تقوم بإفناء بعضها البعض. لقد عرفت الكثير من الرجال الذين يتمتعون بشجاعة خارقة، ولكن يعوزهم الذكاء الكافي .أما الأذكياء منهم فقد كانوا يعتبرون الشجاعة نوعاً من الحماقة .لقد كان هناك الكثير من الشجعان حولي، ولكنهم جميعاً يفتقرون إلى الصبر والذكاء الذي يمكنهم من استيعاب ما أعلمهم إياه .أما من كان يتحلى منهم بالصبر، فقد كانوا

يميلون للكسل والهدوء الذي يحول دون تحقيق طموحاتهم .ولو صدف واجتمعت هذه الصفات الأربع في شخص واحد، فعلينا حينها أن نوليه اهتماماً حقيقياً، وهذا ما كان عليه دوغان بالضبط.

واصلت فيليز النظر إليّ مندهشة.

-لقد قام والدك بعمل رائع —أوضحت لها —وربما يكون هذا الشريط وسيلة للكشف عن المجرم الحقيقي الذي قام بقتله.

بدت الحيرة عليها.

-أتعني أن من قام بقتله، ليسا المحققين؟

هذا ما كان يبدو عليه الأمر، ولكنني لم أشأ تأكيد شيء أمامها.

-للوصول إلى نتيجة نهائية، يجب وضع بقية القطع في مكانها الصحيح — ولكن لم أكن راغباً في مزيد من التوضيح والحديث، ولا في مواساتها .كنت راغباً بالنهوض والمغادرة، وإعادة ترتيب الأحداث في ذهني منذ البداية.

-عزيزتي أحتاج للبقاء بمفردي قليلاً، فالوضع أعقد مما تتصورين، وأنا أريد بعض الوقت لترتيب الأحداث.

-كما تشاء عم عدنان —قالت المسكينة في قلق —سأتركك هنا، وأذهب لغرفة نوم والدي.

-لا يا ابنتي، أكملي عملك هنا، وأنا سأنتقل إلى تلك الغرفة.

ورغم علامات الاستفهام في عينيها، إلا أنها لم تحاول إزعاجي بمزيد من الأسئلة، وتركتني أتجه لغرفة نوم والدها.

جلست على حافة السرير الذي كان صديقي ينام عليه قبل شهر من

الآن، وبدأت أستعيد ما حدث في ذهني .وأفكر في المصيبة التي أغوص فيها حتى العنق .إذاً فقد قام دوغان بكل ذلك من أجل خمسة ملايين دولار، ولكنني لو نشرت خبراً كهذا في الجريدة، فسأتحول إلى أضحوكة .كما أنني لا أملك دليلاً يثبت صحة ادعائي، والأهم من ذلك أن دوغان حال معرفته بالأمر، سيهرب إلى الخارج كعادته، ولكنه قبل ذلك، لن يغادر من دون انتقام، وسيطلق رصاصته الأخيرة في جمجمتي .خطر لي الاتصال بمفيد، ولكن هل هو أهل للثقة؟ فقبل معرفتي لحقيقة ما جرى، كنت أعتبره أحد أهم المتهمين، بل ولم أستبعد احتمال أن يكون هو الضابط .ولكن بعد هذه التطورات تغيرت الأمور وانقلبت رأساً على عقب، وليس أمامي أحد سواه لنجدتي.

فشكوكي اتجاهه كانت تنبع من ثقتي بما قاله دوغان، فلأنني صدقت ما قاله أخي، بدأت أظن أن كل ما يقوم به مفيد نابع من مآرب شخصية، ويهدف لتحقيق غايات دنيئة .وواصلت الشك بوجود عصابات داخل الدوائر الأمنية حتى الآن .ولأنني كنت أنظر للأحداث بانحياز، فقد عجزت عن رؤية الحقيقة .رغم أن مفيد ومنذ أن تعرفت عليه، لم يقم أبداً بما يثير شكوكي، بل على العكس تماماً، فقد كان دائماً يحاول مساعدتي ومشاركتي الحقائق .وقد يكون بالفعل مكلفاً بالقضاء على العناصر الفاسدة .وأظن أنني أستطيع الوثوق به، وهل أملك خياراً آخر؟ فأنا لا أستطيع القبض على دوغان بمفردي وتسليمه للشرطة، فما أن أخطو أولى الخطوات بهذا الاتجاه، سيقتلني، وينتهي من أمري .لا حل سوى الاتصال بمفيد، فهو الوحيد القادر على تخليصي من هذه اللعنة التي تحيط بي .أخرجت الهاتف النقال من جيبي، وضغطت على رقم مفيد.

وقد عرف صوتي ما إن قلت :ألو.

ومن دون أن أمنحه فرصة لقول شيء، واصلت:

-علينا أن نلتقي فوراً، فدوغان لم يمت.

الفصل الثامن والثلاثون

طلبت من مفيد انتظاري على الجانب الآخر لجسر المضيق، في القسم الآسيوي .ومن دون أن يطلب مني أي شرح، وافق على لقائي .كان يتوقع هذه النتيجة منذ البداية، وقد حاول أن يثبت لي الأمر مراراً، وتكراراً .إلا أنني وفي حال عدم وجود دليل قاطع، كنت أستبعد الفكرة .والآن ها أنا ذا أعترف بصحة استنتاجاته، وأؤكد الفكرة التي كان متمسكاً بها منذ بداية الأحداث .أعلم أنه يشعر بالرضا لأنّ حدسه لم يخيبه هذه المرة أيضاً، وأنه حقق نصراً مهنياً آخر، ولكنه لم يبدُ لي أياً من ذلك وهو يحدثني على الهاتف، واكتفى بسؤال وحيد فقط.

-لما علينا أن نتقابل في القسم الآسيوي؟

-أمر يطول شرحه —قلت —عليك بالحضور فوراً، فحياة شخص مهددة بالخطر.

لم يطالبني بالمزيد، فأنهيت المكالمة على الفور والتفت نحو فيليز موضحاً:

-لا تخشي شيئاً يا عزيزتي، فعما قريب ستحل القضية، وسنخرج كلنا من هذه المعمعة .وحينها سأشرح لك ما حدث بالتفصيل.

خرجت من المنزل مسرعاً، وحين اتجهت نحو البليماوث، شعرت بأن أحدهم يراقبني، ولكنني حين تلفتت حوالى، وشاهدت الشارع المقفر، أدركت أنها مجرد توهمات لا أكثر .وأن من عليّ أن أخاف عليه بالفعل، هو رسول .فلا بد وأن دوغان سيذهب إليه في أقرب وقت من أجل استعادة الصندوق، وحين يعلم بما

حدث، لن يتوانى عن قتل المسكين .ربما لو لم آخذ الصندوق، لاكتفى باستعادته، وأشفق على صديقه المسكين، وتركه في حاله، مدركاً أن ما من أحد سيصدق الرجل المجنون إن صرّح بأن دوغان قد أتى إليه، وأخذ الصندوق .ولكنه سيقتله بكل تأكيد، بعد أن يدرك أن كل ما خطط له، قد ذهب أدراج الريح، نتيجة نوايا صديقه الطيبة .لهذا السبب كان علينا الوصل إليه قبل دوغان، ونقله إلى مكان آمن.

وبقيت طوال الطريق أفكر في المكيدة التي أوقعني فيها أخي، وكيف تلاعب بي، كما تتلاعب القطة بالفأر .ومن المؤكد أنه خطط للأمر منذ شهور طويلة، وتمكن من خداعنا جميعاً بمن فيهم مفيد، الذي كان يعرفه خيراً من الجميع، حين استطاع بحيلة ما التلاعب بنتيجة التحليل .ولكن لما فعل كل ذلك؟ بالطبع من أجل أن ينفرد بالنقود كلها .تذكرت النظرة الحزينة في عينيه والانكسار الواضح على وجهه، حين لقائه بي، وكيف أكد لي بأنه ميت لا محالة، وأن لا نجاة له من هذا المصير .يا له من ممثل بارع، ومخادع محترف .فمن الواضح أن من أشرف على تدريبه، كان متقناً لعمله بشكل كبير .واستحضرت ما قاله نجات، عن أنه كان يعمل لصالح الاستخبارات الأميركية، وكيف أنني سخرت من الفكرة، ولكنني الآن أستطيع أن أتيقن من أنّه كان محقاً .يا إلهي، كم أنا غبي؟ فكل ما ظننته صحيحاً، وحقيقة، اتضح أنه مجرد أكاذيب، وكل ما رفضت تصديقه، كان هو الحقيقة .أجل لقد تلاعب بي بصورة قذرة جداً .وفي الوقت الذي كنت أنفر من زملائي لأنهم يجعلون من أنفسهم أدوات في سبيل تحقيق مآرب رؤسائهم، وينخرطون في مكائدهم الصغيرة، وكنت أنظر إليهم باحتقار، ها أنا ذا أتحول إلى مجرد ألعوبة في يد مجرم، وفاشي سابق، وإرهابي .وأصبحت الأداة الرئيسية لتنفيذ مآربه الدنيئة والتغطية على جرائمه القذرة .وربما فقد الكثير من الأبرياء حياتهم بسببي.

كانت هذه الأفكار تعصف بروحي المضطربة كبحر هائج يناقض السماء المتربعة فوقي، بصفائها، وشمسها المشرقة .زدت من سرعة البليماوث العجوز، وما إن

وصلت المكان المتفق عليه، حتى نزلت من السيارة فوراً، وأنا أحس بأنني أكاد أختنق .فقابلني نسيم عليل، يحمل رائحة الربيع والحياة، والأمل الذي بات بعيداً عني .رفعت رأسي، لأرى صفحة السماء أكثر إشراقاً، تتخللها ندف غيوم بيضاء، تبدو وكأنها طائرات ورقية أفلتت خيوطها، ففكرت أنني مستعد أن أدفع ما تبقى من عمري، لأغدو مثلها، أسبح في صفاء الأبدية المطلق .بعد لحظات سمعت صوت بوق سيارة خلفي، التفت لأرى الرينو البيضاء تتجه نحوي، وفي المقدمة يجلس الشابان من الوحدة الأولى اللذان كلفا بحمايتي .توقفت السيارة ونزل منها مفيد مع مرافقيه، واقترب مني بسرعة وقد ارتسمت على وجهه ملامح جدية.

-مرحباً —صافحته —دعنا نذهب بسيارتي، وليلحقا بنا.

لم يوافق على عرضي بسرعة.

-إلى أين نحن ذاهبون؟

وبدأ يرمقني بإمعان، كأن الجواب كان مكتوباً على صفحة وجهي.

-سأشرح لك الأمر في الطريق، فلا وقت لدينا لنضيعه، ولكل دقيقة ثمن بالغ.

بعد لحظة تردد، أشار بيده لمرافقيه أن يلحقا بنا، وجلس إلى جانبي في السيارة، حيث شرحت له الأمر كل ما جرى، منذ البداية .وقد سمعني بصمت مطبق، حتى بدا وكأنه توقف عن التنفس أيضاً.

-كنت أعرف —دمدم مذهولاً، وأضاف وهو يومئ برأسه مؤكداً —لقد كنت أعرف أن دوغان حي .فكل الطرق كانت تصل بي إلى هذه الحقيقة، ولكن نتيجة التحليل قد أجبرتنا على الاقتناع بموته.

من الواضح أنه كان يشعر بالحنق، لأنه غدا أحد ضحايا اللعبة التي قام

بها دوغان.

-لم يكن لدينا حل آخر —حاولت مواساته —فتحليل ال (DNA) أثبت أنه قد مات .بالمناسبة كيف استطاع التلاعب بنتيجة التحليل برأيك؟

-لا أعرف على وجه التحديد .ولا سبيل لمعرفة الأمر سوى بالقبض عليه.

-أظن أننا سنتمكن من ذلك —قلت .ولكنني لم أكن متفائلاً، بل كنت أشعر بالذنب اتجاه هذا الرجل الذي أسأت الظن فيه ظلماً —فهو سيتجه إلى منزل سابانجا عاجلاً أم آجلاً من أجل النقود، ورجال الشرطة الذين سيكونون في انتظاره هناك، سيتمكنون من إلقاء القبض عليه.

ولكنه لم يكن متفائلاً على الإطلاق.

-كلامك صحيح، علينا تأمين حماية رسول، ووضع وحدة كاملة في المنزل بانتظاره، ولكن إياك أن تستخف به.

ضحكت في سخرية.

-لن أفعل ذلك من الآن فصاعداً .الشريط الذي سجله عارف، قد أوضح لنا الحقيقة، وإن خططنا للأمر بشكل صحيح، سنتمكن من الإمساك به.

-إن حالفنا الحظ.

-لما أنت متشائم إلى هذا الحد؟

-لأن العقبات غير المتوقعة تظهر بشكل كبير في عمليات من هذا النوع. فقد يقوم أحد بزيارة منزل رسول على حين غرة، وحين يرى الشرطة، سينتشر الخبر كالنار في الهشيم بين كافة قرى المنطقة.

بقينا صامتين لبرهة، وظهر الشرود على مفيد، لا بد وأنه يخطط لطريقة الإمساك بدوغان، من دون مخاطرة .ولكي لا أشتت أفكاره، توقفت عن طرح الأسئلة.

-بالمناسبة، أود الاعتذار منك —قال —فقد مر وقت ظننت فيه أنك شريكه في اللعبة.

قهقهت بعصبية، وحين التفت نحوي مستفسراً، بادرت بالتوضيح:

-وأنا أيضاً ظننتك الضابط.

لم يبد دهشة أو استياء، بل أحسسته سُرّ بهذا الاعتراف.

-لا بد وأنك علمت بأنني كنت في القوات المسلحة أيضاً؟

-أجل، علمت.

-حينها أظنك تأكدت بأنني الضابط.

-لن أقول لك إنني كنت متأكداً، ولكن شكوكي قد زادت حين ظهرت نتيجة التحليل إيجابية.

-كنت أعلم أنك تفكر على هذا النحو —كان صوته مفعماً بحكمة رجل خَبِر الكثير —ليتك أتيت وصارحتني بشكوك، فأنا ليس لدي ما أخفيه.

- لم أكن أعرفك جيداً، ولم أتكهن بردة فعلك إزاء الأمر.

-أنت محق، وأنا لا ألومك على ذلك .كان أحد زملائي يردد على الدوام أنه من أجل معرفة أحدهم حق المعرفة، عليك رؤيته حين يتعرض لخطر شديد، أو يحصل على نقود كثيرة .لأنه يظهر شخصيته الحقيقية في تلك اللحظات.

-أظنه كلاماً واقعياً —علقت.

حين اجتزنا سابانجا باتجاه الطريق، بدا خالياً كما في المرة السابقة، وما إن بدأت بتسلق الطريق الصاعد نحو منزله، حتى عاودني الندم لأنني أجهد البليماوث لاجتياز هذه الطريق الوعرة .وصلنا إلى البستان الذي يحيط بمنزله، فركنت السيارة واتجهنا إليه سيراً .كان مرافقا مفيد يتقدماننا، شاهرين سلاحيهما، حتى مفيد كان قد أشهر مسدسه، فأدركت أنني الوحيد الذي لم يكن مسلحاً بينهم .اقترب الشابان من المنزل، وقاما بجولة سريعة حوله لتفقد المكان، وأشارا لنا أن المكان خالٍ .ووقفا على جانبي باب المنزل الذي كان موارباً بانتظار إشارة من مفيد للدخول، وحين تلقياها دخل كلاهما معاً .توقعت أنني سأسمع صوت إطلاق رصاص بعد برهة، أو صوتاً صارخاً يطلب من أحدهم تسليم نفسه، ولكن لم يحدث شيء من هذا القبيل، بل خرج الشابان، وهما يعلنان أن المنزل فارغ.

-حسناً، دعونا ندخل كلنا —قال مفيد.

دخلنا المنزل الذي كعادته مظلماً حتى في وضح النهار، فاتجهت نحو مصباح الكاز، وأشعلته .وحينها لاحظت أن ما من شيء تغير في غرفة الجلوس؛ الطاولة الفارغة، وصورة الشاب المبتسم على الحائط، وحقيبة القرآن الكريم المخملية، كلها كما هي .دخلنا الغرفة الأخرى، والتي كانت صغيرة جداً، ولا يوجد فيها أثاث سوى سرير معدني تقريباً، وكانت تفضي إلى غرفة أخرى في العمق، يستعملها رسول كمطبخ. دخلها الشابان، وتبعناهما أنا ومفيد .لكن لم نعثر على أثر لرسول.

-ربما ذهب للقرية —قلت.

خرج مفيد من الغرفة دون أن يبدي أي ملاحظة، وتبعته بدوري، كان أحد الشابين قد أنزل الحقيبة المخملية المعلقة، وأخذ يفتش بين أوراق المصحف، بينما الآخر يقف في منتصف الغرفة شاهراً سلاحه .حين خرجنا إلى الحديقة، أخذ

مفيد يجول بنظراته على المكان متفحصاً، ومن ثم اقترب من الطاولة الخشبية التي تقبع تحت العريشة، وانحنى قليلاً، ثم جثا على الأرض، فيما بقيت أراقبه.

-حدث اشتباك ما هنا —أوضح من دون أن ينهض —لم يكن عراكاً عنيفاً، ولكن يبدو أن أحدهم قد جثا على ركبتيه —وأشار بيده نحو آثار الركب على الأرض —ومن ثم تم سحل أحدهم، أترى الآثار؟ —وأشار بيده إلى الآثار التي تظهر بوضوح .تبعناها صامتين، وبدا أنها تنتهي عند حافة البئر .لم أتجرأ على النظر، ولكن مفيد انحنى على الفور عليه ليجد شيئاً، وكنت طوال فترة وقوفه هناك آمل أن تخيب ظنونه، لكنه حين رفع رأسه أخيراً، أوضح:

-أظن أن ما من أحد سيشرب من ماء هذه البئر لفترة طويلة —التفت نحوي وقد ارتسم الضيق على وجهه —يبدو أننا تأخرنا، فقد سبقنا أخوك إلى هذا المكان —وثم نادى على مرافقيه —تعالا إلى هنا بسرعة.

تمكن الشرطيان الشابان وبعد جهود مضنية من إخراج جسد رسول من البئر، بعد ربطه بالحبال .كان وجهه شديد الشحوب، وقد تدلى لسانه نحو الخارج. ففكرت أنه وبينما كان صديقه يرميه نحو البئر، قد تمكن من مواجهة ظلمات روحه، وأدرك أنها الطريقة الوحيدة لكي يسامحه والده، وقد أسلم الروح بعد أن بلغ السعادة أخيراً .وفكّرت بشعور دوغان وهو يقدم على قتل أقرب أصدقائه، فرغم أنني توقعت قيامه بهذه الجريمة إلا أنني لم أتمكن من كبح نفسي.

-كيف يمكن لإنسان أن يفعل ذلك؟ لقد كان أقرب أصدقائه.

نظر إليّ الشابان بأسى بالغ، فيما أوضح مفيد:

-كان مجبراً على فعل ذلك —قالها بذات الهدوء الذي يتكلم به مدرب رياضي، حين يجتمع حوله اللاعبون، ليوضح لهم خطة اللعب —لقد كان خبيراً، ويعلم أنه لا يجب أن يترك خلفه أي أثر —ومن ثم التفت إلى الشاب الذي بجانبه

—أحضر غطاء من الداخل، وغطي به هذا المسكين.

اتجه الشاب على الفور إلى الداخل، وبعد برهة، عاد ومعه ملاءة مخططة، وغطى به جسد رسول.

-لم يعد لدينا ما نفعله هنا —قال مفيد وهو ينظر إلى الجسد المغطى — دعونا نعد إلى اسطنبول —وبدا كرجال الشرطة العاديين في تلك اللحظة —إلى أين أنتما ذاهبان؟ ستبقيان هنا حتى مجيء الشرطة والمحققين، أعلموهم بالأمر، لن يطول مجيئهم كثيراً.

بدا الضيق على وجه الشابين، ولكنهما لم يعترضا .وبعد أن تركناهما برفقة الجثة، اتجهنا نحو البليماوث، وحين كنا نهمّ بالصعود، بادرت بالسؤال:

-لما تريدنا أن نذهب بهذه السرعة؟

-لنأخذ النقود من منزل كوزغونجوك، فدوغان لديه نسخة من مفاتيح البيت، كما أوضحت لي.

كيف لم يخطر لي الأمر، فلو ذهب دوغان إلى هناك، سيجد النقود بكل تأكيد، لذا حاولت الإسراع قدر الإمكان، خشية أن نصل متأخرين هذه المرة أيضاً.

-ولكن لما سيذهب إلى هناك —كنت أحاول طمأنة نفسي —فمن المحال أن يخطر له، أنني خبأت النقود في ذلك المنزل.

-ربما، ولكنه ليس بالمكان الآمن على أي حال .وقد يعثر على النقود بمحض الصدفة .يجب أن نخرج النقود من ذلك المنزل.

واصلت القيادة وأنا أفكر فيما ستؤول إليه الأحداث، والتفت ضاحكاً نحو مفيد لأسأله، وكأن الأمر لا يعنيني:

برأيك من الضحية التالية؟ هل سيحاول دوغان قتلي أيضاً؟

-لا أعرف —ابتسم بدوره، وأخذ يحك ذقنه، وبدا يفكر في أمر ما قبل أو يوضح —عليّ التفكير في الأمر ملياً.

لكن كلامه زاد من قلقي.

-عليك أن تفكر؟ —سألت.

-أجل.

-وما العمل؟

-سننتظر أن يبادر دوغان بالتصرف —قالها بثقة وهو يومئ برأسه مؤكداً —فهناك خياران، أولهما أنه يعتقد أنك عثرت على النقود واتصلت بنا، ولو فكر بهذه الطريقة، سيترك كل شيء، ويهرب .وإما سيفكر أنك لم تعثر على النقود، أو أنك لم تقم بتسليمها للشرطة بعد العثور عليها، وهذا الاحتمال سيدفعه إلى التواصل معك بطريقة ما.

-وكيف له أن يفعل أمراً مماثلاً؟

-لو كان لديه الوقت الكافي، لكان انتظر الوقت المناسب للظهور أمامك كما في المرة السابقة، ولكنه يعلم جيداً أن الوقت ليس لصالحه .وفي حال اختياره للاحتمال الثاني، فسيتصل بك في أقرب وقت ممكن .وبما أنه يملك مفتاح الصندوق، فهو يدرك أنك ستلجأ لصانع الأقفال من أجل فتحه، ولأنك غادرت منزل رسول في وقت متأخر البارحة، فقد يعتقد بأنك أجلّت الأمر لصباح اليوم.

-ربما —ولكنه يعرف أهمية هذا الأرشيف بالنسبة إليّ.

-أياً يكن الأمر فهو سيحاول الاتصال بك خلال الساعات القادمة من

دون شك.

-بهذه السرعة؟

-ليس لديه حل آخر.

سكت للحظة، ونظر إليّ قلقاً وبدا كأنه تذكر أمراً على قدر بالغ من الأهمية.

-هل هاتفك النقال مفتوح؟

-أجل —قلت —لما تسأل؟

-أغلقه على الفور —قالها بتوتر.

أخرجت الهاتف من جيبي، ولكنني لم أتمكن من كبح السؤال.

-لما؟

-لا أريده أن يفاجئنا بالاتصال من دون أن نكون مستعدين.

أقفلت الهاتف، ولكنني لم أفهم الذي يدور في ذهنه على وجه التحديد.

-أتتوقع أن يتصل دوغان بعد كل ما حصل معتذراً، ويطلب مني أن أعيد له الصندوق؟

بدا وكأنه استاء من سخريتي، ولكنه تنهد بعمق، قبل أن يوضح لي وهو يحدق في وجهي:

-وهل من حل آخر أمامه؟ —ومن دون أن ينتظر إجابتي واصل الشرح —لا بد وأنه يتحرق شوقاً للتأكد من عثورك على النقود أم لا .فكيف له التحقق من الأمر؟

-ألا يخشى ردة فعلي حين يتصل بي؟

نظر إلي باستخفاف وكأني سألته سؤالاً غبياً.

-وما الذي سيخشاه؟ فهو يخطط للأمر منذ شهور، ولم يتوانَ من قتل كل من حوله من أجل هذه النقود التي يكاد يخسرها الآن .فمن دون هذه النقود، لن يستطيع الهرب، وبدء حياة جديدة .لذا فهو مضطر للمخاطرة، وأنا متأكد من أنه سيتصل بك .والمهم الآن هو ردة الفعل التي يجب أن تبديها حين يتصل بك.

وبدا صوته يحتد وكأنه يوبخني، وهذا ما أشعرني بالضيق، فحاولت اللجوء للسخرية.

-كيف؟ هل يجب عليّ أن أقول له، أخي العزيز كم أنا سعيد لأنك ما زلت على قيد الحياة مثلاً؟

-أركن السيارة يميناً —قالها بحدة.

ألتفت نحوه، فأعاد صارخاً، وهو يرفع سبابته في وجهي.

- لقد قلت لك أن تركن السيارة.

لو لم أنفذ كلامه، فلا شك بأنه كان سيوجه نحوي فوهة المسدس بدل سبابته .لذا كنت مجبراً على الانصياع.

-اسمعني جيداً يا عدنان، نحن لا نلعب —بدأ يوبخني صارخاً —فإلقاء القبض على دوغان، وإخراجك من هذه القذارة حياً، منوط بما سنفعله في الساعات القادمة .أتفهم ما أقوله؟

كان الشرر يتطاير من عينيه.

-أفهم —أجبت.

-وهو أمر لا يتحمل المزاح على الإطلاق .عليك التحدث معه بطريقة، تجعله يقتنع أنك لم تعلم بعد بما يجري .إنه أمر على غاية الأهمية .أتفهمني؟

-كف عن تكرار كلمة أتفهم كل لحظة —قلتها وقد طفح كيلي من توبيخه لي في كل مناسبة —فأنا أفهم.

-أعتذر فأنا متوتر بعض الشيء، ولكن من المهم حقاً أن تتقن دورك.

-لا تخف .سأفعل ذلك —قلتها بحدة، ومن ثم زدت من سرعة السيارة، وقد انتقل توتره إليّ أيضاً.

-عليك أن تبدي الاستغراب في البداية —وأخذ يشرح لي كيفية التصرف —ومن ثم تثور غاضباً، بل وتكيل له الشتائم أيضاً .أما فهو فسيحاول الاعتذار منك، وإقناعك بمقابلته، من أجل أن يشرح لك ما حصل، وسيردد بأنه كان مجبراً وما إلى ذلك .بالإضافة إلى أنه سيقوم بطرح أسئلة ملغومة، ليعلم إن كنت قد اطلعت على محتويات الصندوق أم لا، وعليك أن تعرف كيفية الإجابة عنها بطريقة صحيحة .سيظل يحاول إقناعك، بينما سترفض في البداية، إلا أنه سيخلق سبباً ملائماً جداً لإقناعك واللقاء بك، وعليك أن تحاول إبداء امتعاضك، وأنك لا تريد رؤيته بعد الآن .وأخيراً ستوافق مجبراً .حينها سنتمكن من إلقاء القبض عليه.

اللعنة عليك وعلى دوغان، ولكن عليّ أن ألعن نفسي قبل الجميع، لأنني ورطت نفسي في هذه القذارة، وسمحت للجميع باستغلالي كأحمق .بقيت صامتاً لبرهة، وقد تسمرت نظراتي على الطريق الذي كان يمضي بسرعة .وربما أعتقد مفيد أنني أفكر في ما سأقوله لدوغان، لذا بقي هو الآخر صامتاً .ولكن حين طال صمتي، بدأ يخمن ما أفكر فيه.

-أعلم أنك متوتر وتشعر بالقلق —عاد إليه هدوئه من جديد وهو يحدثني —أنا أيضاً متوتر، بل وأشعر بالخوف .ولكننا نملك الفرصة للقبض عليه.

فلو أحسنّا التصرف، وتمكنا من السيطرة على أنفسنا، فسنتمكن من تحقيق هدفنا. وبهذا ستكون قد انتقمت لمقتل صديقك، وتتمكن من مواصلة حياتك من دون خوف.

وحين بقيت صامتاً، واصل:

-صدقني، لا حل أمامنا بالخلاص سوى هذه الطريقة .إما أن نمسك بدوغان، وينتهي هذا الكابوس، وإما أن نواصل العيش ونحن نتلفت حولنا هلعاً، في كل خطوة نخطوها .لأنه من المحال أن يتركنا دوغان وشأننا.

كنت مقتنعاً بكل ما يقوله، وأنوي التصرف وفق ما يراه، ولكن لم تكن بي رغبة في الكلام.

-أليس كذلك؟

وبدل أن أجيبه، التفت نحوه وقلت:

-أعطني سيجارة.

أضاء وجهه.

-حسناً —وقبل أن يخرج العلبة من جيبه قال —أعد تشغيل الهاتف النقال إن كنت مستعداً.

-بعد أن أنهي السيجارة.

أعدت تشغيل الهاتف، حين كنا قد تجاوزنا مدينة إزميت، ولم نعد للتحدث أكثر .كانت عيناي معلقتان على الطريق، فيما مفيد يتلفت حوله بين الحين والآخر مراقباً .ولكنني لست متأكداً إن كان يلاحظ الطبيعة التي تكللت بالخضرة المتفجرة في استقبال احتفالي بالربيع، وتوشي لونها المفضل بضربات من

الأحمر والأبيض والزهري الذي يكلل الأشجار .لا بد وأنه منشغل عن هذا الجمال، بمكالمة دوغان المنتظرة .ولكن هاتفي بقي صامتاً حتى بلوغنا طريق اسطنبول السريع، حيث توقفنا على الحاجز المدفوع .وبعد تجاوزه بلحظات بدأ الهاتف بالرنين، تناولته على الفور، ونظر كلانا إلى الرقم الذي لم يكن محفوظاً لدي، ويبدأ بالرمز الخاص للقسم الأوروبي من اسطنبول.

-ألو —ولكنني لم أتلق جواباً —ألو .ألو —وحين بقي الطرف الآخر صامتاً أنهيت المكالمة .وخففت من سرعة البليماوث.

-قد يكون هو —أوضح مفيد —كن حذراً.

ازددت توتراً .وبدأت أقود بأقل سرعة ممكنة، على يمين الطريق .وحين كنت أوشك على زيادة سرعتي، عاد الهاتف للرنين.

-ألو.

-ألو —ما إن سمعت صوته حتى أدركت أنه هو، ولكنني أخفيت ذلك.

-ألو، تفضل —قلت.

-مرحباً عدنان —قال.

-أهلاً —قلتها بصوت متردد —عفواً، من المتحدث؟

-سامحك الله —قالها ضاحكاً —أيعقل أن تنسى صوت أخيك، بعد مرور شهر واحد فقط؟

-ماذا؟ ما الذي تقوله؟ —أبديت الحيرة —من أنت، وعن أي أخ تتحدث؟

وحين أدرك مفيد أنه دوغان، بدأ يصغي باهتمام، وهو يراقبني.

-ما بك يا عدنان؟ هذا أنا —قال —لا تقل لي إنك لم تعرف صوتي، هذا أنا .أخوك دوغان.

-أتحاول السخرية مني؟ —صرخت بحدة —لقد مات أخي.

-لقد كان الأمر مجرد لعبة —أوضح —فأنا لم أمت .ولكن أحقاً لم تتعرف على صوتي؟

وأخذ مفيد يومئ بيده أنني أسير بشكل جيد، وأن أكمل بذات الطريقة. ما شجعني أكثر.

-اسمعني —قلت —لا أعلم من تكون، ولكن لا رغبة لي في هذا المزاح السمج، سأغلق الخط.

وأنهيت المكالمة على الفور.

-رائع —هتف مفيد —كنت بارعاً، استمر على هذا النحو، فهو سيعاود الاتصال، ويحاول إعطائك براهين ليقنعك أنه دوغان بالفعل.

ورنّ الهاتف مجدداً على الفور.

-ألو —أجبت بنبرة ضيق واضحة —اسمعني يا سيد.

لكنه لم يمنحني الفرصة لإتمام كلامي.

-عدنان هل لك أن تسمعني قليلاً —بدا صوته متوسلاً —صدقني أنا دوغان، وأستطيع أن أثبت لك ذلك، فقد التقيتك قبل شهر في المتجر، وأخبرتك أن لديّ معلومات مهمة لأطلعك عليها.

-كل من قرأ المقالات التي كتبتها يعرف هذه الحقيقة.

-ولكن لا أحد يعرف أنك ذهبت البارحة إلى منزل رسول، وأخذت منه الصندوق الذي يحوي أرشيف والدك.

تمهلت للحظة قبل أن أسأل:

-كيف تعرف رسول؟

-وكيف لا أعرفه؟ إنه أقرب أصدقائي —كان يتحدث عن الصديق الذي قام بقتله اليوم، ولكن صوته خلا من أيّ انفعال —صدقني أنا دوغان، وإن شئت سأحدثك عن شجارنا حين كنا طفلين، أو أي شيء آخر ترغب فيه.

-حسناً —قلت —طالما أنك مصراً إلى هذه الدرجة، سأمنحك فرصة. إن كنت حقاً دوغان، أتعرف أي سيارة كان يملك والدي، حين ذهبت للمدرسة الداخلية؟

-بالطبع أعرف، شيفروليه موديل 56.

-كيف علمت بذلك؟

-لأنني دوغان بالفعل.

-هل أنت جاد؟

-كل الجدية.

تريثت للحظة، وأنا أنظر إلى مفيد الذي وإن بدا متضايقاً، ولكنه أشار بأنني أسير بشكل ممتاز.

-أنت .أنت عدنان حقاً —قلت.

-أجل، أنا دوغان.

-والجثة التي كانت في السيارة؟

-سأشرح لك كل شيء.

-ولكن نتيجة تحليل الـ (DNA)كانت إيجابية.

-سأوضح لك الأمر.

حاولت أن أبدو مصدوماً.

-لحظة لحظة –قلت، وقد تفاجأتُ من قدرتي على مواصلة التمثيل – أنت حقاً دوغان؟

-أنت محق في استغرابك، ولكنني سأوضح لك كل شيء.

-ما الذي ستشرحه أيها الوغد –بدأت بالصراخ –ما الذي تنوي فعله بنا؟ هل تظننا لعبة بين يديك؟ تتصنع الموت، ومن ثم تخرج من القبر وتقول لي إنك حي؟

-معك حق فيما تقوله.

-إذاً أنت من قتل كل هؤلاء الناس.

-من فضلك –قالها، وبدا ممتعضاً من نعتي له بالقاتل –أنا لم أقتل أحداً، فهم من قاموا بقتل بعضهم البعض.

-وكيف تتوقع أن أصدقك؟ وأنت تكذب عليّ منذ اللحظة الأولى؟

-كنت مجبراً، ولم يكن لدي حل آخر.

-اللعنة عليك –قلت –أي نوع من البشر أنت؟

-لن أبرر ما فعلته —قال.

-لا يحق لك ذلك —صرخت —أتعلم القذارات التي ورطتني فيها؟

- أعتذر عن كل ما حصل .ولكن حين تعرف الحقيقة، كن واثقاً أنك ستعذرني.

-لا أريد سماع شيء —قلت —فلقد خسرت أقرب أصدقائي بسببك، وتقوضت كل حياتي.

-صدقني أنني آسف لكل ما حصل، ولم أكن أرغب في حدوثه .دعنا نلتقي في مكان ما، لأشرح لك الأمر بتفاصيله، وستدرك الحقيقة حينها.

-كلا، فأنا لا أريد رؤية وجهك .ولا تحاول الاتصال بي مرة أخرى — قلتها وأنهيت المكالمة.

-أنت رائع —قال مفيد —وتملك موهبة فطرية في التمثيل —ولكن يجب أن نكون حذرين، ولا تسمح له بتحديد مكان اللقاء، فنحن من سنختار المكان.

-وأي مكان علينا أن نختار؟

-أخبره أن يلقاك في منزل كوزغونجوك، وسنتمكن من الوصول إلى هناك قبله.

وقبل أن ينهي مفيد جملته، عاد الهاتف للرنين.

-اسمعني جيداً دوغان، دعني وشأني، وكفّ عن إيذائي.

-لا أقدر، عليّ أن أراك وأكلمك، فهناك أمر مهم يجب أن أطلعك عليه.

-لا يهمني سماع ما ستقوله لي.

-ولكنك لا تعرف ما سأخبرك به، فقد يغير حياتك بشكل كلي.

-إذاً أخبرني به الآن.

-لا أستطيع التحدث في الأمر على الهاتف .فهو حديث يطول شرحه. كما أن مفتاح الصندوق ما زال بحوزتي . لم تقم بفتح بعد، أليس كذلك؟

-كنت أنوي أخذه لصانع أقفال، ولكنني لم أجد بعد الوقت المناسب، فهو لا يزال راقداً في صندوق السيارة.

بعد برهة من الصمت قال:

-هذا جيد —وبدا صوته منشرحاً —سأعطيك المفتاح، لتفتحه من دون أن تلحق الضرر به .وسأخبرك بما لدي أيضاً.

حان الوقت لإبداء بعض اللين، ولكن من دون أن أظهر القبول التام.

-اسمعني جيداً، إن كنت تنوي تورطي في مكائدك الوسخة من جديد.

ولكنه قاطعني مستبشراً، وقد شعر أن الأمور بدأت تسير لصالحه.

-صدقني لن أفعل ذلك، ولا أريد منك أيّ شيء هذه المرة، فقط أريدك أن تسمع ما لدي.

تأففت بصوت مسموع.

-عدني أنك لن تعاود الاتصال بي بعد هذا اللقاء.

بدأ بالضحك.

-لما تضحك؟

-يا لك من رجل غريب، فلو أن صحفياً آخر في مكانك، لأدرك أي خبر كبير يمكنه أن ينتج من هذا اللقاء .ولكنك في المقابل ترفض حتى فكرة اللقاء بي.

-كف عن الثرثرة، فهذا سيكون لقائنا الأخير، فهمت؟

-حسناً، ولن تسمع باسمي بعدها.

-أنا الآن في منطقة سالاجاك، سأكون بعد ساعة في المنزل القديم كوزغوبجوك.

-دعنا نلتقي بعد ساعتين، ما رأيك؟

كان هذا ما أرغب سماعه بالفعل.

-حسناً، ولكن لا تتأخر عليّ أكثر من ذلك.

-لا تقلق —قال، وبدا انشراحه واضحاً —سأكون هناك في الموعد المحدد.

الفصل التاسع والثلاثون

قبل التوجه إلى المنزل، مررنا بقسم شرطة بيلاربي، بناء على رغبة مفيد.

-سأتصل بمديرية الأمن، وأطلب منهم إحدى الوحدات ذات الكفاءة العالية —أوضح —لن أطيل البقاء، سأنتهي من الأمر بسرعة.

قمت باستغلال فرصة ذهابه، واتصلت بإروول على الفور .ورغم أنه نبهني ألا نخبر أحداً بالعملية حتى انتهائها، وقد إحترمت رغبته، في التقيد بواجبه المهني، ولكنني بالمقابل عليّ الاتصال بزملائي، فهذا ما يقتضيه واجبي المهني بالمقابل.

-هناك تطورات مهمة —على الفور اشتمّ إروول رائحة خبر دسم، وطالبني بالتفاصيل، ولكنني لم أكن أملك الوقت لذلك.

-لا أستطيع أن أطيل —قلتها باقتضاب —دعهم يخصصون الصفحة الأولى للخبر .وأظنك تعرف منزل والدي القديم في كوزغونجوك، سأكون هناك .خذ معك تولغا، وانتظرني بعد ساعتين في مقهى ظلال الدلب في كوزغونجوك .وإياك والاتصال بي، فأنا سأقوم بالاتصال بك .اذهب إلى هناك، وانتظر مكالمة مني.

أدرك إروول جدية الأمر، فلم يطالبني بالمزيد .أنهيت المكالمة وبعد برهة قصيرة عاد مفيد، واتجهنا نحو المنزل، حيث لم تكن قد أنقضت أكثر من نصف ساعة على مكالمة دوغان .ولكننا وقبل بلوغ شارع المنزل، قال مفيد:

-أنا سأنزل هنا، عليك الذهاب إلى هناك بمفردك .لا أظنه قد وصل

بعد، ولكننا يجب أن نحتاط .وإن وصلت المنزل، وكانت الأمور بخير اتصل بي، وسأقوم في هذه الأثناء بجولة حول المكان كتدبير وقائي.

كان هو مدير هذه العملية، لذا وافقت على طلباته من دون نقاش .نزل أمام الكنيسة، فيما اتجهت بسيارتي نحو الحي وكنت أتلفت حولي، وأنا أقود ببطء شديد .كانت هناك امرأة تنفض سجادتها من شرفة البناء المجاور، وفي الساحة الصغيرة كان الأطفال يلعبون الكرة، ركنت البليماوث أمام المنزل تماماً .نزلت من السيارة، وأنا أراقب ستائر المنزل منتبهاً لأدنى حركة، ولكنه بدا غارقاً في سكون عميق .اتجهت نحو الباب، وأخرجت المفتاح وبعد صرير قصير فتح، فتمهلت لحظة قبل الدخول، حيث استقبلتني رائحة عفونة أقوى من كل مرة .وبعد أن اعتادت عيناي على ظلمة الداخل، اتجهت يساراً، وضغطت على زر الكهرباء .وأصخت السمع لأي حركة أو صوت، ولكن لم يصلني شيء .لم أكتف بذلك، بل أشعلت كل الأضواء وبدأت بتفتيش كافة الغرف، ولكن يبدو أن ما من أحد سواي في المنزل .فاتصلت بمفيد، ووصفت له المنزل .وفيما أنتظره أخذت أفكر في المكان الذي يجب عليه الاختباء فيه .من المؤكد أنني سأتحدث مع دوغان في الطابق السفلي، وسيكون أفضل مخبئ له في المطبخ .ولكن أين؟ اتجهت أنظاري نحو خزانة المؤن .فقبل زواج والدي من الخالة كريمان، كان قد أسدل ستارة على هذا الفراغ الذي تحت السلالم والحائط، وكنا نضع المؤونة هناك، والحاجيات غير الضرورية، ولكن الخالة كريمان حين جاءت، قامت بإعادة ترتيب المكان وفق رغبتها، ووضعت خزانة مؤن مكان تلك الستارة، ولكن لأنّ حجمها كان أصغر من أن يغطي المكان برمته، فقد ظل هناك فراغ بين السلالم والخزانة، و يكفي لأن يختبئ مفيد فيه، فهو ليس بديناً، وسيتمكن من الخروج عند الحاجة بكل سهولة .ولا أظن دوغان سيتذكر ذلك المكان، أو سيخطر له وجود أحدهم هناك .بعد أن ركنت للفكرة، اتجهت نحو غرفته للتأكد من أن الأكياس السوداء في مكانها .وقد كانت كما تركتها البارحة مليئة بالدولارات المشؤومة من دون أن يمسها أحد .وقبل أن أغادر

الغرفة، سمعت صوت طرق على الباب، لا بد وأنه مفيد.

-لقد تفقدت الجوار، لا يوجد هناك ما يثير الشكوك —أوضح لي حين دخل، وهو يجيل النظر في أرجاء المنزل —يبدو أن دوغان لم يصل بعد .ولكنني أظنه سيأتي قبل الموعد بوقت طويل.

-هل سيأتي بمفرده؟

-ومن سيحضر معه؟

-رضا أصلان مثلاً.

نظر إلي باستخفاف على سؤالي الذي من الواضح أنه اعتبره غبياً جداً.

-برأيك لمن كانت تلك الجثة التي في السيارة؟

-أتعني أنها لرضا؟ ولكنه هرب إلى الخارج —قلت، ولكنني عقبت على الفور —إذاً فدوغان يستخدم جواز سفره.

-وأخيراً؟ —ظننته سيواصل السخرية، لكنه لم يفعل —دوغان سيأتي بمفرده، فخطته تعتمد عليه وحده.

-لما يفعل ذلك؟

-لأنه مهووس بالشك، ولا يثق بأحد — عادت نظراته لتجول على المكان، ومن ثم سأل —والآن، أين عليّ الاختباء؟

أطلعته على الفراغ وراء الخزانة، فلم يعترض، بل ذهب للاختباء هناك.

-لا يمكن رؤيتي، أليس كذلك؟ —وحين أجبت بالنفي خرج —إنه مكان ملائم، فحتى لو دخل المطبخ سأتمكن من رؤيته —اقترب مني وهو يدقق

النظر في عيني —كيف تشعر؟ هل أنت جاهز لما سيحصل؟

وكأنني لو قلت إنني لست كذلك، فسيسمح لي بالمغادرة إلى منزلي وكأن شيئاً لم يكن.

-جاهز —قلتها باقتضاب.

أخرج المسدس من قرابه ليلقمه، بينما تعلقت نظراتي بالمسدس، وسألته رغم معرفتي الجواب:

-هل سيكون من داع لاستخدام السلاح؟

لا بد وأنه شعر بأن مؤشر غبائي مرتفع اليوم، ولكنه لم يعلق على الأمر. بل اكتفى بالتوضيح:

-أرجو ألا نضطر إلى ذلك، ولكن علينا أن نكون مستعدين.

-والفريق الذي طلبت أن يؤازرك، سيكون منتظراً في الخارج؟

-بالطبع، لا وقت لدينا لكي نخبأهم في المنزل، فلو حدث أمر ما، حاول دوغان الهرب، سيقومون بإلقاء القبض عليه أمام الباب.

-ماذا تعني بحدوث أمر ما؟ —وقبل معرفة الجواب، سمعت صوت المفتاح يدور في الباب.

-لا بد وأنه قد وصل —قال هامساً.

وضع سبابته على فهمه، ليطلب مني الصمت، واختفى وراء الخزانة بهدوء، فيما اتجهت نحو الأريكة التي عند باب المطبخ حين شاهدته داخلاً .اصطنع ابتسامة حين رآني.

-مرحباً عدنان —وأغلق الباب بقدمه —سررت لرؤيتك مجدداً.

-لا أستطيع قول الشيء ذاته —قلتها وأنا أبدي امتعاضي —حين رأيت الجثة المحترقة في المشرحة، وظننتها لك، حزنت على موتك، ولكنني لست سعيداً الآن لمعرفة أنك حي.

خطا نحوي بضع خطوات.

-لا ألومك على ذلك —وجال بنظراته على المكان كما فعل مفيد، وحينها لاحظت أن يده في جيب معطفه الجلدي الطويل، فانتابني الهلع —أعلم أن لا سبيل لتسامحني على ما حصل —ولكنه لم يكن ينظر إليّ، بل يواصل فحص المكان، وخشيت أن يدرك أنني لست بمفردي .فاستجمعت كل قوتي، وأنا أقول:

-عما تبحث؟ أنظر إليّ حين تتحدث معي.

-حسناً —ولكنه واصل البحث، بل دخل المطبخ غير عابئ بي .فخطر لي أنه قد رأى مفيد ويود معرفة المكان الذي اختبأ فيه .لذا كان عليّ تنبيهه.

-ما الذي تنوي فعله؟ —قلت بصوت مرتفع —لما تدخل المطبخ؟

وأخذ جسدي يرتعش برمته، وتوقعت سماع كلمات الشرطة المعهودة »سلّم نفسك «بعد لحظة، وسماع صوت إطلاق الرصاص، ورؤية دوغان غارقاً في دمائه .ولكن توقعاتي لم تتحقق لحسن الحظ، فحين خرج دوغان من المطبخ سحبت نفساً عميقاً، وأنا أشعر بالراحة .وأخذ يتجول في المكان، فاتجه إلى غرفته، فيما قلبي يكاد يقفز من صدري هلعاً، فقد رأى الكيسين الأسودين هناك، ولكنه لم يعر الأمر اهتماماً، فهو كان يبحث عمن يكون مختبئاً في الداخل، ولم يكن مهتماً بما ظنه أشياء قديمة، لا قيمة لها.

أشار بيده نحو السلالم وهو يقول:

-هيا بنا نصعد معاً للطابق العلوي؟

-ولما سنفعل ذلك؟

-للتأكد من عدم وجود مكيدة في الأمر.

لما كان مصراً لهذه الدرجة؟ هل قمت بشيء يثير شكوكه، أم أنه يود الاطمئنان فقط؟ فليس من صالحي ترك هذا الطابق.

-مكيدة؟ —قلتها صارخاً، لأغطي على خوفي — ولما سأفعل ذلك؟

-لا يمكن التكهن بالسبب —قالها ورمقني بمكر —فأنت صحفي، ولا يجدر بي الثقة فيك.

-حسناً، اصعد وتأكد بنفسك.

-سنصعد سوية، فلن أصعد لوحدي.

-وماذا إن لم أصعد؟

حينها كما خمنت، فقد أخرج يده من جيبه حاملاً المسدس، وقد وجهه صوبي . لم يكن في نظراته أو حركاته غضب أو تهدد، ولكنه كان يتحلى بقدر كبير من الجدية بحيث لم تخامرني الشكوك، أنه سيقتلني إن رفضت.

حاولت تصنع الخيبة وأنا أقول:

-مسدس !تستدعيني للقائك، وتأتي مسلحاً، ما الذي يعنيه ذلك؟

لم يبد أي تأثر.

-سنتحدث في الأمر لاحقاً، والآن دعنا نصعد.

كان تنفيذ ما يطلبه مني، يعني الابتعاد عن مفيد، وهذا ما كان عليّ منعه.

-أعد سلاحك إلى مكانه، فإن خرجت رصاصة دون قصد، سيجتمع الجيران كلهم علينا.

-لا تخشى، فهو مزود بكاتم صوت .والآن دعك من الجيران، ولنصعد.

لم يخرج مفيد صوت من خلف الخزانة، أيعقل أن مفيد لا يسمعنا؟

-أهناك ما تخفيه في الأعلى؟ —قالها وهو يرمقني بشك واضح، ولو بقيت مصراً على الرفض، فسيدرك أن هناك أحداً في المنزل بالفعل.

-طالما أنت مصر لهذه الدرجة، دعنا نصعد ونرى ما الذي سنجده هناك —قلت مستسلماً.

بدأنا بصعود السلالم، وهو يتبعني .وأخذ بتفتيش الغرف الواحدة تلو الأخرى، وفكرت بأن صعودنا قد يكون خطوة لصالحي، فسيتمكن مفيد من الخروج ومباغتته من الخلف، ولكنه بقي ساكناً في مخبئه، ولم يخرج لا خلال صعودنا، ولا بعد أن نزلنا من جديد.

-هل أدركت بأنني لا أحاول خداعك الآن؟ —قلت وأنا أشبك ذراعي على صدري —هيا أخبرني بما لديك ودعنا ننتهي.

بدا مطمئناً، وأنزل سلاحه الذي كان يشهره في وجهي طوال الوقت.

-تعال فلنجلس هنا —وأشار إلى طاولة الطعام التي في المطبخ —فالأمر بحاجة لبعض الوقت.

حاولت الرفض لأبعد آخر احتمالات الشك من ذهنه.

-اسمعني يا دوغان —قلت —لا وقت لديّ لأضيعه معك في تبادل الحديث دون طائل، عليّ العودة إلى الجريدة، قل ما لديك، ودعني أذهب بعدها.

بدا غير مكترث باعتراضي.

-ستذهب ستذهب —وأشار بفوهة المسدس نحو أحد الكراسي التي في مواجهة —تعال وأجلس قبالتي.

حين اتجهت نحو الكرسي، أدركت أنه اختار أنسب مكان لي، ورغم أنه تقصد الجلوس قبالتي ليتمكن من مراقبة كل حركاتي، لكنه تخلى عن حذره قليلاً. وقد جلس وهو يدير ظهره إلى المطبخ، مما سيسهل مهمة مفيد كثيراً، فهو يستطيع الخروج في اللحظة التي يشاء والهجوم عليه .وبعد أن وضع المسدس أمامه، مدّ يده إلى علبة السجائر في جيبه.

-أترغب في واحدة؟

-لا أريد.

أشعل سيجارة لنفسه.

-لا تغضب مني —قالها بعد أن سحب عدة أنفاس من السيجارة —فبفضلي دخل بعض التشويق لحياتك في الأسابيع المنصرمة.

-اسمعني جيداً —قلتها وأنا أصوب نظرات غاضبة إليه —لست راغباً في التشويق، كل ما أرغب فيه أن تدعني وشأني.

بدأ يقهقه ضاحكاً.

-يا لك من رجل غريب الأطوار!

-ولما أنا غريب الأطوار؟

-بعد كل ما حدث من جرائم ومكائد، ألا ينتابك الفضول لمعرفة الحقيقة؟

حينها أدركت أنه يرغب في رؤية الدهشة الممزوجة بالإعجاب مرتسمة على وجهي، فيما يحدثني عن براعته وخططه الذكية التي تمكنت من تضليل الجميع. ورغم أنني كنت أتحرق شوقاً لسماع القصة، لكنني تعمدت إظهار لامبالاتي.

-لقد أخبرتك من قبل حين كنا في المتجر، أنا لا أهتم بالأمر .ولا تهمني حروبكم الداخلية القذرة، ومشاكلكم، وحساباتك الدامية.

ضحك بصمت.

-كما تشاء —قال —ولكنك بالفعل أعند من قابلت في حياتي، ما زلت تردد ذات الكلمات التي قلتها في لقائنا السابق.

-دعك مني ومن عنادي، وتكلم .ما الذي تريده مني؟

عادت إليه الجدية.

-في البداية عليّ رؤية الصندوق —قال —أين هو؟

تصنعت الاستغراب وأنا أحدق في وجهه.

-ما علاقة الصندوق بالأمر؟ أتركنا من أمره الآن، وأخبرني بما ما لديك.

-سأخبرك، ولكنني يجب أن أعرف مكانه أولاً، هل ما زال في السيارة؟

-ما الذي تخطط له هذه المرة؟ —قلت غاضباً —كفّ عن توريطي في قذاراتك، أتفهم؟

عاد يحمل المسدس ويصوبه نحوي.

-لا ترفع صوتك —قال —فأنا قادر على سماعك.

-لا أصرخ لكي تسمعني، بل لأنّ الكيل قد طفح، ولم أعد قادراً على تحمل المزيد —عدت للصراخ.

نقل المسدس إلى يده اليسرى، فتعاظم خوفي، وأنا أترقب ما سيفعله.

-اسمعني جيداً يا عدنان —قال، وقد أعاد وضع المسدس على الطاولة — أنا لم أعد ذلك الطفل اليتيم الذي لم تقبلوا به في منزلكم .لقد ولّى ذلك الزمن منذ وقت طويل، والآن نفذ ما أطلبه منك من دون اعتراض، وأخبرني عن مكان الصندوق.

إذاً فقد كان يودّ فتح الدفاتر القديمة؟ ولم يأت إلى هنا من أجل الصندوق فقط، بل يريد أن يثأر لنفسه أيضاً؟ ولكنني لن أسمح له بتحقيق غايته، وسيدرك قريباً فداحة الخطأ الذي ارتكبه .إلا أنني وحتى لا أزيد من توتر الموقف سألته:

-ما الذي ستفعله بالصندوق؟ —قلتها وقد خففت من حدة صوتي — إنه من حقي، فهو يحوي أرشيف والدي.

عاد يرفع سلاحه، ويلوح به في وجهي باستخفاف.

-هو والدي أيضاً، وذلك الأرشيف يخصني كما يخصك.

-دعك من هذه الألاعيب، فأنا أعلم جيداً أنك غير مهتم بأرشيف والدي على الإطلاق.

-ولما تعتقد ذلك؟ ألأن المرحوم قام بطردي من المنزل؟

توقف عن السخرية، وتغضن وجهه قليلاً.

-أنت مخطئ، فوالدي لم يقم بطردك من المنزل.

-صحيح، فقد قام بما هو أسوأ من الطرد —وحدق في وجهي غاضباً— لم أكن سوى طفل صغير، ولكن تصرفاتك أنت ووالدك كانت أسوأ من الضرب، وكلما جلست إلى تلك المائدة كنت أشعر بأنني أزداد مهانة.

كان محقاً في جزء مما يقوله، وحتى لو كان قد تحول إلى مجرم أو وحش، لكن كلماته جعلتني أشعر بعار خفي.

-أعتذر إن كنا قد أسأنا إليك —قلت —ولكنني أنا أيضاً كنت طفلاً حينها.

-اعتذار لن يفيدني في شيء .على أي حال، دعنا نعد إلى موضوعنا.

-كف عن المحاولة، فلن أعطيك ذلك الصندوق.

أمال رأسه قليلاً، وهو يرمقني بنظرة ساخرة.

-غريب !أي شجاعة هبطت عليك فجأة؟

-لا علاقة للشجاعة بالأمر، ولكن محتويات الصندوق تحمل قيمة كبيرة بالنسبة إليّ.

-وتحمل ذات القيمة بالنسبة إلي أيضاً، فأنا مغرم بكل المنتوجات الأمريكية.

-كف عن السخرية.

-ومن قال إنني أسخر؟ —عادت إليه جديته —هيا توقف عن المراوغة وقل أين هو.

-في البداية عليك أن تخبرني لما أنت مهتم به إلى هذا الحد؟

ضحك فجأة وهو ينظر إلي.

-أوووو .وأخيراً استطعت أن أوقظ فضولك.

-هناك ملفات مهمة في الصندوق أليس كذلك؟ —واصلت دور الغبي، ومنحته فرصة سرد القصة.

-فيه أهم الوثائق التي في العالم —قالها وقد أضاءت عيناه فرحاً —إنها وثائق يحارب الجميع للحصول عليها .أوراق نقدية خضراء يمكن أن تفتح جميع الأبواب المقفلة، في كل مكان في العالم .هناك خمسة ملايين دولار ترقد في قعر الصندوق.

-خمسة ملايين دولار؟!

-أجل، خمسة ملايين دولار بالتمام والكمال.

-إذاً فهذا هو سبب جرائمك، وقتلك كل هؤلاء الناس؟ —تمتمت —لقد قتلتهم من أجل هذه النقود أليس كذلك؟

اختفى بريق عينيه، وتغضن وجهه في كدر واضح؟

-لا، لم أفعل ذلك من أجل النقود، بل من أجل النجاة بنفسي، حتى لا أتعرض لخيبات وخيانات جديدة، وأنحدر نحو القاع كما في كل مرة .لو لم يقوموا بالتآمر عليّ، لما حاولت القيام بأي شيء .ولكنهم بدأوا بالتحالف ضدي، وأخذوا يحفرون قبري.

-تعني يالفاج وغونغور؟

-وبكير ورفعت، الكل كان متفقاً على التخلص مني.

حينها تذكرت ما قاله مفيد عن أن دوغان يعاني من الرُهاب.

-هل أنت متأكد؟ —سألته —أعني لما سيحاولون قتلك؟

نظر إليّ مستخفاً، وكأنه يقول لي يا لك من أبله.

-من الواضح أنك لا تعلم كيف تجري الأمور في عالمنا، فهؤلاء الأشخاص قاموا بخداعي أنا وأصدقائي ثلاث مرات، وأوقعوا بنا.

-عمن تتحدث؟

-عن الشرطة والاستخبارات والجيش .مجموعة من رجال الدولة .لقد قاموا بخداعنا ثلاث مرات .المرة الأولى كانت قبل الانقلاب العسكري، حيث استخدمونا كأداة للتخلص من الشيوعيين، ورغم ذلك لم نكن نمانع، فهذا بلدنا، وكنا مستعدين للتضحية لأجله .كل ما كنا نطلبه في المقابل أن يكونوا صادقين معنا، وألا يخدعونا، إلا أنهم وبعد الانقلاب، تنكروا لجميع وعودهم، ووضعونا في ذات الكفة مع الشيوعيين، وقاموا بملاحقتنا واعتقالنا، ووضعنا في ذات السجون التي يقبع فيها الشيوعيون، ووصل بهم الأمر إلى إعدام الكثير من زملائنا، وعاملونا وكأننا مجرد خونة .بعد عدة سنوات عادوا إلينا طالبين مساعدتنا، من أجل محاربة منظمة ASAL، فوافقنا على الفور، لأننا نعتبر الأمر خدمة لوطننا وشعبنا، ولكننا وضعنا بعض الشروط .وبفضلنا تم القضاء على المنظمة وخطرها، ولكنهم على الفور انقلبوا علينا، وحنثوا بوعودهم، ولم يلتزموا بأي شيء مما قالوه .عاد الزمن للدوران، وعادوا يطرقون بابنا يعلنون حاجتهم لقوتنا وخبرتنا وأسلحتنا، من أجل محاربة منظمة الـ PKK. وعدنا لقبول العرض، ونحن نحاول إقناع أنفسنا بأنهم أفضل ممن سبقهم، وسيفون بوعودهم هذه المرة، وأنهم مدركين حقيقة الخدمات التي قدمنا لبلدنا .ووافقنا على مساعدتهم للمرة الثالثة .ولكنهم كما في المرات السابقة، قاموا بخداعنا، وحاولوا التخلص منا بكافة الوسائل، ولم تكن سوسرلوك حادثة عادية كما صوروا الأمر لكم، بل كانت إحدى محاولتهم للقضاء علينا.

سمعت هذه التبريرات والادعاءات من قبل، لذا لم أهتم بها كثيراً.

-ولكن لما تعتقد أن الكل كان متآمراً للتخلص منك وحدك؟ فلو أن الأمر كما تدعي لقامت الدولة بمحاولة التخلص من الفريق برمته.

بدأ يضحك بعصبية.

-لأنني كنت الحلقة الأضعف بينهم .فبكير كان زعيم عشيرة، قوياً ومحمياً من قبل الدولة .أما رفعت فلأنه كان في الجيش من قبلْ، فقد كانت علاقاته تمنحه الحصانة .ويالفاج وغونغور، فقد كانا من ضمن قوى الأمن .أما أنا فلم أكن أملك مقومات الحماية مثلهم، ولأنني تعرضت للخيانة من قبل، فقد توقعت تكرارها .ولأنهم يدركون أن التخلص مني سيسهل مهمة تشتيت الفريق، لذا فقد وقع الاختيار عليّ.

-كل ما تقوله مجرد احتمالات —قلت —ألا يمكن أن تكون مخطئاً؟

-لا، فقد حصلت أمور أخرى، أكدت شكوكي؛ حيث حدثت تغيرات في بنية الفريق الذي كنا نشكله .فقبلاً كانت علاقتنا مكشوفة مع من يترأسنا، وكنا نعلم من يكون، ولكنهم أخذوا يخفون حقيقة هويته فيما بعد .وبدأ يالفاج يحدثنا عن شخص لقبه الضباط.

حين عدت لسماع هذا الاسم المشؤوم، هز الذعر كل كياني، فقد كنت أظنه خدعة أخرى من دوغان، ولكنه يؤكد لي الآن أن لا علاقة له بهذه الشخصية، ولكن كان عليّ التأكد أكثر.

-ولكن لقبك أيضاً كان الضابط.

بدأ يضحك مقهقهاً.

-كان ذلك منذ زمن بعيد، مجرد حماقة من حماقات الشباب.

-وهل تمكنت من رؤية هذه المدعو بالضابط؟

-لا لم أره ولا أعرف هويته الحقيقية، وهذا ليس بأمر ذي أهمية .ولكن ما أثار شكوكي أنّنا كنا في الماضي نتعامل بشكل مكشوف مع بعضنا، أما حين بدأ أحدهم بالعمل من خلف ستار، فكان من الواضح أن التصفيات قد باتت قريبة.

كان عليّ معرفة المزيد من التفاصيل.

-ربما تبالغ بعض الشيء، وما تقوله هو مجرد إجراء روتيني لضمان الحماية.

-لو لم يأت إليّ رضا، ويحدثني بما حصل بعد ذلك، لربما فكّرت مثلك، وتغاضيت عن الأمر، ولكنه أبلغني أنهم قاموا باستدعائه، وطلبوا منه رصد تحركاتي والتجسس عليّ لصالحهم .وأخبروه بأنه يعمل لصالحهم لا لصالحي أنا .حين أطلعني على الأمر، أدركت أنهم يخططون للإيقاع بي، والتخلص مني.

-وقمت بدورك، بتدبير خطة للتخلص منهم.

-وما الذي كنت تتوقعه؟ أأنتظر أن يقوموا بقتلي؟ لو لم أبادر بالتحرك، لكنت الآن بالفعل راقداً في ذلك القبر .لذا أخذت أفكر في خطة للنجاة، كان الهرب حلاً مؤقتاً لأنهم لن يدعوني وشأني، كما أنني كنت بحاجة للنقود من أجل الهرب، لذا بدأت أفكر بالتخلص منهم جميعاً، ووضعت خطتي على هذا الأساس.

-ولا بد أنك استعنت بخبرتك التي اكتسبتها من التعامل مع الاستخبارات الأجنبية، أليس كذلك؟

نظر إليّ لبرهة، ظننت أنه سيغضب فيها، ولكنه لم يفعل.

-لقد بذلت كل ما بوسعي –اكتفى بهذا التوضيح –على أي حال، حين أصبحت الخطة جاهزة، بدأت بانتظار الوقت المناسب لتطبيقها، وكان أصعب ما في الأمر هو ذلك الانتظار، ففي كل اجتماع أو لقاء مع بقية أفراد الفريق، كان الخوف يعصف بي، وأنا أفكر في احتمال أن يكون الأمر فخاً للتخلص مني .وبعد ستة أشهر جاءت اللحظة المناسبة، وأصبحت الظروف مواتية للتطبيق .ففي سنوات محاربتنا لمنظمة الـ PKK، قمنا بتقويض تجارة الكثير من الكورد الموالين لهم ممن يعملون في تجارة المخدرات، وكان الأمر لصالح عائلة بينجي أوغلو الذين ضاعفوا أرباحهم بصورة خيالية، وقد حان الوقت لتقليص قوتهم .فقرر الفريق طلب خمسة ملايين دولار منهم، وكنت أنا المكلف بالتحدث إليهم .فقابلت الأب العجوز، وحين رفض أن يدفع النقود، قمنا باستضافة ابنه لدينا مدة ثلاثة أيام، فانتابه الذعر ووافق على منحنا ما نريد .كان عليّ أخذ النقود، واللقاء ببقية أعضاء الفريق في منزل بكير، ولكنني قمت بخداعهم، وأخبرتهم أن التسليم سيتم بعد يوم، من الموعد الحقيقي .وبهذه الطريقة تمكنت وبمساعدة رضا، من التخلص من رفعت .وفي يوم الموعد المفترض، ذهبت إلى منزل بكير قبل الوقت بساعتين، ولكنني وجدت عشيقته هناك، وكنت مضطراً لقتلها معه .كانت الأمور تسير على خير ما يرام، ولكن توجب عليّ خلق بعض التشويش والبلبلة، وإلا سيكتشف بقية أفراد الفريق اللعبة، وحينها لن أسلم من انتقامهم مهما حاولت .لذا اتصلت بالشرطة دون أن أكشف عن شخصيتي، مدعياً أن عائلة بينجي أوغلو هم من قتلوا رفاقنا، وأننا سننتقم منهم بكل تأكيد .وبالفعل فقد اختلطت الأوراق، وتكالبت الصحف على ما قلته، وأخذت تنشره وتهول من الأمر أكثر، حينها قررت الانسحاب .وقد صُدم يالفاج وغونغور من قتل أعضاء الفريق الواحد تلو الآخر، وشكوا في تورط عائلة بينجي أوغلو، وحين قاموا باستدعاء زعمائهم، والتحقيق معهم تبين أنني استلمت منهم النقود، فأخذت الشكوك تتجه نحوي .ولأنني كنت متيقناً أن هذا ما سيحصل، قمت بالتواصل معك.

-ولكنني كنت جزءاً من خطتك منذ اللحظة الأولى، أليس كذلك؟

بدا رائق المزاج.

-أهنئك —قال —فقد كنت في بالي منذ أن بدأت بالتخطيط للأمر، وكنت أعلم أنك الورقة الرابحة التي ستنفذ كل خططي، وتساعدني على الخلاص، ولم يخب ظني .فرغم أنك حاولت جاهداً عدم التورط في الأمر، لكنني قمت بمحاصرتك بطريقة لم تسمح لك سوى بالإذعان لما أريده .إلا أن المسكين عارف هو من دفع الثمن من دون سبب.

حين ذكر اسم عارف، عدت للواقع ورددت في سري بأنك ستنال عقابك عما قريب أيها الوغد.

-فأنت من قام بقتله إذاً؟

لم يبدُ عليه أي ندم أو شعور بالذنب وهو يوضح لي:

-كان هذا بسببك، فلو وافقت على تنفيذ المهمة منذ البداية، لما اضطررت لقتله .ولكنك حين اخترت الحياد، أجبرت على التخلص منه، وقتله.

-إذاً فقد قتلته بسببي —دمدمت بألم —ولمن الجسد الذي وجد محترقاً في السيارة؟

-كان لرضا، فليتغمده الله برحمته.

-قتلته هو أيضاً؟

-لم يكن لديّ خيار آخر، كنت مجبراً على قتله، ولم أضيع وقتي في التأسف عليه .فقد كان مقدراً له أن يموت .ولا أنكر أنه ساعدني في التخلص من بكير ورفعت، ولكنه لم يفعل ذلك حباً بي، أو إخلاصاً لي، بل من أجل المليون

دولار التي وعدته به .والأهم أنني لم أكن أثق به، وكنت بحاجة إلى جثة من أجل عملية السيارة.

وأخيراً عاد بنا الحديث عن هذا الموضوع الذي يشغل بالي منذ أيام .فلم أتمكن من حبس فضولي أكثر، وبادرت بالسؤال.

-كل هذا يبدو مفهوماً، ولكن ماذا عن تحليل الـ (DNA)، كيف استطعت التلاعب بالنتيجة لصالحك؟

ضحك مبتهجاً، وهو يوضح:

-الأمر في غاية البساطة، فقد بدلت بين رفاة والدتي، ووالدة رضا التي توفيت منذ سنة .وحين أخذت الشرطة العينة من جسد والدته، كانت النتيجة مطابقة لعينة المأخوذة من الجثة المحترقة.

عندها تذكرت ما قاله مسؤول المقبرة، حين ذهبنا لفتح القبر، من أن دوغان قام بترميم قبر والدته، وقبر والدة أحد أصدقائه أيضاً .إذاً فقد قام بعملية التبديل في ذلك الحين.

-ولكن عليّ الاعتراف أن لك الفضل الأعظم في تنفيذ الخطة، فلولاك لما كنت سأقدر على تحريض صلاح الدين ليقوم بقتل يالفاج وغونغور، ولما تمكنت من خداع الرأي العام، وإظهار الأمر وكأنه قضية لها أبعاد سياسية، وترتبط بتحقيق العدالة والديمقراطية .رغم أن المسكين رسول المجذوب قد خلط الأوراق ببعضها في آخر لحظة، حين أعاد الصندوق إليك، ولكنك عدت لتساعدني بصورة غير مباشرة، فبفضل تلكؤك واستهتارك، تغاضيت على فتح الصندوق البارحة مساءً. وإلا لكنت الآن قد عدت بعد كل هذا الجهد بخفي حنين.

-ما الذي حصل لرسول؟ هل قمت بقتله هو الآخر؟

شعرت أن الأسى ظهر على وجهه للمرة الأولى، ولكنه لم يدم طويلاً، وعاد يبرر جرائمه بذات الوقاحة.

– لم يمكن بوسعي فعل شيء آخر، كما أن رسول كان راغباً في الموت. وكان شخصاً ضعيفاً جداً، فحين كنا شباناً حاول التشبه بي، وأظهر للآخرين أنه قوي الشخصية، ولكنه انهار منذ أول أمر جدي، وأصابه الجنون .ألم ترى كيف علّق صورة الشاب الذي قمنا بقتله في منزله؟

ربما برر جرائمه الأخرى بحجة المنفعة أو الضرورة ولكن كيف يستطيع تبرير قتله لأقرب أصدقائه؟ أي وحش يعيش في داخل هذا الرجل؟ بدأت أرمقه بحنق وتقزز واضحين.

–لا تنظر إليّ هكذا —فنحن شركاء في كل ما حصل، ومسؤوليتك عما حصل لا تقل عن مسؤوليتي.

رغم أنّه كان يحمل المسدس في يده، ولكنني بالكاد استطعت كبح رغبتي في تمزيق وجهه.

–أنا لست مسؤولاً عن أي شيء —صرخت محتداً.

–كيف تقول ذلك؟ أنسيت يالفاج وغونغور وصلاح الدين ورمزي والشاب الآخر من العشيرة؟ ألم تقم أنت بإرسالهم جميعاً للموت؟

بدأ الدم يغلي في عروقي.

–أنا لم أتقصد إيذاء أي أحد، وكل ما حصل كان بسبب مؤامرتك القذرة، لقد تلاعبت بي، وجعلتني جزءاً من مخططك الجهنمي .وكل ما حصل كان بسببك أنت، لأنك مجرم وضيع، وكاذب عديم الشرف .وغد لا يكن الاحترام حتى لرفاة والدته، ولا يتوانى عن فتح قبرها لتحقيق مآربه .ولقد وصلت بك القسوة لحد

قتل أقرب أصدقائك بيديك.

كان يسمعني دون أن يبدي أي غضب.

-كل ما تقوله مجرد ترهات لا قيمة لها .الدولة والأصدقاء والمنظمات. كلها لا تساوي شيئاً .فالإنسان وحيد، يأتي وحيداً إلى العالم، ويغادره وحيداً، لذا علينا أن نتحلى بالقوة .فالشخص الضعيف لا يساوي شيئاً، وسيتم سحقه من قبل عجلة المجتمع .ولا فرق بين إنسان أو حيوان، جبل أو نهر، فهذا قانون الطبيعة، البقاء للأقوى .حتى الله يحب الأقوياء، وإلا لما يسمح بفوزهم دائماً؟ ولم أتعلم هذا القانون من الكتب بل من الحياة، من الشارع، من أصدقائي الذين كانوا يدسون لي السم في العسل، من السجون التي قبعت في ظلمتها، من أولئك الذين كانوا لا يتوانون عن تقبيل قدمي حتى أعفو عنهم ولا أقتلهم، رغم أنهم كانوا يحتلون أقوى المراكز، ولكن نفوسهم كانت ضعيفة .من بريق الحياة قبل أن يخبو في العيون .أجل أنا مجرم، قمت بالكثير، ودفعت الثمن كثيراً، ولكنني تعلمت قانون الحياة .وفي المقابل أنت لست مجرماً، ولست شريراً، دعك من فتح قبر والدتك، فأنت لا تستطيع النظر إلى رفاة والدتك لأنك شخص عاطفي وحساس .ولكن ما الذي تعلمته من الحياة؟ ماذا حققت؟ ألا ترى ما وصلت إليه؟ إنك في وضع مزر يا رجل، فقدت قدرتك على مواصلة العمل، والنجاح الذي حققته مؤخراً كان بفضلي .زوجتك لديها عشيق، وابنك لا يعيش معك .أهذا ما تسميه حياة نبيلة، ومشاعر وإنسانية، وما إلى ذلك من ترهات؟ صدقني كلها سفاسف لا قيمة لها في لحظة الحقيقة.

بدا غاضباً جداً، ولكن ليس هذا ما أثار مخاوفي، بل عدم ظهور مفيد حتى الآن .فقد اعترف دوغان بكل شيء، وفسر جميع مكائده وألاعيبه، فما الذي ينتظره بعدْ ليخرج، وينقضّ عليه؟

-وكما قال أحدهم، الحضارة ليست سوى وحش ما زال يملك أنياباً

خفية، تظهر وقت الحاجة .والذكي هو من يمنع هذا الوحش من التهامه .ولا يهم في أي عصر أو حضارة تنتمي، فوحده القوي هو من يبقى .والقوة تحتاج الذكاء والدهاء، الجرأة والشجاع، وأعصاباً أقوى من الحديد.

امتعضت من امتداحه لرذائله على هذا النحو، فبادرت بالقول لإثارة حنقه:

-ولكن خطتك لم تكن بهذا الكمال الذي تدعيه، فقد سلمني رسول النقود بكل يسر وسهولة.

-لأنّ أحدهم قام بقتل أبراهام إفرييل —قال وقد بدا عليه الضيق— وبالتأكيد أن هذا الوغد المدعو بالضابط، هو من قام بقتله .فقد كنت أنوي أن أحوّل النقود للخارج، ولأنه كان يعلم بأنني قمت بالأمر من قبل بذات الطريقة، فقد خمن ما سأفعله .وقام بقتل العجوز المسكين .وحين اتصلت به في فندق البيت الأخضر مرتين، ولم أجده هناك، أدركت ما آل إليه مصيره .ولهذا السبب أبقيت الصندوق عند رسول، وانتظرت كل هذا الوقت، بينما كنت قد خططت للهرب وأخذ النقود قبل الجنازة بوقت طويل .ولم يخطر لي أن ابن أخيه الأحمق سيذيع خبر موتي في القرية كلها.

أدركت حينها أنني كنت محقاً في ظني بأن مقتل أبراهام متعلق بدوغان بطريقة ما، ولكن مفيد الذي كان ما زال يعمل على الجريمة، سمع كل ما يريده من حقائق، فلما لم يخرج حتى الآن؟

-كما أنه لا توجد خطة كاملة، بل يوجد مُخطِط كامل .فكل خطة معرضة لظهور الخلل والعثرات فيها، ولكن ذكاء من وضعها، سيجعله يظهر في الوقت المناسب لإعادة الأمور لمسارها الصحيح، كما أفعل أنا الآن.

عادت تلك الابتسامة الوقحة المتبجحة لتغطي وجهي وهو يرمقني لبرهة

من الوقت قبل أن يردف:

-أخي المسكين —وأردف بسخرية – ليتني كنت أستطيع مساعدتك.

وحين بقيت محافظاً على صمتي، عاد يصوب المسدس نحوي.

-لا تجبرني على قتل أخي.

كانت اللحظة المناسبة لظهور مفيد.

-أنت لست أخي —قلتها صارخاً حتى يدرك مفيد أن الوقت قد حان ليخرج، وقد استاء دوغان من حدتي.

-لا تصرخ، فلا فائدة من الأمر.

وعلت شفتيه ابتسامة وحشية ماكرة.

-ما كان عليّ المجيء —وكنت أريد التحقق إن كان ينوي قتلي.

-هذا ما كان عليك فعله بكل تأكيد —قال، وأظنه كان يعني بأنه مجبر على قتلي —ولكن بما أنك قد أتيت، فأخبرني بمكان الصندوق، ودعنا ننتهي من الأمر.

كان انتهاءِ الأمر يقتضي خروج مفيد، ولكن الوغد ظل قابعاً هناك لسبب لا أعلمه.

-هيا تكلم —ألح دوغان —أين الصندوق؟

لو أخبرته بأنه ما زال في السيارة، فلن يتوانى عن إطلاق رصاصة على رأسي ويأخذ المفاتيح، ولكنني في المقابل كنت أعلم بأنني لم أعد قادراً على إلهائه أكثر.

-تعال لأريك مكانه –قلت وأنا أنهض.

-على رسلك –حذرني –لا تتحرك بشكل مفاجئ.

نهض بدوره، دون أن يرفع عينيه عني، واتجهنا نحو المطبخ، ورغم أنني لم أكن أعلم ما عليّ فعله على وجه التحديد، لكنني بتّ مجبراً على تحذير مفيد بأي طريقة، وإلا فسيقتلني دوغان من دون أن يرفّ له جفن.

-إذاً فقد وضعت الصندوق هناك؟ –كنت أحاول الإسراع.

-لا تسرع –قالها وقد لحق بي على الفور، واتجهنا نحو المطبخ، خطوات بضع خطوات أخرى، وكان يتبعني فيما أنتظر خروج مفيد .جال بنظراته على الخزائن وهو يقول:

-أين خبأت ذلك الصندوق الضخم؟ –سألني.

وقفت عاجزاً في وسط المطبخ، لا أدري ما سيؤول إليه مصيري، فيما كان يقف هو خلفي، وقد صوب سلاحه نحوي .وبدأ بالتململ.

-هيا تكلم، أين خبأت الصندوق؟ –قالها وهو ينكزني بفوهة المسدس في ظهري بقوة.

-هناك –أشرت بيدي نحو الخزانة التي يختبأ مفيد خلفها .حين اتجه نحو المكان، اندفعت نحوه لأسقط المسدس من يده، ولكنه انتبه إلى حركتي، وأسرع بالتراجع برشاقة حتى أنني لم أتمكن من لمس ذراعه، وعلى الفور ضربني على رأسي بأخمص المسدس، ففقدت توازني وأنا أشعر بألم شديد، وسقطت أرضاً .وفيما أحاول تمالك نفسي سمعت صوتاً أشبه بفتح غطاء قنينة شراب، وفي اللحظة ذاتها شعرت بألم حارق يخترق ذراعي الأيسر كسوط من النار .حين رفعت رأسي رأيت دوغان ينظر إلي بقسوة بالغة.

-لقد حذرتك —قال —لا تحاول خداعي.

لم أدرك ما حصل تماماً، إلا حين شاهدت البقعة القاتمة على معطفي، وعرفت أنني أنزف .إذاً فقد أطلق عليّ النار بالفعل.

-لقد أُصبت .أطلقتَ النار عليّ —صرخت .لقد وقع المحظور ولا بد لمفيد أن يدرك ما حصل ويخرج لنجدتي .ولكن الحقير لم يبد ما يشير إلى نيته بالخروج .كما أن دوغان بدأ يشعر بوجود أمر مريب.

-ما الذي تحاول فعله؟ —صرخ محتداً، ولكنه لم يكن ينظر إليّ، بل يجيل نظراته فيما حوله، وقد صوب مسدسه نحو الفراغ، متوقعاً حدوث أمر ما في أي لحظة .وعاد للصراخ —هيا تكلم، قل ما الذي تنوي فعله؟ تكلم وإلا ستستقر الرصاصة الثانية في رأسك.

كنت مصاباً، وخائفاً، وعاجزاً عن فعل شيء سوى تثبيت نظراتي على الخزانة، ولم يتأخر دوغان في ملاحظة الأمر.

-ما بك؟ ماذا يوجد في الخزانة؟ —سألني، وقد زاد غضبه.

-هناك —لم أتمكن من مواصلة الكلام، فقد كان الألم رهيباً —هناك.

-ماذا يوجد هناك؟ —قال.

وللحظة قصيرة جداً اتجه بنظراته نحوي، وحينها أطلق مفيد عليه النار، واستقرت الرصاصة في صدر دوغان، ورأيت أخي وهو يسقط أرضاً .وفيما يسقط أطلق النار باتجاه الخزانة، ولكن مفيد وبسرعة فائقة خرج من مخبئه، وأطلق على الفور رصاصة أخرى على دوغان .وخوفاً من استمرار الاشتباك، أخفضت رأسي، وأنا أحميه بذراعي السليمة، ولكن مخاوفي لم تتحقق .حين رفعت نظري مجدداً، كان دوغان راقداً على الأرض، وقد وضع يديه الاثنتين على صدره، وكان الدم يتدفق

من بين أصابعه، ليشكل بقعة قاتمة على قميصه الأزرق .انحنى مفيد وأخذ مسدسه وهو يقف في ذات المكان الذي كان دوغان واقفاً فيه .حين رآه دوغان بدت عليه الدهشة للحظات.

-أهلاً —تمتم —أهلاً مفيد —ورغم أنه كان يكابد الألم، لكن السخرية كانت تنضح من صوته —إذاً فأنت من كان يترأس الفريق؟

عادت كلماته لتأكد صحة شكوكي منذ البداية .نظرت في استغراب إلى مفيد الذي كان صامتاً كصخرة، كصياد ينظر إلى طريدته .اعترت دوغان نوبة سعال، وحين زالت عاد لمواصلة حديثه:

-الآن بدأت أفهم كل شيء —وأكمل —كيف تخفي عني أمراً بهذه الأهمية، بعد كل تلك العشرة الطويلة؟

كنت أمسك بذراعي، وأنا أراقب ما يجري، حتى أنني بدأت أنسى آلامي.

حين أدرك دوغان أن مفيد مصرّ على الصمت واصل حديثه:

-أول تدريب تلقيته كان على يد الضابط مفيد —اتجه نحوي —لقد كان هو معلمي.

أدركت سبب انتظار مفيد كل هذا الوقت، فقد كان يريد لدوغان أن يقتلني .ورغم ذلك وجدتني أسأل:

-ما الذي يعنيه كل هذا؟

نظر إليّ مفيد بذات نظرة الكراهية التي بدت على وجه دوغان قبل قليل، لكنه لم يكلف نفسه عناء التوضيح .فعاد دوغان للتحدث.

-ألم تفهم حتى الآن؟ —كان يكابد صعوبة في التكلم —ها هو الضابط

يقف أمامك الآن.

حينها عاد مفيد ليصوب سلاحه نحو دوغان، ودون أن يتفوه بكلمة واحدة، أطلق النار عليه .انتفض جسده المسجى على الأرض للحظات، ومن ثم خمد .لكزه مفيد بقدمه، ولكنه لم يبد أي حركة.

-حتى أنت كنت تتلاعب بي طوال هذا الوقت؟ —قلت.

بدا الامتعاض على وجهه وهو يتجاهل سؤالي.

-لقد مللت حماقاتهم —تذمر كراعٍ قتل الثعلب الذي كان يصطاد نعاجه —لقد كانوا يلحقون الأذى بكل ما حولهم .ولا يفعلون شيئاً سوى وضع العصي في عجلة الحياة.

لم أحدد بالضبط إن كان يحدثني، أم يفكر بصوت مسموع، ولكنني بقيت ألح عليه بالسؤال.

- لم تكن مقتنعاً منذ البداية بموت دوغان، أليس كذلك؟

التفت نحوي، وأخذ يرمقني، وأخيراً قرر التحدث.

-حين قتل عارف، اختلطت الأمور في ذهني، ولكن مع موت يالفاج وغونغور، بدأت أدرك ما الذي يجري .فكل الدلائل كانت تشير أن المستفيد الوحيد من كل ما حدث هو دوغان، واعتباراً من تلك اللحظة، اقتنعت أنه حي. وكان من الممكن أن تقودني نتيجة التحليل باتجاه خاطئ، لو أن أبراهام لم يعترف لي بأن دوغان أتصل به .واتفقا على اللقاء.

-ولكنك أخبرتني بالعكس.

-اعتقدت أنه لم يعد لك علاقة بالأمر.

- ولكن هناك أمراً لا أفهمه، لما ادعى كل من يالفاج وغونغور أنهما لا يثقان بك، بل ولمحا أنك قد تكون أحد أفراد العصبة، وبدورك صرّحت أنك لا تثق بهما؟

بدا للحظة أنه سيبتسم ولكنه غيّر رأيه.

-لأنك لو تمكنت من معرفة حقيقة أنهما كانا يعملان مع دوغان، ستلجأ إليّ حينها، والعكس كان وارداً بكل تأكيد، حيث كان من الممكن أن تشك بي، وتوليهما ثقتك .لذا ما كان يجب أن تعرف عن العلاقة التي تربطنا ببعض، لأن ذلك لم يكن لصالحنا أو لصالحك أنت أيضاً .فكلما كانت معلوماتك أقل، كان ذلك أفضل.

-ولكنني الآن بتّ أعرف الكثير.

-هذا من سوء حظك —قالها، وهو يتجنب النظر إليّ.

-هل ستقتلني من أجل خمسة ملايين دولار؟

-المسألة لا علاقة لها بهذه الدولارات.

-أتعني أنك لن تضع تلك النقود في جيبك؟

رمقني باستخفاف قبل أن يوضح.

-أنتم الصحفيون تشغلون نفسكم على الدوام بالتفاصيل .فحين تنظرون إلى الغابة، لا تلتفت أنظاركم سوى شجرة واحدة منها .لذا فأنتم لن تعرفوا ما هو حب الوطن الحقيقي .فالخدمات التي قدمتها لهذا البلد، لا يمكن أن تقدر بأي ثمن.

-أتعني أن قتل الناس، وأخذ الإتاوات من تجار المخدرات، هو حب الوطن؟

-ومن قال لك إنني سأحتفظ بهذه النقود لنفسي؟

-لا أعلم —وابتسمت رغماً عن ألمي ويأسي والخوف الذي يعصف بي —وأظنني لن أعلم مطلقاً.

أدرك ما أرمي إليه.

-لم أكن راغباً في حصول ذلك —أكّد ما كنت أفكر فيه، وقد ارتسم أسى حقيقي على وجهه —وإن شئت فقد بدأت أحبك، فلامبالاتك وعدم اكتراثك بما يجري كان يروق لي .وحتى في أحلك الظروف كنت قادراً على مواصلة السخرية .وأنا أحب هذا النوع من البشر.

-ورغم ذلك ستقتلني.

-وهل من حل آخر؟ —سألني، وكأنني إن أخبرته بالحل سيتركني وشأني.

-لا أظن —قلتها، ولكنني لم أتمكن من تقبل فكرة موتي بعد لحظات.

كان الألم في ذراعي يزداد حدة، وقد تغضن وجهي ألماً .وحين أدرك مفيد أنني أتألم، أعاد مسدسه إلى قرابه، وصوب مسدس دوغان نحوي .إذاً فسيقتلني به، ويدعي أن دوغان قام بقتلي، لذا كان مضطراً لقتله .وفيما ينظر إليّ رأيت غير مصدقٍ الشفقة في عينيه وهو يرمقني، وأوضح لي مواسياً بصوت حزين.

-لا تخشى شيئاً، فلن تشعر بألم كبير، سينتهي كل شيء في برهة وجيزة.

حينها شعرت برعب حقيقي، فهو ينوي قتلي بالفعل .جال في خاطري أن أرجوه وأقبل قدميه حتى يتركني، ولكن ما منعني لم يكن كبريائي، بل عقلي .فقد كنت متيقناً، أنني حتى لو رجوته باكياً، ومتوسلاً، وقبّلت الأرض تحت قدميه، لن يغير رأيه، لأنه كان مجبراً على قتلي .وربما كان كلامه صحيحاً، فموتي السريع

سيخلصني من الألم والخوف وعذاب التفكير .اتجهت نظراتي نحوه، وأنا أحمّلها كل الشجاعة التي تبقت لدي .كان يصوب المسدس نحو رأسي تماماً، وقد وضع يده على الزناد، الذي سيضغطه في أي لحظة. لم أعد قادراً على رؤية المزيد، فأغلقت عينيّ، وبقيت أتوقع سماع تلك التكة التي تشبه صوت خروج قطعة الفلين من زجاجة الشراب، وأدركت لما كانت فوندا تخشى هذا الصوت .حينها خطر لي، بأنني لن أعود قادراً على رؤيتها أو رؤية ابني، فلفّ قلبي حزن عميق .لا، لا يجب أن ينتهي الأمر على هذا النحو، سأرجوه وأعده بأنني لن أخبر أحداً، وأنني لن أكتب حرفاً عما حدث هنا، لكي يدعني، ويتوقف عن محاولة قتلي .أجل سأفعل ذلك .وقبل أن أفتح عيني، سمعت صوت إطلاق رصاصتين .جحظت عيناي هلعاً، وأنا أرى مفيد يترنح ليسقط منهاراً فوقي، وقد اتسعت عيناه دهشة، وكأنه يسألني عما حدث .وقبل أن يتمكن من المعرفة خرّ صريعاً، وقد فارقته الحياة .اتجهت نحو دوغان، فرأيت ذلك التعبير القاسي في عينيه، وهو يقول:

-يبدو أن الضابط مفيد قد شاخ —وأخذ يلوح بالمسدس الذي في يده وهو يقترب مني، هو يواصل بصعوبة وأنفاس لاهثة —فقد ضعفت ذاكرته ونسي ما كان يقوله لنا عن ضرورة حمل سلاحين على الدوام، لأننا لن نعرف ما ينتظرنا — وفيما يزحف كان يترك ورائه شريطاً من الدماء على أرضية المطبخ .ولكن لما كان يقترب مني؟

-الفيلة —قالها وقد تقطعت أنفاسه —حين تشيخ الفيلة، تعلم أن موتها قد حان —كان يتنفس بصعوبة بالغة، ولكنه يواصل الزحف نحوي —ولكن البشر. ليسوا بذكاء الفيلة.

بدأ يكابد صعوبة أكبر في التحرك، وأخذت المسافة بيننا تتقلص .توقف لبرهة.

-الضابط كان يجب .كان يجب أن يقتل نفسه .كان عليه الانتحار منذ

وقت طويل.

بالكاد كان يستطيع إبقاء عينيه مفتوحتين، وهو يحاول رفع رأسه قليلاً. وواصل الزحف ببطء، ولم يفصلنا سوى متر واحد على وجه التقريب .حاول أن يبقي رأسه مرفوعاً، وهو يوجه المسدس نحوي، ولكن صورته أخذت تغيم، وبدأت الأشياء تغرق في الظلام للحظة ومن ثم عادت لتتضح رويداً رويداً.

-هل ما زلت تحاول قتلي؟ —سألت

-لما لا؟ —كانت الحروف تخرج من فهمه بصعوبة —ما الذي تغير؟

-أنت على وشك الموت.

حاول الابتسام فلم يقدر، وأخذ يتحدث بصوت أقرب للهمس:

-وأنت يجب —قالها وهو يصوب المسدس نحوي، من خلال عينيه نصف المفتوحتين، وقد بدت الكراهية واضحة فيهما .فكرت للحظة أنه سيغير رأيه، ولكنه ضغط على الزناد، فأغمضت عيني، وحاولت سحب رأسي وكأنني أستطيع إخفائه. كنت أنتظر أن يتحطم رأسي وأن أكابد الألم، ويضيع كل شيء وسط ظلام الموت .ولكن ذلك لم يحصل .بدأت أراقب جسدي بانتباه، فلم أشعر بأي ألم آخر سوى الألم الحاد في ذراعي .فخطر لي أنني تمكنت من النجاة، وحين فتحت عيني مجدداً أدركت أنني مخطئ، فقد ظل دوغان يصوب المسدس نحوي

-مت .مت —كان يردد.

وظننته سيطلق النار، ولكنه لم يفعل، فقد سقط المسدس من يده، ومن ثم سقط رأسه .هل مات حقاً؟ حاولت سحب قدمي من تحت جثة مفيد والنهوض، من أجل أخذ المسدس، فربما فقد الوعي لا أكثر .حاولت التمسك بالجدار والنهوض، لكن الدوار عاد أكثر قوة، وشعرت بأن أحدهم بدأ بسحب الأرض من

تحت قدمي، ولم أقدر على البقاء واقفاً .ووجدت نفسي أغرق في الظلام.

لا أعلم كم بقيت هناك، ولكنني سمعت صوتاً.

-ما الذي حدث هنا؟ —كان صوت امرأة .بالكاد استطعت فتح عيني، فرأيت امرأة نحيلة، بشعر طويل واقفة بالباب، وهي تنظر إلى تلك الأجساد .يا إلهي إنها الخالة كريمان، كيف سأخبرها بموت دوغان؟ فقد تعتقد أنني أنا من قام بقتله.

-المكان غارق بالدماء —قالت —كيف سأتمكن من تنظيفه؟

لم تكن تنظر إلي، ولكنها بالتأكيد كانت تخاطبني .حاولت أو أوضح الأمر، لكنني لم أستطع .واقتربت بحذر كيف لا تطأ بقع الدماء .والغريب أنها لم تنظر إلى دوغان أو مفيد، واتجهت نحوي مباشرة .لا، ليست الخالة كريمان، فوجهها يشرق بالمحبة، وكانت ترمقني بحنان . لم أستطيع تخمين من تكون، ولكن وجهها بدا مألوفاً.

-ما الذي حدث لك يا بني؟ —سألت —وكيف تورطت مع هؤلاء الناس؟

كانت تقول لي يا بني، ولكنها كانت أصغر سناً مني .ولكن من تكون؟ حين اقتربت أكثر، شعرت بدفء جسدها، وأنفاسها العطرة.

-لقد كبرت منذ آخر مرة رأيتك فيها —خاطبتني، وفيما كانت تنظر إليّ رأيت الدموع تتراقص في عينيها .وحين أخذت تمسد شعري بحنو بالغ، أدركت من تكون؛ إنها أمي التي ماتت أثناء ولادتي .دققت النظر في وجهها، أجل كانت هي، وأخيراً ها قد التقينا .شعرت بنفسي تخلصت من كل الأهوال التي مررت بها، وأنا أرتمي في حضنها.

-أمي —وأخذت بالبكاء.

-لا تخف —قالتها وقد أمسكت يدي —لا تخف، فقد جئت لإنقاذك.

الفصل الأربعون

لكنهم لم يسمحوا لأمي بأن تنقذني، فقد أخذت الأصوات التي تصلني من مكان ما تفرق بيننا .وبدل أنفاسها العطرة، اجتاحت أنفي رائحة دواء نفّاذة. وبدأ ضوء حاد يحرق عيني؛ كانت الألوان تتغير، وقد فقدت دفئها، وحلّ مكانها بياض جليدي منفِر .كنت مدركاً أن أمي ستغادر من جديد .ستتركني مرة أخرى. لا، لا يجب أن تتركني هذه المرة .أمسكت يدها بقوة.

-لا تذهبي —تمتمت —لا تتركيني.

-انظروا، انظروا، لقد بدأت عيناه تتحركان —قال صوت ما .لكنه لم يكن صوت أمي، هل غادرت حقاً؟ ولكنني أشعر بأنها ما زالت تمسك بيدي. وحين فتحت عيني، لم أجد أمي، بل وجه ابني.

-بابا —قال أوموت —كيف حالك بابا؟

إذاً فقد ذهبت أمي، وتركتني مجدداً .اتجهت أنظاري نحو يدي، فوجدت ابني من يمسك بها .فعدت لأغلق عيني وأنا أشعر بالخيبة.

-بابا —ناداني أوموت، وكان صوته قلقاً يعتريه الخوف —بابا هل أنت بخير؟

لقد كان المسكين قلقاً عليّ، ولم أشأ أن أتركه يعاني أكثر، ففتحت عيني ببطء، وأنا أحاول الابتسام.

-أنا بخير يا بني —قلت .عندها رأيت فوندا التي تقف قرب أوموت، وهي ترمقني بقلق.

-مرحباً عدنان —قالتها، وكانت عيناها، كما عيني أمي تفيضان بالدمع. من الجميل أن أعرف أنها قلقة عليّ.

-أهلاً فوندا، كيف حالك؟

-أنا بخير، أخبرني كيف تشعر؟ هل تتألم؟

-لا، أنا لا أشعر بأي شيء.

-علمنا بالأمر صباح اليوم، فقد وصلنا البارحة مساء من باريس في وقت متأخر.

-كم مضى عليّ هنا؟ —سألت.

-منذ البارحة مساء —قال أوموت —لقد عثر عليك العم إرول وتولغا. فحين لم تتصل بهما، ذهبا إلى المنزل، وعثروا على جثة رجل يدعى مفيد، وجثة العم دوغان .وعلى مقدار كبير من النقود أيضاً، وعلى الفور قاموا بإسعافك، حيث أجرى لك الأطباء عملية جراحية.

خمنت مقدار الخوف الذي انتاب إرول وتولغا، والفرح الذي انتاب نصرت كفلجم، بعد أن أمسك مجدداً بصيد ثمين .وبدأت بالابتسام.

-حمداً لله على السلامة —وصلني صوت من الجهة المقابلة، وحين أدرت رأسي رأيت إتهم وهو يلوح بيده، وينظر إلي بابتسامة صادقة —لقد أسفت كثيراً حين سماعي بالأمر.

-شكراً لك —قلتها، وبادلته ذات الابتسامة الجميلة —شكراً

لاهتمامك.

لم أكن أتصنع هذه المرة، ولم تزعجني رؤيته .وهي علامة جيدة، تشير إلى أن وجوده في حياتنا لن يثير غيرتي، وحزني، وامتعاضي .إذاً فقد بدأت أعتاد الخسارة، وأتأقلم معها، وأستسيغها .هل بدأت باكتساب الحكمة؟ ربما، ولكنني بالفعل كنت مسروراً لأنني لم أعد أشعر بالغيرة على فوندا .ورغم أن والدتي رحلت، لكنني كنت فرحاً بعودتي للحياة .وصحيح أنني لم أكسب شيئاً من كل ما مررت به، ولكنني كنت سعيداً .وكما كان توفان يردد على الدوام» :ما الحياة سوى تعلم فن الخسارة.«

بحسب المعلومات التي تقدم بها بعض المواطنين ممن قاموا بمراجعة هيئتنا؛ فإن الأحداث التي بدأت في سبعينيات القرن الماضي، وصراع اليمين واليسار، كان بسبب بعض القوى التي في الدولة .وأنّ بعض المؤسسات الحكومية، كانت على علم بالوضع، وتحاول التحكم به .وأنّ السلاح الذي كان يُطلق في الصباح على اليساريين، كان يُطلق مساء على أنصار اليمين.

وقد دامت هذه الأحداث حتى الثاني عشر من أيلول عام ألف وتسعمئة وثمانين.

بالإضافة لذلك، فالوثائق والمعلومات التي قُدمت لهيئتنا تشير إلى أن بعض الجهات الحكومية، قامت باستخدام البعض ممن كان يطلق عليهم بالقوميين من أنصار اليمين، والذين كانوا مطلوبين للعدالة حينها، لتنفيذ عمليات داخل البعض وخارجها.

مقتطف من المجلد الثاني الصفحة .(380)

التقرير النهائي للجنة تقصي الحقائق.

في حادثة سوسورلوك، التابعة للبرلمان التركي،

والمعدة للنشر من قبل :والي أوزدمير.

Notes

[←1]

هي فضيحة تورّطت بها الحكومة التركية وقواتها المسلحة مع عدد من عصابات الجريمة المنظمة .ووقعت هذه الفضيحة أثناء ذروة النزاع التركي مع حزب العمال الكردستاني وذلك في أواسط التسعينيات من القرن الماضي .وظهرت الفضيحة للعيان بعد حادثة تحطم سيارة في الثالث من تشرين الثاني عام 1996، وذلك قرب بلدة سوسورلوك التي تقع بمحافظة بالكيسير وكان من ضحايا الحادث نائب مدير شرطة اسطنبول، وعضو برلمان تزعم قبيلة كردية قوية، وقائد منظمة الذئاب الغبرة وهو قاتل مأجور ومن المطلوبين على قائمة الشرطة الدولية الإنتربول.

[←2]

طراز من الموسيقى التركية، يمزج بين الموسيقى العربية والتركية.

[←3]

عبدي إيبيكجي صحفي وكاتب تركي، قُتل في شباط العام .1979

[←4]

الاستنباط النفسي أو تنميط الجاني هو طريقة التعرف على مرتكب الجريمة بناء على تحليل نوع الجريمة وطريقتها .يتم تحديد الجوانب المختلفة لشخصية المجرم من خلال خياراته قبل وأثناء وبعد وقوع الجريمة، ويتم

الجمع بين هذه المعلومات مع التفاصيل الأخرى ذات الصلة والأدلة المادية، ومن ثم مقارنتها بخصائص أنواع شخصية معروفة وعقليات شاذة مختلفة لتكوين وصف فعّال للجاني.

[←5]

الذئاب الغبر)الرمادية (لقب كان يطلق على أنصار اليمين القومي.

[←6]

الجميد هو مزيج اللبن الرائب والبرغل وبعض الخضار حيث يجفف تحت أشعة الشمس ومن ثم تتم إذابته لصنع الحساء.

[←7]

مدينة صغيرة بالقرب من مدينة إزمير.

[←8]

يتحدث الكاتب عن الصراعات التي عصفت في ستينيات القرن المنصرم بتركيا، والمواجهات الدامية بين أنصار اليسار من الشيوعيين، وأنصار اليمين من القوميين والإسلاميين والتي سبّبت كثيراً من القلاقل والاضطرابات والقتل المتبادل بين الطرفين، حتى وقوع الانقلاب العسكري في العام 1971.

[←9]

منظمة سرية تم تشكيلها في تركيا أثناء الحرب الباردة، في هيئة الأركان العامة، بالتعاون مع المخابرات الأمريكية ووكالة الاستخبارات المركزية ضمن التعاون القائم مع حلف شمال الأطلسي.

[←10]

هو اسم منظمة سرية أنشأها حلف الناتو في إيطاليا بعد الحرب العالمية الثانية ضد الشيوعيين في حدث غزو حلف وارسو لغرب أوروبا .كان غلاديو هو مجرّد جزء من سلسلة من العمليات الوطنية التي أسست عام 1948حيث عمل المشروع في كثير من بلدان الناتو أو حتى البلدان المحايدة.

[←11]

شبكة إرغينكون هي منظمة سرية يُرجّح أنها تأسست بهدف الحفاظ على علمانية الدولة التركية كما تدّعي، وقد ارتبط باسمها كثير من الاغتيالات والتفجيرات في عدد من المدن التركية.

[←12]

حزب توده جماعة من السياسيين في إيران أسسوا حزباً بهذا الاسم في العام 1941عقب عزل الشاه رضا بهلوي وقد أقام الحزب بمساعدة الاتحاد السوفياتي جمهورية مستقلة في عام .1945واستطاعت الحكومة الإيرانية أن تقضي على هذه الجمهورية بعد عام واحد .واستمر الحزب يعمل سراً رغم حظر نشاطه قانونياً.

[←13]

الكاتب يشير إلى الانقلاب العسكري الذي وقع العام 1971في 12 آذار، ويعد ثاني انقلاب عسكري في جمهورية تركيا، بعد أحد عشر عامًا من سابقه الذي حدث عام .1960وعُرف باسم »انقلاب المذكرة«، وهي مذكرة عسكرية أرسلها الجيش بدلاً من الدبابات، كما فعل في

الانقلاب السابق .ولقد جاء ذلك وسط تفاقم النزاع الداخلي ولكن في نهاية الأمر لم يحدث تغييرًا يذكر لإيقاف تلك الظاهرة.

[←14]

الجيش السري الأرمني لتحرير أرمينيا.

[←15]

هجوم تم تنفيذه في السابع من آب العام ألف وتسعمئة واثنين وثمانين من قبل منظمة ASALA في مطار إسانبوغا في أنقرة، وراح ضحيته تسعة أشخاص.

[←16]

هي عاصمة محافظة سيواس وتقع في وسط .تركيا

[←17]

شطيرة من أمعاء الغنم المطهو والتوابل.

[←18]

الكريف صفة تطلق على الشخص الذي يتكفل بمصاريف حفلة طهور شخص آخر أو ابنه أو أخيه، وهي عادة متداولة بين الكورد والأتراك وسواهم.

[←19]

يونس إيمريه شاعر ومتصوف تركي توفي نحو العام .1321